UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190411

UNIVERSAL
LIBRARY

OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No. ٩٠١ ع ك ط Accession No.

Author طه باقر

Title ١٩٥٥ مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ج ١ تاريخ العراق القديم

This book should be returned on or before the date last marked below.

مقدمة الطبعة الاولى

لعل احسن ما ابدأ به في تقديم هذا الكتاب الى ابناء العربية ان اذكر بوجه خاص ما كتب اعانه والبا الحاضر في التأريخ القديم في دار المعلمين العالية منذ عام ١٩٤١ من صعوبة ومشقة من ناحية المراجع التي يمكن احضارها ليعتمد عليها الطلاب في دروسهم . فالمعروف ان المعلمين بموضوع الحضارات القديمة انه لا يوجد حتى في اللغات الاجنبية ، بله اللغة العربية ، مرجع يوفر فيه ان يكون كتابا مدرسيا مجموعا على احدث ما استجد من البحوث في حضارات الشرق القديم . نعم هناك بحوث وتقارير علمية لا تحصى عن نتائج التنقيب والدراسات الآثارية وهذه كتب مسوغة لا يمكن ايجابها لتكون مراجع للدارسين المبتدئين لانها عدا كونها وصفية لدوى الاختصاص فانها تقتصر على ناحية خاصة كان تتناول تأريخ حقبة معينة كعصور ما قبل التأريخ او عصر الحضارة السومرية او أدوار خاصة في العهود التأريخية او انها كتب مركزة الاختصاص تبحث في بعض العلوم والمعارف التي وصلت الينا الحضارات القديمة . واذا علمنا ان هذا هو الحال في تأريخ كل موطن من مواطن الحضارات القديمة ادركنا بعد وجود كتاب واحد او عدة كتب مبسطة تجمع بين دفتيها تأريخ الحضارات القديمة . على اننا لا ننكر وجود بعض الكتب المدرسية من هذا الصنف مثل كتاب «برستد» في تأريخ العصور القديمة ، ولكن مثل هذه الكتب يعتريها أمران خطيران يجعلان استعمالها من جانب الطلاب أمرا فيه كثير من الضرر والخطر ، فأولا انها كتب قديمة التأليف مضى على تأليفها سنون كثيرة استجدت من بعدها اكتشافات خطيرة غيرت كثيرا من الحقائق والقت ضوءا كاشفا على بعض

الحضارات الشرقية وأسسها وعلومها ومعارفها[1] ، وبالتالي مع قدم تأليفها فانها وضعت للطلاب العربية في اوربة وامريكة ولذلك اسهمت في تأريخ الحضارة اليونانية والرومانية اما حضارات الشرق القديم فقد جعلت فيها كأنها مقدمة لفهم الحضارة اليونانية الرومانية ، في حين ان الحال يجب ان يكون معكوسا بالنسبة الى طلاب الشرق العربي حيث سعى الى التأكيد على الحضارات الاصلية الكبرى التي قامت في وادي الرافدين ووادي النيل وربط ذلك بدرس الحضارة العربية الاسلامية وابحار بتاريخ اليونان والرومان ليكون مقدمة لدرس تاريخ الحضارة ودرس التاريخ الاوربي . وهذه هي الخطة التي اتبعتها في هذا الكتاب .

فوجدتني ازاء هذه الصعوبات مسيطرا على طبع ، اتبعه على الطلاب من المحاضرات بهيئة كراسات كنت اجمع فيها موجز المسائل المهمة في تأريخ الحضارات القديمة ، فأجدت هذه الكراسات تنمو وتتسع كلما اعدت طبعها لطلاب الدورات التعليمية الاولى حتى وازنت فيها ما يستجد من البحوث والاكتشافات ، ولكن صعوبة الطبع بسبب انها تحول دون اكمال جميع المادة التي تعلمها على الطلاب تعرضت على ما جمعته وجمع لدي الى دار المعلمين العالية فوافق مجلس ادارتها على طبعها بهيئة كتاب ، والفضل في تحقيق ذلك يعود الى دار المعلمين العالية ، اساتذتها وجميع موظفيها ، ويسعني لي هنا ان اخص بالشكر الاستاذ عبدالحميد عظم عميد الدار

---

(١) مع ان هذا القول يصدق على اكثر النواحي المختلفة من الحضارات القديمة الا انه ينطبق بوجه خاص على اصول هذه الحضارات وبداياتها في عصور ما قبل التاريخ ، وفي علومها ومعارفها . والدليل على ذلك يتمثل اذا لم نكن نعرف قبل ١٩٣٠ سنة بعيد شيئا عن عصور ما قبل التاريخ المهمة في **حضارات وادي الرافدين** . وكان ما نعرفه عن العلوم الرياضية قبل عام **١٩٢٩ أمورا** تافهة . ولكن ما كشف عن هذه العلوم منذ هذا التاريخ **قد قلب الحقائق في** تاريخ المعارف البشرية راسا على عقب (راجع بوجه **خاص عصور ما قبل التأريخ والفصل الخاص بالعلوم الرياضية في حضارات** العراق في القسم الاول من هذا الكتاب) .

والدكتور حامد عمر وكل العمد والدكتور زكي صالح رئيس قسم العلوم الاجتماعية للمساعدة القيمة التي اولوني بها في تحقيق طبع الكتاب .

وها اني سعيد ان اقدم هذه الجهود المتواضعة وهي ثمرة دراسة الموضوع والتخصص به واشتغالي بالتحريات الاثارية في مديرية الآثار العراقية مدة اربعة عشر عاما وتدريس الموضوع زهاء ثماني سنين ، فأرجو ان يكون هذا العمل المتواضع خاطرا تعزى للاصلاح في مثل هذه الحقول التي تفتقر اليها المكتبة العربية افتقارا شديدا . وارجو ان لا يخلو مني ذلك المجهول الاعذار فاني شاعر بما قد يجده المخصوص من عيوب ونقائص واخص بالذكر منها ما نشأ عن وسائل الطبع المتوفرة في بلادنا . ثم ان كون الكتاب كتابا مدرسيا بالدرجة الاولى حال دون تحمله بالنصوص والمراجع والوثائق في الهوامش بل اكتفى بوضع ثبت مختار بالمراجع التي يستطيع ان يرجع اليها الطلاب والا ساندة عن التخصص ، ولما أسف ان ادرج في هذا الثبت الوثائق العلمية التي لا تحصى مما كتب من البحوث الاختصاصية لان مجرد ذكر عناوين هذه البحوث ومراجعها يؤلف رسالة كتابا خاصا . والى هذا كله فقد لا يتدرع الكتاب مناسبا في حجم مادته لو انحصرت القسم الاول منه بتاريخ العراق والاوجه المختلفة من حضاراته اوجزت في القسم الثاني حضارة وادي النيل وموجز تاريخ امم اخرى كالفرس واليونان والرومان ، اما ما كتب عن ما يتعلق في اقامة حضارات وادي الرافدين في التاريخ البشري فحسبي لو لان حجم الكتاب وضع للطلاب العراقيين حسب التأكيد على الحضارات التي قامت في وادي الرافدين بوجه خاص والاقتصار في الحضارات الاخرى على الالمام والاختصار . ثم ان عدم توفر الصور الموضحة وبقصان الطبع حال دون توضيح القسم الثاني بالصور باستثناء بعض الصور والخرائط . والواقع ان الكتاب بأحجمه ما هو الا مقدمة لمن يروم التخصص في الحضارات القديمة وان بدا للبعض ضخما مفصلا ولكني لا اظهر كذلك اذا تذكرنا انه محاولة للالمام بتاريخ القسم

الاعظم من قصة الانسان على هذه الارض منذ ان صار انسانا الى مطلع العصور الحديثة التي لا تؤلف من « عمر الانسان الا بضع دقائق بالنسبة الى ساعتين وهي عمر الحضارة البشرية ، بالنسبة الى شهر واحد وهو عمر الانسان منذ ان وجد على الارض»[1] .

والمجال ارحب ان اكون قد سددت فراغا في المكتبة العربية وخففت حاجة ماسة لا يشعر بها الا من مارس تدريس هذا الموضوع . ومن الله التوفيق .

بغداد ١٩٥١ طه باقر

---

(١) أنظر مقدمة القسم الاول من هذا الجزء من الكتاب .

مقدمة الطبعة الثانية

مقدمة

اعد معى على الطبعة الاولى نحو خمس ... ات وبعد نفاد النسخ التى ... ت منها دعت الحاجه الى اعادة طبعه من ... كليه دار المعلمين العاليه ، وها انى يسرنى ان اقدم الكتاب مرة اخرى الى القراء وليس لدى ما اضيفه الى ما ذكرته فى مقدمه الطبعه الاولى سوى انى معتقد جد الاعتقاد لما لمسته من الاقبال الشديد والطلب المتزايد على الكتاب فى العراق وفى خارج العراق ، فانتهزت فرصه اعادة طبعه وبذلت ما وسعنى من الجهد على تنقيحه واضافه مواد جديده اساسية الى فصوله المختلفة واعادة النظر فى بعض ما جاء فيه على ضوء التحريات والاكتشافات التى تمت فى عالم البحوث الآثاريه ، كما انى تلافيت بوجه اساسى النقائص الموجوده فى الجزء الثانى فى اتمام النواحى المهمه من حضارات الشرق القديم الاخرى وبوجه خاص حضاره وادى النيل ، وافردت بحثا خاصا بعنوان تاريخ بلاد الشام القديم ، وعملت جهدى على ذكر المراجع الاصلية فى المسائل المهمه فى متن الكتاب بالاضافه الى تخصيص اسماء المراجع الاساسيه فى آخر كل جزء بحسب فصول الكتاب المختلفه ، واضفت ايضا الى الكتاب بكلا جزئيه صورا موضحه اخرى على قدر ما استطعت ، واكرر ما ذكرته فى مقدمه الطبعه الاولى عن عدم تناسب الكتاب فى حجمه من ناحيه تخصيص جزء كامل لحضارات وادى الرافدين فى حين انى خصصت الجزء الثانى للكلام على اكثر من حضاره واحده ، فالى الاسباب التى بينتها من اهميه حضارات وادى الرافدين فى التأريخ البشرى وكون الكتاب وضع خصيصا للطلاب فى العراق ، فان فى الجزء الاول مواد عامة لا تخص تأريخ العراق وحده وانما هى بحوث عامة فى الحضارات البشريه القديمة كمقدمة فى موضوع التأريخ والكلام على

عصور ما قبل التأريخ وما ذكرته فيه من مقالات عن أدوار تاريخ العراق القديم وبين ما يضاهيها من الأطوار الحضارية في تاريخ الشرق الأدنى .

وبالختام أود أن أسجل تقديري وشكري لهيئة دار المعلمين في بمكيس من اعداد طبع الكتاب وأخص بالشكر عميد دار المعلمين العالمة الأستاذ الدكتور خالد الهاشمي وقد سدد العلوم الاجتماعية الأستاذة البتة زكي صالح .

بغداد ١٩٥٥ طه باقر

فهرست القسم الاول

القســـم الاول

صفحة

مقدمة الطبعة الاولى .. .. أ ـ د
مقدمه الطبعه الثانيـــه .. .. و ـ ز
الفصل الاول : مقدمه فى التأريخ والتاريخ القديم .. ١ ـ ٢٨
الفصل الثانى : أقدم عصور ما قبل التأريخ .. .. ٢٩ ـ ٤٧
الفصل الثالث : فجر الحضاره أو عصور ما قبل السلالات .. ٤٨ ـ ٥٦
الفصل الرابع : أقدم القرى من فجر الحضاره فى العراق .. ٥٧ ـ ٧٤
الفصل الخامس : الحضاره السومريه وعصور فجر السلالات ٧٥ ـ ٩٧
الفصل السادس : دول المدن السومريه وأولى انظمه للحكم ٩٨ ـ ١١٤
الفصل السابع ســـومر وأكد ١١٥ـ١٣٨
الفصل الثامن : العهد البابلى القـديم ١٣٩ـ١٦٢
الفصل التاسع : الاشوريون ـ موطن الآشوريين وبدء تكوينهم السيـــاسى ١٦٣ـ١٧٩
الفصل العاشر : العهد الاشورى الحديث والامبراطورية الاولى ١٨٠ـ٢٠٢
الفصل الحادى عشر : الامبراطوريه الكلدانيه والعهـــد البابلى الاخـير ٢٠٣ـ٢١٩

القســـم الثـانى

بعض الاوجه المختلفة من حضارة وادى الرافدين

الفصل الثانى عشر : الديانه ٢٢٣ـ٢٥٥
الفصل الثالث عشر : طرف من العادات والشعائر الدينية .. ٢٥٦ـ٢٧٩
الفصل الرابع عشر : الشرائع والقوانين ٢٨٠ـ٣٠٦

صفحة

الفصل الخامس عشر : المعارف اللغوية والتاريخية والجغرافية	٣٠٧–٣٢٩
الفصل السادس عشر : العلوم الرياضية والطبيعية	٣٣٠–٣٧٤
الفصل السابع عشر . الدولة والمجتمع	٣٧٥–٤١٢
الفصل الثامن عشر . الحياة الاقتصادية	٤١٣–٤٤٢
الفصل التاسع عشر . الفنون . (١) الآداب	٤٤٣–٤٧٦
(٢) الفن	٤٧٦–٥١٢
مراجع مختارة	٥١٣–٥٢٩

الفصل الاول

مقدمة في التاريخ والتاريخ القديم

١ ـ علم التاريخ ومنهجه

نحس بما ونحن نبحث في الحضارات القديمة والتاريخ القديم أن نعرف الى أي صنف من أصناف المعرفة يرجع موضوع التاريخ • وقد كان هذا الامر فيما سبق فصله خلاف بين العلمـــاء • ولكن الذي عليه غالب الباحثين الآن ، ان التاريخ ، استنادا الى مفهوم العلم[1] ، علم من العلوم • بيد أنه ليس من صنف العلوم التي تعتمد على الملاحظة المباشرة كالفلك أو على التجربة والمختبر كأكثر العلوم الطبيعية ، وانمـا هو علـم بحث ونظر • فهو أقرب ما يكون الى «الجيولوجيا» فكما ان الجيولوجي يبحث في أحوال الارض ليعرف تاريخها وكيف وصلت الى ما هي عليه الآن ، كذلك يبحث المؤرخ في حياة الماضي وآثاره ليتعرف منها على معرفـة الحـاضر • فالتاريخ مثل العلوم الاخرى له غرض وموضوع • وموضوعه البحث في

(١) من التعاريف المتفق عليها للعلم انه «معرفة منظمة او مجموعة من الحقائق يمكن الوصول اليها بالبحث والتحري والنقد والتحقيق» والواقع ان الاصل في كلمة التاريخ في اللغات الاوربية (History) يعني في اصل ما وضعت له باليونانية كما استعملها هيرودوتس لاول مرة «بحث وتحقيق» ان معرفة تحصل عليها بالبحث والتحري» ولكن استعملت هذه الكلمة كذلك في معان أخرى منها سير الحوادث الماضية وتستعمل أحيانا بمعنى طريقة تدوين تلك الحوادث • وتستعمل كلمة تاريخ كذلك بمعنى زمن وقوع الحوادث • ومن الجدير ذكره بهذا الصدد ان العلامة ابن خلدون أول باحث أشار الى ان التاريخ بحث ونظر وتقد (أنظر المقدمة لمقدمته)

أعمال البشر التى وقعت فى الماضى • أو هو درس المجتمعات البشرية فى المكان والزمان •

واذا كان التاريخ علما فسعى أن يكون له مثل العلوم الاخرى منهج أو طريقة للبحث (Method) [١] يستطيع بها الوصول الى مادته وحقائقه • ولكى نعرف شيئا عن منهج التاريخ نصفه علما يؤكد ما أشرنا اليه من اختلافه عن بعض العلوم الاخرى ولا سيما العلوم الطبيعية أو العلوم المضبوطة من حيث انه لا يعتمد على التجربة لانها مستحيلة فى التاريخ ، ولا يستفيد من الملاحظة المباشرة ولا من الدليل العقلى المجرد كما فى الرياضيات بل انه يبحث فيما خلفه الانسان لمعرفة حاضر الانسان • وان مصادره ومادته الاولى بوجه العموم جميع • خلفه البشر مما يمكن الاستفادة منها كالوثائق والسجلات والآثار المادية مما يعين على فهم حضارات الامم وتقاليدها وأديانها ولغاتها وتفكيرها وغير ذلك من مقومات تلك الحضارات ويعتبره موجزة معرفة البشرية والنفس البشرية ، ولكن ليس النفس الفردية أو الشخصية التى هى موضوع علم النفس بل النفسية البشرية وامكاناتها وحدودها ، وماذا استطاع الانسان ان يفعل وما يستحيل ما هو الانسان •

واذا كان منهج البحث العلمى الذى أوجده الباحثون فى العصور الحديثة قد أكسب التاريخ أهليه لكون علما الا انه لا يزال أمام المعترضين على كون التاريخ علما مجال للاعتراض بان التاريخ لا يستطيع أن يجارى العلوم المضبوطة (Exact Sciences) فى قدرتها على استنباط القوانين والنواميس من درس العلاقات بين الاشياء ومقارنتها ، بحيث تستطيع أن تتنبأ بها عن المستقبل تحت شروط وأحوال معينة • أما مسألة التنبؤ (Prediction) فلا نقتصر على كونها غير ممكنة فى التاريخ بل انها خارج اختصاص بحثه ، لان دائرة البحث الخاصة بالمؤرخ كما قلنا حوادث البشر وتجاربهم فى الماضى • وقد يحاول المؤرخ استنادا الى خبرته التاريخية أن يقيس عليها

(١) ويسمى منهج التاريخ بالالمانية (Die Historik) وبالانجليزية (Methodology) أو (Historical Method)

فحدس ما يقع فى المستقبل ولكنه حتى لو صدق فى حدسه الا ان محاولته هذه تسعى أن لا يكون تصنيفه مؤرخا بحسب مفهوم موضوع التأريخ • أما عن وجود القوانين فى التأريخ فيحسب عنه الباحثون المحدثون بان التاريخ تصنيف علمى من العلوم الاجتماعية يحاول جاهدا أن يكتشف القوانين والقواعد الكلية لتفسير حوادث التأريخ ، ولكن لما تتمتع هذه القواعد مرتبة قوانين العلوم الطبيعية من الدقة والاطراد ، دلالة كان قانون العلة أو السببية (Law of Causality) فى حوادث التأريخ مساو فى التعقيد • فان الحادثة الاجتماعية مهما تمتعت من البساطة انما تقع تحت سلسلة متشابكة من العلل تختلف الوقائع الطبيعية التى يبحث فيها علماء الطبيعة حيث يكون واحدهم فى درسها والعلاقات فيما بينها أمرا يسيرا لو قيس بواحد المؤرخ الذى يكون موضوعه ليس اشياء جامدة بل أفعالا صادرة من فاعلين يتصفون بالفكر والقصد والخواطر المعقدة • ولكن مع ذلك فمعظم حوادث التأريخ وأسبابها ليست فوضى أو حوادث فردية لا ضابط لها ، وانما تنشأ من معيشة الانسان فى مجتمعات أو أنظمة اجتماعية تسيطر على أفعالها قواعد الضرورة الاجتماعية والنواميس الاجتماعية العامة ، والا لما أمكن وجود ما يسمى بعلم الاجتماع أو العمران الذى يدرس المؤسسات والانظمة الاجتماعية دراسة مقارنة ، ويستخرج لها القواعد الكلية التى يستفيد منها المؤرخ •

ثم اننا لعلى أمل وطيد من ان هذا النوع البشرى الذى يسمى «بالانسان العاقل» سيسير أهليته لهذا اللقب فيجد فى البحث عن نفسه والكشف عن أسرار المجتمعات البشرية بالدرس العلمى المقارن • وعندئذ فسيوطد قوانين التأريخ والعمران البشرى على وجه ليس كما يتطرف البعض فى تفسير حوادث التأريخ وليس كما يرتأى البعض الآخر من انكار لامكان استخراج القوانين فى التأريخ •

وبحسب المصادر التى يعتمد عليها التأريخ فى جمع مادته تكون أولى خطوه منطقية فى منهج البحث التأريخى هى جمع المصادر والاصول المتعلقة

بحثه • ويصح أن نطلق على هذه الخطوة اسم «جمع الاصول» [١] ومع أن هذه خطوة من خطوات المؤرخ غير انها المرحلة الاساسية اذ ، كما قيل ، «لا تاريخ بلا وثائق» • فاذا جمع المؤرخ ما يستطيع جمعه من مصادر بحثه وأصول مادته وكان على معرفة تامة بمادته وخبيرا بمصادره كخطوط الوثائق واللغات المكتوبة بها أو أطوارها وأوصافها ان كانت من الآثار القديمة وبالاستعانة بالعلوم الموصلة [٢] ، فانه يبدأ بخطوة ثانية من بحثه وهي مرحلة النقد [٣] ، أي نقد ما جمعه في الخطوة الاولى وتمحيص المصادر والوثائق التي جمعها وتحقيقها لمعرفة اصالتها وصحتها من خلطها وتزويرها ومعرفة مؤلفها وزمان كتابتها ومكتبها ، ثم تحري مدى ما حوت فيها من معلومات ومطابقته الى الحقيقة والواقع ، فان كانت من الوثائق المدونة ، كالكتب ، فلابد معرفة تاريخها ومؤلفها ومنابع مادته واوهاده • وقد يلزم تصحيح من الوثائق التاريخية واصلاح خطئها المعنوي وتكميل ما نقص منها • وذلك بمساعدة الاصول المختلفة لهذه الوثائق • وعلى ذلك تمحيص هذه الوثائق بتحليل الحقائق الواردة فيها وبرسم موضوعاتها وتصنيف حوادثها •

---

(١) وتدعى بالالمانية (Die Heuristik)

(٢) العلوم الموصلة او المساعدة وتسمى (Auxiliary Sciences) مجموعة من الطرق العلمية الفنية (Techniques) يستعين به الباحث التاريخي في فهم مصادره وتقدير قيمتها تمهيدا لنقدها واشهر هذه الطرق علم الخطوط القديمة على الورق وما شابهه (Palaeography) كاشكال الخطوط المختلفة قبل اختراع الطباعة وانواع الورق والحبر • والكتابة على الحجر والطين وما شاكل ذلك (Epigraphy) ومعرفة اللغات والتقويم (Chronology) ومن العلوم الموصلة علم النقود او السكة (Numismatics) وعلم الاختام والطبعات (Sphragistics) • وهناك علوم عامة تعتبر مساعدة للباحث التاريخي من حيث ثقافته العامة وسعة اطلاعه نذكر من ذلك علم الآثار (Archaeology) وعلم الانسان (Anthropology) وعلم الاقتصاد والجغرافية والاجتماع •

(انظر Langlois and Seignbos, **Introduction to the Study of History**, English Trans 1912)

Vincent, **Historical Research** (1929)

(٣) Criticism ، Die Kritik

وبالاحمال لا تعدو المصادر المكتوبه أن تكون مثل شهاده الغير • ولذلك وجب على المؤرخ الباحث تمحيص هذه الشهاده وعدم قبولها على علاتها • وبما ان الحوادث التاريخيه وقائع حقيقيه والحقيقه واحده لا تتعدد فلا بد أن يصل الباحث ، هو نفسه او من ينوب عنه ، الى تلك الحقيقه أو ما يقاربها على الاقل • وحل اعتماده في ذلك سبيل التحليل وتقصي الحوادث وموازنتها ومضاهاتها ، ووجه الاحمال يمكن تحليل عمليه النقد ، التي هي عماد البحث التاريخي ، الى مرحلتين كثيرا ما تكونان متداخلتين ، وهما مرحلة النقد الخارجي (External criticism) ويدور على البحث في المصادر للتأكد من اصالتها وصحتها ومعرفه مؤلفها وزمانه ومكانه ، فليس كل الوثائق التاريخيه صحيحه بل كثيرا ما يتطرق الشك الى صحتها واصالتها ومنشأ ذلك قد يكون التزوير المتعمد أو الاخطاء والاوهام الناشئه من القله والنسيان وكذلك من تعداد الحيره والمعارضه التاريخيه ومن السرعه والسطحيه ، كما ان كثيرا من الوثائق يكون محرروه غير معلوم مؤلفها أو زمان تأليفها فتسمى بطرق النقد الخارجي لتعيين المؤلف وزمانه ومكانه[1] •

أما المرحله الثانيه من النقد فتسمى النقد الباطني أو الداخلي (Internal criticism) ومدار هذا النقد على وزن علاقه الوثيقه او الدلاله التاريخيه التي تحملها بالحقيقه وواقع الحال ، وقد قسم هذه المرحله ايضا الى شطرين تسمى أحدهما وأولهما بالنقد الباطني الايجابي والثاني النقد الباطني السالب ، والاول يتعلق بفهم نصوص الوثائق أي فهم لغتها وأساسها وادراك أغراض المؤلف وآرائه ثم ينتقل الى الشطر الثاني من النقد وهو اثبات صحه المعلومات الواردة في تلك الوثائق أي تجريح المؤلف أو تعديله

(١) ويذكر من طرق تعيين زمن الوثيقه على سبيل المثال طريقه تعيين الحد الادنى والاعلى في زمن الوثيقه بالنظر في الحوادث المذكوره في الوثيقه • فالحد الاعلى هو الزمن الذي لا يمكن ان تكون الوثيقه قد كتبت قبله (Terminus Post Quem) والحد الثاني (Terminus ante quem) اي الزمن الذي لا يمكن أن تكون الوثيقه قد كتبت بعده • ومن ذلك تحصل من تحديد الحدين على تاريخ تقريبي للوثيقه المجهول زمن تأليفها •

(الجرح والتعديل) من حيث صدقه وكذبه او ابداعه وأوهامه وتحليل الظروف والاحوال التي كتب فيها الوثيقه • والنقد الباطني بكلا نوعيه يسمى المصطلح اليوناني (Hermeneutic) ومعناه النقد التفسيري أي التفسير والتحليل •

فاذا ما تم تحقيق الوثائق وتقدها بـ ا ايجابيا وسالبا (التعديل والجرح) فان الباحث يخطو الخطوه الثالثه من خطوات البحث التاريخي ومدار هذه المرحلة على التأليف بين الحقائق وتركيبها • وتؤلف طرق التركيب والتأليف (Historical Construction) [1] ، وتكون طرق التركيب والتأليف شطرا مهما من منهج البحث التاريخي ، فان عمليات النقد التي أوجزناها لا تتيح لنا الا حقائق متفرقه منفصله بعضها عن بعض ، فلكي نؤلف من هذه الحقائق المنفصله المتفرقه مجموعه كاملة متفهومه من العلم والمعرفه فلزم على المؤرخ أن يقوم بجهود أخرى لتركيب هذه الحقائق المنفصله والتأليف فيما بينها بتصنيف الحقائق والمعلومات الوارده في الوثائق الى أصناف وموضوعات متجانسه •

والذي يمكن قوله بوجه عام بصدد قواعد التأليف التاريخي انه لا يمكن وضع خطه مثلى (ideal) على غرار مناهج العلوم المضبوطه التي نأمل أن تكون التاريخ مثلها ، بل ان خطه عملنا تتوقف الى حد كبير على المادة التاريخيه التي نتوفر لدينا بعد جمع المصادر ونقدها • ولكي نفهم حدود خطة التأليف التاريخي يلزم علينا أن نأخذ بنظر الاعتبار طبيعه الحقائق التاريخيه المستخرجه من الوثائق ، وطريقه استخراجها فحسب منهج البحث الذي أوجزناه باستخراج الحقائق التاريخيه بتحليل الوثائق تحليلا نقديا (Critical analysis of documents) فتخرج لنا هذه الحقائق بعد عمليه النقد وهي متفرقه متناثره ولكنها تهيئه معلومات مجزأة

(١) وتسمى ايضا (Synthetic Operations)

فردية لا تجمعها نظام أو تأليف ما • فقد تؤدى طرق البحث التاريخى الى تجزئة الجملة الواحدة من الوثيقة الى أجزاء ترفض بعضها وتقبل البعض الآخر • كما ان الوثيقة الواحدة ، ولو كانت صغيرة ، أو ان نصا تاريخيا واحدا ، قد تزودنا بمعلومات متنوعة ومختلفة • فتكون الحقائق التاريخية المستخرجة من الوثائق خليطة مركبة ، وهذا احد الامور التى تميز التاريخ من العلوم الاخرى ، فمثلا ان العلوم التى تعتمد على الملاحظة المباشرة (direct observation) تجمع الحقائق التى تدرسها وتحصر همها فى البحث المنظم فى حقائق متجانسة • أما العلوم المعتمدة على النصوص والوثائق (documentary sciences) ، والتاريخ واحد منها ، فانها تأخذ حقائقها وقد تكون مشاهدتها وملاحظتها عن طريق آخر غير طريقها ، أى عن طريق مؤلفى الوثائق • فمن الضرورى تصنيف هذه الحقائق وتصنيفها تبعا لأصناف وأنواع مختلفة حسب المواضيع التى تعالجها المؤرخ وتبعا للقضايا والمسائل التى تبحث المؤرخ عن حلولها •

ولعل أقرب العلوم التى يمكن للتاريخ أن يسير على خطا منهجها من ناحية جمع الحقائق وتصنيفها هو علم الحيوان الوصفى (Descriptive Zoology) الذى يبدأ بحثه بملاحظة الحيوان بكامله بالمشاهدة المباشرة ثم شرح هذا الحيوان الى أجزائه المختلفة • والتحليل هنا يقابل التحليل فى طريقة التاريخ (أى Analysis) ثم يعمد الى جمع الاجزاء المشرحة وتركيبها تبعا لتكون الكل الاصلى وهذا هو التركيب التجميعى (Synthesis) ، ويتوسع علم الحيوان ايضا فى مرحلة ثالثة أن يقارن هذا الشكل الذى كونه بعد التشريح مع أفراد أخرى من نوعه فيدرس أوجه التشابه والاختلاف فيما بينها وتصنيفها • فتكون خطوات علم الحيوان فى استخراجه للحقائق . (١) الملاحظة والتحليل • (٢) التركيب • (٣) المقارنة والتصنيف وتوسع التاريخ أن يسير تبعا لهذا المنهج الى حد ما على الوجه الآتى

بوسعنا أن نوجز تصميم التأليف أو التركيب التأريخي بحمله مراحل تركيبه (Synthetic)

أ ـ تحليل الحقائق وتصورها في العقل :ـ بتجهيزنا بتحليل الوثائق النقدي بالمادة اللازمة لبناء التاريخي • وهذه المادة عبارة عن حقائق تاريخية مفصلة وهي معرفة ومعرفة مفصلة عن بعض • وبما ان المؤرخ ، بخلاف عالم الحيوان ، لا يرى شيئا ملموسا سوى «الورق المكتوب» ، وفي بعض الاحايين الآثار القائمة ونتاج الفنون والصناعة ، فيعمد المؤرخ لادراك هذه الحوادث التي مضت الى تخيلها مفترضا انها تشبه حقائق العناصر بوجه عام ، محاولا تكوين صورة عقلية تشبه بقدر الامكان الحوادث الماضية التي استخرجها من الوثائق •

ب ـ جمع الحقائق وتعميمها . وبعد أن يحيل الحقائق ويكون عنها في أذهاننا صورا عقلية يجمع قسما منها ويصنفها بموجب خطة بصنفها بحسب موضوع بحثنا • ويعمد أيضا في هذه المرحلة من التأليف التأريخي الى تقسيم الحقائق الى مجاميع وأجزاء متشابهة بحسب مواضيعها •

جـ ـ الاجتهاد (Reasoning) أو الاستنتاج التأريخي بطريق الاجتهاد ، فان الباحث كثيرا ما يجد انه بالرغم عما جمعه من الحقائق فانه لا يزال يجد امامه فجوات عن وقائع التي لم يستطع الحقائق التي جمعها ان تزوده بها بصورة مباشرة ، فعليه في مثل هذه الحال أن يحاول ملأ بعض هذه الفجوات عن طريق الاجتهاد العقلي أو المنطقي بالاستناد الى الحقائق التأريخية المعروفة لديه •

د ـ مرحلة الاستنتاج واستخراج القواعد العامة •

تساعدنا المراحل الثلاث السابقة على استخراج مجموعة من الحقائق أو المعرفة المصنفة بموجب خطة منظمة من التصنيف • فعلى الباحث أن يركز هذه الحقائق المصنفة ويعبر عنها بقواعد أو دساتير (Formulae) لاستنتاج خصائصها ومبرراتها العامة وعلاقاتها بعضها ببعض ، وخلاصة هذه المرحلة انها تؤدينا الى الاستنتاجات النهائية ، ويجعل من بحثنا التأريخي بحثا

علما • ويدخل فى هـذه المرحله من مراحل التركيب التاريخى أو يأتى بعدها تفسير الحوادث التاريخيه أى تعليل الحوادث التاريخيه والبحث عن أسباب وقوعها • ويجدر بنا أن نشير هنا الى أن منشأ الاختلاف بين المؤرخين وتشعب المذاهب المختلفه فى تفسير التاريخ مرده الى اختلاف وجهات النظر بين الباحثين فى هذه المرحله من مناهج البحث التاريخى •

وبعد أن ينتهى الباحث جمع المراحل التى لخصناها فيما سبق يبدأ فى المرحله النهائيه من مراحل بحثه وهى مرحلة التأليف والتدوين أى تبويب مادته وعرضها عرضا تاما صحيحا منساقا[1] • ولان هذه المرحلة الاخيرة

---

(١) تسمى فى التدوين التاريخى بـ (Historiography) وطرق التدوين السائغه عند المؤرخين محصوره فى ثلاثه أساليب ـ أولها نظام الحوليات (annals) وهى أشبه ما تكون بما كان عند البابليين وكذلك المصريين القدماء • واستعملها مؤرخو العصور الوسطى فى أوربه وهى ذكر الحوادث المعاصره عاما بعد عام وكانت فى أول أمرها تافهه لا تعدو مجرد مذكرات لتقييد الحوادث المعاصره تدون بهمته تعليقات على الهوامش الدينيه الخاصه بالاعياد • وأغلب هذه الحوادث لا تعدو الحوادث الدينيه كالحوارق ، وحدوث الزلازل الى غير ذلك ، ولكن ترقت الحوليات فى أواخر العصور الوسطى وأصبحت سجلات سنويه مهمه • ومما لا شك فيه ان المحسن الذى طرأ على هذه الطريقه من التدوين كان بتأثير مؤرخى العرب • والطريقه الثانيه هى التاريخ التى يصطلح عليها اسم (Chronicles) وهى أرقى من سابقتها اذ أنها تدور على عرض الحوادث عرضا تاما وأوفى مما فى الحوليات بعد أنها احتفظت بالترتيب المتبع فى الحوليات أى ترتيب الحوادث وعرضها على السنين وتبدأ بها عاده منذ الخليقه حتى وقت الكتابه وقد تأثرت أوربه بمؤرخى العرب المسلمين فعرفى عندها هذا الفن من التأليف التاريخى • ويعتبر ان أول من بدأ هذا النمط فى عرض ماده التاريخ الهجرى بن عدى المتوفى عام ٢٠٧ للهجره ثم جرى عليها الطبرى وابن مسكويه وابن الاثير وابو الفدا • أما الطريقه الثالثه وهى التى عليها معظم المؤرخين الآن فهى عرض الحوادث وسوقها مساقا متصلا مرتبه على العهود التاريخيه دون السنين • وقد جرى على هذه الطريقه من مؤرخى العرب المقريزى والدينورى والمسعودى وابن خلدون وغيرهم وانتهى أمر التأريخ عند العرب بأن أوصله المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون الى مرتبه العلم والى مفهومه فى الوقت الحاضر فهو بذلك كما لقبه بعض العلماء «بعد واضع علم التأريخ» أنظر •

1 Flint, **History of the Philosophy of History** (1893) pp 157-171

تعتمد على الادب والفن كثيرا عند الناس التأريخ فما أو فرعا من فروع الأدب ولسنا نحاجه الى التأكيد على خطل هذا الرأى لان الادب فى الواقع انما اتخذ وسيلة للعرض والتدوين التأريخى وانه حتى فى هذه المرحلة التى يدخل فيها الادب نجد على مؤلف التأريخ أن يستعين بالاسلوب المنطقى فى طريقة عرض مادته • ولعل خير ما يقال بهذا الصدد «ان أحسن تأريخ يكتب للناس هو ذلك التأريخ الذى اعتمد على الطرق العلميه من البحث التأريخى فى جمع مادته وعلى الادب والفن فى عرض تلك المادة» •

ومن الملاحظات المهمه التى يجدر بكم أن تعرفوها عن التأريخ ومنهجه، وقد سبق التنويه بها ، ان التأريخ يشارك العلوم الاخرى بوجه عام •فالعلوم كلها تقريبا لا تقتصر فى بحثها على جمع المعلومات التى تصل اليها بالبحث والتحرى وجمعها وتنظيمها بموجب قرار أو شكل خاص وانما تتعدى ذلك الى الكشف عن الشيء المجهول • أى الانتهاء الى تحليلها • والتأريخ من هذا النوع • واذا كان التأريخ يشارك العلوم الاخرى فى هذا الامر فانه يفترق عنها ولا سيما عن العلوم الطبيعية فى مسألة مهمه • فوظيفه العالم الطبيعى درس حوادث الطبيعة ومظاهرها ، وهذه ليست أعمالا صادره من فاعلين كالحوادث التأريخيه ، يحاول العالم الطبيعى فهم قصدهم وفكرهم على نحو ما يفعل المؤرخ الذى يجهد فى الكشف عن الفكر والقصد من وراء أعمال البشر التى حدثت فيما مضى • وهذا فرق جوهرى بين المؤرخ وبين العالم الطبيعى ، بين التأريخ و بين العلم الطبيعى • وثمة فرق آخر هو ان العالم الطبيعى مع عدم محاولته لفهم القصد والفكر وراء الظواهر الطبيعية التى يدرسها الا انه يدرس علاقات هذه الظواهر بعضها ببعض ويستطيع من بحثه المقارن أن يضع الاشياء التى يبحث فيها فى قانون أو دستور هو القانون العلمى ، أى وجود الفوانين والدساتير فى العلم ولكن التأريخ لم يستطع بعد ان يضع لاعمال البشر قوانين ودساتير مضبوطة مطرده عامه تسير بموجبها • وكل ما استطاع أن يفعل هو محاولات لوضع قواعد عامة لما بلغ درجة

الضبط والدقه والاطراد مما تمتاز به دساتير العلوم المضبوطة كما ذكرنا ذلك من قبل .

٢ ـ التاريخ القديم : فوائده ومصادره

جرى المؤرخون ولا سيما القدماء منهم على تقسيم تاريخ الانسان أى الحوادث والوقائع البشريه منذ أقدم الازمان الى عصور وأطوار أطلقوا على أقدمها الى سقوط روما (٤٧٦ للميلاد) اسم التاريخ القديم ويصح أن نعد الفتح الاسلامى نهاية العصور القديمه فى الشرق الادنى . وهذه أزمان طويله بالغه فى القدم اذ سعى أن تبدأ منذ أقدم وجود الانسان على هذه الارض وبداية معرفه بصنع الآلات السادجه (قبل نحو المليون أو نصف المليون من السنين) وذلك فانه من المفيد لتسهيل العرض والبحث أن نقسم التاريخ القديم نفسه الى أطوار وعصور ، وقد تواضع المؤرخون على تقسيمه الى عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية . أما عصور ما قبل التاريخ فهى الازمان الطويله التى مرت على الانسان قبل أن يهتدى الى اختراع وسيله للتدوين (اى الكتابه) وقبل أن تنشأ الحضارة الراقية فى الشرق الادنى بانتقاله من عهد الفطره والبداوه . ويدعى أقدم أزمان ما قبل التاريخ بالعصور الحجريه التى تقسم بدورها الى العصور الحجرية القديمة والعصور الحجريه الحديثة أو المتأخره وقد استغرقت القديمه منها زهاء الـ ٩٨ ٠/٠ من عمر الانسان على هذه الارض[١] . ويصح أن نعد بداية

(١) توسعنا فى تقدير عمر حضاره الانسان على الوجه الآتى ـ اذا حسبنا (١٢٠٠) مليون سنه لعمر الحياه على الارض (عمر الارض ٢٠٠٠ مليون سنه) وقدرنا زهاء المليون سنه لعمر الانسان ، وعمر حضارته ٣٠٠٠ ق . م . ثم حفظنا المقياس وحسبنا ١٠٠ سنه لعمر الحياه على الارض فيكون عمر الانسان «شهرا واحدا وعمر حضارته نحو ساعتين» .

عن (C E M Joad) فى مقاله له فى الموسوعه Encyclopaedia of Modern Knowledge, Vol I, p 18

وبالوسع تقدير عصور ما قبل التاريخ بنحو ٢٢٥٠٠ جيلا بالنسبه الى =

الالف الثالث ق . م . اولا بعصور التاريخ في الشرق الادنى . أما في بقاع الارض الأخرى فقد بدأت بدايه التاريخ أدوارا أخرى من السنين .

وعلى هذا فان مصطلح عصور ما قبل التاريخ (Prehistory) والعصور التاريخيه تختلف حسب المواضع المختلفه من الارض ، ولكن الذى عليه جمهور الباحثين ان بدايه العصور التاريخيه فى الشرق الادنى كانت فى بدايه الالف الثالث ق . م . ، ويرادف مصطلح العصور التاريخيه هنا عهد الحضاره الزراعيه . وقد تختلف بدايه العصور التاريخيه فى بعض الاقطار عده آلاف من السنين عن بدء الشرق الادنى ، فمثلا تقدر بداية العصور التاريخيه فى اليونان فى حدود ٧٠٠ ق . م . وفى أوربة الشماليه حتى القرن الاول ق . م . ، وطلت شعوب كثيره همجية حتى العصور الحديثه وهى عيش فى أطوار عصور ما قبل التاريخ وبعضها فى عهود الهمجية الاولى أى العصر الحجرى القديم .

وهناك اختلاف بين العراق ومصر فى مبدأ عصور ما قبل التاريخ، فهى العراق ظهرت الكتابه وبدأت الحضاره تأخذ شكلها الواضح قبل بدايه الالف الثالث ق . م . وقبل أن تعرف الكتابه أمور تاريخية مهمة . أما فى مصر فقد ظهرت الكتابه عند حوالى ٣١٠٠ قبل ميلاد المسيح ظهرت دونها حوادث تاريخيه فكون ظهور الكتابه فى مصر مرادفا لمصطلح العصور التاريخيه .

(H. Frankfort, Birth of Civilization in the Near East (1951), P. 32)

مادا يدرس التاريخ ؟

والتاريخ القديم بوجه عام (ما قبل التاريخ والعهد التاريخى منه) قصه تطور الانسان منذ أقدم عهوده . فهو يحدثنا كيف كانت حياة الانسان الاولى عندما كان فى عهد الفطره والوحش . ثم كيف استطاع بعد الوف كثيرة من

= ٢٥٠ جيلا تمثل العصور التاريخيه (نفرض ان معدل الجيل الواحد نحو ٢٠ عاما) .

السبيل أن ننقل من ذلك العهد فيشأ أولى الحضارات الناضجة ولا سيما في وادي الرافدين ووادي النيل ، ونحدثنا كذلك عن الحضارات الاخرى التي أخذت معظمها من هاتين الحضارتين ولا سيما حضارات العراق القديم ، ويدلنا على تراث هذه الحضارات في حضارة الانسان الراهنة .

وخلاصة القول نعيا التأريخ القديم على فهم حاضر الانسان وكيف وصل الى ما هو عليه ويكشف لنا عن الاصول الاساسية لتراث البشرية منذ أقدم العصور وبذلك تكون دراسة التأريخ القديم ضرورة لازمة لفهم التأريخ الحديث وفهم حاضر الانسان وسيتضح لنا من الكلام على حضارات الشرق القديم ان أسس حضارة الانسان الحاضرة تمتد الى تلك الحضارات .

ويوسعنا أن نعرف الى مدارك القوانين التي تحسها البشرية من معرفة ماضيها (أي تاريخها) ، وهذا ان التأريخ بمثابة الذاكرة للحس البشري . أو كما قال «دروسن» «التأريخ (اعرف نفسك) مضافا الى البشرية وهو ذاكرتها وشعورها»[1] فكما ان ماضي الفرد ما يتجاربه واختباراته يؤثر في سيره في حاضره ، كذلك يؤثر ماضي البشرية في حاضرها . واذا لم تكن للبشرية ذاكرة كما للفرد فان التأريخ هو «ذاكرتها وشعورها» .

وعندما كثرت معلومات الباحثين ومعرفتهم بحضارات الشعوب الغابرة بعد ان كشفت التنقيبات الاثرية عن عدد كبير منها ، تمكن هؤلاء الباحثون من ان يعمدوا الى البشرية بفصل هذه المادة الكاثرة من البحث في نشوء الحضارات وعلل نموها وأسباب وقوفها عن النمو وركودها ثم عوامل انحلالها وزوالها . فنشأ فرع من فروع المعرفة على قدر عظيم من الاهمية ، هو فلسفة التأريخ ، أو علم الحضارات والعمران يدرس الحضارات درسا مقارنا وقد تكونت من الباحثين مدارس فكرية مختلفة اخصت كل منها بفلسفة خاصة

(١) انظر An Outline of Modern Knowledge (1932); P 807

أو بنظرية وآراء لتعليل شتى الحضارات والعمران البشرى وحياة ذلك العمران وأحواله . ومن البديهى أن يكون التاريخ القديم المصدر الاساسى، تستمد منه هذه البحوث والدراسات مادتها الاولية . وبوسعنا أن نؤكد القول ان المادة المتكاثرة عن الحضارات البشرية الدارسة قد مكنت فلاسفة التاريخ والباحثين فى العمران من أن يصلوا الى نتائج خطيرة ، وذلك بما أمدتهم هذه المادة الجديدة من كثرة الامثلة للموازنة والمقارنة ، مما جعل هذا الفرع من المعرفة يقوم على أساس جديد من الدقة والشمول ومقاربة الصواب فى الاستنتاج . ومما لا شك فيه ان الفارق بين الاوائل من فلاسفة التاريخ وأولهم المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون ، والمتأخرين منهم يتحصر ، بعض النظر عن التفاوت فى التفاصيل والمدارك ، فى كثرة المادة التى صارت فى متناول أيدى المتأخرين منهم وقلتها عند الاوائل منهم . فعندما بحث المؤرخ العربى ابن خلدون فى سنن العمران لم يكن فى متناول يده غير مادة قليلة ، لان الحضارات التى استعملها مادة لبحثه كانت مقصورة على الحضارة العربية الاسلامية وحضارات أمم أخرى قليلة لم يكن على معرفة تامة بها . ولكن عندما بحث المتأخرون أمثال «شنكلر» و «بوسى» فى الموضوع نفسه كان لديهم قدر كبير من المادة التاريخية لا تصح مقارنتها مع ما كان متوفرا لابن خلدون . فقد استعمل «بوسى» مثلا فى مادة بحثه تواريخ أمم وشعوب كثيرة صنفها الى حضارات أو مجتمعات عددها ست وعشرون حضارة من حضارات البشر وكان الفصل فى معرفة القسم الاعظم من هذه الحضارات يرجع الى السنوات الاخيرة التى بدأها العلماء منذ القرن الماضى أى يرجع الفضل بعضه آخر الى التاريخ القديم .

٣ ـ مصادر التاريخ القديم

مادة التاريخ بوجه عام ، والتاريخ القديم بوجه خاص مستمدة من كل ما خلفه الانسان . وهذا كثير متنوع اذ يشمل جميع آثار الماضى وبقاياه

مما يساعدنا على فهم دالة الماضي لوضوح الحاضر وفهمه • وقبل ان يهتدي الانسان في العراق ومصر الى اختراع الكتابة ، تقتصر مصادرنا على آثار الانسان المادية ، وهي التي خلفها لنا في المواضع التي حل وسكن فيها كأدواته المصنوعة من الحجارة والخشب ، وبيوته وحلاه والنقوش والتصاوير التي نقشها في سقوف الكهوف التي عاش فيها في العصور الحجرية القديمة وكذلك عظامه وعظام الحيوانات التي اصطادها ، وبقايا النبات والمعلومات الجيولوجية مما يتعلق بأحوال المناخ والبيئة التي عاش فيها • وعندما اهتدى الانسان الى استنباط الكتابة أضيف مصدر جديد الى الآثار المادية وهي تلك السجلات والوثائق المدونة كسجلات الملوك والامراء التي خلفها لنا العراقيون والمصريون القدماء وكذلك المعاملات وشؤون الحياة المختلفة التي دونها الناس على ألواح الطين والحجر وورق البردي وعلى الجلود والمعادن • وقد حصلنا من هذه الوثائق بمقادير كثيرة من مختلف العهود • وكثرت المصادر المادية في العصور التأريخية وتنوعت فشملت فن العمارة كالمباني العامة من قصور ومعابد وبيوت وكذلك الآثار الفنية كالمنحوتات والتصوير الى ما هنالك من آثار الفن التي تحدها المتحف في مدن العراق القديمة الغابرة وغيره من اقطار الشرق الادنى •

ولكن لم يستطع الباحثون أن يقفوا على هذه الآثار والبقايا بيسر وسهولة ، كما قد يتبادر الى الذهن ، لان جمعها تقريبا كان مطمورا تحت التراب في باطن التلول والاطلال الكثيرة التي شاهدها الآن ماثلة في جميع أنحاء العراق والتي كانت مدنا اندثرت في الازمان الخوالي ، وفي باطن الكهوف ووديان الانهار في حالة العصور الحجرية القديمة • وقد تطلب استخراج هذه الآثار جهودا مادية وعلمية كبيرة ، وتتطلب فهمها ودرسها جهودا علمية أخرى • وصارت كيفية استخراج الآثار بالطرق العلمية علما خاصا هو النقيب توفر على الاختصاص به جماعة مخصوصة من العلماء •

٤ ـ التنقيبـــات

وادن فالتنقيب هى البحث عن مادة التأريخ الاولى أى عن أصوله ومصادره وهذه هى أولى وجائب المؤرخ الباحث اذ كما قلنا سابقا «لا تأريخ بلا وثائق» • والتنقيبات من الامور الحديثة فى تأريخ الحضارة الراهنة حيث بدأت اول أطوارها منذ منتصف القرن التاسع عشر • والواقع من الامر انا لم نكن لنعرف شيئا يعتد به عن مدنيات العراق القديم ومدنيات الشرق بوجه عام قبل نحو قرن من الزمان ، وكان كل ما نعرفه عنها وأخبارا موجزة ورد بعضها فى الكتب المقدسة ، مثل التوراة وأخبارا يسيرة من بعض مؤرخى الاغريق والرومان أمثال هيرودوتس وريتون وبطلموس ويلنى الرومانيين وغيرهم • وذلك لانه بعد أن تدهورت حضارة العراق القديم فى أواخر أيامها قصد عليها أقوام أخرى كانت تعيش فى أطرافها ودمرت مدنها العامرة واندرس بعضها مثل بابل وغيرها واندثرت مآثرها وكتاباتها وخلاصة القول آلت المدن والمستوطنات القديمة الى الانقاض المحزنة التى شاهدها الآن منتشرة فى جميع أنحاء العراق وتكاد لا تخلو منها بقعة مما يشير الى ادبار العمران واتساعه • وانطمرت معارف القوم ومآثرهم تحت هذه الاطلال ، وعفى عليها وعلى أهلها الزمان فلم يبق منها الا صدى فى ذاكرة الاجيـــال •

وظل الامر كذلك حتى منتصف القرن الماضى (القرن التاسع عشر) حيث ولد منذ ذلك الحين علم التنقيب عن الماضى والتعرف على آثاره ، أى الحفر فى الاطلال القديمة لاستخراج ما فيها من آثار ، هى مادة التأريخ الاولى ولا شك فى ان هذا العلم كان فى بدايته فى طور الطفولة • وقد بدأ التنقيب فى العراق فى العواصم الآشورية القديمة قرب الموصل مثل نمرود وسوى وخرساباد الا انه تعدى مرحلة التنقيب الفعلى طور يصح أن ندعوه بطور الاستكشاف والرحلات تعرف فى خلاله الرحالة الاوربيون على بلدان الشرق الادنى وسكانها ولعل أول رحالة أوربى جاء الى الشرق والى

العراق «بنيامين» الاندلسي الطليلي في القرن الثاني عشر للميلاد فوصف بعض مدن الشرق الادنى وأهله وعاداتهم وصفا موجزا ، وجاء من بعده عدد من الرواد والسياح شغفوا بآثار الشرق ومبانيه القديمة . ونقل بعضهم الى بلادهم نماذج من آثار العراق القديمة ، بعضها منقوش بالخط المسماري ، فازدادت رغبة القوم في معرفة الشرق ذي الماضي المجيد ، ولا سيما ان كثيرا من مدنه القديمة ذات علاقة وثيقة بأخبار العهد القديم (التوراة) وبالديانة المسيحية والمسيحية . فبدأ الغربيون بالتنقيب الفعلي في أطلال العراق منذ منتصف القرن التاسع عشر . وقد انحصر هم المنقبين الاوائل في جمع الآثار الكبيرة النادرة كالتماثيل ونحوها وتسابق الدول الغربية وتنافست في هذا الشأن . وابتدأ التنقيب بهمة نشيطة ساعد بعضه دلائل تأريخية مبهمة ، ولكن الرغبة والممارسة وتقدم البحوث ، وحل الخطوط المسمارية ، كل ذلك عمل على تطوير طرق التنقيب وتقدمها ، فأصبح الآن علما خاصا له منهجه وأساليبه ويوفر على الاختصاص به جماعة من الباحثين وصار يدرس في مناهج الجامعات في أوربة وأمريكة .

وجيز تطور التنقيب :ـ

ولعله من المفيد لمعرفة هذه الاساليب التي تم بها أحياء ماضي العراق والشرق أن نقسم الاطوار التي مر فيها التنقيب الى ثلاث مراحل :ـ

فأول هذه الاطوار ، وقد سبق أن ذكرنا عنه شيئا ، نحور أن نسميه بمرحلة الحفر والنبش لاستخراج الآثار الكبيرة بدون الالتفات الى طرق التنقيب الصحيحة والعناية بالآثار الدقيقة . ولم يهتم المنقبون الاوائل بضبط طبقات التلال المشيدة بعضها فوق انقاض البعض الآخر والادوار المختلفة التي تستخرج منها الآثار لمعرفة رمتها النسبي ، وأهملوا تخطيط المباني بل أرالوا أشياء رمتها لانهم لم يكونوا يميزون الجدران المبنية باللبن من الانقاض والتراب المطمور فيها ولم يعرفوا كذلك أصول حفظ الآثار

الدقيقة واستخراجها سالمة . فكان همهم محصورا بالدرجة الاولى فى استخراج المنابل والالواح الحجرية المنحوتة ونقلها الى المتاحف الشهيرة فى أوربه . واشتدت الحملة فى هذا العهد على مدن العراق الشمالية مثل نينوى وخرساد وبمرود . وكان أغلب المنقبين من قناصل الدول الاجنبية والممثلين السياسيين . وكانت حصة المتحف البريطانى عظيمه جدا . وحفر الفرنسيون والالمان والامريكيون كذلك فى المدن الجنوبية مثل «لجش» و «بابل» و «نفر» .

وعندما قارب القرن التاسع عشر من الاسماء بدأت المرحلة الثانية من أطوار التنقيب ، ولسمها طور التنقيبات المنتظمة وابتدأ هذا العهد بتنقيبات الالمان فى بابل (١٨٩٩-١٩١٧) وفى «آشور» (١٩٠٤-١٩١٤) والتنقيبات الامريكية فى نفر (١٨٨٨-١٩٠٦) . وأكثر ما يمتاز به هذا الطور ان التنقيبات فيه لم تقتصر على مجرد استخراج الآثار بل اعتنى المنقبون بتسجيل طبقاتها السائدة أى أدوارها التأريخية ، وكذلك أخذوا تخطط المبانى واعتنوا باستخراج الآثار . واقتضى ذلك توزيع أعمال الحفر بين ذوى الاختصاص ، وأصبحت بعثات التنقيب تتألف من أكثر من مختص واحد . منهم قارىء الخطوط المسمارية والمهندس المعمارى والمصور والرسام والمسجل والمؤرخ . وبفضل ذلك صرنا نعرف ما يمتاز به كل عصر من عصور العراق التأريخية ، وعرفنا أشياء نفيسه عن فن العمارة وتخطيط المدن والمعابد والقصور والدور مما أغفله المنقبون الاوائل . ولكن بعض التنقيبات فى هذا الطور مقصورة على المدن الكبيرة والعواصم وعلى الادوار التأريخية المتأخرة .

وبوسعنا أن نضع خاتمة هذا الطور فى انتهاء الحرب العالمية الاولى حيث امتد من بعدها الطور الثالث الذى أتسعت فيه أعمال التنقيب واسطمت أساليبها وطرقها أكثر من ذى قبل ، وشملت عدا المدن الكبيرة مواضع قديمة أخرى توضح الادوار القديمة فى تأريخ العراق ولا سيما عصور ما قبل

الأريخ والمراحل الاولى التى سبقت نشوء الحضارة الراقية فى العراق وكان من نتائج ذلك أن أصبحنا الآن نعرف أقدم العصور التأريخية وفجر الحضارة واستطعنا أن نتبع أصول العمران الى جذوره الاولى ونتج من تنقيبات هذا الطور الآثار النفيسة التى وجدت فى أور ، ولا سيما من مقبرة الملوك والامراء فيها ، وهى الآن بريئ ثلاثة متاحف من متاحف العالم المشهوره ، وهى المتحف العراقى والمتحف البريطانى ومتحف جامعة بنسلفانيا فى أمريكة . وكان هذا الدور بوجه خاص أحفل عهود التنقيبات بمعرفة الحضارة السومرية ونشوئها فى العراق وعهد نضجها فى الالف الثالث ق . م . وهى الحضارة التى تعد أقدم الحضارات البشرية وأول حضارة أصيلة لم تنشق من حضارة سابقة لها ، وانما نمت من الاطوار الدائبة فى عصور ما قبل التأريخ فى العراق مما سيمر بحثه فى الفصول الآتية .

وقد ساهم العراق الحديث فى هذا الطور بالمجهودات العلمية الاثرية . فالى اشراف مديرية الآثار فيه على هيئآت التنقيبات الاخيرة وسن القوانين لحفظ تراث البلد ، قامت هذه المديرية بنفسها منذ عام ١٩٣٦ فى التنقيب فى مواضع قديمة مهمة اسلامية وبابلية ، وفى مواضع يرجع عهدها الى عصور ما قبل التأريخ ، فنشر عن أعمالها صورة مفصلة عن حضارة العراق منذ أول نشوئها الى آخر عهودها ومما يعتز به ان مجهودات العراق العلميه هذه قد نالت ثناء العلماء الاخيات واستحسانهم[١] .

٥ ـ ضبط أدوار التأريخ القديم

لقد مر بنا فى الكلام على مصادر التأريخ القديم والتنقيبات الاثرية اننا أصبحنا نعرف من هذه التنقيبات الحضارات التى نشأت فى العراق القديم ،

(١) حول التنقيبات فى العراق وايجاز نتائجها انظر المرجع الحديث الآتى ـ

André Parrot, **Archéologie Mesopotamiene** 2 Vols

وأطوار هذه الحضارات ودلك بدرس ما خلفه لنا سكان العراق ومصر الاقدمون من وثائق مدونة عرفنا بحياتهم السياسية والاجتماعية وأسماء سلالات ملوكهم وعلومهم ومعارفهم وكذلك بدرس الآثار المادية التي تمثل حياتهم الفنية واساليب عيشهم والآلات والادوات التي ابتدعوها واستعملوها للسيطرة على بيئتهم الطبيعية وتسخيرها واستثمار خيراتها ، الى ما هنالك من الآثار المختلفة التي تعيننا على معرفة النواحي المتنوعة . ولكن اذا كان ممكنا بعد تقدم أساليب التنقيب وطرق البحث في الآثار المستخرجة من تلك الصحاري ولا سيما بعد اتقان الخطوط واللغات القديمة التي دون بها الاقدمون تواريخهم وعلومهم ومعارفهم — نقول اذا كان ممكنا أن نقف على كل ذلك فكيف استطعنا أن نؤرخ هذه الحضارات ونضبط أدوارها وعهودها ؟ وكيف عرفنا مثلا ان السلالة الفلانية او الملك الفلاني قد حكم في سنة معينة قبل الميلاد ؟ ومحصل القول كيف استطاع العلماء من ضبط أدوار التأريخ القديم بالنسبة الى عهد ثابت محدد في تأريخ الحوادث مثل ميلاد المسيح أو الهجرة النبوية مثلا ؟ وهو ما يصطلح عليه بالتقويم أي تقويم الحوادث وتسلسلها وتأريخها بالنسبة الى عهد ثابت

واذا كانت الاجابة على هذا السؤال تتوجه النواحي تستلزم التفصيل والدخول في موضوع فني معقد فاننا سنحاول تبسيط هذا الأمر واختصار الجواب عليه . فنقول ان معرفة عهود التأريخ القديم وتسلسلها الزمني يعتمد بالدرجة الى بعض هذه الآثار التي وجدت في مواضع العراق ومصر القديمة ، اذا ما اتباع أساليب التنقيب العلمي أمكن تمييز الادوار التأريخية وتسلسلها الزمني بوجه قريب من الصحة ، فاذا وجدنا مثلا ان آثار دور تحت آثار دور آخر من حيث وجدانها في باطن التلول فمعنى ان الدور الأسفل أقدم زمنا من الثاني . ثم ان أدوار التأريخ المختلفة تتميز بعضها عن بعض بأطوار فنونها وأشكال آلاتها وأدواتها وأوانيها الفخارية وأشكال الخطوط المستعملة فيها ، مما سهل على العلماء تمييز كل دور بمجرد

الحصول على بضعة آثار مميزة منه • والقاعدة في مواضع السكنى في قرى العراق القديمة ومدنه ان الناس كانوا يعيشون في الموضع الواحد عدة أجيال ، وسواء كانت دور السكنى مبنية بالطين أو اللبن أو الآجر ، فانها تتهدم بمرور الازمان بعد استعمال ترميمها في أوقات مختلفة،وعند ذاك تبنى بيوت جديدة فوق بقايا جدران البيوت القديمة بعد تسويتها ، وهكذا بمرور الازمان ترتفع مواضع السكنى وتكون تلا اصطناعيا يمثل عدة أدوار من سكنى متعاقبة • وأحسن مثال على ذلك قلعة كركوك القديمة التي هي في الواقع تل اصطناعي نشأ من تراكم طبقات أدوار السكنى لعله منذ منتصف الالف الثالث ق • م • الى الزمن الحاضر حيث بيوت السكنى الحديثة وتحتها مباشرة أسس وجدران بيوت من العهد التركي وهكذا ، وكذلك شاهد الحال نفسه في قلعة أربل القديمة • والقاعدة ان موضع السكنى اذا ارتفع ارتفاعا كبيرا تركه السكان واختاروا موضعا غيره لبناء بيوتهم • وهناك عوامل أخرى لهجران مواضع السكنى منها تغير موارد المياه أو الطرق التجارية المارة بها (مثل تدمر وسمراء والحضر) أو الحروب والغزوات المدمرة • وعلى هذا الوجه نشأ الاطلال المنتشرة الآن في جميع أنحاء العراق • والمنقبون المختصون حين يحفرون في مثل هذه الاطلال انما يشرحون هذه التلول فيكشفون عن طبقات الموضع وأدواره ابتداء من قمة التل ، فيزيحون النقاب عن أدوار الموضع صفحة صفحة وفصلا فصلا حتى يصلوا الى أعمق طبقاته حيث تمثل أول دور للسكنى تقوم فوق الارض الخالية البكر •

(Frankfort in Town Planning Revieve, XXI (1950), 100 ff)

وهناك عدة مواضع مهمة في العراق مثل الوركاء وبدر وغيرهما ، استطاع المنقبون أن يكشفوا فيها عن أدوار تأريخ العراق منذ العهود الاسلامية المتأخرة الكائنة في أعلى نقاط التل ثم تليها الى الاسفل الادوار الاخرى كالعهد الساساني والفرثي والعهد البابلي المتأخر وهكذا بالتسلسل الى أقدم عصور ما قبل التأريخ في الجنوب ، وهو طور العبيد •

والقاعدة ان كل دور حضارى أو تأريخى يمثل فى الموضع بعد طبقات أو أدوار من السكنى (أو كما سمى بأدوار بنائيه) (building level)

والى هذا كله فان القدماء أنفسهم ، المؤرخون منهم ، قد كتبوا فى تأريخ أزمانهم ، ودونوا السلالات الحاكمه وملوكها وعدد السنين التى حكموها وأسماء المدن التى حكموا فيها • وخلفوا لنا من ذلك اثباتا (حداول) بأسماء سلالات الملوك وعلاقاتها الزمنية بعضها ببعض ودونوا كذلك طرفا من تواريخهم وحوادث عصورهم الماضية • مما حعلنا نلم بأسماء سلالات الملوك وعدد السنين التى حكموها وكذلك الازمان السنة لهذه السلالات • ولكن بقى علينا أن نحد نقطه ثابتة من هذه العهود نقيسها بالسنة الى عهد ثابت كميلاد المسيح •

ولحسن الحظ لدينا بعض هذه النقاط الثابته التى مكننا من أن نؤرخ أدوار التأريخ القديم بالسنه الى عهد الميلاد • فمن ذلك حادثة ذكرها جامعو حداول الملوك الآشوريين ، وهى كسوف الشمس الذى حدث فى عهد الملك الآشورى «آشوردان الثالث» وقد بين بالحساب الفلكى الدقيق ان ذلك حدث فى ١٥ حزيران عام ٧٦٣ ق • م • وبالاستعانة بهذه النقطة الثابته أمكن حساب تواريخ الملوك الذين حكموا قبله والذين حكموا بعده بحيث استطعنا أن نعين ملوك الآشوريين وأزمانهم الى عهدالملك«شمشى-ادد» الاول ، وبما ان هذا الملك كان معاصرا للملك البابلى حمورابى فسنستطيع بالحساب أن نعين أزمان ملوك السلالة البابلية الاولى وكذلك السلالات البابلية الاخرى التى حكمت قبلها وبعدها • ومن الكتابات التأريخية التى خلفها الكلدان الاقدمون نوع من حداول الملوك تذكر فى حانب الملوك البابليين وفى الجانب الثانى من كان معاصرهم من الملوك الآشوريين وبذلك أمكن ضبط بعض العهود البابلية بالسنه الى الملوك الآشوريين المعروفه عهودهم •وكذلك استعان الباحثون بالمعاصر الزمنى بين ملوك مصر فى بعض العهود (فى العهد المسمى بعهد «العمارنة» من القرن الرابع عشر ق • م) من ضبط أزمان ملوك

آخرين • واستعين كذلك مؤخرا من الاكتشافات الكتابية التي وجدت حديثا في «ماري» ، ومن معاصر بعض ملوكها مع حمورابي ومع بعض الملوك الآشوريين • ومن الحسابات الفلكية التي استعان بها العلماء في حساب أدوار تأريخ العراق القديم رصد لكوكب الزهرة ورد الينا من زمن سلالة بابل الاولى (سلالة حمورابي) اذ أمكن تحديد أزمان ملوك هذه السلالة بعد الحساب الفلكي الدقيق • ومن الجهة الاخرى يوسعنا أن نحسب من آخر العهود الثابتة من زمن معلوم مثل عهد الاسكندر في العراق ، ثم منه نستنبط تواريخ الملوك البابليين المتأخرين بالنسبة الى ملوك الفرس الاخمينيين سلالة داريوس الثالث بالاسكندر وعلاقة ملكهم كورش بقضائه على آخر ملك من ملوك الدولة الكلدانية • وقد يمكننا اثبات الملوك التي وجدت في جورساباد من حساب تأريخ الملوك الآشوريين الى عهد الملك الآشوري المسمى «شمشي أدد» الاول الذي قلنا انه كان معاصر حمورابي الثاني ومن ذلك استطعنا أن نؤرخ العهود الثابتة من ذلك القوم الآشوري[1] •

ومحصل القول انه باستثناء بعض الفترات بسبب فقدان أسماء بعض الملوك من جداول الملوك ، أمكننا أن نعين بوجه الضبط تقريبا تأريخ كل ملك وكل سلالة الى أول العصور التأريخية في بداية الالف الثالث • أما عصور ما قبل التأريخ وقد قدرت أطوال أزمانها بالسنين بصور تقريبية ،

(١) ومع ذلك فلا يزال الباحثون غير مجمعين على الاسس المخصصة للسلالات ولا سيما سلالة بابل الاولى وعهد حمورابي ، وهو عهد يعتبر أساس تأريخ القوم في العراق القديم • ومما يقال بوجه الاحتمال ان الباحثين على اختلافهم أوشكوا أن يقاربوا التأريخ الصحيح ويميل معظمهم الى خفض السنين العالية التي كان يخصصها الباحثون القدماء فمثلا خفض تأريخ حمورابي الى ١٧٢٨–١٦٨٦ ق • م ، ولكن باحثين محدثين آخرين يخصصون تأريخا أعلى الى حمورابي •

أنظر أحدث البحوث في مسألة تأريخ أدوار العراق في المرجع الآتي –
Toynbee, **A Study of History,** Vol X (1954)

ولكنها لا تعد عن الحقيقة كثيرا بالاستناد الى عدد أدوار السكنى أو ما يصطلح عليه بالطبقات الاثرية التي تحتوى كل طور من أطوار ما قبل التأريخ وأطوار العصور التأريخية أيضا على عدد من هذه الطبقات يختلف عددها وثخنها باختلاف هذه الاطوار وباختلاف مواد البناء المستعملة .

وتسعى العلماء في ضبط أزمان أدوار ما قبل التأريخ الاولى ولا سيما العصور الحجرية والعصور الحجرية المعدنية بطرق الجيولوجيا من معرفة عمر الصخور وطبقاتها الموجودة في الكهوف الى اسوطها الانسان، وكذلك من درس بقايا عظام الحيوانات التي عثر عليها في تلك الطبقات . واستنبط الباحثون في الذرة حديثا طريقة لضبط أدوار التأريخ القديم بتحليل المواد العضوية الكاربونية باسلوب فقدانها اشعاعها ، مما يعرف بـ 14 - C ولا تزال هذه الطريقة تحت التجربة والبحث (انظر المراجع .)

وفيما يأتي الادوار الاساسية في تأريخ العراق وضبط أزمانها بالنسبة الى ميلاد المسيح ، وسنجد أسماء الادوار في تأريخ مصر في القسم الخاص بمصر .

(١) العصور الحجرية القديمة	٥٠٠٫٠٠٠	ـ ٢٥٠٫٠٠	قبل الآن
(٢) العصر الحجري المتأخر	١٠٫٠٠٠	ـ ٦٫٠٠٠	ق.م.
(٣) العصور الحجرية ـ المعدنية أو عصور ما قبل السلالات ، أو فجر الحضارة	٦٠٠٠	ـ ٣٠٠٠	»
(٤) عصور فجر السلالات	٣٠٠٠	ـ ٢٣٥٠	»
(٥) عهد «سومر واكد»	٢٣٥٠	ـ ٢٠٠٠	»
أ ـ السلالة الاكدية	٢٣٥٠	ـ ٢١٨٠	»
ب ـ العهد الكوتي وسلالة لجش الاخيرة	٢١٨٠	ـ ٢٠٨٠	»
جـ ـ سلالة أور الثالثة	٢٠٨٠	ـ ١٩٩٨	»

(٦) العهد البابلي القديم	١٩٩٨	ـ ١٦٠٠ ق.م.
أ ـ سلالة اسن	١٩٩٨	ـ ١٧٧٣ »
ب ـ سلالة لارسه	١٩٩٨	ـ ١٧٣٨ »
حـ ـ سلالة بابل الاولى	١٨٨٠	ـ ١٥٨٠ »
(حمورابي)	١٧٢٨	ـ ١٦٨٦ »
(٧) العهد الكشي (سلالة بابل الثالثة)	١٦٠٠	ـ ١١٠٠ »
(٨) العهد البابلي الوسيط	١١٠٠	ـ ٧٠٠ »
(٩) العهد البابلي المتأخر	٧٠٠	ـ ٥٣٨ »

(الدولة الكلدانية ٦٢٦ ـ ٥٣٨ ق.م.)

(١٠) العهود الاخمينية في العراق	٥٣٨ق.م	ـ ٦٣٦ ب.م
أ ـ الفرس الاخمينيون	٥٣٨	ـ ٣٣٠ ق.م
ب ـ الاسكندر والعهد السلوقي	٣٣١	ـ ١٢٩ »
حـ ـ الفرس الفرثيون	٢٤٧ق.م	ـ ٢٢٦ ب.م
د ـ الفرس الساسانيون	٢٢٦	ـ ٦٣٧ »

الاشوريون

(١) تواريخ عصور ما قبل التأريخ كما مر في الجدول الاول

(٢) العهد الاشوري القديم

أ ـ القسم الاول منه يشمل أطوار ماقبل التأريخ الى نهاية سلالة أور الثالثة

ب ـ القسم الثاني ـ شيوخ المملكة الاشورية ٢٠٠٠ ـ ١٦٠٠ ق.م

(٣) العهد الاشوري الوسيط	١٦٠٠	ـ ٩١١ »
(٤) العهد الاشوري الحديث	٩١١	ـ ٦١٢ »
أ ـ الامبراطورية الاشورية الاولى	٩١١	ـ ٧٤٥ »
ب ـ الامبراطورية الاشورية الثانية	٧٤٥	ـ ٦١٢ »
حـ ـ سقوط نينوى	٦١٢	»

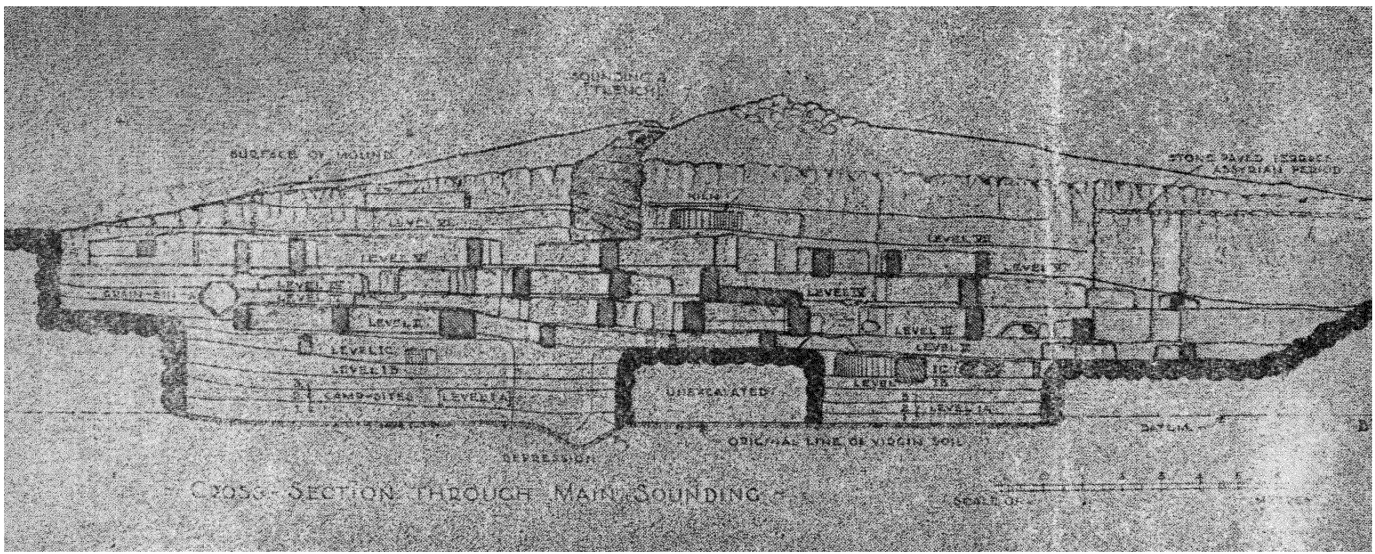

رة بين سالبب السبب العميقه الحديثه ، حيث رسم مقطع لموضع السبب بين الطبقات البنائية المختلفه من سطح التل الى أول دور سيطان البشر فيه (تل حسونه ، عن مديرية الآثار العراقيه) .

الفصل الثانى

اقدم عصور ماقبل التاريخ

العصور الحجرية

لقد سبق أن بينا بالمقصود من عصور ما قبل التاريخ ، اذ قلنا انها العصور التى سبقت شيوع الكتابة ، وقلنا ان هذه العصور قد شغلت الجزء الاعظم من حياة الانسان ، اذ ان العصور الحجرية القديمة وحدها شغلت زهاء الـ ٩٨ ٠/٠ من حياة البشر ، فى حين ان عمر الحضارة الناضجة لا يتجاوز الـ ٥٠٠٠ أو ٦٠٠ عام • وشملت عصور ما قبل التاريخ أكثر من ٩٩ ٠/٠ من حياة البشر ، ومع ذلك فان ما يكشفه لنا الباحثون عن حياة البشر فى تلك العصور وبوجه خاص من العصور الحجرية ان هو جزء ضئيل بالنسبة الى أقصر دور من العصور التاريخية ، والسبب فى ذلك ان ما بقى من عصور ما قبل التاريخ شيء ضئيل من أدوات الحجر وانه وليد صدفة الاكتشاف على الاكثر •

وقد سميا أقدم أزمان ما قبل التاريخ بالعصور الحجرية ، ذلك لان الانسان اقصر فيها فى صنع أدواته على الحجارة بالدرجة الاولى واستعمل العظام ولكنه لم يعرف المعادن • وقد أمكن تقسيم العصور الحجرية الى طورين يميز كل منهما بأساليب خاصة من العيش وكذلك نوع الآلات والادوات التى استعملها الانسان فى كل منهما • ويدعى أقدم هذين الطورين بالعصر الحجرى القديم (Palaeolithic) والثانى بالعصر الحجرى الحديث (Neolithic) • وقد كان الانسان فى القديم منهما يعتمد فى

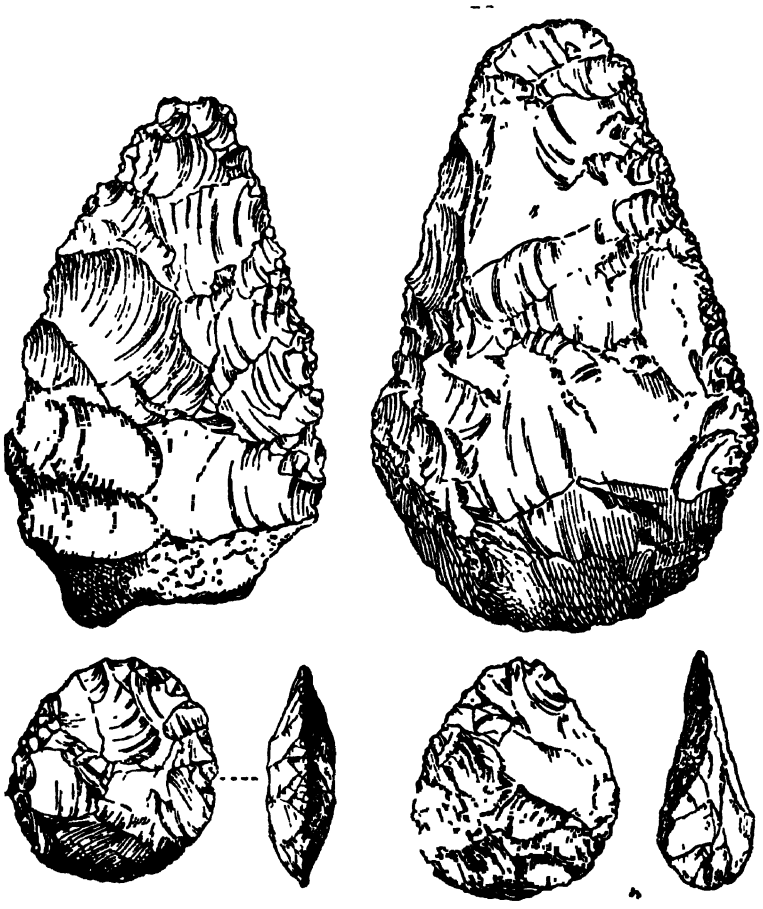

نماذج من آلات الصوان التى صنعها الانسان
فى العصر الحجرى القديم

عيشه على جمع قوته ولم تسخه يده • اذ لم يتعلم الزراعة ولا عرف تدجين الحيوان • فكان يعيش على الاعشاب والحشائش البرية ويستخرج جذور النبات ويجنى أثمارها ويصطاد الحيوان بآلاته البسيطة الفليلة • ولذلك يصح أن يطلق على هذا الطور من العصور الحجرية اسم «طور جمع القوت» (Food Gathering Stage) أما فى العصر الحجرى الحديث فقد تدلت حياة الانسان الاقتصادية تدلا جوهريا اذ انه تعلم الزراعة ودجن الحيوانات وشيد أولى المساكن الدائمة وصنع أوانى الفخار وأخترع القوس والسهم • وبعد هذه الاشياء فى الواقع انتقالا خطيرا فى حياة الانسان مهد له السبيل للانتقال الى طور الحضارة الناضجة • ويلخص القول ان الانسان انتقل من طور جمع القوت السابق الى طور انتاج القوت بيده ولذلك يسمى العصر الحجرى المتأخر بطور « انتاج القوت » (Food Producing Stage) وقد قدرت بدايته هذا العصر بنحو ١٠٫٠٠٠ ق • م • وقد بدأ فى الشرق الادنى ولا سيما فى العراق وفى مصر قبل غيره من بقاع الارض •

دام العصر الحجرى القديم كما ذكرنا دهورا طويلة • ولعله بدأ قبل نحو نصف مليون أو نصف مليون سنة • وقد قسمت هذه الازمان الطويلة الى أدوار وعصور بتغير نوع الآلات والادوات الحجرية التى صنعها الانسان • ومما يقال فى هذا الصدد بوجه الاحتمال ان آلات الانسان بدأت بادئ محدودة النوع • ولا شك فى ان دور استعمال الآلات المصنوعة قد سبق بدور طويل استعمل فيه الانسان الاحجار الطبيعية والعصى وغير ذلك • وأخذت الآلات البسيطة التى صنعها الانسان تتحسن وتتنوع بمرور الازمان • وفى زمن ما من العصر الحجرى القديم أهدى الانسان الى اكتشاف النار واستعمالها ثم كيفية اضرامها بوسائل صناعية • وقد أفاده ذلك فوائد جلى فى تدفئه وطبخ طعامه وحمايته من الحيوانات الضارية التى يدافعه عنها الضياء • وساعدته كذلك على تنمية الحياة الاجتماعية اذ كان

يجمع حولها بهيئه جماعات أو عائلات ولا شك فى ان ذلك قد حس من لغه البساطة[١] .

وكانت حياه الانسان فى العصر الحجرى القديم شاقه صعبه وقد كافح كفاحا شديدا من أجل البقاء فالى جانب الطبيعة القاسيه كانت تهدد حياته الحيوانات الوحشية الضاريه . وكان الانسان يبدو فى هذه البيئة ضعيفا أعزل ولكنه كان مزودا بعالمات جسميه جعلت منه سيد الحلائق . أبرزها دماغه المحدب وقدرته على الكلام ويداه الماهرتان وقابلية ابهامه الانضمام الى أصابع اليد،وانصباب قامته ورؤيته المجسمةوانعدام وسائل الدفاع الطبيعةوالعمالةالطويلة بصغاره الى أول ما علمته أن تكون اجتماعيا تعيش وتعاون مع غيره . وكل

(١) ظهرت عده آراء لتفسير نشوء لغه الانسان التى كانت قديمه كقدمه تخلاف الكتابه . ولعل الفرضيه الآتيه اقربها الى الواقع . من الممكن ارجاع مفردات اللغه البشريه الى ثلاثه أصول تعتبر - اولا محاكاه الاصوات الطبيعيه (Onomatopaeia) ثانيا - أصوات مصحوبه بالاشاره أو اشارات مصحوبه بالاصوات (Gesture and Sound) وتهدف الاسلوبين لنساب المفردات المادية (Concrete) . ثالثا - أما المعانى والمفردات المجرده فيمكن ارجاع اصلها البعيد الى المفردات المادية . أى انها مشتقه فى الاصل من هذه . فمثلا ، ان الكلمه اللاتينيه للامل (Spece) لها علاقه اشتقاقيه بكلمه (Space) المادية وكلمه (Anima) النفس من السنسكريتيه (Aniti) (نفس) و (Anias) (ريح) . ومثل كلمه النفس والروح فى العربيه . من النفس (أى الهواء والتنفس) والريح . وكلمه انشراح وانقباض مثلا من انشراح الصدر وانقباضه وهكذا .

وقد تساءل البعض كيف ظهرت هذه اللغات البشريه المتنوعه ، وهل كانت لغه واحده ثم ترجع الى عده لغات ، او ان لغات البشر ظهرت منذ البدء مختلفه ، ومع انه لا سبيل للجزم باحدى الفرضيتين الا ان باحثين معاصرين يرون انه نشأ عده لغات مختلفه نشأت عند الجماعات البشريه الاولى المنعزله المتباعده بعضها عن بعض منذ ظهور اللغه عند الانسان فى العصر الحجرى القديم،ومما يؤيد هذا الرأى اختلاف لغات البشر الآن ووجود ما يسمى بالعائلات اللغويه وكثرتها كثره مستفيضه بين جماعات البشر المتأخرين ، فمثلا وجد ان سكان أوستراليه الاصليين يتكلمون بما لا يقل عن خمسمائه لغه مختلفه ، وقدر عدد العائلات اللغويه بين الهنود الحمر الساكنين فى كاليفورنيه فقط بنحو ٣١ عائله لغويه وبنحو ١٣٥ لهجه .

هذه القاميات جعلت من الانسان الكائن الوحيد الذى يعرف صنع الآلات • ولعل قدرته على صنع الآلة أهم خاصية تميزه عن الحيوان • اذ تمكن «الانسان صانع الآلات» أن يتغلب بآلاته وعدته (أى حضارته) على بيئته الطبيعية ويسخرها له • فى حين انه لا توجد واسطة بين الحيوان وبين بيئته سوى أعضاء جسمه • ولذلك أطلق على الآلات والادوات «أعضاء الانسان الاضافية» •

العصور الجليدية :ـ

ومما زاد فى صعوبة العيش فى العصور الحجرية القديمة حدوث أزمات جليدية قاسية أشتد فيها البرد وغطت طبقات الجليد الزاحفة شمالى أوربة الى ما بعد جبال الالب • فانهزم الانسان الى البقاع الجنوبية من الارض والتجأ الى الكهوف اتقاء الزمهرير القاسى • وكان يفصل بين عصر جليدى وآخر فترة يعتدل فيها المناخ ويتراجع الجليد الى الشمال • وكان كلما حل عصر جليدى فى أوربه وامريكة طهر فى الشرق الادنى وفى افريقية وغيرها من البقاع الآسيوية الجنوبية زمن تكثر فيه الامطار والرطوبة وقد سميت مثل هذه الازمان بالعصور الممطرة (Pluvial Period) • وقد كثرت الامطار وعمت حتى حزيرة العرب ومنطقة الصحارى فى افريقية ، مما مكن الانسان والحيوان من أن يعيشا فيها • أما الفترات بين العصور الجليدية فى أوربة فكان يقابلها فى أنحاء الشرق الادنى عصور جفاف • ونحن نعيش الآن فى آخر فترة جليدية •

لقد قسم العصر الحجرى القديم الى أطوار وأدوار[1] فأولا نقسم

(١) سميت هذه الادوار بالدرجة الاولى بالنسبة الى مواضع فى فرنسة وجدت فيها لقاياه لاول مرة وهى :ـ

أ ـ السطر الاول من العصر الحجرى القديم (Lower Palaeolithic)

١ ـ الدور السلى (Chellean)

٢ ـ الدور الاشولى (Acheulean)

٣ ـ الدور المسيرى (Mousterian)

العصر الحجرى القديم الى شطرين كبيرين ففى الشطر الاول،وهو أقدم جزء من هذا العصر ، كانت آلات الانسان المصنوعة من حجر الصوان سادجة محدودة الاشكال والانواع وقد استعمل نوعين من صناعة أدوات الحجر أحدهما استعمال لب حجر الصوان (Core) بعد نشطيته وهدمته والنوع الثانى صنع الشظايا دون اللب على هيئة آلات وأدوات مختلفة . وقد عاشت فى هذا الطور القديم من العصر الحجرى القديم أجناس من البشر بادت جميعها ووجدت منها هياكل عظمية فى مختلف بقاع الارض مثل «جاوة» وفى «البيلدرتال» فى ألمانية وفى فلسطين . وتدل صفات هذه الاجناس الجسدية على انها لاتنتمى الى نوع الانسان الحاضر[1] بصفة وان

ب ـ الشطر الثانى من العصر الحجرى القديم (Upper Palaeolithic)

٤ ـ الدور الاورجناسى (Aurignacian)

٥ ـ الدور السلوترى (Solutrean)

٦ ـ الدور المكدلينى (Magdalenian)

وتسمى هذه الادوار أيضا بأسماء أخرى نسبة الى مواضع أخرى من العالم وجدت فيها آثار العصور الحجرية القديمة .

ويمتاز الجانب من بعض دورا حجريا من نهاية العصر القديم وبداية الحجرى الحديث بتسميته بالدور الحجرى الوسيط (Mesolithic) ، وقد وجد ممثلا فى بعض جهات سوريه ولا سيما فلسطين حيث يعرف بالدور النطوفى كما وجد بعض نظائره فى شمالى العراق فى موضع يسمى بالى كوره (مجله «سومر» ١٩٥١)

(١) وتسمى نوع الانسان الحديث بالانسان العاقل (Homo Sapiens) أى انها الانواع العضوية التى ظهرت فى الشطر الاول من العصر الحجرى القديم وهى أجناس أو أنواع خاصة ، وانها من جنس الانسان (Homo) وتنتسب نوع الانسان الحديث وأشهر هذه الانواع الحديثة الانسان المسمى بالكرمانيون (Cro-Magnon) ويرجح البعض ان هذا أصل العرق الابيض اى العرق القوقازى ومن أنواعه ايضا انسان الكراملدى من جنوبى افريقيه ، ونوع شبه عظيم بالعرق الاسود ولعله أصل هذا العرق . وما وجد فى موضع فى جاوه ما يرجح أن يكون أصل العرق الاوسترالى . أما العرق الاصفر أى العرق المغولى فيرجح أنه تحدر من انسان بكين الذى ظهر فى النصف الاول من العصر الحجرى القديم كما ذكرنا (Braidwood, **Prehistoric Men**)

فيها شبها بالقرود • ولذلك سمى العلماء الشطر الاول من العصر الحجرى القديم بعصر الانسان العتيق أو الأنيد[١] •

فقبل نحو نصف مليون عام ، بعد نهاية أول عصر جليدى ، ظهرت أنواع من جنس الانسان (Homo) وهى تصنع أدوات الحجر ، ولا نعرف مهد الانسان الاصلى وهل كان هناك مهد واحد أو عدة أماكن ظهرت فيها أنواع الانسان المتفرعة ؟ ولعل الرأى الثانى هو الراجح •

ونذكر أشهر هذه الانواع :-

١ - انسان بكين (Sinanthropus Pekinensis) قبل نحو نصف مليون ، وقد وجدت مع بقايا هذا الانسان أدوات حجر صنعها •

٢ - انسان جاوه (Pithecanthropus erectus) أى «الانسان القردى المنتصب» وهو ذو جمجمة صغيرة نسبيا ، ويقدر طوله نحو ٥ أقدام وست عقد • وسعة جمجمته تقدر بنحو ٢/٣ سعة جمجمة الانسان الحديث • ولم يعثر الباحثون مع هذا النوع من الانسان أدوات حتى الآن • وقد وجد نوع منه قبل الحرب العالمية الماضية وهو ذو أسنان عريضة تقدر مساحة المضرس منها ست مرات من مساحة الاضراس الحديثة • وقد استنتج بعض العلماء ان هؤلاء البشر كانوا من جنس العمالقة ؟ ! فهل انقرضوا كما انقرضت الوحوش الضخمة الجيولوجية ؟

٣ - انسان بلتداون (Piltdown, Eoanthropus) وجدت بقايا من هذا النوع فى انجلترا ، ولكن هذه مشكوك فيها •

٤ - انسان النياندرتال (Neanderthal Man) سمى نسبة الى موضع فى ألمانيا قرب دسلدورف ، وقد وجدت منه نماذج كثيرة فى بقاع أخرى من العالم • ويرجع تاريخه الى العصر الجليدى الثانى (حوالى ٤٥٠٫٠٠٠ - ١٠٠٫٠٠٠) •

---

(١) أى (Palaeoanthropic)

٥ ـ ووجدت أنواع أخرى من الانسان سبقت ظهور نوع الانسان الحديث وجاءت بعد انسان النياندرتال مثل انسان فلسطين الذى وجد فى أحد كهوف جبل الكرمل (Braidwood, **Prehistoric Men**)

ولعل طفل الانسان الذى عثرت عليه مديريه الآثار العراقية حديثا فى كهف شانيدر من هذا النوع ، ولكنه وجد مع آلات وأدوات من الدور المسيرى (انظر مجلة سومر ١٩٥١) .

أما فى الطور الثانى من العصر الحجرى القديم فقد تقدم الانسان فى جسمه وعقله وفى الآلات التى صنعها من الحجارة . اذ نشأ نوع الانسان الحديث الذى كان أقرب ما يكون الى نوع الانسان الحاضر بل انه حد له . ولذلك سمى العلماء هذا الشطر من العصر الحجرى القديم برمز الانسان الحديث[١] وقد حسن هذا الانسان الحديث فى صنع آلاته وأضاف الى عدته آلات أخرى صنعها من العظام والخشب كالابر والمثاقب ومقابض الفؤوس . وقد كان هذا الانسان «فنانا» اذ انه تعلم الرسم والنحت فقد وجدت فى جدران الكهوف التى التجأ اليها صور ورسوم ملونة تعد على نصيب كبير من دقة التعبير والحيوية ، وكان أغلب هذه الصور تمثل الحيوانات التى كان الانسان يصطادها لاكلها لانه كان مدفوعا فى ذلك بدوافع السحر ، حيث اعتقد انه برسم الحيوانات على سقف الكهف الذى يعيش فيه يتمكن من السيطرة عليها وهى حية . ونشأت عند الانسان فى هذا العصر بعض الافكار عن الحياة والموت وظهرت أولى بذور الدين على هيئة اعتقادات ورسوم بدائية وممارسة للسحر كما يظهر ذلك فى الدافع الذى دفع الانسان على عمل الرسوم والنقوش فى داخل الكهوف التى عاش فيها ، وكما يظهر فى طرق دفن الموتى . ويمكننا اعتبار السحر أول محاولة فاشلة للانسان للسيطرة على الطبيعة بأعمال السحر .

(١) أى (Neoanthropic)

نماذج من النقوش والرسوم التى تركها انسان العصر الحجرى القديم
(من شطره الثانى) فى الكهوف التى عاش فيها

وحدت آثار العصر الحجرى القديم بجميع أدواره فى بقاع مختلفه من العالم لا سيما فى نصف الكره الشرقى • ووحدت كذلك فى الشرق الادنى ، فى مصر وفى فلسطين وشمالى افريقيه وفى جزيره العرب وفى سوريه ووجد نموذج من الانسان العبيق أو النائد فى فلسطين • وقد وجدت آثار رمن العصر الحجرى القديم فى القسم الشمالى من العراق وذلك فى كهفين قرب السليمانيه يسميان كهف «زرزى» وأقدم دور فيه الدور الاورعشى وكهف «هرارمرد» • ووجدت حديثا آثار من العصر الحجرى القديم من نصفه الاول فى «برداملكا» قرب جمجمال ، ولكن آثار العصر الحجرى القديم فى العراق ضئيله بالنسبة الى أقطار الشرق الادنى الاخرى ، لقلة الاستكشافات والبحوث التى تمت فى هذا الموضوع[1] •

ومع ذلك فقد أظهرت تحريات السنوات الاخيرة التى قامت بهـا مديرية الآثار العراقية وبعض المعاهد الامريكية فى القسم الشمالى من

(١) لا يمكن أن نجد آثار العصر الحجرى القديم فى القسم الجنوبى من العراق لان هذا القسم من القطر كان بعموه المساه حتى العصر الحجرى الحديث وكانت هذه المياه على ما يرجح تصل حتى موضع مدينة بغداد فى العصور الجيولوجيه البعيده لعله فى العهد المسمى بالبلايستوسين • وكان الرافدان العظيمان دجله والفرات يحملان إلكميات الكبيره من الطمى والغرين ، وهذا يدل على تكوين القسم الجنوبى من العراق بمساعدة بقرى الكرخا والمارون ايضـا • وان كميه الاراضى التى تكونت سنويا من الطمى المحلوب والغرين غير معلومه بوجه التأكيد ولكنه يمكننا ان نقدر ذلك من الامارات الماثله لنا حاليا بمعرفة أن بعض المدن القديمه التى كانت قديما مطلة على ساحل البحر هى الآن بعيده عنه فى داخل البر وبعده الاعتبارات نقدر معدل تكوين اليابسه بنحو ١١٥ قدما فى السنه أو بنحو الميل ونصف الميل فى القرن الواحد • وان أقدم دور يمكن أن نجد المسمون فى القسم الجنوبى من العراق لا يتعدى أواخر الالف الخامس ق • م • أى العهد المسمى بعهد العبيد وما قبل ذلك بقليل •

والجدير بالذكر عن سرعه تكوين اليابسه وتقدمها فى البحر أن بعض الباحثين الجيولوجيين من أهل البصره حدثنا أنهم شاهدوا بسكون فيها وتجددونها • (أنظر مجله

(The Geographical Journal, CXVIII, March, 1952)

العراق مراحل مهمة من تاريخ الانسان في العصور الحجرية القديمة والحديثة ايضا • ففي موضع بردا بلكا السالف الذكر (ويبعد نحو ٣ كم شرق حمحمال) ، وجدت بقايا الدور الشيلي وربما الاسولي • وفي كهف يسمى «شانيدر» وجدت فيه آثار الدور المسيري الشبيهة بما وجد في كهف «هرار مرد» • ووجد في هذا الدور هيكل طفل لعله في عامه الثاني فيه شبه بالانسان الحديث • كما وجدت في موضع يسمى «بالي كورا» آثار من نوع أدوات العصر الحجري الوسيط (Mesolithic) (انظر مجلة سومر المجلد ١٩٥١)

ويوسعنا أن نوجز أهم الانقلابات التي حدثت في تاريخ تطور الانسان في العصور الحجرية القديمة بانه أولا كان خاضعا الى تطورات بيولوجية عظمى ، منها انتقاله من أنواع الانسان العصفة البائدة الى الانواع الحديثة من نوع الانسان العاقل وذلك في النصف الثاني من العصر الحجري القديم وهو النوع الذي أشرنا اليه فيما سبق على أنه نوع الانسان الحديث أو انه جده ومن التطورات الخطيرة التي وقعت للانسان نشوء اللغة التي ظهرت عند الانسان في زمن ما من العصور الحجرية القديمة • والأمر الثالث في تقدم حياة الانسان ما سبق ان أشرنا اليه من تعلم الانسان صنع الآلات والادوات • واللغة وصنع الآلات ركنان أساسيان من أركان الحضارة البشرية • أما الركن الثالث وهو الكتابة أو التدوين فقد تأخر اختراعه الى زمن نشوء الحضارة البشرية الاولى في وادي الرافدين ووادي النيل •

العصر الحجري الحديث

بعد أن ظل الانسان طوال العصر الحجري القديم يعتمد في عيشه على جمع القوت ، أخذ يتقل في أواخر هذا العصر الى طور جديد من الحياة تبدلت فيه أساليب عيشه تبدلا أساسيا باهتدائه الى طور الزراعة وتدجين الحيوان وسمي هذا الطور الجديد بالعصر الحجري الجديد أو طور انتاج

القوت الذى تعلم فيه الانسان انتاج قوته بيده بحرث الارض وزرعها بالحبوب البرية التى اعتاد أن يجمعها فى العصر السابق • والذى عليه العلماء الآن ان فن الزراعة وتدجين الحيوان قد بدأ فى الشرق الادنى (ولا سيما فى العراق ومصر) قبل بقاع الارض الاخرى وقد أثر هذا التبدل فى حياة الانسان تأثيرا بالغا ، ومهد له السبيل للانتقال الى طور الحضارة الناضجة فبعد أن استعبد الزراعة استعبى الانسان عن التجول لمطاردة الحيوان وبدأ يعيش حياة مستقرة بهيئة جماعات بالقرب من الحقول • وتجمعت عائلات منه فى بقعة واحدة وابتنت لها مقار ثابتة فنشأت القرى ومعها بدور الحياة الاجتماعية والمجتمع والعائلة أبسط نظمه الاجتماعية والسياسية • ومما لاشك فيه ساعد هذا الانقلاب الجديد الانسان على تكاثر السكان وتكاثر المستوطنات البشرية ، كما يستبان من قلة البشر وضآلة مستوطناتهم فى العصور الحجرية القديمة بالمقارنة مع تكاثرها وانتشارها فى جميع بقاع الارض تقريبا ابتداء من العصر الحجرى الحديث •

وكانت الزراعة التى تعلمها الانسان فى العصر الحجرى الحديث تمتاز بجملة أمور تميزها عن الزراعة فى الادوار التى تلت العصر الحجرى الحديث أهمها :ـ

١ ـ انها كانت زراعة محدودة أى فى مساحات صغيرة من الارض بحيث يصح أن نطلق عليها اسم زراعة الحدائق (Garden Culture) او (Hoe-Culture) فكانت جهاد الانسان تتصف بالاكتفاء الذاتى فى الانتاج أى ان العائلة الواحدة تنتج حاجتها من القوت وتصنع أدواتها البسيطة السادجة فلم يبدأ التخصص •

٢ ـ كانت زراعته مستقلة ولا سيما فى مبدأ أمرها أى أشبه ما تكون بزراعة الفلاحين البدو • فلم يبدأ الانسان بحياة الاستقرار الدائم فى أول العصر الحجرى الحديث ، ومن أسباب ذلك استنفاد خصب الارض وعدم معرفة الانسان بالاسمدة ولعله ايضا لم يعرف طريقة زرع جزء من الارض

وتركه بورا فى السنة الآتية على نحو ما فعل فلاحو العراق الآن • ولا يزال المرء يجد فى الوقت الحاضر فى مناطق فى أفريقيه زراعة مثل زراعة العصر الحجرى الحديث أى زراعة متنقلة محدودة •

(Childe, **What Happened in History,** P 24)

وجدت آثار العصر الحجرى الحديث فى مواضع عديدة من الشرق الادنى ففى مصر وجدت مواضع وقرى من هذا العصر فى «طاسه» و«الفيوم» و«مرمدة» • ووجدت كذلك فى سورية فى مواضع مثل «الحديدة» و«رأس شمره» قرب خليج الاسكندرونة • وكشف عن آثاره فى العراق فى الطبقات السفلى من أماكن كثيرة فى شمالى العراق ونقبت مديريه الآثار العراقيـة موضعا قرب الموصـل يدعى «حسونه» وجدت فيه آثار قريه قديمـة يعود رمنها الى العصر الحجرى المتأخر ولا سيما أواخره • ووجدت بعثة أميركية لجامعة شـيكاغو موضعا اسـمه «حرمو» قرب «جمجمال» (لواء كركوك) (فوق وادى طوق چاى ، وهو احـد روافد دجلة ، حوالى ٣٥ كم سـرق كركوك) تمثل آثاره العصر الحجرى الحديث من أطواره القديمة ولعلها مرحلة الانتقال من العصر الحجرى القديم الى العصـر الحجرى الحديث حيث تعلم الانسان الزراعه لاول مرة •

ولنحاول وصف قرية حرمو السالفة الذكر التى يرى فيهـا الذى حفر فيها[1] انها تمثل أقدم قرية زراعية ، أى تمثل أول عهد الانسان بتعلم الزراعة • (انظر نتائج التنقيبات فى مجلة سومر المجلد ١٩٥١) •

---

(١) وهو الاستاذ برايدوود بالنيابه عن جامعه شيكاغو منذ ١٩٥٠ أنظر •
(Braidwood, in Antiquity XXIV, 1950, 190 ff,
Amer Journal of Archaeology (1949) 50 ff

وقد كانت هذه القرية صغيرة متوسطة الحجم ، يقدر مساحتها برهاء ثلاثة دونمات (الكرات) ، ويرجح ان عدد بيوتها في الأصل نحو ٥٠ بيتا ويقوسها زهاء ٣٠٠ نفس . وتشغل أنقاض القرية الآن ٧ أمتار عمقا اعتبارا من أعلاه دور سكنى في بعض التل ، وقد وجد في هذا السمك من الانقاض ١٥ طبقة بناء اي دور سكنى ، وهي مبنية من الطين ، وصغيرة ، ذات عرف مستطيلة ، مع مطبخ محفور في الأرض . ووجد في أنقاض القرية مجموعات كبيرة من عظام الحيوانات وقد قدر نحو ٩٠ ٪ منها من الغنم والبقر والخنازير والكلب وأنواع صغيرة من الحمول . وكان نحو ٥ ٪ من هذه الحيوانات وحشية غير مدجنة . كما وجد فيها نوعان من القمح . والحديد ما تذكر انه لم يوجد في أنقاض القرية آثار بنائية في الطبقات السطحية .

وهناك من شك في ان حرمو تمثل أول زراعة ويحتمل كونها موضعا متأخرا من الناحية الحضارية من عهود ما بعد العصر الحجري المتأخر (Childe, **The Most Ancient East**, 1952, 105) ويرى ان جرمو تمثل في أولى طبقاتها السفلى أول زراعة في شمالي العراق وسنصف هذا الموضع في الفصول الآتية .

وقبل أن ننهي بحثنا عن العصر الحجري الحديث نذكر بعض الامور المفيدة عن هذا العهد المهم في حياة الانسان .

كانت عدة الانسان وحياته الاقتصادية في العصر الحجري الحديث محدودة ، فمن الآلات السوداء الرحى البسيطة التي قوامها حجران بسيطان والاطباق الفخارية لفرك الحبوب واستعمل بعضها للعجن . وكذلك المخارز البسيطة (Awl) والمناجل المكونة من أسنان الصوان ، والادوات الصوانية كما كان الحال عليه في العصر الحجري القديم ، والمرجح ان الانسان عرف الغزل والحياكة كما يدل على ذلك اقراص المغازل الفخارية . ومما يقال في أواني الفخار من العصر الحجري الحديث أنها سمجة سادجة

حالية من النفوش والاصباغ ومصوغة باليد اذ لم يهد الانسان الى دولاب الخزاف .

ومع أن التخصص الصحيح لم يبدأ الا انه من المحتمل جداً أن نوعا من تقسيم العمل البدائي كان موجوداً في حياة انسان العصر الحجري الحديث ولا سيما بين الرجل والمرأة . واذا كانت المرأة ، كما يظن بعض الباحثين ، هي التي اكتشفت زراعة الحبوب البرية (Childe, Op Cit, 51 ff) فان أعمالها كانت قاصراً على المجتمعات البدائية البدر ، والطبخ والطحن ، والغزل ونسج الملابس ، أما أعمال الرجل فكانت على ما يرجح تهيئة الحقل للحرث ، وبناء البيوت والعناية بالحيوانات ورعيها ، والصيد وصناعة الادوات الضرورية وحمايته البيت وصنع الاسلحة (داث المصدر) .

واذا كنا قد تطرقنا الى المرأة والرجل فان ذلك يقتضينا أن نذكر شيئا عن المجتمع وشؤون العائلة ، والرأي الراجح عن شؤون المجتمع ان معالمه الواضحة يمكن تتبعها أصولها الى العصر الحجري الحديث بعد شيوع الزراعة والمستوطنات المستقرة أما في العصر الحجري القديم فالراجح انه لم يكن هناك مجتمع بالمعنى الصحيح وانما كان نوع من «التجمع» وكذلك يقال في منشأ العائلة بمفهومها الاجتماعي الحديث . حيث انها لم يكن معروفة بهذا المفهوم في العصر الحجري القديم الذي يرجح ان الانسان لم يعرف فيه سوى المشاعة الجنسية[1] كما انه شبه في ان الانسان كان يدرك العلاقة بين العملية الجنسية وعملية الانسال ، فالمحتمل ان العائلة نشأت بسيطة لظهور المجتمع في العصر الحجري الحديث . وانه حين أدرك هذه العلاقة في العصر

(١) لا يزال في العصور الحديثة بعض الاقوام الهمجية وهي لا تعرف نظام العائلة الاجتماعي .
(Will Durant, **The Story of Civilization**, 29 — 32)

الحجرى الحديث بدأت الديانه عنده بوجه واضح وان أول اله تصوره وعبده ، الهه الزراعه ، ورمز الخصب ، وهى عباده «الام الارض» أو «الالهه الام» كما تدل على ذلك دمى الطين التى وجدت فى حرمو وحسونه وكثير من مستوطنات العصر الحجرى الحديث وهى تمثل امرأه بدينه مبالغ فى حجم ندبها • والمرجح كثيرا ان عباده الشمس بسبب أثرها فى الزراعة قد بدأت بعد عباده الارض على هيئة الهة • ومن الصور الغريبه التى وجدت فى العصر الحجرى الحديث (فى حرمو مثلا واللقان والاناصول) أشياء مصنوعة من الطين والفخار ترمز الى عضو الرجل (Phalus) ، ولعلها اتخذت للعباده باعتبارها ترمز الى الخصب والحياه ايضا (Chiled, ibid), 57) ومع اباحة القوت فان الانسان لم يمارس السحر كما تدل على ذلك التعاويذ المصنوعه من الحجر • والواقع ان الانسان ظل يمارس السحر حتى فى عهوده التاريخيه من بعد شيوع الحضارة فانه اذا كان يحاوله لضمان جمع قوته بالصيد فى طور جمع القوت فانه وجد ضرورة ايضا لضمان اباحة قوته بالسيطره على القوى الطبيعة والعلوية التى صار الانسان يجسمها على هيئة آلهة •

ومن الانظمة المهمة التى ظهرت فى حياه الانسان فى هذا العصر الملكيه الفردية ، ولعل شيوع هذا النظام أثر فى شيوع العائله• كما ان زراعة الانسان البسيطه كانت تضطر الانسان الى التوسع والاستدام بالجماعات الشريه التى لم تزل فى طور جمع القوت وكذلك الاتصال بالجماعات الاخرى المنتجه للقوت ، مما أدى الى الزراع على الارض وظهور نظام الحرب بأبسط أوجهها •

ومن المسائل المهمه التى تجدر التنويه بها قبل انهاء كلامنا على العصر الحجرى الحديث مسألة تدجين الحيوان ، وهل ظهر عند الانسان قبل الزراعة أو بعدها ، أو مع الزراعة ؟ فهناك طائفة من الاثروبولوجيين ترى

ان تدجين الحيوان نشأ بصوره مباشره من الصيد بدون الزراعة ، وان الزراعه الحدطه أى الزرع وتدجين الحيوان ظهر سيحة لعرو جماعات الرعاه للمجتمعات الزراعيه • ولكن أقدم مجتمعات العصر الحجرى الحديث التى أظهرت آثارها المتسابة مجتمعات تعرف الزراعة وتدجين الحيوان • ولعل الرأى الصحيح فى الموضوع ان تدجين الحيوان ظهر بسبب الزراعة لاحداث قطيع الحيوان الى مزارع الانسان المضمون فيها القوت (Childe ibid, 42) والمرجح كثيرا أيضا ان نظام التداوة (Nomadism) نشأ أما فى العصر الحديث أو بعده عند حلول الجفاف فى المستوطنات التى تعتمد زراعتها على الامطار ، وحين كانت بعض الجماعات تهاجر الى أراضى كثيره توفر فيها الارواء كانت بعض الجماعات الاخرى قد ظلت فى مواطنها محتفظه بشئ واحد من عده العصر الحجرى الحديث الا وهو تدجين الحيوان ورعيها •

وان كان العصر الحجرى الحديث يمتاز على العصر السابق بانقلابه العظيم الذى احصناه ، الا انه كان يبقى بعده الانسان فيه اتصاف اتاحه بالاكتفاء الذاتى ، وهى صفه لا تعمل على ظهور التخصص ولا تكاثر السكان • كما ان ما سمحه الفريه الواحده لعاشها السوى كان أمرا غير مضمون لصمان حياتها عند الطوارئ فى المستقبل ، ولكن مع هذه النقائص فان الاكتفاء الذاتى ومحدودية اتساع القوت المصنف بهما هذا العصر كانا فى الواقع يحملان امكانيات المستقبل ، امكانية توسع الانتاج الزراعى وظهور طبقات من المجتمع القروى تتخصص بوجوه أخرى من الانتاج • ولما تم تحقيق هذه الامكانيات بالفعل انتقل الانسان الى الاطوار التالية التى مهدت له الاستعمال دورها الى طور الحضارة ، وهو ما سندرسه فى الفصول الآتيـــة •

وكانت وديان الانهار الكبرى فى الشرق الادنى خير ملجأ للانسان عندما أخذ الجفاف يحل فى الاماكن الاخرى من الشرق الادنى فى

آخر فتره حليدية فى أواخر العصر الحجرى القديم فالتجأ الانسان أولا الى الواحات ثم الى وديان الانهار ، وهنا تم أعظم انقلاب فى حياة البشر وهو انتقاله الى عهد الزراعه فى العصر الحجرى الحديث ولا سيما فى الواحات والمناطق التى تعتمد زراعتها على المطر فى سفوح التلال الشماليـة ثم الى طور المدينه والحضاره من بعد ذلك ، عندما أخذت قرى العصـر الحجرى الحديث الصغيره تتسع وتتسع زراعته كذلك حيث بدأ تحل فى وديان الانهار الكبرى فى الشرق الادنى • وسنقص قصة هذا الانقلاب الخطير فى الفصول الآتيـة •

ويقرن بعض المؤرخين أهمية الانقلاب الذى طرأ على حياة الانسـان فى العصـر الحجرى المتأخر بأهميـة الانقلاب الصناعى الذى حـدث فى الحضاره الغربيه منذ القرن الثامن عشر للميلاد •

والرأى السائد ان أساليب هذا الانقلاب العظيم وبعض آلاته وأدواته انتقلت من الشرق الادنى الى أوربة ، وهكذا كان الحال بالنسبة الى النباتات والحيوانات المدجنه • ولكن عمليه الانتقال استغرقت وقتا طويلا واستقات فى مراحل مختلفه من جماعه الى أخرى • وقـد انتقلت الى أوربه باتجـاهين وطريقين : (١) عن طريق تركية الى البلقان أو الى جنوبى روسية ومن ثم الى وادى نهر الدانوب • (٢) من شمالى أفريقيه ، وبطريق البحر الى ايطاليه واسبانيه وفرنسه ومن ثم الى بريطانية وأقطـار شمالى أوربة • ومع هـذا الانتشار فان مجتمعات قليلة عديده ظلت فى طور جمع القوت بعد مرور ألوف كثيره على ظهور الزراعة فى الشرق الادنى •

والثابت الآن ان الزراعه وتدجين الحيوان قد نشأتا بوجه مستقل فى مركزين من العالم وهما الصين حيث بدأت زراعة الرز فى حدود ٣٠٠٠ ق•م وفى أمريكة فى حدود ١٠٠٠ ق • م (زراعة الذرة الامريكية بالدرجة الاولى) •

(حول العصور الحجرية فى أجزاء الشـرق الادنى بصوره خـاصة ومفصلة أنظر الكلام على هذه الاجزاء فى الجزء الثانى من الكتاب) •

وبالامكان تقسيم تأريخ البشر بوجه عام الى ثلاثة عهود كبرى عامة :ـ

(١) عهد الهمجية (Savagary) وهو عهد العصر الحجرى القديم الذى قلما انه شغل نحو ٩٨ ٠/٠ من عمر الانسان ٠

(٢) عهد البربرية (Barbarism) وهو طور العصر الحجرى الحديث أو كما سميناه ، طور انتاج القوت ٠

(٣) عهد الحضارةأوالمدنية (Civilization) ويبتدأ فى الشرق الادنى ولا سيما العراق ومصر فى أواخر الالف الرابع ٠

(Childe, **What Happened in History,** 17—18)

مجموعه من أواني الفخار المسوغة ، وجد في حسونه تمثل فخار العصر الحجرى المعدنى وبعضها من فخار العصر الحجرى الحديث

الفصل الثالث

فجر الحضارة او عصور ماقبل السلالات

ذكرنا فى الفصل السابق شيئا عن حياة الانسان فى الشرق الادنى فى الازمان التى سميناها بالعصر الحجرى الحديث ، وقلنا ان انقلابا خطيرا حدث فى ذلك العصر فى حياة الانسان باهتدائه الى الزراعة وتدجين الحيوان وقد تم هذا الانقلاب فى الشرق الادنى ، فى مصر والعراق بالدرجة الاولى • والحقيقة ان هذا الحادث الخطير وما نجم عنه من تطور فى الحياة الاجتماعية قد مهد السبيل لنشوء الحضارة الناضجة فى الاطوار التى عقبت العصر الحجرى الحديث • ولكن نشوء الحضارة الناضجة لم يحصل طفرة واحدة فى نهاية العصر الحديث • وانما حدث بخطوات تدريجية منذ أواخر ذلك العصر • فكانت هذه الخطوات أطوارا تمهيدية للوغ الانسان عهد الحضارة الناضجة ، يصح أن نعدها فجر الحضارة فى الشرق الادنى ، ونوسعنا حصر هذه الاطوار التمهيدية بالازمان الواقعة بين نهاية العصر الحجرى المتأخر فى حدود ٦٠٠٠ ق • م أو ٥٠٠٠ ق • م وبين بداية العهد التأريخى وبداية الحضارة الناضجة فى بداية الالف الثالث ق • م أى تحديد هذه الاطوار التمهيدية أو الانتقالية بحوالى ٢٠٠٠[١] سنة • ومما نمتاز به هذا العهد بوجه عام أن معرفة الانسان بالمعادن كانت فيه فى بداية أمرها ، اذ استعمل الانسان كميات قليلة جدا فى أول الامر لجهله بفن التعدين وظل يستعمل الحجر والمواد الاخرى فى صنع أكثر آلاته وأدواته • ولكن كثر استعمال المعادن بالتدريج وتعلم الانسان فن التعدين فى الاطوار

(١) (انظر G Childe, **What Happened in History** (1946), P 62)

الاخيرة من هذه الازمان وبوجه خاص فى العهد المسمى بطور «العبيد» فى حدود ٤٠٠٠ ق ٠٠ ، ولهذه الاسباب يسمى المؤرخون هذه الاطوار ، ولا سيما الادوار الاولى منها بالعهد «الحجرى ـ المعدنى» (Chalcolithic) وتسمى أيضا بعصور ما قبل السلالات أى الازمان التى سبقت نشوء السلالات الحاكمة بهيئة أمراء وملوك فى كل من العراق ومصر . ولما كانت هذه الاطوار هى التى مهدت لنشوء الحضارة العراقية والحضارة المصرية فيصح أن نسميها أيضا بفجر الحضارة ، فلنأخذ أولا ما وصل اليه الانسان من اختراعات ولا سيما فى العراق ومصر :

١ ـ أهم شىء حدث فى هذه الازمان اتساع الاساس فى الزراعة التى تعلمها الانسان فى العصر الحجرى الحديث ، وانتقال المستوطنات والمقار الصغيرة التى كانت فى ذلك العهد الى قرى كبيرة ومدن صغيرة كانت نواة المدن التى اتسعت فيما بعد فى العهود التاريخية . وقد وجد المنقبون من هذه القرى نماذج كثيرة فى العراق وفى مصر وفى سورية وسائر أنحاء الشرق الادنى . وقد رأينا فيما مر بنا ان الناس كانوا فى العصر الحجرى الحديث فلاحين بالدرجة الاولى ، ولا يبحثون الا مقادير محدودة من الحبوب لقوتهم ، أى انهم كانوا يعيشون «بالاكتفاء الذاتى» من ناحية الاقتصاد والانتاج وهو نقص خطير فى حياة انسان العصر الحجرى الحديث ولكن نشأ فى عصور ما قبل السلالات أولى طلائع تقسيم العمل والتخصص ، ونشأ طبقة جديدة من الناس عاشت فى القرى المتسعة حياة حضرية وتخصصت بالصناعات الاستهلاكية فكانت طلائع الاحتراف وبداية العمران البشرى ، واقتصر أمر الفلاحين على الاساس الرائد لمبادلته بالصناعات الجديدة ومن هؤلاء الحضر نشأ طبقات الصناع والتجار والموظفين والحكام وغير ذلك من الطبقات التى تكاثرت وتوضح نوع اختصاصها فى زمن الحضارة الناضجة . ومن الامور المهمة التى يجدر ذكرها عن الزراعة فى

منذ منتصف هذا العهد تقريبا مما زاد فى امكانياته الاقتصادية ومكن حياته المستقرة بحوار حقله وبستانه .

٢ ـ لقد أظهرت التقيبات التى أجريت حديثا فى مواضع مختلفة من الشرق الادنى آثار هذا العهد بكثرة . وقد وجد ان هذه الآثار متشابهة بوجه عام فى جميع أنحاء الشرق الادنى وأبرز ما فيها نوع جميل من أوانى الفخار المصنوع بالالوان والاشكال الزاهية . وتنقش هذه الاوانى عاده اما بلون واحد أو بألوان متعددة نقوش هندسيه ونباتية وبصور حيوانات ومناظر طبيعية وقد عمت صناعة الفخار هذه جميع أقطار الشرق الادنى حتى بداية العهد التأريخى فى أواخر الالف الرابع ق . م . ولعل هذا الطور (أى عصور ما قبل السلالات أو العهد الحجرى ـ المعدنى) كان المرحلة المشتركة التى بدأت منها حضارات الشرق الادنى ، ولكن سارت كل منها بعد ذلك بالطرق الخاصة بها فى العصور التأريخية . وقد وجدت تلك الآثار فى قرى لا تعرف أسماؤها القديمة ، فسميت الاطوار الحضارية التى جائنا منها آثارها بأسماء هذه القرى فى الوقت الحاضر . وقد وجد بعض هذه الآثار فى الطبقات السفلى من المواقع القديمة التأريخية التى قامت فى الاصل فوق قرى هذه الاطوار القديمة . ففى العراق تعرف تلك الاطوار بأطوار «حسونة» و «سامراء» و «حلف» و «العبيد» و «الوركاء» و«جمدة نصر» . ويمثلها فى مصر الطور «البدارى» و «الامارى» و «الجرزى» و «نقادة» ووجدت آثار هذا العهد فى سورية والبلاد الشامية الاخرى مثل وادى «العمق» وفى منطقة الحابور وفى الحديده ورأس شمرة «أوغاريت القديمة» وفى تل حلف وفى «أريحا» فى فلسطين وغيرها . ووجد ما يضاهى هذه الآثار كذلك فى ايران فى (سلياك) وفى مواضع فى تركية مثل «مرسين» و «سكجى كوزى» [1] .

(١) حول وصف هذه الاطوار ولا سيما فى مصر وفى بلاد الشام أنظر البحث الخاص لكل منهما فى الجزء الثانى .

٣ ـ ومما يجدر ذكره عن هذه العصور ان آثار الاطوار الاولى منها قد نشأت ووجدت في مناطق الواحات ، وفي النجاد والمرتفعات في شمالي العراق حيث الري والزراعة بالاعتماد على الامطار بالدرجة الاولى ، وعلى الرغم من عدم الاطمئنان تماما الى هذا النوع من الري ، الا ان ضبط الزراعه في الواحات أسهل منه في وديان الانهار التي تتطلب جهودا وفنا في ضبط الفيضان وتنظيم شؤون الارواء واحكام السدود . ولعل الانسان قد تعلم مبادىء الري في مثل هذه المستوطنات أي في مناطق الواحات والمناطق الجبلية ، كما في موقع «حرمو» وتل حسونة ، والاربجية في شمالي العراق وذلك قبل أن ينتقل الى وديان الانهار الكبرى التي انشأ فيها الحضارة الراقية في وادي الرافدين ووادي النيل ، وقد حدث هذا الانتقال عندما أحدث الياسه سكون في القسم الجنوبي من العراق ، وصار صالحا لسكنى الانسان ، وكذلك الحال في دلتا النيل . ومما تمتاز به كل من القطرين انها غنية بالامكانات ولكنها صعبة تستلزم السكنى فيها واستغلالها والاستفادة منها جهودا وتنظيما ، ولا سيما تنظيم شؤون الارواء والسيطرة على مياه الانهار والا اصبحت امكاناتها ونعمها شرا وبلا كما حدث ذلك مرارا وتكرارا في فترات مظلمة من تأريخ العراق أهملت فيها شؤون الارواء ، مثل الفترة المظلمة التي عقبت سقوط الخلافة العباسية ، والفترة التي عقبت اضمحلال الحضارة البابلية منذ القرن الخامس ق . م . وكما يحدث في العصر الحاضر عندما يهمل السيطرة على الانهار وشؤون الارواء فيها . وان ما نشاهده من أطوف الاطلال المنتشرة في جميع سهول العراق المقفرة الا من وقيعان الانهر الجافه وما نشاهده من الاهوار والمستنقعات في منطقة البطائح بين البصرية والعمارة ، كل ذلك من نتائج اقتراض الحضارات القديمة التي انشأت وسائل العمران تسيطر بها على الطبيعة بالعمل والعلم والفن .

ولعل أهم سبب لانتقال الانسان الى وديان الانهار في وادي الرافدين بكاثر الجفاف الذي بدأ منذ أواخر العصر الحجري القديم في أنحاء الشرق

الادبى ، وبدأ يحل حتى فى مناطق الواحات ، فالتجأ الانسان فى الارمان المتأخرة من عصور ما قبل السلالات الى ودمان الانهار فى وادى الرافدين فى القسم الجنوبى وفى دلتا النيل فى مصر ولقد جاء الانسان الى هاتين المنطقتين وهو مزود بمبادىء بسيطة من الاختراعات التى انتجها فى تلك العصور ، مثل المعرفة الابتدائية بالتعدين ومبادىء الرى البسيطة والفخار وكذلك أبسط أنواع العجلة فماذا وجد فى بيئته الجديدة ؟ لقد وجد أرضا خصبة تتكون وهى ملآى بالحيوان والنبات ، ووجد مياها دائمة ، ولكنها كانت بيئة صعبة تحتاج الى السيطرة والتطبيع . فكان نوع من التحدى أو امتحان فرضته البيئة الطبيعية على الانسان وهو فى بداية مراحل الحضارة . فتفاعلت هذه البيئة الجديدة الصعبة مع قابليات الانسان فعمل هذا التفاعل بينه وبين البيئة على ان حفزه لايجاد حلول لما جابهه من مشاكل ، فكانت هذه الحلول والاستجابة الى ذلك الامتحان العسير ما أنشأه الانسان الاول من حضارة راقية فى العراق وفى مصر ، سنأخذ عنها شيئا فى الفصول الآتية .

٤ ـ لقد توجب الاختراعات التى اهتدى اليها سكان وادى الرافدين فى عصور ما قبل السلالات بانقلابات جذرية فى الاطوار الاخيرة منها ولا سيما بعد ان حل قرب الانهار فى العراق وفى مصر ، ومن ذلك ما ذكرناه من اتساع الزراعة وبداية الحياة الحضرية وشيوء أولى المدن والاختصاص وعرف بداية الحضارة الاولى فى العراق ومصر فن التعدين أى صناعة النحاس والبرونز . فعرف العراقيون القدماء صنع النحاس فى العهد المسمى «بطور العبيد» (فى حدود ٤٠٠٠ ق . م) وعرفوا صنع البرونز فى عهد «جمدة نصر» (فى حدود ٣٢٠٠ ق . م) وابتدعوا دولاب الخزاف وصنعوا الآجر والاختام الاسطوانية والعربة ذات العجلة والمحراث الذى حل محل قطعة الحجر التى كانت تستعمل لنبش الارض فى العصور الحجرية الحديثة . واهتدى سكان العراق القدماء الى صنع السفن الشراعية فى عهد قديم جدا فى عهد العبيد السالف الذكر ، بدلالة ما وجد من النماذج فى أوانى المقبر من

ذلك العهد وفى اريدو • وبوحت كل هذه الوسائل بابداع وسيلة للتدوين أى الكتابه • وقد تم ذلك فى العراق قبل غيره من أقطار الدنيا كما عرف دولات الحراف ومن المعدن والعجله فيه كذلك قبل الحضارات الاخرى • وبذلك فى الأطوار الأخيره من عصور ما قبل السلالات الفنون الراقية كالنحت والتصوير والتطعيم (تطعيم أو تكفيت الاحجار بأحجار أخرى ثمينة) • وقد بدأ فن النحت منذ عصر الوركاء ولا سيما منذ نصفه الثانى (فى حدود ٣٥٠٠ ق • م •) • وظهرت كذلك المبانى العامة المهمه كالمعابد ، منذ عصر «العبيد» • وكثرت المعابد وازدادت أهميتها منذ عصر العبيد ، وظهرت فى صور أوركاء الأبنيه الدكاريه الدنيه ومن بين ذلك أولى الابنية الشاهقة التى سماها البابليون «زقورة» وهى الصرح أو البرج المدرج •

وقبل أن نذكر أطوار ما قبل السلالات فى العراق نؤكد هنا ما أشرنا اليه سابقا حول اسبقية الحضاره فى هذه الاطوار فى جميع أنحاء الشرق الادنى فوجد ما يضاهى آثار العراق من حسونة وطوبر سامراء وطور حلف والعبيد والوركاء وجمدة نصر (وهى أسماء أطوار ما قبل السلالات فى العراق كما مر بنا سابقا) فى أنحاء سوريه ولا سيما تل حلف (على رأس الخابور) وفى موضعين قريبين منه وهما تل «براك» و «شعربارار» مما يشير الى اسبقية الحضاره وتشابهها فى هذه الأرمان القديمه • وقد كشف البحث الحديث فى الموازنه بين حضارات الشرق الادنى عن وجود صلات حضارية قويه بين العراق ومصر فى أواخر الطور الحجرى ـ المعدنى (أى عهد ما قبل السلالات) وكذلك فى بداية عهد السلالات أى فى المراحل الاولى من نشوء الحضاره الراقيه فى كل من القطرين • وتتضمن هذه الصلات نواحى مهمة من مظاهر الحضاره كالآثار المادية والصناعات والاختراعات وبعض الاساليب والاطوار الفنيه وهى كلها خاصة بحضارة العراق واستمرت فيها ، ولكنها غريبة عن الحضارة المصرية اقتصر وجودها فيها زمنا محدودا ثم انقطعت • وهذه اعتبارات مهمة لا تدع مجالا للشك فى أصلهـا من حضارة العراق

القديم • وقد بدأت أولى هذه التأثيرات في الحضارة المصرية في حدود منتصف الالف الرابع ق • م • من عهد «الوركاء» في العراق وفي نهاية طور «نقادة» الثالث في مصر • فمنها الآثار التي وجدت في حلل «العرق» وفي مقبرة «هيراكونبولس» (اي مدينة الصقر) في مصر واستمرت هذه التأثيرات من حضارة العراق القديم في بداية السلالات المصرية الاولى مما يقابل عهد «حسده نصر» وعهد فجر السلالات في العراق وأبرزها رؤوس الدبابيس الحجر وأوانى الحجر المزينة بالحت السارز وبعض الاطرزة الخاصة بالاسلوب السومرية التي وجد ما يضاهيها في المقابر الملكية المصرية وفي المساطب القديمة وفي تخطيط اللحود الملكية الاولى ولا سيما لحود ملوك السلالة الاولى وكذلك استعمال الاحجار الاسطوانية الخاصة بحضارة العراق القديم[1] •

وأول ما تشير اليه هذه الاشياء وجود علاقات ثقافية وتجارية بين العراق ومصر بوجه خاص وبين أقطار الشرق الادنى بوجه عام وذلك منذ فجر التاريخ • وقد ذهب كثير من كتاب الباحثين في اصول الحضارة الى استباح امور هامة تتعلق باصول الحضارة المصرية في أطوارها الاولى واقتباسها التأثيرات والجواهر الاولى من حضارة العراق القديم كاقتباس فكرة الكتابة او الحفر عليها كما أظهرت البحوث حديثا[2] • ومهما كان تأثر الحضارة المصرية في أول أطوارها بحضارة العراق القديم الا انها أخذت فيما بعد منذ أواخر عصور ما قبل التاريخ تنمو مستقلة وتتصف بطابعها الخاص •

(١) حول هذه العلاقات الثقافية وتفسيرها انظر —
(Childe, **New Light on the Most Ancient East** (1952) 77 ff)
(2) J A Wilson, **The Burden of Egypt** (1950)
(3) H Frankfort, **The Birth of Civilization (looff).**

(٢) أنظر كذلك المراجع المذكورة في حاشية رقم ١ والمرجع الآتي
The Legacy of Egyppt (1942).

ومن الامارات القوية على وجود الاتصال الثقافي والتجاري بين العراق وسائر أقطار الشرق الادنى في هذه العهود السحيقة ان سكان العراق الاقدمين استعملوا في حضاراتهم بعض أنواع الحجر والمعادن وأشياء أخرى لا توجد في العراق بكثرة وبعضها لا توجد بالمرة ولكنها استوردت من الاقطار المجاورة . وكان الحرف الجنوبي الشرقي من جزيرة العرب من أقدم المصادر التي جلب منها العراقيون القدماء معدن النحاس وقد بقي الحال كذلك في العهود الأريحة القديمة كما تشير الى ذلك أخبار الملوك الاوائل مثل «سرام ـ سين» الاكدي و «جودية» حيث ذكرا أمكنة في الجزء الشرقي الجنوبي من جزيرة العرب جلبا منها النحاس .

وقد وجدت آثار خاصة بحضارة العراق القديم من طور «جمدة نصر» وعصر فجر السلالات والعهد الاكدي في سورية الشمالية في منطقة الخابور والبليخ . ونشأت مراكز حضارية في سورية ازدهرت فيها الحضارة السومرية مثل منطقة مدينة «ماري» (تل الحريري الآن على الفرات قرب الحدود السورية العراقية) .

وانتشرت اختراعات العصر «الحجري ـ المعدني» من مراكز الحضارات في العراق ومصر الى مناطق أخرى من العالم مثل جزر بحر «ايجة» والبركستان والهند . وانتشر تأثيرها فيما بعد الى أقطار أخرى بعيدة .

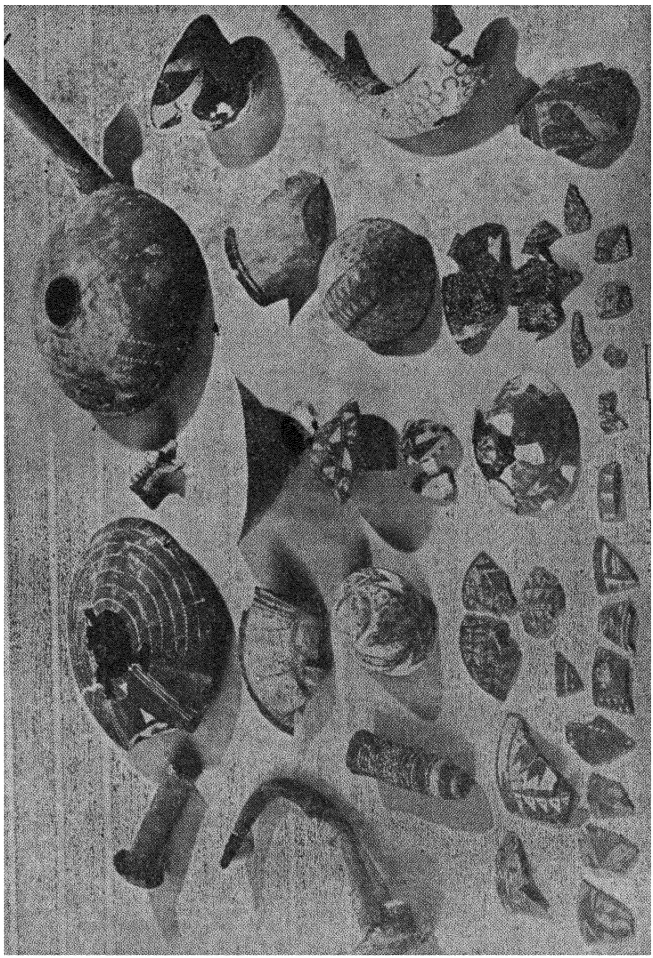

نماذج من أوانى الفخار الجميله من عهد العبيد (من «اريدو» ـ ابو شهرين)

الفصل الرابع

أقدم القرى من فجر الحضارة في العراق

لخصنا فيما سبق الخصائص العامة للاطوار التمهيدية لنشوء الحضارة وهي الاطوار التي سميناها بعصور ما قبل السلالات أو فجر الحضاره . وسنتحدث في هذه الاطوار بوصف أقدم القرى التي ظهرت في العراق في هذا العهد وكشف فيها عن آثار عصور ما قبل السلالات. وقد بدا فيما سلف بأنه يسر الباحثون هذه الاطوار في العراق وكذلك في أقطار الشرق الادنى بنوع أدوات الفخار والالات والادوات الخاصه بكل طور. وقد وجدت هذه الآثار في قرى قديمه لا يعرف اسماؤها الآن بحثة ولكن سميت الاطوار المختلفه التي وجدت آثارها فيها بأسماء هذه المواضع الحديثة ، وقد أطلق اسم الموضع الذي وجدت فيه آثار الطور الخاص أول مرة (بقدر قل غيره من المواضع) على ذلك الطور . وبذلك حصلنا على الاطوار التي تسمى بحسب التسلسل الزمني الآتي : حسونة ، وسامراء ، وحلف ، والعبيد ، والوركاء ، وجمدة نصر .

وقد عثر على بعض المواضع القديمة وهي تحوي على آثار تلك الاطوار كلها أو بعضها وتسلسل فيها من حيث القدم بحسب الطبقات فآثار طور حسونة مثلا في أسفل هذه الطبقات ثم يلي ذلك آثار طور سامراء وهكذا الى سطح التل حيث توجد أحدث الادوار . ومما يلاحظ في آثار هذه الادوار بوجه عام اننا سنطيع أن نلمس من دراستها الخطوات التدريجية في تقدم الحضارة حتى نصل الى آخر هذه الاطوار وهي طور الوركاء وجمدة نصر فنشاهد ان التقدم الذي أحرزه سكان العراق قد بلغ

مرحلة نصح فيها ان نعد هدى الطورين نسمى عهد الحضارة الناضجة لولا اعتبارات منها اعتماد المؤرخين على حصرهما فى عصور ما قبل السلالات لعدم وضع الكتابة فيهما ولذلك فقد يدعى هذان الطوران بالعهد «الشبيهة بالعهد التاريخى أو الكتابى» (١) ولا يقصر هذا القدم المحسوس الذى نشاهده باديا من أولى بقايا العصور الى احتوائها على الادوات والآلات الخاصة واننا يشمل عناصر هامة من حضارة العراق القديم ، كفن العمارة والنحت وبعض الفنون الاخرى مما سنشير اليه فى فصول خاصة • ومما يحلو اساه الباحث فى أصول حضارة العراق القديم بوجه خاص ان أسس الحضارة الناضجة التى سنشاهد آثارها فيما بعد وهى الحضارة السومرية ترجع الى هذه الاطوار الممهدة أى ان أصولها وجذورها تمتد فى تربة وادى الرافدين وكان هذه الجذور هى التى مدت أشجارا واضحة المعالم فى عهد الحضارة السومرية اى عصور فجر السلالات ، مهما كان أصل أول الاقوام الذين يقترن باسمهم هذه الحضارة الاولى (وهم السومريون) • وهذه فى الواقع حقيقة على قدر عظيم من الاهمية بالنسبة الى أصل الحضارة السومرية وما دار حولها من افتراضات لا تستند الى الحقائق الثابتة •

لقد سبق أن ذكرنا ان أولى علائم الانتقال الى فجر الحضارة اتساع القرى والزراعة فى جميع انحاء الشرق الادنى • وقد قام أغلب هذه القرى فوق انقاض قرى قديمة عاشت فى أواخر العصر الحجرى المتأخر وقد وجدت تلك القرى من هذه العصور فى العراق وفى مصر وفى سورية وفلسطين وايران • ففى العراق عثرت مديرية الآثار العراقية

(١) (Proto-Literate) وقد أطلق جدينا على طور جمدة نصر والنصف الثانى من طور الوركاء حسب ظهور الكتابة لاول مرة فى تاريخ الانسان •

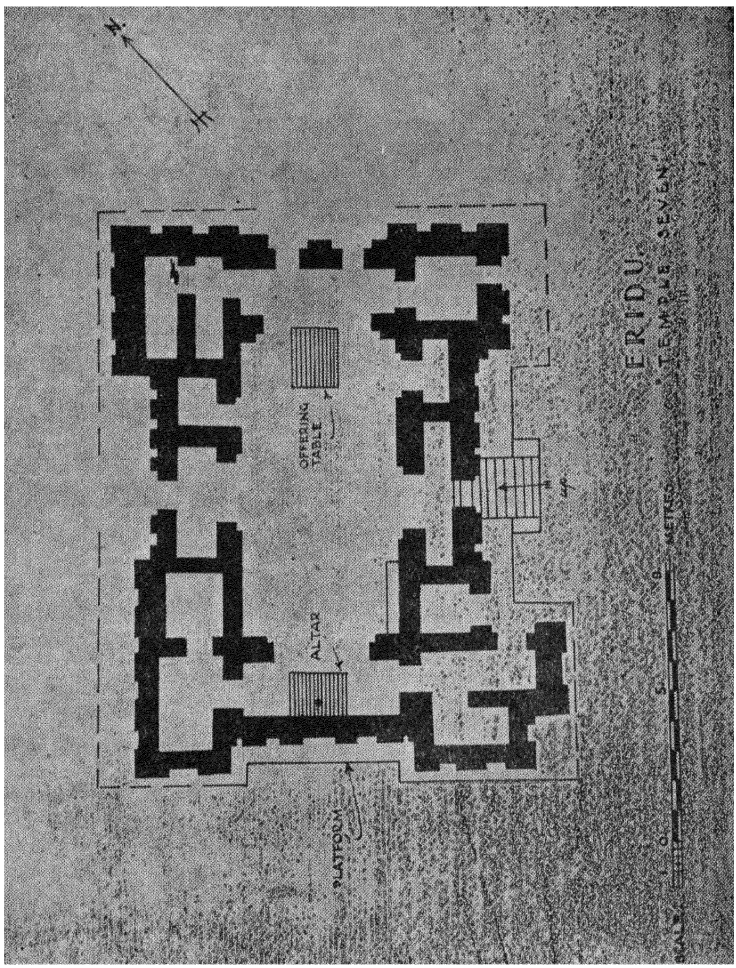

أقدم معبد وحد فى العراق ، من عهد العبيد (فى اربدو) (٤٠٠٠ ق ٠م) ،
وبذلك يكون أقدم بنايه دننه فى تأريخ العالم

عام ١٩٤٢[١] على آثار قرية يسمى موضعها الآن «حسونة» حوبى الموصل محوالى الـ ٣٥ كيلو ونحو ٨ كم شمال شرقى قرية الشوره وقد عثر فيها على آثار أقدم فلاحين عاشوا فى منطقة الموصل فى حدود الالف السادس ق • م • وقد عاش أحداد هؤلاء فى بيوت الشعر اذ لم يعرفوا بناء البيوت • ولكن أحفادهم تقدموا بعد أجيال فبنوا بيوتهم من الطين (الطوف) وصنعوا أوانى الفخار المرينة بالاصباغ • وصنعوا أدواتهم وآلاتهم من الحجارة والعظام لانهم لم يهتدوا بعد الى استعمال المعادن • ويعد هذا الطور (٥٢٠٠-٥٠٠٠ ق • م) أول أطوار العصر الحجرى ـ المعدنى • وقد وجد ما يضاهى آثار حسونه فى مواضع أخرى فى شمالى العراق ، لان النسيم الجوى منه كان غير صالح للسكنى وكان أحدا فى التكوين،وكذلك وجد فى

(١) قام بالحفر فيه فى موسمين ١٩٤٣ وعام ١٩٤٤ • وتل حسونه موضع صغير (٢٠٠ × ١٥٠ م) يرتفع نحو ٧ أمتار عن السهل المجاور وقد أظهرت السبر التى فيه ست عشر دورا او طبقه بنائيه تمثل خمسة ادوار حضاريه فالطبقه الاولى من الاسفل تمثل اواخر العصر الحجرى الحديث • والطبقات (Ia-III) تمثل دور حسونه الذى يمتاز بنوع من الفخار المنقوش بالحزوز والخطوط والوان • والطبقات (IV - VI) تمثل دور سامراء والطبقات (X - VI) دور حلف ، والطبقات (XII - XI) عهد العبيد ، والطبقات العليا من الادوار المتأخره •

انظر المراجع الآتيه (Sumer, I 1945), No 2,59 ff),
ILN, 11 Agust (1945), Journal of the Near Eastern Studies, IV, 4 (1945), 255 ff , Sumer, III 1 (1947), 26 ff , Sumer VI (1950), 93 ff , André Parrat, Archéologie Mesopotamienne II (1953) 8 ff

وفى موضع يقع فيه بعيدا من جامعه شمشكاغو تل مطار وجد أدوار تضاهى أدوار حسونه ما عدا بقايا العصر الحجرى الحديث • ويبعد الموضع جنوب كركوك بنحو ٣٥ كيلو مترا •

(انظر تقرير نتائج الحفريات فى
(Braidwood et al, "Mattarah" in **Journal of the Near Eastern Studies,** XI (1952), 1 ff)

مواضع أخرى في مصر مثل (الـــدارة) وفي (العمق) ورأس شـمرة و «الحديدة» في بلاد الشـام •

طور سـامراء :ـ

وعقب رمس الفـلاحين القدامى في «حسـونة» طور آخر من أطوار ما قبل السـلالات في العـراق سـمي بطور «سامراء» لانه اكتشفت آثاره أول مرة في منطقة مدينـة سامراء[1] • وقد قدر زمنهـا في أواخر الالف السادس ق • م • ومع قلة الآثار التي وجدت من هذا الطور في سامراء وفي موضع حسونة وبيوى وغيرها من المواضع في شمالي العراق فانهـا تشير الى تقدم ملحوظ بالنسبة الى ما سبقها ، وفي المتحف العراقي نمـاذج من آثار هذا الطور ولا سيما أوانى الفخار الجميلة التي تمتـاز بنقوشـها الهندسية وبأشكال حيوانات وبشر رسمت بصورة تقريبة • وتدل السكاكين الحجرية والاوانى المحوتة من حجر الرحاح البركاني (الحجر الاوبريدي) التي جائتنا من هذا الطور على تقدم في الصناعة واتساع التجارة والمواصلات وذلك لجلب هذا الحجر الموجود عادة في منطقة أرمينية وبعض بلاد العرب •

طور حلف :ـ

وعقب طور سامراء عصر من عصور ما قبل السلالات سمي باسـم «حلف» نسـبة الى تل حلف الواقـع في أعلى نهـر الخـابور بمسـافة ١٤٠ ميلا شمال غربي سوى ثم اكتشفت آثار هذا الطور من بعد ذلك في مواقع متعـددة في شـمال العـراق ويرجـع زمن طور حلف الى حـدود

(١) اشتغل على بقايا طور سامراء في موضع سامراء العباسية في أثناء التحريات في قصور الخلفاء وبقايا المدينة العباسية منذ عام ١٩١٢-١٩١٤ برآسة الاستاذ هرزفلد •
(انظر **E. Herzfeld, Die Ausgrabungen von Samarra. V Die Vorgeschichtichen** Topfereien (Berlin 1930) , André Parrot, Op Cit , II, 126 ff)
ثم وجدت آثار هذا الطور في مواضع أخرى في شمالي العراق . منها الموضع السابق حسونة ومطاره ، وتبه كورا والاربجية •

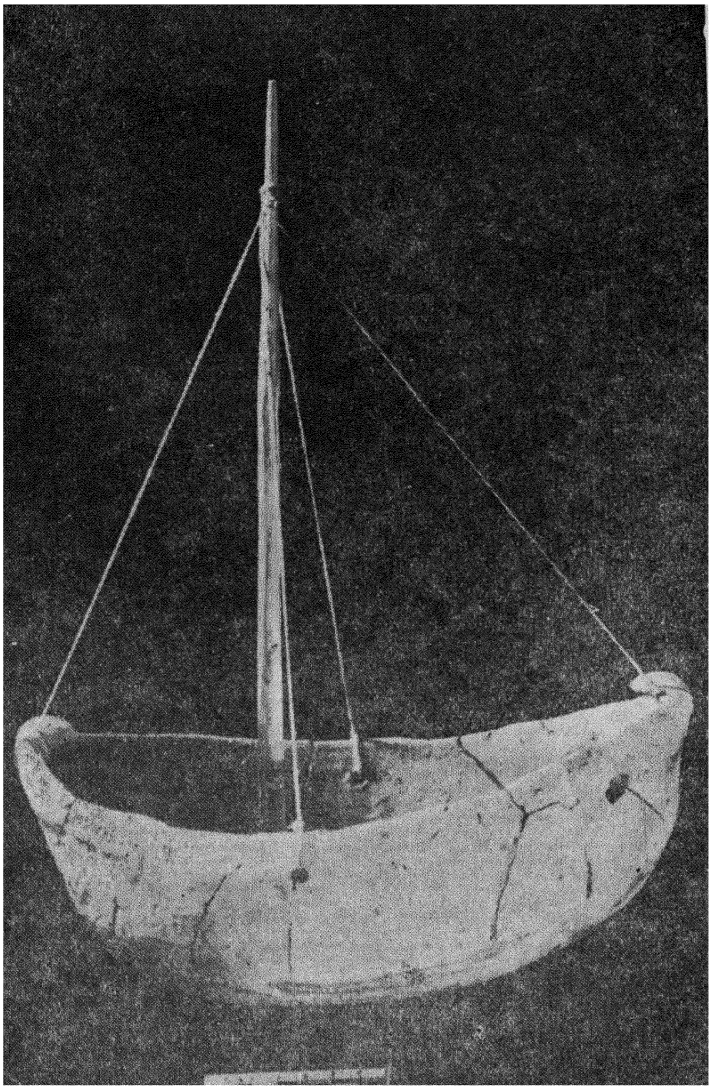

نموذج مصغر من الفخار يمثل أقدم قارب استعمله الانسان في الملاحه
(من عهد العبيد في اريدو)

(٤٥٠٠-٤٠٠٠ ق . م .) . ومما يمتاز به هذه الآثار بوجه خاص أوانى الفخار النفيسة الجميلة ذات النقوش المصنوعة بألوان متعددة فى الاناء الواحد . وتتألف من ألوان زاهية من الاصفر والاحمر والرمادى والاسود على رصيد من الفخار مصقول رقيق . وقد زينت هذه الاوانى بنقوش تعد أحسن ما صنع الانسان القديم من الفخار . وتشير احدى القرى التى كشف فيها عن آثار هذا الطور فى شمالى العراق (فى موضع يسمى الاربجيه قرب الموصل) الى تقدم القرى فى هذا العصر فى العراق تقدما محسوسا بحيث أخذت تقرب من المدن المتطورة . وقد كشف فى القريه المذكوره ، أى قرية الاربجيه ، عن شوارع مبلطة بالحجاره واحيطت القريه بسور وشيدت فيها مبان عامة كانت بمثابه المعابد الدينيه مما يدل على تقدم فى أحياء الاجتماعيه . واستمر سكان القرى فى العراق الشمالى فى اتصالاتهم التجارية كما تشير الى ذلك بعض المواد التى لا توجد فى العراق ولا سيما حجر الرخام البركانى ووجدت آثار طور حلف فى سوريه فى رأس شمره «أوغاريت القديمه» وفى غيرها من المواضع كما ان اسم هذا الطور مستمد بالنسبه الى موضع حلف فى سوريه [1] ومما يجدر ذكره ان آثار الاثوار السائدة الذكر (أى حسونة وسامراء وحلف) اقصر وجودها فى مواضعها كلها فى شمالى العراق ولما يعثر عليها فى القسم الجنوبى منه .

ولكن الحياة كانت تتكون فى القسم الجنوبى من العراق منذ العصور الحجريه بما كان يحمله النهران العظيمان على مر الدهور من الطمى والغرين وتظهر فى بادىء الامر حزر وسط أهوار تتحول بالتدريج الى سهول

(١) حول طور تل حلف والمواضع التى عثر فيها على آثاره انظر المراجع الآتيه (أنظر)

(1) Von Oppenheim, **Tell Halaf**, 1, (Berlin, 1943)

(2) M E L Mallowan & C Rose, **Prehistoric Assyria. the** Excavations at Tall Arpachiyah (1933, Iraq, II, 1935, 1 ff)

(3) André Parrot, Op Cit , II, 136 ff

(4) G Childe, New Light, 110, 217 ff

حصة صالحة لسكنى الانسان • وقد أظهرت التقيبات التى أجريت فى مواضع قديمة فى حنوبى العراق ان أول من اسوطن هذه السهول الحديثة النكوص هم أصحاب حضاره عقب حضارة حلف فى الرمن فى أواخر الالف الخامس ق • م • وقد حلف لنا أقدم هؤلاء نمادج من أوانى الفخار الجميله الصنع عثر عليها فى «اربدو» (ابو شهرين) وهى تمثل أقدم مرحلة[٢] من طور حديد عقب طور حلف فى الحنوب وسمى بطور «العبيد» •

طور العبيـــد :ـ

وبذلك يكون طور «العبيد» أقدم أطوار فجر الحضاره فى القسم الحنوبى من العراق • لانه لم يعثر على آثار أطوار أقدم منه فى جميع هذا القسم ، مما يدل على انه لم يكن صالحا لسكنى البشر الا فى أواخر عصر حلف أو فى حدود ذلك الرمن وقد سمى هذا الطور بطور العبيد نسبه الى تل على بضعة كيلو مترات من الناصرية قرب مدينة اربدو «ابو شهرين» • ومما يميز آثار هذا الطور انها منتشرة فى جميع أنحاء العراق ووجد ما يضاهى أوانى الفخار المنقوشة فى علام وتتصف أوانى الفخار بأنها مزينة بلون واحد قوامه خطوط سود أو سمر أو حمر بارزة على سطح الاناء ذى اللون الاحمر • ووجدت من هذا العصر نماذج مهمه من المعابد فى القسم الشمالى والحنوبى من العراق وهى تتصف بالخصائص الاساسية لمعابد العراق القديمة فى العهود التأريخية • وقد وجدت كذلك نماذج من أسنة اللبن بدلا من «الطوف» فى العهود السابقة • وتحسنت الزراعة وكانت أساس

(٢) وجدت آثار هذا الطور أول مره فى أقدم طبقات السكنى فى مدينه «اربدو» أبو شهرين الحاليه ، اقدم المدن السومريه واقدسها وقد قامت بهذه التنقيبات مديريه الآثار العراقيه حديثا (١٩٤٧–١٩٤٩) والمرجح كثيرا ان نماذج الفخار المكتشفه فى أقدم أدوار السكنى فى «اربدو» لا تمثل طورا حديدا يقع بين حلف والعبيد وانما ذلك ، كما ذكرنا فى المتن ، المرحله الاولى من طور العبيد ، وشبيه بتلك النماذج الفخار الذى وجده مستر الوركا فى الموضع المسمى «قلعه حاج محمد» •

(A L Perkins, **The Comparative Archaeology of Early Mesopotamia** (1949)

الحياة الاقتصادية • وانتشر استعمال المعدن ولا سيما النحاس في الشطر الثاني من عهد العبيد • فكان ذلك خطوة مهمة في تقدم الحضارة • وحائما من هذا العصر نماذج من وسائل المواصلات التي استعملها سكان العراق الاقدمون أهمها العربة ذات العجلة ، ونماذج من سفن شراعية[1] لاتزال نشاهد ما يضاهيها في العراق الحديث • وقد وجدت قرية من قرى العبيد في موضع سمي العقير وجدت فيها نماذج مهمة من بيوت هذا العهد وهي تقوم على جانبي شوارع صغيرة • وتدخل الى البيوت من أبواب من الخشب أو القصب تدور أعمالها على حجارة محوفة • وكانت سطوح الدور مسوية ، وهي ذات ميازيب من الفخار نشبه شبها تاما ميازيب القصدير المستعملة اليوم في العراق • وتحوي كل بيت على أربع أو ست حجرات مسقفة المحتمل وترقى الى السطوح بواسطة درج وقد عرثت احدى الحجرات لتكون مطبخا ووضع فيها التنور ووجدت منه نماذج لا تزال شائعة الاستعمال في الشرق ولا سيما في العراق ، وقد حرث الفلاحون الارض بمحاريث ذات رؤوس من الصوان • ويبدو ان المحراث الكبير لم يهتد الى صنعه • وكانوا يحصدون الغلة بمناجل من الفخار مطبوعة طبعا شديدا قبل أن يشتهر في ذلك العهد استعمال النحاس بكثرة ووجدت من هذا العهد آثار من العظم والمعادن تدل على وجود الحياكة • والمرجح كثيرا ان أهل طور العبيد هم الذين قاموا بتجفيف الاهوار في الجنوب ، وان انتشار فخار العبيد الى الشمال يشير الى انتشار طور العبيد أو تفاعل أهله في أكثر جهات العراق • وتدل على أدوار المعادن التي وجدت في أريدو بمكن تقدير مدته هذا الطور بنحو ٤٠٠ عام •

(١) وجد هذا النموذج في أثناء تنقيبات مديرية الآثار العراقية في تل «أبو شهرين» (اريدو) (حول نتائج التنقيبات في اريدو انظر المراجع السابقة) • وقد سبق ان ارجعنا عهد العبيد في حدود ٤٠٠٠ ق • م • وبالامكان تاريخه تقريبا بنحو ٤٥٠٠ ق • م ولا سيما في القسم الجنوبي من العراق ، وهذا رغم تضاهي طور «العوم» اي العصر الحجري الحديث في مصر بحسب نتائج طريقة تعدين ادوار التاريخ بالاشعاع الكربوني • التي تشير بحسب نتائج طريقة تعدين أدوار التأريخ بالاشعاع الكربوني (C14) (Childe, New Light (1952), 171)

ويمكننا أن نسمي أهل طور العبيد في القسم الجنوبي من العراق بالسومريين الأوائل السومريين ، كما انه بوسعنا أن نستدل على كثرة السكان في هذا الطور من عدد المقابر التي وجدت في «اريدو» من أواخر عهد العبيد (حوالي ٢٠٠ مقبرة في موضع واحد أي في اريدو وحدها) • ونؤكد ما سبق ان ذكرناه من انتشار طور العبيد في جميع أنحاء العراق تقريبا ، حيث وجدت مواضع كثيرة تنتشر فيها آثاره •

أ ـ الكتابة بالكتابي (أو التأريخي) :ـ

وعلى الرغم مما لا حظناه من علامات التقدم في طور العبيد السابق الذكر فان سكان العراق الاقدمين لم يهتدوا في هذا الطور ولا في الادوار التي سبقته الى طريقة للدوس ـ أي بعبارة أخرى لم يعرفوا الكتابة • ولكن هذا النقص لم يستمر طويلا اذ اهتدى فيما بعد الى اختراع الكتابة • وقد بدأ هذا الانقلاب في تأريخ الحضارة البشرية أول مرة في العراق في منتصف العهد الذي أعقب طور العبيد ، ذلك العهد الذي أطلق عليه اسم «عصر الوركاء» (٣٥٠٠ـ٣٢٠٠) وقد سبق أن اصطلحنا على العهد الذي يمثل النصف الثاني من عهد الوركاء وتلي طور جمدة نصر اسم «العهد الكتابي» • وبدأت الكتابة في أول أمرها بسيطة مبدؤها تدوين الاشياء التي ألفوه برسم صورها وهذا ما يدعى بالكتابة الصورية • وقد اتخذوا ألواح الطين ليكتبوا عليها وهي طريقة بقلم من القصب أو الخشب • وظل الطين أهم مواد الكتابة في جميع تأريخ العراق القديم ، ولكنهم اتخذوا مواداً أخرى للكتابة كالحجر والمعادن • وبعد مرور أجيال على ظهور الكتابة الصورية ، أخذ تطور وبعد عن الشكل الصوري ، واستعملت مجموعة من العلامات للتعبير عن المعاني المجردة • وتطورت الصور شيئا فشيئا وبعد الشبه بين أشكالها وأشكال الاشياء التي كانت تمثلها في الاصل وصارت علامات مختصرة تشبه ما تشبه المثلثات أو المسامير ولذلك سميت بالكتابة المسمارية • وصارت تستعمل بهيئة مقاطع صوتية لكتابة الكلمات والجمل بعد تقطيعها الى مقاطعها • وسنأخذ أشياء أخرى مفصلة عن الكتابة وتطورها في القسم الثاني من هذا

منسهد عام بين السقيبات الحاريه فى اربدو (ابو شهرين) فى الحزء الحاص
بمعالد المدينه حيب كشف عن أقدم معالد فى تأريخ الانسـان

الكتابة ، فيكفى هنا بأن نذكر ان [illegible] عن بدايه الطور الصوبى فى أواخر عهد الوركاء (فى الطبقة الرابعة من طبقات الوركاء) • ووجدت ايضا فى الموضع نفسه ألواح من الطين بهيئة حداول بالعلامات المستديرة لتعلم الكتابة فهذه اذن أقدم أنواع المعاجم •

الوركاء :ـ

سمى هذا العصر الحديد «بالوركاء» نسبة الى مدينة «الوركاء» فى شرق الفرات بالقرب من مركز ناحية الحضر (السماوة) • والوركاء من أقدم المدن السومرية • وورد ذكرها فى التوراة باسم «ارك» واسمها السومرى «اوروك» فاختير هذا الاسم ليطلق على هذا الطور من أطوار عصر ما قبل السلالات ، الذى يرتقى الى حدود ٣٥٠٠ قبل الميلاد •

و الاضافه الى اختراع الكتابة فى منتصف هذا الطور حدثت تطورات مهمة فى حضاره العراق فى هذا العصر • بحيث يصح أن نعتبر ابتداء الحضارة الناضجة من منتصف هذا العهد ، فقد تقدم فى البناء ولا سيما المبانى العامة كالمعابد وقد وجدت فى هذا العصر معابد مشيدة على مصاطب مرتفعه مكونه من عده طبقات هى أصل (الزقوره) أو الصرح المدرج الذى اشتهرت به حضاره العراق القديم • والزقورة برج شاهق (كبرج بابل المشهور وبرج أور المقير وبرج بورسبا المسمى الآن برس نمرود وبرج عقرقوف) كان شيد حوار معبد المدينة وسمى بهيئة طبقات يتراوح عددها بين الثلاث واسبع طبقات تتدرج فى السعة بالتناقص حيث تكون أسفل الطبقات أكبرها ثم تليها الطبقات الاخرى • وكانوا يشيدون فوق القمة معبدا لعباده اله المدينه الخاص • ويرقى الى قمة البرج سلالم ، سلم لكل طبقة ، وكان يقوم بجوار الزقورة معبد المدينة الكبير الارضى• وقد وجدت أوائل هذه الزقورات حيث شيدت لعباده الاله «آنو» وقد سمى بالمعبد الابيض • وكذلك وجد نموذج للزقوره[1] فى موضع يسمى العقير بقرب فيه مديرية الآثار العراقية ويرجع

(١) (حول الآراء المختلفه عن الزقوره انظر
André Parrot, **Ziggurats et Tour de Babel** (Paris, 1949).

عهده الى طور الوركاء ، وقد زينت جدران المعبد المشيد فوق قمة الزقورة صور ملونة تمثل بعض الحيوانات مثل النمر والفهد تعد أقدم صور حدارية .

فن النحت والاختام الاسطوانية :ـ

وخلف لنا فنانو هذا العهد نماذج جملة من المنحوتات الحجرية تعد أقدم أنواع فن النحت فى تأريخ الفن . واخترع العراقيون القدماء فى هذا العصر أيضا شيئا مهما راد فى فائدة الكتابة بشيب صحة الرسائل والسجلات المكتوبة وهو يدلك الختم الاسطوانى الذى اختصت به حضارات العراق القديم . وكان أداة لازمه من المقتنيات الشخصية . والختم الاسطوانى حرزة أو حجرة اسطوانية منقوشة بصور ورسوم مختلفة بهيئة معكوسه (كصورة المرآة) . فاذا دحرج على لوح الطين المكتوب وهو طرى يترك فيه طبعة الصور الاصلية . وكان بمثابة توقيع صاحب الختم وقد ينقش باسم صاحبه كما هى العادة فى العصور التى عقبت طور الوركاء . وقد سمى الختم الاسطوانى فى الاطوار السابقة نوع من الختوم المسطحة على هيئة الختوم (الطبعات) المستعملة الآن . وتجد المتون فى أطلال العراق القديمة ألوفاً من الاختام الاسطوانية وتعد هذه من المصادر والمآخذ المهمة لمعرفة أحوال العراق فى أدواره المختلفة التى يمتاز كل منها بنوع من الاختام المنقوشة بصور مختلفة تمثل مشاهد ومناظر من الحياة اليومية والعقائد الدينية والاساطير والحوادث الخلدة بالآداب .

جمدة نصر :ـ

وأعقب طور الوركاء الطور الاخير من العهود التى اصطلحنا على

نموذج من ألواح الطين المكتوبة بأقدم أنواع الخط المسمارى حسب كان
فى طوره الصورى فى العهد السبيه بالكتابى

نسميها بعصور ما قبل السلالات • وقد أطلق عليه اسم «حمده نصر» (٣٢٠٠-٣٠٠٠ ق • م) نسبه الى تل صغير يعرف بهذا الاسم قرب مدينة كيش القديمة • كما وجدت فى أماكن أخرى مثل كيس والوركاء والعقير وتل اسمر وفى مواضع أخرى • وقد تقدمت الاشياء التى اهتدى الى اختراعها العراقيون القدماء وتنوعت فى هذا العهد • ولا سيما الكتابة وفن النحت ، والمبانى بوجه عام ، وقد سبق أن أشرنا الى ان الشطر الثانى من طور الوركاء وهذا الطور الحديد أى « حمده نصر » يؤلفان حقبة خاصة هى أقرب الى العهد التأريخى وعهد الحضارة الناضجة منها الى عصور ما قبل السلالات لا سيما وان الكتابة قد ظهرت فى عصر الوركاء وتقدمت نوعا ما فى عهد حمدة نصر • ولكن مع ذلك كانت الكتابة لا تزال فى مراحل تطورها الاولى ولم تستعمل لتدوين الحوادث والتصاوير المهمة وسجلات الملوك بل اقتصرت على تدوين أمور بسيطة كواردات المعابد وتدوين المعاملات

السيطة ولذلك حشرنا هذين العهدين في عصور قبل السلالات. وتمار الاواني الفخارية من عهد جمدة نصر بانها منقوشة بعدة ألوان (olychrome) ويغلب على ألوانها اللون الاحمر القرمزي ، وأشكال الاواني شبه كروية مفلطحة قصيرة الرقبة ، عريضة الحافات ولبعضها أربع عرى صغيرة عند الكف . كما ان أنبوبة طور جمدة نصر تمير نوع غريب من « اللس » طويل ومقطعه يكاد يكون مربعا (يدعى بالالمانية kiemchen).

ونرجع الى طبقة تعود الى عهد جمدة نصر في الوركاء قطع قليلة من المنحوتات تشير الى درجة راقية وصل اليها فن النحت ويمكن من يزور المتحف العراقي التأكد من ذلك اذ سيشاهد بعض هذه القطع القليلة ولا سيما اناء كبير قديم من المرمر نقش من الخارج بأربعة حقول مختلفة من منحوتات بالنحت البارز تمثل موكب أشخاص وكهنة عراة يحملون القرابين الى سدرة . حولها ترجح انها الهة . ويوسع الزائر أن يكون فكرة عن صور السومريين الاوائل الذين أوجدوا أقدم حضاره في العراق ، ويشاهد كذلك في المتحف العراقي نصبا من الحجر الاسود (حجر البازلت) منحوتا بالنحت البارز يشهد بطل صيد الاسود . ومع ان هذين الاثرين وجدا في الوركاء في طبقة بانية تعود الى طور جمدة نصر الا ان المرجح انهما من بقايا العثور السابق أي طور الوركاء . ووجد مدة بضعة أعوام في مدينة الوركاء (وقد وجد فيها الاثران السابقان) رأس فتاة بالحجم الطبيعي منحوت نحتا دقيقا جميلا ، ويعد من أنفس الآثار القصة . وقد تفنن الناس في هذا العهد بصنع أواني الحجر الجميلة حتى كانوا يرسمون حافاتها بتطعيمها وترصيعها بأحجار جميلة ملونة بديعة .

ومما يقال في عهد جمدة نصر ظهور مدن جديدة مثل «جمدة نصر»

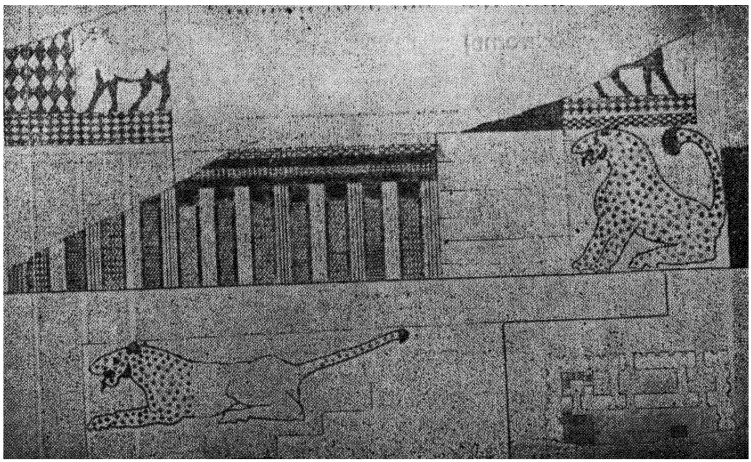

نماذج من الصور المنقوشه فى جدران معبد العقير (من طور الوركاء)

«وفاره» (شروباك القديمة) وماري (تل الحريري) [١] وصارت مستوطنات أخرى مدنا مهمه مثل كيش وحفاجي • ويمار طور حمدة نصر من الناحية الآثارية بنوع خاص من أوانى الفخار الملونة بعدة ألوان وهى ذوات أشكال وألوان جميلة تذكرنا بأوانى الفخار من عهد حلف كما ذكرنا ذلك سابقا • ويتميز كذلك بأنواع خاصة من الخواتم الاسطوانية المنقوشة بصفوف من الحيوانات والاسماك والطيور ، وقد نقشت هذه المشاهد بطريقة تبدو فيها مختصرة جامدة على خلاف نقوش الخواتم الاسطوانية من عهد الوركاء التى تمتاز بنقشها الدقيق البعيد • وفى الكتابة اخترل فى عدد العلامات المسمارية التى اخترعت فى الصف الثانى من طور الوركاء من ٢٠٠٠ علامة الى نحو ٨٠٠ علامة ثم الى ٦٠٠ علامة فى الاطوار التالية ، وكذلك وضح استعمال الطريقة الصوتية • وكثر استعمال أدوات

(١) انظر مجلة Syria, XVIII (1937), 6 ff

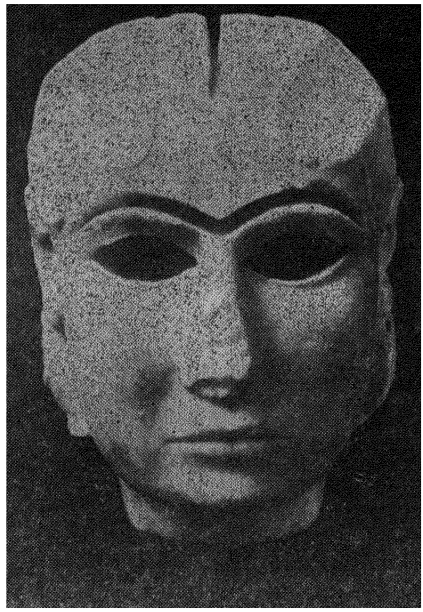

نحت من المرمر يمثل رأس فتاه بالحجم الطبيعى ، وجد فى الوركاء
ويرجح أنه يعود الى طور جمدة نصر

النحـــاس ، والمرجـح انهـــم عرفـوا البرونز ، وتقـــدم فن المعدن حتى انهـــم عرفـوا طريقـــة فصـــل الفضـــة مـن الرصـــاص [١] ووجد فى جمدة نصر نفســـها دكة اصطناعه (٣٠٠ × ٢٠٠م) أقيم فوقها بناء معقد (٩٢ × ٤٨ م) دعى بالقصر ، واذا صح ذلك فيكون هذا أقدم قصر من نوعـــه قـــل ظهور قصور الامراء والحاكمين بكثره فى عصر فجر السـلالات (Langdon in **Der Alte Orient,** 26 (1928), 67)

ولكن الذى لا شك فيه ان نوعا من الحكم كان معروفا فى العراق فى العهد الشبه بالكتابى ، كمـــا ان ضبط الرى واقامة السـدود قد ســـار شـوطا مهما .

(1) (Forbes, **Metallurgy in Antiquity** 1950, 210)

وملخص القول كان هـذا العهد (العهد الشبيه بالكتابى) ذا أهميـة خاصه فى ظهور الحضاره الناضجه فى القسم الجنوبى من العراق بحيث يمكن تسميه بطور تكوين الحضارة السومرية[١] وان عصر فجر السلالات عهد تبلور هذه الحضارة ، كما يتضح من الامور الهامة الا تيه التى أبحرها سكان القدماء :ـ (١) رى منظم واسع (بمقياس كبير) ، واتسع ذلك تكاثر السكان • (٢) تطور القرى الكبيرة الى المدن وظهور نظـام المدينـة ودول المدن (City - States) التى امتاز بها العصر التالى (عصر فجر السلالات)• (٣) شيوع نوع من نظام الحكم أهم ما يمتاز به الحكم الديمقراطى البدائى (الشورى) حيث يصرف شؤون مجتمع المدينه مجالس المشيخة وأهل المدينه (أنظر البحث الخاص بنظـام الحكم فى العـراق) • (٤) ظهور الكتـابة وتطورها • (٥) انتشار استعمال المعادن ولا سيما (النحاس) وبدايه انتشار فى العصـر • (٦) ظهور الابنيـة الدكارية (الفن البـدكارى Monumental Architecture) كالمعابد والزقورات[٢] •

(1) انظر Formative Period

(H Frankfort, **The Birth of Civilization,** 49 ff)

(1) H Frankfort, ibid (٢) حول ايجاز هذه الامور انظر

(2) Braidwood, **The Near East and the Foundations of Civilization.**

الفصل الخامس

الحضارة السومرية

وعصور فجر السلالات

١ ـ تمهيد في أبرز مميزات العراق الجغرافية :ـ

قبل ان نبدأ بالكلام على مظاهر الحضارة السومرية التي نشأت في القسم الجنوبي من العراق من الاطوار التي تحدثنا عنها سابقا نرى علينا أن نمهد لذلك بشيء من الكلام عن بعض الخصائص الجغرافية مما كان له أثر في سير تاريخه وتطور حضارته ، وسوف لا نتطرق الى التفاصيل الجغرافية الاخرى ، مقتصرين في ذلك على معرفة الطالب بهذه التفاصيل .

ومع اننا لسنا من الذين يجعلون البيئة الجغرافية العامل الاول في نشوء الحضارات وتطورها وطبعها بطابع خاص ، الا انه لا يسعنا انكار أثر الاوضاع الجغرافية في سير الحضارات والمجتمعات وأثر امكانات البيئة الطبيعية اذا استغلها الانسان وسيطر عليها . كما انه لا يجوز اغفال حقيقة حضارية مهمة وهي ان أثر البيئة الطبيعة في حياة الانسان كان في الازمان القديمة أشد منه في الازمان الحديثة التي تقدم فيها الانسان في أساليبه العلمية لدرجة يستطيع أن يضع لذلك قاعدة وهي ان أثر البيئة الطبيعية في حياة الانسان سار على أساس التفاوت بالنسبة الى تقدم الانسان الحضاري . فحين كان يتحكم في الانسان في عصوره الحجرية القديمة ، وكان طفيليا عليها وخاضعا لاعظم التأثيرات صار مشاركا لها في الانتاج في العصر الحجري الحديث يأخذ المبادئة بيده حتى صار مثلها يسح القوت والزراعة بيده ، وأخذ يقل أثر البيئة المطلق باستمراره الى الحضارة حيث بدأ يسيطر عليها منقلا

بذلك الى السيطره على بيئه الاجتماعة بايجاد الحلول لمشاكل المجتمع الناشئ بعد تعقد الحياه الاجتماعية بظهور الحضارة •

١ ـ ولعل أول ما يجلب الانتباه فى جغرافيه وادى الرافدين ان هذه البلاد اقليم نهرى عظيم فيه نهران عظيمان يمدهما عدد مهم من الروافد مما يجعل العراق[١] من الاقطار الهلالية فى الكره الارضية التى تدور على مثل هذه الانهار بهذا المقياس الكبير[٢] • ولما كان أكثر من نصف أراضى هذه البلاد تعتمد حياتها بالدرجة الاولى على زراعة الارواء لذلك صار تنظيم الرى والسيطره على الانهار من أبرز مقومات الحضارات القديمة فى العراق •

٢ ـ يجلب العراق عن الاقاليم الهلالية التى نشأت فيها الحضارات الاصلية الاولى مثل مصر بانه ذو امكانيات اساسية عظمى وبانه من الممكن ان تنشأ فيه جماعات بشرية ودول منفصله بعضها عن بعض ولها امكانيات

(١) لا تعلم بالضبط اصل اسم العراق ، والمرجح كثيرا انه كلمه فارسيه (ولعلها الفارسيه البهلويه) التى تعنى السهل او السواد او البلاد المنبسطة . ولعلها كما ذهب الباحث هرزفلد (انظر لغه العرب ج ٤ ٤٤١ فما بعد) معربه من «ايراك» (مثل ايران) ويوجد احتمال اخر هو ان لفظ العراق من الكلمات السومريه البائده التى تعنى «المستوطن» . وهناك حمله مدن سومريه أشهرها «الوركاء» يكتب سمارها بعلامه تعنى المستوطن • وذهب اكثر المفسرين العرب الى ان العراق تعنى «الحرف» او الساحل (انظر تاج العروس وياقوت) • وكان العرب يطلقون على اسم الجنوبى من العراق اسم ارض السواد او العراق ، والقسم الشمالى اسم الجزيره وهو يطابق اسم ما بين النهرين الرومانى Mesopotamia وهو اسم صار يطلق ايضا على كل العراق • وصار اسم السواد والعراق مترادفين • والجدير بالذكر من تاريخ استعمال اسم العراق أنه ورد فى اواخر العهد الكنسى (فى حدود القرن الثانى عشر ق • م) اسم قطر على هضبه «اربقا» . ويظن الاستاذ «أولمستد» ان هذه أول اشاره الى اسم العراق الذى صار الاسم العربى للبلاد بأكمل •
(Olmstead, **History of Assyria,** P 60)

حول الاسماء الجغرافيه الاخرى الخاصه بالعراق القديم انظر الحاشيه رقم (١) الص ٩٠ •

(٢) حول وصف دجله والفرات والانهار التى تصبها منهمـــا ومن روافدهما سكان العراق راجع البحث الخاص بتاريخ الرى فى هذا الجزء وكذلك البحث الخاص بالزراعه •

اقتصادية بكفيها ، ولذلك اعتبر وادى دجلة والفرات بأنه أقل وحدة من وادى النيل من الناحية السياسية • فبلاد بابل مثلا أى من بغداد الى الجنوب ، يمكن أن تكون وحدة سياسية اقتصادية حيث تعتمد هذه المنطقة على الأرواء النهرى • وحتى فى هذا الجزء أمكن لعدة دول مدن (City-states) أن تزدهر فيه جنبا الى جنب فى عهد ازدهار الحضارة السومرية (٣٠٠٠-٢٤٠٠ ق • م) أى انه أمكن أن تقوم فيه وحدات اقتصادية وسياسية • ولكن بعض العوامل الاخرى التى سنذكرها عملت على اتحاد هذه الوحدات ودمجها فى مملكة من بعد عهد دول المدن • وإذا ما سرنا شمالا من بغداد نجد العراق تقطعه أنهار أخرى مهمة - دجلى والزابان والخابور والبليخ عدا امكان الارواء بالمطر - بحيث يمكن أن تنشأ وحدات اقتصاديه وسياسية أخرى مستقله ، والمثال على ذلك قيام الدولة الاشورية كدولة عظمى جنبا الى جنب مع دولة بلاد بابل فى الجنوب • واذا قارنا العراق من هذه الناحية بمصر وجدنا فارقا عظيما ، فان وادى النيل المعتمدة حياته على نهر واحد يشق الوادى من الجنوب الى الشمال كان أميل الى الوحدة السياسية ، وفى الواقع بدأت هذه الوحدة فيه بمقياس مملكة القطر الموحد فى عهد أقدم من العراق •

٣ - أما العوامل التى توهمنا بها من انها عملت على توحيد دول المدن السومرية فى مملكة واحدة فؤلف ميزه أخرى من مزايا جغرافية العراق التى أثرت فى تأريخه تلك هى ان القسم الجنوبى من العراق والوسطى أيضا حديث التكوين من الناحية الجيولوجية[1] وتفتقد المواد اللازمة لبناء الحضارة الراقية كالخشب والحجر والمعادن الخ ، فعمدت دول المدن السومرية الى جلب هذه المواد بالتجارة الخارجية ، ولكن تضارب مصالحها وحاجة التجارة الخارجية الى تنظيم اجتماعى وسياسى أوسع والى سيطرة مركزية قد دعى الى جمع هذه الدول بوحدة قسرية بالحرب • وقد تم ذلك على يد سرجون الاكدى مؤسس السلالة الاكدية • كما ان تنظيم شؤون

(١) انظر الكلام على آثار العصور الجيولوجية •

الرى بمقياس واسع استلزم أيضا قيام هذه الوحدة السياسية تعبيرا عن الوحدة الاقتصادية . وبالمقارنة مع وادى النيل تحدد هذا القطر بمتع بالاكتفاء الذاتى من ناحية الموارد أكثر من وادى الرافدين .

٤ ـ بمار البيئة التى نشأت فيها حضارة وادى الرافدين بالعنف والشدة من ناحية تقلبات مواسمها وانهار أنهارها ، واختلاف مناخها وتباينها باختلاف المناطق ، فالشتاء فى بلاد سومر معتدل وتكون الثلوج قليلا فى بلاد أكد (بين بغداد والحلة بقريبا) ، وتسقط الصقيع فى شمال العراق . فاذا قارنا مثلا النيل بدجلة أو الفرات وجدنا ان النيل يمتاز باطراد الفيضان والعودة عوده غير مصحوبة بالعنف والتدمير ، كما ان فيضان النيل (منذ حزيران تقريبا) يحدث فى وقت يستفيد منه الناس للزرع ، والواقع ان زراعة القوم تبدأ من بعد الفيضان ، أما الحال فى دجلة والفرات فان فيضانهما يقع فى الوقت الذى تهيأ فيه البشر الى الحصاد وحتى العلة . هذا الى عنف فيضانهما والحاجة لتسخيره عليهما الى قوى وجهود شريرة عظمى بحيث لا تسع البشر لحضارة العراق القديم الا أن يعجب بمكان العراق القديم وبحثره ما بذلوه من الجهود للسيطرة على نهرين من أعظم وأعنف انهار الدنيا .

لقد أدى هذا الحال الى أن يصف الحضارة المصرية بالاعتداد والثقة بالنفس ، الاعتداد بانتصاراتها وشعورها بسيطرتها على القوى الطبيعية بحيث انها جعلت رأس المجتمع الذى انتج هذه السيطرة الاهة ، أى انها الهت ملوكها الفراعنة (أنظر ولسون فى Before Philosophy) . أما الملك فى حضارة وادى الرافدين فلم يصر الها بل كان شيئاً اعتيادياً يمتاز عن البشر الآخرين بان الآلهة التى تدبر كل شىء فوضته ليحكم البشر النيابة عنها . وبسبب انعكاس عنف الطبيعة فى حضارة العراق القديم صورة منفصلة أكثر فى نظمها السياسية وشعائرها ومعتقداتها الدينية . فالانسان فى العراق القديم لم يعد بانتصاراته ، وشغله هذه الحياة بما تتطلبه من جهود عن التفكير

فى الحياة الاخرى والخلود فيها على نحو ما فعلت حضارة وادى النيل • كانت حضارة وادى الرافدين تمتاز بالحدة والتوتر وتوقع المفاجئات والفواجع • أما حضارة وادى النيل فكانت تتصف بالثقة والاطمئنان • وفى درسنا لاساطير الخليقة فى كل من الحضارتين نجد نظام الخلق فى حضارة وادى النيل وقد وجد منذ الازل من جانب الآلهة بدون كفاح ، أما الخلق فى حضارة وادى الرافدين فلم يتم الا بعد صراع واضطراب بين الآلهة التى تمثل قوى الكون المختلفة ، ويصار الكثير من هذه الآلهة بالعنف والقسوة والبطش مثل الاله الليل (اله النحو والهواء) ، على ما سيتضح لكم ذلك من دراسة حضارة وادى الرافدين فى الفصول الآتيه •

٥ ــ ومن الظواهر البارزه فى جغرافية العراق مما كان لها أثر فى تأريخه ظاهرة تغير الانهار مجاريها بمرور الازمان ، كما فعل الفرات ودجلة فى عصور مختلفة (انظر البحث الخاص فى تأريخ الرى) ، وكان هذا عاملا فى اندراس المدن وتحول المستوطنات وهجرانها بسبب تغير مجارى الانهار • فهناك جملة مدن مهمه كانت تقع على الفرات فى مجراه القديم وهى الآن فى باديه جرداء تتعذر فيها الحياة • وكانت واسط الى عهد قريب تقع على الدجيلة[1] ولكنها الآن مهجوره لرجوع مجرى دجلة الى مجراه الاصلى ، الى غير ذلك من الامثله الكثيره •

ونختم كلامنا على خصائص العراق الجغرافيه بذكر ميزة أخرى مهمه أثرت فى تأريخه وهى تعرض بلاد وادى الرافدين الى الخارج بالمقارنة مع مصر التى يمكن عدها اقليما مقفولا تقريبا من هذه الناحيه • وقد جعلت هذه الميزه العراق معرضا الى هجرات الاقوام العديمة والى غزواتها المتكررة واختلاط السكان والحضارات فيه الى درجة كبيره • ففى الغرب لا يوجد بينه وبين جزيره العرب حاجز مانع مما جعله محطاً لهجرات البدو

---

(١) حول تغيير النهر المندرس المسمى دجيله وتعيينه بأحد الانهار العظمى التى شقها أحد الملوك السومريين راجع الكلام على ملوك سلالة لجش فى عصور فجر السلالات •

السامى منذ اقدم العهود ، وتعرض من الشرق والشمال الشرقى الى هجرات الاقوام الهندية الاوربية أيضاً •

٢ ـ عصور فجر السلالات :ـ

عرفنا فى الفصلين السابقين شيئاً عن الاطوار التى سميناها بعصور ما قبل السلالات • وسميت كذلك لانها سبقت ظهور السلالات الحاكمة • وقد سميناها أيضا بالاطوار «الحجرى ـ المعدنى» حيث بدأ الانسان فى العراق القديم يستعمل المعادن الى جانب الحجر • وقد اعتبرناها كذلك فجر الحضارة لان الانسان اهتدى فيها الى اختراعات وصناعات مهمة مكنته من الانتقال الى طور الحضارة الراقية • وقلنا ان أبرز هذه الاختراعات هى : (١) المعادن • (٢) وسائل للمواصلات سريعة مثل العربة ذات العجلة والسفينة الشراعية • (٣) دولاب الخزاف • (٤) اتساع الزراعة وانتقال القرى الى أوائل المدن الكبيرة • (٥) وقد تم فى الاطوار الاخيرة من هذا العهد اختراعات مهمة لا حضارة بدونها مثل الكتابة والمبانى العامة والفنون الجميلة كالنحت والتصوير • فعمل كل ذلك على نشوء الحضارة السومرية الراقية أو حضارة وادى الرافدين الاول فى جنوب العراق فى نهاية الالف الرابع قبل الميلاد فلنأخذ شيئا عن هذه الحضارة فى هذا الفصل من بحثنا •

تسمى الازمان التى تقع آخر عهد من عصور ما قبل السلالات بعصور فجر السلالات[1] ويوسعنا أن نحدد هذه العهود من نهاية «جمدة نصر» وهو آخر طور من أطوار ما قبل السلالات فى بداية الالف الثالث وبهايتها فى قيام السلالة الاكدية فى منتصف الالف الثالث (فى حدود

(١) (Early Dynastic Periods) وهذه هى التسمية الشائعة لهذه العهود وقد تسمى فى بعض الكتب القديمة باسم عصر ما قبل سرجون (Pre-Sargonic) • وفى بعض المؤلفات الالمانية باسم عصر لجش الاول والثانى والثالث • كما نجد اسما آخر هو عصر «اللبن المسوى المحدب» اشارة الى نوع هذه النوع من اللبن فى الابنية ولا سيما فى الطور الثانى من عصور فجر السلالات على ما سنذكر فى متن الكتاب •

٢٤٠٠ ق . م) وهى السلالة التى اشتهرت بمؤسسها سرجون الاكدى الذى وحد البلاد فى مملكة واحدة كبيرة . وعلى هذا فقد دامت عصور فجر السلالات زهاء سبعة قرون ، تم فيها حضارة العراق القديم وتصحب واردهرت وهذه هى الحضارة التى أصطلح المؤرخون على تسميتها بالحضارة السومرية .

أما تسمية هذه الحقبة بعصور فجر السلالات فلأن العراق كان فى فجر حياته السياسية ، فلم تنشأ بعد الممالك الكبيرة والامبراطوريات العظمى التى قامت فيما بعد هذه العصور . وان البلاد بوجه عام لم توحد نهائيا تحت مملكة كبيرة واحدة الا فى أواخر عصر فجر السلالات بظهور سلالة سرجون الاكدى . فانتقل العراق من عهد دويلات المدن التى امتازت بها عصور فجر السلالات الى طور المملكة الكبيرة والامبراطورية . وعلى الرغم من عدم هذه العصور بدء تكوين الممالك الا انها كانت عهد نمو الحضارة السومرية واردهارها التى كانت أولى الحضارات الشرقية الاصلية ، وأساسا لجميع حضارات العراق القديم فيما بعد ولحضارات أخرى نشأت فى أنحاء الشرق الادنى ، فمن الحضارات التى اشتقت من حضارة السومريين حضارتان نشأتا فى العراق ، وهما الحضارة البابلية والحضارة الآشورية ونشأت فى آسيه الصغرى حضارة الحيثيين التى اعتمدت فى أصولها على الحضارة السومرية بحيث يصح ان نعدها حضارة فرعية من حضارة العراق القديم الاولى . ونشأت فى بلاد عيلام الى الشرق من دجلة حضارة قديمة اعتمدت كذلك فى أسسها ومقوماتها على الحضارة السومرية . والى هذه الحضارات الفرعية التى اشتقت من حضارة العراق القديم الاولى تأثرت حضارات الشرق الاخرى بالعراق كما أثبتت نتائج التنقيبات الحديثة .

وقد تمكن الباحثون بدرسهم آثار عصر فجر السلالات التى عثر عليها فى مواضع متعددة من العراق من تقسيم تلك القرون التى يقدر لها زمن

تلك العهود الى ثلاثة أطوار أو ثلاث مراحل حضاريه[١] تتميز كل منها بخصائص حضارية بارزة ويطلق عليها اسم عصر فجر السلالات الاول والثانى والثالث بحسب تسلسلها الرمى • وقد عقب الطور الاول منها عصر «جمدة نصر» ويعده بعض الباحثين بمثابة طور انتقال من الطور السابق له ومع ذلك فقد جائتنا من هذا الطور آثار مميزة مثل الختوم الاسطوانية الخاصة به المنقوشة برخارف تشبه زخرفة السجيج ، ووجدت معابد مهمة فى منطقة ديالى مثل (تل أسمر) (اشنونا القديمة) وحفاجى شيدت لبعض الآلهة السومرية فى هذا العهد • كما تميز هذا الطور بنوع من الاوانى الفخارية مصبوغة بلون أحمر قرمزى (Scarlet-ware)

ولعل أبرز ما جاءنا من طور فجر السلالات الثانى (٢٨٠٠-٢٦٠٠ ق • م •) المنحوتات النحيلة المجسمة التى وجدت فى المواضع القديمة فى منطقةديالى (تل أسمر وتل اجرب وحفاجى) • وهذه أصنام أو أوثانوتماثيل أشخاص منحوتة نحتا مجسما يشير الى ازدهار الحضارة والفن وبلوغهما الذروة ، وتزين هذه التماثيل الآن احدى قاعات المتحف العراقى[٢] ، وكذلك متحف «المعهد الشرقى» فى شيكاغو وهو المعهد الذى نقب فى منطقة ديالى منذ ١٩٣٠ • ويمتاز فن النحت السومرى فى هذا العهد باننا نجد فى التماثيل التى تصور النشر المسحة الهندسية الكعبية (Geometric) ونلاحظ فيها اهتمام الفنان بالتناظر ما بين أجزاء التمثال الآدمى ولكنه حامد نوعا ما باستثناء ملامح الوجه الحية والسبب فى ذلك ان معظم هذه التماثيل قد صنع لاغراض دينية مما قيد حرية الفنان بعرف خاص • ويشذ عن ذلك

---

(١) ان التسمية التى اقترحها الاستاذ «هنرى فرنكفورت» لهذه العهود (أى عصور فجر السلالات) فى عام ١٩٣٦ وكذلك التقسيمات التى اقترحها مستندة بالدرجة الاولى الى نتائج التنقيبات التى قامت بها بحث رئاسته جامعة شيكاغو فى مواضع ديالى مثل تل اسمر وتل أحرب وخفاجى•

(٢) أنظر (H. Frankfort, **Sculpture from the Diyalah Region**).

حرية الفنان التي أبدع بها في نحت الحيوانات حيث وفق الفنان الى اظهار المعنى التقطيع والتمثيل الواقعي ، كما يشهد على ذلك قطع فنيه نادره جاءتنا من هذا العهد (انظر بعضها في هذا الكتاب) ووجدت من هذا العهد نماذج من أولى القبور الملوكيه كالمقبر الذي وجد في كيش[1] وهو ذو صفوف من الاعمده ووجد مقبر من هذا العهد ايضا في «اريدو» (مجلة سومر ١٩٥٠ ، ٣١) .

وقد بلغت الحضارة السومرية في الطور الثالث من فجر السلالات نهاية نضجها كما تشت ذلك الآثار النفيسة التي وجدها المنقبون في مدن العراق القديمة ، ولا سيما آثار المقبرة الملوكية التي وجدت في أور والتي تزين الآن ثلاثة متاحف من متاحف العالم الشهيرة ، وهي المتحف العراقي والمتحف البريطاني ومتحف جامعة بنسلفانية فقد زودتنا النقبات في أور بمادح عينية نفيسة لحضارة السومريين في آخر أدوارها ومن بين ذلك أدوات الذهب الكثيرة كالخناجر والقيثارات ومن بين ذلك قيثارة تعود الى «شبعاد» ذات ١١ مفتاحا من الذهب لاتصال الاوتار ، والاكواب والحوذ وتماثيل الحيوانات وكثير منها من الذهب الخالص المسبوك والمصنوع صنعا دقيقا يشير الى فن رائع جميل ويمكن مشاهدة نماذج من هذه الآثار في المتحف العراقي من المقابر والجدير بالملاحظة بصدد ذكر هذه المقبرة الملوكية انه تم العثور على مجموعات من المقابر من أطوار فجر السلالات مما يصح تسميتها بالقبور الملوكية عدا المقبرة الملكة المشهورة التي وجدت في أور ، ونعني بهذه المقابر انها تختلف عن القبور الاعيادية بل تعود الى حكام وأمراء بما تحتويه من أثاث نفيسة . وان وجود مثل هذه المقابر هو الذي يبرر لنا تسمية هذا العهد بعصر فجر السلالات بالرغم من جهلنا بأخبار السلالات الحاكمة من أطواره الاولى واقتصار ذلك على الطور الثالث . وقد سرت عادة هذه القبور الملوكية الى

---

(١) انظر

Field Museum Antropology Memoirs, I (1929)

شمال العراق فقد وجدت نماذج منها فى مدينة «ماري» (تل الحريرى الآن • انظر محله (Syria XVIII, 1937, 60)) • والعادة فى مثل هذه القبور انها تكون معقوده اما بالآجر أو الحجر أو اللبن ايضا • وقد وجدت نماذج منها فى كيش من الطور الأول من عصر فجر السلالات (Kish, IV (1924), 29, 30) حيث وجدت فى بعضها أوانى وأدوات ومن بين ذلك عربات ذات عجلات صلده • وهذا يؤيد استعمال

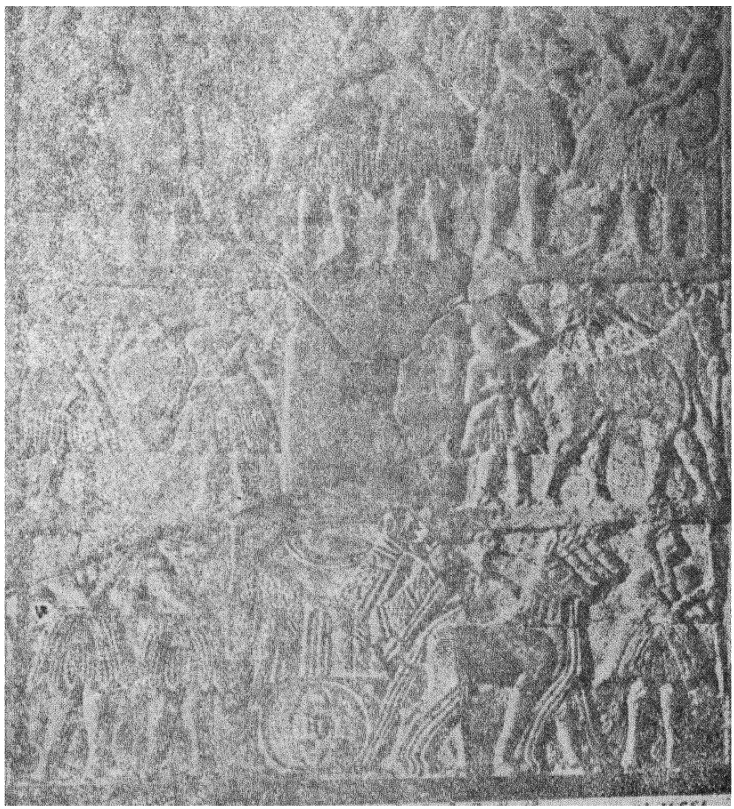

الشكل ـ ١٠

لوحة من النحت البارز (من عصر فجر السلالات)

العربات كما وجدت نماذج لها في أور أيضا • ويوجد في المتحف العراقي نموذج آخر له من البرونز يرجع الى العصر الوجيز (انظر مجلة Antiquity, IX (1935) 133) ويبدو أنهم استعملوا نوعين من العربات • نوع للمواصلات ونوع للحرب • ويعتقد دكتر العربات يقول ان استعمالها في ذلك العهد الواصل في القدم كان قاصرا الى الأغراض المحلية بينما استعمال الصفحات والدبابات • وقد انحصر استعمال العربات في حضارة مصر الى عهد الهكسوس (١٧٠٠ ق • م) •

ومع وجود المقابر الملوكية في الطور الأول من عصر فجر السلالات الا انه يطلق على تلك المقابر المقبرة الملكية الشهيرة التي وجدت في أور ، ويرجع عهدها الى الطور الثالث من عصر فجر السلالات (Woolley, **Ur Excavations,** II, The Royal Cemetery) • وكانت هذه القبور كما وجدت في أور عبارة عن حفر في الأرض على عمق قدم أو قدمين «تندوس» بعضها مؤلف من ثلاث حجرات متوازية ، مسقفه بعقاد يكون في بعض منها عقده غير صحيحة من النوع المعروف بـ "Corbelled" وقد وجد ان بعضها مسقف بقبه من العقود الصحيحة من حجر الرخام (**Childe, New Light,** 151) • وجد في بعض تلك المقابر مقابر الأمراء والملكات وهم مدفونون بكامل عدتهم وجدهم جميع من يحتاجون اليه من أثاث نفسة حتى الحيوانات وسواق العربات واتباعهم المسلحين وموسيقيهم وسائهم وحواريهم • وقد وجد في أحد القبور الملكية في أور ما لا يقل عن ٥٩ شخصا منهم ستة من العسكريين و٩ نساء مرتديات بأحسن الجواهر والحلى • والمرجح في هذه القبور انهم كانوا يقصدون دفن القبر معدا ضمنيا يتصل بالقبر الى الاسفل بالماء من الفخار ، ولكن لم يعثر على شيء كامل من هذه المعابد •

وقد اختلف الباحثون في تفسير هذه المقابر والرأي القديم الشائع ان

الحكام السومريين كانوا يسيرون على عادة تضحية اتباعهم عند موتهم ويدفنون معهم أثاثهم لما لذلك من علاقة بالعالم الاسفل أو عالم الاموات • ومن الباحثين من يرى ان الملحودين فى هذه المقابر لا يمثلون أمراء أو حكاما بل ان هذا النوع من الدفن له علاقة بطقوس وشعائر دينية أو «دراما» دينية تجرى فى السنة الجديدة للآلهة ولحلب الخصب ولا سيما ما يظن انه كان هناك نوع من الزواج الالهى المقدس يجرى بين كاهن وكاهنة تقلان من بعد ذلك [١] ولكن الرأى الشائع المحتمل هو الرأى الاول الذى ذهب اليه «وولى» الذى كشف عن المقابر الملوكية فى أور وقد وجدت مثل هذه العادة من الدفن فى الصين القديمة وبين الاقوام الهندية الاوربية[٢] •

وحائنا آثار أخرى مهمة من مواضع فى جنوبى العراق مثل «بلو» (لجش القديمة) وتل العبيد قرب أور المقير ومن كيش وهى جميعه تشمل مختلف الآلات والادوات ونتاج الفنون كالنحت والتطعيم بالحجر • وكلها تشير الى نوع الحضارة وارتقائها فى جميع مظاهر الحياة • والى الآثار المنقوله خلف لنا سكان العراق الاقدمون نماذج مهمه من أبنية هذا العهد كالقصور والمعابد وكلها تدل على تقدم فن العمارة ودوق راق فيه • ووجدت بعض الاشياء العمارية مثل القوس الصحيح والقبة (أى العقادة) فى مدينة أور وكانت العقادة تعزى الى الادوار المتأخرة والى أصل خارجى ولكن ثبت الآن أصلها السومرى الاول فقد جائنا نموذج من القوس الصحيح من عصر الوركاء فى «اريدو» • وتقدم فن التعدين وصنع المعادن والصياغة تقدما باهرا كما يلاحظ فى الآثار التى جائنا من الاطوار الاخيرة من عصر

---

(١) انظر
F. Bohl in **ZA**, XXXIX (1930) 83 ff. , S. Smith in Jour of the Royal Asiatic Soc. (1928) 849 ff

(٢) انظر
L.B. Paton, **Spiritisim and the Cult of the Dead in Antiquity** (New York, 1921), 47, ff.

فجر السلالات ويمكنكم رؤية نماذج منها في المتحف العراقي • ولعل أهم الاضافات التي أنجزها العراقيون في عصور فجر السلالات لتقدم الحضارة اتقانهم لفن التعدين وايجادهم أولى الاجهزة الصناعية واستغلال فن التعدين في الحروب والفنون العسكرية • وكذلك تقدم فن الكتابة بحيث صارت واسطة لكتابة مختلف شؤون الحياة وأثرت في شعوب الشرق الادنى القديم حيث اقتبسها الكثير منهم • وقد استعملوا نوعا من النحاس المخلوط بالقصدير بنسبة ٦–١٠ من القصدير • وكان مصدر النحاس السومري من عمان وايران والاناضول أما مصدر القصدير فمجهول لدينا[١] كما ان المعدنين اتقنوا فن السبك والصب وطريق اللحم بالاسلاك والظاهر ان انتاج المعدنين لم يكن لسواد الناس بل انه خصص بالدرجة الاولى لصنع الاسلحة وتزويد الدولة وأمراء دول المدن بالادوات والاثاث • وقد وجدت نماذج كثيرة من الاسلحة كالخناجر والسيوف والفؤوس وصنعوا أيضا نفيسة من المعادن كالمرايا والابار يق والاوانى الخ •

وقد أضيف مصدر جديد مهم منذ فجر السلالات الى مصادر معرفتنا بحضارة العراق القديم • فالى الآثار المادية الكثيرة التي مر بنا ايجاز وصفها بدأت الاحفار المدونة تأتينا من مدن العراق • فان الكتابة التي اهدى اليها العراقيون في أواخر العهد (الحجري–المعدني) في منتصف عصر الوركاء أخذت تنضج وانتشر استعمالها ودونت بها في عصور فجر السلالات أعمال الملوك والامراء وسجلاتهم الرسميه وعلاقاتهم بغيرهم من الحكام ودونت بها كذلك شؤون الناس العامة كالمعاملات التجارية والاحوال الشخصيه والمراسلات والآداب والشؤون الدينية كالاساطير والعبادات • ولهذه الاسباب تعد بداية فجر السلالات بداية عهد التدوين أو عصر التأريخ ، ويرجع الفضل في اختراع الكتابة الى السومريين على ما يرجح كثيرا • فلذلك يغلب على اللغة التي دونت بها تلك الاشياء اللغة

Childe, **New Light on the Most Ancient East** (1952), 157.

السومرية • وكذلك كانت السلالات التي حكمت في العراق في هذا العصر من السومريين • وسنحاول معرفة شيء عن السومريين بعد قليل •

ويقابل عصر فجر السلالات في العراق النصف الاول من عهد المملكة القديمة في مصر «٣٢٠٠-٢٢٧٠ ق • م »• وكان هذا العهد كذلك عهدا مزدهرا في تاريخ الحضارة المصرية • حيث نمت وقتئذ الحضارة وتصحت بعد ان شذبت من الاطوار البدائية التي تسمى كذلك بعصور ما قبل السلالات وقد أشرنا فيما سبق الى وجود علاقات حضارية بين العراق ومصر في الاطوار الاولى من نشوء الحضارة فيهما • وأشرنا كذلك الى وجود تأثرات من الحضارة السومرية في أطوارها الاولى • وكانت مصر في بداية عهد المملكة القديمة كذلك في المراحل الاولى من تكوينها السياسي • وبعد أن توحد القطر في عصر الاهرام «٢٨١٥-٢٢٧٠» قبل الميلاد ازدهرت الحضارة المصرية وقد شمل عصر الاهرام عهد أربع سلالات من السلالة الثالثة الى السادسة ويقابل السلالات الثانية والثالثة والرابعة عصر فجر السلالات في العراق • أما زمن السلالة الخامسة وجزء من عهد السلالة السادسة فيقابل العهد الاكدي الذي يعقب عصر فجر السلالات في العراق •

هذا ولم تقتصر حضارة عصور فجر السلالات على القسم الجنوبي من العراق بل وجدت في مواضع اخرى في جميع العراق وبوجه خاص في مواضع مهمة في دلتا مثل حفاجي وبل سمر وبل اخرب حيث وجدت فيها آثار قسم كبير من عصر فجر السلالات، ووجدت مراكز من الحضارة السومرية من عصر فجر السلالات في أنحاء أخرى من الشرق الادنى ففي منطقة الفرات الاوسط في منطقة «ماري» بل الجزيرة الآن على الفرات (قرب الحدود السورية) وجدت حضارة سومرية معادلة لحضارة السومريين في العراق • ووجد في منطقة الخابور في موضعين يدعان «شغار برار» «وبراك» على الخابور كذلك مستوطنات قديمة تبدأ من عصور ما قبل السلالات ، وازدهرت فيها الحضارة السومرية من عصر فجر السلالات •

السومريون :ـ

ان سهوله مساول الآثار التي حاقها لما السومريون وامكان درسها في قاعات المتحف العراقي بعضا عن أن ... يجب القول فيها أكثر مما ذكرنا[1] فحسبنا ما ان ننتقل الى ناحيه اخرى من عصور فجر السلالات فنأخذ شيئا عن السومريين الذين يعزى انهم اهبط الاوفر في سكوه حضاره العراق القديم .

فمن هم هؤلاء السومريون ؟ ومن اسلافهم ؟ ومن اين أتوا الى العراق ومتى كان ذلك ؟ والواقع انه ليس بالامكان أن نجيب جوابا قاطعا على هذه الاسئلة لانها من اعقد مسائل التاريخه التي لا تصل البحث الى حلها حلا نهائيا قاطعا . واننا هناك فروض وآراء ارتآها الباحثون لحل عقده القضيه ، فمن حمله الفروض التي عرفها ان الاكديين وغيرهم من الاقوام السامية التي رحلت الى العراق منذ اقدم الازمان جنسا الى جنب مع السومريين سموا جميعا باسم العراق ، وهو الاسم الذي اطلقه السومريون وانشأوا فيه مدنهم . باسم «ماتا سومريم» اى بلاد السومريين وكذلك سمى السومريون أنفسهم . وهذا أول ما يعني انه كان يقطن في العراق قوم غير الاكديين الساميين لهم لغه ومميزات خاصه بهم .

ويرجح ان نفترض ان هؤلاء القوم الذين سموا « بالسومريين » قد انحدروا من الاقسام التي قطنت العراق في عصور ما قبل التأريخ وهي العصور التي سبقت عصر فجر السلالات ، وانهم عرفوا باسم خاص وهو اسم السومريين في الازمنة التأريخيه نسبه الى الجزء الخاص من العراق الذي سكنوا فيه وهو القسم الجنوبي الذي سمي باسم

(١) انظر مع ذلك المباحث الخاصه بحضارة العراق .

«شومر» او «سومر»[١] . ولعل اقوى ما يجعل هذه الفرضية رأيا قريبا من الواقع ان أسس الحضارة التى سميناها بالحضارة السومرية والتى اردهرت فى عصر فجر السلالات ، يمكن اقتفاؤها الى الاطوار الحضارية التى سميناها بعصور ما قبل السلالات مما يكون استمرارا حضاريا ، أى ان اصول الحضارة السومرية نشأت فى العراق ويمكن تتبع أسسها واصولها فيه منذ أقدم الازمان . فامكننا مثلا أن ندعو أهل طور العبيد من السومريين قياسا على طهور أبرز مقومات الحضارات السومرية فيه كالمعابد والقرى على الرغم من اننا نجهل اللغة التى تكلم بها أهل العبيد[٢] .

ومن الباحثين من يذهب الى ان السومريين قوم أجانب نزحوا الى العراق من موضع ما فى شرق العراق او فى شماله الشرقى وذلك فى منتصف الالف الرابع ، منذ المنصف الثانى من عصر الوركاء وسموا بالسومريين وانهم هم الذين ادخلوا الكتابة والحواتم الاسطوانية وفن النحت وفن

---

(١) وقد ورد فى التسمية السومرية لمجموعة من العلامات المسمارية (KI - EN - GI) ولفظ «شومر» ، وكثيرا ما ترد هذه التسمية مع تسمية أخرى هى «اكد» وتكتب بالعلامات المسمارية (KI - URI) وسنذكر لما بعد أن لقب «ملك سومر وأكد» قد بدأ استعماله فى بداية العهد الاكدى . ومع انه لا توجد حدود واضحة بين ما تسمى «بلاد سومر» وبين «بلاد أكد» الا ان القسم الجنوبى بوجه عام هو بلاد سومر . وتمركز الحضارة السومرية فى عصر فجر السلالات فى لوائى اسبنك والدوانيه ، وأشهر مدنها «نفر» و «أدب» (بسمى الآن) و «شروباك» (فاره الآن) و «اوما» (تل جوخه) و «لارسه» (السنكره) و «الوركاء» و «أور» و «اريدو» و «لجش» وغيرها . أما بلاد اكد فتقع الى الشمال من بلاد سومر ويمكن تحديدها بأشهر مدنها مثل «أكد» (فى منطقه البوسفيه والمحمودية) و «سبار» (ابو حبه الآن) و «اوبس» و «كوثى» (تل ابراهيم) و «كيش» (الاحيمر) و «بابل» و «دلبات» و «بورسبا» (برس نمرود) وغيرها . وقد تطلق على القسم ولا سيما فى العصور المتأخرة اسم بلاد بابل (Babylonia) كما تطلق على القسم الشمالى أى موطن الآشوريين اسم بلاد آشور (Assyria)

(٢) انظر Childe, **New Light** . وكذلك انظر
H. Frankfort, **Archeology and the Sumerian Problem (1932),** 18 ff.

العماره[١] ، ومما يلاحظ فى هذه الفرضيه انها لا تثبت أمام النقد وأخذت تفقد كثيرا من وجاهتها فى السنين الاخيره . اذ انها تنهار أمام ما أسلفناه سابقا من العثور حديثا على آثار وأسس فى العراق من عصور ما قبل السلالات وهى تتصف بالخصائص الاساسيه للحضاره السومرية فى الاطوار التاليـة مما يشير الى استمرار الحضارة العراقيه وامكان تتبع أصولها وأسسها الى عصور ما قبل التأريخ بدون أن نضطر الى هجرة قوم من الخـــارج لتعليل نشوء الحضاره السومرية فى القسم الجنوبى من العراق أى انه مهما كان أصل السومريين والمهد الذى برحوا منه فان ما نسميه بالحضارة السومرية قد نشأت فى العراق كما رأينا . ومن الباحثين من يرى انه كان فى العراق الوسطى والجنوبى قوم سبقوا السومريين وهم غير ساميين كما يستدل على ذلك من أسماء مدن عربيه مثل «شروباك» و «لراك» و «رمر» و «اريدو» التى يبدو عليها وكأنها علامية .

هذا وليس بامكاننا أن نستعين بالانثروبولوجيا (علم الانسان) لمعرفـة العرق أو الجنس الذى برجع اليه هؤلاء الســومريون ، فأولا لانه لما تأتنا بعادج كثيره من الهياكل العظميه تمكننا من معرفة الاوصاف الطبيعية بوجه شامل وثانيا لأن ما جاءتنا من هذه الهياكل منذ أقدم العصور ، ولا سيما من عصور ما قبل السلالات وعصور فجر السلالات ، لا تشير الى وجود عرق أو جنس واحد من البشر . وانما يصح ان نقول انه غلب على سكان العراق منذ أقدم العصور جنسان ، وهما جنس حوض البحر الابيض المتوسط الذى يمتاز بطول الرأس ، واليه ينتمى الساميون ، ثم جنس آخر يمتاز بانه عريض الرأس . وبوسعنا ان نستنتج شيئين من هذه الحقيقه وهما أولا لم يتعسر تأريخ الاقوام فى العراق منذ أقدم العصور على عرق واحد وانما قطنه عدة أقوام أهمهم الساميون الذين طغوا على معظم أجزاء الشرق الادنى وقد ثبت

---

(٢) انظر Speiser in JAOS, Supplement 4 (1939), 29 ff
أنظر كذلك المراجع الاخرى فى آخر كل فصل فى نهاية الكتاب .

وجود هؤلاء منذ أقدم الازمان وانهم عاشوا مع السومريين • وثانيا حتى لو فرض وجود عرق خاص بالسومريين فان هذا العرق لم يبق خالصا وانما اختلط بالاقوام الاخرى التى كانت تحيط بها الى العراق والى الاحراء

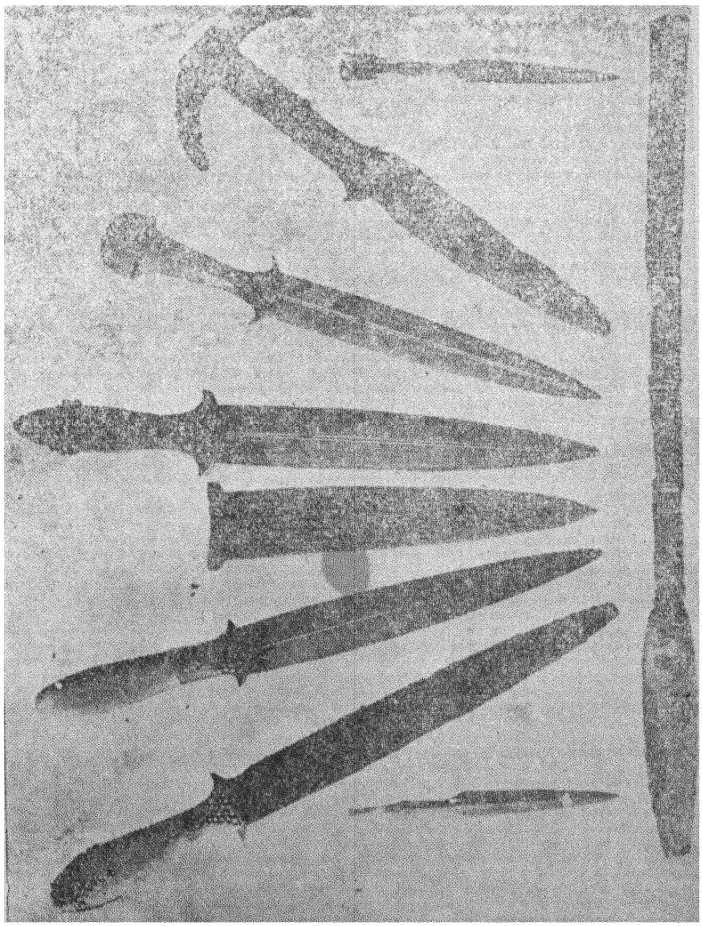

نماذج من خناجر الذهب الجميلة وجدت فى المقبرة الملوكية فى أور وترجع زمنها الى أواخر عصور فجر السلالات

الاخرى من الشرق الادنى مسمره منذ عصور ما قبل التأريخ • وكل ما يمكن قوله عن السومريين ان بحثنا عنهم سعى ان نكون من الناحيه اللغويه لا العرقيه (الرسميه) فكل ما عندنا لغه سومريه تكلم بها قوم سميهم السومريين لانؤلفهم عرقا خاصا كما نشير الى دالك الهياكل العظمية المكتشفة، فلم نوجد نوع خاص فيعض الهياكل من نوع عرق البحر المتوسط من أهل الرؤوس الطويله ، كما ان النوع الآخر من الهياكل من شكل الرؤوس المدوره من اهل الجبال ومن الجهات الشماليه الشرقية (انظر مثلا بقايا دفن الهياكل العظميه المكتشفه في حسونه واربدو) (مجله سومر ١٩٤٩ ، ١٩٥٠) وكذالك الهياكل العظميه التي وجدت في مواضع مختلفه من مصر فجر السلالات (Frankfort, **The Birth of Civilization** (1950

وخلاصه القول انه مهما كان أصل السومريين والمهد الذي برحوا منه والأمر الهم هو ان الناحيه الحضاريه التي نعرف شيئا حضارتهم وتطورها ومراحل دالك التطور وخصائصها واننا نعرف في القسم الجنوبي من العراق• كما ان البحث في أصلهم وعرقهم من الامور التي لا توصل الباحث الى شيء على فرض انه سيستطيع ان يعرف دلك في المستقبل •

أما اللغه السومريه فهي عربه في مفرداتها وتراكيبها ولم يستطع العلماء بعد من تصنيفها وارجاعها الى بعض من أصناف اللغات السريه المعروفه • ولعل أقرب عائله لغويه[1] تسبها هي العائله المسماه «الاورال ـ الطاي» التي تسمى اليها اللغه المغولية والتركيه والمجرية وغيرها • ومن الباحثين من يرى ان اللغه السومريه يمكن ارجاعها الى عائله اللغات «الباسفة ـ القوقازية» التي ظهرت وانتشرت في أطراف القوقاز وفي شمال الهلال

---

(١) ويقصد بالعائله اللغويه (Family of Languages) عدة لغات أنحدرت من أصل واحد وتشابه في مفرداتها ونحوها اي تركيبها ، كعائله اللغات السامية (وتسمل العربيه والبابليه والآشوريه والعبريه والفينيقيه والكنعانيه والآراميه والحبشيه واللغات العربيه الجنوبيه) وعائله اللغات الهندية الاوربيه والعائله المسماه بعائله «الاورال ـ الطاي» •

نموذج من فن الكفت (المطعم)
من عصور فجر السلالات

الخصيب • ومما يقال عن اللغة السومرية انها ليست من عائلة اللغات السامية ولا من عائلة اللغات الهندية ـ الاوربية • وهى من نوع اللغات التى تسمى باللغات الملصقة (Agglutinative) كاللغه التركية والهنغارية والفنلندية فمن خصائص الالصاق[١] فى اللغة السومرية انها كثيرا ما تؤلف المفردات بادماج مفردتين او اكثر بعضها ببعض بحيث تصبح كلمة جديدة واحدة يسند معناها الى معانى الكلمات الداخلة فى تركيبها مثل «لوكال» أى الملك المكونة من «لو» أى الرجل و «كال» اى العظيم و «أى ـ كال» أى القصر أو الهيكل المكونة من «اى» أى البيت و «كال» أى العظيم • ثم ان الجمل فيها تتألف كذلك بطريقة الصاق الضمائر والادوات الى جذر الفعل بحيث يصير الجميع كأنها كلمة واحده • ومن خصائص اللغة السومرية أيضا ان كثيرا من مفرداتها مؤلفة من مقطع واحد مثل «لو» أى الرجل و «كا» أى الفم و «شو» أى اليد و «كى» أى الارض أو الموضع الخ • وتميل اللغة السومرية الى عدم الخلط بالحروف الصحيحة فى آواخر كثير من الكلمات الا اذا جاءت بعدها أدوات نحوية مبتدئة بحرف علة فيلفظ عندئذ الحرف الصحيح بدمجه بحرف علة تلك الاداة النحوية التالية • مثال ذلك «لوكال أوريم ـ آك» التى يلفظها السومريون لو كال أوريما أى ملك أور • ومثل العبارة الآتية: «فى بيت ابن الملك» حيث تكون باللغه السومرية على الوجه الآتى: ـ «بيت، ملك، ابن ـ أك ـ ى» و (وأك علامة الاضافة) والحروف اللاتينة e - dumu - lugal - ak - a

وعلى مبدأ دمج الحروف الصحيحة بحروف العلة للادوات التى تأتى بعدها تصبح العبارة : e - dumu luga - la - ka

ونعيد ما هذه العبارة فى الوقوف على طريقة الخط المسمارى الذى بعد

(١) وتستعمل طريقه الالصاق لغات أخرى من لغات البشر ولكن بدرجات متفاوته ، ومثل ذلك اللغه الانكليزيه مثل Careful و Careless وتتضح من الامثله السومريه ومن هاتين الكلمتين الانكليزيتين ان العناصر التى تلصق لتكوين كلمه جديدة يجب أن يكون لها معنى قائم بنفسه ، لذلك فان «ضرب» و «ضربنه» العربيه ليست الصاقا ، ولعل أقرب شبه بالالصاق ما يسمى فى العربية بالتركيب •

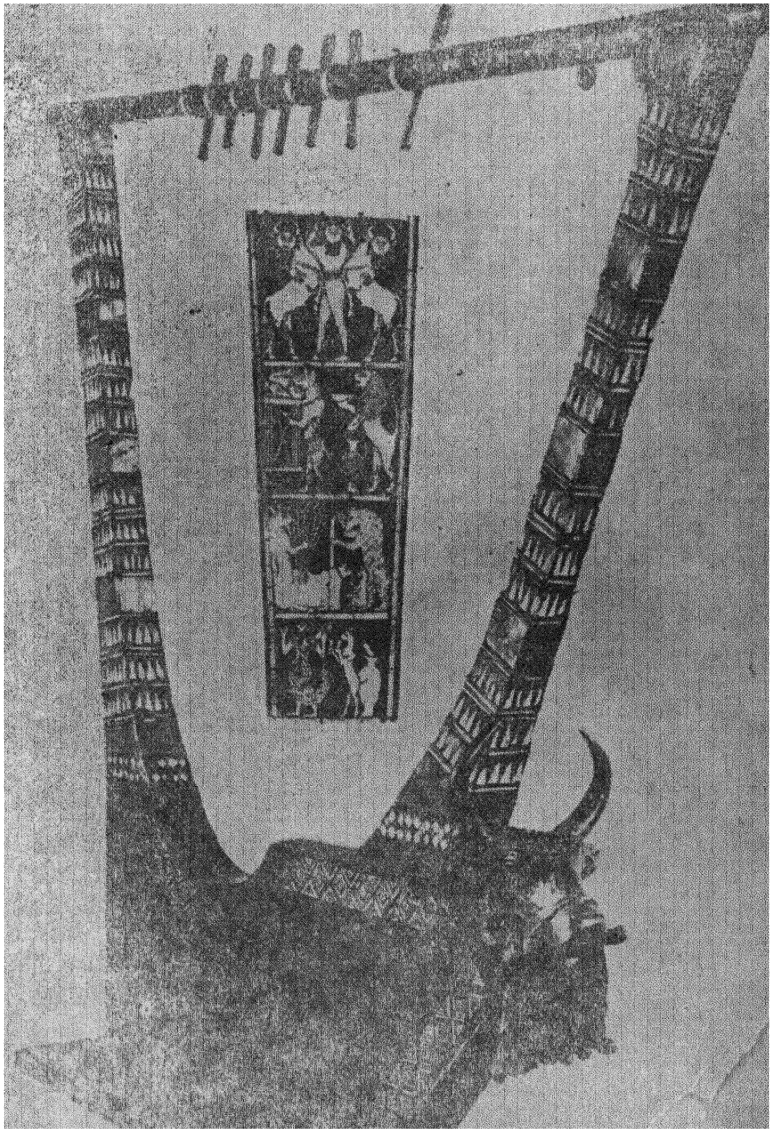

قيثاره من الذهب ، صنع صندوقها الصوتى من الخشب المرصع بالاحجار والصدف ، وتسهى برأس ثور من الذهب الخالص ، حبب رئيس مقدمته بصور حيوانات بطريقة التكعيب (المرصع) ٠ لاحظ الاقفال التى كانت تربط بها الاوتار (من عصر فجر

أن تطور عن اصله الصورى والرمزى صار فى أدوار نضجه خليطا من كتابة رمزية وصوتية مقطعيه • ففى العبارة السالفة نجد العلامة (e) تقوم مقام البيت فى السومرية ، أى انها مستعملة لترمز الى البيت والعلامة (dumu) رمز للابن والعلامة (lugal) ترمز الى الملك أما العلامتان (la) ، (ka) فهما هنا مستعملتان استعمالا صوتيا صرفا على هيئة مقطعين لمجرد تأدية صوت (la) ، (ka) بغض النظر عن أصلهما الصورى وما يدلان عليه من معانى أو كلمات رمزيه • وقد بقيت الكتابة المسمارية خليطة ، وهكذا استعملها السامون فى كتابة لغتهم الى آخر عهود العراق القديم •

الفصل السادس

دول المدن السومرية واولى انظمة للحكم

عرفنا فيما سبق كيف انشأ الانسان الحضارة الاولى فى وادى الرافدين ووادى النيل وكيف بدأت هذه الحضارة منذ عصور ما قبل السلالات وتمت وتصحت واردهرت فى العصور التى سميناها بعصور فجر السلالات • وقد رأينا فيما سبق كيف ان الانسان الذى كان فى فجر الحضارة فى عصور ما قبل التأريخ (عصور ما قبل السلالات) عندما جاء الى منطقة الانهار فى وادى الرافدين بعد حلول الجفاف فى المواضع التى كان يقطنها سابقا وجد فى هذه البيئة الجديدة امكانات وخيرات لا يمكن استغلالها الا بالتغلب على الطبيعة الصعبة • فمن جملة تلك المشاكل الكثيرة السيطرة على الانهار وطرق الرى واحكام السدود وتجفيف المستنقعات والفيضان فبدأت الحضارة الاولى عملا وجهدا وفنا ، أى انهم انشأوا الحضارة مستجيبين لحوافز بيئتهم الغنية الصعبة ، ويجب أن تتوفر عوامل مهمة فى نمو الحضارة وازدهارها من بعد نشوئها وولادتها فان أول علة لنماء الحضارة فى وادى الرافدين لم تكمن مشقة الاستمرار فى جهودهم واستعدادهم فى مقارعة البيئة الطبيعية وحل مشاكلها الكبيرة المستمرة ، وكذلك مشاكل البيئة الاجتماعية • فالواقع ان أقرب شبه بحال الانسان من بعد نشوء حضارته الحرب المستمرة الدائمة ، وان أى خلل من جانب الانسان تؤدى بالتدريج الى ركود حضارته ثم تدهورها فزوالها • وبوسعنا أن نوضح هذه الصورة من تأريخ حضارة العراق • فقد أسفرت الجولة الاولى من غلبة العراقيين الاوائل على بيئتهم الطبيعية عن ولادة أولى الحضارات البشرية الاصلية ، ولكن ولادة الحضارة ، كما فى حياة الفرد من بنى الانسان ، لا تضمن نمو تلك الحضارة ، ولعل أولى شروط النمو فى الحضارات ان تستمر الحوافز

والمشاكل فتدفع الانسان الى الحركة والابداع والاختراع • وهذا هو معنى النمو والازدهار فى الحضارات • ومن امارات النمو فى الحضارات ان المشاكل والقضايا التى تحفز الانسان على الاختراع والابداع تأخذ بالانتقال فى طور النمو من مشاكل البيئة الطبيعية الى المشاكل الناشئة عن البيئة الاجتماعية ، حيث تقل الاولى وتزداد الثانية بالاطراد بازدياد النمو •

فعندما ولدت حضارة العراق بنيجة الجولة الاولى من تغلب الانسان على بيئته الطبيعية لم تسه أتعاب بناة الحضارة وجهودهم بل كان عليهم أن يستمروا فى مقارعة الطبيعة ومغالبتها وان يسهروا على ما انشأوه من سدود وجداول وأبنية ، وان يحلوا بطريقة ما المشاكل الاجتماعية الكثيرة التى نشأت بعد ولادة الحضارة ، كتنظيم العلاقات الاجتماعية الناشئة ، والمحافظة على الجنة التى صنعوها بأيديهم من البيئة الوحشية الطبيعية • وكل ذلك يحتاج الى استمرار العمل والى الاختراع والابداع • فقد نشأت بعد ولادة الحضاره الاولى فى العراق علاقات اجتماعية معقدة ، وقد اقتضى تنظيم هذه العلاقات على وجه ما والمحافظة على تلك الحضارة من الجيران الطامعين بذل الجهود المشتركة من جانب المجتمع ، ثم تنظيم هذه الجهود تحت قيادة وادارة منظمة • ومن مظاهر عهد النمو فى الحضارات كثرة القادة من المخترعين والمبدعين الذين يفتحون الطريق الى الجماهير التى تقدمهم وتسير تحت ركابهم ويتبدل مستواها من حال الى حال آخر أرقى[١] •

ان هذه المقدمة القصيرة فى نشوء حضارة العراق الاولى تفيدنا فى فهم كيفيه نشوء نظام الحكم فقد اقتضى تنظيم العلاقات الاجتماعية نشوء أولى انظمة للحكم فى العراق ونشأت كذلك أولى الشرائع المدونة لتنظيم تلك العلاقات الاجتماعية • وقد وجد العراقيون الاقدمون انفسهم ولا سيما فى القسم الجنوبى من العراق فى أرض تنقصها المواد الخام الضرورية لحضارتهم

---

(١) هذه الفرضيه المعقوله أوردها توينبى فى بحثه التاريخى المشهور • A Study of History VOL, I

خوذة من الذهب دقيقه الصنع ، وجدت فى أحد القبور الملكيه
فى أور (فى حدود ٢٦٠٠ ق ٠ م)

ونموها كالمعادن والاحجار المختلفة والاخشاب ، فالتجأوا للحصول عليها أولا الى التجارة الخارجية مع الاماكن التى تكثر فيها تلك المواد ، ولكن التجارة الخارجيه تستلزم توفر عوامل كثيرة معقدة منها التنظيم الاجتماعى وابتداع وسائل المواصلات وحماية الطرق والتجارة وتنظيم وسائل المبادلة التجارية ، ثم توحيد مصالح المدن العراقية المختلفه التى كانت كل مدينه منها دولة قائمة بذاتها ، فنشأت المملكة الموحدة فى العراق بعد ان كان مجزءا الى دول المدن فى عصر فجر السلالات • وعندما اشتدت الحاجة الى المواد الخام وتعذر الحصول عليها بطرق التجارة الخارجيه التجأ ملوك العراق الاقدمون الى الفتوح الخارجية ، فاستولوا على منابع المواد الخام

وضموها الى ممالكهم فنشأ أول نظام للامبراطوريات فى تأريخ البشر • ونتج عن ذلك تعقد نظام الحرب والادارة فى نظام الحكم ، فكانت سلسلة من المشاكل الاجتماعية نشأت فى الحضارة عسها أى من البيئة الاجتماعية •

كيف نشأ نظام الحكم :

ومما لا شك فيه ان تعظيم العمل والجهود فى ابان نمو الحضارات يتطلب ادارة وقيادة ، فكان أحرم الافراد وأبررهم من حيث المواهب والقابليات والسيطرة أول الحكام والمدبرين فى الهيئة البشرية ، هذا ولا نعلم وجه التأكيد متى نشأ نظام الحكم فى العراق وانما الذى نعلمه ان هذا النظام أول ما نشأ فى العراق وفى مصر وهما القطران اللذان نشأ فيهما أولى الحضارات البشرية وان معرفتنا الكاملة بنظام الحكم فى العراق تبتدىء منذ عصور فجر السلالات ، ولكن مما لا شك فيه تمتد جذور هذا النظام الى الاطوار البدائية التى سميناها بعصور ما قبل السلالات • وان لدينا من الاشارات التاريخية ما يدل على ان أمراء ومؤرخا حكموا فى دويلات صغيرة منذ نهاية عصر العبيد ، وبوجه الترجيح فى العهد الشبيه بالكتابى ولكن لاسفاء السجلات والوثائق المدونة لا نعرف شيئا من أخبارهم الا صدى تركوه فى العصور التأريخية القديمة التى عقبت عصور ما قبل التأريخ •

ومهما يكن من أمر فان نظام الحكم الذى حائنا أخباره من عصور فجر السلالات كان فى أولى مراحله • فكان كل من العراق ومصر مجزءا الى دويلات وامارات قوام كل منها مدينة وما يجاورها من المدن والقرى يحكمها ملوك وأمراء لهم صفة دينية ، اذ انهم كانوا فى عرف المجتمع يتوبون عن الآلهة فى ادارة البلاد التى هى ملك للآلهة • وقد تطور بعض هؤلاء الحكام ولا سيما فى مصر فصار له صفة الآلهة نفسها أى صار الها • ولعل الاسم السومرى للملك (لوكال) أى «الرجل العظيم» يشير الى أصل الملك ، فقد صار هذا الرجل عظيما لمزاياه الجسمية وقابلياته التى مكنته

من ان يفرض قيادته على الجماعة التي عاش معها في مجتمع واحد[١] . ولقد ثبت من البحوث الحديثة ان اقدم نظام سياسي في العراق الجنوبي كان نوعا من الديمقراطية البدائية حيث كانت على هيئة مجلس لجميع الرجال الاحرار في المدينة ، وهناك مجلس آخر قوامه شيوخ المدينة وقد فوض لمعالجة شؤون مجتمع المدينة الاعتيادية ، ولكنهم كانوا في أزمان الازمات والشدائد كالحروب يتخذون قائدا أو شخصا مهما للحكم رسما محدودا وبمرور الازمان صار هذا الشخص المنتدب دائميا أي اخذ الحكم لنفسه فصار حاكم المدينة أو ملك المدينة على غرار شيوخ الدكتاتور في تأريخ الرومان[٢] .

---

(١) يسير بدايه الحضاره في العراق الى ان المعبد العام وادارته كانت تدور عليه الحياة الاجتماعيه في أولى مراحلها وكان مركز أوائل المدن كذلك ، وبرجح ان الكهنه ، أي قوام المعبد كانوا أيضا يتولون اداره المجمع الخاص بالمعبد نيابه عن الاله ، صاحب المعبد . فكانت «حكومة الكهنه» ولكن يبدو كما ذكرنا ان حكومه الكهنه لم تحقق متطلبات الازمات الحادثة في المجتمع ولا سيما عند الحروب المنظمه بين دويلات المدن والحروب المستمرة مع البدو الذين عاشوا في اطراف الحضارات في وادي الرافدين حيث ان «الحكام الكهنه» لا يستطيعون كسب الحرب لكان قائد الجرب المظفر أصل الملك في نظام الحكم . فالقائد الجارم المنتصر المدبر جعله الناس حاكما وملكا ، وهذا ما يشير اسم الملك بالسومريه «لوكال» الذي يعني «الرجل العظيم» وكذلك «المدير» . وانتقال الحكومه من حكومه الكهنه الى نظام الملوكيه يستطيع أن نتلمسه مما ورد في العهد القديم (سامونيل الكتاب الاول الاصحاح ٨ والعاشر ١٧٥ فما بعد . والاصحاح الثاني عشر) ولعله قد نشأ نزاع بين طبقه الكهنه وطبقه الملوك في بادىء الامر ولكن الملك نفسه اكتسب صفه مقدسه وصار كاهن الاله الاعلى «اشاكر» (بابيسي) وممثله على هذه الارض كما سماه السومريون . حول الحالة الاقتصادية وعلاقتها بالمعبد في عصور فجر السلالات .
راجع Frankfort, **The Birth of Civilization** (1951) 155 ff

(٢) (سنتطرق في بحث الحكومه والملوكية في القسم الثاني من هذا الكتاب الى الموضوع فندرسه بوجه أوفى . أنظر حول ذلك البحث الطريف)
Thorkild Jacobsen "Primitive Democracy in Ancient Mesopotamia" in JNES, II (1943), 159 ff.

مبزات عصر فجر السلالات السياسية :ـ

وكانت دويلات المدن هذه كثيرا ما تتنازع فيما بينهـا على السـلطة السياسية وتوسيع حدودها وعلى مياه الارواء التى كان يقوم عليها كيانهـا الاقتصـادى وقـد يتسنى فى بعض الاحايين لبعض الدويلات أن تبسـط سلطانها على دويلات مدن أخرى فيتوحد قسم من البلاد ولكن عملية الوحيد السياسية لم تكن لتدوم أمدا طويلا ، فلم يتسن للبلاد أن تتوحد وتنتقل من طور دويلات المدن الى طور حكومة المملكة الموحدة الا فى أواخر عصـر فجر السلالات فى العراق • حيث تمكن سرجون الاكدى الشهير ، مؤسس السلاله الاكدية ،من القضاء على آخر دويلات المدن السومرية، ووحد القطر فى مملكة واحدة شملت جميع العراق ، ثم وسع هذه المملكة الى امبراطورية معظمة صمت أقاليم أخرى غير العراق •

مصادرنا عن الاحوال السياسية فى دول المدن :

ان مصادرنا عن دويلات المدن فى العراق تنحصر فى ما خلفه لنـا ملوك دلك الزمان من أحارهـم المدونة التى وجـدت فى أثنـاء التنقيبـات فى المدن القديمة ولكن ما جائنا من هده المصادر قليل لا يمكننا من معرفة الحياة السياسية معرفة تامة ولكنها آخذة بالكاثر والتكامل باستمرار التنقيبـات والبحوث فى آثار هذا العهـد • أما الآن فان ما نعرفه عن أقدم دويلات المدن فى العراق لا يعدو أن يكون مجرد أسـماء ملوك تنتظم فى سـلالات حاكمة وردت الينا فى جداول دوّنها الكتبة السومريون أنفسهم فى العهود المتأخره (منذ الالف الثانى قبل الميلاد) [١] وقد وردت هذه السلالات مرتبة فى تلك الجداول بحسب تعاقبها الزمنى فى الحكم مع ذكر السنين التى حكمها كل ملك ومجموع السنين المخصصة لكل سلالة ، كمـا انهـا وردت وهى

(١) لقد أثبتت البحوث الحديثه فى انبات السلالات التى جائتنا وهى مدونه فى حدود بداية الالف الثانى ق • م • انها نسخ عن انبات قديمه . وان الاثبات الاصليـه قد دونت فى آخر العهـد الاكدى أو بداية سـلاله أور الثـالثة •

انظر Jacobsen, **The Sumerian King List** (1939)

تمثال منحوت من المرمر ، لعله يمثل كاهنا سومريا ماسكا كاس الماء المقدس (من عصر فجر الثانى ـ من حفاحى ٢٨٠٠ ق ٠ م)

مقسمة الى قسمين نفصل فيما بينهما حادث مشهور عند سكان العراق الاقدمين هو الطوفان • ومن الطريف ذكره ان المؤرخين القدماء فى العراق القديم اعتبروا الطوفان على ما يرجح حدا فاصلا بين تأريخهم القديم والتأريخ الحديث وقد ذكرت حداول الملوك أسماء بداية ملوك حكموا قبل الطوفان فى خمس مدن قديمة منها «سبار» و «شروباك» وتعرف خرائبها اليوم «أبو حبه» و «فاره» وقد خصص لهؤلاء الملوك عدد كبير من السنين لا تقبله العقل ، وهو رقم (٢٤١٠٠٠) سنة لمجموع حكمهم • ومن الامور الاخرى التى تفقد بها تلك الاثبات ان قسما من السلالات التى ذكرت وهى معاقبة فى الزمن لم تكن فى الواقع كذلك وانما كانت معاصرة اما جزئيا أو كليا •

السلالات الشهيرة :ـ

وتذكر حداول الملوك ان «الملوكية» هبطت من السماء من بعد الطوفان وحلت فى مدينة «كيش» (وهى تل الاحيمر الآن قرب الحلة) وخصصت لسلالة كيش ثلاثة وعشرين ملكا لا نعلم عنهم شيئا سوى بعض القصص والاساطير التى وردت عن عدد منهم • حيث عد بعضهم من الآلهة أو أبناء الآلهة • ومما يجدر ذكره عن هذه السلالة ان معظم أسماء ملوكها من الساميين • ثم تخبرنا تلك الحداول ان الملوكية انتقلت بعدئذ من مدينة كيش الى مدينة الوركاء ، وتذكر من ملوكها «حلحامش» صاحب الملحمة والقصة المشهورة باسمه التى ورد فيها ذكر الطوفان البابلى • ثم وردتنا قصص من الآداب والاساطير عن عدد آخر من ملوك هذه السلالة • وفيما عدا ذلك لم نعرف عن أخبارها التأريخية شيئا ، ولعل التنقيبات فى المستقبل تكشف شيئا من أخبار ملوكها •

ويلى سلالة الوركاء فى حداول الملوك سلالة أور «الاولى» التى نعرف عنها أكثر من غيرها بفضل التنقيبات الواسعة التى أجريت فى مدينة أور ، اذ عثر فى خلال التنقيبات على وثائق تأريخية مدونة فيها أعمال ملوك من هذه السلالة فمنهم مثلا

«مس ـ آنيبدا» مؤسس السلالة وقد خصص لحكمه فى اثبات الملوك ٨٠ عاما ولعل الصحيح ٤٠ عام • وقد وجدت له آثار مكتوبة فى «أور»و«العبيد» • كما انه شيد المعد المشهور فى العبيد • وابنه «آنيبدا» الذى حدد فى مدينة العبيد القريبة من أور بناء المعبد الخاص بالآلهة «نن ـ خرساك» وقد زين حجهات بابته وحدرانه بتماثيل من النحاس وعمد من الفسيفساء المصنوعة بتطعيمها بالاحجار الجميلة الملونة • وفى المتحف العراقى نماذج مهمة من هذه الآثار•وعثر فى أور من رمن هذه السلالة على المقبرة الملكية المشهورة التى سبق أن قلنا انها انجت أنفس الآثار الذهبية واعماها •

ويقع رمن سلالة أور الاولى ورمن المقبرة الملكة فى الطور الاخير من عصر فجر السلالات[1] • ومما يقال فى هذا العهد بوجه العموم ان جميع معلوماتنا عن التأريخ السياسى لسلالات الملوك ودويلات المدن الموثوق بها قد جائتنا من هذا الطور ، فبالاضافة الى سلالة أور الاولى نعرف بعض الشىء عن ملوك آخرين تكونت منهم سلالة كبيرة حكمت فى «لجش» (المعروفة باسم تلو الآن قرب الشطرة) لم يرد لها ذكر فى اثبات الملوك ولعل السبب فى ذلك أن حكامها كانوا أمراء حرب رعييين ولسوا حكام كهنة مما جعل رجال الدين فى المدن السومرية لا يعترفون بهم ، ولكن السقيات التى أجريت فى تلك المدينة أظهرت لنا نتائج باهرة عن ملوك تلك السلالة وأخبارها وقد بدأت حكمها فى الطور الاخير من عصر فجر السلالات فى حدود ٢٦٠٠ ق • م • وقد اشتهر حكام هذه السلالة بلقب «اشاكو» (وكان يقرؤ سابقا ماتيسى) • وكان أولهم «أور ـ باشه» من أوائل الملوك فى التأريخ البشرى • وقد وجدت لهذا الملك ولخلفائه من ملوك هذه السلالة آثار مكتوبة وتماثيل ومحونات وآثار فنية أخرى أمدتنا بمعلومات قيمة عن تأريخ عصر فجر السلالات ولا سيما الطور الاخير منه سواء من ناحية التأريخ

(١) لقد أظهرت السقيبات فى المقبره الملكيه فى أور أسماء بعض الامراء والحكام والاميرات من السومريين مثل الاميره «شبعاد» التى وجدت حلاها النفيسة والامير «مس كلام دك» ويوسعكم أن تشاهدوا بعض مخلفاتهم القيمة فى المتحف العراقى •

السامى أو عن الناحية الحضارية • وقد عثر له على لوحة فريدة منحوتة فيها صورته وصورة وزيره وأولاده ، وفيها كتابة تذكر تشييده معـــابد مهمـة للآلهة الخاصة بمدينة«لجش» مثل«ننجرسو» والالهة«نانشه» ،كما انه بنى سور المدينة وحفر أنهار الرى • ولدينا معلومات عن الاسلحة وتنظيم الجيوش ، فنعرف مثلا استعمال العربات فى الحروب وكذلك الرماح وخوذ النحاس والروس وفؤوس القتال • وقد صورت بعض المنحوتات التى جائتنا من هذه السلالة (وهو النصب العائد الى أحد ملوكها المسمى «اياناتم» وتعرف هذه باسم مسـلة النسور (Stele of the Vulture) وهى محفوظة الآن فى متحف اللوفر فى باريس) وشاهد فيها مشاهد تطور نظام القتال فى ذلك الزمان • فشاهد الحد وقد صفوا صفوفا على غرار ما عرف من نظام التعبئة فى زمن الاغريق (Phalanx) • وقد كان بين مدينة «لجش» ومدينه أخرى قريـة منها وهى «أوما»(وتعرف أنقاضها اليوم باسم«حوخى-جوحه») نزاع مستمر بسبب تحديد الحدود ومياه الارواء وقد خلدت تلك المسلة انتصار «اياناتم» على «اوما» وقد صور فى المسلة الاله «ننجرسو» بهيئة شخص مسـلح بيده اليسرى الدبوس للقتال وباليسرى شبكة اصطاد فيها الاعداء أسرى • وفى قمة المسلة صور الملك فى عدته الحربية على رأس جيشه وقربه جثث الاعداء تأكلها العقبان أو السور • وقد عمد أحد ملوك لجش المسمى«اتمينا» على حفر نهر لجلب المياه من دجلة الى لجش حسما للنزاع • ولا تزال آثار هذا النهر الى يومنا هذا وبرجحان شط الدجيلة الذى اتخذ قاعه(عقيقة) دجلة عند تغيير مجراه ثم تحول أخيرا الى مجراه الحالى • ومن الطريف ذكره بصدد النزاع بين هاتين الدويلين الحكيم الذى التجأتا اليه مرة وكان الحكم ملكا مجايدا من ملوك كيش هو «مسيلم»[١] الذى قام بالوساطة فى تحديد الحدود وتعليمهـا

---

(١) رمز مسيلم غير معروف بالضبط ولعله حكـم بين الطورين الاول والثانى من عصر فجر السلالات • وقـد عثر فى كيش على رأس دبوس من الحجر (mace-head) منقوش بصور أسود وبكتابة مسمارية رمزية تذكر اسم مسيلم • ولعل هذه الكتابة أقدم كتابه دونت بهـــا حوادث تاريخية رســـميه •

بنصب اقامه بين الدويلتين(١) . ومما لا شك فيه ان كتشت يسيجه ذلك معاهدة هي أقدم أنواع المعاهدات في تاريخ العلاقات الدولية . وتشير أخبار سلالة لجش وأخبار الملوك الآخرين من مدن اخرى من عصر فجر السلالات ان ملوك ذلك الزمان لم يقتصروا على مدنهم الصغيرة وانما كان بعضهم يبلغ من القوة والبأس بحيث يقوم بحروب خارجية ولا سيما في بلاد عيلام التي غزيت أكثر من مرة . وتدل أخبار هذه الدويلات كذلك على وجود علاقات مهمة تجارية وحربية وثقافية بين العراق وبين بلاد الشام ، ولا سيما منطقة «ماري» في الفرات الأوسط وكذلك منطقة الخابور والبليخ حيث عثر فيهما على مراكز حضارية من عصور ما قبل السلالات العراقية وكذلك من عصور فجر السلالات وهي تشير الى ان نوع الحضارة فيهما كان نموذجا من حضارة العراق القديم .

لقد حكم من هذا الوسط الذي نموه الشرقي الذي نموه اعترضت سلالة «اور ـ ناشة» فتدخل الكهنة وعينوا احد أفرادهم حاكما على لجش هو «اينتاررى» واعقبه حاكم آخر وكلاهما من كهنة معبد الاله «نجرسو» وبعد حاكم آخر حكم في لجش «اورور ـ نجرسو» الذي كان آخر ملوك لجش حيث ابتدأ سلسلة ملوك و شهر باصلاحاته الاجتماعية التي تعد أخبارها أقدم وثائق مدونة في محاولات الاصلاح الاجتماعي ، وبعد أول مشرع في تاريخ البشر ، قبل حمورابي بستة قرون وان لم تأتنا بعد قوانينه المدونة ، ولكن أخباره التي جمعها لنا تشير الى انه قام بانقلاب اجتماعي يرمي الى الاصلاح وازاله الظلم ونشر العدل بين طبقات المجتمع ، ومنع الكهنة والموظفين من ابتزاز أموال عامة الشعب والفقراء قسرا ، ولكن اصلاحاته هذه لم يتمتع بها أمدا طويلا اذ عدا عليه على أمره ملك مدينة «اوما» المعادية وقضى على سلالته ، وقد حدث ذلك قبيل زمن سرجون الاكدي .

(١) انظر كتابه «انتميا» حاكم لجش المنشورة في :ـ
de Sarzec, **Découvertes en Chaldée**, P XIVII , Gadd, **A Sumerian Reading - Book** (1924), 111 ff

تمثال صغير من المرمر يمثل أميرا أو كاهنا سومريا من عصر
فجر السلالات (من اريدو)

ويدعى ملك «اوما» هذا باسم «لوكال زاكيزى» وهو من مشـــاهير الامراء السومريين وعهده نهاية عصر فجر السلالات[١] ، وبعد أن قضى على دولة مدينة لجش نجح فى ضم مدن أخرى مهمة الى دولته وكون منها دولة واحدة شملت أكثر العراق واتخذ الوركاء عاصمـــة له ، وهو أول من اتخذ لقب «ملك سومر» وبالسومرية (لوكال كلاما) وهذا رمز للوحدة السياسية التى أنحرها بين دول المدن ، ولم يقتصر على ذلك بل ان أخباره تشير الى انه مدّ فتوحه خارج العراق ووصل حتى ساحل البحر المتوسط •

ولكن لم يتمتع هذا الملك القديم بحكمه زمنا طويلا اذ قضى عليه بطل آخر أصلب عودا وأقوى شكيمة ظهر فى العراق فى ذلك الزمن هو سرجون الاكدى ، مؤسس السلالة الاكدية وزعيم الساميين الذين ظهرت خطورتهم السياسية • وقد نازع سرجون «لوكال زاكيزى» ومعه المدن السومرية ، وبعد حرب طاحنة تغلب عليه • وبذلك انتهى عهد دويلات المدن وحل محله عهد المملكة الموحدة كما سيمر بنا بيان ذلك • ومع فشل «لوكال زاكيزى» فان تجربته السياسية قد مهدت السبيل لسرجون لتمكين الوحدة وتثبيتها •

والذى يلاحظ فى أحوال العراق فى عصر فجر السلالات انه مـــع انقسام القسم الجنوبى الى دول المدن فقد كانت تجرى محاولات محليـــة سياسية وثقافية للتوحيد على غرار ما كـــان يجرى فى مـــدن دول المـــدن اليونانية • فمثلا خصصوا كلمة لاطلاقها على بلاد سومر هى «كلام» لتمير السومريين عن غيرهم ، كما ظهر مصطلح خاص يطلق على ســـكان العراق الجنوبى هو مصطلح «ذوى الرؤس السود» ، كما ان دول المدن كلها كانت تشترك فى عبادة آلهة تأتى على رأس الآلهة السومرية مثل «آنو» والميل ،

(١) حول أخبار النزاع بين «لجش» و «أوما» بوجـــه خاص وبين دول المدن الاخرى بوجه عام انظر
Poebel, "Der Konflict zwischen Lagash und Umma ..., in **Paul Haupt Anniversary** volume (1926).

وجعلت نفر لكونها مركز عبادة «انليل» المركز الديني لبلاد سومر وصارت بمثابة كعبة يحجون اليها • ولكن هذا الشعور والاتجاه الى التوحيد لم يجد له نصيرا سياسيا بالاحساس وانما فرض بالقوة فى محاولة «لوكال زاكيزى» ومن بعده سرجون الاكدى وخلفاؤه •

وقبل أن نمهى كلامنا على دول المدن فى عصر فجر السلالات نذكر بعض الامور المفيدة عن ذلك العصر المهم الذى وضعت فيه أسس أولى الحضارات البشرية •

سعة دولة المدينة :ـ كانت دولة المدينة فى عصر فجر السلالات ، كما نعرفها من وثائق هذا العصر ، تتألف من جملة مجتمعات أو حارات معبدية (أى تتمركز حول معبد معين) ، فمثلا تذكر ألواح الطين من مدينة لجش ، زهاء عشرين معبدا[١] • واظهرت التنقيبات فى مدينة خفاجى معبدين كبيرين ومعبدا متوسط الحجم ومعبدين آخرين صغيرين[٢] • وقد قدر نفوس حارة أحد المعابد فى لجش بزهاء ١٠٠٠ـ١٢٠٠ نفس ونحو ٦٠٠٠ «ايكر» من الارض ، أما عدد سكان دولة تلك المدينة فيخمن بصورة تقريبية بـ ١٠٫٠٠٠ الى ٢٠٫٠٠٠ ، بالرغم من ان «انتمينا» يذكر ان نفوس لجش فى زمنه كان ٣٦٫٠٠٠ وكذلك اوركاجينا ويقدر «جودية» نفوسها بـ ٢١٦٫٠٠٠ نفسا • وقد حسب الاستاذ «فرنكفورت»[٣] عدد سكان دول المدن بالاستناد الى سعة خرائب المدن التى أجريت فيها التنقيبات الحديثة ، وهذا مقياس تقريبى غير مضبوط الا انه يمكن القارىء من تكوين فكرة عامة عن السكان فى ذلك العهد البعيد • فقد حسب محلات السكنى فى ثلاثة

---

(١) A. Deimel "Die Sumerische Tempel Wirtschaft" in **Analecta Orientalia,** II (1931), 71 ff.

(٢) Delougaz & S L. Lloyd, **Pre-Sargonic Temles in the Diyalah Region** (Chicago, 1942).

(٣) H. Frankfort, **The Kingship and the Gods**

تمثال من الحجر الاسود يمثل كاعبا أو وربرا اسمه (دودو) ، ويرجع
عهده الى عصر فجر السلالات الثالث (٢٦٠٠ ق ٠ م)

مواضع قديمة معلومة من التنقيبات وهى «اور» و «اشنونا» (تل اسمر الا ن) و«حفاجى» . ففى المدينة الاخيرة وجد نحو (٢٠٠) بيت سكنى فى الايكر الواحد (من تاريخ ١٩٠٠ ق . م) ومعدل مساحة البيت الواحد ٢٠٠ متر مربع وزهاء ٦–١٠ نفوس للبيت الواحد ، وبالقياس الى كثافة بعض المدن الحاصرة فى الشرق الادنى (نحو ١٦٠ نفسا فى الايكر) يكون نفوس كل من «أور» ومدينة «اشنونا» التى مساحة كل منهما (١٥٠) ايكرا نحو ٢٤٫٠٠٠ وذلك فى الازمان المتأخرة . أما فى عصور فجر السلالات فيلزم خفض هذا المقدار ، حيث يقدر لمدينة لجش نحو ١٩٫٠٠٠ نفسا ولمدينة «اوما» نحو ١٦٫٠٠٠ ولمدينة خفاجى نحو ١٢٫٠٠٠ ولمدينة اشنونا نحو ٩٠٠٠ نفسا .

وكان للمعبد سلطة عظمى وأملاك واسعة . فان الاله الذى يعبد فى معابد المدينة هو الحاكم الحقيقى والمالك الحقيقى للمدينة وللناس ، أما الحكام والكهنة فهم وكلاء عنه فى حكمه على الناس . وكانت الاراضى العائدة لمجتمعات دول المدن تنظم تحت ثلاثة أنواع: ١– نوع من الاراضى سموه «كور» وهذه تركت لافراد المجتمع ووزعت عليهم ، وكانت حصة الفرد لا تأس بها اذ أن أصغر حصة نصيبه كانت تبلغ نحو ايكر واحد (حوالى مئارة أو دونم واحد) (٢) – نوع آخر من الارض غلتها تعود الى المعبد (وتسمى هذه بالسومرية nigenna) وقد تبلغ ½ أراضى دولة المدينة ، وكان على أفراد المجتمع أن يتولوا زراعتها والمحافظة عليها وحفر أنهارها وتكون غلتها الى المعبد الذى يجهز الفلاحين المسخربن بالبذور (٣) – نوع ثالث من الاراضى كانت بحوزة المعبد ايضا ولكن كان يؤجرها الى الافراد (وتسمى هذه بالسومرية Urula)

وقد أظهرت التنقيبات نماذج كثيرة لدور السكنى من مختلف عهود العراق القديم ، ومن بين ذلك عصور فجر السلالات . فكانت البيوت تبنى من اللبن ، وهى على الاغلب مؤلفة من طبقة واحدة ، ويحتوى كل بيت على جملة حجرات تتوسطها الساحة المكشوفة . وقد وجد أحد هذه البيوت فى

خفاجي وهو دو خمس حجرات صغيرة ، وتبلغ مساحه نحو ١٠ × ٦٫٥ مترا ، وآخر اكبر منه دو عشر حجرات (مساحته ٣٠ × ٢٠ مترا) ، وقد عقد بعض أبوابه بالعقادة بأقواس صحيحة[١] • والعادة انه يوجد فى البيت شبابيك للنور •

هذا وسنذكر فى الاوجه الحضارية فى القسم الثانى من هذا الكتاب أمورا أخرى مفصلة عن حياة العراق فى عصور فجر السلالات ، كنظام الحكم والديانة والحياة الاقتصادية والعيشة • وكفى بما ذكرناه عن تلك العصور •

(١) Oriental Instit. Communications, 17, 10 ff

الفصل السابع

سومر واكد

(١) السامبون والهجرات السامية

عرفنا شيئا عن أحوال العراق السياسية فى عهد دول المدن الذى سميناه بعصور فجر السلالات ورأينا كيف انتهى هذا العهد بقيام سرجون الاكدى (فى حدود ٢٣٥٠ ق . م) وقضائه على ذلك النظام السياسى وتكوينه مملكة واحدة صارت بعد الفتوحات الخارجية امبراطورية واسعة . وسرجون من الاكديين وهم فرع من الاقوام السامية فيسعى لنا قبل الكلام على هذا العهد الجديد أن نعرف شيئا عن الساميين وعلاقتهم بالشرق الادنى وبجزيرة العرب .

جزيرة العرب مهد الساميين :

سميت جزيرة العرب (أى شبه الجزيرة) من الشرق والشمال والغرب بأقاليم عبية خصبة تحيط بشبه الجزيرة بهيئة نصف دائرة أو هلال أطلق عليه اسم الهلال الخصيب . وجزيرة العرب[1] ، على ما يرى أكثر العلماء والباحثين ، مهد الاقوام السامية ، وقد نزحت منها أقوام وشعوب انتشرت من الجزيرة منذ أقدم الازمان بهيئة هجرات أو موجات متعاقبة فى أزمان مختلفة الى بقاع الهلال الخصيب حيث عاشت فيها وكونت دولا وحضارات ذات شأن كبير فى تأريخ العالم . ومما لا شك فيه ان هذه الهجرات بدأت منذ أقدم الازمان فى عصور ما قبل التأريخ وكان العراق مفتوحا أمام هذه الهجرات وقد استوطن فيه الساميون مع الاقوام الاخرى جنبا الى جنب

---

(١) حول موجز أحوال الجزيرة الماضية أنظر الجزء الثانى .

منذ الاطوار البدائية وعاشوا مع السومريين منذ أقدم العهود التأريخية وطغوا على حياة العراق ومعظم الشرق الادنى ، منذ العهد الاكدى ، بعد أن تغلب زعيم منهم فى العراق، وهو سرجون الاكدى، على دول المدن السومرية فى أواخر عصر فجر السلالات ، وأثر الساميون فى تكوين السكان فى مصر القديمة منذ أقدم العهود ويرى الباحثون ان هجرة سامية كبرى الى مصر فى حدود الالف الرابع قد تكون منها ومن السكان الاصليين المصريون الذين نعرفهم فى التأريخ .

ولدينا من الادلة ما يثبت اتصال العراق القديم بجزيرة العرب منذ العهود القديمة التى سميناها بعصور ما قبل السلالات (أو العهد الحجرى المعدنى) وكان القسم الشرقى الجنوبى من الجزيرة من المصادر المهمة التى حلب منها العراقيون القدماء معدن النحاس . وورد فى أخبار الملوك السومريين والاكديين ذكر مواضع فى جزيرة العرب مثل البحرين (وسموها دلمون وموضع آخر بهيئة مجان وهى عمان الآن) على انها مصدر النحاس .

وقد جرى المؤرخون على تعداد موجات متعاقبة من الساميين جاءت من الجزيرة واستوطنت أراضى الهلال الخصيب ، وكانت أولى هذه الموجات هجرة الاكديين الى العراق . ولا نعلم بوجه التأكيد متى جاء هؤلاء الى العراق ، ولكن مما لا شك فيه كما ذكرنا سابقا تعلغل الساميون فى العراق منذ أقدم العصور ولكن عرف منهم الاكديون فى العهود التأريخية لوفر المصادر ولانهم سموا باسم خاص أى أكديين . وعلى كل حال عاش هؤلاء مع السومريين فى عصور فجر السلالات واقتبسوا من الحضارة الراقية التى ذكرنا عنها شيئا فيما سبق ، ولا شك فى ان الساميين ومنهم الاكديون قد ساهموا فى نشوء تلك الحضارة. وكون الاكديون فى منتصف الالف الثالث ، فى نهاية عصر فجر السلالات دولة عظمى هى سلالة سرجون التى سنتكلم عنها ، واستوطن فرع آخر من الساميين فى حدود الالف الثالث القسم

الشمالى من العراق وتكون منه الآشوريون الذين جائتنا أخبار دولتهم فى العصور التأريخية ، ومن الساميين فرع يدعى «الاموريين» وقد طغى هؤلاء على ديار الشام والفرات الاوسط فى منتصف الالف الثالث ق • م وكونوا هناك دولا واقتبسوا من حضارة العراق القديم الاولى • كان مركز الاموريين فى شمالى سورية وفى وسطها وأصل اسم الاموريين من اللغة السومرية (مارتو ـ أى العرب) ، وصارت عبارة بلاد «آمورو» تطلق على سورية أى الغرب وكانت أقدم اشارة الى الاموريين من زمن سرجون الاكدى وبلغوا أوج سلطانهم السياسى فى النصف الاول من الالف الثانى ق•م•وجاء فرع من الاموريين الى العراق ، فى نهاية سلالة أور الثالثة وكون سلالة شهيرة عرفت باسم سلالة بابل الاولى اشتهرت بملكها السادس حمورابى ، واستوطن فرع آخر من الساميين عرف بالكنعانيين وهؤلاء هم النسبة الثانية الكبرى بعد الاموريين فى بلاد الشام وكانت مراكز استيطانهم فى السواحل السورية وكان تأثرهم بحضارة مصر القديمة أكثر من تأثرهم بحضارة وادى الرافدين بعكس الاموريين الذين اقتبسوا كثيرا من حضارة وادى الرافدين منذ أقدم الازمان • هذا وسنذكر فى الجزء الثانى من هذا الكتاب أشياء أخرى عن تأريخ الساميين الذين استوطنوا فى بلاد الشام فى جهات سورية أيضا ومن هؤلاء الفينيقيون وان اليونان سموهم بالفينيقيين • ومن الهجرات السامية الكبرى نزوح القبائل الآرامية الى أعالى الرافدين ومنطقة الفرات الاوسط وبلاد الشام فى منتصف الالف الثانى ق • م ومن الآراميين قبيلة استوطنت فى جنوبى العراق عرف منها فيما بعد الكلدانيون الذين كونوا آخر امبراطورية فى تأريخ العراق القديم وكون الآراميون دولا وامارات مهمة فى سورية منها مملكة دمشق وحماة وحلب ، وقد نشبت بينهم وبين الآشوريين حروب طاحنة دامت أكثر من قرنين من الزمان بسبب النزاع والسيطرة على البلاد السورية • وجاء من بعد الآراميين العبرانيون وقبائل أخرى قريبة منهم مثل المؤابين واستوطنوا فى جهات فلسطين وشرقى الاردن• ومن القبائل السامية النبط والاقوام التى جاءت أخيراً مثل اللخميين والمناذرة

مسلة الملك الأكدى «نرام ـ سين» تمثله وهو منتصر فى حروبه
على القبائل الشمالية (متحف اللوفر)

فى العراق والغساسنة فى الشام • وكانت آخر هجرة للساميين من جزيرة العرب هجرة القبائل العربية والفتح الاسلامى للهلال الخصيب التى طردت الفرس الساسانيين والرومان ونشرت الدين الاسلامى وكونت الحضارة الاسلامية العربية •

واسم الساميين وكذلك اللغات السامية مشتق من اسم «سام» حيث ظن ان المتكلمين باللغات السامية هم من نسل سام بن نوح كما جاء فى جدول الانساب فى التوراة (سفر التكوين ، الاصحاح العاشر) • وتنمى اللغات السامية جميعها الى عائلة لغوية واحدة لانها تحدرت من أصل واحد وتتشابه فى مفرداتها وفى تركيبها أى فى نحوها • وتعد عائلة اللغات السامية من أكبر العائلات اللغوية بين لغات البشر ومن أهمها من حيث كثرة المتكلمين بها وفروعها الكثيرة وقدمها ومن حيث الآثار الادبية التى جائتنا منها ، وقد دون فى بعض فروعها ، وهى اللغه الاكدية ، آثار تعد من أقدم ما دون فى تأريخ الانسان • وعائلة اللغات السامية من أغنى لغات البشر فى التركيب والمفردات وأثراها من حيث الاشتقاق والتصريف • وتشعب الى فروع ولهجات عديدة بوسعنا أن نصنفها بحسب خصائصها الى كتلتين عظيمتين اولاهما الكتلة الشرقية ومن فروعها المهمه اللغة الاكدية وفروعها البابلية والآشورية ولهجاتهما فى أطوارهما المختلفة ، ومن فروع الكتلة الشرقية اللغات العربية الجنوبية كالمعنية والسبئية والحميرية • والكتلة الثانية هى اللغات السامية الغربية ومن فروعها التأريخية المهمة الاموريه والكنعانية والفينيقية والآرامية والنبطية واللغة العربية الشمالية (الحجازية) التى تعد من اللغات السامية القديمة وان لم تأتنا منها آثار مدونة الا فى الازمان المتأخرة •

وتميز اللغات السامية بصفتها عائلة واحدة بخصائص مشتركة تميزها عن غيرها من اللغات البشرية • وأبرز هذه الخصائص الامور الآتية :

١ ـ تعتمد اللغات السامية على الحروف الصحيحة ولا تعنى بحروف العلة مثل عنايها بالحروف الصحيحة مع ان اللغات الســـامية تمتاز بكثرة التصريف وتغير حركات الكلمات فيها •

٢ ـ يرجع معظم المفردات فى اللغات السامية الى أصل أو جذر ذى ثلاثة أحرف وتشتق اللغات السامية من هذا الاصل البسيط صيغا وصـورا مختلفة فيها معنى الاصل وزيادة ، وذلك بتحوير حركات الاصل البسيط أو باضافة زيادات الى أوله او وسطه أو آخره • و بهذه الوسيلة من الاشتقاق صار لدى اللغات السامية ثروة كبرى من المفردات فكان ذلك مصدر حياة ونمو فيها • ان هذا الاصل الثلاثى البسيط هو اما الفعل المـاضى المسند الى الضمير المفرد المذكر الغائب (كما فى العربية) أو مصدر هذا الفعل ، أى ان أصل المشتقات من المصدر •

٣ ـ مما يميز الفعل فى اللغات الســامية انه محدود الزمن ، فالاصل فى أزمان الحدث الماضى والحاضر واستعملت فى العربية بعض الادوات للدلالة على المستقبل من الزمان ، وأساس الفعل الماضى كمال الحدث بالنسبة الى المتكلم وعدم تمام الحدث فى الزمن الحاضر بالنسبة الى المتكلم ايضـ •

٤ ـ لبس فى اللغات السامية الا جنسان هما المذكر والمؤنث •

٥ ـ وفى اللغات السامية ظاهرة غريبة هى علاقة العدد بالمعدود العكسية من الثلاثة الى العشرة ، أى انه يذكر العدد مع المعدود المؤنث ويؤنث مـع المذكر[١] •

---

(١) ويفسر بعضهم هذه الظـاهرة بمبدأ الاسـتقطاب (Polarity) الجنسى أى تكميل المذكر بالمؤنث والعكس بالعكس •

٦ ـ ويدر فى اللغات السامية الكلمات المركبة[١] أى ادماج كلمة مع كلمة أخرى لتصير كلمة واحدة على طراز الالصاق فى اللغات الملصقة كاللغة السومرية •

٧ ـ ثم ان اللغات السامية تشابه بوجه العموم بالاساليب النحوية ومن ذلك تصريف الافعال وميراتها واشتقاقها وتتشابه فى مفردات اللغة الاساسية ، وأقرب شبيه عائلة اللغات السامية عائلة اللغات الحامية التى من فروعها اللغة المصرية القديمة • ومن الباحثين من يعد عائلة اللغات الحامية وعائلة اللغات السامية انهما كانتا بالاصل عائلة لغوية كبرى انقسمت فيما بعد الى فرعين •

(٢) الاكديون

وبعد أن عرفنا شيئا عن الساميين بوجه عام ننتقل ببحثنا الى الكلام على أقدم الدول التى كونوها فى وادى الرافدين • وقد عرفت هذه المملكة، كما سبق أن ذكرنا ، باسم السلالة الاكدية لعله نسبة الى بلاد أكد ، أو الى العاصمة التى اسماها سرجون وسماها أكد ، ولكن يحتمل العكس • وقد قلنا فيما سبق ان عصر فجر السلالات انتهى بقيام أحد الملوك السومريين المشهورين وهو «لوكال زاكيزى» الذى نجح بعد قضائه على سلالة مدينة «لجش» المجاورة لمدينة «أوما» فى توحيد دويلات المدن فى مملكة واحدة • وقد جاء فى الاخبار انه وسع فتوحه الى سورية والى ساحل البحر المتوسط • ولكن ذلك لم يدم زمنا طويلا حيث ظهر فى البلاد زعيم من الساميين هو سرجون الاكدى (ولقبه شروكين ـ أى الملك الصادق) الذى كون من العراق مملكة موحدة فى حدود ٢٣٥٠ ق • م • بعد أن قضى على (لوكال

---

(١) باسم أسماء الاعلام فى اللغات السامية فان الغالب فيها انها مركبة وبلغ من تركيب أسماء الاعلام عند البابليين والآشوريين والعبرانيين انها تؤلف جملة مفيدة من مبتدأ وخبر أو فعل وفاعل (أنظر مبحث الديانة حول الامثلة على ذلك) •

زاكيرى) ولم يقصر أمر هذه المملكة على العراق بل انها شملت معظم أجزاء الشرق الادنى بسيحة فوح سرجون وخلفائه الخارجية وقد دامت السلالة الاكدية زهاءالقرنين (٢٣٥٠-٢٢١٠ ق٠ م٠) اتحد فى عهدها القسم الاوسط من البلاد وهو منطقة بلاد أكد والقسم الجنوبى وهو بلاد سومر • ولهذا السبب سميا العهود المتدثة بقيام السلالة الاكدية الى نهاية سلالة أور الثالثة باسم «سومر واكد» كما فعلنا فى عنوان هذا الفصل •

ومما يقال عن العهد الاكدى بوجه الاجمال انه لا يمثل فتحا جديدا كما كان يظن سابقا كما ان السلالة الاكدية لا تمثل لنا أول استيطان الساميين فى العراق وانما كان الساميون موجودين فى العراق منذ أقدم العهود وعاشوا جنب الى جنب مع السومريين ، هذا وقد سبق أن أشرنا الى ان أسماء ملوك سلالة كيش الاولى أسماء سامية ، و لواقع ان سرجون مؤسس السلالة الاكدية كان موظفا كبيرا (لعله ساقيا) عند أحد ملوك كيش المسمى «أور-زاباباه» ، والمرجح انه ثار عليه وقد وضعت الاجيال التالية حول اسمه كثيرا من القصص الطريفة،حول أصله المتواضع وكيفية تبوئه العرش ، ومن ذلك أسطورة شبيهة بقصة موسى[1] ، ورواية أخرى تصف حملة سرجون الى الاناضول لنجدة حلة (مستوطن) من التجار الاكديين ، متذرعا بحماية الرعايا الاكديين لبسط سلطانه على آسية الصغرى •وقد وجدت نسخة من هذه القصة

---

(١) وملخص القصة على لسان سرجون أن امه كانت وضيعة (قفرة) ولا تعرف اباه ، وكان عمه او خاله من سكان الجبال (لعله فى تلول بادية الشام) وكان مدينته المسماه «ازوبيرانى» تقع على شاطئ الفرات • وقد حملت به أمه وولدته سرا ووضعته فى سفط من القصب واحكمته بالقير ثم وضعته فى النهر ، ولكن النهر لم يغرقه • فنشله الفلاح الساقى «آكى» ورباه مثل ولده وعلمه فن البستنة • وحين كان يعمل فى البساتين فادا «الالهه عشتار قد احبته وجعلته ملكا ، وبقى فى السلطان طوال أربعة وخمسين عاما •

حول الاخبار المتأخرة عن سرجون أنظر
(L W. King, **Chronicles Concerning Early Babylonian Kings,** II, 5).

فى تل «العمارنة» فى مصر (فى حدود القرن الثالث عشر ق • م •) وعنوانها «ملك الحرب» •

ومع ان حكم سرجون وعهد السلالة الاكدية لا يمثلان فتحا ساميا جديدا الا انهما مع ذلك كانا عهدا جديدا مميزا فى تأريخ العراق القديم ، وأهم ما تميز به هذا العهد الجديد بوجه بالامور الآتية ، فمن ذلك نشوء روح جديدة فى الفن تتميز بالقوة والحيوية والحركة كما تدل على ذلك الآثار المنحوتة التى جاءتنا (انظر ص ١١٨) وكذلك رأس النحاس الاكدى الذى يرجح انه رأس سرجون أو رأس نرام ـ سين (انظر ص ١٢٥) وتلاحظ هذه الروح الجديدة فى فن الختوم الاسطوانية ايضا • وطرأ شىء جديد أيضا فى الكتابة والتدوين فقد صار أكثر الكتابات الملكية والوثائق التجارية تكتب باللغة السامية الاكدية • والواقع ان ذلك بدأ بدرجة قليلة فى عهد لوكال زاكيزى •

كما ان محاولة سرجون لخلق وحدة سياسية تضم دول المدن وتصهرها فى وحدة سياسة قد نجحت أكثر من محاولة خصمه (لوكال زاكيزى) • ولضمان هذه الوحدة السياسية ومن مظاهرها أيضا الامور الآتية :ـ

١ ـ تشير الاخبار المتأخرة عن سرجون انه لم يعتمد على ولاء دول المدن السومرية كثيرا بل انه كون له اتباعا خاصين واقطعهم قسما من الاراضى التى كانت تعود الى المعابد قسما سبق كما انه عين حكاما تابعين له ، والمرجح كثيرا انه أوجد نظام الجيش القائم • وصار حكام المدن فى عهد حفيده «نرام ـ سين» يلقبون أنفسهم بعبد الملك أو خادمه[1] واستمر اتباع هذا العرف الى العهود المتأخرة • ومن مظاهر التوحيد السياسى ان سرجون احتفظ باللقب السياسى الذى اخترعه «لوكال ـ زاجيزى» أى «ملك سومر»

(١) أنظر Frankfort, **The Birth of Civilization**, p. 74

(لوكال كلا ما) وأضاف اليه لقبا مهما آخر لم يعرف من قبل هو لقب «ملك الجهات الاربع» ، ولهذا اللقب الجديد مدلول دينى للحكم عدا مدلوله السياسى ، فقد كان هذا اللقب خاصا ببعض الآلهة العظام ولا سيما «انو» و«انليل» و «شمش» (الاله الشمس) ، والمقصود به انهم كانوا أسياد الخليقة والكون،وباتخاذهذا اللقبصار الملكالحاكم الارضى للخليقةأوالكون.واستعمل الآشوريون لقبا مماثلا هو «ملك الكون» (شار كشتى) . ولا يعنى لقب «ملك الجهات الاربع» ان سرجون قصد من ذلك تأليه نفسه أو جعل نفسه الها وانما هو ممثل الآلهة فى حكم الكون (الجهات الاربع)[١] .

ومن الامور المهمة التى أوجدها سرجون ادخال اسم الملك فى العقود مع أسماء الآلهة ، وكان هذا أمرا مهما من وجهين فأولا يعنى طاعة الملك والتمسك بولائه وثانيا تثبيت حقوق المتعاقدين ، فان الذى يحل شروط العقد بعد أن أقسم باسم الملك يسىء الى الملك نفسه ، ولذلك اتسعت صلاحية القضاة الذين كانوا قبل سرجون أشبه ما يكونون بالمحكمين ، ولكن صار حكمهم منذ العهد الاكدى الراميا باسم الملك[٢] . وبموجب هذا العرف الجديد يكون سرجون قد أوجد بوجه عملى محكمة للاستئناف للبلاد حيث كان هو على رأسها وهى مستقلة عن المدن المختلفة ، وهذه خطوة مهمة فى تطور العراق القديم وتطور شرائعه ، وكان حمورابى مثل ذلك أيضا .

ومن وسائل التوحيد المهمة التى أوجدها سرجون ادخاله أسلوبا موحدا للتقويم ، بخلاف عصر فجر السلالات السابق الذى كان فيه لكل مدينة تقويمها الخاص وأسماء أشهرها وأعيادها الخاصة .

ونختتم كلامنا على سرجون انه ايضا بدأ بتحسين الجيش واسلحته ، فقد تطورت أساليب الحرب والسلاح فى عهده فمثلا كانت الاسلحة السومرية

---

(١) ونص هذا اللقب الطريف باللغة السامية «شار كبرات اربعيم» وبالسومرية "lugal an - ub - da limmu - ba"

(٢) أنظر Frankfort, **ibid.** 75 ; **Kingship and the Gods,** 406.

رأس دقيق الصنع مسبوك من النحاس (أو البرونز) يمثل ملكا أكديا
(لعله سرجون أو نرام ـ سين عن المتحف العراقى)

ثقيلة مما لا تسهل حركة الجنود فى المناوره فقد كانوا يستعملون التروس الثقيلة الكبيرة على هيئة نظام الصف (Phalanx) الذى سبق أن ذكرناه ، مع الرماح الطويلة والفؤوس الثقيلة ، ولكن الاكديين سهلوا من حركة الجنود فى المناورة مستعملين أسلحة خفيفة كالقوس والنبال كما أدخلوا حرب المبارزة رجل مع رجل .

وقد حكم سرجون زهاء ٥٥ عام وخلفه فى الحكم ابنه «رموش» ، الذى خلفه أخوه المسمى «مانشتوسو» بعد حكم ٩ سنوات . وقد كان هذا شجاعا قويا حكم زهاء ١٥ عاما ، وقد خلف لنا بعض الآثار المهمة منها «مسلته» المشهورة (وهى مسلة هرمية سوداء منقوشة بكتابة تدون أعماله الحربية والاقتصادية والسياسية) وخلفه فى الحكم أقوى ملوك السلالة الاكدية وهو «نرام سين» المشهور الذى حكم زهاء أربعين عاما . وكان هذا

عاهلا عظيما أشتهر بفتوحه الخارجية ، حيث دوخ أقاليم بعيدة ، وقد خلف لنا منحوتات فى القسم الشمالى من العراق مخلدا انتصاراته على القبائل الجبلية ، ومن حروبه التى خلدها فى النصب الذى خلفه لنا (المسمى نصب النصر) قهره للاقوام القاطنة فى جبال عيلام وهضبة ايران (وقد جاء اسمهم بهيئة لولوبى) • كما يحتمل أن يكون رأس النحاس النفيس الذى وجد فى نينوى يمثل هذا الملك الشهير (انظر ص ١٢٥) •

الفتوح الاكدية ونتائجها :

نتجت الفتوح الخارجية التى قام بها سرجون وخلفاؤه الباررون وأشهرهم «نرام ـ سين» تكوين امبراطورية واسعة شملت معظم أجزاء الهلال الخصيب وعيلام وقسما من آسيا الصغرى الى ساحل البحر المتوسط ، وقد التقى النفوذ المصرى فى عصر الاهرام والنفوذ الاكدى فى مدن الساحل الفينيقية مثل جبيل ولكن لم يحدث بين الحضارتين اصطدام مسلح • ويروى لنا الكتابات التاريخية القديمة عزو سرجون اقليم «كدوكيه» لتحدث مستعمرة من التجار الاكديين هناك تأسست للتجارة بالصوف والفضة وأدوات المحريات التى حفرت فى منطقة الخابور ووجود مستعمرة كبيرة وقصر باسم «نرام ـ سين» المشهور فى تل «براك» على الخابور ، مما يشير الى اتساع السيطرة الاكدية وعلو الملوك بالسيطرة على الطرق الرئيسية المهمة بين سورية الشمالية والعراق • واتسعت الامبراطورية الاكدية فى زمن «نرام ـ سين» حفيد سرجون الذى غزا آسية الصغرى ونشر نفوذه فى ايران وجمع سورية الشمالية ويروى عن سرجون انه وصل الى حزيره كريت (وقد جاء اسمها فى المصادر المسمارية بهيئة كفتارة التى يرجح أن تكون كفتور الواردة فى التوراة) • وانه جلب السفن المحملة بالنحاس من «مجان» (عمان) ومن «ملوخا» (وهما فى الجزء الجنوبى الشرقى من جزيرة العرب) ومن «دلمون»

(جرر البحرين) وافرغ حمولتها فى ميناء عاصمه «اكد» • وقد خلد حفيده «نرام ـ سين» انتصاره فى منطقة ديار بكر فى نصب من الحجر وجد فى هذه المنطقة • وجاءنا منه نصب آخر يمثل فن النحت الراقى من هذا العصر يعرف بـ «نصب النصر» وقد مثل فيه الملك نرام سين وهو على رأس جيشه المنتصر فى منطقة جبلية الى الشمال الشرقى من العراق •

كانت الفتوح الاكدية تهدف بالدرجة الاولى الى السيطرة على القاع الغنية بالموارد والمواد الاولية • وكان الحصول على هذه الموارد الضرورية لحضارة العراق (كالمعادن والاحجار والخشب) غير مضمون دائما بالتجارة والتبادل كما فى العصر السابق أى عهد دول المدن التى كانت فى نزاع دائم فيما بينها • ولا شك فى ان بعض ملوك ذلك العهد مثل «لوكال زاكيزى» قد حاول السيطرة على منابع الثروة فى الشرق الادنى ، ولكن السلالة الاكدية بوجه عام قد حققت السيطرة الفعلية على موارد الثروة ويكون الفتح الاكدى بالاحتمال أول نظام للامبراطورية فى تأريخ البشر السياسى وطلائع الاستعمار الاقتصادى ، وقد درت هذه الفتوحات على الملوك الاكديين خيرات كثيرة ، ظهرت آثارها فى تجميل المعابد والقصور فى مدن العراق القديم ونتج استغلال هذه الخيرات اتساع الاسواق ورقى الصناعة •

والى المنافع الاقتصادية الكثيرة التى نتجت من هذه الفتوحات كان لها أثر بعيد فى تأريخ الحضارة البشرية • فقد عملت على نشر حضارة العراق القديم فى جميع أنحاء الشرق الادنى فانتشر استعمال الكتابة واتخذ الخط المسمارى فى أكثر أجزاء الشرق الادنى وفى آسية الصغرى ، وتحضرت الشعوب التى اتصل بها الاكديون واقتبسوا من حضارة العراق القديم واشتقت منها حضارات فرعية مثل الحضارة الحثية والحضارة العيلامية ، وانتشر كثير من عناصر الحضارة فى ديار الشام كالمعتقدات الدينية وعبادة الآلهة • وبهذا السبيل انتقلت أساطير مهمة مثل قصة الطوفان البابلية اسطورة

الخليقة الى سورية وتوارثت روايتها الاجيال المختلفة حتى وجدت طريقها الى التوراة .

وقد أسفر الفتح الاكدى بوجه الاجمال عن توحيد أساليب الحياة والحضارة فى الشرق الادنى ، فالسبل فى ذلك العهد احدى الطرق التجارية من جنوبى الاناضول الى سورية الى القاء الحابور نهر الفرات ثم الى آشور فى أعالى دجلة واتجه من بعد ذلك الى «مارى» ونزل مع الفرات الى موطن الحضارة السومرية يجد فى أى مدينة يمر بها وحدة فى مظاهر الحضارة الاساسية ، فى الفن والعمارة واللغة والكتابة حيث الخط المسمارى الخط العام فى المصالح والمعاملات التجارية والسياسية .

نهاية العهد الاكدى و « الكوتيون »

لقد عم الاضطراب فى أحوال المملكة فى أواخر العهد الاكدى وقد حكم من بعد (نرام ـ سين) ملوك ضعفاء آخرهم «شار كليشارى» الذى حكم نحو ١٥ عاما وخلفه فى الحكم ستة ملوك حكموا زمنا قليلا ولا نعرف عنهم سوى أسمائهم المذكورة فى اثبات سلالات الملوك ، وقد استغلت بعض القبائل الجبلية من شمال العراق وشرقه ضعف الملوك الاكديين المتأخرين . هذا وقد سبق أن رجحنا باتصال ملوك السلالة الاكدية (ولا سيما نرام ـ سين) بالاقوام الجبلية فى فتوحاتهم ، وكان هذا عاملا مهما لاحتكاك الاقوام الجبلية بحضارة القسم الجنوبى وتعلم أسلحتها وأساليبها الحربية . فعرف هذه الاقوام اللاد الاكدية وحطمت وحدتها السياسية واستحوذت على أقسام كبيرة منها . ومما لا شك فيه ان عوامل انحلال داخلية هى التى ساعدت هؤلاء الاقوام على انهاء حياة السلالة الاكدية . ومن عوامل انهيار هذه السلالة انه لم يكن من السهل على المدن السومرية أن تخضع الى الحكم الاكدى فنسى حكمها الذاتى

هذا ولا نعرف أصل الكوتيين بالضبط ولعلهم من جبال لورستان أو من الاقاليم الشمالية الشرقية وقد دون ملوكهم أخبارهم النزرة التى جائتنا باللغة الاكدية ولعلهم تكلموا بها ، كما انهم لقبو انفسهم بملك «الجهات الاربع» وانهم اتخذوا الحضارة الاكدية بوجه عام•وقد سمى أهل البلاد هؤلاء البرابرة «كوتيين» وكان عهدهم عهدا مظلما فى تأريخ البلاد دام زهاء القرن الواحد ، وقد ذكرت اثبات الملوك لهؤلاء «الكوتيين» واحدا وعشرين ملكا لا نعرف عنهم سوى أسمائهم ولكن تشير المصادر الاخرى الى انهم قاموا فى بداية أمرهم بالتخريب والتدمير وكان نظام الحكم غريبا عنهم• والطريف ذكره بهذا الصدد ان جامع اثبات السلالات بعد أن ينهى السلالة الإكدية يعلق بجمله ساحرة «من هو الملك ومن هو غير الملك ؟ » اشارة الى الفوضى السياسية التى عمت البلاد فى نهاية السلالة الاكدية • والمرجح انهم لم يبسطوا سلطانهم الا على جزء من البلاد ولا سيما القسم الشمالى منها[١] ومع ذلك فقد كان حكمهم عهدا مظلما كادت تنقطع فيه عنا أخبار العراق القديم لولا قيام سلالة من الامراء السومريين فى مدينة «لجش» (تلو) هى سلالتها الثانية وكانت تعاصرهم وقد عوض ازدهار الحضارة فى هذه المدينة وما يجاورها عن الجمود الثقافى ، وكان سببا فى استمرار سير الحضارة فى فترة القرن الواحد التى حكم فيه الكوتيون •

وقد اشتهر من بين الامراء السومريين الذين حكموا فى مدينة «لجش» فى أواخر هذا العهد أمير اسمه «جودية» [٢] وقد عمل هذا على احياء الآداب السومرية وشيد المعابد الفخمه ، وامتد النشاط التجارى فى عهده الى الاقطار المجاورة • وقد وردت فى كتاباته أسماء مواضع فى شمالى سورية

---

(١) ولعلهم اتخذوا كركوك (أرابخا القديمه) مركزا لهم •

(٢) توجد دلاله تأريخية حديدة فى قانون الملك «اور ـ نمو» مؤسس سلاله اور الثالثه المكتشف حديثا تشير الى أن زمن جودبه ينبغى أن يقع فى عهد مؤسس أور الثالثة أو عهد خلفه «شولجى» •
(S.N. Kramer in **Bullt. of the University Museum** vol. 17 (1952), P 22).

وفي عسلاه وفي البحرين والخرء الحوى الشرقي من جزيره العرب • وقد جلب منها الاحشاب والنحاس • ومن مآثر «حودنة» ازدهار الفن في زمنه • وقد خلف لنا نفسه عددا مهما من تماثيله الجميلة المنحوتة من حجر «الباولت» و «الديوريت» وهي من روائع تاعات متحف اللوفر في باريس • وفي المتحف العراقي تمثال واحد من تماثيله ، وجاءنا من «حوديه» اكمل واطول نماذج من الآداب السومرية وكذلك من نقوشه الكتابيه فيما يسمى باسطوانات حودنة المكونة[١] •

أخذ الكوتيون أعداء الآلهه (كما سمتهم النصوص المسمارية القديمة) يضطهدون المدن العراقيه في أواخر أيامهم ، فثارت عليهم مدينه الوركاء بقياده أميرها السومري «اوتو ـ حنكال»[٢] الذي اعلن نفسه ملكا واهاب بأهل البلاد لحرب الطغاة الاجانب فالتف حوله المدن وبدأ ثورته على آخر ملوك الكوتيين المسمى «تيرقان» فقضى على جموعه الكثيره وخلص البلاد منها فأسس «اوتو ـ حنكال» سلالته في الوركاء هي سلالتها الخامسه ونفب نفسه بملك «سومر واكد» وحكم زهاء سبع سنوات • ولكن حكمه لم يدم طويلا فسرعان ثورة قام بها حاكم مدينه «أور» التابع له • وانتهت الثورة باستيلاء الحاكم الى هذه المدينه ، وكونت بيته سلالة تعرف بسلالة «اور الثالثه» تعد من اهدها من عهود العراق القديم المجيده وآخر عهد في حياته السومريين السياسية •

(١) حول اسطوانات حودنه انظر
(Thureau-**Dangin, Sumerischen und Akkadischen Koingsin-schriftcn**) (1907)

(٢) يوجد نص تاريخي طريف جاءنا من «اوتو ـ حنكال» دون فيه اخبار حربه مع الكوتيين وطرده اياهم من البلاد •
(انظر
(Thureau-Dangin in R A , IX,III ff, Gadd, **Sumerian Reading Book** (1924), P 64)

تمثال من حجر «الدبوريت» يمثل «جودية» حاكم مدينة لجش السومرية
(عن المتحف العراقي)

سلالة أور الثالثة ونهاية السومريين السياسية

عرفنا فيما سبق كيف انتهت الفترة المظلمة التي عمّت السلالة الاكدية وذلك بثورة المدن السومرية المهمة برعامة أحد الامراء السومريين المسمى «اوتو ـ حيكال» على الكوتيين الاجانب وطردهم وتحرير البلاد منهم بعد أن دام عهدهم زهاء قرن واحد .

ولكن لم يتمتع البطل المحرر «اوتو ـ حيكال» بثمرة انتصاره زمنا طويلا كما ذكرنا من قبل اذ ثار عليه أحد أتباعه ، حاكم مدينة أور المسمى «أور ـ نمو» (وكان يقرؤ اسمه في السابق اور ـ انّدر) وبعد نجاح هذا بالثورة بدأ عهد جديد هو عهد سلالة أور الثالثة (٢١١٥ ـ ١٩٩٨ ق . م) التي يعد زمنها آخر عهود السومريين . وقد وجد حديثا لمؤسس هذه السلالة نسخة من شريعته التي وضعها فتكون بذلك أقدم من شريعة حمورابي بنحو ثلاثة قرون[1] . وقد استطاع ملوك هذه السلالة الخمسة أن يعيدوا انشاء امبراطورية واسعة على طراز الامبراطورية الاكدية شملت جزءا كبيرا من الشرق الادنى ، من ذلك عيلام وبلاد آشور وأجزاء مهمة من بلاد الشام الى حمص ودمشق ووادي الخابور والباليخ والبحرين والى آسية الصغرى ، وانتشرت مع التجارة والفتوح الحارجية حضارة العراق القديم كما كان الحال عليه في زمن الامبراطورية الاكدية .

وبعد عهد سلالة أور الثالثة نهاية حياة السومريين السياسية اذ انهم بصفتهم طبقة حاكمة لم تنشأ منهم سلالات حاكمة بعد ملوك سلالة أور الثالثة السومرية ولكنهم اندمجوا بالساميين الذين سنقرأ عن بعض سلالاتهم التي أقاموها فيما بعد . وعلى الرغم من موت السومريين السياسي ظلت لغتهم وآدابهم تؤثر في العراق القديم . وظلت اللغة السومرية لغة الآداب والدين

(انظر

(1) S N Kramer in **Bullt. of Un. Museum** Vol 17, No 2 (1952)
(2) "Ur-Nammu Law Code" in **Orientalia**, (1954), P. 40 ff

حتى أواخر أيام الحضاره فى العراق القديم • وخلف دولة السومريين دول جديده تمثل حضارات جديدة فرعيه اشتقت من حضـارة وادى الرافدين الاولى أما هذه الحضـارات الفرعية فهى الحضـارة البابلية والحضـارة الآشوريه • وبدأت هذه الحضارات بالنشوء منذ العهد الاكدى حيث كانت الاقوام التى تمثل هاتين الحضارتين تتعلم من الحضـارة السومرية وتتحين الفرص للانقضاض على سلطة الحضاره «الام» أى حضارة السومريين • ولعل سلالة أور الثالثة كانت آخر دولة عظمى أقامها السومريون للمحافظة على الحضاره السومرية بالقوة وفرضها على الاقوام البـاسعة لهـا فى الداخل والخارج بطريق الدولة الامبراطورية ولكن ذلك لم يدم أكثر من مائة عام حيث انهارت من بعد ذلك الحضارة السومرية وحل محلها حضارات فرعية اشتقت منهـا •

اشتهر ملوك هذه السـلالة بأعمالهم العمرانيه بالاضافة الى أعمالهـم الحربيه • فقد عمروا فى معظم مدن العراق القديمة وقد حصوا عاصمتهم أور بالقسط الاوفر من العنايه حتى أصبحت فى زمنهم قبلة الشرق القديم • وامتاز عهدهم بازدياد السلطه المركزية ، ولم تقصر حروبهم وادارتهم على ارجاع امبراطوريه سرجون الاكدى حسب بل امتازت دولتهـم بالتنظيـم وحسن الاداره فى الداخل والخارج وتقدمت طريقه حكم الاقاليم الخارجية بعض الشيء عما كان عليه الحال فى زمن السلالة الاكدية ، وذلك بتقوية الحكم المركزى وتعيين حكام الاقاليم من لدن الملوك بدلا من الامراء الذين كانوا يحكمون بالوراثة • ومن الامور الجديره بالذكر عن الاداره الداخلية فى هذا العهد توفر الاشارات التأريخية الى قيام ملوك هذه السلالة بتقنين الشرائع بحسب العرف الاجتماعى وتوحيد الاحوال القضائيه فى البلاد •

ومن الملاحظـات المفيـده عن عهـد هـذه السـلالة ان مؤسسـها اتخـذ لنفسـه لقبـا سياسـيا جديـدا هو « ملـك سـومر واكد » الـذى اسـتعمله « أوتو ـ حيكال » بالاضافـة الى لقب ملك « الجهـات الاربـع » الذى اوجده سرجون الاكدى وامتازت سياسة مؤسس السـلالة وكذلك

سياسة خلفائه باتباع سياسة التحفظ من التسرب بين الاكديين (الساميين) وبين السومريين ومحاولة دمج العنصرين في الجيش والادارة ، ولكنها جعل عهد هذه السلالة عهد الامبراطورية الاموية ، ولعل ذلك يفسر لنا سبب تسمية أكثر من واحد من ملوك هذه السلالة بأسماء سامية نذكر منهم «سو ـ سين» وآخرهم «ابي ـ سين» .

دام عهد سلالة اور الثالثة بضع وثمانين عاما (٢١١٥–١٩٩٨ ق . م) وقد انتهى في عهد آخر ملوكها المسمى «ابي ـ سين» حيث بدأت في اواخر عهد السلالة موجات جديدة من الساميين الغربيين يعملون في العراق من اعراب الاوسط من منطقة مدري ، وبدرجة اولى من الاموريين وقد استغل أمر هؤلاء الاموريين في عهد «ابي ـ سين» الذي يخبرنا انه بنى سدا لصد هجومهم .

وهجم على العراق في الوقت نفسه العيلاميون من اشوش (١) وبعد سقوط العاصمة اور حكم في العراق سلالتان معاصرتان تأسستا السيادة على القطر زمنا طويلا وعرفت سلالتي «ايسن» و «لارسه» بنسبة الى المدينتين المعروفتين بهذين الاسمين . فبعد سقوط عهد السلالة الثالثة في اور استرد العيلاميون عدد البلاد فيه الى النظام القديم ، نظام دويلات المدن . وبالرغم من ان تأسيس هاتين السلالتين حكمت في مدن في بلاد سلالة اور آخر أصل ملوكها كان من الاموريين استقلت في عهد ملكها السادس حمورابي الشهير أن يقضي على دويلات المدن جميعها فوحد البلاد وبعد فوحهها خارجه الى اقاليم الشرق الادنى .

وقبل أن ننهي الكلام على سقوط سلالة اور الثالثة ، نسهل هنهه متأملين في أسباب سقوط تلك السلالة التي عرفت بتنظيم الادارة وتماسك

(١) كانت نهاية اور الثالثة كارثة في حياة السومريين . وقد خلف سقوط ذلك العهد رثاء محزنا بعد سقوط اور ونهب العيلاميين للمدينة وانهيار قصور ملوكها .

الحكم المركزى فيها • والواقع ان الاسباب أو الاحوال التى اكتنفت ذلك الانهيار مجهوله لدى المؤرخ الحديث • ومن الطريف ذكره بهذه المناسبه ان أهل اور ومنهم الملك «ابى ـ سين» يرجعون سبب تحطيم دولتهم وتدمير مدينهم المعظمه اور الى غضب الاله لهه ،ولا سيما غضب الاله «انليل» على أهل اور وعلى الههها (الاه القمر سين اوسا) • ولكن ذلك لا يقنع الباحث فعليه أن يبحث فى العلل التى حطمت ملك الامبراطوريه التى لم تصطدم بدوله عظمه فى زمنها فى العالم القديم • واذا رجعنا الى الحوادث القليلة التى نستطيع استخراجها من ألواح الطين من ذلك العهد وجدنا امارات واضحه على انهيار داخلى وقع فى جسم المملكة أولا فمهد للاقوام الخارجية غزوها للامبراطوريه ومن ذلك نجد انه بعد السنين الاولى من حكم «ابى ـ سين» (السنه الثانيه ـ الرابعه) يقطع التأريخ بالحوادث الخاصة بحكم ذلك الملك فى مدن مهمه مثل وشوشا وسوسه ولجش (والاخيرة فى سنه الخامسة) وفى «اوما» (فى سنه السادسة) وفى «نفر» (فى سنه الحاديه عشرة) • وكانت نفر رمز السلطه السومريه • ومعنى انقطاع ذلك فى عرف العراق القديم ان تلك المدن لم تعد تعترف بسلطة مدينه «اور» وبسلطه ملكها كما انا نسمع ان حكام الاقاليم أخذوا يتهاونون فى ارسال القرابين الى اله اور (فى سنه السادسة) • ويستدل من كتب الفأل المتأخره ان حمله ثوراب وعصيان قد وقعت فى أجزاء الامبراطورية • وقد نشر حديثا بعض الوثائق التأريخيه[1] ما يلقى ضوءا كاشفا على علاقه «اشبى ـ ايرا» بآخر ملوك السلاله ، أى «ابى ـ سين» • فالمرجح جدا ان «اشبى ـ ايرا» كان أولا حاكما على مدينه ماري من قبل الملك «ابى ـ سين» وانه صار حاكما أيضا على مدينة «اسنن» من بعد ذلك ، فان تلك الوثيقه المكتشفه حديثا فى نفر[1] كانت رسالة من الوالى «اشبى ـ ايرا» الى سيده ملك أور ، يطلب فيها من الملك الدفاع عن «ايسن» و «نفر» بسبب اندفاع البدو الاموريين وتدفقهم الى داخل

(١) انظر حول ذلك
Jacobsen in **Journal of Cuneiform Studies**, VII 2, (1953, 39).

العراق ، ويرجح كثيرا ان ذلك وقع في السنة السادسة من حكم الملك «ابي ـ سين» وانهم نهبوا محاصيل السنة وقطعوا موارد العيش عن العاصمة. وتدل ظواهر الاحوال على أن حاكم «ايسن» «اشبي ـ ايرا» كان مخلصا لملكه في أول الامر ولكنه بعد أن رأى تدهور السلطة المركزية أخذ يدافع عن «ايسن» لصالحه الشخصي ، حتى صح في ذلك وأسس سلالة خاصة به في السنة الثانية عشرة من حكم ملك أور اذ بدأ يؤرخ بحكمه منذ هذه السنة . والى ذلك فان العلاميين الذين كانوا يتحيون الفرص لغزو العراق هجموا على اور ودمروها بالاضافة الى النهب والسلب مما قام به الاموريون من الفرات الاوسط . ومن الباحثين من يرى ان «ابي ـ سين» لم يؤخذ أسيرا الى عيلام ، بل انه كان حليفا لها ضد الاموريين وانه ذهب الى حلفائه عندما اشتد ضغط الاموريين على البلاد[1] .

وقد كانت سلالة اور الثالثة نهاية سلطان السومريين السياسي فان عهدها وعهد سلالة لحش الثانية (التي اشتهرت بالملك جودية) كان احياءا أو انعاشا جديدا للثقافة السومرية وتكاملها ، كما بلغ فيه في العمارة أوجه ، بحيث يستطيع أن يعده من أعظم عهود العراق القديم في العمارة ولا سيما في كثرة المعابد . وما زالت بقايا المعابد التي شيدها «اور ـ نمو» أو جدد بناءها شاهد في كثير من المدن السومرية مثل اور واريدو والوركاء ونفر وغيرها . وقد أتاحت لنا التنقيبات العلمية المنظمة في أور عن أشياء كثيرة مهمة عن فن العمارة ، ويتجلى نشاط «اور نمو» في البناء في أور في معبد الاله القمر (سين اوبا) وكذلك تشييده البرج المدرج الشاهق (الزقورة) التي تعد بقاياها الآن في خرائب اور من أحسن النماذج لتلك المعابد العالية التي اشتهرت بها حضارة وادي الرافدين . وقد كان الهيكل الداخلي للزقورة مشيدا باللبن ثم غلف بطبقة سميكة من الآجر وقد بقي سالما من الزقورة الآن الطبقة السفلى (٦٢ × ٤٣ م) وارتفاعها ١١ مترا ، وتليها الطبقة الثانية

---

(١) انظر المرجع في حاشيه رقم ١ الص ١٣٥

(٣٦ × ٢٦ م) وارتفاعها ٦ أمتار وفوقها بقايا من الطبقة الثالثة (٢٠ × ١١م) وما بهي سالما من ارتفاعهـا يبلغ نحو ٣ أمتـــار فيكون مجموع ما بقى من الزقورة زهاء ٢٠ مترا . والمعتقد انه كانت توجد طبقة رابعة فوقهـا المعبـد العلوى الذى لم يبق منه شيء . ومن البقايا المهمة التى بقيت من مآثر ملوك سلالة أور الثالثة قبور ملوكها الفخمة المهمة لانها تبين لنا نواحى مهمة فى طرق الدفن وعقائدهم الدينية ومركز الحكام والملوك واقامة مزارات عنـد قبورهم وهى على طراز قبور المقبرة الملكية من عصر فجر السلالات حيث يتألف القبر من باية المعبد واحرى تحتها للدفن[1] .

Woolley, **Ur-Excavations** II (1934).

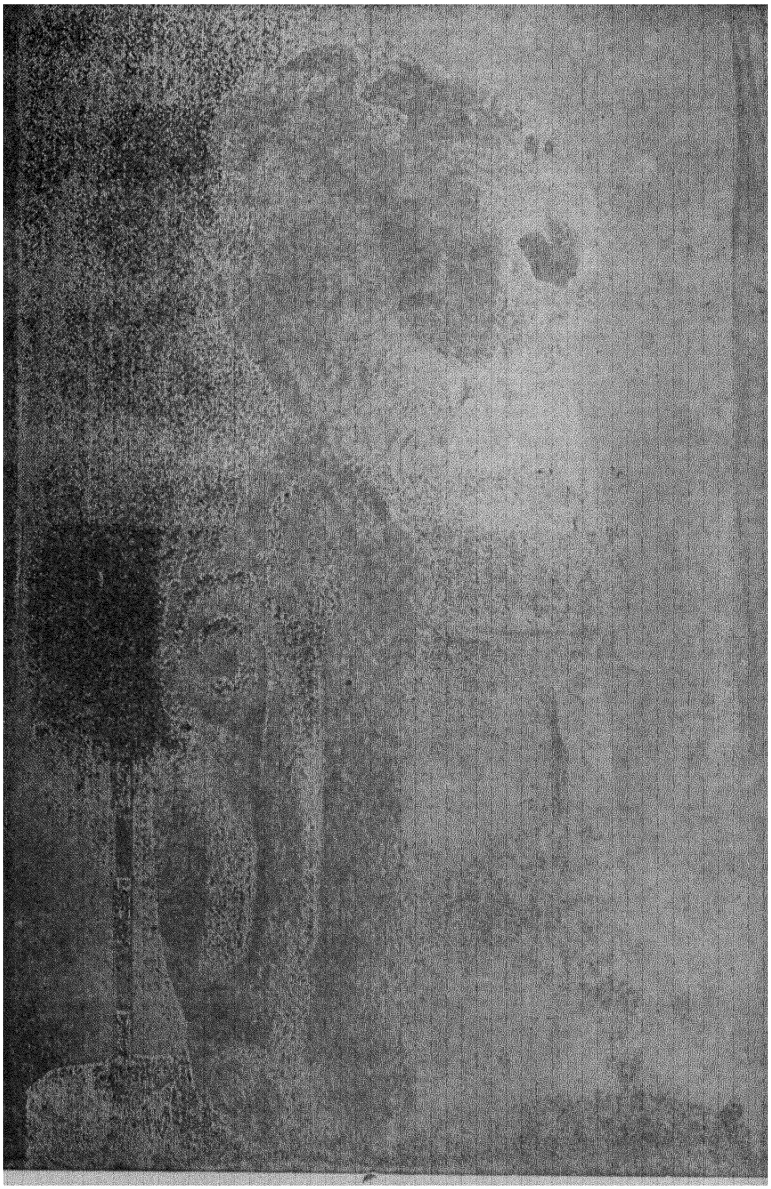

تمثال أسد منحوت من حجر البازلت وجد في اريدو (ابو شهرين ، ويرجع عهده الى سلالة أور الثالثة)

الفصل الثامن

العهد البابلى القديم

(١) عهد سلالتى «ايسن» و «لارسة»

راينا فيما سبق كيف اسهم سلاله «اور» الثالثة بالغزو المزدوج الذى قام به «الاموريون» (الساميون العربيون ـ أو العرب السوريون) من الفرات الاوسط والعلاميون من سوق العراق وكونت بنيجه دلك سلالتان متاصرتان فى جنوبى العراق وهما سلاله «ايسن» التى أسسها «اشبى ـ ايرا» وتقوم حرائب ايسن اليوم فى تل يدعى «ايشان بحريات» الى جنوب عفك بنحو ١٤ ميلا والثانيه فى «لارسه» (سسه الى مدينه لارسه التى تقوم حرائبها اليوم فى التل المعروف بسكره الى الشمال الغربى من الناصريه بنحو ٧٠ كيلو مترا) وكانت هده السلالله على ما يبدو خاضعة الى نفوذ العيلاميين وقد حكمت هاتان السلالتان القسم الجنوبى من العراق ، وقد بدأ الآشوريون فى حدود هده الفترة فى الشمال يكونون دولة مستقله عن نفوذ الجنوب (وسيمر بنا بحث دلك فى موضع خاص) • وعلى دلك فقد عاد البلاد من بعد نهاية «أور» الى نظام دويلات المدن كما كان الحال فى عصر فجر السلالات قبل أن توحد سرجون الاكدى دويلات المدن ويؤلف منها «دولة القطر» وبالاضافه الى هاتين السلالتين والدوله الآشوريه اسفل فى هذا العهد ملوك حكموا فى مملكه «اشنونا» فى منطقه دبالى (وسأتى ذكر ذلك) وقد تكونت فى بابل بعد مده على تكوين سلالتى «ايسن» و «لارسه» سلالة ثالثة عرفت باسم سلاله بابل الاولى • وقد تواضع المؤرخون على تسمية العهد الذى دام زهاء ثلاثة قرون (١٩٩٨–١٥٨٠) باسم العهد البابلى القديم ويشمل عهد سلالتى «ايسن» و «لارسه» وسلالة بابل الاولى • أما فى مصر فقد تكون عهد جديد بعد الفترة المظلمه التى اعقبت سقوط المملكة القديمة ، حيث قامت فى

البلاد مملكة جديدة تعرف فى تأريخ مصر القديم باسم المملكة الوسطى التى شملت السلالتين الحادية عشرة والثانية عشرة (٢١٠٠–١٧٨٨ ق ٠ م) وهى تعاصر العهد البابلى القديم فى العراق وقد اتعشت فى زمنها المملكة المصرية فى الحضارة وفى الاحوال السياسية ٠

سلالة مارى

سلالة مارى

وقامت فى العهد البابلى القديم سلالة من الساميين الغربيين فى مدينة مارى فى الفرات الاوسط ٠ وقد كشفت التنقيبات الحديثة التى أجراها المتقون الفرنسيون حديثا عن نتائج مهمة عن حضارة ما بين النهرين الشمالية فى مركزها مارى ، حيث قامت فيها ، كما سبق أن ذكرنا ، حضارة سومرية ازدهرت فى عصر فجر السلالات وكشف المتقون عن قصور كبيرة لملك مارى من منتصف العهد البابلى القديم ، وكان بعض ملوكها يعاصرون حمورابى مما ساعد على ضبط أدوار التأريخ القديم ووجدت عشرات الالوف من ألواح الطين المهمة من بينها جملة رسائل ملكية[١] ٠

واستمر تأريخ «مارى» فى الاردهار من بعد ذلك وكانت كثيرا ما تضم الى الامبراطوريات التى تقوم فى العراق وتستقل عندما يضعف السلطان المركزى فيه ٠ وبدأ الاموريون يهاجرون الى العراق ويتغلغلون وقد رأينا فيما سبق انهم هجموا على العراق وكانوا من الاسباب المباشرة فى اسقاط أور الثالثة ٠

ليس لدينا ما يستحق الذكر عن سلالتى «ايسن» و «لارسه» سوى انهما بدأتا بالنزاع والاحتراب فيما بينهما على السلطة وذلك بعد تأسيسهما بزمن قصير ٠ وقد خصصت اثنات الملوك التى خلفها لنا البابليون انفسهم خمسة عشر ملكا لسلالة «ايسن» بلغ مجموع سنى حكمهم زهاء ٢٢٥ عاما أى ١٩٩٨–١٧٧٣ ق ٠ م وخصصت لسلالة «لارسه» أربعة عشر ملكا

---

(١) حول نتائج التنقيبات فى مارى انظر مجله "Syria" Vols. XVI—XXI.

وانظر كذلك المراجع العامه المفصلة فى آخر الكتاب ٠

مجموع سنى حكمهم زهاء ٢٦٠ عاما فى حدود ١٩٩٨–١٧٣٨ ق ٠ م وقد تبين مما جائنا من المآثر والمصادر التأريخية ان سلالة «ايسن» الامورية كانت أهم وأخطر من السلالات الاخرى التى قامت فى هذا العهد لما قام به ملوكها من أعمال عمرانية فى مدن العراق القديم وترميم ما تخرب من البلاد على أثر سقوط سلالة أور الثالثة وقد نشر الباحثون حديثا فى عام ١٩٤٧ أجزاء من شريعة مدونة باللغة السومرية ثبت ان مقننها كـان «لبت عشتار» خامس ملوك سلالة «ايسن» وهى تسبق شريعة حمورابى الشهيرة بأكثر من قرن ونصف القرن ولا يخفى لما لهذا الاكتشاف من خطورة تأريخية فى تأريخ الشرائع البشرية المدونة[1] ٠ والطريف ذكره عن حوادث هذه السلالة ان الملك الذى خلف «لبت–عشتار» وهو «ايرا – ايمتى» تنازل تنازلا صوريا عن العرش لبستانى له بمناسبة القيام برسوم دينية خاصة لدرء اخطار جسيمة يخشى أن يشترك بها الملك بنفسه مخافة ان يصيبه الشر فيعين بديلا له فصادف ان الملك الاصلى توفى فى اثناء الاحتفال (ولعله مات بالسم) فخلفه البستانى المسمى «انليل – بانى» فى عرش المدينة ٠ أما سلالة «لارسه» فقد قام فيهـا ملوك من البابليين ولكنهـم كانوا على ما يبدو تحت نفوذ العيلاميين ٠ وقـد تدخل الملوك العيلاميون بأنفسهم بشؤون سلالة لارسه ، حيث قضوا على آخر ملك من ملوكها ٠ وقد حدث ذلك فى زمن الملك العيلامى «كودر–مابك» الذى نصب ابنه «ورد – سين» ملكا على «لارسه» ومن بعـده ابنه الثـانى «ريم – سين» وقد استمر النزاع بين السلالتين فقضى «ريم – سين» العيلامى ملك «لارسه» على السلالة المنافسة «ايسن» وحكمها بنفسه ٠ وقد حدث قبل هذا الزمن ، بعد تكوين السلالتين المذكورتين بنحو قرن واحد ، ان قامت

---

(١) راجع ذكر شريعة مملكة أشنونا فى هذا الفصل ، أما عن قانون لبت عشتار فراجع
The American Journal of Archaeology (1947)
وترجمه المؤلف الى العربية فى مجلة «سومر» المجلد الرابع (١٩٤٨) ، الص ٤ فيما بعد ٠

سلاله ثالثة فى بابل أصلها مثل سلالة «اسن» من الاموريين وهذه هى سلالة بابل الاولى التى اشهرت ملكها السادس «حمورابى» الذى صادف محيئه الى العرش البابلى الزمن الذى قضى فيه الملك العيلامى «ريم ـ سين» على سلالة «ايسن» وقد تمكن حمورابى ، كما سنذكر فيما بعد ، من ان يقضى على العيلاميين بعد معارك طاحنة .

مملكة «اشنونا» :

ومن دويلات المدن المهمة التى استقلت بعد سلالة أور الثالثة مملكة عرفت بمملكة «اشنونا» نسبة الى عاصمتها (وتقوم الآن فى الحرائب المعروفة بتل أسمر فى منطقه ديالى) وقد كشفت التنقيبات المهمه التى قام بها المعهد الشرقى لجامعة «شيكاغو»[١] فى عاصمة هذه المملكة وكذلك فى المدن المهمة التابعة لها (مثل حفاجى وتل أحرب واشنحالى) عن تأريخ هذه المملكة والمدن التابعة لها وما اعتورها من حوادث ومصائر . فقد شأت فيها دولة مهمة فى عصر فجر السلالات (٣٠٠٠ـ٢٤٠٠ ق . م) ومن بعد ذلك فقدت استقلالها وصارت تابعة الى الامبراطورية التى أسسها سرجون الاكدى وسقطت سلالة أور الثالثة سلطانها عليها حتى ان حاكمها الذى أقام معبدا خاصا بالاله أور المسمى «حميل ـ سين» ويقرأ «شو ـ سين» أيضا[٢] وعقب ذلك عهد استقلت فيه هذه المملكة دام القسم الاعظم من العهد البابلى القديم الى السنة الثانية والثلاثين من حكم حمورابى حيث قضى على استقلالها فى هذا العام وضمها الى امبراطوريته بعد تغلبه على العيلاميين .

وكان من بين المواضع التابعة الى هذه المملكة حملة مدن ومقار وأرياض واسعة خصبة فى المثلث الكائن بين دجلة وديالى . وعثرت مديرية الآثار

---

(١) حول ذلك أنظر المراجع الآتية :
Oriental Institute Communications Nos 13, 16, 17, 19, 20
وانظر المرجع المذكور فى حاشية رقم (٢)

(٢) Frankfort et al, **The Gimilsin Temple and The Palace of The Rulers at Tell Asmar** (Chicago, 1940)

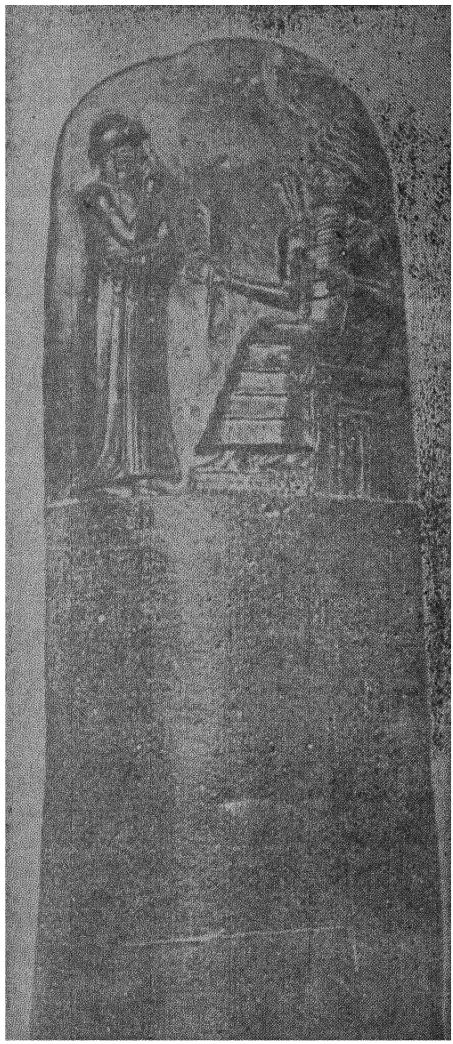

صورة المسلة الشهيرة التى نقش ... رابى سريعه (نسخة
جبسية عن المسلة الاصلية المحفوظة فى متحف اللوفر)

العراقيه فى احدى هذه المدن القديمة (تل حرمل) على مجموعات كبيرة مهمة من الوثائق التأريخية من العهد البابلى القديم ، نخص بالذكر منها نسخة من شريعة ثبت انها شريعة أحد ملوك «اشنونا» الذى يرجح انه «بلالاما» وعلى ذلك تسبق شريعة حمورابى بنحو قرنين من الزمان وشريعة «لبت-عشتار» ملك «ايسن» بنحو نصف القرن ، وبذلك تكون أقدم شريعة معروفة فى تأريخ البشر اكتشفت حتى الآن . وتل حرمل موضع فريد فى بابه لم يوجد فيه من الكتابات العلمية والمصنفات المدونة فى ألواح الطين ، وقد اتضح انه كان بمثابة مدرسة أو أكاديمية علمية (انظر المبحث الخاص بالعلوم فى قسم الرياضيات) .

وقد سبق أن أشرنا الى قيام سلالة من الملوك فى بلاد آشور استقلت من بعد سلالة أور الثالثة وطلت كذلك الى زمن حمورابى وأول هؤلاء الملوك ملك اسمه «ايلو - شوما» كان معاصرا لمؤسس سلالة بابل الاولى ومن ملوكهم ايضا «ايريشوم» وسرجون الاول . والذى يلاحظ فى هذه الاسماء أنها أسماء سامية ، فاسم «ايريشوم» مثل اسم «الحارث» بالعربية .

سلالة بابل الاولى :

لقد ذكرنا فيما سبق انه حينما كانت سلالة «ايسن» وسلالة «لارسه» تتسارعان على السلطة بعد تأسيسهما بزمن قصير ، قامت فى العراق سلالة جديدة ثالثة فى مدينة بابل عرفت بسلالة بابل الاولى واشتهر بملكها السادس «حمورابى» وكانت مثل سلالة «ايسن» من أصل سامى عربى أى من الاموريين الذين كانوا فى جهات سورية فى الفرات الاوسط . وكانت الاحوال مواتية لقيام هذه السلالة اذ لم يكن فى البلاد سلطة مركزية قوية بل كانت مجزأة بين دويلات المدن كما ذكرنا .

مدينة بابل :-

وقد اتخذ مؤسس هذه السلالة المسمى «سومو - آبوم» مدينة بابل عاصمة له . وكانت بابل من المدن الصغيرة التى نشأت فى أواخر عصر

فجر السلالات ولم تكن فى بادىء أمرها على شىء من النفوذ والسلطه السياسية • وقد ورد ذكرها فى أخبار بعض الملوك الاكديين وملوك سلالة أور الثالثة • وبدأ نجمها السياسى يألق منذ قيام سلالة بابل الاولى فيها فصارت ذات شأن عظيم فى تأريخ البلاد حتى ان اسمها أطلق على أغلب سكان العراق القدماء (البابليين) وكذلك صارت كلمة بلاد بابل تطلق على القسم الوسطى والجنوبى من العراق وصارت عاصمه البلاد الوحيدة حتى نهاية حياة البابليين السياسية ، وعندما بنت العاصمة الجديدة «سلوقية» على دجلة فى العهد السلوقى بدأ مركز بابل يضعف وهجرها الناس الى العاصمة الجديدة وعمها الخراب وآلت بمرور الزمان الى ما شاهده الآن خرائب واطلالا •

كانت سلطة هذه السلاله فى أول أمرها محصوره فى عاصمها بابل وما يحاورها من الاراضى والقرى والمدن الصغيرة • وقد شغل خمسة الملوك الاول من هذه السلالة أنفسهم فى توسيع المدينه واحكام أبنيها وأسوارها ، وكانوا سهرون الفرص على الدوام لضم المدن المحاوره الى بابل وكذلك دويلات المدن الغربية مثل «كيش» و «سبار» (ابو حبه) و «كوثى» (تل ابراهيم الآن) و «نفر» وغيرها • وكان ملوك بابل فيما قبل حمورابى يرقبون النزاع الدائم بين دويلات المدن الاخرى ولا سيما بين السلالتين المهمتين «ايسن» و «لارسة» ويعملون فى الوقت نفسه على توطيد مملكتهم الصغيرة وتنظيم ادارتها والمحافظة على حدودها مستهدفين لا شك خوض المعمعة الحربية مع خصومهم العلاميين فى لارسة • وقد حدث قبل ان يأتى حمورابى الى الحكم ان العيلاميين انفسهم قضوا على آخر ملك وطنى فى سلالة لارسة ونصب الملك العيلامى الذى انجز هذا الامر (وهو كودر مابك) ابنه «وردسين» ملكا على لارسة ، وأعقبه على العرش أخوه «ريم-سين» وقد بدأت بابل فى عهد هذا الملك بالتحرش بالعلاميين وذلك فى عهد أبى حمورابى المسمى «سين-موبلط» وعندما سنم حمورابى عرش بابل بعد ابيه (١٧٢٨ – ١٦٨٦ ق • م)

ورث مع العرش هذه العقاب والمصاعب حيث البلاد مقسمة بين السلالات المتنازعة ، والعلاميون يهددون المملكة البابلية الفتية بالقضاء عليها • وقد كاد يقضى على حياة المملكة البابلية وهى لم تكمل فى نموها السياسى ، ولكن حمورابى جمع فى شخصه خصالا فذه جعلت منه القائد والسياسى والمصلح والمشرع فتمكن من ان يخلص مملكته من اعدائها العلاميين ثم وحد البلاد بعد ان قضى على السلالات الاخرى مثل مملكة اشنونا ومد فتوحه من بعد ذلك الى شمالى العراق والى جهات الهلال الخصيب الاخرى ولاسيما فى ديار الشام معتدا بذلك امبراطورية سرجون الاكدى وامبراطورية سلالة أور الثالثة • ولكن قبل ان يستتب له انتصار ذلك بدأ بحربه مع العلاميين حيث انحصر الصراع بينه وبينهم فى زمن ملكهم «ريم ـ سين» ملك «لارسة» الذى قضى فى بداية حكم حمورابى على السلالة الاموريه فى «ايسن» فسيطر بذلك على قسم كبير من القسم الجنوبى من العراق • وبدأ حمورابى كفاحه بتقوية الادارة فى مملكته وتوطيد حكمه فى قسم البلاد التابع له واحكام وسائل الدفاع فى مدنه وفى المدن التابعة له • وبدأت فى السنة الثالثة من حكمه الحرب بينه وبين جموع «ريم ـ سين» العلامى • فكانت من اخطر الحروب التى شاهدها العراق القديم حيث عانى كل من الخصمين القوس جموعه وقواه • وأظهر حمورابى من الدهاء والحزم مامكنه من تمزيق جموع العيلاميين واحلافهم شر ممزق • وكان انتصار حمورابى هذا حدثا خطيرا فى حياة المملكة البابلية أرخ به الناس الحوادث وباهى فيه الشعراء فى العصور بمجد حمورابى البطل وربما به الجموع فى معابد بابل وترددت اصداؤه المدن الاخرى •

أصبح «حمورابى» بانتهاء الخطر العلامى فى وضع مكنه من القضاء على دويلات المدن الاخرى مثل مملكة «اشنونا» ثم تابع فتوحه ومدها الى الشمال فأخضع بلاد الآشوريين وكذلك المناطق الجبلية الى الشرق والشمال • وقد لاحق فلول جموع العلاميين الى عقر دارهم فبسط سلطانه على بلاد عيلام • وقد اظهرت البحوث الحديثة انه ضم تحت نفوذه معظم الاراضى الشامية •

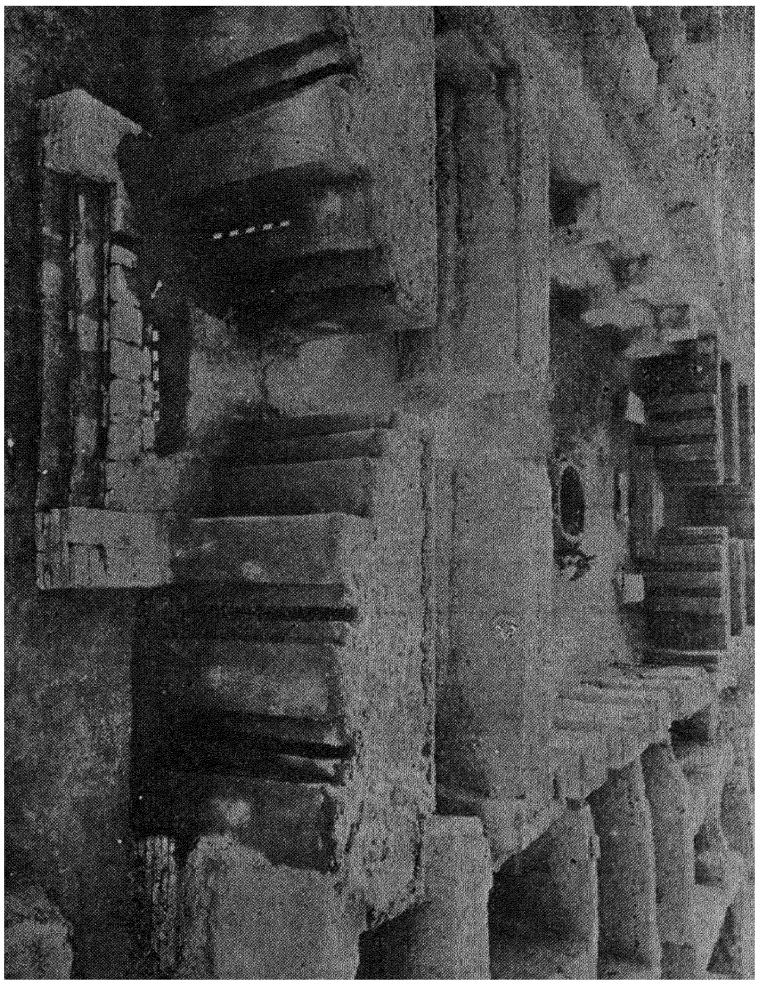

معبد من العهد البابلى القديم وحد فى السبعينات التى قامت بها مديريه
الآثار العراقيه فى تل حرمل (لاحظ أجزاء المعبد)

وتفرغ من بعد ذلك لاعمال السلم وبوطد الامبراطورية واحكام ادارتها • فمن اعماله المهمة انه بعد توحيد البلاد فمن فى اواخر حكمه شريعة واحدة مطرده تسرى احكامها على جميع انحاء المملكة ، وسيأتى البحث فى هذه الشريعة فى مكان آخر • وخلف لنا حمورابى حملة من رسائله الرسمية الادارية التى كان يرسلها الى عماله وولاته فى الاقاليم التابعة له لتسيير شؤون مملكته الواسعة وهى تدل على ما كان عليه هذا الملك من حزم وحنكة وبعد نظر[1] • وامتاز حمورابى بجعل السلطة متمركزة بيده بحيث صار الملك كالهرم فى بناء الدولة •

خلف حمورابى خمسة ملوك وربوا عهد امبراطوريه واسعة وقد عمل اوائل هؤلاء على المحافظة على المملكه الواسعه وشغلوا بالحروب الخارجية للمحافظة على ممتلكاتهم خارج العراق وكذلك فى صد الطامعين من الشعوب المجاورة ولكن اضطربت الامور فى عهد الأخيرين منهم • وقد عرا البلاد فى عهد آخرهم (وهو الملك الحادى عشر من السلالة) الحثيون ونهبوا بابل ودمروها واخذوا تمثال الاله «مردوخ» وروحه الى بلادهم وتشير ظواهر الاحوال الى ان الحثيين لم يمكثوا فى البلاد زمنا طويلا بل انسحبوا بعد اخذ الاسلاب والغنائم وقد انهت سلالة بابل الاولى بحدود ١٥٠ عاما من عهد حمورابى ولعل الكشسن الذين جاؤا الى العراق فى حدود هذا الزمن هم الذين طردوا الحثيين • وقد أسس الكشسون سلالة جديدة فى بابل عرفت بسلالة بابل الثانية • أما سلالة بابل الاولى فهى كما ذكرنا سابقا سلاله حمورابى وسلالتها الثانية تكون من جملة ملوك يرجح ان يكون أصلهم من السومريين ، ثاروا فى زمن ابن حمورابى وخلفه واستقلوا فى الاراضى المحيطة بخليج فارس واذلك عرفوا بملوك القطر البحرى •

(١) انظر حول رسائل حمورابى المراجع الآتيه —

(1) Harper, **Letters and Inscriptions of Hammurabi.**

(2) Unagnad, **Briefe Konig Hammurapis.**

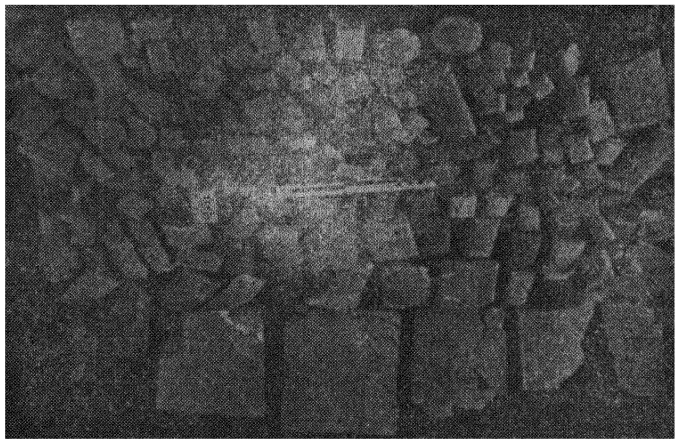

مجموعه من ألواح الطين من العهد البابلى القديم (من تل حرمل) وهى مدونة بمختلف أنواع الوثائق ، كالمعاملات التجارية والرياضيات وابيات بأسماء الحيوانات والنباتات الخ

لقد حكم من سلالة بابل الاولى أحد عشر ملكا كان مجموع حكمهم زهاء ثلاثة قرون (فى حدود ١٨٨٠ ـ ١٥٨٠ ق م) وجاء من بعدهم الكشيون الذين سنأخذ عنهم شيئا فى موضع آخر .

٤ ـ ميزات العهد البابلى القديم

وبعد ان عرفنا شيئا موجزا عن العهد الذى سميناه بالعهد البابلى نختتم كلامنا عنه بتقرير أبرز ميزاته واهميته فى تأريخ الحضارات .

أ ـ نكرر ما ذكرناه عن هذا العهد سابقا من الناحية السياسية انه يشمل الزمن الذى أعقب سلالة أور الثالثة الى نهاية سلالة بابل الاولى (أى من بداية الالف الثانى الى ١٥٨٠ق . م) فيكون قد استغرق بقاؤه اربعة قرون . وكان فى بدايته ، كما رأينا فيما سبق ، زمن نزاع واضطراب بين السلالات المتخلفة أو دويلات المدن التى تكونت أثر الانحلال السياسى بعد سقوط مملكة «اور» فكانت فى بادىء الامر سلالتا «أيسن» و«لارسة» تتنازعان على السيطرة

ودخل الى ميدان الصراع سلالة ثانية هي سلالة بابل الاولى التي تمكنت من القضاء على دويلات المدن واعادت نظام المملكة الموحدة وتوسيع هذه المملكة الى امبراطورية في عهد الملك الشهير حمورابي (١٧٢٨ – ١٦٨٦ ق م) فانتشر نفوذ حضارة العراق في الشرق الادنى ، وتمكن نفوذها السياسي في بلاد الشام بعد السلالة الثانية عشرة المصرية (عهد المملكة الوسطى) .

ب – لقد ألمحنا فيما سبق الى أن حياة السومريين السياسية قد انتهت بانقراض امبراطوريتهم في نهاية سلالة أور الثالثة . وتفرد الساميون بالزعامة السياسية في جميع أنحاء الشرق الادنى منذ ذلك الزمن حتى نهاية تاريخ العراق القديم . وكانت الزعامة في بادىء الامر بايدي البابليين ثم انتقلت الى الاشوريين الذين حكموا الشرق جميعه من اواخر الالف الثاني ق م

ج – وكانت بعد سلالة اور الثالثة حضارات فرعية انشقت من الحضارة السومرية التي كانت من اولى الحضارات البشرية الاصلية . وقد ذكرنا أن من بين هذه الحضارات الفرعية حضارتان نشأتا في مهد الحضارة الاصلية اي في العراق وهما الحضارة البابلية والاشورية . وسبق ذكر قيام الحضارة البابلية في البحث الخاص بالاشوريين . اما الحضارة البابلية فقد بلغت نموها وسيطرتها السياسية في العهد البابلي القديم ، وتكونت منها امبراطورية واسعة معظمها هي امبراطورية حمورابي .

د – امتاز العهد البابلي القديم بحركة واتجاه في التأليف والنقل وجمع الشرائع وتبويبها وتدوينها وتعميم الادارة وتنوع المحاكم المدنية بدلا من محاكم القصور الكهنية وحدث انتقالات مهمة في العلوم والمعارف البشرية حيث انتقلت من أطوارها العملية الى طور التدوين والبحث بحيث يصح ان نعد بداية العلوم البشرية منذ هذا العهد فكأن القوم قد شعروا بأن الحضارة السومرية آخذة في الزوال فبدأ المتطلعون بمعرفة العصر وعلومه بتدوين مآثر السومريين ونقل النصوص الادبية واللغوية والدينية وحورت بعض هذه النصوص والف منها نماذج جديدة من الآداب والتآليف وقد جاءنا

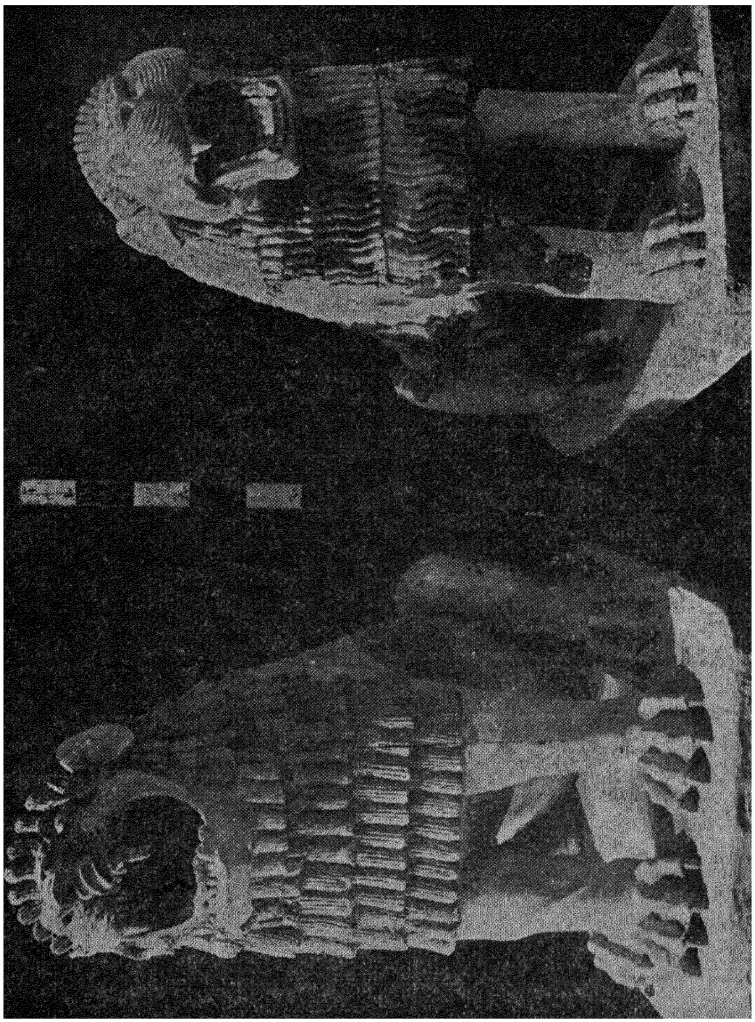

أسدان مصنوعان من الفخار وجدا فى مدخل المعبد فى تل حرمل
(انظر الشكل ص ١٤٧)

من هذا العهد مجموعات كبيره من الآداب والمعاجم اللغوية وتدوين اسماء الحيوان والنباتات وغيرها من المواد والمفردات اللغوية فى ألواح كبيرة وكثيره وجدت فى خرابات كتب معابد المدن المهمة مثل «نفر» و«كيش» واشور وغيرها من المدن القديمة ، ووجدت خزانة كتب مهمة من هذا العهد فى تل حرمل .

هـ ـ واشهر هذا العهد كذلك بكثره ماحائنا من الشرائع المدونة من دلك قوانين سبقت زمن شريعة حمورابى الشهيرة فقد سبق ان ذكرنا شريعة مملكة «اشنونا» التى عثرت عليها مديرية الآثار العراقية فى تنقياتها فى تل حرمل ، وهى تعود على مايرجح الى زمن أحد ملوك تلك المملكة المسمى «بلالاما» قبل حمورابى بنحو قرنين من الزمان ونوهنا كذلك بالشريعة التى أصدرها حامس ملوك سلالة ايسن المسمى (لت ـ عشتار) باللغة السومرية وهى تسبق شريعة حمورابى بنحو ١٧٠ سنة ، وحائنا من هذا العهد كذلك بمادح من القوانين السومرية . وان هذه الشرائع تشير الى اتجاه خطير فى الحياة الاجتماعيه وتنظم العلاقات الاجتماعيه بقوانين مدونة تسرى احكامها على جميع الناس التابعين الى الدولة التى تعود اليها تلك القوانين وبلغ اطرادها مبلغا عظيما فى عهد حمورابى الذى وحد البلاد فى مملكة واحدة وأصدر لها شريعة عامة موحده تسرى احكامها على جميع البلاد . (١)

و ـ ومما يدل على تاريخ الحضارات فى العهد البابلى القديم اتساع القاع والمواطن المتحضره بانتشار الحضارة واتساع رقعتها من وادى الرافدين ووادى النيل الى جميع انحاء الشرق الادنى والى بقاع أخرى نائية لم تكن قد وصلت اليها تأثيرات الحضارات القديمة فيما قبل هذا الزمن . وانتشرت الحضارات القديمة الى اطراف العالم القاصية التى كان يقطن فيها اقوام همج وذلك بطريق الاسفار التجارية ، حتى وصلت تأثيرات الحضارة الى سواحل البحر الاطلسى والبحر الشمالى والى برارى آسيه الوسطى وجنوبى

(١) انظر البحث الخاص بشرائع العراق القديم من هذا الكتاب .

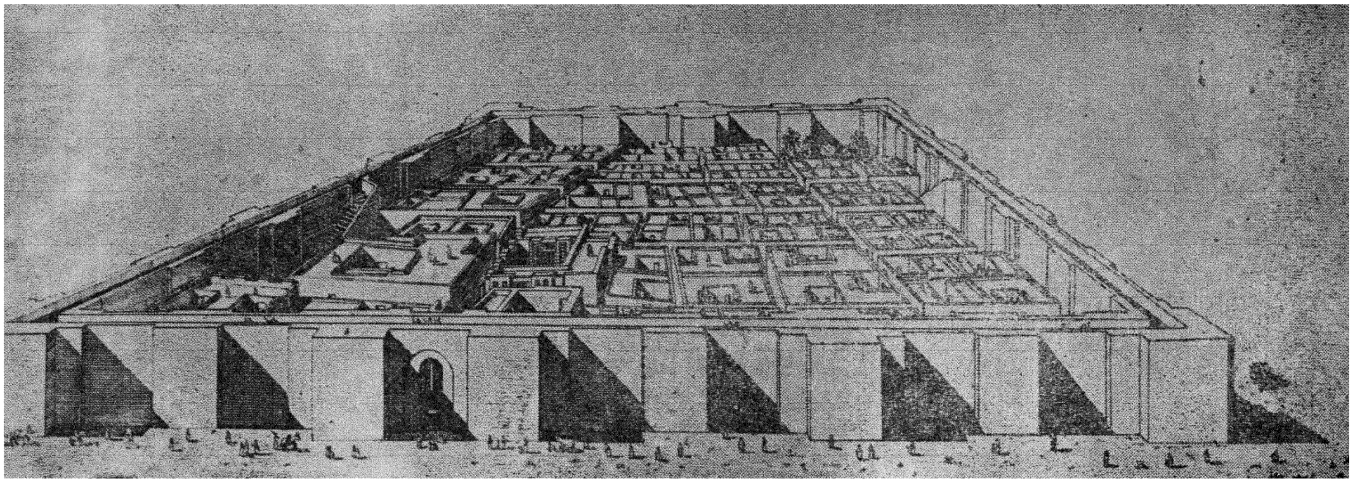

نموذج مصغر للمدينه الصغيره في تل حرمل ، من العهد البابلي القديم
(عن مديرية الآثار القديمة العامة)

الروسية • وكان من نتائج انتشار الحضارة تكاثر السكان وارتفاع مستوى المعيشة عند البشر واتساع الحرية والمعارف البشرية •

ز ـ وعلى الرغم من الخروب والغزوات المتلاحقة في مراكز الحضارات القديمة فقد اتسعت المدن وكثر سكانها منذ الالف الثاني ، ونشأت عواصم جديدة مثل العواصم الآشورية الحديثة كآشور وكالح (نمرود الآن) ونينوى والعاصمة الحيثية في آسيه الصغرى واتسعت كذلك العواصم والمدن البابلية •وقد كشفت التنقيبات في مواقع العراق القديم عن نماذج مهمة لأبنية العهد البابلي القديم من قصور ومعابد ودور سكنى وفيها الآثار الخاصة المتعلقة بحضارة العراق في العهد البابلي كالمحاجر والحلي الاسطوانية والكتابات المختلفة كالعقود والوثائق القانونية والرسائل والمؤلفات العلمية والأدبية التي المحنا اليها • فمن بين المواضع التي كشف فيها عن عمارات هذا العهد مواضع في منطقة ديالى كتل اسمر وشحمي وتل حرمل وتل زاوي والوركاء ونفر • اما في بابل فان ارتفاع مستوى المياه في المدينة أعاق التنقيب من الحفر والتحري في الطبقات السفلى التي تعود الى العهد البابلي القديم ولاسيما قسمه المتقدم • كما وجدت نماذج مهمة من القصور في هذا العهد في مدينة ماري على الفرات وفي الاماكن المهمة في حفريات آشور لاسيما ان صناعة البرونز التي اشرنا اليها الانسان في العراق في بداية الالف الثالث قد تحسنت وتنوعت وكثر استعمال البرونز منذ نهاية الالف الثالث وعلم الانسان في الشرق الادنى يعدين الحديد في حدود ١٤٠٠ ـ ١٢٠٠ ق • م وصنع الآشوريون وأمم اخرى من الحديد الات حربية وعجلاتهم السريعة • وكانت العجلات التي اهدى الى صنعها السومريون في الالف الثالث من نوع العجلات المصلدة تجرها الحمر الوحشية ولكن تطور هذا النوع من العجلات الى عجلة اخف واسرع وهي النوع المشبك (Spokedwheel) واستعملت لجرها الخيل بدل الحمر • ومن الامور الخطيرة في اتساع المواصلات وانتشار الحضار ارتقاء الفنون البحرية وانشاء

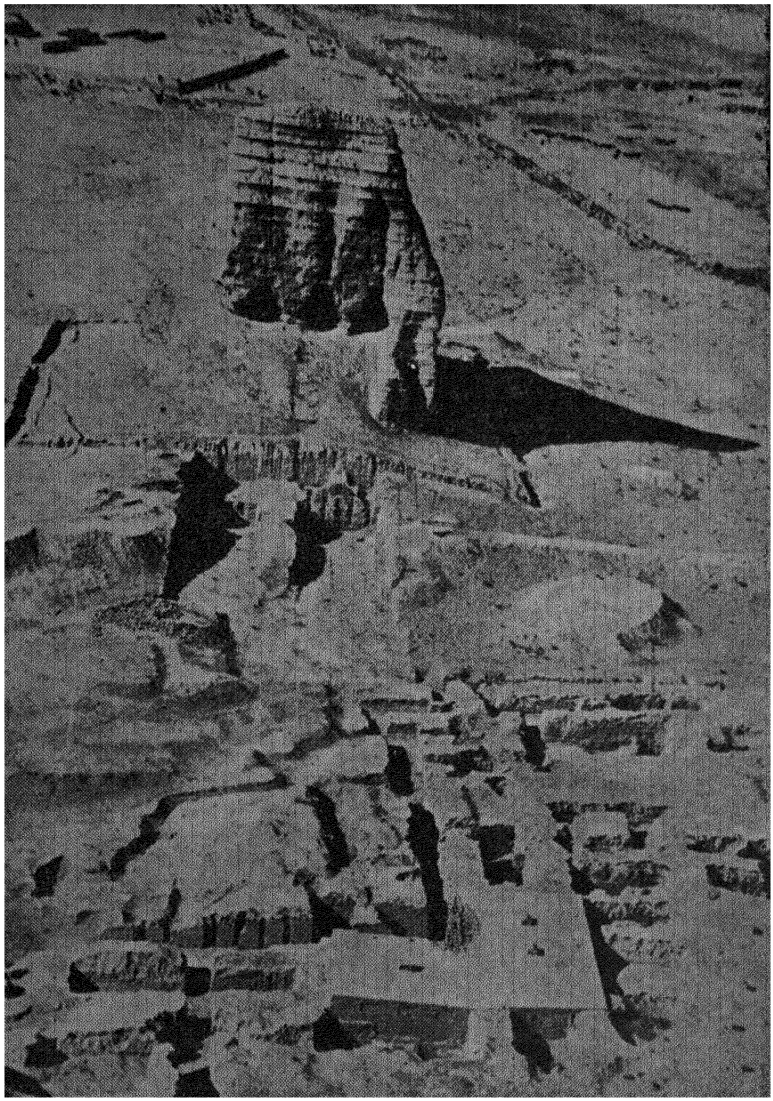

الزقوره (البرج المدرج) القائمه فى عقروف (دور ـ كوربكالزو) فى العهد الكسى (فى حدود ١٥٠٠ ـ ١٣٠٠ ق ٠ م)

السفن الشراعيه الكبيرة وقد اتقنت هذا الفن امم مشهورة مثل الايجيين والفينيقيين بعد ان تسلمت اسس الملاحة وبناء السفن من حضارة مصر والعراق .

واسعت الحضارة بين الشعوب والدول اتساعا نشر الحضارة وجعلها تميل الى التوحيد وقد ظهر ذلك جليا بعد ان تاسست الامبراطورية المصرية بعد طرد الهكسوس من مصر كما سيأتي بيان ذلك في فصل خاص .

الكشيون

ان الاضطراب الذي حل في مواطن الاقوام الهمجية في الالف الثاني ق . م واراحة هذه الاقوام بعضها بعضا وهجرة اقسام منها الى انحاء الشرق الادنى كان السبب في القضاء على المملكة المصرية الوسطى على ايدي الهكسوس . وبعد ان عرا الخشون بابل في اواخر سلالتها الاولى اي سلالة حمورابي جاء قوم جدد الى العراق نتيجة هجرات الاقوام التي ذكرناها [١] وهم الكشيون الذين حلوا محل الخشن بعد غزوهم العراق ، وقد أسس الكشيون سلالة جديدة في بابل عرفت باسم سلالة بابل الثالثة وكانت نهاية سلالة بابل الاولى في حدود ١٦٠٠ ق . م (أو ١٥٨٠ ق . م) ويشير مجرى الحوادث الى ان الخشن لم يقوا زمنا طويلا في البلاد بل كانت عليهم الهب والسلب . ولعل الكشيين هم الذين طردوهم .

اما هؤلاء الكشيون فقد جاؤا من شرق العراق أو شماله الشرقي . ويظهر ان عددهم كان قليلا . وقد اسسوا سلالة حاكمة دام حكمها زهاء خمسة قرون (من بداية القرن السادس عشر ق . م الى القرن الحادي عشر ق . م) وعرفت سلالتهم باسم سلالة بابل الثالثة ، باعتبار ان سلالة حمورابي الشهيرة هي السلالة الاولى في بابل ، أما سلالتها الثانية فكانت مؤلفة من ملوك يرجح انهم كانوا من الامراء السومريين استقلوا في القسم

(1) Volkerwanderung

الجنوبى من العراق بالقرب من شواطىء الخليج ولذلك عرفت سلالتهم باسم سلالة القطر البحرى • وقد تكونت هذه السلالة واستقلت فى منتصف عهد سلالة بابل كما ذكرنا سابقا •

لقد اختلف فى اصل الكشيين والشائع انهم من القبائل الجبلية فى المنطقة الكائنه الى شرق دجلة وشمال شرقها ، وانهم فرع من الاقوام الهندية الاوربية واسم «الكشيين» مشتق من اسم الههم القومى على مايرجح• ولم يخلف لنا الكشيون وثائق وسجلات تأريخية مدونة بلغتهم القومية وانما استعملوا لغة البلاد الاصلية اى اللغة البابلية السامية واستعملوا كذلك اللغة السومرية فى بعض المآثر الدينية على نحو ما كان يفعل اهل البلاد وما ذلك الا لأن حضارة البلاد التى فتحوها قد طغت عليهم واندمجوا فيها لانهم كانوا دون هذه الحضارة فى المرتبة ، كما طغت الحضارة الاسلامية العربية على هولاكو واتباعه الفاتحين • ومع ذلك فسنسدل من بعض المفردات التى جاءت فى بعض المعاجم البابلية وكذلك من اسماء ملوكهم واسماء الاعلام التى حائنا من هذا العهد على ان لغة الكشيين تعود الى عائلة اللغات الهندية الاوربية ، ولا نستبعد كثيرا انهم من القبائل الكردية القديمة •

ومما نعرفه عن الكشيين انهم ، كما المحنا فيما سبق ، لم يأتوا الى العراق ولاسيما القسم الجنوبى منه بعدد كبير جدا ، بل كانوا أقلية حاكمة • وقد كان منهم جماعة يعيش فى بابل بهيئة عمال وصناع فى زمن سلالة بابل الاولى قبل ان تأتى جماعتهم الفاتحة فى اواخر تلك السلالة • ومما يقال بوجه الاحتمال ان الكشيين اندمجوا بالسكان الاصليين واسرتهم الحضارة التى فتحوها ، ومع ان ملوكهم حافظوا على عبادة بعض من آلهتهم الوطنية الا انهم اعتنقوا الديانة البابلية وقدسوا الآلهة البابلية كما ان عددا من ملوكهم قد سموا انفسهم باسماء بابلية ،وملخص القول استمرت الحضارة البابلية فى سيرها ولم يدخل عليها الكشيون اشياء وتغييرات مهمة الا بعض

الامور الفلله مثل طريقه تاريخ الحوادث بسنى حكم الملك بدل الطريقة (السومريه ـ البابليه) القديمه الخاصه بالتأريخ من الحوادث المهمه • وبدأ في عهد الكشيين استعمال وثائق حدودية تعرف عادة باسم احجار الحدود (كدورو) التي كانت تدون فيها مساحات الاراضي واسماء مالكيها وحدودها •

حكم الملوك الكشيون في بادىء امرهم في عاصمه البلاد القديمه بابل، ولكنهم أسسوا في منتصف عهدهم مدينة جديده ضخمه لتكون عاصمه لهم، سميت باسم مسسها الملك «كوريكالزو» فصارت تدعى «دور كوريكالزو» أي مدينة أو حصن «كوريكالزو» وقد كشفت التنقيبات التي اجريت في مدينه الآثار العراقية في هذه المدينه عن آثار مهمة من قصور ملوكها ومعابدها الواسعة الضخمه وكذلك أظهرت مئات من الالواح النصيه والسجلات التاريخية وغيرت جميع هذه المكتشفات جانبا مهما من تاريخ العراق في العهد الكشي الذي كان يعد عهدا مظلما بسبب قلة المصادر والمآخذ التأريخيه التي حائتنا منه •

لقد صادف قيام السلالة الكشية حكم المملكه الاشورية في القسم الشمالي من العراق، وقد نشأت بين المملكتين علاقات حربيه وسلميه • وكانت اليد العليا في بادىء الامر للكشيين ولاسيما في النزاع على الحدود بين المملكتين حتى انهم فرضوا سيطرتهم وهيمنتهم على المملكه الاشورية في اول الامر • وكانت المملكه الاشورية تعاني الامرين من الازمات والشدائد ولاسيما ضغط الحثيين والميتانيين كما سبق ذكره فيما بعد • ولكن لم يدم هذا الحال طويلا اذ أخذ الاشوريون يتدرجون في البأس والقوه، وتخلصوا من ضغط الميتانيين جيرانهم في الشمال [1] فبدأوا ينازعون الكشيين زعامة العراق السياسية وتم لهم ذلك في كثير من الاحيان ابتداء منذ القرن الرابع عشر ق • م حتى انهم كثيرا ماغزوا القسم الجنوبي من العراق وفرضوا على السلالات البابلية حمايتهم وسيطرتهم وعندما تخلصوا من الخطر الارامي في

(١) انظر البحث الخاص بالحثيين والميتانيين وكذلك بحث الآشوريين •

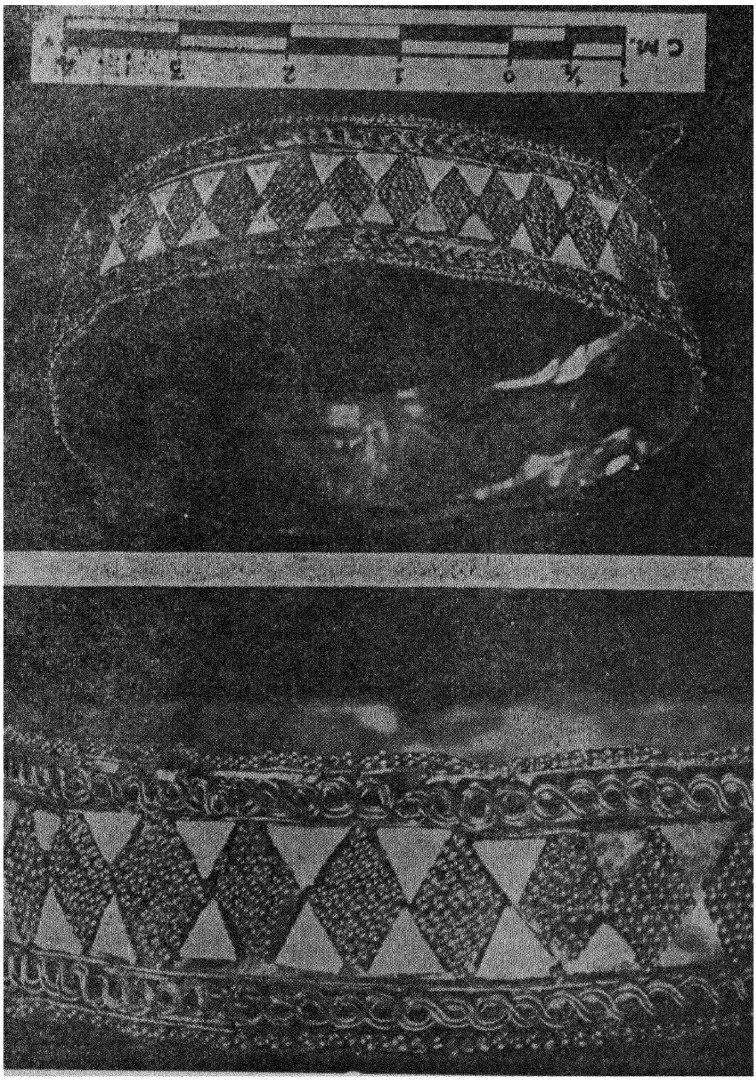

سوار من الذهب المرصع بأحجار كريمة (وجد في تنفيبات مدبربه
الآثار العراقيه في عقرقوف)

فى نهاية القرن العاشر ، وعدت بابل قوتها وجاءت من بعد سلالة الكشيين سلالات بابلية ضعيفه لم تقو على صد الاشوريين الذين زاد بأسهم منذ القرن التاسع ق . م واسسوا امبراطوريه معظمة ضمت جميع انحاء الشرق الادنى ومن بينها بلاد بابل .

بعد ان أسس الكشيون ملكهم فى العراق برمن قصير نشأت الامبراطورية المصريه فى مصر بعد طرد الهكسوس فكان عهد من العهود المجيده فى تأريخ مصر ولا سيما فى زمن السلالتين الثامنه عشره والتاسعه عشره . وقد صاحب تكوين هذه الامبراطورية اتساع العلاقات بجميع انحائها بين المملكة المصريه ودول الشرق الادنى الاخرى وبلغ اتساع العلاقات مبلغا دخلت فيه الحضارة فى الشرق الادنى طورا أصح ما سمير به «الوحدة فى الحضارة» ونشأت بين الدول ، بين المصريين والكشيين والاشوريين والحثيين والميتانيين ، علاقات دولية تعد الاولى من نوعها فى تاريخ البشر كما سنبين ذلك فى القسم الخاص بمصر وقد حفلت تلك العلاقات كالرسائل المتبادلة بين ملوك ذلك الزمان والمعاهدات السياسية بين الدول والمصاهرات السياسية بين السلالات الحاكمة .

انتهى العهد الكشى فى حدود القرن الحادى عشر ق . م على أثر غزوة قام بها العيلاميون من شرق العراق وقضوا على السلاله الكشيه وبعد طرد العيلاميين بالحرب من جانب أهل العراق تأسست فى بابل سلالات اخرى اولها سلالة عقبت نهاية الكشيين وكان اوائل ملوكها هم الذين طردوا العيلاميين من البلاد وحاربهم أحد ملوكها المسمى «بوخذ نصر» الاول فى عيلام نفسها ومما يجدر ذكره بهذه المناسبه ان العيلاميين قد اخذوا من العراق بعد غزوهم اياه غنائم كثيرة كان من بينها وثائق تأريخية مهمة مثل مسلة قانون حمورابى ومسلة الملك الاكدى «نرام ـ سين» وغيرها وقد وجد تلك الآثار المنقوش المرسومة فى عاصمة عيلام «السوس» .

كانت السلالات التى عقبت سلالة الكشيين ضعيفة بوجه عام وقد

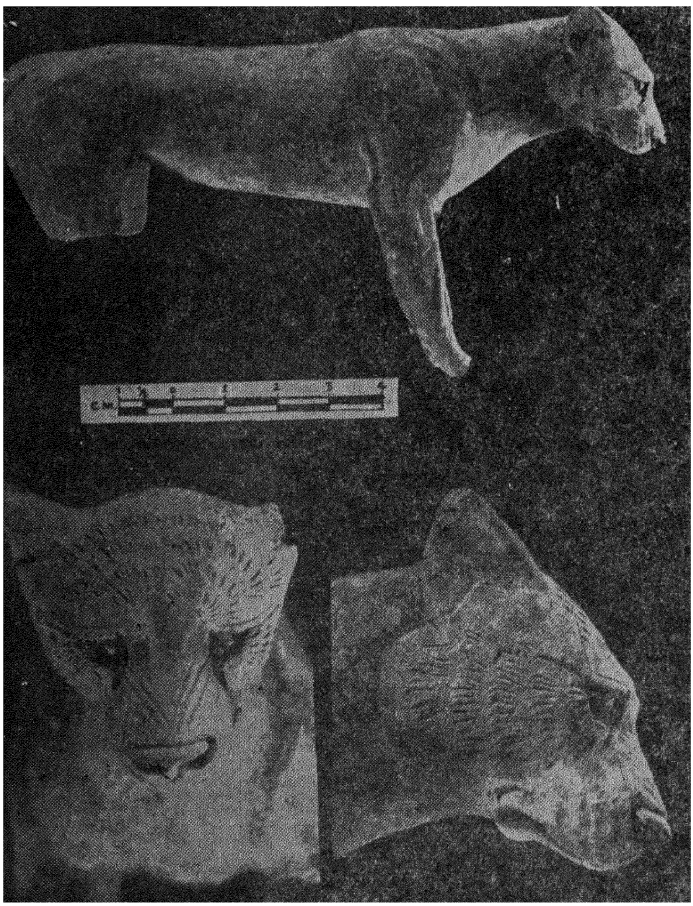

نمادج من دمى الطين التى وجدت فى تنقيبات مديرية الآثار العراقيه
فى عمرفوف (لاحظ الفن القوى فى التعبير الدقيق)

صادف قيامها تعاصم الدولة الاشوريه منذ القرن العاشر ق • م فصار الاشوريون يتدخلون بشؤون بابل ، وكثيرا مافرضوا سلطانهم ونفوذهم على السلالات الحاكمة ، ولكن كانت بابل من المشاكل المعقدة في سياسة الاشوريين الخارجية ولم يستطيعوا ان يضموها الى مملكتهم بالمصالحة فعمدوا الى غزوها والحاقها بالتاج الاشوري وقد عمد الملك الاشوري «سنحاريب» الى تدمير مدينة بابل تدميرا كاملا في القرن السابع ق • م وظلت بابل تحت حكم الاشوريين حتى نهاية القرن السابع ق • م حيث تخلص البابليون من الاشوريين في حدود ٦٢٦ق • م بان ثاروا عليهم وتحالفوا مع الماديين الفرس للقضاء على الدولة الاشورية • وقد دمرت نينوى وحرقت في العام ٦١٢ق • م على ايدى هؤلاء الاحلاف فزالت دولة الاشوريين كما سنفصل ذلك فيما بعد •

الاشوريون

الفصل التاسع

موطن الآشوريين وبدء تكوينهم السياسى

١ ـ موطن الآشوريين ومكانتهم فى التاريخ

كان موطن الآشوريين يتألف من الاراضى الواقعه على جانبى نهر دجلة من خط العرض السابع والثلاثين شمالا تقريبا الى مصب نهر العظيم جميعا ويحد بلاد الاشوريين من الشمال، والشرق سفوح الجبال الشاهقة .

ويكاد يكون موطن الاشوريين على هيئة مثلث بين دجله والزابين الاعلى والاسفل وبين مرتفعات الجبال الى الشمال والشمال الشرقى ، ومعظمه بهيئة تلال وبطاح واراضى مسموحة . وتقع اشهر العواصم الاشورية وهى نينوى فى مركز ذلك المثلث فى شاطىء دجله الشرقى . ويتألف من سهول زراعية خصبه ولا سيما سهل اربيل وكركوك وتتمتع بأمطار كثيرة كما ان فيه انهارا تصلح للرى ولم تكن للبلادهم بحوم طبيعيه فى الجنوب وانما كانت الحدود تتسع دائما لقوة الاشوريين السياسيه . وكذلك كان الحال فى الغرب حيث لاتوجد عوارض طبيعية الى الفرات والخابور والبليخ . ولقد عاش الاشوريون فى هذه المنطقة منذ العصور التاريخية القديمة وتدرج فيها كيانهم السياسى والعمرانى واشتقوا حضارتهم من حضارة العراق الاولى اى الحضارة «السومريه» وكونوا منذ الالف الثانى قبل الميلاد دولة عسكرية اخذت تتدرج فى القوة مع حدوث فترات من الضعف وآل امرها الى ان أصبحت امبراطورية معظمه فرضت سلطانها على جميع الشرق الادنى كما سيأتى بيان ذلك .

والمرجح كثيرا ان اسم الاشوريين مشتق من كلمة «آشور»[١] وهو اله الاشوريين القومي وكبير آلهتهم ، واطلقت الكلمة نفسها على اقدم مدنهم وهي «آشور» التي تقوم حرائبها الآن في (قلعة الشرقاط) • وللتعبير عن الشخص الاشوري أو الشعب الاشوري كانوا يضيفون ياء النسبة الاشورية (المشابهة لمثيلها في العربية) الى كلمة آشور ، وجاء اسم الاشوريين في المصادر الآرامية والعبرية على هيئة «آتور» • وذكر موطن الاشوريين في المصادر المسمارية بهيئة «بلاد آشور» (مات آشور) • وكذلك ذكر في المصادر المتأخرة مثل جغرافية «بطلميوس» (في حدود ١٥٠ ب • م) •

والاشوريون في الاصل فرع من الاقوام السامية التي هاجرت من مهد الساميين الاصلي وهو جزيرة العرب على ماتقول به جمهور من الباحثين • وتوجد فرضيات ونظريات أخرى حول اصل الاشوريين ، اذ المرجح ان الاشوريين لم يأتوا رأسا من جزيرة العرب الى شمالي العراق وهم بدوغزاة، وانما حلوا في موطن مؤقت بعد هجرة اجدادهم من الجزيرة وانتقلوا منه الى البلاد التي صارت فيما بعد موطنا ثابتا لهم ، فمن هذه الفرضيات فكرة ارتآها المستشرقون وهي ان الاشوريين جاؤا من الجنوب من ارض بابل وحلوا في شمال العراق في زمن لغته في العهد الاكدي وقد روت التوراة ماتشير الى هذا الرأي (سفر التكوين الاصحاح الحادي عشر) ولعل اقوى ماستند اليه اصحاب هذا الرأي اعتقادهم بان اللغة الاشورية ماهي الا لهجة

(١) كانت كلمة «آسور» أو «اسر» تستعمل في العصور الآشورية القديمة في بلاد معاهم ممزوجة فتطلق كما ذكرنا على اسم أقدم مدنهم وعلى اسم الاله القومي وعلى اسم البلاد الخاصة بالآشوريين • ولا نعلم بوجه تأكيد معنى الكلمة ، فمن معاني الصيغة «آشر» (الرحمن) ، كما انه من المحتمل أن تكون من أصل سومري (من A Usar) كما جاء ذلك في بعض النصوص القديمة • وقد يرجح ذلك أن اسم عاصمتهم الشهيرة «نينوى» يضاهي الكلمة السومرية (نينا Nina) التي كانت تطلق على جزء من مدن دولة مدينة لجش السومرية ، وكلتا الصيغتين مستقة من الهة خاصة لما تحيلوها بهيئة سمكة (نون ــ ننوى) •

(انظر S Smith, **History of Assyria** (1923).

نموذج من المنحوتات الكثيره التى كانت تزين جدران قصور الملوك
الآشوريين (وتبين هذه الصورة الملك سرحون الثانى فى عربته الملكية)

من اللغة البابلية ولكن الواقع ان الفروق بين اللغتين لاتـدل عـلى ذلـك ، وانما الذى نستطيع ان نستنتجه من التشابه الموجود بين اللغتين انهما متحدرتان من أصل واحد أى انهما من عائلة لغوية واحدة هى عائلة اللغات السامية كما المحنا الى دلك من قبل • وكانت الفروق اللغوية بين اللغتيـن الاشوريـة والبابلية في العصور القديمة فروقا كبيرة أعظم منها فى العهود المأخرة من حدود ٧٠٠ ق • م حيث ان القرب الجغرافى والاتصال بيـن البابليـيـن والاشوريين جعل الفروق بين البابلية والاشورية اقل منهـا فى بقية فروع اللغات السامية • والى فروق اللغة توجد اختلافات بينة فى اساليب الحضارة عند البابليين والاشوريين ، كالاختلافات بين القوانين وتنظيم المحاكم وطريقه تأريخ الحوادث (التقويم) الى غير دلك من الاحوال الاجتماعية ، ولكن مع كل هذه الفروق فان اوجه الشبه بين الحضارتين الاشورية والبابلية مشؤها اشتقاق كل من الحضارتين من الحضارة السومرية ، ويذهب بعض الباحثين الى ان الاشوريين موجة جاءت من بلاد الاموريين أى من الساميين العربيين من سورية • وملخص القول كان الاشوريون فرعا من الساميين استوطنوا فى شمالى العراق فى زمن لعله منذ العصر الاكدى او فيما قبل دلك وانهم اختلطوا مع الاقوام التى كانت موجودة قبلهم ولا سيما السوباريين[1] ومع الاقوام المجاورة لهم •

---

(١) السوباريون أو السوبارتو وبلاد «سبارتو» • كان هدا الاسم يطلق على موطن الآشوريين قبل عهد تمكن الآشوريين وظهورهم فيه بوجه بارز • وقد ذكر السوباريون والحوريون فى مواطن كثيرة فى النقوش المسمارية وبحسب احدث البحوث والتحريات ان المصطلحين ليسـا كلمتين تطلقـان على قوم واحد بل على قومين متميزين بعضهما عن بعض • فأما السوباريون فقد وردت اشارات عنهم فى أقدم النصوص التاريخية وانهم كانوا يعيشون فى شمال بلاد بابل ولا سيما فى المناطق الجبلية شرقى دجله فى المنطقـه الممتدة من دجلة الى جبال زجروس • ولعل المنطقـة تمتد جنوبا الى ديالى . فكانت على دلك تتضمن بلاد آشور أيضا ، كمـا ان بعض النصوص تجعل مصطلح بلاد «سوبارتو» معادلا لبلاد آشور ولا سيما باستعمال البابليين . وكذلـك يتضمن بلاد الكوتيين فى بعض النصوص ، أما بالنسـبة الى =

ولقد مر بنا فيما سبق كيف نشأت في بلاد الاشوريين اقدم عهود ماقبل التأريخ وذلك قبل ان يصير القسم الجنوبي من العراق صالحا للسكنى بأزمان كثيرة ولكن ظهرت الحضارة الناضجة في الجنوب فصار الشمال تابعا الى الجنوب من الوجهة السياسية والحضارية ، ولم يتكون للاشوريين كيان سياسي قوي وينفصل عن الجنوب تماما الا منذ منتصف الالف الثاني ق م . أما ماقبل هذا الزمن فقد كانت تدر من الاشوريين محاولات للاستقلال وتقوم منهم دويلات ولاسيما عندما يكون الجنوب في فترات سياسية مرتبكة ، مثل العهد الكوتي وعهد سلالتي «ايسن» و«لارسة» ولكن ذلك لم يكن ليدوم زمنا طويلا كما سيمر بنا ذلك في ملخص ادوار التاريخ الاشوري ، ويصح ان ننسب الارمان القديمة التي كانت فيها بلاد آشور تحت سلطان الجنوب السياسي بعهد الحمذة بالنسبة الى الاشوريين الذين كانوا يتعلمون من حضارة العراق الاولى (الحضارة السومرية) أساليب العمران والمدنية ، ويقتبسون منها اسباب الحياة والنمو لنشئة حضاراتهم ونموها . وبعد ان انتهى طور الاقتباس وعندما سعى سلطان الجنوب قوى شأن الاشوريين من وجهة الحضارة والسياسة وكونوا من بعد المنتصف الثاني من الالف الثاني . ق م دوله ذات كيان مستقل وتسلموا زعامة الشرق القديم عندما لم تقو بلاد بابل على حملها. ويصح ان نعد الحضارتين البابلية والاشورية حضارتين «اخيتين» تحدرتا من

= الآشوريين فكانت بلاد سوباريو بلاد أجنبيه معاديه . أما أصلهم فمن الاقوام المحليه غير السامية مثل الكوتيين والكشيين . اما الحوريون فهم قوم منعزلون عن السوباريين ، وقد برزوا في التأريخ منذ منتصف الالف الثالث ق . م منذ العهد الاكدي . وأقرب لغة تشبه لغتهم اللغه الاورارطية في اقليم بحيره وان . وقد اتسعوا في انتشارهم في أنحاء الشرق الادنى في النصف الثاني من الالف الثاني ق . م وتغلغلوا في القسم الشمالي من العراق وكانت من مراكزهم المهمة «نوزى» وكركوك ، وكذلك ظهروا في بلاد الشام ومنهم ظهرت دوله في شمالي بلاد ما بين النهرين سميت باسم مملكة «ميتاني» وكانت لغتهم من اللغات الهندية الاوربية .

(أنظر أحدث المراجع في الموضوع
(I. J. Gelb, Hurrians and Subarians, 1944).

نموذج من المحفوظات الآشوريه ، وتمثل الصورة شكل اله حارس

«أم» واحده هى حضارة «سومر واكد» . وكان بين الاثنين تشابه ، ولكنهما لم يكونا نسخة مطابقة للاخر بل كان لكل منهما «شخصيتها» الخاصة المميزة وكان بين الحضارتين تشابه الاصل كما ان الحضارة الاشورية اعتمدت على الحضارة البابلية ، فاستفادت من تجاربها واساليبها ، وبوسعنا تمثيل علاقة الحضاره الاشورية بالثقافة البابلية انها كانت كعلاقة الثقافة الرومانية بالثقافة اليونانية

ولقد أثرت فى الاشوريين وهم فى موطنهم الذى حددناه قوى ومؤثرات خارجية فالى ضغط دول الجنوب الى تعلم الاشوريون منها

حضاريهم تعرض الاشوريون فى الوقت نفسه الى ضغط مستمر من الاقوام التى كانت تعيش فى جوارهم • وكان بعض هؤلاء من الاقوام الاشداء من سكان الجبال المجاوره وجاء بعضها بهيئة هجرات عنيفة كالاراميين وكان الارمن فى جوار الاشوريين فى منطقه بحيرة ارراط ووان ، والى كل هذا نشأت فى جوار الاشوريين دول قوية كادت تقضى عليهم كالحثيين والميانيين • وتعرض الاشوريون من بعد الميانيين منذ القرن الثانى عشر ق • م الى ضغط القبائل الاراميه الكثيره ، فنشب بين الطرفين صراع رهيب شغل طوال القرنين الحادى عشر والعاشر ق • م لقد تعرض الاشوريون الى هذه المحن والشدائد فكانت امتحانا عسيرا ، ولكن الاشوريين خرجوا منه وهم اصلب ماكونوا عودا واشد قوه وزهمة •

ان هذه الدول المجاوره والاقوام والقبائل التى تحمل الاشوريون ضغطها وتحجوا فى دفع ضرباتها لم تقصر اطماعها على الاستيلاء على القسم الشمالى من العراق ، موطن الاشوريين ، بل كانت تطمع الى ذلك فى الجنوب موطن الحضارات الاصليه ، وموطن «ام» الحضاره الاشوريه وعندما كان فى الجنوب دول معظمة كان باستطاعتها ان تدفع عن نفسها عائلة هذه الاقوام الطامحة • ولكن لم يكن الحال كذلك فى جميع الازمان ، اذ ضعف الجنوب بعد سلاله حمورابى ، فوقف على الاشوريين وهم يعيشون فى طريق الطامعين بحضارات العراق وطنه باريخه[1] مهمة هى صد هذه الاقوام عنهم وعن الجنوب ، وسرى من فوجهم الواسعة ان التراث الحضارى الذى ورثوه عن حضارات الجنوب قد دافعوا عنه وعملوا على نشره فى جميع انحاء الشرق الادنى •

ولعل فشل الاشوريين فى امامهم الاخيرة فى تأدية هذا الواجب التاريخى كان سببا قويا فى القضاء عليهم ، وذلك عندما وجهوا ضرباتهم

(١) من الممكن اعتبار موقع الآشوريين بالنسبه الى حضارات العراق القديمه ما يعرف باسم (Marches) أى أقوام التخوم والحدود •

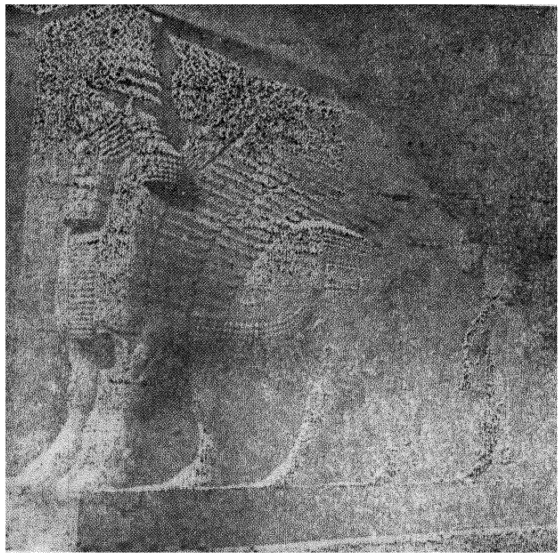

نموذج من المنحوتات الآشوريه يمثل ما يعرف باسم الثيران المجنحة (مركبه من جسم ثور مجنح ورأس انسان) التي كانت توضع في مداخل المباني العامه لتقيها الشر ، حيث كانت بمثابه الملاك الحارس

المميزة الى بلاد بابل بدلا من ان يصدوا الاقوام الطامعة كالسشين والماديين وقبائل العرس الاخرى التي بعد ان قضت على الاشوريين وجهت همها الى بلاد بابل فضربتها وهي بمفردها ضربة قاضية تقوض على اثرها حضارة العراق القديم .

٢ ـ بدء تكوين الآشوريين الحضاري والعهد الآشوري القديم

لقد مرت على بلاد الاشوريين اطوار وادوار قديمة قبل ان يتكون لهم كيان سياسي ودول معظمة ، فقد رأينا في بحثنا في حضارة العراق القديم ان الجزء الشمالي من العراق كان أقدم تكوينا فظهرت فيه اطـــوار مـــن حضارات ماقبل التأريخ قبل ان تظهر علائم سكنى البشر في الجنوب ولذلك

فان قصه بلاد الاشوريين طويله سهل روايتها بتقسيمها الى فصول اى ادوار تأريخيه باره • وبالامكان تقسيم ملك الاطوار ، وبضمنها عصور ماقبل التأريخ الى ثلاثه عهود (١)العهدالقديم (٢)العهد الوسيط (٣) العهدالحديث•

أما العهد الاشورى القديم فانه يكون جسما طويله ولا سيما اذا ادمجنا فيه اطوار ماقبل التاريخ الذى مر بنا بحثها فيما سبق من تأريخ العراق ، ويصح ان يصطلح على تقسيم العهد الاشورى القديم الى طورين نطلق على اقدمهما عنوان «التكوين الحضارى» لبلاد اشور ، وعنوان الطور الثانى «بدء التكوين السياسى» ولما كنا قد درسنا اطوار العهد الاول فيما مر بنا من عصور ماقبل التاريخ فسنقصر بكلامنا هنا على موجز الطور الثانى ولاسيما الاحوال التاريخية لبلاد لاشوريين منذ عصر فجر السلالات حتى نهاية العهد الثالث القديم الذى مر بنا • ولقد اثبتت التحريات فى بعض المدن الاشوريه مثل آشور ونينوى ، وجود آثار من الحضارة السومرية من عصر فجر السلالات ولا سيما الاخير منه • أما الحياةالسياسيه فى بلاد اشور فىهذا العهد فلا سبيل الى معرفتها على وجه التأكيد لانه لم يأتنا من بلاد الاشوريين من ذلك العهد مصادر مكتوبه يستشف منها الاوضاع السياسية هناك • ولنا ان نفترض ان الشمال كالجنوب كان فى فجر حياته السياسية على طراز دويلات المدن فى الجنوب • ووقف بلاد آشور ضمن الامبراطورية الاكدية بعد عصر فجر السلالات ولكن الاشوريين الذين خضعوا للاكديين وجدوا الفرصه مواتيه فى نهاية العصر الاكدى فى زمن فترة الكوتيين المظلمة فى الجنوب ، فاستقلوا بعض الوقت ولقد وردت فى اثبات الملوك الاشورية اسماء ملوك لانعرف عنهم سوى اسمائهم التى تبدو انها غير سامية ولا نعرف رسميهم بوجه التأكيد ولكن لعلهم حكموا فى بلاد آشور فى فترة العهد الكوتى •

وقد قسم بلاد الاشوريين الى الامبراطوريه السومرية فى عهدسلالة أور الثالثه حيث كان ملوك اور يعينون ولاة على بلاد آشور فنعرف مثلا أن

الحاكم المسمى «زريقو» حاكم اشور قد شيد بناء ولعله معبدا لعشتار باسم سيده «بورسين» او «امارسين» ملك اور وفى نهاية هذه السلالة يبدأ العهد البابلى القديم فى الحبوب ولقد رأينا فيما مر بنا من تاريخ العراق انه حدث بعد سلالة أور الثالثة زمن عادت فيه الاحوال السياسية فى بلاد بابل الى ماكانت عليه فى زمن دويلات المدن ، حيث حكمت فى العراق سلالات متنازعة ومنها سلالتا «أيسن» و«لارسة» ثم تكونت من بعد ذلك سلالة ثالثة فى بابل هى سلالة بابل الاولى دخلت كذلك فى النزاع السياسى ، ولعل السوباريين انتهزوا فرصة الفوضى السياسية فى الحبوب فكونوا مملكة فى الشمال واستولوا ايضا على بلاد اشور ، والمرجح ان بعض الملوك الواردة اسماؤهم فى اثبات الملوك الاشورية هم من هؤلاء السواريين مثل «كليا» و«اوشنا» ولكن من بعد ذلك نجد الاشوريين انفسهم يؤسسون سلالة خاصة بهم ويبدأون بناء مملكة قوية موحدة مستقله ، وتظهر منهم ملوك وامراء أقوياء منهم الملك المسمى «ايلو ـ شوما» [1] الذى كان يعاصر مؤسس سلالة بابل الاولى «سومو آبوم» وتشير الاخبار التاريخية الى انه كانت له علاقات مع ذلك البابلى . فيحدثنا الملك الاشورى نفسه انه «حرر الاكديين ومدنهم» ولكن هذه الشارة غامضة قد تعنى انه ساعدهم أو انه غزاهم . وبلغت المملكة الاشورية فى زمن الملك الاشورى «شمسى ـ أدد» الاول مبلغا من القوة مكنها من فرض سلطانها على القسم الشمالى من بلاد بابل ولاسيما مملكة «اشنونا» وعلى سورية بل حتى على بابل نفسها زمنا قصيرا . وقد عاش هذا الملك قبل حمورابى وعاصره حمورابى فى أواخر أيامه كما عاصره فى مدينة «مارى» «زمرى لم» قبل ان يستولى عليها وقد عين أحد ابنائه المسمى «يسمح أدد» على مدينة «مارى» كما تشير الى ذلك الرسائل التى وجدت فى هذه المدينة . وجاء من بعد «شمسى ـ أدد» ابنه «يسمح ـ أدد» الذى يشير اسمه وكذلك

---

(١) وقبله ورد ملكان فى اثبات الملوك وهم «بورر ـ آشور» الاول الذى يرجح أنه هو الذى أسس السلالة الجديدة من بعد الملوك السوباريين ، ثم ابنه الوارد اسمه بهيئة «شالم ـ أخوم» ثم ابنه «ايلو ـ شوما» .

اسم ابيه الى انه من اصل سامى عربى أى من الاموريين • وقد استمرت المملكة الاشورية فى قوتها بعض الوقت وظلت كذلك حتى الجزء الاخير من حكم حمورابى ، حيث قضى هذا الملك على استقلال المملكة الاشورية بعد أن قضى على جموع العلاميين فى عامه «الثلاثين والواحد والثلاثين» وخضعت بلاد آشور الى الجنوب ودخلت ضمن امبراطورية حمورابى ، ولكننا لا نعرف بوجه التأكيد كم استمر هذا الوضع من بعد حمورابى ، ومهما يكن من أمر فمما لا شك فيه انه قد قام فى بلاد آشور بعد نهاية سلالة بابل الاولى ملوك اشتهروا بصفة الجنوب بعد سلالة حمورابى فى عهد الكشيين فأعادوا كيان بلادهم السياسى بالتدريج ، وسنتتبع مصير بلاد آشور فى هذا العهد الذى اصطلحنا على أن نسميه بالعهد الآشورى الوسيط •

العهد الآشورى الوسيط :ـ

يوسعنا أن نحدد هذا العهد ، كما ذكرنا سابقا ، من نهاية العهد البابلى القديم فى حدود القرن السادس عشر ق • م • أى من نهاية سلالة بابل الاولى وتسمى بداية حكم الملك الآشورى «أدد ـ نرارى» الثانى فى نهاية القرن العاشر وبداية القرن التاسع ق • م • حيث بدأ تاريخ الآشوريين الحديث فيكون قد دام العهد الذى سميناه بالعهد الوسيط نيفا وخمسة قرون وهى حقبة طويلة دأب فيها الآشوريون على تنمية كيانهم السياسى بعد فترة التسيطره التى فرضها حمورابى عليهم ، وابرز ما يتميز به هذا العهد هو ان الآشوريين تعرضوا فيه الى سلسلة من الامتحانات والمصاعب بسبب ضغط الدول والاقوام التى كانت تجاورهم • وسنرى من بحثنا ان الآشوريين خرجوا من هذه الشدائد أشداء أقوياء اذ خلقت منهم هذه الشدائد التى امتحنوا بها قوة عسكرية رهيبة فرضت سلطانها على شعوب العالم القديم عدة قرون •

ولعل خير سبيل للوقوف على سير تاريخ الآشوريين فى هذا العهد ان نوجز ما ذكرناه سابقا عن الدول التى نشأت فى الشرق القديم بعد سلالة بابل الاولى وبعد حكم الهكسوس فى مصر . فأولا تكونت فى مصر امبراطورية معظمها بعد طرد الهكسوس منها ، دامت خمسة قرون (١٥٨٠-١٠٨٥) وبسطت نفوذها على جهات البلاد السورية حتى الفرات الأعلى ، وقد اصطدمت هذه الامبراطورية مع امبراطورية أخرى نشأت فى حدود هذا الزمن وهى الامبراطورية الحثية التى بسطت كذلك نفوذها ونازعت المصريين فى حروب داميه طوال قرن من الزمان . وقد منعت هاتان القوتان الحربتان أى توسع الآشوريين فقبعوا فى عقر دارهم يتربصون الفرص المواتيه . والى هذا لم تكن العلاقات بين الآشوريين والكشيين فى بابل سمين تحسن الجوار على الدوام ، فقد نازع الكشيون المملكة الآشوريه فى بدوحها بالقوة وحدثت بين الطرفين حروب ومعاهدات . وتشير ظواهر الاحوال الى ان اليد العليا كانت للكشيين فى بادىء الامر ، وتعرض الآشوريون الى اخطار اخرى اشد اتتهم من دوله اخرى تكونت كذلك فى المنصف الثانى من الالف الثانى ق . م . وهى دولة الميتانيين[1] التى تكونت بجوار الآشوريين من جهة الغرب . وقد بلغت هذه الدوله من البأس مبلغا تمكنت من السيطره على البلاد الاسوريه فى القرن الخمس عشر ق . م . وظلت كذلك زهاء القرن الواحد . وتخلصت بلاد آشور من السيطره الميتانية من بعد ذلك . وافاد الآشوريون من بوادر القوى الدولية فى ذلك العهد ، اذ كان الحثيون يرمون القصاء على المملكة المتاخمة وادخالها ضمن امبراطوريتهم فى منافستهم مع المصريين .

(١) لقد سبق أن نوهنا فى الحاشيه ١ الص ١٦٦ بدوله ميتانى وقلنا انها اسم سياسى لمملكه أسسها الحوريون فى المنصف الثانى من الالف الثانى ق . م . وقد عرا ملكهم المسمى «سوشتار» المعاصر للفرعون المصرى طوطمس الثالث بلاد «آشور» وكذلك فعل الملك «شتراتا» .

وقد بدأ الحثيون يتدخلون فى شؤون هذه المملكة فى زمن الملك الآشورى «آشور ـ اوبالط» الاول (١٣٦٢-١٣٣٧) الذى انتهز الفرصة فحارب الميتانيين فى عهد ملكهم المسمى «ارتاتاما الثانى» (١٣٦٦-١٣٥٩) واستطاع أن يخلص البلاد الآشورية من النفوذ الميتانى بالمرة وتؤسس عهدا انتعشت فيه المملكة الآشورية حيث انه بعد التخلص من النفوذ الاجنبى اخذ فى تحسين الاحوال الداخلية وتهوية الجيش الآشورى ، ويراه بعد نجاحه الباهر يلقب نفسه بالملك العظيم • وتشير الحوادث التاريخية الى ان هذا الملك كان على صلات ودية مع الحثيين ولعله اتفق معهم فى ازالة الدولة الميتانية اذ انه حصل على جزء من تلك المملكة • وكان كذلك صديقا للفرعون المصرى «امنوفس» الرابع أو «اخناتون» وبعد تخلصه من الخطر الميتانى وتوطيده شؤون مملكته التى انشأ فيها جيشا قائما مدربا صار يتدخل فى شؤون البابليين حيث روح ابنه من الملك الكشى ، وبفضل هذا الزواج السياسى صار الملك الآشورى يتدخل فى شؤون بابل ويفرض نفوذه عليها مما حدا بالبابليين الى أن يثوروا ويقتلوا ملكهم الصبيعة الآشورية ونصبوا بدلا منه رجلا آخر فجرد الملك الآشورى حملة تأديبية على البابليين للسياسة الآشورية ونصب على العرش البابلى ملكا كشيا آخر من أقرباء الملك المقتول •

خلفاء آشور ـ اوبالط :ـ

سارت الدولة الآشورية فى نموها وتوطيدها ثم توسعها فى عهد الملوك الذين خلفوا هذا العاهل الآشورى العظيم وكان اكثر هؤلاء الخلفاء من طراز مؤسس الدولة حيث اتبعوا السياسة الحكيمة فى تقوية المملكة دون الدخول فى مغامرات حربية وفتوحات جديدة تستنزف قوى الدولة ، فنهجوا على نهجه وعمل بعضهم على توسيع سلطان الآشوريين الى جهات الشرق الاوسط فنشأت بذرة الامبراطورية الآشورية التى [illegible]

فيما بعد منذ القرن التاسع قبل الميلاد . وكان اول هؤلاء الذين حملوا «اشور ـ اوبالط» «ابليل ـ نراري» و «ادد ـ نراري» الاول ثم شيلمصر الاول .

كان «شيلمصر الاول» (١٢٦٦-١٢٤٣ ق . م .) من مشاهير ملوك هذا العهد ويعد بحق من اعاظم الملوك الاشوريين ولا سيما في حقل التوسع والفتوح الخارجية بعد ان توطدت شؤون المملكة وقد خلد شهرته وذكر اعماله المجيدة الملوك الآشوريون الذين أتوا من بعده . وعندما اتسعت رقعة المملكة ادرك هذا الملك تعذر ادارتها من العاصمة الاشورية القديمة «آشور» فاسس له عاصمة جديدة هي «كالح» (وتسمى حراتها الآن نمرود) .

ومما يذكر امر المملكة الآشورية ان جاء الى العرش الاشوري بعد شلمصر خليفة كفوء هو ابنه «توكلتي ـ نورتا» الاول (١٢٤٣ ـ ١٢٢١ ق . م .) الذي نهج على سيره أبيه في نشر السيطرة الآشورية وتوسيع حدود المملكة وتوطيد شؤونها . وقد ضم المملكة البابلية الى التاج الآشوري بعد حرب اجتاحه شنها على الملك البابلي «كاشتلياش» فصار بذلك يلقب نفسه «ملك سومر واكد» وقد خلد هذه الحادثة المهمة بان شيد مدينة جديدة قبالة آشور سماها باسمه أي «كار ـ توكلتي نورتا» . ولكن حدثت فترة انكماش من بعد هذا الملك اذ اضطرب الامر في البلاد الآشورية وثار عليه ابنه وقتله فابتدأ عهد انحطاط وركود تقلصت فيه حدود المملكة وجاء ملوك ضعاف دام عهدهم زهاء النصف قرن (١٢٣٢-١١٧٥ ق . م .) فانتهزت البابل هذه الفرصة وثارت على السلطة الآشورية ولم تكتف بأخذ استقلالها وتخلصها من النفوذ الآشوري بل انها عكست الآية وفرضت نفوذها على البلاد الآشورية زمنا ما .

وبعد فترة الانكماش هذه انتعشت أحوال المملكة الآشورية وجاء الى العرش ملوك أكفاء بدأوا يعيدون الى المملكة مجدها السالف أشهرهم

«تجلاتلسر» الاول (١١١٧-١٠٨٠ ق ٠ م ٠) الذى كان فاتحا من الطراز الاول فأصبحت المملكة الآشورية فى زمنه ، بنتيجة فتوحه الخارجية من الدول المعظمة فى الشرق القديم فقد مد فتوحه فى جهة الشمال الى بحيرة «وان» وصم بلاد الارمن الى المملكة الآشورية ٠ وامتدت رقعة الامبراطورية فى جهة الغرب الى سواحل البحر المتوسط ٠ وقد خلف لنا هذا الملك الآشورى أخبار حروبه وفتوحه مدونة تدوينا مفصلا ، ولم تقتصر أعماله على الحروب بل شملت مشاريع عمرانية مهما تعمير العاصمة الآشورية القديمة (آشور) التى ادخل اليها واتخذها مقر امبراطوريته ٠ وقد خلف لنا هذا الملك عن حكمه سجلات ملكية مفصلة ٠

ولكن لم يكد ينتهى عهد الملك «تجلاتبليزر» الاول حتى وجد الآشوريون أنفسهم ازاء أعظم ما مر عليهم من الاخطار الخارجية وهم فى دور البناء والتوسع السياسى ٠ وقد جاءهم هذا الخطر من القبائل الآرامية الكبيرة التى بدأت تغزو جهات الشرق الادنى وتثبت أقدامها وتؤسس لها دويلات فى الاقسام الشمالية من العراق وفى جهات سورية ، فاصطدموا بالنفوذ الآشورى وهددوا كيان الآشوريين بالزوال فجرى بين المعسكرين نزاع رهيب شعل الآشوريين طوال قرنين من الزمان (القرن الحادى عشر والقرن العاشر) فعمل هذا الخطر على تدهور الدولة الاشورية وتقلص حدودها فى أولى أطوار النزاع وهو الذى شمل حكم أحد عشر ملكا خلفوا «تجلاتليزر» الاول ، وقد دام هذا العهد المضطرب من حدود ١١٠٠ الى حكم آشورداان الثانى (٩٣٣-٩١١ ق ٠ م) ٠

اتجهت القبائل الآرامية فى اسبطانها فى بقاع الهلال الخصيب ثلاثة اتجاهات ، فقد حل فرع منهم فى وسط البلاد الشامية وشرقها من دمشق الى حماه ، وقد كون هذا الفرع فيما بعد دويلات تجارية اردهرت ولكنها اصطدمت بالنفوذ الآشورى منذ القرن التاسع ق ٠ م كما سيمر بنا ٠ واستوطن فرع ثان من الآراميين جهات الفرات الاوسط والمراعى والاراضى

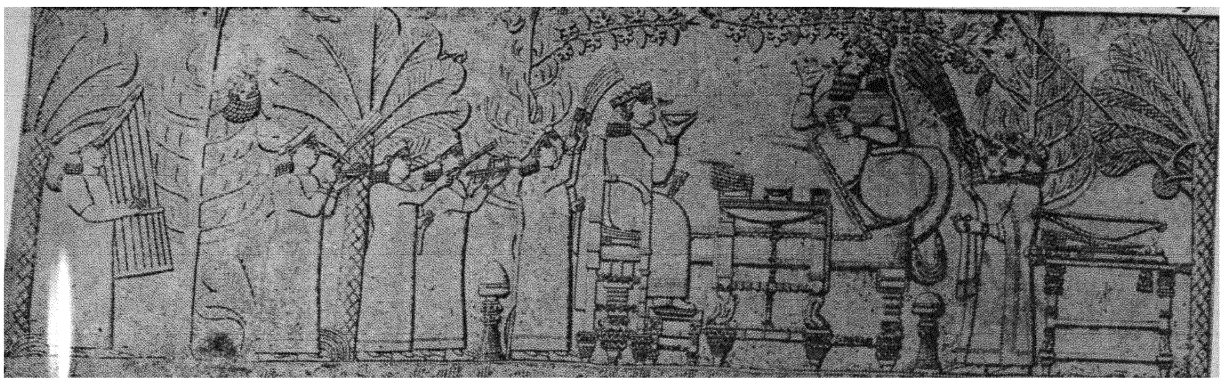

نموذج من المنحوتات الآشوربه البارزه التى كانت تزين قصور الملوك
الآشوربن . وتبين الصورة احد الملوك الآشوريين فى مجلس
شراب عائلى مع زوجته ، وفوق رأسه تتدلى الكروم

فى شمال ما بين النهرين وكان هذا الفرع هو الذى اصطدم به الاشوريون فى أول الامر بعد عهد «تجلاثبلسر» الاول فصبر على الآشوريين وهدد مملكتهم بالزوال • وبالاحمال كان هذا العهد من أخطر ما تعرض له الآشوريون فى تكوينهم السياسى ، وكان أول القرنين اللذين شغلا بالحروب والكفاح بين الآشوريين والآراميين أخطر واطلم عهد مر على الاشوريين وبدأوا فى القرن الثانى وهو القرن العاشر سبعون الصعداء قليلا • وما انهى هذا القرن الا والآشوريون فى عهد من البأس والقوة مكنهم من صد هذا الخطر الجسيم وظهر منهم ملوك عظام تولوا هذا الصراع الرهيب وحرجوا منه ولهم امبراطورية معظمه تطلب تكوينها طوال القرن التاسع ق • م وهو القرن الذى انقلبت فيه الكفه على الدول الآرامية فى شمال العراق وعلى الدول التى انشأها الآراميون فى سورية • ويدخل هذا القسم من التاريخ الآشورى فى العهد الذى سميناه بالعهد الحديث الذى سيأتى الكلام عليه • وملخص ما يقال عن الصراع بين الآشوريين والآراميين انه يمكننا تقسيمه الى دورين :ـ (١) ففى الدور الاول كان محصورا بين الآشوريين والآراميين الساكنين فى الفرات الاوسط وأراضى ما بين النهرين، ويشمل هذا الطور العهد الآشورى الوسيط وبداية العهد الآشورى الحديث • (٢) وفى الدور الثانى : بعد قضاء الآشوريين على الخطر الآرامى الآتى من المحاورين لهم ، توجهوا الى ضرب الآراميين الذين استوطنوا ديار الشام وكونوا دويلات فى دمشق وحلب وحماه وغيرها ، وقد وقع الصراع منذ بداية العهد الآشورى الحديث الذى سنوجزه فى الفصل الآتى •

الفصل العاشر

العهد الاشوري الحديث

والامبراطورية الاولى

لقد رأينا كيف تفاقمت الاخطار في أواخر العهد الآشوري الوسيط ولا سيما الضربة التي أنزلت بها تجلاثبلاسر الاول ، ومما زاد في الطين بله حلول القحط والجوع في البلاد الآشورية علاوة على الاخطار التي كانت لا تزال تهددها من ضغط القبائل الآرامية ، وفي وسط هذه الازمة المظلمة ظهر من الآشوريين رجل يصح أن نعده رجل الساعة . وكان هذا «آشور ـ دان» الذي كان على شيء من القوة والحكمة فتدارك انهيار المملكة الآشورية وبدأ بالجيش وجند الشعب الآشوري واستطاع أن يحفظ بالبقية الباقية من المدن الآشورية الرئيسية ، فمهد هذا الملك لبدء عهد جديد وأسس سلالة جديدة ، وخلفه على العرش الآشوري ابنه «ادد ـ نراري» الثاني (٩١١ ـ ٨٩٠ ق . م) الذي اعتبرنا حكمه نهاية العهد الوسيط وبداية عهد جديد في تاريخ الآشوريين[1] . وقد دام هذا العهد حتى نهاية الآشوريين السياسية في العام ٦١٢ وهو العام الذي سقطت فيه نينوى أي انه دام زهاء ثلاثة قرون من ٩١١ حتى ٦١٢ ق . م . وقد بلغ الآشوريون من القوة العسكرية درجة مكنتهم من ان يسيطروا على حياة الشرق طوال هذه القرون الثلاثة وكونوا امبراطورية معظمة كانت اعظم واوسع ما مر بنا

(١) ومما يذكر عن عهد هذا الملك بالنسبة الى التاريخ الآشوري والمعنيين الآشوري ان الكتبة الآشوريين قد بدأوا منذ حكمه يدونون ما يعرف في التاريخ الآشوري باسم «انبات اللمو» أي تاريخ كل سنة بحكم موظف كبير ابتداء من تبوأ الملك الجديد عرش المملكة وهذا من جملة الاسباب الاخرى لجعل عهد هذا الملك بداية دور جديد في التاريخ الآشوري .

من الامبراطوريات فى تاريخ العراق والشرق القديم ، وقد شغل أوائل الملوك من هذا العهد فى ازالة الخطر الآرامى من جوار الآشوريين فقصوا على الممالك الآرامية القريبة وضموها الى المملكة الآشورية • ولم يكتف الآشوريون فى ذلك بل وسعوا فى القرن التاسع فتوحهم وبدأوا بالقضاء على الدويلات الآرامية الاخرى فى انحاء سورية وسيطروا على الاقوام والاراضى التى كانت تهددهم فى الشمال والشرق • كما ان المملكة البابلية قد ضعف أمرها واصبحت اشبه ما تكون بالمحمية تحت نفوذ الملوك الآشوريين • ولم يكد ينتهى القرن التاسع ق • م الا والامبراطورية الآشورية تشمل جميع الشرق الادنى ودخلت بلاد مصر فى حوزتها فى القرن السابع • وقد عملت هذه الامبراطورية على نشر حضارة العراق ممثلة بالحضارة الآشورية •

ويمكننا تسهيلا للبحث ان نقسم العهد الآشورى الحديث الذى بدأه «ادد ـ نرارى» الى حقبتين قامت فى كل منهما امبراطورية آشورية معظمة • فالامبراطورية الاولى هى التى وضع أسسها «ادد ـ نرارى» واستمر خلفاؤه فى بنائها وتوطيدها وقد دامت من نحو ٩١١ الى ٧٤٥ ق•م• أى انها دامت زهاء القرن ونصف القرن ويمكن تحديدها بالنسبة الى الملوك من حكم «ادد ـ نرارى» الثانى حتى بداية حكم «تجلاثبليزر» الثالث • وتشمل الامبراطورية الثانية القيه الباقية من التأريخ الآشورى أى من ٧٤٥ الى ٦١٢ ق • م • فلنرجم بايجاز الملوك المشهورين من زمن الامبراطورية الاولى وهم الملوك الذين خلفوا مؤسس الامبراطورية «ادد ـ نرارى» الثانى •

(١) «توكلتى نورتا» الثانى (٨٩٠ ـ ٨٨٤ ق • م •)

خلف أباه «ادد ـ نرارى» الثانى على العرش الآشورى وسار على خطاه ووسع حدود المملكة ووطدها وقد عمل هو والملوك الذين خلفوه من ملوك الامبراطورية الاولى على فرض السيادة الآشورية الدائمة على ممالك

الشرق القديم المحاوره فصار من مسلمات السياسه الآشوريه الحربيه اخضاع القبائل الحلية فى الشمال والشرق ضمانا لسلامة الامبراطورية فأقيمت حصون وحاميات عسكرية فى النقط الموقعه المهمه فى الحدود وعلى هؤلاء الملوك كذلك بالسيطره على الطرق الحربية ـ التجارية المهمة التى كانت تربط أجزاء الشرق الادنى القديم مها الطرق المهمة المتجهة غربا المارة بمنطقة الخابور الى سورية الشمالية[1] . وكذلك الطريق المتجهة شمالا الى حبال طوروس والى كدويه ، والطريق المارة بادية الشام . وكانت المحافظة على هذه الطرق تستلزم اخضاع الاراضى والقبائل المحيطة بها ، وعلى هذه السياسة سار الملك «بوكلى ـ شورما» . ومن الطريف فى أخبار هذا الملك الآشورى انه قام برحلة عسكرية لكى لا يبقى الجيش عاطلا ولايقاع الرعب فى نفوس الاقوام المحاوره للآشوريين . وقد بدأ بسيره العسكرى من عاصمته واتجه غربا لتمكين السلطان الآشورى بين القبائل الآرامية ثم رجع وسار الى جنوبى العراق معيدا فرض النفوذ الآشورى على البابليين . وقد دونت هذه الرحلة مفصلة فى أخبار الملك الرسمية وهى على قدر كبير من الاهميه التأريخيه ولا سيما ما يخص جغرافيه الشرق القديم[2] .

(٢) «آشور ناصر بال» الثانى (٨٨٤ ـ ٨٥٩ ق.م.)

وقد خلف اباه «بوكلى ـ شورما» انسانى على العرش الآشورى . واتسعت فى عهده حدود المملكة الآشوريه وتوطد سلطانها على الاقليم التابعة . وقد خلف لنا هذا الملك أخبار حملاته وغزواته الحربية واعماله

(١) لقد كانت هذه الطريق من الطرق المهمه الرئيسه منذ أقدم العصور التأريخيه اذ كانت تربط كذلك القسم الجنوبى من العراق بسوريه الشمالية وقد أسس الاكديون مواضع لحمايه هذه الطريق كما اظهرت نتائج التنقيبات فى الموضع المسمى تل براك .

(٢) انظر
Luckenbill, **Ancient Records of Babylonia and Assyria).**

الاخرى مدونة بالتفصيل فى كتاباته الرسمية وكان اشهر ما انجزه من حملات حربية تلك التى جردها على القبائل الجبلية الى شرق دجلة وحملاته الى جهة الغرب لتمكين السلطان الآشورى على القبائل الآرامية ، ولا سيما الدول الآرامية الممتدة على ضفة الفرات اليسرى . وقد حدد بناء العاصمة القديمة «كالح» وجعلها مركزا عسكريا مهما ، وقد كشف عن اعماله وبعض قصوره وآثاره المهمة فى السنوات الحديثة التى اجرتها البعثة البريطانية فى النمرود (كالح) (١) .

(٣) شلمنصر الثالث ٨٥٩ ـ ٨٢٤ ق . م .

وهو ابن «آشور ناصربال» وخلفه على العرش الآشورى . وقد ورث عن ابيه امبراطورية واسعة برهن على انه كفوء للقيام بالمحافظة عليها وتوطيد أمورها بل واتساعها وكان حكمه الذى دام خمسة وثلاثين عاما سلسلة حملات حربية مهمة جعلته سيد آسية الغربية من خليج فارس حتى جبال أرمينية شمالا ومن تخوم الاراضى المادية حتى سواحل البحر المتوسط . وقام كذلك بحملة حملات على الدويلات السورية . ولعل أهم حملاته تلك التى وجهها الى الشمال الى بلاد ارمينية (٢) نحو مرتين ومن أحداث هذا الملك المهمة انه قام برحلة الى ينابيع دجلة والفرات (٨٤٥ ق . م) . كما ان بلاد بابل صارت خاضعة للنفوذ الآشورى . وفى الموقعة الشهيرة التى وقعت فى القرقار (عام ٨٥٣) فى بلاد الشام يذكر اخبار هذا الملك اسم العرب لاول مرة فى التاريخ حيث انضم الى حلف الدويلات السورية بعض القبائل العربية فى

(١) انظر نتائج الحفريات منذ عام ١٩٥٠ فى مجلة Iraq)

(٢) كانت تكون حلف حبال أرمينية قوة مهمة من السكان الذين اطلقوا على أنفسهم اسم «هالدينى» أو «خالدين» وسموا بلادهم « بلاد . أما الآشوريون فقد سموها «أورارتو» ومنها كلمة «آرارات» الواردة فى التوراة بكونها الجبال التى استقرت فيها سفينة نوح (سفر التكوين ٨ ٤)

حول تفصيل هذه الحرب والمصادر الرئيسية انظر
(Olmstead, **History of Assyria**, (1923), pp 110 ff)

بادية الشام • وقد دونت اخبار حملاته الحربيه فى مسلته المشهوره بالمسلة السوداء حيث دون فيها حملاته الحربية منذ ان تولى العرش حتى السنة (٣١) من حكمه وقد نقشت عليها صور الملوك والامراء الذين أدوا للملك الجزية وخضعوا للنفوذ الآشورى وهى الآن من انفس الآثار فى المتحف البريطانى ، وصورت مشاهد من حروبه فى صفائح البرونز التى عثر عليها فى موضع «بلاوات» (وهى مدينة امكر ـ انليل القديمة) وكانت هذه الصفائح اغلفة لابواب المدينة •

ضعف الامبراطورية الآشورية الاولى

لقد حدث فى السنين الاخيرة من حكم شيلمنصر الثالث ما عكر عليه حياته فقد ثار عليه احد امرائه الذى استطاع ان يستميل الى جانبه معظم المدن الاشوريه فعرض المملكة الاشورية الى الانهيار اذ نشبت حرب اهليه دامت رهاء ست سنوات مات فى خلالها شيلمنصر والنزاع لا يزال مستمرا • فاستأنف الكفاح ابنه الآخر «شمسى ـ ادد» الخامس وارث العرش الاشورى ، وحارب هذا الثوار سنين ووفق فى نهاية الامر الى القضاء عليهم ومع ذلك فقد ستت هذه الحروب الاهلية اضعاف الامبراطورية وضياع النفوذ الآشورى فى الاقاليم التابعه التى انتهزت فرصة الحرب الاهلية فاستلحت عن سلطان الدولة الآشورية فكان الزمن الواقع من بعد شيلمنصر الثالث الى تأسيس الامبراطورية الثانية فترة ضعف فى المملكة الآشورية دامت رهاء الثمانين سنة أى من ٨٢٤ الى ٧٤٥ ق • م •

لقد خلف الملك «شمسى ـ ادد» الخامس ابنه الصغير «ادد ـ نرارى» الثالث فصارت أمه الملكة وصية على العرش (٨١١–٨٠٨ ق • م) واشتهرت هذه الملكة فى المصادر الاغريقية باسم «سميراميس» المحرف عن اسمها الآشورى «سمو ـ رمات» أو «شميرام» وذكرتها الاساطير الواردة فى مصادر الاغريق بانها كانت ابنة الهه نصفها سمكة ونصفها الآخر حمامة [illegible] عسقلون • وبعد ان ولدت ابنتها «سميراميس» تركتها

UNIVERSITY LIBRARY

فأخذها طير الحمام وصار برعاها[١] فعثر عليها كبير رعاة الملك فرباها ولما كبرت تزوج بها حاكم مدينة نينوى المسمى «أونيس» غير ان الملك «نينوس» أحبها فأكره زوجها على ان تتخلى عنها فانتحر زوجها فتزوجها الملك واصبحت عنده ذات مقام رفيع وعظم نفوذها فى المملكة وتضيف القصص الاغريقية الى هذه الاسطورة ان هذه الملكة استعطفت زوجها فى أحد الايام بأن يتوجها عرش المملكة ولو مدة خمسة أيام ففعل زوجها ذلك ، ولكنها لم تكد تصير ملكه حتى أرسلت زوجها الى السجن أو انها قتلته بحسب رواية أخرى وبهذه الوسيلة استأثرت بالملك وحكمت أكثر من أربعين عاما • وقد عثر على بعض الآثار الآشورية فيها بعض الاخبار عن هذه الملكة •

وخلف الملك «أدد ـ نرارى» الثالث «شلمنصر الرابع» (٧٨٢-٧٧٣ ق • م) الذى ازداد فى عهده تدهور المملكة الآشورية • واستطاعت بلاد بابل أن تستقل وتحرأت القبائل الآرامية وبدأت تضغط على المملكة الآشورية من حدودها الشمالية فاتخذ الملك الاشورى موقف الدفاع • وتفاقم ضعف المملكه فى زمن الملك الذى خلفه وهو «آشور ـ دان» الثالث (٧٧٢-٧٥٤ ق•م) ومما زاد فى اضطراب الامور ان تفشى فى زمنه طاعون عظيم فتك بسكان المملكة • وقد حدث فى حكمه كسوف الشمس وكان هذا من الحوادث المهمة التى يسطير منها الآشوريون ولا سيما حدوثها فى ابان طاعون وكانت هذه الحادثة من أهم الحوادث الأرخية التى قلنا انها اتخذت اساسا لضبط التقويم الآشورى اذ امكن بالحساب الفلكى الدقيق ارجاع هذا الكسوف الى حزيران عام ٧٦٣ ق • م فصارت نقطة يقاس منها تسلسل التأريخ الآشورى واستعين بها كذلك لضبط التقويم البابلى بالاستعانة بحوادث من التأريخ البابلى عاصرت ما يماثلها من التأريخ الآشورى •

---

(١) ومما يجدر ذكره بهذا الصدد ان الاسم «سمو ـ رمات» مركب من كلمتين الاولى «سمو» ومعناها (الحمامه) «ورمات» ومعناها (المحبوبة) فيكون معنى اسم الملكه «محبوبه الحمام» •

واستمر الدهور والضعف فى جسم المملكة فثارت مدينة أشور على هـذا الملك فخلع وصار بدله ابنه «ادد ـ نرارى» الرابع وخلفه ملـك آخر هو «آشور ـ نرارى» الخامس وكـان رئـ ن العهود المظلمـة فى تأريخ الآشوريين اذ اسمر الدهور وتقلص المملكة الى اصغر حدودها واقتطعت منها الدولة الارمنيه فى الشمال كثيرا من الاراضى • وسنابع مصير المملكة الآشورية فى العهد الجديد وهو عهد الامبراطورية الثانية •

الامبراطورية الاشوريه الثانية

(٧٤٥ ـ ٦١٢ ق • م)

تجلاتبلاسر الثالث (٧٤٥ ـ ٧٢٧ ق • م)

اسهم الايام السود التى حلت بالمملكة الآشورية بثوره أهلية قامت بها مدينه «كلح» (نمرود الآن) على الملك الآشورى «آشور ـ نرارى» الخامس آخر ملوك العهد الاول ، أى عهد الامبراطوريه الاولى ، فعمل الملك وتولى زمام الامر «تجلاتبلاسر» الثالث الذى بدأ عهدا جديدا فى تأريخ الآشوريين تكونت فيه آخر واعظم امبراطورية آشوريه بلغت من اتساع الرقعة والعظمه مبلغا صارت فيه سيده الشرق القديم مدة مائة عام • فكانت أوسع امبراطوريه فى تأريخ العراق القديم • وقد اصبحت سلطتها وادارتها نموذجا احتذته الامبراطوريات التى جاءت من بعدها ، ومن الجهه الاخرى كانت آخر حياه الآشوريين السياسة •

اما لا نعرف شيئا مؤكدا عن أصل مؤسس هـذا العهـد الجديد أى «تجلاتبليزر» الثالث ، ولا سيما أمر نسبه وعلاقته بالملوك السابقين ولعله كان أحد القواد العسكريين أو حاكم أحد الاقاليم انتهز فرصة الثورة والاضطراب الداخلى فاضطلع بمهمه تخليص البلاد من الدهور والمملكة من الزوال ولا يبعد أن يكون قد اشترك فى الثورة أو انه الثائر نفسه •

على عرار قصور نابل ، وله مدخلان أحدهما يواجه المدينة والآخر معقود على هيئه قوس ويرتبه الثيران المجنحة • وان ما اكتشف فى مدينة سرجون وقدره مكنا من معرفة مبلغ ما وصل اليه فن البناء والنحت وسبك المعادن وصناعه الرجاج وغير ذلك من فنون المدنية فقد ريت جدران القصر بألواح منحوته من الحجر بلغ مجموع طولها حوالى الميل الواحد • أما النحت المجسم فقد كان قليلا بالنسبة الى المنحوتات البارزه • ان ذلك باستثناء الثيران المجنحه التى عثر على ما يقارب الـ ٢٦ واحـــداً منها يزن كل منها حوالى الاربعين طنا • أما التصوير على الجدران فقد حفظت منه نماذج فى قصر سرجون ، ووجدت نماذج من الزخارف المنقوشة على الآجر المزين بالميناء من بينها أشكال ثيران وأسود وصور لها شبه بالاشكال التى تزين شـــارع الموكب فى بابل فى عهد نبوخذ نصر الثانى • ومن الاشياء المهمة التى زودتنا به «دور ـ شروكين» المهارة الفائقة فى سبك المعادن ، ولا سيما سبك البرونز الذى صنعت منه أشكال مجســمة كالاسود • وعثر فى مخزن القصـــر على أدوات وآلات من الحديد بلغ وزنها حوالى ٢٠٠ طنا •

أكمل سرجون بناء عاصمته الجديده فى مده سبع سنين (٧١٣ ـ ٧٠٦ ق • م) ولكن لم يتمتع بالعيش فيها زمنا طويلا اذ انه مات فى السنة التالية ٧٠٥ ق • م • وقد تركها وبعض أجزائها غير كاملة وبعد وفاته لم يكتف خلفاؤه بهجرها والانتقال الى نينوى ، بل انهم شوهوا كثيرا من المنحوتات التى كانت تزينها ، وبدلوا بعضها الى قصورهم ، فطمست معالمها ، ولكن اسمها ظل فى ذاكرة الاجيال المتأخره ، فقد عرف العرب اسم «سرغون» وشـــوه الساسانيون اسم المدينة وأطلقوا عليها «خسرو آباد» أو مدينة «خسرو» ومن هنا جاء اسمها المحرف الحالى أى «خرسباد» أو «خورصباد» •

خلفاء سرجون

١ ـ ســنحاريب

ومهما يكن من أصل هذا الملك فان ما انجزه من الاعمال المجيدة الى انقذ المملكة الاشورية من الانحلال والانقراض واعادتها الى سالف قوتها وعزتهـا جعله فى بابة اعاظم الملوك الاشـوريين • وقد يصح ان نتخذه نموذج العاهل الآشورى العظيم الذى طلع وسماء الآشوريين مظلمة فاتخذ من المحن حافزا لنبى قومه فاستحث فيهم القوى الكامنة ووجهم الى الفتـح والقوة •ولقدوفق بحلائملزر فى خلال مده حكمه الى لم تزد على الـ ١٨عاما لبس فى اعاده الامبراطورية الى حالها الاول فحسب بل فى جعلها اكبر مما كانت عليه وادا تذكرنا ما وصلت اليه من الدهور والانهيار ادركنا مبلـغ مقدره هذا العاهل العظيم ومكانته فى التأريخ الآشورى وقد خلفه فى الحكم ابنه «شلمنصر» الخـامس الذى لم يـدم حـكمه اكثر من خمس سـنين (٧٢٧ – ٧٢٢ ق • م) وقد سمى منحى ابيه بحاه العرش البابلى حيث توج نفسه ملكا على بابل وعرفه البابليون باسم «اولولو» كمـا ورد فى اثبـات ملوكهم ، وذكر المؤرخ اليهودى «يوسفوس» ان شلمنصر حاصر مدينةصور واخضعها بعد ان ثار عليه • وفى حكمه حرض ملك مصر الملك الاسرائيلى «هوشع» الذى كان تابعا للآشوريين على الثورة فحرد عليه الملك الآشورى حملة لتأديبه • فحوصرت عاصمة مملكة اسرائيل «السامرة» مدة ثلاث سنين، حدث فى بهايتها ثوره فى داخل المملكـة الآشورية حول العرش ومـات شلمنصر وتم بيده فتح مدينة السامره ، واكمل فتحها سرجون مؤسس السلالة السرجونية التى سيأتى الكلام عليها •

السلالة السرجونية

سميت هذه السلاله الجديدة بالسلالة السرجونية نسبة الى مؤسسـها سرجون الثانى (شروكين ـ الملك الصادق) الذى جاء الى العرش الآشورى بعد شلمنصر الخامس ولا نعرف شيئا مؤكدا عن أصل سرجون الثانى ، ولعله كان دعيا وغاصبا للعرش • حكم سرجون ثمانية عشر عاما تكاد تكون كلهـا سلسلة حروب وحملات عسكرية خارجية •

بابل وعيـــلام

لقد رأينا فيما سبق ما آل اليه أمر المملكـــة البـــابلية بعد أن ضعف مركزها الدولى منذ منتصف العهد الكشى وكيف ان الآشوريين بسطوا أولا نفوذهم عليها وارداد هذا النفوذ ودخل طور فرض السيطرة بعد نهاية العهد الكشى ثم ان السياسة الآشورية اتجهت من بعد ذلك الى دمج مملكة بابـل بالمملكة الآشوريه وقد أخذ بعض الملوك الآشوريين التاج البابلى لانفسهم ، كما فعل تجلاتبليزر وشيلمنصر الخامس ، ولعل هذه السياسة الجديدة قد توخى منها الآشـوريون مصالحـة البابليين بجعل المملكتين مملكة واحدة يحكمها الملك الآشورى نفسه ولا يخفى ما لذلك من نفوذ يحميه الآشوريون لما كان يتمتع به بابل من مركز ومجاد فى جميع انحاء الشرق الادنى ومع ذلك فلم توفق هذه السياسة الجديدة التوفيق كله فيما رمت اليه ، اذ لم يكن هينا على بابل ان تفقد شخصيتها واستقلالها وتنسـى مركزها فى أيام سـرجون وحمورابى فظلت تترقب الفرص للانسلاخ من السلطة الآشورية ، فتعقدت المسألة البابلية من جديد وصار على الملوك الآشوريين ان يجدوا حلا آخر لها وقد تفاقم الامر عندما اصبحت بابل مركزا للثوار ومؤامرات الطامحين فى العرش من الكلدانيين ، ووراء كل ذلك بلاد عيلام الطامعة بالبلاد فكـــانت تساعد الثائرين مرة بالتحريض وحينا باشتراك جيوشها لمساعدة البـابليين على السلطه الآشورية وعندما ضعفت المملكة الآشورية نوعا ما فى أواخر أيام شيلمنصر الخامس انتهز هذه الفرصة أحـد اولئك الطامعين بالعرش البابلى وهو «مردوخ بلاداى» الكلدانى (المذكور فى التوراة) فزعم القـــوم ووحد القبائل الكلدانية للثورة على الآشوريين . وقد نشط هذا الثائر فى بداية حكم سرجون فعاهد العيلاميين وحصل منهم على مساعدة عسـكرية فحدى سلطة الآشوريين بان هجم على بابل نفسها فى السنة التى تتوج فيها سرجون وصار ملكا على بابل فى العام ٧٢١ ق . م فعزم سرجون على تأديب الثائر فقاد حملة بنفسه وسار لمنازلة العيلاميين فى مدينة «الدير» (القريبـة

من بدرة الآن) وقد جاؤا من ايران (اقليم حوزستان) لمساعده حليفهم «مردوح بلادان» الذى لم يحضر فى الوقت المناسب فالتحم الاشوريون بالعيلاميين. أما سيجة المعركه فلا سفى فيها المصادر البابلية والآشورية . فالاولى تؤكد اندحار سرجون والثانية انتصاره . ولعل الواقع من الامر ان سرجون فضل الانسحاب لمشاغل أخرى طرأت وان لم ينتصر أحد الخصمين على الآخر . ومهما يكن من أمر فالذى نعرفه بوجه التأكيد ان (مردوخ بلادان) قد ظفر بالتاج البابلى وتمتع بالسلطة فى مملكة بابل زهاء عشر سنين ولم يسن لسرجون ان يعيد منازله الا فى العام ٧١٠ ق . م وذلك بعد انتهاء حملاته فى العرب أى فى ديار الشام . فالتجأ «مردوخ بلادان» فى هذه المرة الى حلفائه العيلاميين يستجدهم ولكنه على ما يبدو لم يستطع ان يحصل من الملك العيلامى على مساعده عسكرية ، وعندما اقترب الملك الاشورى من بابل انهزم «مردوخ بلادان» والتجأ الى منطقة الاهوار فى الجنوب . ومما يدعو الى العجب ان سرجون عمر للثائر ونصبه حاكما على احدى الولايات الجنوبية المسماة «بيت ياكينى» وقد توج سرجون نفسه ملكا على بابل محتذيا مثل تجلاتبليزر وشيلمنصر . وبذلك حلت المشكلة البابلية حلا وقتيا فى ايام سرجون واستب الهدوء والسلام فى بلاد بابل طوال ايام حكمه الباقية .

وقد عنى سرجون بشؤون الاقاليم الشرقية والشمالية الشرقية وخصص لها قسما من نشاطه العسكرى . وكان يحكم فى ارمينية «اورارطو» فى زمنه ملك قوى الشكيمة اسمه «روساس» ولكى يأمن هذا شر تدخل الآشوريين اخذ يثير الاقوام المناجمه الى المملكة الآشورية على الثورة وشق عصا الطاعة فحارب سرجون هذه الاقاليم وتمكن من اخضاعها وحارب الارمن واوقع الهزيمة فى جموعهم ونكل بهم تنكيلا شنيعا حتى انه سلخ جلود بعض أمرائهم وهم أحياء وعلى الرغم من الضربة القاصمة لم تخضع بلاد الارمن خضوعا دائما مما جعل الحرب بينها وبين الآشوريين سجالا زهاء خمس سنين انتهت بالقضاء على ملكهم المسمى «روساس» .

وحهر سرحون حملات حربية على القبائل الفريجيه فى تخوم «كيليكية الغربيه» التى كانت تدفع الجزية الى الآشوريين فبدأ باخضاع هذه القبائل منذ عام ٧١١ ق ٠ م ويرجح كثيرا ان ملك حريرة «قبرص» أرسل الى سرحون الجزية ، واعل قسما من الجيش الآشورى قد دخل الجزيره ٠

وقد سبق ان رأينا كيف ان الملك «شيلمنصر» الخامس قد مات ولم تستسلم له السامرة عاصمة مملكة اسرائيل فتولى أمر الفتح «سرجون» وبعد أن فتحها انهى حياه المملكة الاسرائيلية الشمالية وكان ذلك فى حدود (٧٢١ ق ٠ م) ونقل كثيرا من سكانها أسرى ، وبعد ان فرغ سرحون من السامرة وجه همه الى الدويلات الغربية فى بلاد الشام ، وقد الفت هذه الدويلات فى زمن سرحون حلفا تحريض ملوك مصر ومساعدتهم ، ومما يجدر ذكره بهذا الصدد ان مصر عندما ضعف أمرها منذ نهايه الامبراطورية فيها فى القرن الحادى عشر ق ٠ م لم تستطع ان تتدخل فعليا فى بلاد الشام التى كانت تابعة الى الامبراطورية ، وعمدت بدلا من مبارلة الآشوريين وجها لوجه الى تحريض البلاد السوريه على الدوام اذ كانت تخشى كثيرا من تمكن جيوش الآشوريين فى البحر المتوسط لان ذلك يهددها تهديدا مباشرا وبعد ان تألف هذا الحلف الجديد فى زمن سرحون من مدينة حماة وغزة ودمشق. وغيرها من مدن الشام المهمه حهر سرحون حملة عسكرية قوية استطاع بها ان يدحر قوات المتحالفين ويقضى عليها واسر بعض الملوك المتحالفين ٠ فاردادت الخطر على الدولة المصرية فأرسلت جيشا لمساعدة ملك غزة ، ويرجح أن يكون الجيش بقيادة الفرعون نفسه فتصادم الجمعان قرب مدينة «رفح» (الذى ورد ذكرها بهيئه رفحو فى المصادر الا شورية) على الحدود المصرية الفلسطينية فاندحر المصريون والعربون واسر ملكهم وفر القائد المصرى وبعد أن قضى سرحون على تدخل المصريين فى شؤون سورية وفلسطين ، وجه حملات على بعض القبائل العربية ممن رفضت تأدية الجزية له ، وكانت هذه القبائل تقطن فى بادية الشام بالدرجة الاولى ٠ وقد بدأت حملاته على

هذه القبائل منذ ٧١٥ ق . م ولعل الهدف الحقيقى من حملاته الحربيـــة هذه كان تأمين طرق المواصلات التجارية والحربية الماره بسوريه وكان بعض هذه الطرق تصل الى اليمن وحضرموت وقد ذكر سرجون بعض القبائل التى اخضعها مثل «ثمود» وموطنها شـــمالى الحجـــاز بالحجر ووادى القرى وقبيلة وردت باسم «عباديدى» الساكنة فى البادية والتى كما وصفهـــا ســـرجون «لاتخضع لسلطان» فحاربه القبائل حتى ان الملكة «شمسى» (شمس أو شمسية) فى البادية الشماليه أدت له الجزيه .

خرسباد ـ مدينة سرجون

لم يستقر سرجون فى عاصمه واحده . اذ اتجه فى أول حكمه مدينة آشور عاصمه له ، ثم انتقل منها الى (كالح) «نمرود» وفى منتصف حكمـــه اتجه نحو عاصمه له ، وأخيرا فى السنة التاسعة من حكمه أى عام ٧١٣ ق . م شرع فى تأسيس عاصمه جديده سماها «دورشروكين» أى مدينة سرجون وقد اختار لها موضعا فى قريه كانت تسمى «مكانبا» الى الشمال الشرقى من نينوى وهى «خرسباد» الحاليه التى تبعد حوالى ١٦ كيلو مترا شمال نينوى . وقد بنى هذه العاصمه على هيئة مربع سلع طول ضلعه حوالى ٢٠٠٠ ياردة أو ١٧٦٠ × ١٦٧٥ مترا . أى سلع مساحتها حوالى الميل المربع . وكـــان يدخل الى المدينه بطريق مبلط عرضه اربعون قدما . ويحيط بالمدينة سور دو أبراج بلغ على ١٥٠ برجا ، وفيه ثمانية أبواب كل باب سمى باســم اله آشورى وكان يرى مداخل المدينة ثيران محنحة برؤوس بشرية كانت عند الآشوريين بمثابة الملاك الحارس لتقى المدينة من الشرور والمخاطر ، كما وقف قرب كل باب كثير من الحروز على هيئه دمى للغاية نفسها وكانت شوارع المدينة مبلطه ومعامده .

لم يبق من المدينة الآن غير قصر سرجون وبعض الاقسـام المجاورة له . وكان قصره يقوم على تلة باتجاه الضلع الغربى من المدينة وقد شيدت

على عرار قصور نابل ، وله مدخلان أحدهما يواجه المدينة والآخر معقود على هيئه قوس ويرتبه الثيران المجنحة • وان ما اكتشف فى مدينة سرجون وقدره مكنا من معرفة مبلغ ما وصل اليه فن البناء والنحت وسبك المعادن وصناعه الرجاج وغير ذلك من فنون المدنية فقد ريت جدران القصر بألواح منحوته من الحجر بلغ مجموع طولها حوالى الميل الواحد • أما النحت المجسم فقد كان قليلا بالنسبة الى المنحوتات البارزه • ان ذلك باستثناء الثيران المجنحه التى عثر على ما يقارب الـ ٢٦ واحـــداً منها يزن كل منها حوالى الاربعين طنا • أما التصوير على الجدران فقد حفظت منه نماذج فى قصر سرجون ، ووجدت نماذج من الزخارف المنقوشة على الآجر المزين بالميناء من بينها أشكال ثيران وأسود وصور لها شبه بالاشكال التى تزين شـــارع الموكب فى بابل فى عهد نبوخذ نصر الثانى • ومن الاشياء المهمة التى زودتنا به «دور ـ شروكين» المهارة الفائقة فى سبك المعادن ، ولا سيما سبك البرونز الذى صنعت منه أشكال مجســمة كالاسود • وعثر فى مخزن القصـــر على أدوات وآلات من الحديد بلغ وزنها حوالى ٢٠٠ طنا •

أكمل سرجون بناء عاصمته الجديده فى مده سبع سنين (٧١٣ ـ ٧٠٦ ق • م) ولكن لم يتمتع بالعيش فيها زمنا طويلا اذ انه مات فى السنة التالية ٧٠٥ ق • م • وقد تركها وبعض أجزائها غير كاملة وبعد وفاته لم يكتف خلفاؤه بهجرها والانتقال الى نينوى ، بل انهم شوهوا كثيرا من المنحوتات التى كانت تزينها ، وبدلوا بعضها الى قصورهم ، فطمست معالمها ، ولكن اسمها ظل فى ذاكرة الاجيال المتأخره ، فقد عرف العرب اسم «سرغون» وشـــوه الساسانيون اسم المدينة وأطلقوا عليها «خسرو آباد» أو مدينة «خسرو» ومن هنا جاء اسمها المحرف الحالى أى «خرسباد» أو «خورصباد» •

خلفاء سرجون

١ ـ ســنحاريب

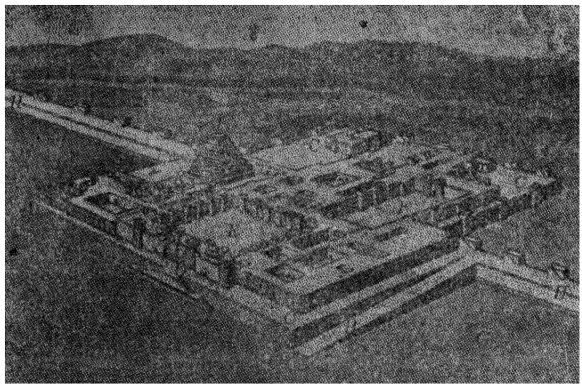

قصر سرجون الثانى فى خرسباد كما يجب
أن يكون عليه فى الاصل

الشهير «سنحاريب» (سين ـ آحى ـ اربا) (٧٠٥ ـ ٦٨١ ق م) ولم يسر هذا على خطة أبيه تجاه عاصمة المملكة اذ انه ارجع مركز المملكة الى العاصمة المقدسة «ينوى» فجدد ابنيتها وشيد فيها قصوره ، وجعلها مركز الامبراطورية وقلة الشرق القديم وحملها بالمحوتات الكثيرة وغرس فيها الرياض والبساتين وجلب لها ماء عذبا من موضع قريب من منبع نهر «الكومل» من مجاز جبلى فى «بافيان» وبنى لذلك قناة مبطنة مبنية بالحجر طولها خمسون ميلا لتمر فيها المياه الى ينوى وقد نحت عند صدر القناة على وجه حجرة شاهقة صورا كبيرة للآلهة ونحل على الحجر بعض أعماله ومآثره .

سار سنحاريب على سنة الملوك الآشوريين السابقين فى اعادة اخضاع قسم من الاقاليم التابعة الى الامبراطورية ولا سيما تلك التى ثارت فى بداية حكمه . فأخضع مدن كيليكية وفتح المستعمرات الاغريقية فى سواحل آسية الصغرى ، واتصل بالاغريق الابونيين ، وهذا حدث مهم بالنسبة الى

وسائل نشر حضارة العراق القديم • وقد بنى فى طرسوس مدينة آشورية ليحكم منها مستعمراته الجديدة • وكذلك أعاد فتح المدن الفينيقية والسورية ومملكة يهوذا • اذ بدت فى سورية وفلسطين فى أوائل حكمه بوادر العصيان بتحريض المصريين • وكان يحكم فى مملكة يهوذا الصعيرة الملك «حزقيا» وكان يعيش فى زمنه النبى العبرانى «اشعيا» فاستطاع سنحاريب أن يخضع هذه المملكة الصغيرة ولكن العاصمة «اورشليم» أبت التسليم ، وعول الملك «حزقيا» على حصار طويل واعد العدة وقد صادف أن اعلنت بعض المدن والدويلات السورية العصيان مثل مدينة صور وعسقلون ولكن سنحاريب عاجل الثوار فى العام ٧٠٠ ق • م وابتدأ بتأديب المدن الساحلية فى جنوبى فلسطين ثم التفت الى «اورشليم» وترك على حصارها جيشا مع كبير قواده الذى ورد ذكره فى التوراة باسم «الرابشاقة» (كبير السقاة) وقد ورد وصف ممتع فى التوراة لاحوال الحصار ، وسجلت المحاورة الطريفة التى جرت بين رسول ملك اليهود والـ «رابشاقة» الذى تكلم بالعبرية وقد صرح من اسفل السور قائلا : «ما هذه الثقة التى اعتمدت عليها • ولعلك تقول وما قولك الا كلمات فارغة انه عندى رأى وقوة فى الحرب • فعلى من اعتمدت الآن حتى عصيتنى ؟ فلتحذر انك اعتمدت على عصا هذه القصبة المرضوضة التى لو اعتمد عليها رجل لذهبت فى يده وثقبتها •• وهكذا هو الفرعون ملك مصر الذى اعتمدت عليه • فهل استطاعت أى من آلهة الشعوب ان تخلص أرضها من يد ملك آشور ؟ فأين آلهة حماة وارفاد ؟ وأين الهة السامرة • فهل نجت السامرة من يدى ؟ فأى من آلهة الاقطار من خلصت بلدها من يدى حتى يستطيع «يهوه»[1] أن يخلص اور شليم من يدى» ولم يخف على رسل ملك اورشليم ما كان يرمى اليه القائد الآشورى من كلامه هذا لا سيما وقد تكلم به بصوت عال باللغة العبرية ليسمع من فى داخل السور من الناس فيهلعوا ويستسلموا • والحقيقة ان الملك كان يتردد فى التسليم ولكن

---

(١) «يهوه» الاسم المقدس لاله العبرانيين •

النبى «اشعيا» كان يشجعه ويحرضه على المقاومة • وبعد أن انهى الرابشاقة كلامه توسل اليه رسل اليهود أن يكلمهم باللغة الآرامية وليس بلغة اليهود على مسمع من الناس • أما نهاية الحصار فتذكر التوراة ان الجيش الآشورى حل فيه الموت الآلهى ، ويرجح كثيرا ان الجيش انسحب بسبب تفشى الوباء •

ومما كان يشغل بال سنحاريب فى أوائل حكمه ان الثائر البابلى الكلدانى «مردوخ بلادان» الذى أخضعه أبوه سرجون وعفى عنه بعد القضاء على حركته ثار فى عهد سنحاريب واستفحل أمره والتجأ كما فعل فى عهد سرجون الى مساعدة العيلاميين ، وتفاوض مع القبائل العربية ومع «حزقيا» ملك يهوذا ابتغاء اشغال الجيوش الآشورية • ولذلك فقد كلف القضاء على حركته جهودا • غير ان الثائر هرب الى المناطق الجنوبية ، فاضطر سنحاريب الى ارسال اسطول انشأه لهذه الغاية فقضى على البقية الباقية من اتباع الثائر • ومع كل ذلك لم ترضخ بابل ، بل استمرت فى اقلاق «سنحاريب» بالثورات ، الامر الذى جعله يحاصرها ما يقرب من سنة كاملة وقد كان غضبه فى هذه المرة عظيما ففتحها عنوة فى سنة ٦٨٩ ق • م ودمر قصورها ودك حصونها وسلط ماء الفرات على أنقاضها • وعين من بعد ذلك ابنه «أسر حدون» واليا على القسم الجنوبى من العراق •

٢ ـ أسر حدون

كانت نهاية سنحاريب نهاية محزنة اذ تشير السجلات الرسمية الى أن أحد أبنائه قد اغتاله • ولقد جاء ذكر هذه الحادثة فى التوراة (٢ملوك ١٩: ٣٦ـ٣٧) وقد سبب اغتياله شبه ثورة داخلية ولكن ابنه الذى خلفه وهو «أسر حدون» لم يجد صعوبة فى اخمادها • ومما يمتاز به حكم اسر حدون ان الحالة فى بابل كانت هادئة باستثناء بعض القلاقل التى قام بها بعض الثوار مثل ابن الثائر المشهور « مردوخ بلادان » ، أما الاقاليم الشرقية فقد استتب الامر فيها للآشوريين وخضع لهم أكثر ملوك خراسان على أثر حملات آشورية

موفقة • ومما يذكر به اسر حدون السياسة الحكيمة التى سلكها تجاه بابل ، اذ انه استعمل المصالحة والدبلوماسية الحكيمة فحصل على نتائج لو سار فى الحصول عليها على حطة أبيه لكلفه ذلك حروبا وهدر دماء كثيرة • فأعاد بناء مدينة بابل ، فرضى البابليون وكفاه رضاهم ضرورة الدفاع بنفسه عن بلادهم تجاه طمع العيلاميين والكلدانيين •

ومن غزواته غزوة قام بها فى شمالى جزيرة العرب على موضع عربى ورد ذكره فى الاخبار الآشورية باسم «أدومو» الواقعة فى الواحات ، ولعلها دومة الجندل المذكورة فى أخبار الفتوحات الاسلامية • وقد سبق لابيه أن حاربها لتأمين حدود الامبراطورية والمحافظة على طرق مواصلاتها البرية •

بلغ طموح اسر حدون فى حقل الفتوح الخارجية مدى واسعا ، فالمعروف ان اسلافه فشلوا فى غزو مصر • أما هو فقد وجه همه لتحقيق ذلك المشروع الخطير لذلك كان غزوه مصر أهم حروبه كلها ، فاستولى على الدلتا وأكثر مصر العليا وذلك فى زمن ملكها «ترهاقة» أو «طهراقا» الحبشى[1] • وقد تم له ذلك فى ثلاث حملات ولعل أهم الاسباب التى دعته الى هذه المغامرة الحربية انه بالاضافة الى ما قد يحصل عليه من شهرة وغنائم وثروة فان مصر كانت منذ أزمان أقوى دولة فى الشرق القديم نازعت توسع الآشوريين فى سورية وفلسطين ، وكانت فى أيام ضعفها تعتمد على تحريض الدويلات السورية على الثورة والانسلاخ عن الامبراطورية الآشورية فكان هذا التدخل المستمر يقلق بال الملوك الآشوريين ، لان اخماد الثورات كان يكلفهم ثمنا غاليا فى الحيوش والاموال • ولذلك فمن المرجح كثيرا ان أسلاف اسر حدون قد فكروا فى تحطيم قوة مصر العسكرية • ولكن لم

---

(١) ومما يجدر ذكره فى هذا الصدد أن دائرة الآثار العراقيه قد وجدت حديثا (١٩٥٥) كسرا من تماثيل فرعونية بعضها يعود الى هذا الملك كما تدل على ذلك الكتابة الهيروغليفية فيه ، وقد وجدت هذه التماثيل فى تل النبى يونس الذى هو جزء مهم من العاصمة الآشورية نينوى (أنظر مجلة سومر ، الجزء الاول ١٩٥٥) •

يوفق أحد منهم فى تحقيق تلك الامنية الا «اسر حدون» وخليفته «آشور بانيبال» • اما نتائج الغزو فقد نجح الآشوريون فى ضم مصر موقتا الى الامبراطورية الآشورية ، ولكن ذلك لم يكن دائما • ولعل أهم فائدة هى ان مصر شعرت بوطأة الجيوش الآشورية فكفت عن اطماعها فى سورية وفلسطين وعن تدخلها فى شؤون هذا القسم من الامبراطورية الآشورية ، وتشير طواهر الاحوال الى حلول عهد من الصداقة بين المصريين والآشوريين، وان المصريين ساعدوا الآشوريين فى حربهم مع الماذيين وهى الحرب التى قصت على نينوى وعلى كيان الدولة الآشورية •

لما كان من الضرورى على «اسر حدون» قبل ان يبدأ فى غزو مصر ان يقمع الثورات التى قامت بها بعض المدن الفينيقية • فاستولى على صور ودمرها تدميرا كاملا ، وبدأ بأول هجوم على مصر فى عام ٦٧٤ ق • م ففشل فيه بسبب العواصف فى الحدود الفلسطينية المصرية • واعد حملة ثانية بعد ثلاث سنوات استولى فيها على «منف» (منفس) عاصمة الفراعنة المعظمة • وثارت مصر واسأنف الكفاح ملكها «ترهاقة» فجهز اسر حدون حملة ثالثة رجعت قبل ان تجتاز الدلتا بسبب مرض اسر حدون الفجائى •

٣ ـ آشور بانيبال

حدث فى بلاط اسر حدون خلاف على وراثة العرش الآشورى فقد كان لاسر حدون ثلاثة أبناء أكبرهم كان يدعى «شمش-شوم-اوكن» ولكنه لم يعين خلفا لابيه ، ولا الابن الثانى • وبعد الشورى حلت مشكلة ولاية العهد بجعل «آشور بانيبال» وهو الابن الثالث وليا للعهد ليخلف أباه على العرش الآشورى وجعل الابن الاكبر أى « شمش-شوم-اوكن» وليا للعهد على العرش البابلى على أن يعترف بسيادة أخيه «آشور بانيبال» وعلى هذا فقد خلف «آشور بانيبال» أباه على عرش المملكة الآشورية (٦٦٨-٦٢٦ ق • م) وكان قد نال تهذيبا وتربية فى صغره فاق بهما سواه من الملوك الآشوريين

فأغرم بالادب والمعرفة ، وجمع الآثار الادبية وكتب المعرفة من أنحاء البلاد وخزنها في دار كتب شيدها في قصره ، وهي التي عثر عليها المنقبون في نينوى وتحتوى على الالوف الكثيرة من ألواح الطين المكتوبة التي عرفتنا بنواحي الحضارة العراقية القديمة • لانه جمع فيها مختلف أصناف العلوم والمعارف التي بلغتها حضارات العراق القديم حيث استنسخ الالواح القديمة التي بحث عنها في مدن العراق المختلفة •

لقد بدأ آشور بانيبال حكمه بحملة تأديبية صغيرة الى منطقة الكشيين في شرقي دجلة ، وقد نجح في ذلك •

وكان الملك الحبشي «ترهاقة» قد انتهز فرصة موت اسر حدون ، واعاد الحكم الوطني في مصر ، فجرد آشور بانيبال حمله كبيرة عليه في سنة ٦٦٧ ق • م وجرت معركة في محل ما في شرقي الدلتا انتهت بانهزام جيش «ترهاقة» (طهراقا) بعد ان هلك اكثره • وبعد ذلك سار الجيش وفتح «منف» وبعد أن استتب له الامر أقام حاميات دائمية في أمهات المدن المصرية • ومع هذا فقد استمرت الثورات الوطنية فاضطر «آشور بانيبال» على التخلي عن فكرة جعل مصر ولاية آشوريه تحكم حكما مباشرا واكتفى بابرام معاهدة مع أحد الامراء الثوار المسمى «بسماتيك» تضمن اعتراف مصر بزعامة الآشوريين وخاصة في الاقاليم الغربية ، وكفلت تضامن مصر مع الملك الآشوري من الوجهة العسكرية في الدفاع والهجوم ، وعلى هذا فان فقدان مصر لم يكن في الحقيقة خسارة بل كان أمر المحافظة عليها كإقليم تابع يكلف الآشوريين كثيرا •

وبعد وفاة اسر حدون نفذ وصيته ابنه آشور بانيبال ، بان عين أخاه « شمش-شوم - اوكن » على العرش البابلي فرضخ هذا لسيادة أخيه سنين عديدة ، غير ان وجود ملكين أخوين جعل الخلاف والتصادم أمرا لا بد منه وقد بدت بوادر ذلك بعد فراغ «آشور بانيبال» من حروب له في عيلام ،

ومما شجع ملك بابل على تحدى سلطة أخيه ، انحياز الزعماء الكلدانيين اليه بعد أن عرفوا حقيقة ما بين الاخوين ، وعلى هذا فقد أخذ ملك بابل يتهيأ للتصادم فبدأ بالمفاوضات السرية مع ملك عيلام واتصل بأمراء العرب وبكثير من أمراء فلسطين وبـ «يحو» ملك مصر ، وفى سنة ٦٥٢ ق . م نشبت بين الاخوين حرب قاسية طويلة لعلها كانت أخطر الحروب الاهلية فى تاريخ الآشوريين ، وقد أظهر فيها «شمش-شوم-اوكن» مزايا عسكرية فذة ونصره البابليون بحرارة وانضم اليه بعض أمراء الآشوريين وحكام المناطق ، واشترك معه العيلاميون صد أخيه ، ولكن كل ذلك لم يجد نفعا تجاه جيوش أخيه المتفوقة ، فاضطر الى الانحصار فى عاصمته بابل حوالى السنتين فعملت المجاعة والحصار الشديد فعلهما فى سقوط المدينة بيد الجيش الآشورى بعد أن لحقها كثير من التخريب والتدمير وقضى « شمش-شوم-اوكن» نحبه وسط النيران التى شبت فى قصره ، وهكذا ختمت حوادث النزاع بين الاخوين فى سنة ٦٤٨ ق . م وتلا ذلك ان وجهه «آشور بانيبال» همه لتأديب القبائل العربيه التى اشركت فى مساعدة أخيه ضده ثم التفت الى عيلام وكان غضبه شديدا ، فقضى على المدن العيلامية ودمر عاصمة البلاد «سوسة» وبشت قبور الموتى ، وارسلت عظام ملوك عيلام وأمرائها الى نينوى ، وبهذا انتهت حياة مملكة عيلام .

سقوط نينوى ونهاية الآشوريين

حكم «آشور بانيبال» حتى سنة ٦٢٦ ق.م ولكن أخباره الرسمية انقطعت عنا قبل ما يزيد عن عشر سنين من هذا التاريخ ، وكانت ظواهر الامور جميعها تدل على ان الامبراطورية كانت وطيدة الاركان فى سائر أنحائها ، ولكن مع كل هذا فقد أخبرنا الملك «آشور بانيبال» نفسه ان اياما سودا حلت فى أرجاء مملكته ، وانه كان يقاسى آلاما جسمية وروحية سلبت راحته ، وحدثت بعد وفاته مشاكل واضطرابات حول وراثة العرش فكان على ابنه وخلفه «آشور-اطل-ايلانى» ان يحارب أحد الطامعين فى عرش أبيه ،

فانتهزت بابل هذا الاضطراب الداخلي وانفصلت عن الامبراطورية الآشورية تحت قيادة زعيم الكلدانيين «نبوبولاسر» سنة ٦٢٥ ق ٠ م وقد حذت فلسطين حذو بابل ، فطرحت عنها النير الآشوري وكذلك فعلت معظم المدن الفينيقية ، وقد اتحد الماديون فقويت شوكتهم تحت قيادة ملكهم «كي اخسار» وقد انتهى حكم «آشور ـ اطل ـ ايلاني» بقلاقل أيضا وفي هذه الاثناء تحالف الملك الكلداني «نبوبولاسر» مع الملك المادي ، واتفقا على تقويض المملكة الآشورية واقتسام أراضيها وقد اختار ملك مصر «بسماتيك» الى جانب الآشوريين ، كما ان الملك الآشوري حصل على صداقة القبائل المعروفه بالصيثيين[1] ولكن ذلك لم يجده نفعا تجاه الهجمات التي قام بها أعداء الآشوريين ومما زاد في الطين بلة ان الصيثيين خانوه فانحازوا الى أعدائه في هجومهم الاخير على نينوى عام ٦١٢ ق ٠ م وعلى الرغم من الدفاع المجيد سقطت العاصمة العظيمة في السنة نفسها فهبت ودمرت ومات الملك وسط النيران التي شبت في قصره والتهمت المدينة ٠ ومع هذا فان الآشوريين طلوا على عنادهم واستطاعت فلول من جيشهم ان تهرب تحت قيادة آشور أوبالط الى مدينة حران حيث نصب هناك ملكا على البقية الباقية من الآشوريين ٠ ولكن الاعداء لاحقوه في سنة (٦١٠) ق ٠ م فحرت حروب اسهت في القضاء على آخر محاولة لاعادة المجد الآشوري الآفل ٠ هذا ولا يسعنا ان نبحث بالاسهاب عن الاسباب التي أدت الى سقوط الدولة الآشورية ، والذي يمكن قوله بهذا الصدد ان طبيعة مثل هذه العوامل انها معقدة متعددة ٠ والذي يبدو في حالة سقوط الدولة الآشورية ان المتتبع لتأريخ الآشوريين لابد وان تؤثر فيه حقيقة بارزة في تأريخ الدولة الآشورية تلك هي تطرف ملوكها في سياسة الغزو والهجوم التي لم تكن لتنقطع ، والاعراق في الروح العسكرية

---

(١) أو «الاسكيثيون» (Scythian) وهم القبائل البربرية التي كانت تتكلم لغة «هندية ـ أوربية» وكانت تقطن في جنوبي روسيه وفي الاقليم الواقع شرق بحر «الارال» ومن المؤرخين من يعين الصيثيين بجوج وماجوج المذكورين في التوراة وفي القرآن ٠

بحيث انهم وسعوا مشاريعهم الحربية وفتوحاتهم الخارجية فوق ما كانوا يستطيعون الاحتفاظ به ، وفوق طاقة مواردهم . وكان ذلك جليا فى عهد الامبراطورية الآشورية الاخيرة حيث أقدم الملوك الآشوريون (اسر حدون وآشور بانيبال) على فتح مصر ، ومع ان الجيوش الآشورية استطاعت أن تدحر الجيوش المصرية الا انها لم تقو على الاستمرار فى ضبط مصر مع التزاماتها العسكرية الاخرى فى جميع انحاء الشرق الادنى ، ولا سيما تدخلها فى بلاد بابل وضمها اليها بالقوة . والى ذلك فان سياسة العنف والتدمير التى اتبعها أمراء الحرب الآشوريون ازاء البلدان التى كانوا يغزونها قد جرت عليهم سخط الشعوب وتكرر ثوراتها ، ومع ان ماكنة الحرب الآشورية قد استطاعت أن تمحو شعوبا واممًا برمتها وتدك المدن والحصون وتهجر الشعوب وتأسرها الا أن تلك المظالم قد برهنت على صحة الحكمة القائلة «الظلم اذا دام دمر» ، وملخص القول كان التطرف فى فنون الحرب دون فنون السلم الاخرى ، واهمال موارد البلاد وتحميل الدولة فوق طاقتها من مشاريع التسح العسكرية كل ذلك وغيره كان من الاسباب المهمة التى عملت على محو الدولة الآشورية من الوجود .

ولما كنا سنذكر النواحى المختلفة التى تميز الحضارة الآشورية فى كلامنا على أوجه الحضارة المختلفة فى العراق القديم فاننا نكتفى هنا بذكر بعض الامور العامة عن مكانة الآشوريين فى تأريخ الحضارات . فمن ذلك ما تمتاز به الثقافة الآشورية بكونها نداً عن صلتها بالحضارة السومرية والبابلية وتأثرها بهما انها تأثرت أيضا بمدنيات شعوب كثيرة اتصلت بها بالحرب والسلم بحيث يصح أن نسمى الآشوريين بانهم «ورثاء العصور»[1] ، فكانت ثقافتهم مركبة خليطة . فقد رأينا سابقا من تأريخهم كيف انهم اتصلوا بشعوب واممٍ كثيرة منحضرة وبدائية كالاراميين والمصريين والحثيين والسوريين والفينيقيين واليونان والارمن ، فكان ذلك عاملا مهما فى النقاء

(1) Olmstead, **History of Assyria**, PP. 504 ff.

الثقافات واختلاطها . كما ان اتصال الآشوريين بالشعوب المتعددة وما امتاز به ملوكهم من تدوين أخبارهم الحربية والسلمية بالتفصيل قد زودنا بمصادر مهمة لتأريخ شعوب وامم لا نملك عنها السجلات والوثائق ، لا سيما وان بعضها كان متأخرا من الناحية الثقافية وأميا ، ونذكر على سبيل المثال المصادر المهمة التي جاءت في أخبار ملوكهم عن الارمن والقبائل العربية والعبرانيين والقبائل الايرانية ، مما يجعل هذه الاخبار اهم المصادر التأريخية لاحوال تلك الشعوب . ومن الناحية الاخرى فان اتصال الآشوريين ببعض هذه الشعوب ، وبوجه خاص بالعبرانيين ، قد جعل الآشوريين يشتهرون شهرة واسعة في العالم الحديث ، ولا سيما العالم المسيحي ، ذلك ان علاقاتهم العدائية مع اليهود في فلسطين قد جعلت لهم محلا باررا في أخبار العهد القديم (التوراة ولا سيما في سفر الملوك) . ومن الطبيعي أن تكون أخبارهم مقرونة بالتشهير مما جعل اسم الآشوريين مرادفا للظلم والقسوة ، ومع انهم كانوا قساة الا ان المبالغة وذكرهم في التوراة هما اللذان جعلا الآشوريين يشتهرون من دون الامم العسكرية التي كانت تضاهيهم في العالم القديم .

ومما تجدر ذكره ان الآشوريين رغم زوال ملكهم وسقوطهم السياسي اندمج عدد كبير منهم بالشعوب المجاورة واستخدم الفرس كثيرا من صناع الحرف والصنايين في تشييد مدنهم وتجملها واسمر تراث الحضارة الآشورية بعد احتلال الآشوريين العسكري اذ أخذت عنهم الاقوام الاخرى الشيء الكثير من النظم السياسية والادارية فسجب بابل على منوالهم في الامبراطورية وكذلك فعل الفرس . هذا ويجب الا ننسى ماقام به الآشوريون انفسهم نفوذهم السياسي وعزهم العسكري في نشر الحضارة العراقية القديمة ، ونقلها الى أقاليم الشرق القديم وادا علمنا انهم في بعض فتوحاتهم اصطدموا مع الجاليات اليونانية ادركنا اهميتهم كحلقة الاتصال بين الماضي والحاضر .

الفصل الحادي عشر

الامبراطورية الكلدانية

والعهد البابلي الاخير

وقفنا في بحثنا السالف على نشوء الحضارة الآشورية ونموها وتدرجها في هذا النمو ثم تدهورها وانحلالها وانهيارها الاخير . ورأينا كذلك ان من حملة الاقوام التي كانت تعيش في تحومها وتتحين فرصة ضعفها للانقضاض عليها الماذيون الفرس الى الشرق والى الشمال الشرقي من موطن الدولة الآشورية وقد انحاز الى الماذيين في الانقضاض على الدولة الآشورية في ساعتها الاخيرة الكلدانيون وهم فرع من الآراميين استوطنوا العراق الجنوبي منذ المنتصف الثاني من الالف الثاني ق . م وعرفوا بالكلدانيين . وقد رأينا كذلك فيما مر بنا سابقا كيف انهار كيان البابليين السياسي منذ أواخر الالف الثاني ق . م وصاروا مرة تحت النفوذ الآشوري ومرة تابعين الى الدولة الآشورية ولكن البابليين كانوا يثورون ويتحينون الفرص للتخلص من تدخل الآشوريين ، فجاءت هذه الفرصة في أواخر أيام الدولة الآشورية . وكان يحكم في بابل في حدود ٦٢٦ باسم الدولة الآشورية على ما يبدو أمير كلداني هو «نبوبولاسر» فرأى الفرصة سانحة للانسلاخ عن تبعية الآشوريين فحالف الماذيين وساهم في الحرب التي قوضت الدولة الآشورية واشترك في حصار نينوى وتخريبها ، واستقل في بابل وكون له ملكا حديدا وبدأ كذلك عهدا حديدا في تأريخ العراق يعرف بالعهد البابلي الاخير أو الحديث . ولان نبوخذنصر كون امبراطورية ، عرف هذا العهد كذلك باسم الامبراطورية الكلدانية ، وسماه جامعو اثبات الملوك بسلالة بابل الحادية عشرة .

وتسمية هذا العهد بالعهد البابلي الاخير يعني كما هو الواقع انه كان آخر

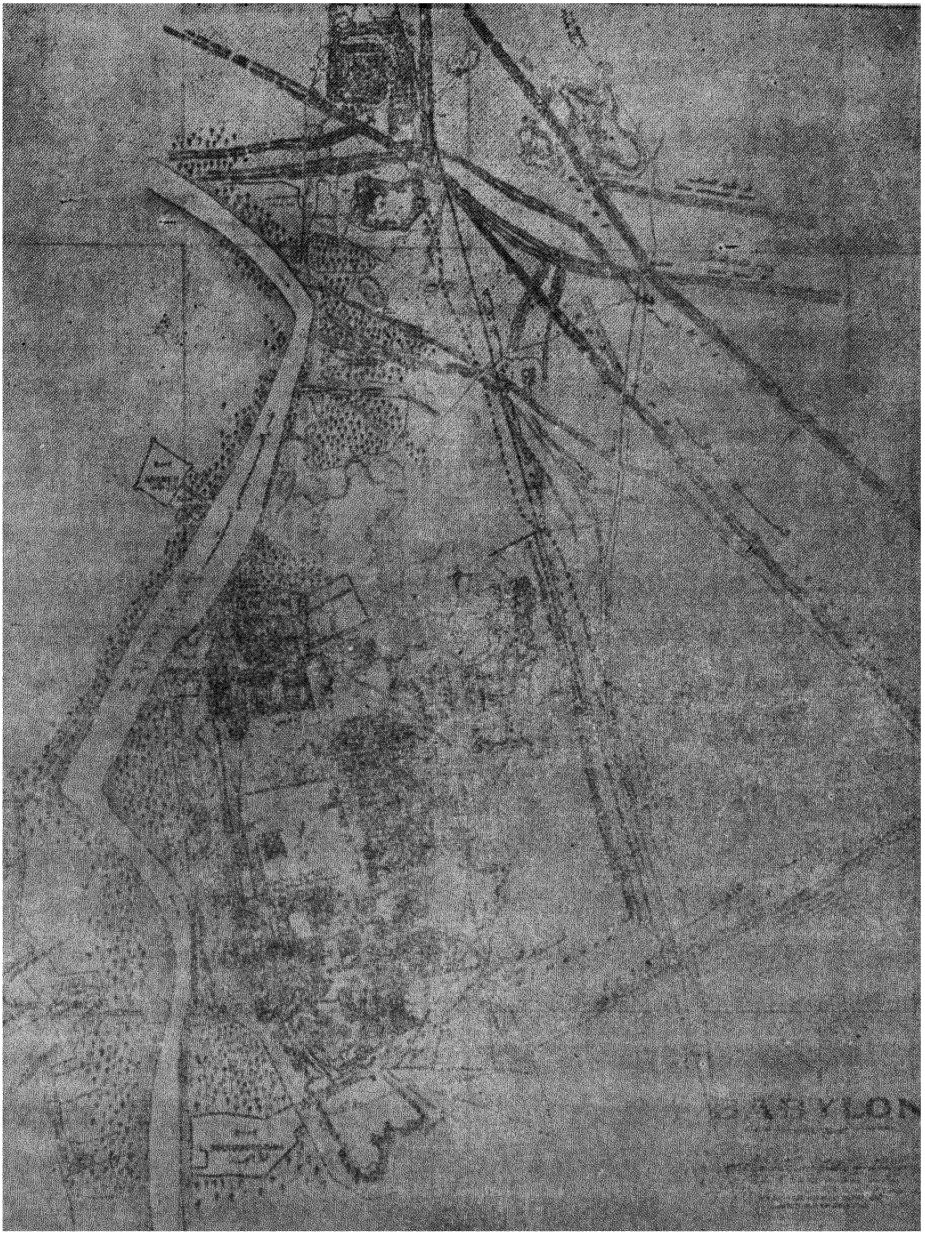
BABYLON

عهود البابليين فى العراق وانه يمثل آخر دولة فى حضارات العراق القديم اذ أعقب ذلك عهود اجنبية صار فيه العراق ولاية تابعة مرة الى الفرس الاخمينيين ومرة الى الاغريق السلوقيين والى الفرس الفرثيين ثم الى الفرس الساسانيين الى العهد العربى الاسلامى وكان العهد البابلى الاخير على ما يبدو صحوة واسعاشة للحضارة البابلية وهى فى طريقها الى الافول والزوال • ولكنه كان انتعاشا قويا اذ انه مع قصر مدته يعد من العهود المجيدة لا فى تأريخ حضارات العراق القديم حسب بل فى تأريخ الحضارات البشرية •

لقد دام هذا العهد ، كما قلنا سلفا ، زمنا قصيرا أقل من القرن الواحد (٦٢٦–٥٣٨ ق • م) ولم يكن جميعه عهد قوة وازدهار وانما يقتصر دوره المجد على الحقبة التى حكم فيها أشهر ملوكه «نبوخذنصر» الثانى(٦٠٤–٥٦٢ ق • م) وقد بدأ «نبوبولاسر» مؤسس هذا العهد سلطته فى بابل وفى المدن المجاورة لها • وعندما سقطت نينوى فى العام ٦١٢ ق • م تقاسم الامبراطورية الآشورية الماذيون والكلدانيون فصارت حصة الكلدانيين المملكة البابلية من وسط العراق حتى حدوده وقد انتهز هذا الملك وكذلك ابنه اشغال الماذيين فى البلاد الآشورية التى صارت حصتهم فقاما بالغزو والتوسع الى الغرب فنشأ فى زمن قصير ما يعرف بالامبراطورية البابلية الاخيرة •

وقد انتهزت مصر هجمات الماذيين على الامبراطورية الآشورية وأخذت تستولى على الاقاليم التابعة لها ولا سيما البلاد الشامية فقد أرسل الملك المصرى فى العام ٦٢٢ ق • م جيشا مصريا ليحصل على حصته من الغنائم وانه لو لم يتوقف قائد الفرعون «نيخو» فى نهر الكلب مثل الكثيرين من الفاتحين ليسجل مروره على حافة الصخور هناك[1] لوصل ذلك الجيش فى الوقت

---

(١) نذكر هذه النقوش الشهيرة بحسب تسلسلها التأريخى :– (١) كتابه الفرعون «رعمسيس الثانى» (١٢٩٢ – ١٢٢٥ ق • م) وهى مكونة من ثلاثه نقوش مشوهة غير واضحة • (٢) ستة نقوش آشورية أوضحها نقش «أسرحدون» (٦٧١ ق • م) • (٣) نقش نبوخذنصر الكلدانى • (٤) آثار نقش يونانى ممسوح • (٥) عدة نقوش رومانية للامبراطورية «كره كالا» =

المناسب وعندما بدأ الجيش بالتوجه الى غرضه وجد المصريون انفسهم ينازعهم عدو شديد المراس • وكان هذا العدو «نبوخذنصر» الثانى بن «نبوبولاسر» ذلك انه بعدما اسولى الجيش المصرى على أجزاء من سورية وفلسطين استأنف رحفه الى الفرات الاعلى للاستيلاء على الطرق المهمة بين العراق وسورية فلم يرق ذلك لدولة بابل الفتية لان ذلك يهدد مصالحها التجارية فأرسل الملك «نبوبولاسر» حملة كبيرة بقيادة ابنه وولى عهده «بوخذنصر» فسار هذا سالكا طريق الفرات وصعد الى اعاليه متجها الى الجهة الشمالية الغربية فالتقى بجموع المصريين فى «كركميش» فى حدود ٦٠٤ ق • م فنشبت فيها معركة تمزقت بسببها جموع الملك «يحو» شر ممزق وولت الادبار ، فسار نبوخذنصر مكتسحا سواحل سورية وفلسطين ولم يوقف الا عند حدود مصر اذ جائته الانباء بموت أبيه وتوريثه عرش المملكة البابلية •

نبوخذنصر الثانى (٦٠٤ ـ ٥٦٢ ق • م)

حكم نبوخذنصر الثانى ثلاثا واربعين سنة ، وهو عهد يعد بحق من العهود المجيدة فى التاريخ البشرى وفترة الانتعاش القوية التى عاشتها الحضارة البابلية قبل ان يعتى عليها وتطمر علومها وامجادها فى الطلول والتراب • ومما يمتاز به هذا الملك انه على الرغم من كثرة الحروب الموفقة التى خاضها كان من اعاظم الملوك المعمرين البنائين ولعله كان أعظم ملوك العراق القديم من هذه الناحية • ولذلك لم تسجل الكتابات والاخبار التى خلفها الا البناء والتشييد والعمران فى بابل وفى جميع مدن العراق المهمة • ويرسل الآجر المختوم باسمه الذى يجده المنقبون منتشرا فى كل مكان من المملكة البابلية انه حدد بناء المعابد والقصور فى كل مدينة ذات شأن فى البلاد •

(Caracalla) (٦) نقش عربى غير معروف • (٧) أرال الفرنسيون احدى الكتابات المصرية ونقشوا بدلا منها خبر احتلالهم لبنان (١٨٦٠ ـ ١٨٦٢) • (٨) نقش الجنرال غورو ويقربه نقش الجنرال «البى» • (٩) نقش يسجل تذكار جيوش الحلفاء (١٩٤٢) • (١٠) نقش لبنانى تذكارا لخروج الجيوش الفرنسية (١٩٤٦) (P Hitti, History of Syria)

ولكنه خصص جهوده فوق كل شيء لاعادة بناء العاصمة بابل وتوسيعها وتجميلها ، وهى المدينة التى قامت على أيدى الفاتحين المتتابعين • وكان آخرهم الملك الآشورى سنحاريب الذى أزالها من الوجود تقريبا كما مر بنا ذلك ، لذلك يصح ان نقول ان نبوخذنصر الثانى قد بناها من جديد وان ما وجده المنقبون الالمان فى بابل وما يشاهده الزائر من اطلال فى الوقت الحاضر انما هو من اعمال نبوخذنصر بالدرجة الاولى ، أما المدينة القديمة فبعضها تحت التراب تحت مستوى مياه النهر لا سبيل للتنقيب فيه وبعضها قد أزيل من الوجود بأعمال التخريب ولا سيما من زمن سنحاريب • ولقد استطاع نبوخذنصر باقتباسه عن تراث الحضارة البابلية والآشورية ان يفوق أسلافه فى تجميل المبانى العظيمه التى شيدها فحدد فى جنوبى بابل فى منطقة المعابد الكبيرة معابد الآلهة البابلية التى قدسها سكان العراق الاقدمون أزمانا طويلة • ولكى يصل بين منطقة المعابد ومنطقة القصور شيد شارعا مهيبا لمواسم الاعياد الدينية يمر فى مدخل صحم مهيب يدعى باب «عشتار» لانه خصص الى هذه الالهة • ويقع وراء هذا الباب قصر نبوخذنصر الفخم ودواوين الحكومة ويعلو الجميع المعد الشاهق أى «رقورة» معبد «مردوخ» وقد خصص جزءا من قصره لزرع الاشجار المخضرة النظرة طبقة فوق طبقة مكونة جنة باسقة تطل على باب عشتار فتزيده بهاء ورونقا • وكانت هذه الحدائق التى غرسها على السطوح فى قصر الملك هى الجنائن المعلقة التى عدها الاغريق من بين عجائب الدنيا السبع • وهنا تحت ظلال النخيل والاوراد كان الملك العظيم يجتمع فى راحة وسرور وافرين مع نساء قصره مطلا على ابهاء مدينته ولسان حاله يقول (كما جاء فى التوراة) «أليست هذه بابل العظيمة التى بنيتها لبيت الملك باقتدارى ولجلال مجدى ؟ » وقد أصبحت بابل فى عهده أعظم مدينة فى العالم آنذاك اذ وسعها كثيرا وصار محيطها زهاء الـ ١٨ كيلو مترا وقد دهش مؤرخ الاغريق هيرودوتس بسعتها وضخامة أسوارها فبالغ فى سعتها أربع مرات ، وقد بنى الملك أسوارها الداخلية والخارجية • ولم يكتف بذلك بل انه بنى لها خطين من الدفاع الخارجى

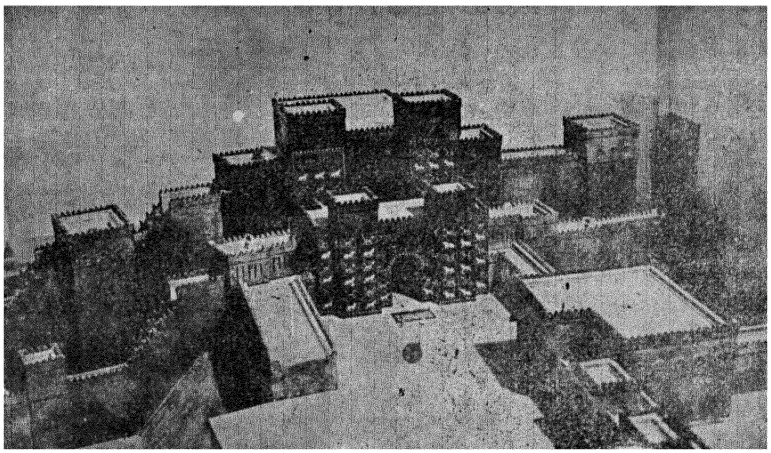

نموذج مصغر لباب عشتار الشهير فى بابل كما يجب ان يكون عليه فى الاصل من زمن الملك نبوخذ نصر الثانى

أولهما يدعى بالجدار الماذى ، ويعد من اعظم واعجب الاسوار المحصنة فى تأريخ البشر فانه يمر بوجه التقريب من الشمال الى الجنوب قاطعا بالضبط ارض ما بين النهرين من بلد الحديثة على دجلة الى مدينة «سار» التى كانت آنذاك على الفرات قرب المحمودية والآن قرب قنال اللطيفية . والخط الثانى يمر بوجه التقريب من خان الناصرية على الفرات حتى كيش على الفرات (فرع النيل) . وبنى للمدينة سورين سور خارجى وسور داخلى تتخللهما أبراج ضخمة للدفاع وهما من أضخم الاعمال البنائية وقد وصفت فى الكتابات التى جاءت الينا من الملك نفسه ومن روايات الاغريق وكذلك اوضحتها نتائج التنقيبات وكلها تشير الى الجهود الجبارة التى بذلها هذا الملك العجيب فى مشاريعه العمرانية[1] .

(١) يتألف السور الخارجى من ثلاثة جدران صحمة : أولها جدار من اللبن ثخنه ٧ أمتار ويليه بمسافة ١٢ مترا جدار ثان بنى بالآجر ثخنه حوالى ٨ أمتار ثم جدار ثالث من الآجر ثخنه ٣٫٥ مترا . ويتخلل الجدار الاول بين كل ٥٢ مترا أبراج شاهقة للدفاع . ويتألف السور الداخلى من جدارين ضخمين يؤلفان الاستحكامات الداخلية .

علاقة نبوخذنصر باليهود (مملكة يهودا)

ومع كل هذه الاعمال السلمية الانشائيه فى داخل المملكه ، لم يعوز نبوخذنصر المقدره العسكرية فبفضل حملاته الحربية يوم كان وليا للعهد فى عهد ابيه وكذلك فى عهده اعترفت الديار الشامية معظمها بالسيادة البابلية وأدب الحربة الى بابل واسمر الحال كذلك ولكن مملكة يهوذا الصغيرة رفضت تأدية الجزيه بعد زمن قصير سبب تحريض الملوك المصريين على ما يبدو . ولم يكتف بذلك بل ثار على السياده البابلية غير آبهة لنصائح النبى «ارميا» وتحذيره ملكها «يهوياقين» بوخامة العاقبة ، فجرد «نبوخذنصر» حملة تأديبية لم يعو المملكة الصغيرة على مقاومتها فسقطت العاصمة «اورشليم» (القدس) فى عام ٥٩٦ ق . م . وأخذ عنوه ونقل قسم من سكانها اسرى ، سبعة آلاف رجل مسلح والف عامل مكبلين بالحديد ومعهم الملك «يهوياقين» نفسه فكان هذا السبى البابلى الاول . وكأنما كل ذلك لم يؤدب المملكة الصغيرة حيث انضمت بعد بضع سنين الى حملة المدن التى ثارت على بابل بتحريض مصر التى حاولت استرجاع مكانتها فى سورية وفلسطين فحرضت كثيرا من المدن على الثورة من بينهـــا صور وصيدا . واشتركت يهودا فى العصيان ايضا . وكادت الثورة تنجح لولا ان نبوخذنصر قد عاجل الثائرين بجحافل كبيرة جاء بها الى سورية الشمالية وعسكر فى مدينة «ربلا» على نهر العاصى واتخذها قاعدة لحركاته العسكرية ، فأرسل أولا قوة لحصار عاصمة يهودا «اورشليم» فى العام ٥٨٧ ق . م . وعندما حاول الفرعون «افريز» ملك مصر «الفصبه المرضوضة» فى عهد سنحاريب نجدة الملك «صدقيا» فسقطت المدينة فى السنة التالية (٥٨٦ ق . م .) وكان غضب الملك البابلى فى هذه المرة عظيما ، فدمر المدينة وحرق هيكل سليمان وسلب خزائن المدينة ونقلها الى بابل وقتل من سكانها جمعا عظيما ، واخذ من اليهود ٤٠٫٠٠٠ أسير (اربعين الف اسير) «ليسوحوا عند مياه الفرات فى بابل» كما جاء فى التوراة . وكان هذا هو الاسر البابلى الثانى وقبض على الملك اليهودى صدقيا واخذ الى معسكر الملك فى «ربلا» فذبح أولاده أمام عينيه ، ثم فقئت عيناه وهو حى

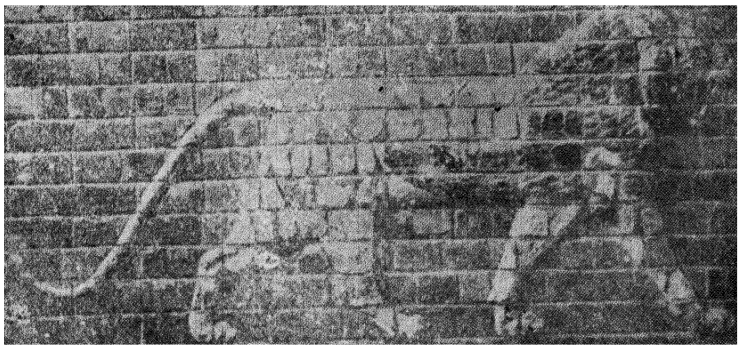

نموذج من الاسود المعمولة من الآجر المرن بالمينا مما كان
يزين باب عشتار

واخذ مكبلا مع الاسرى الى بابل • وقد حدث تطور مهم فى الديانة العبرانية فى بابل حتى انه لنقال ان اليهودية و تطور فكرة الوحدانية وتساميها الروحى كل ذلك لم يمثل الا فى اثناء الاسر البابلى • ومن ذلك ان التلمود نشأ عند اليهود وهم فى بلاد بابل[1] •

وبعد ذلك وجه الملك عنايته البحرية الى المدن الفينيقية التى شقت عصا الطاعة أيضا وحرضت مملكة يهودا على الثورة فاستطاع ان يخضع المدن الفينيقية الا مدينة صور التى كانت قائمة على جزيرة منيعة الحساب لا يمكن الوصول اليها بالسفن فحاصرها نبوخذنصر زمنا طويلا قيل انه دام ثلاث عشرة سنة (٥٨٥ ـ ٥٧٣ ق • م •) ولا نعلم بوجه التأكيد هل فتحت عنوة ولكن الظواهر تشير الى ان صلحا قد تم بين الطرفين قبلت بموجبه صور بتجديد ولائها لبابل ودفع الجزية • وهكذا تم توطيد الامبراطورية البابلية الاخيرة واصبحت حدودها تمتد من خليج فارس جنوبا حتى تخوم مصر • ويرجح كثيرا ان نبوخذنصر اعتزم فى أواخر أيامه على غزو مصر • اذ انه

(١) أنظر البحث الخاص بالعبرانيين فى الجزء الثانى من هذا الكتاب •

بعد حربه مع صور بسبين قليلة نجده فى حرب مع الفرعون المصرى «اماسيس» ويحتمل كثيرا ان الملك البابلى قد وفق فى حربه وانه وصل الى الدلتا ، وقد اخبرنا المؤرخ اليهودى «يوسيفوس» ان نبوخذنصر قد جعل مصر تابعه الى الامبراطورية البابلية • ولكن أخبار الملك الرسمية غفل من هذه الحادثه • وقد ترك لنا نبوخذنصر طرفا من اخباره الحربية فى سورية منقوشة على صخور نهر الكلب •

وكان نبوخذنصر صديقا للماذيين طوال ايام حكمه والماذيون حلفاء المملكة القدماء وقد تزوج نفسه من ابنة الملك الماذى فى حياة ابيه • وقد اشترك فى ابان حكمه مع الماذيين فى حربهم مع الليديين الذين انشأوا مملكتهم فى آسية الصغرى فى القسم الغربى منها •

خلفاء نبوخذنصر وسقوط بابل

بعد أن حكم «نبوخذنصر» زهاء الثلاثة والاربعين عاما (٦٠٤ ـ ٥٦٢ ق • م) خلفه على عرش بابل بضعة ملوك لم يكونوا بالخلفاء الجديرين بالمملكه التى أسسها نبوبولاسر ووسعها ووطدها ابنه نبوخذنصر ، فكان حكمهم فى الواقع فترة قصيرة سفت انهيار المملكة البابلية • فأول هؤلاء الملوك ابنه المسمى «امبل ـ مردوخ» أو «اويل ـ مردوخ» (٧ اكتوبر ٥٦٢ ق • م) وكان هذا حلفا غير صالح عاش حياة تفسخ ، فلم يكد يمضى على حكمه ثلاث سنوات حتى تدخل الكهان فى شؤون الملك وملوه غيلة ونصبوا مكانه أحد قواد «نبوخذنصر» وصهره (زوج ابنته) المسمى «نرجال ـ شار ـ اوصر» (١٣ آب ٥٦٠ ق • م) أو «نرجلسار» ولم يقم هذا بأعمال تستحق الذكر سوى بعض الاعمال النائية • وقد خلفه بعد موته ابنه الصغير «لباشى ـ مردوخ» (٢٢ أيار ٥٥٦ ق • م) الذى لم يحكم سوى تسعة اشهر ، وعندئذ تدخلت طبقة الكهنة فى شؤون المملكه للمرة الثانية فنحوه عن الحكم ونصبوا

مكانه ملكا منهم تهواه قلوبهم هو «نبونهيد» التقى الورع المولع بجمع الاخبار القديمة فاهتم هذا بشؤون الدين ومصالح الكهنة وجمع الاخبار وترك أمور المملكة على العارب ، فلم يكن فى طاقته ادارة الامبراطورية الواسعة التى ورثها عن نبوخذنصر • ولعل الشىء الوحيد الذى يذكر عنه بخير انه اقتفى آثار نبوخذنصر فى البناء فقام بتجديد بعض الابنية فى بابل وفى المدن الاخرى • وأولع فى الوقت نفسه فى حوادث الماضى[1] ودراسة التأريخ والتنقيب عن احجار الاسس المغوشه العائدة الى بناة المعابد من الملوك الاقدمين ، فوجد فى مدينة «سبار» مثلا عندما كان يجدد بناء معبد اله الشمس «شمش» أخبار التأسيس الاصلية مطمورة فى أسس المعبد وهى تعود الى الملك الاكدى العظيم «نرام ـ سين» الذى كان أول من شيد معبدا هنا قبل نحو الفى سنه • فاحتفل باكتشافه هذا احتفالا عظيما •

ومن الامور المفيدة التى يجدر ذكرها عن اخبار سقوط بابل والظروف التى سقطت فيها الامور الآتيه :ـ لم يكن نبو نهيد من السلاله الكلدانية ، تلك السلالة الغريبة عن البابليين ، ولعل الوطنيين البابليين ساعدوه فى خلع الملك الصغير ، وقتله بثورة مدبرة فى القصر • وكان نبو نهيد ابن كاهن فى معبد الاله القمر فى حران • (٢) حالف نبو نهيد الملك الفارسى «كورش» ضد الماذيين فى ثورة الملك الفارسى عليهم ، وكان ملك الماديين «استياجس» (Astyages) وقد ذكر لنا نبونهيد ذلك فى كتاباته حيث يخبرنا بان الاله مردوخ ظهر له فى

---

(١) لعل هذا الولع مظهر من مظاهر عباده «الماضى الدهرى» الذى نصح ن دمرنه بأرمان انحلال الحضارات وانهيارها •

(Olmstead, **Hist. of the Pers. Empire** 1 ff)

وهذه ايضا نظرية «توينبى» فى كتابه

(A study of History)

الحلم ، حيث أمره بتحديد معد حران ، وانا ان اجبر بتسلط الماذيين على حران اجاز له الاله حربهم (بقوله انهم سيسقطون) .

فقاد جيشا بنفسه ضد الحامية المادية في حران واستولى عليها في الوقت الذى كان الملك المادى «استياجس» (Astyages) مشغلا بثوره الفرس بقيادة كورش . ثم حدد معد حران الخاص بالاله «سين» .

(انظر الاسطوانه المكتشفه في تل ابو حبه (سبار) العمود ١ : ١–٣٠ والعمود ٢ : ١–٨ المشوره في

(S Smith, **Babylonian Historical Texts** (1924), PP 27 ff

وبعد ان اخذ بنو نهيد حران وحدد اسبها عبرا سورية وكان في حماه في كانون الثاني عام ٥٥٣ ق . م وعبرا جبال «امانوس» في آب وقتل ملك

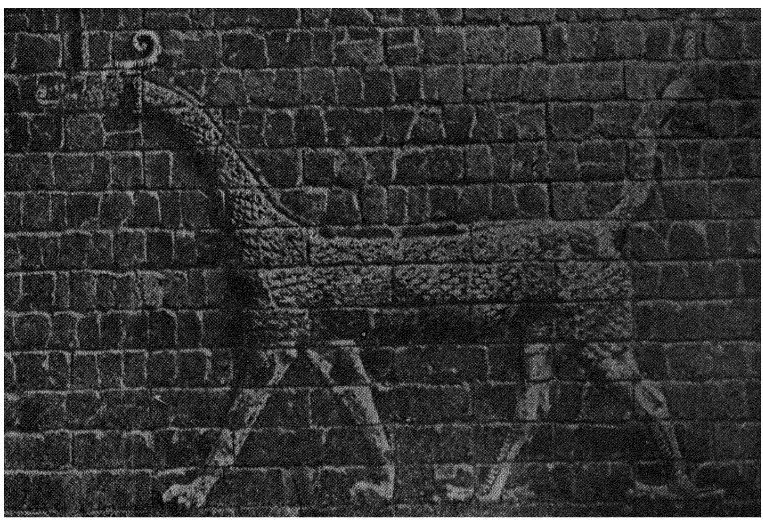

نموذج من الحيوانات المطلية بالمينا التي كانت تزين جدران باب عشتار في بابل (والصور تمثل حيوانا اسطوريا يمثل التنين المقدس الخاص باله بابل مردوخ)

«ادوم» فى كانون الاول ، وقد وصل جيشه الى غزه فى حدود المملكة المصرية .

وبعد غزو كورش للامبراطورية المادية ، صار يدعى ايضا بحقه فى أملاكها فى بلاد آشور وشمالى العراق وفى سورية وارمينية وكبدوكيه ،فكان ذلك يعارض مصالح الدولة البابلية الحديثة وايدانا بنقض الحلف ، حيث اخل توازن القوى باستحواذ كورش على الامبراطورية المادية فكانت الحرب بين الدول القائمة آنذاك لا بد منها وهى : (١) مملكه كورش (٢) دوله بابل (٣) دولة ليدية (٤) دولة مصر .

وعندما كان الوضع الدولى على هذا الوجه ، كان نبو نهيد يقود جيشه تاركا «ادوم» ليغزو شمالى بلاد العرب ، فحارب «تيماء» ، الواحة الحصينة وقتل ملكها وبنى فيها قصرا وسكن فيه . وتدل الوثائق من هذه السنين على سير القوافل من الابل الى تيماء لنقل المؤن الى نبو نهيد فى تيماء . وفى ذلك الاثناء كان «بيل شاصر» ملكا على بابل بالنيابة عن ابيه . وتدل ألواح النطس على ان نبو نهيد كان فى تيماء من سنة حكمه السابعة حتى سنه الحادية عشرة على أقل تقدير ، ومما يقال فى سياسة هذا الملك وابنه اهمال الطقوس الدينية فى اعياد رأس السنة البابليه وادا أضفنا الى ذلك اهتمام الملك بمعبد حران ادركنا سبب غضب الكهنة البابليين ولا سيما كهنة مردوخ لما فى سلوك الملك من خسائر مادية تلحق بهم .

وبعد انتهاء كورش من القضاء على «ساردبس» عاصمة مملكة ليدية رجع نبو نهيد الى بابل فى عام ٥٤٥ ق . م ، لعل ذلك كان بسبب تهديد كورش لسورية ولتيماء .

ومما يقال فى أحوال بلاد بابل فى عهد الملك «بيل ـ شاصر» تفسخ الاداره ، تلك الادارة القوية الحازمة التى أسسها نبوخذنصر ، فساء الحكم

وعمت الرشوة وازداد الظلم على السواد الاعظم ولا سيما الفلاحين فبارت الحقول • حتى ان بلاد بابل قد هددها القحط والجوع فى عام ٥٤٦ •

(Dougherty, **Records from Erech** (1920) No. 154.

وقد ثار حاكم سوسه «كوبرياس» التابع الى بابل وانحاز الى جانب الفرس وبعد قضاء كورش على ملكة لدية حارب فى شرقى ايران ثم هاجم بلاد بابل • وقد حدثت قبل ذلك حوادث كانت من اسباب انهيار الدولة البابلية الحديثة ، ومن ذلك قيام سو نهيد بجمع تماثيل الآلهة البابليه المهمة ووضعها فى بابل لحمايتها •

وبعد سقوط اوبس ، سقطت سبار فى ١١ تشرين الاول عام ٥٣٩ ق • م ودخل «كوبرياس» بابل فى ١٣ تشرين الثانى عام ٥٣٩ واخذ سو نهيد أسيرا • وقد دخل كورش بابل فى ٢٩ تشرين الاول وبدأ التاريخ الرسمى باسم الملك الجديد فى ٢٦ من تشرين الاول •

ومما يذكر عن اسلوب الدعاية الفارسية ان كورش ادعى بعد دخوله الى بابل بانه جاء بصفه محررا للبابليين وبعده يخاطبهم بلغتهم : «انا كورش، ملك العالم ، الملك العظيم ، الملك القوى ، ملك بابل ، ملك سومر واكد ، ملك جهات العالم الاربع ... سبل الملوكيه منذ القدم ، الذى يحب حكمه الاله بل (مردوخ) والاله «سو» ، الذى سر قلبهما سلطانه» •

(انظر اسطوانة كورش الحمل الثانى ، ٢٠ فما بعد) •

وقد حازى الكهنة الذين خانوا سو نهيد ، وارجعت الالهة الخاصة بالمعابد فى المدن المخلفة • واصدر كورش الاوامر فى اعادة تعمير المعابد المخلفة كما تدل على ذلك أختام الآجر المكتوب مثل آجر الوركاء : «كورش»

بانى ايساكلا ، وايزيدا ، بن قميز ، الملك العظيم ، اله • وهكذا يستعمل نفس التعابير الدينية المستعملة فى [illegible] نبوخذنصر العظيم •

أما بالنسبة الى اليهود فقد رحبوا هم واسياؤهم بعهد كورش وعدوه «المسيح المسطر» الذى سعيد مملكة صهيون (انظر اشعيا ٤٤) والمهم بهذا الصدد ان الذين رجعوا من اليهود لم يكونوا بأعداد كبيرة ، وعلى كل حال فان اليهود الذين عادوا الى فلسطين أخذوا معهم الاثاث والادوات الخاصة بالهيكل ، مما سلبه نبوخذنصر وقد احدث هذه الاشياء من معبد بابل (اساكلا ؟) وسلمت الى حاكم يهودا الجديد الذى ورد اسمه صيغه «سيشبصر» (Sheshbazzar) وهذا اسم بابلى لعله محرف عن « سمش ـ ابل ـ اوصر » Shamsh-apal-usur ، ولكن مع ذلك فمرجح أن يكون من اليهود البارزين ، وبدأ هذا فى تأسيس الهيكل •

(انظر سفر عزرا ٦ : ٣ ـ ٥ و ١ : ٨)

وعندما كان «الملك نبو نهيد» مشتغلا بتحوته الأثرية افلت شمس الحضارة البابلية • وكان لاشعاته بهواياته قد اودع الى ابنه «بلشاصر» ادارة المملكة • وكان هذا هو الذى رأى «الكتابة على الحائط» بحسب النوراة[1] •

جاءت الضربة القاضية على المملكة البابلية الاخيرة من قوم جدد هم الفرس الاخمينيون الذين ظهروا فى عيلام فى خلال ضعف الامبراطورية

(١) جاء فى التوراة (دانيال ١٠٥ ـ ٩) انه عندما كان الملك بلشاصر فى وليمة خمر فى قصره اذ «ظهرت أصابع يد انسان وكتبت بازاء السراج على مكلس حائط قصر الملك والملك ينظر الى طرف اليد الكاتبة» فجاش الملك ولما لم يستطع احد من كهنته ومنجميه أن يفسر الكتابة التى نصها «مناميا تقل وفرسين» احضر اليه دانيال الذى فسرها على الوجه الآتى «منا ـ أحصى الله ملكوتك وانهاه، وتقل ـ وزنت بالموازين فوجدت ناقصا وفرسين فسمت مملكتك وأعطيت لمادى وفارس» ومما تجدر ملاحظته ان دانيال قد عاش فى بابل من السبى اليهودى فى هذا الزمن وانه نال حظوة فى البلاط البابلى •

البابلية وكانوا فى أول امرهم تابعين الى الملوك المادين • وقد ثار احد زعمائهم المسمى كورش على سيده الهادى «استياجس» وخلعه ونصب نفسه ملكا على جميع الفرس • وبعد ذلك هجم على المملكة الليدية وانتصر على ملكها قارون فى عام ٥٤٦ ق • م • ثم وجه جهوده الى المملكه البابلية التى كان احصاءها وصم أقالمها الغنه الى مملكه أولى أهدافه ، فتم له ذلك فى العام ٥٣٨ أو ٥٣٩ ق • م • بدون مقاومة تذكر[1] كما لخصنا ذلك من قبل •

وليس لدينا ما نذكره من أخبار سقوط بابل سوى روايات من مؤرخى الاغريق الاوائل وبخاصه هيرودوتس وزينفون • فقد مر كورش فى اثناء زحفه على بابل بنهر ديالى (الذى سماه هيرودوس بالجندز) فحدثت له حادثة طريفه رواها هيردوس كما يأتى «عندما وصل كورش هذا المجرى الذى لا يمكن عبوره الا بالقوارب خاض أحد أفراسه البيض المقدسة التى رافقت زحفه فى الماء وكان هذا الفرس حموعا حاول أن يعبر النهر بنفسه ، الا ان التيار جرفه فأغرقه فى أعماق النهر • فأغاظ كورش ذلك واقسم على تأديب النهر حتى يصبح فى حاله يعبره حتى النساء لذلك أجل هجومه على بابل وبعد ان قسم جيشه قسمين علم بالحال مائه وثمانين خندقا على كل جانب من نهر «الجندز» يتفرع منه الى كل الجهات واقام قسما من جيشه فى جانب من النهر والقسم الثانى فى الجانب الاخر لحفر الخنادق وتحويل مياه النهر اليها • وقد انجز ما هدد به بمعونة الايدى الكثيره ، ولكنه جر فصل الصيف بكامله» •

وبعد ان سبب كورش مياه «الجندز» (ديالى) زحف على بابل والتقى بجيوش نبو نهيد فى مدينه «أوبس» وكان الجيوش على ما يرجح بقيادة ابنه «بلشاصر» فنشب معركه قرب الموضع الذى صار فيما بعد يعرف بموقع «سلوقيه ـ طيسفون» فانهزم الجيش البابلى وانسحب الى بابل وتحصن فى

---

(١) حول أخبار سقوط بابل وحاله العراق الاقتصادية والاجتماعيه فى العهد البابلى الاخير وفى العهد الاخمينى أنظر
(Olmstead, **Hist. of the Pers. Empire** (1946)

داخلها . اما عن سقوط المدينة الذى اعقب ذلك فتوجد روايات مختلفة فحجر با كورش نفسه فى احدى كتاباته «ان الاله البابلى مردوخ هو الذى حبذ الحمله فى جميع مراحلها وانه امره أن يذهب بنفسه الى مدينة بابل وسيره فى الطريق اليها ماشيا معه كالصديق ، وانه اذن له ان يدخل مدينته بابل بدون كفاح او نزال .. فطأطأت له رؤوس جميع سكان بابل وكل سومر واكد وعظماء القوم وحكام المدن . وقبلوا قدميه مبتهجين بسلطانه وبشت له وجوههم» ومهما كان الحال فبدو ان المدينه لم تبد مقاومه عنيفة وان كورش بعد حصار لم يدم زمنا طويلا استطاع ان يفتحها .

وهكذا سقطت عاصمة العراق المعظمه الثانيه من بعد «آشور» وكان ذلك رمز نهايه الحضاره البابليه والمجد البابلى . وقد أحد الاسكندر على نفسه احيا المدينه مدفوعا باحترام ماضيها ، الا ان خلفاءه اسوا لهم عواصم جديده على سواحل دجله والعاصى ، فانهارت بعد زمن قصير معابد بابل وقصورها وآلت الى الخرائب المحزنة التى شاهدها اليوم . واصبح العراق لأول مره فى تاريخه ولاية تابعة الى دولة اجنبيه . وقد كنا سنعرد فصولا خاصة الى هذه العهود فاننا نذكر هنا اسماء هذه العهود ودوامها وتسلسلها الزمنى فأول هذه العهود حكم الاخمينيين (٥٣٨ ـ ٣٣٠ ق . م) وقد رأينا فيما سبق كيف ان ملكهم كورش قد أخذ بابل وأزال آخر سلالة بابلية . وقد اتخذ الفرس بابل عاصمتهم الشتوية . وقد حاول كورش وخلفاؤه انشاء مآثر البلاد وصاروا يلقبون انفسهم «ملوك بابل» . وقد دام العهد الفارسى الاخمينى الى فتح الاسكندر للعراق فى العام ٣٣١ ق . م فى عهد آخر ملوك الفرس وهو «دارا» الثالث . وقد ارتأى الاسكندر آراء جسيمة فى مشاريعه منها فكره توحيد العرب والشرق وقد صمم على ان يجعل بابل مركز امبراطوريه وجعلها مركزا بحريا يربطها بطرق تجارية بالهند وبمصر حتى انه شرع فى بناء ميناء فى بابل واخذ على نفسه تعمير معابدها ومن ذلك

برجها المدرج • وفيما كان فى بابل أخذ يعد العدة لتجهيز حملة على جزيرة العرب ولكن مرض ومات بالحمى فى عام ٣٢٣ ق • م • وخلفه فى حكم العراق وسوريه احد قواده المسمى سلوقس وعرف هذا العهد فى العراق بالعهد السلوقى ، كما خلفه فى مصر البطالسة • وقد نجب فوح الاسكندر للشرق البقاء الحضاره اليونانية بالحضاره الشرقية ومنها حضارة وادى النيل ووادى الرافدين ونتج عن ذلك ثقافة جديدة عرفت باسم الحضارة «الهلنستية» وقد شملت ثلاثة قرون من بعد الاسكندر • ودام العهد السلوقى فى العراق اكثر من قرن ونصف القرن (٣١٢ – ١٣٥ ق • م •) وقد شيد مؤسس السلالة عاصمة جديده له فى العراق عرفت باسمه وهى «سلوقية» على دجلة ، وتعرف حرائبها الا ن ببل عمر على دجله مقابل طيسفون (طاق كسرى) • فكان ذلك ضربه قاصمه على بابل حيث هجرها الناس واخذ يعمها الخراب منذ ذلك الحين •

وقد انهى العهد السلوقى فى العراق على أيدى قوم اصلهم من الفرس عرفوا بالفرثيين الذين ظهروا فى اقليم خراسان • وقد بقى الفرثيون فى العراق الى ان حل محلهم قوم آخرون من الفرس فى عام ٢٢٦ للميلاد وهم الفرس الساسانيون وقد امتاز العهد الفارسان ، أى العهد الفرثى والساسانى بكثرة الحروب بين هؤلاء الفرس والرومان وكان العراق مسرحا لكثير من هذه الحروب ، وذلك للاستيلاء على الشرق • ونقل الفرس الفرثيون عاصمة البلاد من سلوقية وابتنوا لهم عاصمه جديده هى «طيفسون» ، مقابل سلوقية على دجلة ايضا ، واتسعت فى زمن الفرس الساسانيين وصارت عاصمة معظمة وطلب عاصمة المملكة حتى فتحها العرب المسلمون فى فتوح العراق ، وسوسعا أن نجعل نهاية العهد الفارسى الساسانى فى موقعة القادسية ٦٣٧ للميلاد • وسيمر بكم الكلام على هذه العهود فى القسم الثانى من الكتاب •

القسم الثاني من الجزء الاول

بعض الاوجه المختلفة

من

حضارة وادى الرافدين

الفصل الثاني عشر
الديانة

١ ـ المعتقدات والخصائص العامة

بعد أن وقفنا على العهود المختلفة من تأريخ وادى الرافدين واستعرضنا نشوء الحضاره فيه وأطوار نموها ونضجها ونهايتها نبدأ بدرس مقومات تلك الحضارة وبعض عناصرها المهمه ونبدأ ببحث الديانة لتأثير الدين فى جميع نواحى حياة الحضاره • اذ كان للدين عند العراقيين الاقدمين ، السومريين منهم والبابليين والآشوريين ، المكان الاول فى حياتهم العامة والخاصة فالدين العامل من هذه الناحية خير مثال ينتخب لدرس تأثير الديانات فى حياة الجماعات والافراد • والواقع ان تأريخ العراق القديم وتأريخ حضاراته يتعذر فهمهما ما لم يمهد لدرسها بفهم ديانة القوم وعقائدهم • ونحن لو حللنا مفهوم الدين بحيث يكون شاملا يصدق على جميع أشكال الاديان لوجدناه يدور على ركنين أساسيين هما أولا اعتقاد بوجود كائن أو كوائن أو قوى فوق البشر والطبيعة وثانيا الاعتقاد بانه من الممكن للبشر ومن الواجب عليهم أن يكون لهم علاقات بتلك الكوائن والقوى • وعلى ضوء هذا التعريف يوسعنا ان نقسم مبحث الديانة الى المواضيع الآتية : ١ ـ عقائد • ٢ ـ عبادات • ٣ ـ نظم وقواعد للسلوك والاخلاق • ٤ ـ منظمات ومؤسسات دينية •

ومما يقال فى تأريخ الديانة ان معرفتنا بالنظم الدينية والمعتقدات التى نشأت فى العراق القديم لا تعدى العصور التأريخيه التى نجد فيها منذ أقدم عهودها نظاما دينيا ناضجا ، أما بداية هذا النظام وأطواره البدائية التى مر فيها قبل ان تطور وتصبح فى الحال التى نعرفه فيها فى العصور التأريخية فلا سبيل لنا لمعرفتها معرفة تأريخية أكيدة لمرور حقب طويلة مجهولة على تلك البداية فى عصور ما قبل التأريخ الطويلة • فلا نستطيع ان نجزم مثلا

فى هل بنى الدين القديم على السحر أو هل كان اصله فى الاعتقاد بوجود روح أو قوى فى جميع الاشياء والظواهر الطبيعيه وهو ما يعرف بمبدأ الحيوية[١] ومهما كان الحال فاننا نجد ان الديانات التى نشأت فى وادى الرافدين قد ابتعدت عن اصناف الديانات البدائيه التى عليها بعض الشعوب الهمجيه فى الوقت الحاضر مثل التوطمية[٢] و «الفيتيشية»[٣] وممـــا يزيد فى صعوبه البحث ان احباسا وأقواما مختلفة ، كالسومريين والساميين قد ساهموا فى نشوء الحضاره بوجه عام والديانات بوجه خاص فى العراق • ولا نستطيع ان نخصص بالضبط الاسباب التى ادخلها فى الديانه كل من هذه الاقوام •

وقد سبق ان ذكرنا فى كلامنا على العصر الحجرى المتأخر احتمال ان اول ديانه واضحة للانسان قد ظهرت فى ذلك العصر وان اول معبود تصورته المجتمعات مما لعلاقته بزراعه الانسان التى تعلمها فى ذلك العصر ، كان على هيئة الهة عامه تمثل الارض والحصب والقوى المولده فى الطبيعه ، ثم اخذ البشر يرون فى قوى الطبيعه الاخرى كوائن علويه جسموها بهيئة آلهه ، وقد كان هذا هو الحال فى الديانه فى حضاره وادى الرافدين حيث اسبغ القوم أهم الظواهر الطبيعة التى كان لها أثر قوى فى كونهم وحياتهـم وجسموها من بعدئذ أى شخصوها على هيئه آلهه • وكانت صفة الظواهر الطبيعه باديه فى آلهه حضاره وادى الرافدين حتى بعد ان تطورت وابتعدت عن أطوار نشوئها الاولى ، كما ان خصائصهـا تعكس لنا مرات شتى وادى الرافدين الطبيعه ولا سيما ناحية العنف والقلق ، ثم ان تصورات القوم عن آلهتهم تعكس الى الكثير عن أحوال العراق الاجتماعية منذ اقدم العهود حيث انهم شخصوا آلهتهم التى كانت بالاصل قوى طبيعة ونسبوا اليها أحوال البشر •

(١) Animism (٢) Totemism والكلمه أصلهـا من احدى لغـــات الهنود الحمـر فى أمريكـــه . ومعناهـــا الاصـــطلاحى حيوان أو نبات يعتقد فيه أنه ذو صله بالقبيله وقد يعد أصلها فيحرم أكله والبه تسمى تلك القبيله وتعبر عن عبرها ونسبها عنه بنظم اجتماعيه معقده •

(٣) Fetishism

ولتوضيح كون اصل الالهة من الظواهر الطبيعية نذكر اهم القوى التى اتخذت آلهه • فمثلا كانت السماء بوجه عام على رأس الظواهر الطبيعية ، فالسماء والارض عندهم يؤلفان الكون (كما تشير الى ذلك اسم الكون بالسومرية «آن ــ كيى» فكان الاله «آنو» الممثل للسماء على رأس الآلهة البابلية • ويمثل «آنو» اصل السلطة فى الكون ويأتى بعده فى الدرجة الاله الذى يمثل الجو والهواء ، وهو «انليل» ، ويمثل هذا القوة ، واذا كانت السماء اصل السلطه فان الجو والهواء القوه المنفذه • وبعد ذلك يأتى العنصر الثالث المرتى ، وهو الارض وما فيها من قوى مولده ، فحسمت بهيئة الهة سميت بأسماء كثيره لا تحصى على ما سنبين فيما بعد • والارض عدا انها مصدر الحصب والنبات وانها مصدر الماء ، فكان الماء عنصرا مهما من قوى الطبيعة التى حسمت على هيئة آلهة ، وقد دعى «انكى» (اى سيد الارض) ، أى انه العنصر المذكر فى قوى الارض المولدة ، ووصف انكى بالحكمة والدهاء وقوة الحلق ، مما هى صفات الماء التى يشعر بها من يمارس شؤون الارواء مثل سكان العراق القدماء •

وأول ما نذكره عن الديانه فى حضارات وادى الرافدين وفرة المصادر الاصليه التى جاءتنا عنها وتنوعها مما نتج عن التنقيب والبحوث الآثاريه الكثيرة ، ولا تقتصر مصادرنا عن الديانة على الكتابات والآداب الدينية بل تشمل كذلك فنون العماره الدينيه كالمعابد ، وفنون النحت المخصصة للاغراض الدينية لتماثيل الآلهة والكهنة والمشاهد الدينية المنحوتة كمشاهد الصلوات وتقديم القرابين وكذلك الآلات والادوات الخاصة بالديانة مما لا حصر لها ، والاختام الاسطوانية التى تمثل كثيرا من المشاهد الدينيه وصور الآلهة والاساطير المتعلقه بها • أما الكتابات الدينية فهى وافرة منوعة ايضا نذكر منها الاصناف الآتية على سبيل المثال :ــ (١) الاساطير والقصص ، وقد كانت بعض الاساطير ذات علاقه وثيقة باقامة الشعائر والرسوم الدينية وبعضها أساطير وقصص أدبية بحته صرفه مثل اسطورة الخليقة وقصة جلجامش ،

واساطير كثيره حول اصل الاشياء والوجود والآلهة مما سنذكره فى مبحث الآداب • (٢) مجاميع من الارشادات فى كيفية اقامة الشعائر الدينية المختلفه، كالصلوات ، وكيفية بناء المعابد وتطهيرها وما يجب ان يقام من الشعائر فى حالات بعض الظواهر الطبيعية كالخسوف والكسوف الخ والى ذلك فوجد مجموعات من الصلوات والتراتيل الدينية المخصصة الى الآلهة المختلفة • (٣) التعاويذ والرقى ، مما يدخل فى باب النصوص السحرية • (٤) نصوص الفأل والتنبؤ وطرق الكهانه والعرافة • (٥) نصوص خاصه بالتنجيم ، أى رصد الكواكب والاجرام السماوية لمعرفة اثرها فى شؤون الناس • (٦) وهناك مؤلفات عن الآلهه جاءت على هيئة اثبات بالآلهة وعلاقاتها بعضها ببعض • (٧) الوثائق الاداريه الخاصة بالمعابد واملاكها وموظفيها وطبقات كهنتها والى هذه الكتابات الدينيه الصرفة فهناك المصادر الكتابيه الاخرى التى تعيننا بصوره غير مباشره على فهم النواحى الدينيه ، كالشرائع ، والرسائل واسماء الاشخاص والعقود وغير ذلك من الكتابات[1] •

ومن الصعب الاشاره فى دقه وتحديد الاطار الذى صنع الاستمرار التأريخى ، فانه عندما بلغت طور النضج فى العصور التأريخيه فى الالف الثالث ق • م لم يطرأ عليها من حيث اسسها واصولها تغيير كبير فى جميع العصور التأريخية الطويلة التى مر بها العراق القديم حتى زوال الاستقلال السياسى فالآلهة التى قدسها سكان العراق فى العصور التأريخية المتأخره هى بوجه التقريب الآلهة القديمة نفسها التى قدسوها فى الادوار القديمه وكذلك يقال فى الطقوس والشعائر والرتابيل الدينية الاساسية • أما التغييرات التى نجدها فهى فى علاقة الآلهة بعضها ببعض • اذ كانت تلك العلاقات وكذلك مكانة الآلهة واهميتها تتغير تبعا للتبدلات السياسية • فعندما تبلغ مدينة قوة سياسية وتبسط سلطانها على المدن الاخرى يعظم عند

S. H. Hooke, Babylonian and Assyrian Religion (1953) 13 ff.

ذلك شأن الهها فبعد الكهنة على تحوير علاقة هذا الاله بغيره من الآلهة • وهذا ما حدث عندما عظم شأن بابل فى زمن سلالة حمورابى فارتفع شأن الهها مردوخ وصار سيد الآلهه ، وكثيرا ما عمد الكهنة الى تحوير المعتقدات الدينية لتتفق مع التغير الحاصل فى مكانة الآلهة • كما ان المدن المختلفة قد تفرد بعباده اله أو جملة آلهة حيث تخصها بالتعظيم ، ولكنها لا تشرك تقديس الاله الاخرى أو على الاقل لا تنكر وجودها • وهذا ما يعرف بمبدأ التفريد (henotheism) اى خص اله أو جملة آلهة بالتعظيم والعبادة دون ترك الآلهة الاخرى •

الشرك والتشبيه

وينطوى على الدين البابلى مبدأ الشرك أى تعدد الآلهة[١] وقد بلغ عدد الآلهة مبلغا بحيث تملأ معجما كبيرا[٢] ، ووضع البابليون أنفسهم اساتا (جداول) بأسماء آلهتهم الكثيرة ، وضموا الى مجامع وذكروا علاقاتها بعضها ببعض • وقد قسموا الكون الى مناطق تحكم فى كل منها اله أو مجموعة من الآلهة • وكذلك خصصوا لشؤون الحياة المختلفة ولظواهر الطبيعة آلهة يدها بنظامها واسبابها ، ولم يصل البابليون فى كل ما عرفه من أطوار تاريخهم الى طور التوحيد • وانما ، كما ذكرنا ، قد يفردون بعض الآلهة ويفضلونها على الآلهة الاخرى •

ومن الخصائص البارزة فى الدين البابلى طغيان صفة التشبيه على الآلهة البابلية ، ويقصد بالتشبيه[٣] ان البابليين نسبوا الى آلهتهم صفات البشر الروحية والمادية كالصورة والاعضاء والفكر والرأى والعواطف كما عند الانسان ، فقد تصور البابليون آلهتهم على صورتهم وشبههم • ومن مظاهر

---

(١) Polytheism

(٢) أنظر أشهر المعاجم المؤلفه حديثا بهذا الخصوص •
(Talliqvist, **Akkadische Götterepitheta** 1938).

(٣) أو مذهب المشبهة (Anthropomorphism)

التشبيه انهم نسبوا الى الآلهة حتى الاوضاع السياسيه التى كانت فى بلاد الرافدين منذ فجر التأريخ مثل عروهم الى الآلهة مجالس الشورى المقدسة حيث تجتمع الآلهة فيها وتقرر شؤون الكون بالمداولة والشورى على غرار ما ذكرناه من الديمقراطية الدائمة فى العصر الذى سميناه بالعصر الشبيه بالكتابى وفى مفتتح عصور فجر السلالات ، وكان لكل اله حاشية كثيرة وزوجة وسرارى واولاد فهى تعيش وتأكل وتسكن فى المعابد التى شيدها لها البشر ومع ذلك فقد مروا الآلهه عن البشر بصفة فارقة وهى الخلود ، فهى لا تموت بعكس الانسان الذى قرن به الموت منذ ان خلقه الآلهة حيث «استأثرت لنفسها بالخلود» كما جاء فى قصه جلجامش . واذا كان بعض الآلهه يموت فانما ذلك لامد محدود ، وان رجوع الاله الذى يموت وقيامته من عالم الاموات الى عالم الاحياء أمر ممكن . كما هو الحال فى الاله «تموز» الذى يمثل حبة الربيع والحصاد والزرع . ومساكن الآلهة فى السماء واذا شاءت ان تنزل الى الارض فانها تعيش فى بيوت ضخمه هى المعابد التى يشيدها لها الانسان وكانت المعابد احسن العمارات فى المدينة وافخمها . ويبد الآلهة مصير البشر والكون ، وتدير شؤون العالم وتقدر أقداره . وقد مثلوا آلهتهم بصور آدمية تختلف قليلا عن البشر العاديين كالمبالغه فى سعه اعينهم وآذانهم الخ أو وجود اربع عيون ، وقد مثلت الآلهة البابلية وهى تلبس تيجانا ذات قرون وهذه سمة الآلهه المميزه فى الاصنام التى تمثلها منذ اقدم العهود . ومما يجدر التنويه به بهذا الصدد الفرق البارز بين تمثيل قدماء المصريين لآلهتهم وبين تمثيل سكان وادى الرافدين الذى اسلفنا ذكره ، فنجد الآلهة المصرية كثيرا ما تمثل بهيئه كائنات مركبة . مثلا من جسم انسان ورأس حيوان ، فالاله «حوم» بهيئه كبش ، و «هورس» بهيئه صقر و «انوبيس» ابن آوى و «سوبك» ، التمساح و «هاتور» البقرة . وقد يكون لبعض الآلهة البابلية حيوانات مقدسه خاصة بها ، ولكن الآلهة لا تمثل بصورها على غرار الطريقة المصريه ، وانما تكون رمزا لها . كما

ان الآلهه البابلية قد شبه فى بعض صفاتهـا بالحيوانات كأن يقال للاله الفلانى قوه الثور أو انه عجل الاله الفلانى وللالهة الفلانية خصب البقرة .

ولما كانت الآلهه تتصف بصفات البشر المادية والروحية وتحتاج الى جميع ما يحتاج اليه البشر من طعام ومسكن وعناية تحتم على الناس العناية بعباده الآلهة أى العمل لهـا واقامه سوقهـا (أى معابدها) وتقديـم القرابين والمناسك وتقديم المماثيل الى غير ذلك من اشكال العباده. وقد جاء فى اسطورة الخليقه البابليه ان الآلهه «خلقت الانسان لتعبدها» . واذا قصر البشر فى واجبهم تجاه الآلهه فانهم يحاربون بعقاب شديد فى هذه الحياه حيث يكون العقاب والبلاء ، ومن مظاهر تدخل الدين فى حياه البابليين ان لكل فرد منهم الها خاصا هو الهه الحامى الشفيع عدا تدخله بالآلهة الاخرى . وكان الملوك والامراء كل منهم ينسب الى اله أو الهه وقد تكون هذه العلاقة عن طريق النسب أى بنى الآلهه الملوك اسماءلهاء وقد بلغ الملوك العظام مرتبة القدبس والتأليه ولكنهم لم يصيروا آلهه على غرار فراعنه مصر . وتغلب على أسماء القوم دخول اسماء الآلهه فى تركيبها ، وهى دائما تدل على تعلق الفرد بالآلهة ، مثل «ابلى ـ دورى» (أى الهى حصنى) و «البما ـ ابى» أى الهى ابى و«ايليشو ـ ابو شو» أى الهه ابوه و«مانوم ـ بانو ـ املشو» أى من يكن بلا الهه . واسماء ملوك مثل «سرام ـ سين» أى محبوب (الاله) سين ، و «أدد ـ نرارى» أى الاله (ادد) مساعدى و «نبو ـ كدورى ـ أوصر» (نبوخذنصر) أى اله «نبو» يحمى الحدود ، الى غير ذلك من اسماء الاعلام الكثيرة . وكانت أولى الواجبات الدينيه عند البابليين الخوف من الآلهه ، فمالما ما يصف الملوك انفسهم بانهم يخشون الآلهه ، وويل لمن لا يخاف الآلهه ، فالملك الذى لا يفعل ذلك يعرض نفسه ومملكته الى الخراب والدمار . وسخط الآلهة مجلبة للويلات والدمار فى هذه الحياه اذ يتجلى عن الفرد الهه الحامى فتحل فى جسمه الشياطين والارواح الخبيثة . ومن الطريف ذكره فى مثل هذه الالهة الحامية او الشخصية انهم كانوا اذا اصابت الفرد مصيبة يكتبون رسائل

اليها ، فهناك مثلا رسالة يخاطب . ن الهه الحامى مختصرها : «الى الاله ابى قل : هكذا يقول «آبل ـ أدد» خادمك • لماذا اهملتنى هكذا ؟ فمن سيرودك شخصا آخر يحل محلى ؟ اكتب الى الاله مردوح ، الذى يحبك ، لكى يرسل عنى عبوديتى (علنى) وعندئذ سأرى وجهك واقبل قدميك ' راع أيضا عائلتى ، الكبار والاطفال • فارحمنى واحلهم ، ودع عونك يصلنى»[١]

فيتضح من هذه الرسالة عقائد القوم فى آلهتهم بوجه عام ومنازل هذه الآلهة ودرجاتها ، فان الاله الحامى لا يستطيع ان يخلص الشخص المعلق به وحده بل انه يشفع به عند اله عظيم مثل مردوح • وكما ان العقاب على الذنوب تكون فى هذه الحياة كذلك يكون الثواب على الاعمال الصالحة ، وأنواع الجزاء فى هذه الحياة كثيرة اكبرها منح العبد الصالح العمر الطويل ، وكذلك هذه الامنية أعز ما يتمناه البابليون وتحققها من اقوى البواعث على الاعمال الصالحة ومن البديهى ان تكون امنية العمر الطويل مقرونة برغد العيش وسعده • والملوك الذين لا يقصرون واجباتهم الدينية تمنحهم الآلهة النصر على الاعداء فيمكنهم من بسط سلطانهم على دول اخرى •

أبرز العقائد الدينية

١ ـ الموت وعالم ما بعد الموت

لم يشك البابليون فى حتمية الموت وفرضه على البشر وجميع الاحياء • وكان الاله الموكل بالموت موجودا قبل خلق الانسان كما جاء فى اسطوره الخليقة البابلية (انظر موجزها فى بحث الادب) • وكان الموت عندهم من طبيعة الانسان وتركيبه اى انه خلق ومعه حسابه وموته وهو قانون طبيعى قدرته الآلهة عندما خلقت البشر • وعندما حاول جلجامش فى الحصول على الخلود واسمه «صاحبة الحانة المقدسة» ونصحت له ان يكف عن طلب الخلود لان «الآلهة عندما خلقت البشر قدرت عليهم الموت واستأثرت هى

(Before Philosaphy, 1948, 221)

بالحياة» [١] . والواقع من الامر ان فكرة ملحمة جلجامش (انظرها فى مبحث الآداب) ، اى موضوع القصة الاساسى التأمل فى مسألة الموت والخلود اذ انها تبرهن برهانا مؤثرا على حتمية الموت على البشر ، فان بطل الرواية جلجامش بالرغم من قوته وجبروته ومع ان ثلثى مادته من مادة الآلهة فانه لم يستطع ان ينال الخلود بل وحتى حتى فى الحصول على وسيلة لتجديد الشباب .

ولكن البابليين لم يتصوروا ان الموت غاية تنتهى عندها الحياة وتنعدم انعداما كليا ، أى انهم لم يعتقدوا بالفناء المطلق . وانما الموت عندهم انفسام الكائن الحى الى جزئين وانفصال احدهما عن الآخر ، وهما الجسد والروح فالموت تنفصل الروح عن الجسم وتنتقل الى طور جديد من الوجود . اذ تنحدر الروح بعد وضع الجسم فى القبر الى عالم الارواح وهو العالم الاسفل وتعيش هناك الى أبد الآبدين حيث لا قيامة ولا رجعة عندهم بخلاف بعض الاديان الاخرى ومع هذا الانفصال بين الجسم والروح فنبقى بعض الصلة بين الاثنين بعد الموت [٢] . فمثلا توقف راحة الروح فى عالم الارواح على العناية التى يبذلها الاحياء فى دفن الجسم وفق الطرق والسنن الدينية

---

(١) ولم يعرف البابليون الا بشرا واحدا قد وصل الى مرتبه الخلود أى صار فى مصاف الآلهه وهو «أوتو ـ نبشتم» نوح الطوفان عندهم (أنظر موجز قصه جلجامش) .

(٢) لا توجد عندنا أدله كتابيه صريحه بسبب أن البابليين كانوا يعتقدون برجوع الروح الى الجسم فى القبر كما كان يعتقد المصريون القدماء ، ولكن مع ذلك هناك أدلة أخرى تسير الى ما يقارب هذا الاعتقاد اذ لا يمكن تفسير ما نجده فى قبور موتاهم من أثاث ومتاع خاصه بالموتى الا بما يضاهى عقيده رجوع الروح الى الجسم . وان عادة وضع ما يحتاج اليه الميت فى قبره انتشرت فى جميع عهود العراق ، وهى ترجع فى أسسها الى الاطوار البدائيه من حياة البشريه ، الى العصور الحجرية القديمة .

(أنظر بحث الموضوع باسهاب ولا سيما مقارنه ذلك بالمعتقدات العبرانية) فى المرجع

Alexander Heidel, **The Gilgamesh Epic**

تمثالان سومريان يمثلان الها والهة (اله الخصب وزوجته) من عصر فجر السلالات الثانى ـ من تل اسمر (عن مديرية الآثار) (لاحظ المبالغة فى سعة العيون مما تتصف به الآلهة)

وعلى ما يودع فى القبر من زاد وأثـاث وعلى ما يقرب الى الميت بمناسبات مختلفة • ويمكن تفسير طرق الدفن وما نجده فى قبورهم من الاثاث واللوازم الخاصة بالميت منذ أقدم العهود بأنهم على ماذكرنا اعتقدوا برجوع الروح الى الجسم وهو فى القبر[١] • واذا أهمل الاحياء العناية بدفن الميت وفق السنن الدينية أو لم يدفن أو نبش قبره فان روحه لا تستقر فى عالم الاموات وانما تخرج بهيئة شبح يحدث بالاحياء الاذى والضرر •

وقد تصور البابليون موطن الارواح الذى تذهب اليه بعد الموت انه يقع ضمن هذه الارض ، تحت سـطحها الظاهر ، وهو العـالم الاسفل • وقد وصفوه بانه عالم مخيف بهيئة مدينة مسـورة بسبعة أسـوار يحرسها مردة الشياطين وسموه بأسماء مختلفة منها «كيجال» و «الارض التى لا رجعة منها» (ارصة لاماري) وبالسومرية (كورنوحى) وتسكن فى هـذه المدينـه وتحكم فيها الهة شديدة قاسية هى «ايرش كيجال» (اى ملكة العالم الاسفل) التى عرفت بأسماء اخرى مثل «اللاتو» و «بعلة ارصيم» اى سـيدة الارض وساعد هذه الالهة فى حكمها الاموات مجموعة من الالهـة والشـياطين والكتاب لتسجيل الموتى • وقد اضطربت آراء القوم عن حالة الموتى فى هذا العالم ، ولكنهم اعتقدوا بوجه عام انه عالم مخيف يكاد يتساوى فيه الموتى ولا قيامة او رجعة منه اى انهم لم يعتقدوا بعالم آخر للثواب والعقاب اى لا جنة ولا نار عندهم كما فى الاديان الاخرى ، ولكنهـم كانوا يلطفون فى بعض الاحايين من هذه الصورة القاتمة حيث وردت فى بعض مآثرهم ولا سيما فى اللوح الثانى عشر من ملحمة جلجامش ان بعض الموتى من خلفوا الحسنات والمآثر الصالحة او ممن مات عن اولاد ولا سيما الذكور او من قدمت له القرابين على الدوام يعيش فى هذا العالم عيشا فيه بعض الراحة حيث يمنح

---

(١) حول استعراض طرق الدفن والقبور من عهود العراق المختلفه كما وجدت فى النصوص أنظر المرجع الآتى :-
Alexander Heidel, **The Gilgamesh Epic**

الماء والطعام ، وتشير مآثرهم الى انهم اعتقدوا بنوع من الحساب عندما تدخل الارواح فى عالم الاموات •

ويجدر بنا هنا ان نشير الى ان عقائد العبرانيين فى موطن الاموات تشبه من وجود كثيرة ما أوجزناه عن عقائد البابليين ، وفيها اوجه اختلاف أيضا • فيسمى العبرانيون عالم الاموات باسم «شيؤل» وهى كلمة لا يعرف اشتقاقها ومعناها بوجه التأكيد وهى عندهم عالم الارواح الاسفل وتعنى ايضا القبر[١] والموت بوجه عام • وشبيه بما ذكرناه عن عقائد البابليين فى حالة الموتى فى عالم الارواح ان العبرانيين لم يتصوروا هذا العالم بصورة مسرة وانما كان عالما مظلما مخيفا[٢]• واستعملوا لعالم الاموات ايضا كلمة «موث» (موت) • وقد اكتشف حديثا فى ألواح الطين من (رأس شمره) (اوغاريت القديمة) اسم اله الموت بهيئة «موت» وهو «موتو» البابلى[٣] • ويرجح ان العبرانيين احدوا المصطلح من الكنعانيين ، أهل «اوغاريت» • ويستنتج من الوراء ان عالم الارواح أو عالم الموتى فى اعمق أحراء الارض السفلى ، تحت البحر[٤] • وان لهذا العالم مدخل او أبواب كما اعتقد البابليون ، ومن الباحثين من يذهب الى ان جهة مدخل هذا العالم عند العبرانيين من المغرب ايضا • ومما يقال بوجه الاحتمال ان الآراء المستخلصة من التوراة عن عالم الارواح فيها تضارب بحسب المفسرين ، فهناك حالات لم يذهب فيها ارواح بعض الموتى الى «شيؤل» بل الى السماء ، ولا سيما أرواح الصالحين (مثل خنوخ) وبعضهم مثل «الياهو» قد صعد الى السما ، وسيطمع ان يعود الخيره

---

(١) واسم القبر المعتاد فى العبرانية «قبر» مثل العربية . ولعل «شيؤل» هى الكلمة الشعرية للقبر •

(٢) انظر الاشارات الواردة فى التوراة عن «شيؤل» فى
(Alexander Heidel **Op. Cit.**, P 174—175)

(٣) **(Zeitschrift für Assyriologie,** vol 43, 16 43)

(٤) انظر مثلا (التثنية ٣٢ : ٢٢) والمزامير ١٣٩ : ٨ واشعيا ١ : ١٣ ـ ٥ وعاموس ٩ • ٢ ، وأيوب ٢٦ : ٥

التى اسبولت على الافراد الصالحين فى محاولتهم تفسير مصير الشريرين والصلحاء وهل يذهبون الى مصير وموضع واحد هو «الشيئول» ؟ والحقيقة ان هذه قضية معقدة محلف فيها بالنظر لعدم وجود نصوص صريحة فى التوراة حول موضع العقاب والثواب أو دار النعيم والجحيم وهناك بعض المواطن فى التوراة (المرامير رقم ٧٣) تشير الى ان نفوس الشر لا تذهب جميعها الى موضع واحد • واذا اختلفت النصوص الصريحه فى التوراة حول «شيؤل» فان بعضها (مثل المرامير رقم ٤٩) ما يشير الى ان هذا الموضع خصص للاشرار فقط ، وان الصلحاء اذا ذهبوا الى «شيؤل» فانهم يخلصون منها بمشيئة الله ، فيكون معنى هذا الموضع مرادفا «لجهنم»[١] ، ولكن هذه الأمور كلها استساغت مختلف فيها مأخوذة بالدرجه من «المرامير» ، ولعل هذا التضارب فى الدلالات المستخلصة من التوراة حول عالم الارواح والعالم الآخر يمكن تفسيره بما طرأ من التطورات على افكار العبرانيين كما تعكسه لنا التوراة ، ففى الكتب القديمه منها نجد ان مصير أرواح الشر جميعهم الى العالم الاسفل ، واكن ظهرت فى الكتابات المتأخره فكرة موطن سماوى للارواح الصالحين تذهب اليه من بعد الموت •

٢ ـ الخليقة وأصل الوجود

شغل سكان العراق الاقدمون بقضيه اصل الوجود والانشاء كما شغل غيرهم من البشر فى جميع الازمان • وقد نشأ عن الكهنة فى العراق القديم واصحاب الرأى والمعرفة منهم مذاهب وعقائد مختلفة حول اصل الوجود ،

---

(١) والجدير بالذكر عن اشتقاق اسم «جهنم» انه من الكلمة العبرانيه «جهنوم» (بفتح الجيم كالفارسيه) أى «وادى هنوم» القريب من القدس وهو موضع كان العبرانيون القدماء يمارسون فيه عاده الضحايا البشريه لاحد آلهه النار «مولك» ثم صاروا يرمون فيه أجسام المجرمين والماذورات ويشعلون فيه نارا دائميه منعا من انتشار العفونه منه ، فصار بذلك مرادفا لموضع العذاب أى النار أى جهنم •

وقد خلعوا الى هذه الآراء بهيئة ملاحم شعرية وقصص واساطير دونوها على ألواح الطين • وكانت هذه القصص والاساطير معددة تختلف من حيث المادة والعهد وتصارب الآراء المستحة منها فى بعض الاحايين ولكنها تتفق فى الفكرة الاساسه • وقد حاكما من السومريين والبابليين نماذج من هذه الآداب الدينية وسذكر بعضها فى فصل خاص ، وبالاستناد الى هذه الآداب والقصص الدينيه سنطلع ان نلخص عقائد القوم فى اصل الوجود والاشياء بالامور الآتيه :

(١) يستدل من قصه الخليقه البابليه (انظر ملخصها فى موضع آخر) ان المياه الاولى كانت المادة الاولى التى وادت منهـا جميع الاشياء • وكانت هذه المياه الاولى مضطربه مشوشة ومؤلفه من عنصرين من الماء مختلطين ، الماء العذب (وهو العنصر المذكر) والماء المالح (العنصر المؤنث) • وقد حسم البابليون هذين العنصرين من المـاء وعدوهما الاها والهه وهمـا «اسو» و «تيامة» ومن هذين الالهين الاثنين ولدت جميع الآلهه • (٢) وقد فصل الاله «مردوخ» جسم «تيامه» وكون من نصف منه السماء ومن نصفه الباقى الارض ثم خلق الكواكب والنجوم وخلق بالاشتراك مع ابيه الاله «ايا» الانسان من دم احد الآلهة • وفى رواية اخرى عن الخليقة ان الانسان خلق من دم اله ومن تراب الارض والظاهر ان خلق الانسان قد جاء بعد خلق الكون والحيوان والنبات ، ثم خلقت الاشياء الاخرى الخاصة بالعمران البشرى من فلح وزرع ومدن الخ • فكان اصل الاشياء بموجب اسطوره الخليقه البابلية ينطوى على شطرين أو عنصرين من الخلق متداخلين ، فالاولى مجىء الآلهة والاشياء الاساسية فى الكون والثانية كيفية ظهور نظام المجتمع والحضارة • وسيتضح من تلخيص هذه الاسطورة وتحليلهـا فى مبحث الآداب ان اسسها مبنية على مشاهدة الاحوال الطبيعية والجغرافية فى وادى الرافدين الاسفل ، كما يلاحظ فيها ان عملية الخلق وايجاد نظام الكون لم يتم بعملية هادئة سلمية ، كما هو الحال فى أساطير الخلق المصرية وانما كان

دلك فى كفاح وصراع بين الآلهة التى قلنا انها تمثل عناصر الطبيعة الاساسية .

وجاءت آراء اخرى فى القصص السومرية القديمة حول اصل الوجود والاشياء ، ولكنها وردت بما سميه نحن اساطير دينية اى انها وردت بلغة الاساطير والدين ولكننا مع دلك نستطيع ان نستخلصها من غلافها الاسطورى الدينى ، واذا ما فعلنا دلك وجدنا ان الآراء التى خلفها لنا اولئك المفكرون الاولون لم تكن بالبدائية الساذجه بل كانت فى الواقع محاولات فلسفية جريئة فى التفكير فى هذا الكون واصل الوجود والاشياء . ويوسعنا ان نقول ان السومريين سبقوا فلاسفة الاغريق بقولهم بمبدأ العناصر الاربعة الاولية التى عدت اصل جميع الاشياء ، وتلك هذه الآراء مستنتجة من القصص والاساطير السومرية .

١ ـ كان فى البدء عنصر الماء الذى كان ارلا والها فى الوقت نفسه .

٢ ـ تولد من عنصر الماء عنصر آخر هو عنصر الارض والسماء متحدتين، وكانت الارض والسماء الهين كذلك .

٣ ـ وتولد من السماء والارض المتحدين عنصر غازى هو الهواء المتمدد الذى فصل بتمدده السماء عن الارض ، وسموا الهواء وجعلوه الها هو الاله «انليل» .

٤ ـ وتولد من الهواء القمر، ومن القمر ولدت الشمس ،وسموا كلا من القمر والشمس وعدوهما الهين[1] .

٥ ـ وبعد انفصال الارض عن السماء نشأت أنواع الحياة الاخرى من نبات وحيوان وانسان على الارض ، وقد تصوروا ان اصل الحياة والاشياء

---

(١) أنظر
(S N Kramer, **The Sumerian Mythology,** 1944)

من اتحاد الهواء والتراب «الارض» والماء بمساعدة الشمس ، وهذه هي نظرية العناصر الاربعة .

٣ ـ السلوك والاخلاق والحياة الصالحة

لعل منشأ تأثير الدين في أخلاق الافراد وسلوكهم من الاعتقاد بوجود دار للعقاب ودار للثواب سواء أكانا في هذا العالم أم في عالم آخر فيما بعد الموت أم في كليهما يحاسب فيهما الانسان عن أعماله . فوضعت في الاديان القواعد لتحديد أعمال الخير واعمال الشر ليسير بموجبها البشر في هذه الحياة . وقد سبق ان علمنا ان البابليين لم تتولد عندهم فكرة دار العقاب ودار الثواب فيما بعد الموت ، اي انه لم يكن عندهم جنة ونار او نعيم وجحيم بل ان العقاب والثواب زمنان اي يكونان في هذه الحياة . ونشأ عن هذا الاعتقاد تمسك القوم بالسلوك والاخلاق التي فرضتها عليهم دياناتهم وقد فرض عليهم الآلهة عدا العبادات والشعائر التي تقدموها للآلهة ان يتمسكوا بشرائع الآلهة اي القوانين المستمدة من الآلهة ، وسنطلع ان نلمس تأثير الدين في أخلاق القوم في معاملاتهم التجارية مثلا، حيث نجد الآلهة تتدخل في العقود والصكوك في القسم من جانب المتعاقدين ليلا يقعوا في الغش . وتذكر لعنات الآلهة في الشرائع على من يبدل نصوصها ويحرفها كما ورد ذلك حتما في شريعة حمورابي . ونجد أثر الدين جليا في اعمال الملوك وسلوكهم ، كما يدل على ذلك أحبارهم وسجلاتهم الرسمية . فمن الصفات الحسنة التي يعتون بها انفسهم انهم ملوك عدل يخشون الآلهة ويطيعون شرائعها ويشيرون العدل بين الخلق ويعتمدون ارادة الآلهة .

ومن آثار الاعتقاد بالثواب والعقاب في هذه الحياة وانقاء فكرة الاثم والشعور في حياة اخرى ان البابليين اقبلوا على الدنيا وعملوا لها بخلاف لحضارة المصرية القديمة التي خصصت معظم جهودها لشؤون الموت ، في حين ان الحياة الدنيا والنعم والمتعة في هذه الحياة قد ظهرت في حضارات

العراق القديم واضحة فى مقوماتها وخصائصها ويبدو ان ملوك العراق الاقدمين قد دفعهم انماء الخلود فى عالم آخر الى تخليد انفسهم للاجيال القادمة بالاعمال العمرانية ، ونراهم يشيرون الى هذه المحاولة صراحة فى كثير من سجلاتهم ومآثرهم • وقد وردت فى بعض مآثرهم وفى قصصهم ان بعض ابطالهم ومنهم «جلجامش» قد قام باسفار ومغامرات الى موضع قصى لكسب اسمه فى موضع خصص لاسماء الآلهة • ومعنى ذلك ان خلود ذكره واسمه واسان حاله بقول «والذكر للانسان عمر ثانى» •

وقد تصور سكان العراق الاقدمون الكون على هيئة دولة او مملكة تحكم فيها الآلهة وتدير شؤونها وتتدرج السلطة فيما بينها وتتوزع الاعمال ، وتتجلى فيها مبدأ الطاعة والا لما امكن وجود المجتمع والدولة ، فصارت الطاعة أى اطاعة القوانين والسير بموجب انظمة المجتمع على رأس الفضائل المطلوبة من الفرد[١] ، وتتدرج الطاعة وتتنوع من طاعة الفرد الى رأس عائلته الى طاعته الى رأس المجتمع والآلهة وبلغ من تقديرهم لفضيلة الطاعة انهم تخيلوا ظهور عهد ذهبى بين البشر تسود فيه الطاعة كما جاء فى احد الرقائم الدينية :ـ

«سيأتى أزمان لا يهين فيها شخص شخصا آخر ، والولد يخل اباه ، أيام ستسود فيها الاحترام والطاعة فى البلاد ، حين يمجد المتواضعون العظماء ... الخ»[٢] وتكون السلطة والحكومة من أسس المجتمع وبدونهما لا يمكن تصور مجتمع ما ، والهما توجه الطاعة والخضوع وقد ورد فى امثالهم الكثير مما يعكس لنا نظرهم فى استحالة وجود المجتمع البشرى بدون سلطة او حكومة وملك : «الجنود بلا ملك خراف بلا راع»[٣] و «العمال

---

(١) انظر Jacobsen, **Before Philosophy** (1951), ch VII

(٢) ذات المصدر

(٣) أنظر محله **R A. XVII,** P 123

بلا رئيس مساه بدون حدول ولا مراقب»[١] و «الفلاحون بدون رئيس (سركال) كحمل بلا حارث»[١] وقد فرض على أفراد المجمع ان يشعروا ان السلطة هى على الدوام على الصواب مهما عملت «أوامر الفصر مثل امر آلو لا يمكن ان يرد • كلمة الملك هى الحق الصحيح • وكلمه مثل كلمة الاله لا يمكن تحديها»[١] •

واذا ما تساءلنا عن البواعث التى تحتم أفراد المجمع النابلى على الطاعة الى الآلهة والسلطه وعما سيحسه الفرد من وراء ذلك فان جواب ذلك يكمن فى نظر سكان وادى الرافدين الى مركز الانسان ومكانه فى النظام الكونى وعلاقته بالآلهة وسبب خلقه ، فقد المحنا فيما سبق ان العله من خلق الانسان انما كانت لعبد الآلهة اى ليكون عبدا لها • فكما ان العبد المطيع لسيده ينتظر جزاء طاعته الحماية من سيده والجزاء والثواب منه ، فكذلك هذه الامور هى التى يشدها العبد من الآلهة ، ولكن فى هذه الحياة ، وقد رأينا فيما سبق كيف انه كان لكل فرد انه شخصى هو الهه الحامى الذى كان يلازمه ويشفع له عند الآلهة الاخرى وتتوقف علاقة الاله الحامى بالفرد وملازمته له على طاعة الفرد الى الالهة والسلطة وكل ما تفرضه قواعد السلوك والاخلاق ، ولكن الجزاء وما ينتظره الفرد من جزاء طاعته ليست من الحقوق الواجبة الاكيدة التى سوفها الفرد دائما ، بل انها مع طاعة الفرد فضل تتفضل به الآلهة والسلطة على الفرد[٢] • ولكن تطور المجتمع البشرى فى وادى الرافدين بمرور القرون أحدث آراء الناس تغيرا فى نظرهم الى مفهوم العدالة وهل هى حق من حقوق الفرد على الدولة أو هل هى شىء يتفضل به السلطة على الفرد ، وتبلورت الفكرة الاولى وظهرت جليا فى شريعة حمورابى العظيمة حيث نجد فكرة العدالة كحق من حقوق الفرد واضحة فيها •

---

(١) المصدر رقم (٣) الص ٢٣٨ •
(٢) المصدر رقم (١) الص ٢٣٨ •

ولكن يلزم علينا ألا نتصور ان آراء القوم فى قيم الحياة وسلوكهم بموجب ذلك قد بقيت ثابتة ، أو ان القوم لم يطرق اليهم الشك فى قيم الحياة والسلوك والاخلاق • فاذا ما رجعنا الى آدابهم وقصصهم واساطيرهم وجدنا ذلك جليا • فمثلا فكروا وشكوا فى مسألة الموت ومصير الانسان بعد الموت ، وكان هذا أمرا شغل عقولهم بحيث يمكننا عد اعظم قطعهم الادبية ، وهى ملحمة جلجامش ، قد اوحتها لهم مسألة الفكر فى مصير الانسان فى هذه الحياه (وسنلخص القصة فى مبحث الآداب) ، كما ان فكرة اصل الخير والشر قد شغلت عقولهم فانعكست فى آدابهم • واذا نظرنا الى ملحمة جلجامش على ضوء ذلك وجدناها انها لم توفق الى حل تلك المشكلة الكبرى فى حياة البشر ، تلك هى مشكلة الخلود ومصير الانسان بعد الحياة ، فبعد أن ترهن الملحمة باسلوب مؤثر على حتمه الموت واستحالة الخلود للانسان نجدها تتضارب فى آرائها فى نوع السلوك الذى يجب أن يسلكه الانسان فى هذه الحياه • هل هو سلوك اللذة والتنعم فى هذه الحياة كما جاء على لسان صاحبة الحانة ، أو هل هو سلوك ينطوى على الادعان لما لا بد منه وضبط النفس والقيام بما يترتب على الانسان من أعمال لتخليد نفسه فى هذه الحياة كما فعل بطل الرواية جلجامش فى آخر حياته ؟ والجواب على ذلك اننا نجد كلا النوعين من السلوك فى تلك الملحمة الخالدة •

واذا كانت هذه الملحمة لم توفق التوفيق كله فى الجواب على اصل الخير والشر ونوع السلوك الفردى ، فان قطعا ادبية أخرى من بعدها عالجت الموضوع نفسه ووجدت له حلولا محللة • فأولا ظهر الشك عند القوم فى ارادات الآلهة نفسها وفى اعمالها، واذا كان مايصيب العبد المطيع من الخير فى العصور القديمة يتم باسعطاف الآلهة والسلطة على مجاراته خيرا ، فقد تغيرت القيم فى العصور التالية ، فأولا اصبح العدل ، كما ذكرنا ، حقا من حقوق الفرد ، وثانيا اذا لم ينل الفرد الجزاء الذى يستحقه من سلوكه الصحيح تجاه الآلهة فانه بدأ يشكك فى ارادة الآلهة ويتجرأ فى السؤال عن اعمالها •

ولعل خير ما يعكس لنا هذا الاتجاه الجديد من التشكك فى قيم الحياة والسلوك قطعتان أدبيتان تعدان من القطع الادبية الخالدة • اولهما تسمى بعنوان «لامجدن رب الحكمة»[١] التى تضاهى كتاب أيوب فى التوراة فى موضوعها وفى المشكله التى عالجها ، ويمكن ايجاز موضوعها مثل قصة أيوب بأنها تدور على «العبد الصالح المعذب» • أما القطعة الثانية فهى فريدة فى بابها اذ انها تدور على التشكك والسخرية بقيم الحياة والسلوك •

ولما كانت هاتان القطعتان على قدر عظيم من الاهمية فى تأريخ الفكر البشرى وتعكسان لنا عقائد سكان وادى الرافدين فى موضوع السلوك والحياة الفاضلة وخير نموذجين على أدب وادى الرافدين القديم فاننا نوجزهما هنا • فالبطل فى القطعة الاولى ، ولنسمه «ايوب البابلى» ، عبد صالح اطاع الآلهة وسار بموجب سننها واطاع السلطةفلم يذنب كما يعتقد هو بذلك كما جاء على لسانه :ـ

«لم اعرف سوى الصلوه والعباده • وكانت افكارى مشغولة بالتضرع الى الآلهة ، والتضحية لها ، وكانت ايام عباده الآلهة أيام سرور قلبى ، والايام التى اسير فيها فى مواكب الآلهة ايام بشرى وكسبى فى الحياه • وكان تمجيد الملك سرورا لقلبى ، والموسيقى التى تعزف له مصدر حبورى وغبطتى • أوصيت اهلى وتبعى ان يراعوا رسوم الآلهة وشعائرها • وعلمت الجند ليطيعوا القصر ، عارفا بذلك ان هذه الاشياء مما تسر الآلهة •• الخ»•

ولكن على الرغم من صلاحه وتقواه يجد نفسه وقد حلت بساحته المصائب والشرور اذ يقول : «لقد انى مرض «آبو» على جسمى وغطاه كالرداء • واصبح النوم كالشبكة التى تصطادنى • اذناى مفتوحتان ولكنهما

---

(١) وبالبابليه (ludlul bel nemeqi) انظر النص الاصلى فى :ـ
(1) Langdon, **Babylonian Wisdom**, PP. 35—66)
(2) Pritchard, **Ancient Near Eastern Texts** (1950).
وانظر تحليلها القيم فى (Jacobsen, **Before Philosophy**, 228)

لا تسمعان • لقد استولى على جسمى الضعف • واصبح السوط الواقع على يرعبنى ويخيفنى • يطاردنى معذبى فى النهار ، ولا يترك لى الراحة فى الليل • لقد خذلنى الاله • لم يأت اله لمساعدتى ، ولم نعطف على الهتى فتخلصنى من مصائبى» • وقد حسبه الجميع انه ميت فأخذ المعلقون به يعملون بموجب ذلك : «كأن العمر مفتوح حين نهوا كوزى ، وحينما لم اكن قد مت فانهم انقطعوا عن البكاء ، وفرح بى حسادى ومبغضوى» •

فهذه حالة واضحة على عبد صالح ولكنه يقاسى العذاب والآلام مما يناقض تعاليم الكهنة من ان العبد المطيع يحسن اليه الآلهة • فما هو الجواب على هذا التناقض ؟ واذا رجعنا الى النص الاصلى وجدناه يقدم حلين لهذه المشكلة الاخلاقية • حل عقلى موجه الى الفهم والفكر الذى يحاول فهم المشكله وحل عاطفى موجه الى القلب الذى جاشت فيه العواطف من جراء ما أصاب ذلك العبد الصالح من عذاب وآلام لا يسنحقها فى الظاهر[1] • فالحل العقلى ان مؤلف القطعه الادبية ينكر امكان تطبيق مقاييس القيم البشرية على أعمال الآلهة • فالانسان ضئيل حقير ، قاصر النظر ، لا يستطيع استكناه الحكمة فى اعمال الآلهة وتصرفاتها فيحكم عليها بموجب مقاييسه وقيمه القاصره فقد جاء على لسان ذلك المعذب الصالح : «ان ما يبدو صحيحا فيسخط الشاء بعين المرء ، قد يكون محقرا بأعين الآلهة ، وما قد يترآى للمرء من انه قبيح رديء ، قد يكون حسنا بعين الاله • فمن ذا الذى يستطيع ان يدرك فكر الآلهة وقصدها فى أعماق السماء ؟ ان افكار الالهة كالمياه العميقة ، فمن يستطيع سبر غورها ؟ وكيف يستطع البشر وهم محفوفون بالظلام ان يدركوا قصد الآلهة وطرقها ؟ » •

وعلى هذا فحل ذلك من الوجهة العقلية ان حكم الانسان ومقاييسه ليست مطلقة ، فانه مخلوق ابن ساعته ، محدود النظر ، متغير فى حكمه ومقاييسه فلا سبيل لادراك غور قصد الآلهة واعمالها الازلية التى وضعت

---

(١) (Jacobsen, Ibid., P. 230)

لجميع الازمان • «فان من [illegible] يموت اليوم • وفى لحظة واحدة يغمره الظلام ويسحق فجأة • وفى لحظة (تجد) الانسان يغنى فرحا وحبورا، ولكنه سرعان ما يبكى ويندب • وبين الصباح والمساء يتغير مزاج البشر • حين يكونون جياعى يصيرون كجثث الموتى ، وحين يمتلؤن شبعا يراحمون الهمم • واذا سارت الامور معهم سيرا حسنا حاولوا العالى والصعود الى السماء ، واذا حلت بهم نازلة نزلوا الى العالم الاسفل» •

ولكن مع هذا التبرير العقلى لحالة العبد الصالح المعذب فان القلب لا يزال متشككا فى الامر • وحل ذلك فى الملحمة ان العذاب الذى يحل بالعبد الصالح لا يظل ملازما له الى الابد • بل انه ، كما جاء فى قصة ايوب ، بلوى وامتحان من جانب الآلهة ، التى ترفع عن المعذب عذابه بعد حين وتعيده الى سابق عهده •

أما القطعة الادبية الثانية فتعكس لنا مراحا آخر ، هو مزاج التشاؤم والتشكك فى القيم الاجتماعية الراهنة ، فكل شىء مهما كان ظاهر الصلاح والفائدة الا وله جوانب يمكن ان يظهر بها تافها معدوم الفائدة والصلاح • والحق يقال ان هذه القطعة اطرف مثال على أدب السخرية والتشاؤم ، وهى تعكس لنا حقيقة حضاريه مهمة تلك هى ان الحضارة اذا شاخت ، كما هو الحال فى حضارة وادى الرافدين فى أواخر عهدها (فى حدود الالف الاول ق • م) ، بدأت الشكوك تساور أفرادها فى قيم مجتمعهم وفى قواعد السلوك والمقاييس الاجتماعية فى تلك الحضارة ، ولم يعد فيها ذلك التماسك الاجتماعى المبنى على التمسك بالعرف الاجتماعى •

لقد جاءت هذه القطعة باسلوب أدبى طريف على هيئة حوار (دايلوك) بين سيد وعبده[1] ، فالسيد يعلن لعبده انه يريد ان يقوم بعمل ما يستحسنه

---

(١) انظر نصها فى
(Langdon, **The Babylonian Wisdom**, PP. 67—81
واحدث ترجمة لها فى **(Ancient Near Eastern Texts**
وتحليلها فى **(Before Philosophy**, PP. 231 ff.)

فيجيبه العبد محبذا له ذلك العمل معددا مزاياه ومنافعه الكثيرة ، ولكن السيد يرد عليه بانه لا يريد عمل ذلك العمل لانه لا يراه مفيدا فيؤكد له العبد سداد رأيه معددا له عيوب ذلك العمل نفسه :

السيد : «أيها العبد اتفق معى»

العبد : «اجل يا سيدى ، اجل ! »

السيد : «اريد ان احب امرأة»

العبد : «أحل ! حب يا سيدى ، حب»

«فان الرجل الذى يحب امرأة ينسى العوز والشقاء»

السيد : «لا ، ايها العبد ، سوف لا احب امرأة»

العبد : «لا تحب يا سيدى ، لا تحب»

«فالمرأة شرك وفخ ، انها وحرة (للاصطياد)

«المرأة سيف حديد قاطع حاد»

«يقطع رقبة الرجل الشاب»

السيد : «ايها العبد ، اتفق معى»

العبد : «احل يا سيدى ، اجل»

السيد : «عجل لى واحضر الماء لدى»

«واجلبه الى • انى اريد ان اقوم بسكب الماء المقدس الى الهى»

العبد : «افعل ذلك ، يا سيدى ، افعل ، فان الرجل الذى يسكب الماء المقدس لالهه يصير فعله فى سلام وطمأنينة • انه يضيف دينا على دين»

السيد : «لا ! ايها العبد ، لن اقوم بسكب الماء الى الهى»

العبد : «لا تفعله يا سيدى ، لا تفعله ! »

«علم الاله ان يركض وراءك كالكلب» ••• الخ

السيد : «انهق معى ايها العبد»

العبد : «اجل يا سيدى ، اجل ! »

السيد : «اقول اريد ان اتصدق عن ارضى»

العبد : «افعل ذلك يا سيدى . افعل ذلك . لان الرجل الذى يدفع الصدقات عن ارضه ، فان صدقاته توضع فى راحه (كف) الاله مردوخ نفسه»

السيد : «لا ، يا ايها العبد ، سوف لا ادفع صدقه من اجل ارضى»

العبد : «لا تفعل ذلك يا سيدى ، لا تفعله ! اربق على اطلال خراب المدن القديمه وتمشى فوقها ، وانظر الى حماجم اهل العصور القديمة والمتأخره . فمن هم الاشرار ومن هم الصالحون؟ »

وهكذا فيبدو ان كل شىء عند دعل فى فيم هذه الحياه ، كما جاء فى دياحه روايه فوست (جوته) . وبدو الحال بالسيد ان يقول لعبده «انهق معى ايها العبد . أى شىء صالح ؟ ، ثم لق شىء سوى ان ادق عنقى وعنقك وارمى بأنفسنا الى النهر — وهذا هو الشىء الصالح» . وهنا نجد السيد يبدل رأيه فى الموقف الاخير فيقول لعبده : «يا ايها العبد سوف افعل وحدك وادعك تسقط» فيجيبه العبد « وهل ترك سيدى فى ان يعيش من بعدى حتى لمده ثلاثة أيام ؟ »

وهكذا فاننا نرى فى هذه القطعه كيف ان نظريه القضى درجات السخريه واسلك ، وهى الى ذلك ، كما سبق ان اشرنا ، تعكس لنا ما كان يساور العقول من شكوك ريب فى نهم الاخلاقيه ، وهى ظاهره قلنا انها ترد امام انحلال المجتمعات .

— الآلهـــه :

بعد ان ذكرنا خصائص الدين البابلى البارزة واهم المعتقدات الدينة نذكر الآن شيئا موجزا عن الآلهة البابلية . ومما يقال عن الآلهه فى

حضارات العراق القديم بوجه الاحمال ما سبق ان ذكرناه من انها ذات علاقة ونمى بقوى هذا الكون وظواهر الطبيعة والحياة • فقد رأينا من عقائد القوم فى اصل الوجود والاشياء انهم حسموا السماء والارض والماء والشمس والقمر والهواء وعدوها آلهة أو انها تمثل الآلهة • وعينوا كذلك آلهة مختلفة لشؤون الحياه الاخرى كالحرب والموت والحب والعلوم والمعارف الخ • ولذلك كثرت الآلهه البابليه بحيث صارت كما ذكرنا تملأ قاموسا كبيرا • وقد سبق ان ذكرنا انهم خلقوا لنا اثباتا بأسماء الآلهة وعلاقاتها بعضها ببعض ونظموها فى مجامع تتألف كل مجموعة من اله كبير ومن الآلهة التابعة له كأسائه وروحاته وورثائه فتتح عن ذلك كما عند الاغريق والرومان ما يسمى بمجموعه الآلهه اى (Pantheon) • وفيما يأتى نذكر اشهر هذه الآلهه واهمها • وعلى رأسها أربعة آلهة هى التى خلقت الكون وبيدها شؤون تدبيره وهى «آنو» و «ابليل» و «ايا ـ انكى» والهه باسم «بحرساك» •

١ ـ آنو :

ويأتى هذا الاله على رأس الآلهه البابلية ، وقد نعوه بأبى الآلهه وملك الآلهه وتمثل السماء هذا الاله كما يدل على ذلك اسمه بالسومرية «آن» ومعناه فى السماء فى أعلى نقطة فيها وبقسم هذا الاله هو والالهان «ابليل» و «اما» فيما بينهم الكون • فحكم الاله «آنو» السماء ولابليل الهواء والجو ولـ «اما» الارض والماء وقد عد «آنو» فى جميع انحاء العراق وفى جميع الادوار الأريخه ، وخصص لعبادته مدن شيدت فيها معابده أهمها مدينة بمر وأور والوركاء ، وقد سمى معبده فى هذه المدينة باسم « اى ـ انا » ويعنى ذلك بيت السماء أو بيت « آنو » وهو افخم معبد فى المدينة ، وقد كشفت النقبات التى أجراها الالمان فى الوركاء عن آثار نفيسة خصصت لهذا المعبد • وقد عبدت مع آنو فى الوركاء الالهة الشهيره «عشار» التى دعوها ابنته • وشيد له معبد ثان فى مدينة «دير» القريبة من مدينة بدره الآن وشيد الملوك الآشوريون لآنو معبدا

فى مدينة آشور حصصوه لعبادته ولعبادة اله آخر هو «آدد» •

٢ ـ انليل •

ويأتى بعد « آنو » فى المرتبه والمنزلة • وهو الاله الخاص بالهواء والجو والظواهر المتعلقة بهما • ويلقب مثل ابو بأبى «الا لهة» ولما كان الاله «آنو» قد استقر فى السماء واعزل نوعا ما شؤون العالم والعباد ، فقد صار انليل اعظم اله عند السومريين والبابليين من بعدهم ، ومعنى اسمه «السيد الهواء» او «الرب الهواء» • ويلقب بسيد البلدان أو الارضين وقد صار اسمه يعنى «الرب» او «السيد» (بعل) حتى انهم استعوا من اسمه صفه الربوبية والالوهية (اليلوتو) • وقد فرض شريعته على جميع سكان العالم ، وله شكله مقدسه يحرس فيها كل من يحلف زورا او يحنث بقسمه • وكان اقضيته واحكامه لا مرد لها وهو الذى يعاقب الملوك على آثامهم وظلمهم ، وقد ورد ذكره فى شريعه حمورابى من بين الآلهه المعظمه التى دعا الملك حمورابى اسماءها ليوقع العقاب على من يبدل شريعته • وكان بيد انليل ألواح القدر •ويوصف انليل بوجه عام بقوته وشدته فهو الذى احدث الطوفان بعد ما قرر الآلهه افناء البشر كما جاء فى قصه جلجامش • وكان «نفر» موضع عبادته ومقدسه ، وقد حفرت بعثة دت على ارتفاع ٨٠ متر من التل السومرية ، وعثرت من خرابة كتب معبدها العظيم الى التل كتابات مهمه جدا فى حضارات العراق القديم • وقرنوا بالاله «انليل» انثه مؤنثه اسمها (ننليل) وجعلوها زوجة له ، ومن اسماء الاله انليل «بحرسو» السهير ، اله مقدسه «لحش» وكذلك الاله «سورما» اله الحرب والصيد الذى يرجح كثيرا انه نفس الاله «بحرسو» حين هذا الاسم يعنى (سيد حرسو) (وحرسو احدى محلات لحش المهمه)،وقد عد مع انليل فى نفر معبد خاص• ويذكر الكهنة البابليون انها بعد انليل هو «دحان» وهو اله دخلت عبادته الى العراق من بلاد الشام أى من بلاد الاموريين منذ زمن سلاله آور الثالثه • ومن وظائف انليل المهمة فى نظام الكون انه عهد اليه بالمحافظه على «ألواح القدر» الذى

يكون من تحوز عليها دا مقدرة على التحكم فى مصير جمع الاشياء[١] .

٣ ـ «ايا» أو «انكى» .

والاله « ايا » وسمى كذلك « انكى » هو ثالث اله بعد آنو ، وهى الآلهة التى اقسمت العالم ، وتمثل هذا الاله المياه الاولى . وهو اله الحكمة والمعرفه فلقب من اجل ذلك برب الحكمة او سيد الحكمه ، وبيده أسرار السحر المقدس والتعاويم ، وهو الذى علم البشر الكتابه والصنائع والفنون واصول العمران واشتهر بحبه الكثير للبشر ، فهو الذى افشى سر الآلهة عندما عزمت على احداث الطوفان ، واشار دائما الى «اوتونشتم» ـ نوح الطوفان عند البابليين ـ وكان موضع عبادته فى مدينه «اريدو» (ابو شهرين الآن) التى كانت تعتبر ذلك من أقدس المدن السومريه واقدمها . وتسمى معبده «ى ـ ابسو» اى «بيت العمر او المياه» اشاره الى انه اسس فى المياه الاولى التى حسبوها للاله «ابسو» كما ورد فى «اسطوره الخليقه» ونسب البابليون الى هذا الاله روحه اشتقوا اسمها مثل اسمه وسموها « ن كى » اى سيده الارض ، حيث اسمه «انكى» سيد الارض وسمى ايضا باسم «دم ـ كيا» . وقدس الاله «ايا» فى جميع انحاء العراق وبالاخص فى مدينه «اور» و «لارسه» و «الوركاء» . وقدسه الملوك الآشوريون ، ومما يروى ان سنحاريب فى حملته الحربيه على عيلام عندما بلغ شواطىء الخليج قرب البصره الآن قدم الى «ايا» قاربا وسمكه من الذهب ورماهما فى الماء ، حيث معبد الاله الاصلى .

٤ ـ مردوخ .

وكان « ايا » أبا الاله مردوخ وهو اله بابل العظيم وكان مردوخ فى أول الامر الاها خاصا بمدينه بابل ، ولكن عندما عظمت

---

(١) وهناك أسطوره سومريه ممتعه تدور على قصه سرقه ألواح القدر من جانب طير الصاعقه «رو» من الليل وكيف استرجعها هذا الاله . وكثيرا ما نجد هذه الاسطوره ممثله فى الاختام الاسطوانيه القديمه حيث نشاهد «رو» وقد أسر ، وهو بهيئه مركبه ، نصفه انسان ونصفه الآخر طير ، وقد وضع أمام الاله الليل ليحاكمه .

مكانة هذه المدينه فى زمن حمورابى واصبحت عاصمة الامبراطورية البابلية ارتفع شأن مردوخ وصار مقدسا فى جميع البلاد • وقد ظهر هذا التبدل فى مركز مردوخ فى اسطورة الخليقة البابليه حيث اعطى مردوخ امركز الاول بين الالهه وجعل بطل الرواية ، واخذ سلطات الآلهة اليه (انظر اسطوره الخليقة) •وعرف معده فىبابل باسم «ايسا كلا» وموضعه الآن فى خرائب بابل فى المنطقة المعروفة بعمران ، وكانت تماثيل الآلهة البابلية تجلب فى كل عام فى عيد رأس السنه البابليه من معابدها القريبة من بابل وتسير باحفال مهيب فى شارع سمى لهذا السبب بشارع الموكب حيث يمر منه فى باب عشتار الى معبد قريب من النهر (او عبر النهر) خصص للاحفال بعيد السنة البابلى • (انظر القسم الخاص بالشعائر الدينية) •

٥ ـ الاله «نبو» :

وابن مردوخ البكر الاله «نبو» وقد عده البابليون اله الكتابة والقلم وكذلك اله المعرفة والحكمة وسكرتير الآلهة فى مجالسها المقدسة ، وقد شيد له معبد فخم فى «بورسبا» (برس نمرود الآن) وعرف معبده هناك باسم «اى ـ زيدا» اى البيت المكين • وشيد فى «بورسبا» صرح مدرج (زقوره) خاص بعباده هذا الاله ، ولا تزال بقايا هذا الصرح شاهقة فى خرائب المدينة • وكانت العادة انهم يخصصون ارقاما او درجات الى آلهتهم ، فخصصوا لآنو اعلى رقم هو ٦٠ ، ولابليل ٥٠ ، ولاا ٤٠ •

يأتى بعد الثالوث الاول المكون من الآلهه «انو» و «انليل» و «ايا» بالوث آخر من الالهة فى الاثبات التى وضعها البابليون لآلهتهم وعلى رأس هذا الثالوث الثانى الاله القمر ثم الاله الشمس «شمش» و «أدد» •

الاله القمر :

واسم الاله القمر عند السومريين والباليين « سين » وسموه «نانار» ايضا أو «ننا» (ومعناه رحل السماء) وسمى عرب الجنوب الاله القمر «ود» وعند الآراميين شهر وعند الامهريين ورخ ويرح • وخص الاله القمر

بمدينة «اور» منذ اقدم الازمان ، وشيد له فيها معبد شهير ، ولا تزال بقايا الصرح المدرج فيها (الزقوره) باقية ، ويمثل الاله القمر بهلال وحده او بهلال مع صوره على هيئة البشر • واشتهر الاله القمر بالحكمة ويشترك مع الاله الشمس «شمش» فى شؤون العدالة • وكان خسوف القمر من الحوادث المهمة التى تطير منها البابليون • وجاء فى بعض الكتابات السحرية ان خسوف القمر يحدث بهجوم سبعة شياطين او أرواح شريرة على القمر • وكانوا يصلون عند الخسوف للاله ويقربون القرابين حتى يطهر مضيئا مره اخرى بعد ان يمهر الشياطين والظلام اى الموت • وخصصوا له زوجه هى «ننجال» وعبد معه فى معبده فى اور • وانتقلت عبادة القمر الى جهات سوريه وشيد له معبد فى «حران» وقد بلغ قدسية الاله «سين» فى «اور» مبلغا يجب ان ملوكا كثيرين قد عينوا ابناءهم وبناتهم ليكونوا كهنة له ، وكذلك فعل الملوك الآشوريون فى معبده فى حران واشتهرت عبادته من حران الى الفينيقيين وقدسه البدو الآراميون والبدو العرب ولعل اسم سينا اى (طورسينا)مشتق بوجه ما من اسم الاله «سين» •

الاله الشمس (شمش) :

ويلى الاله القمر فى المرتبة ، وقد ولدت الشمس عن القمر بحسب العقائد البابليه ، وقد سماه السومريون باسم «اوتو» (ومعناه الضوء والنور واليوم) ودعوه كذلك «بار» اى النير وسماه الساميون باسم الشمس أى «شمش» ويلفظ العبرانيون اسمه «شمش» والعرب شمس والصبئيون فى اوغاريت (رأس شمرة) «شفش» وعبد العرب الجنوب وكذلك الصبئيون الشمس الهة بخلاف سكان العراق • وعبد الحثيون الشمس بهيئه اله مذكر • وكثيرا ما مثل الاله الشمس برمز قرص ذى اربعة خطوط تنبعث منها حرم الاشعة ومثلوه ايضا بهيئة آدمية كما صور فى أعلى مسلة حمورابى حيث مثل بهيئة ملك جالس على عرشه ويحمل فى يده اليمنى الصولجان والحلقة وهى من شارات السلطان ، وتاجه مزين بأربعة أزواج

من القرون ، وهو رى لباس الرأس عند الآلهة ، وله لحية طويلة مثل الاله القمر وتبعث من كتفيه حزم الاشعة ، ويعت الاله الشمس بانه مضيء العالمين وضوء العالم والاعماق وهو الذى يولد النهار والليل ويجلو الدجن ويهب الحياة ويحى الموتى • ولانه يبر بضوئه الظلمات فهو اله العدل والحق والشرائع وهو الذى املى على حمورابى شريعه المقدسة وهو القاضى الاعظم وسيد الكهانة والعرافة • وعند الاله الشمس بوجه خاص فى مدينى «لارسة» و «سبار» وقدسه الآشوريون وشيدوا له بعض المعابد ، وعبدت معه زوجته «العزيره» (آى) • وقد حسم البابليون «العدل» و «الحق» وعدوهما ابنتين للاله •

الاله « ادد » :

من الآلهه الخاصة بالجو والمطاح ولا سيما الامطار والرعد والفيضان وما شاكل ذلك ، ويرجح كثيرا ان اصل هذا الاله من الساميين العربيين فى جهات سورية ، وعبده الحثيون باسم «تشوب» الذى تمركزت عبادته بوجه خاص فى سورية وآسية الصغرى • ويرمز للاله «ادد» عادة شرارة الصاعقة ثلاث شعب • ولم تعين موضع عبادته بالضبط وقد سموه «ست ـ هرفار» وشيد له معبد فى بابل و «نينوى» وكذلك قدسه الآشوريون وعبدوه وشيد له معبد فى بلاد آشور مع الاله آنو •

عشتار :

وعشتار هى الالهة التى اشتهرت بكونها الهة الحب وآلهة الحرب ايضا وتمثلها عبدهم الزهرة • وقد احتلت مكانا باررا فى ديانة سكان العراق الاقدمين وانتشرت عبادتها الى جميع انحاء الشرق الادنى وانحاء أخرى من العالم واخذ عبادتها الاغريق وسموها باسم «افروديت» وعبدها الرومان باسم «فنوس» وقد سماها السومريون باسم «اينانا» او «اينى» ومعنى ذلك سيدة السماء ودعاها الاكديون والآشوريون الساميون باسم عشتار وعرفت باسم «عشتاروت وعشتوريت» عند الاقوام السامية الاخرى

ولا سيما فى جهات سورية وعبدها العرب فى الجنوب وصار اسمها مرادفا لكلمة «الهة» لشهرتها وتقدسها • وهى ابنة الآله القمر وحصها الآشوريون بالقديس ولا سيما بصفها الحربية لانها الهة الحرب والطعان ، وقد ذكر بعض ملوكهم انها سارت معهم فى طليعة جيوشهم وحققت لهم النصر • وهى بذلك «افروديت» الاسارطة المحاربة ، وكان الأسد حيوانها المقدس بصفتها الهة الحرب كما انهم نعوها «باللبوة» الضاربه •

وقرن الآله «تموز» مع عشتار بوصفه بعلا لها ولكن حبها له قضى عليه فمات ولذلك كانت عشتار تندبه ، ويمثل تموز بوجه عام الخضار والنبات فى زمن الربيع • وقد حاءتنا ملحمه شعرية تصف نزول عشتار الى العالم السفلى فى بداية الربيع من كل عام ليعيد تموز من عالم الاموات الذى يذهب اليه فى صيف كل عام ، وعلى الرغم من ان عبادة تموز لم يكن لها محل كبير فى العبادات البابليه الرسميه ولكن عبادته كانت منتشرة بين الشعب وترجع فى اصلها الى عهد قديم فى ديانة حضارة وادى الرافدين ، كما انها اشتهرت الى اسقاع بعيدة من الارض وكانت عبادته مقرونة فى اغلب الاحيان مع عبادة الالهة عشتار ، ولكن اهمية كل منهما الى الآخر كانت تتغير تبعا للاقطار التى عبدا فيها بأسماء واشكال مختلفة ، مثل ادونيس (تموز) وسيبله وقد ذكرت عبادة تموز فى التوراة وانتشرت فى البلاد الشامية منذ أقدم العهود كما ابانت النصوص الحديثة المكتشفة فى رأس شمره (اوغاريت القديمة) (وسنذكر فى مبحث العبادات اشياء اخرى عن عبادة تموز) •

د ـ نرجال وآلهة الارض السفلى : والارض السفلى هى القسم الرابع من الكون ، اما القسم الاول فهو السماء ، ثم ما بين الارض والسماء ثم الارض الظاهرة ، فالارض السفلى • وفى الارض السفلى مقر أرواح الموتى ويحكم فى هذه الارض الاله «نرجال» ومعه زوجته «ايرشكيجال» ملكة الارض السفلى ، وبساعدهما مجموعة من الآلهة الصغيرة وعدد من الشياطين والعفاريت • واصل نرجال من الآلهة الخاصة بالشمس وهو اله النار واله

الوباء . وقد خصصت مدينة كـ ١٠٦ ابراهيم الآن) لعبادته . وقد ورد ذكر هذه المدينة والههـا برحال فى التوراه (٢ ملوك ١٧ ، ٤ ، ٣٠) لأن سرحون الآشورى نقل من سكانها خلقا كثيرا واسكنهم فى السامره ،فأدخل هؤلاء شيئا كثيرا من عبادة برحال وعبادة البابليين الى اليهود السامريين . ولانه اله الاموات وصفت المدينة التى عبد فيها بمدينة الاموات . وشيد له بعض الملوك الآشوريين مثل سنحاريب معابد فى شمال العراق ، وكذلك وجد له معبد فى مدينة (حارى) (تل الحرورى الآن فى سورية) .

عبادة النجوم والآلهة الكواكب : ذكرنا فيما سبق ان كثيرا من الآلهة البابلية ذات علاقة وثيقة بظواهر الكون والطبيعة المختلفه . وكان من بين هذه الظواهر النجوم والكواكب التى عد البابليون قسما منها آلهه وعبدوها ، فاشتهرت عبادة النجوم . وكانت النجوم عندهم ذات علاقة بالحيـــاه وهى التى تعين لهم الزمن ، والى ذلك فان الآلهة قد تظهر ارادتها فى النجوم التى ترصع قبة السماء وقد شبهوا النجوم بالكتابه الآلهيه ورقم السماء ونشأ عن ملاحظه النجوم والكواكب الفلك والتنجيم . ويرجع الى التنجيم اصل الفلسفة الحبرية اى الحتمية ، ومن مظاهر علاقة النجوم والكواكب بالآلهه ان العلامة المسمارية التى يعبر بها عن الاله يعبر بهـا كذلك عن الكواكب بكرارها ثلاث مرات . وقـد قابل البابليون كثيرا من الكواكب والنجوم بالآلهة . واتحد سكان العراق الاقدمون امور الاجرام السماوية آلهه ، وعلى رأس هذه الكواكب الثلاثه اى الشمس والقمر والزهرة وقد عدوا الاله القمر اقدمها والقمر ابو الشمس والزهرة .

اسور :

وهو الاله القومى للآشوريين . ومع ان الآشـوريين قدســوا وعبدوا معظم الآلهة السومريه ـ البابليه الا انهم خصوا الاله آشور بالتعظيم والعبادة ويرجح ان اسم الآشوريين مشتق من اسم هذا الاله . وكان الاله آشور مثل الاله مردوخ فى مبدأ امره الها غير ذى شأن اقتصرت عبادته على

مدينة آشور ، اقدم العواصم الآشورية ، ولكن بعد ان تدرج الآشوريون في نموهم السياسي وعندما أسسوا مملكة قوية سيطرت على العالم القديم ، عظم شأن الههم آشور وصار على رأس الآلهة البابلية والآشورية ، وخصصوا له دورا فعالا في شؤون الكون وخلق الاشياء والانسان ، وشيدوا له المعابد الفخمة في آشور وفي غيرها من المدن الآشورية المهمة . ويمثل الاله «آشور» عادة بانسان بطير بجناحين وبيده القوس والسهم ، والجناحان سبعثان من قرص الشمس واخذ الفرس الاخمنيون هذا الرمز لالههم «اهورا مزدا» .

هذه أشهر الآلهة التي عبدها العراقيون الاقدمون من اقدم العهود وفي مختلف الادوار ، والى ذلك توجد مجموعات كبيرة من الآلهة لا حاجة لذكرها لان الالهة التي ذكرنا تكون لنا فكرة واضحة عن آلهة القوم بوجه عام . ويدخل في صنف الآلهة البابلية بعض الكائنات التي كانت تعد آلهة من الدرجة الوسطى او بمثابة ملاك حارس ، مثل النوع الذي يسمونه بالبابلية باسم «شيدو» و«لمساو» (بالسومرية «لما» او «لاما») ، التي كانت تماثيلها توضع في مداخل المعابد والقصور لحفظها ، وكانت كثيرا ما تمثل بهيئة مخلوقات مركبة كأن تكون من رأس انسان وجسم حيوان كالثيران المجنحة الآشورية .

الفصل الثالث عشر

طرف من العبادات والشعائر الدينية

بعد ان ذكرنا أهم الآلهة التي بحثنا في دراسة البابليين والآشوريين يأخذ طرف من العبادات والشعائر الدينية المتنوعة ، ونعتقد ان هذا المبحث الاخير سيكشف لنا على فهم جديد لروح الديانة ، وتمهيدا لذلك نكرر ما قلناه سابقا حول الغاية التي من اجلها خلق الانسان بحسب عقائدهم وهي عبادة الآلهة والعمل لها دوما من بعد وعمرانها وتقريب القرابين ، واذا قصر العبد في ذلك فان الآلهة تنزل به في هذه الدنيا عقابا شديدا ، وكانت أولى الغايات المهمة العامة في حضارة وادي الرافدين هي المعابد التي اقامها العراقيون القدماء منذ عصور ما قبل التاريخ .

والشعائر الدينية كثيرة منها ما يتعلق بالصلوات والقرابين والاعياد الدينية ومنها ما يتعلق بمعرفة طالع الانسان والوقوف على المستقبل وصحة أعمال الانسان وهو ما يطلق عليه اسم العرافة والكهانة ، ومنها ما يتعلق بطرد الشياطين من جسم الانسان وشفاء المرضى ، مما يدخل تحت السحر والتعويذ ، ويوسعنا ان نقسم أنواع العبادات والطقوس الدينية الى صنفين ، فصنف عام يقوم به الفرد لتحقيق الغاية التي خلق الانسان من اجلها ، وهي عبادة الآلهة ، وصنف يقوم به الشخص لتحقيق أمل او حاجة كازالة الامراض ودرء خطر الشياطين والارواح .

وقد خلف لنا سكان العراق القدامى مجاميع كثيرة من الصلوات والادعية والتراتيل الدينية التي كانوا يتلونها من معابدهم . وأنواع الصلوات كثيرة منها ما يقوم به الفرد نفسه بدون وساطة كهنة المعبد ، وكانوا الى جانب الدعاء في الصلوات يقومون ببعض الاشارات منها رفع اليد مع الدعاء

وصلوة التوبة والاستغفار ومثلث أوضاع بعض المصلين وهم بهيئة ركوع أمام تماثيل الآلهة ، ومن المناسك ما يقوم به الكهنة كذبح الغرابين وما مع ذلك من رسوم وصلوه وحرق البخور وسكب السوائل المقدسة .

ومن العادات العامة الاعياد والمهرجانات الدينية التى كانت تقام فى المدن المختلفه منها الاعياد السنويه التى يحتفل بها فى رأس كل سنة لمجد اله المدينة . وقد اشتهر العيد السنوى الذى كان يقام فى بابل فى عيد رأس السنة (ويصادف زمنه بين آذار ونيسان) ، وكان يستغرق نحو اثنى عشر يوما ، ويقام فيها أنواع العادات والطقوس الدينيه من جانب كهنة بابل ، فمن بين ذلك مرور الآلهه فى موكب مهيب فى شارع فى بابل سمى لذلك بشارع الموكب ، ويمر مهرجان الآلهة من باب فحم هو باب عشتار الذى هو الآن افحم ما بقى من اطلال بابل ، ومنه يسير موكب الآلهه الى معبد عبر نهر الفرات ولعلهم كانوا يمثلون قصة الخليقة البابلية وتلاوتها ، لانه نظمت لمجد الاله مردوخ وتعاليم شأنه .

ويوضح لنا عيد رأس السنة البابليه بوضوحا مؤثرا تعلق روح المدن فى سكان وادى الرافدين القدماء ، وكان العيد يقام فى جملة مدن ولا سيما فى مدينه بابل فى الربيع فى (آذار ـ نيسان) ، اما فى المدن الاخرى مثل أور والوركاء فكان يعقد فى الخريف علاوة على الربيع ، وهو يعكس لنا أصل كثير من الرسوم الدينيه المتعلقه بالزراعة وتدل المواسم الخاصة بها ، ويوضح لنا ايضا ان اصل اهم القوى العلويه عندهم انما كان من الظواهر الطبيعية المؤثره فى حياتهم . وتتسق معرفتنا بهذا العيد بالدرجة الاولى حيث كان يقام فى مدينة بابل ويدعى بالسومريه «زكموك» (Zagmuk) (أى رأس السنه) وبالبابلية « اكيتو » (عيد رأس السنة ، حيث كانت معابد معينة تخصص للاحتفال به وتسمى « بت اكيتو ») .

ويرمز العيد بوجه عام الى الصراع بين القوى الطبيعيه ، وانتصار العناصر الخالقة المولدة التى تمثلها طهور حياة النبات والخضار فى بداية الربيع ،

وكذلك انتصار الآلهة التى نظمت الكون على آلهة الدمير والتخريب فى الكون ، كما يتضح ذلك من اسطوره الخلقه البابلية من انتصار مردوخ على قوى العماء ، ولذلك فان الممثلين الذين يقومون بالادوار الرئيسية فى هذا العيد هم الآلهـة ، ولكن كان اشتراك الملك فيه جزءا اساسيا منه • ومن الامور المتعلقه بالعيد عباده الاله تموز ، وهو الاله الذى يمثل الخضار والربيع، ولكنه يموت فى الصيف ويظل محبوسا فى العالم الاسـفل ، فيقوم العوام بندبه والبكاء عليه ، حيث يعتقدون انه مات فى العالم الاسفل ، ولكن العقائد الرسميه ترى انه مأسور فى العالم الاسـفل ولذلك فقام له شـعائر مهمة لضمان قيامه ورجوعه الى الحياه ، وعندئذ يعود روح الطبيعة •

ان النصوص المتعلقه بهذا العيد غير كامله[1] ولكن من الممكن بناء على ما جاءنا من وصفه ان نرتبه بحسب التقويم الآتى ، حيث يدوم العيد من أول شهر نيسان البابلى الى اليوم الثانى عشر منه بحسب المنهج الآتى :-

١ ـ ٤ نيسان : التهؤ للعيد واجراء التطهيرات الدينية فى المعابد •

٥ نيسان : وهو يوم الكفاره عن الملك ، ويقوم الشعب بالحزن على الاله المعذب ، المأسـور فى عالم الارواح ، وتهيج المدينـة باحثة عن الههـا مردوخ (حتى هو ايضا يمثل الحداد فى الطبيعة) •

٦ ـ نيسان : تقصد مدينة بابل جميع آلهه فى قارب فى الفرات ، من بينهم «نبو» ، اله مدينة «بورسبا» وابن مردوخ ، الذى يأخذ بثأر ابيه والذى يرجعه من الاسر ، وقد خصص له مزار فى معبد ابيه فى بابل •

٧ ـ نيسان : يتمكن الاله «نبو» بن مردوخ ، بمساعدة الآلهة الاخرى

---

(١) أنظر البحث في ذلك بالدرجه الاولى فى :-
(1) H. Frankfort, **Kingship and the Gods** (1948) ch. 22.
(2) S H Hooke, **Babylonian and Assyrian Religion**, 58 ff

من تحرير مردوخ من حبل العالم الاسفل ، ولا نعلم كيف كانوا يمثلون هذه الحادثة فى الطقوس الخاصة بذلك العيد •

٨ – نيسان : وبعد تحرير الاله ، يشرع فى تقدير مصائر الكون والناس للعام الجديد ، بعد ان تجتمع الآلهة وتمنح مردوخ السلطان والحول فى تقدير الاقدار والمصائر •

٩ – نيسان : سير موكب مهيب يمثل انتصار الالهة الى معبد رأس السنة (بت اكيتو) ، ويكون الملك مسؤولا عن ادارة سير الموكب ويمثل ذلك انتصار المجتمع البشرى ، ممثلا برأسه وهو الملك ، بالنصر الذى احرزته الآلهة على قوى الطبيعة المدمرة وعلى قوى العماء •

١٠ – نيسان : يحتفل الاله مردوخ بانتصاره مع الالهة الاخرى (آلهة العالم العلوى والسفلى) فى وليمة هامة لهذا الغرض فى المعبد المخصص لعيد رأس السنة • ثم يرجع الاله مردوخ الى معابد بابل «للدخول بعروسه فى غرفة الليلة» ، حيث تنطلق القوى المولدة فى الطبيعة والحياة •

١١ – نيسان : يجرى تقدير آخر للمصائر والاقدار البشرية للسنة الجديدة من جانب الآلهة •

١٢ – نيسان : ينتهى الاحتفال وتعود الآلهة كل الى موضعه ومعبده الخاص •

وبالنظر لاهمية هذه الرسوم فى عقائد القوم نذكر بشىء من التفصيل بعض طقوسه المهمة • ففى الايام الخمسة الاولى من العيد ، تجرى التطهيرات المقدسة فى اساكلا (معبد مردوخ فى بابل) فى كل صباح قبل شروق الشمس حيث يدخل الكاهن الاعلى بعد التطهر فيصلى لمردوخ وللالهة الاخرى ، ومن بعد ذلك تقوم الكهنة الاخرى بالاعمال الطقوسية المقررة[1] ، وفى مساء

---

(١) حول الرسائل المقدسة التى تتلى بها لمردوخ أنظر :–
(1) Thureau-Dangin, **Rituels accadiens,** 129 ff
(2) Zimmern in **Der Alte Orient.** vol XXV (1926), 4 ff

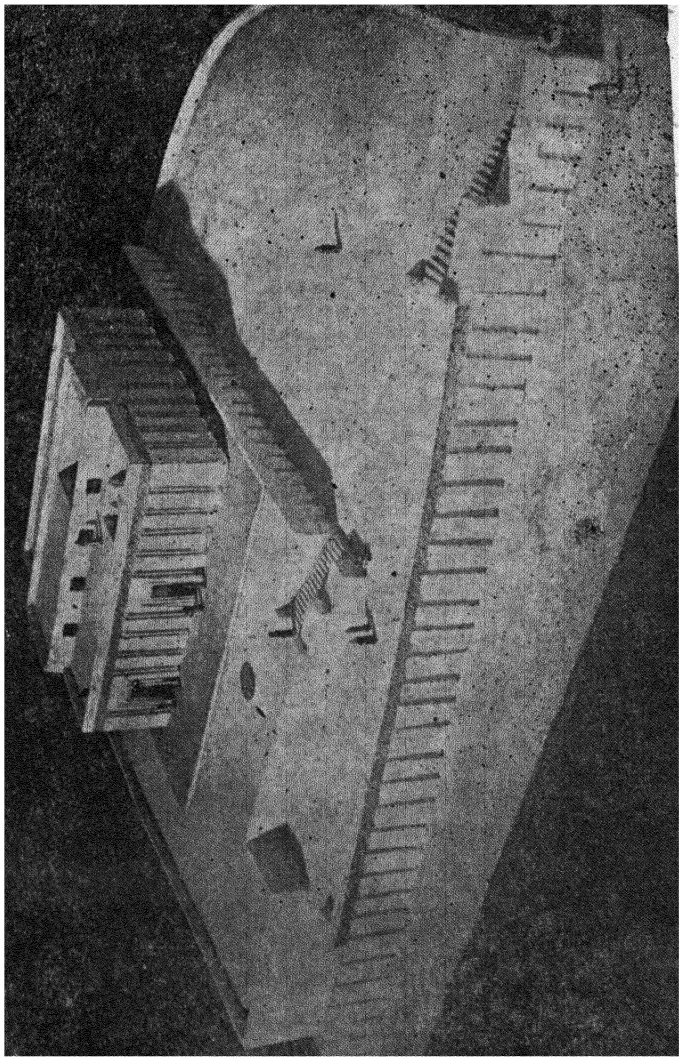

نموذج مصغر للمعبد المشيد فوق مصاطب ، الذى كان اصل الصروح المدرجه (الزقورات) (وجد فى العقير ، من عهد الوركاء فى حدود ٣٥٠٠ ق٠م)

اليوم الرابع تتلى اسطوره الخليقة بكاملها فى المعبد ، لان رأس السنة الجديدة كان بمثابة خلق جديد ، فتلاوة تلك الاسطورة وما تضمنه من انتصار قوى النظام على قوى العماء فى الكون تقوية للآمال فى السنة الجديده • وفى اليوم الخامس وهو يوم نوبة الملك أو الكفاره عنه يقوم الملك بالدور الرئيسى من الطقوس ، ففى الصباح يصلى الكاهن الاعلى لمردوخ اسعاء مرصاته ، ثم تطهر المعبد وتقدم القرابين وتقرأ التعاويذ ، وتقوم النحارون النابعون الى معبد «نبو» فى بورسبا بصنع مضربه للقرابين ومطله من الذهب حيث يقدمها ابن مردوخ هدية لابيه • وحيث كانوا يجرون هذه الاستعدادات تدخل الملك الى مزار مردوخ ومعه الكهنه ، وحين يصل الى ساحة المعبد تركه الكهنه فيطهر الكاهن الاعلى من حجره الهيكل فى المعبد (وهى أقدس جزء من المعبد حيث تمثال الاله مردوخ ـ انظر الكلام على المعبد) فيأخذ من الملك شارات الملك ، الصولجان ، والحلقة ، و «القامة» ، والتاج ويضعها على مضربه امام تمثال الاله ، ثم يعود الى الملك ، فيلطمه على وجهه ويجعله يسجد أمام الاله ، وتقول الاعتراف الآتى :ـ

«لم اخدم يا سيد الاقطار ، ولم اك مهملا ازاء الوهيتك • لم اخرب بابل ، ولم اسئ لها الهوان • لم اجر بايساكلا ولم اهمل مناسكه الخ» فيجيبه الكاهن الاعلى «لا تخف ولا تحزن • ان مردوخ سيسمع صلاتك ويوسع من سلطانك ، ويعلى من شأن ملوكيتك ، ويبارك على أعدائك ومناوئيك» • ثم يرجع الكاهن الاعلى شارات الملوكية الى الملك بعد أن يلطمه مره أخرى ، ويستحسن ان تكون لطمة شديده بحيث اذا دمعت عينا الملك فذلك علامة قال حسن على السنه الجديدة وعلى رضا الاله[1] • وحين يكون

---

(١) لعل معنى ما تفعله كبير الكهنه بالملك يشير الى نظرية أصل الملوكيه وانها خاصه بالآلهه ، أما الملوك فانهم يتوبون عنهم فى حكم البشر، ولكى لا تغتر الملك نفسى جسمه وواجبه فانه كان يجرد من صفته فيكون كسائر الناس فيلطمه كبير الكهنه مذكرا اياه بحقيقته بصفته انسانا عاديا ، وان اعاده شارات الملك ضمان فى تفويض الاله للملك بحكم البشر ، أما =

الملك داخل المعبد ، فى الهيكل قرب تمثال الاله ، بكون الناس فى الخارج فى هلع وخوف وجزع ، لانهم يعتقدون ان الاله قد «غاب» أو «اختفى» وانه أسر فى العالم الاسفل (عالم الاموات) • وبالاضافة الى احتفاء الاله فان خوف الناس وهلعهم يزدادان فى هذا اليوم بالنظر لفقدان الملك صفته الملوكية ، فالمجتمع اصبح بلا اله ولاسلطة، أى بلاملك هو رأس المجتمع، فيكون تحت رحمة قوى الطبيعة وقوى الشر ، وتكون اول فرج لكربه المجتمع اعادة شارات الملك الى الملك ، تمهيدا لليوم التالى الذى يظهر فيه اله المدينة منتصرا على قوى الموت • ويتم ذلك فى اليوم السادس حيث يصادف ذلك محيء «نبو» بن مردوخ ، الذى يقهر قوى الشر ويساعد اباه ليخرج من اسر قوى الموت ويأخذ ثاره • ولكن فصل وصول «نبو» يكون الناس ، كما ذكرنا ، فى هياج ، حيث يراكضون فى الطرقات والازقة ، باحثين عن مردوخ صارخين معولين «اين يكون سيدنا مأسورا ؟ »[1] ، ويرجح ان الناس كانوا تجمهروا وهم فى هياجهم فى جادة المعبد والزقورة ، ويذهبون ايضا خارج المدينة قرب معبد رأس السنة ، كما يرجح ان النبوءة الخاصة بالاله مردوخ كانت ترسل وحدها مسيرة فى شوارع المدينة حاملة على صاحبها ، ويصحب ذلك الهه (عشتار ؟) لتقوم بالنوح على الاله ، فى حين ان الجمهور يمثلون حزنا فيما بينهم •

وفى خلول اليوم السادس يأتى الاله «نبو» كما قلنا ، مع الآلهة

= اشراف الملك وتطهره من الذنوب فلكى يكون لائقا للاشتراك بالشعائر التى ستقام فى الايام الاخرى من العيد •

(١) يرجع الى هذه المعتقدات فكرة اختفاء الاله واسره فى العالم الاسفل جميع الاساطير التى جاءتنا من العراق القديم حول موت الاله الموقف مثل موت تموز ، ثم قيامه بمساعدة اله او آلهه ، كما فى اسطورة نزول عشتار الى العالم الاسفل لارجاع تموز الى عالم الحياة • فهناك روايتان سومريتان وتابلته حول ذلك (أنظر ترجمتها فى مجلة سومر المجلد ١٩٥٠) وكذلك المرجع **Ancient Near Eastern Texts** كما انه تتعلق بالفكرة نفسها مسألة الزقورة والاعتقاد بأنها ترمز الى قبر الاله بحيث ان المؤلفين القدماء كانوا يسمون برج بابل « قبر بيل » اى قبر الاله مردوخ •

الاخرى ، حيث تحمل تماثيلهم من نفر والوركاء وكوثى وكيش وبورسبا ، وحين تنزل تماثيل الآلهة من سفنها فى رصيف بابل تسير من بعد ذلك كما ذكرنا فى موكب مهيب فى شارع سمى لهذا السبب بشارع الموكب ، حيث يمر من باب عشار ويتجه شمالا الى المعبد المخصص لعيد رأس السنة ، ويكون الملك مرافقا للموكب وهو يسكب الماء المقدس امام الآلهة فى موكبها • وكان الملك الآشورى فى بلاد آشور يقوم بدور فعال اكثر من الملك البابلى • وحيث انه فى الشمال يكون الاله المقدس هو «نورتا» ، فيمثله الملك وهو راكب فى عربته الملكية مع موكب الآلهه • أما الاله الذى يحتفل بعصره فهو الاله «آشور» • ومن المراسم التى كانت تجرى عند وصول «نبو» الى بابل قتل جملة من الخنازير البرية فى غابات القصب القريبه (رمزا لقتل آلهة العماء) ، كما أنهم كانوا يقطعون رأسى تمثالين مزينين بالجواهر (كانا يصنعان فى اليوم الثالث من نيسان) • هذا ولا نعلم كيف كان يتم تحرير الاله المأسور فى العالم الاسفل فى تلك الطقوس ، فهل كان يرمز لذلك بمثيلية خاصة أيضا ؟

وبعد تحرير الاله تؤخذ تماثيل الآلهة فى اليوم الثامن من نيسان وتوضع فى حجرة خاصة فى معبد مردوخ تسمى «بحجرة الاقدار والمصائر» (وقد ورد نص الاسم فى اسطوره الخليقة البابلية وهو يطلق على مجلس شورى الآلهة) ، حيث تفوض مردوخ فى تقدير مصائر العام الجديد ، ويماثل ذلك فى اسطورة الخليقة اجتماع الآلهة فى مجلسها وتنازلها عن اسمائها وسلطاتها الى مردوخ وانتخابه ملكا عليها وبطلا لها فى الحرب مع قوى العماء (تيامة واتباعها) • ويصف انا نص جاءنا من مدينة الوركاء[1] كيف كان يجرى ترتيب تماثيل الآلهة فى «حجرة الاقدار» بحسب مراكزها ومراتبها ، وكان الملك يقوم بدور «منظم الاحتفال» أو الحاجب حيث يحمل بيده صولجانا براقا ويعين مجلس كل اله بأن يأخذ التمثال بيده ويضعه فى

(1) Thureau-Dangin, **Rituels Accadiens** P. 103 ff.

مكانه اللائق فى «القاعة العظمى» بحيث تكون تماثيل الآلهة مواجهة لتمثال رئيس الآلهة «مردوخ» • وحين كانت هذه المراسيم تجرى داخل المعبد يكون الناس فى الخارج ملتزمين الهدوء فلا يحدثون ضوضاء ولا ضجة لئلا يتعكر مجلس الآلهة بضوضاء البشر فيحل الشر فى العالم • ويتم الاحتفال بنصر الآلهة على الموت فى اليوم التاسع من العيد ، حيث قلنا ان تماثيل الآلهة كانت تسير بموكب فخم من شارع الى معبد رأس السنه ، ويخبرنا بعض الملوك الآشوريين الذين دخلت بابل تحت حكمهم (مثل سرجون) انه ذهب خصيصا الى مدينة بابل للاشتراك فى احتفال رأس السنه ، وكيف انه امسك بيد الاله «مردوخ» فى الموكب فى سيره الى معبد رأس السنة[1] ، حيث كان الموكب يسير شمالا ويمر من باب عشتار المهيب (وهو الجزء المهم الباقى فى خرائب بابل الآن) ومن ثم تركب التماثيل فى قوارب عبر الفرات الى المعبد الخاص وقد صور لنا سنحاريب مثل هذا المشهد (اى موكب الآلهة) فى أبواب النحاس التى صنعها لمعبد رأس السنه فى آشور ، وكيف ان الملك كان يظهر فى عربة الاله آشور (حيث يكون الاله آشور فى الشمال بدلا من الاله مردوخ فى بابل) ، ومن بين ذلك ايضا صوره للاله آشور وهو فى حربه ونزاله مع «تيامة» ، حاملا قوسه وسهمه وكيف يرافقه فى حربه الاله «شمس» و«ادد» وبعض الآلهة الاخرى • وهناك احتمال فى ان تمثيلية كانت تجرى فى ذلك المعبد تمثل الحرب بين آلهة النظام والحياة وبين آلهة الدمار والموت ، والاحتفال بوليمة فاخرة بانتصار الاله مردوخ الذى قلنا انها كانت تقام فى اليوم العاشر من الاحتفال ، أما ما اشرنا اليه من أمر الرواح المقدس الخاص بالاله مردوخ الذى كان يتم بعد رجوعه من الاحتفال فانه كان يتم بحسب معتقداتهم بين الاله والالهة رمزا لاستئناف عملية

(١) Luckenbill, **Ancient Records** (1927, II, sec. 70
وحول هذا المعبد انظر Pallis, **Bit Akitu** (1926)

الخلق والتجديد في الربيع بمدقيامة الاله من عالم الاموات ، وهذا هو الزواج المقدس الذي كان يقوم به ايضا الملك بصفته عريس الالهة فيكون عندئذ مؤلها مقدسا • وعادة الزواج الالهي المقدس عادة قديمة في حضارة وادي الرافدين ، فقد سبق ان ذكرنا احتمال تفسير عادة الدفن مما يدعى بالقبور الملكية التي اشتهرت بها عصور فجر السلالات ، حيث قلنا ان تفسيرا آخر هو ان الملحودين في تلك القبور هم بالدرجة الاولى كاهن وكاهنة كانا يقومان بدور الزواج المقدس في فصل ظهور الانبات ، ولعلهما كانا يقتلان بعدئذ ، ويرجح كثيرا ان حجرة خاصة كانت تخصص في المعبد للزواج المقدس[١] • ومهما كان الامر فانه كان يعقب ليلة الزواج أو العرس الالهي ، مراسيم خاصة في اليوم التالي (اليوم الحادي عشر) ، حيث كان يتم فيها تقدير الاقدار مرة ثانية من جانب الآلهة ، ولا سيما الاله مردوخ بالنسبة الى مدينة بابل ، وينتهي العيد في اليوم الثاني عشر برجوع الآلهة التي جاءت الى بابل الى مواضعها في المدن البابلية • والى مثل هذه الاعياد الدينية كانت الصفة الدينية تطغى على الاحتفال العامة الاخرى ، مثل الاحتفال بالنصر أو الاحتفال باقامة تمثال أو انشاء مدينة أو حفر نهر أو بتتويج الملك حيث يقوم الكهنة بقسط كبير من التراتيل والشعائر الدينية •

الكهنة

مما لا شك فيه ان الناس كانوا في العصور القديمة التي سبقت زمن

---

(١) وبهذه المناسبة يجدر الاشارة الى رواية هيرودوتس حيث يروي لنا ان معبدا كان فوق الزقورة ، حيث يوجد سرير ومنصدة من الذهب ، وانه لا يقيم في هذا المزار سوى امرأة كاهنة كان البابليون يعتقدون فيها ان الاله اصطفاها له ، حيث اعتاد النزول الى ذلك المعبد-والاستراحة والنوم•

ولعل مما يؤيد رواية هيرودوتس بالنسبة الى موضع الزواج المقدس ان البابليين كانوا يدعون ذلك الموضع باسم (gigunu) ، وهو موضع يرى فيه الباحثون حديثا انه جزء من البرج (الزقورة) ، ولعله في الطبقة الثانية من الزقورة كما أظهرت التحريات الحديثة في البرج الخاص بمدينة السوس•

نضج الحضارة يتولون شؤون عبادتهم بانفسهم ، فيقيمون صور الآلهة فى بيوتهم ويطعمونها من طعامهم ويسألونها بأنفسهم بدون شفيع أو واسطة هى طبقة الكهنة ، ومما يجدر ذكره انه لم يكن فى الازمان القديمة فارق واضح بين الموظفين المدنيين والدينيين ، فكان « الايشاكو » مثلا الكاهن الاعلى للاله وفى الوقت نفسه الحاكم الزمنى . وكان الملوك يلقبون انفسهم بكهنة الآلهة ، واستمر الامر كذلك الى آخر التاريخ البابلى ، وكثيرا ما تقلد الحكام والامراء والاميرات منصب الكاهن الاعلى لاله معين . وقد استوجب تطور الحياة الاجتماعية وضروره تنظيم المعابد بشؤونها المختلفة ان تنشأ طبقات وأصناف من الكهنة لكل صنف منها عمله ووظيفه وقد أحصى ما يربو على اللاثين صنفا من أصناف الكهنه مما جائنا فى المصادر المسمارية . فمن اصناف الكهنة «الكاهن الاعلى» الذى كان يدير شؤون المعبد وهو على رأس الطبقات الاخرى . وطبقة من الكهنة كانت تتولى شؤون التطهير أو التطهير الدينى ، ومنهم من كان يقوم بامور الدهن والمسح المقدسين الى الملوك . وتخصصت طبقات من الكهنة فى ادارة شؤون المعابد من احصاء وارداتها واملاكها وادارة شؤونها المحلفة . واختصت أصناف من الكهنة باعمال السحر والعرافة والكهانة . فكان العرامون والراقون يتولون طرد الشياطين والارواح الخبيثة بالرقى والعزائم وبالسحر المستمد من الآلهة ، ولا سيما الاله «ايا» وتولى العرافون شؤون معرفة المستقبل وتفسير الفأل والاحلام . ومنهم صنف المغنين والمرتلين والزمارين والى جانب الكهنة كانت هناك طبقات من الكاهنات ، كن يعشن فى العالب فى بيوت خاصة بهن قرب المعبد . وقد ورد ذكر بعض اصنافهن فى شريعة حمورابى . وكان للكهنة والكاهنات البسة وازياء خاصة ولاسيما ابان اقامة المراسيم والشعائر الدينية ، وكانت دورهم قرب المعبد ولهم مرتبات وجرايات من واردات المعبد ، وكان لصنف الكهنة بوجه عام ثروات ونفوذ فى الدولة وفى شؤون الناس الخاصة والعامة .

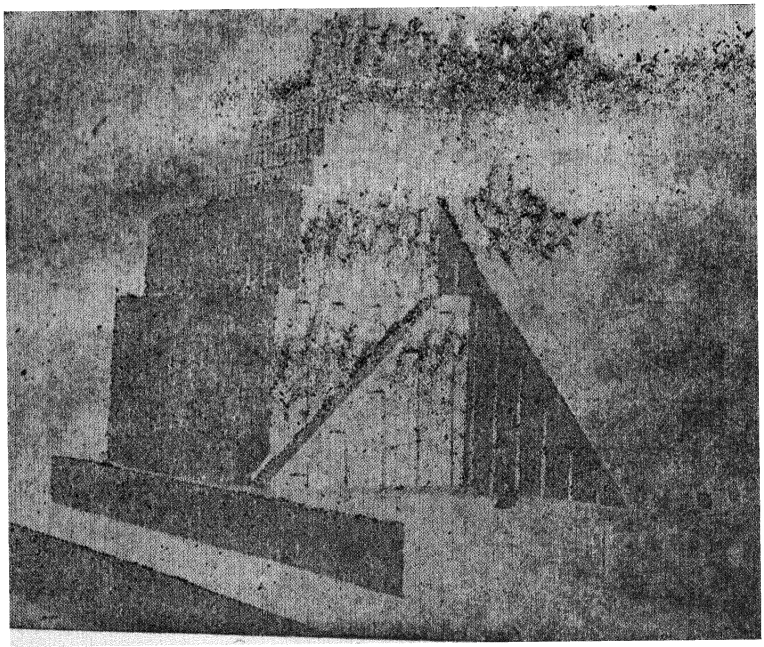

صوره نمل الصرح المدرج (الزقوره) فى مدينة بابل
كما ينبغى ان تكون عليه فى الاصل

الكهانة والعرافة :

ان رغبة الشر فى معرفة ما سيحدث مهم وما يخبؤه لهم الغيب أمر شغل عقول الناس باختلاف مراتبهم فى سلم الحضاره منذ أقدم العصور • وقد عنيت الاقوام القديمة بهذا الامر بوجه عام ، فكان للكهانة والعرافة عندهم شأن عظيم فى حياتهم • ولم يشذ سكان العراق عنهم بل فاقوهم من حيث تعدد طرق العرافة عندهم • وبوسعنا ان ندرك اساس الكهانة باعتقادهم ان ما يحدث فى هذا العالم انما هو مقدر من الآلهة فلو عرف الانسان اراده الآلهة لاستطاع ان يقف على نتيجة اعماله • وقد اعتقدوا

ان معرفة اراده الآلهة أمر ممكن لطبقه خاصه من الناس تستطيع أن تقف على مشيئة الالهة فى الظواهر السماوية وفى حركات الاجرام السماوية وفى الرؤى والاحلام وفى المخلوقات الشاذة وفى الامارات التى تظهر فى كبد الحيوان المضحى الخ • وكان للمنطق البدائى دخل كبير فى تفسير هذه الظواهر ، فسابع الحوادث وتفسير الحادثة الاولى علة والحادثه التالية معلولا والقياس على الاشباه والنظائر وترابط الافكار وتداعى المعانى كل هذا وغيره قد جعل أمر العرافه والكهانه يتراءى للبابليين ولغيرهم من الاقوام حقيقة لا شك فيها ولا ريب • والحقيقه ان الظواهر والامارات التى كان البابليون يلاحظونها فيستدلون منها على ما سيكون متعدده كثيره يصعب حصرها ، ولكنا نستطيع ان نصنفها الى صنفين • فصنف يتضمن الاشياء التى يقصد حدوثها العرافون بانفسهم مثل فحص كبد الحيوان المضحى وخلط الماء بالزيت ومثل الازلام عند عرب الجاهلية وغير ذلك مما يصح ان يطلق عليه اسم « العرافة المقصودة » • اما الصنف الثانى فيدخل فيه ظواهر تحدث ولا شأن بحدوثها للانسان وانما يشاهدها ويفهم مغزاها مما يتعلق بارادة الالهة • وهذه متنوعة كثيرة مثل مشاهدة الكواكب ورصدها ، وهو التنجيم ، او الرؤى والاحلام او فى الزلزال او فى الخسوف والكسوف الى غير ذلك من الخوارق • وكان الكهنة هم الذين يتولون شؤون العرافة كل بحسب اختصاصه ومعرفته •

ولنأخذ أمثله من العرافة المقصوده ومن ذلك فحص الكبد (Hepatoscopy) وهى طريقة اشتهرت من العراق القديم الى اكثر الامم القديمة مثل الحثيين والاتروسكيين والاغريق والرومان • وكان أساس هذه الطريقه من العرافة ان البابليين كانوا يرون وجود علاقه بين الاله الذى يقرب اليه الحيوان المضحى والحيوان نفسه ، اذ عندما يضحى الحيوان ويقدم الى الاله فانه يكون جزءا من الاله كما يكون جزءا من أجسام الناس الذين يأكلونه • فتكون روح الاله او نفسه نفس الذبيحة او روحها او ان روح الحيوان تتمثل بروح الاله وعلى ذلك فمن الممكن للبشر ان يطلعوا الى روح الاله ومن

ثم معرفة ارادته بدرس روح الذبيحة • ولكن اين توجد روح الذبيحة التى تمثل بروح الاله ؟ اى فى اى عضو من اعضاء الذبيحة يمكن ملاحظتها؟ والجواب على ذلك ان البابليين عدوا الكبد ذا علاقة وثقى بالروح والحياة ، لانهم رأوا أن فى الدم الحياة نفسها والكبد مستودع الدم (بوجد فيه نحو ½ كمية الدم) ، واذا فبمكن معرفة اراده الاله من فحص كبد الحيوان المقرب وفهم ما يظهر فيه من علامات وامارات تعبر عن مشيئة ذلك الاله وارادته وعلاوه على ذلك فان مصدر من المعرفة من فحص الكبد من الالهة فالاله « شمش » مثلا هو الذى يسطر فى نفس الذبيحة « اى فى كبدها » علامات النحوء والفأل • والعرافون لم يحصلوا على هذا العلم الا بارادة الاله وبعد رياضة وممارسه • وقد خلف لنا البابليون والاشوريون والحثيون ألواحا من الطين فيها صور الكبد واسماء اجزائه وتعاليم وارشادات فى كيفية ملاحظه هذه الاجزاء والامارات التى يظهر فيها والسوء منها[1] ، وقد استعمل « عرافه الكبد » كثير من ملوك العراق الاقدمين قبل القيام باعمالهم وحملاتهم الحربيه وكذلك فعل غير واحد من اباطرة الرومان • وسمى البابليون اجزاء الكبد باسماء مستعارة لمشابهها الاشياء التى سميت بها مثل الاصبع والفم والطريق والقصر والباب والعرش الخ • وبعد انتحاب الذبيحة الصالحه من الوجهة الدينية يقدم العراف « البارو » امام صنم الاله ومعه موقد ومضحه وقدح من الخمر وشيء من البخور ومزيج من الزبد والعسل والملح ثم يأخذ العراف بعد السائل المقرب ويتلو بعض الادعية لحواء محاطة الاله والاستئذان منه بتقريب الذبيحة اليه ، ثم ينحر الذبيحة ويخصص للاله أحسن أجزائها ثم يفحص العراف الكبد فيشاهد اجزاءه وما تظهر

---

(١) حول ذلك راجع :-

(1) British Museum, **Cuneiform Texts,** Part VI,(1898) Pls 1, 2, 3

(2) A. Boissier, **Mantique babylonienne et mantique hittite** (1935)

(3) A Goetze, **Old Babylonian Omen Texts** (1947).

فيها من علامات كالقلقابع والخطوط والنسق ووضع القسوات التى ترتبط المرة الصفراء • وفى احراء الكبد علامات صالحة وعلامات غير صالحه وقد تربو الصالحه على غير الصالحه وتكون هى المعسره واذا ساوتا تعاد الفأل بفحص ثان وثالث •

ومن أصناف العرافة المقصوده طريقه صب الماء فى الاناء مع الزيت وهى ما يطلق عليها اسم (Lecanomancy) من (lekane) ومعناها اناء او طشت و (mancy) اى عرافه أو فأل وقد استعمل البابليون هذه الطريقه كثيرا وقد جاء فى مأثورهم ان احد الملوك القدامى (وهو ملك لم يذكر الا فى أنساب الملوك والاساطير وأسمه « ايمادور انكى ») هو الذى أوجد هذه الطريقه من العرافة • وقد ورد الماء من رمز حيوانى مصدران واسعان فى كيفية استعمال هذه الطريقه ووجدت اوان من الفخار من عصر فجر السلالات (٢٨٠٠ ق • م) ترجح انها كانت تستعمل لهذه الغايه • ووصف الكتابات المتعلقة بهذه الطريقه ما شاهده العراف من كيفية اخلاط الزيت بالماء ونشوء حلقات من الزيت وانحائها وطوافها فى الماء •

المنجم (Astrology) : والمنجم من العرافة غير المقصوده اى العرافة المبنيه على ملاحظة حوادث وظواهر لا دخل للعراف بحدوثها • ومما يجدر ذكره فى هذا الصدد ان نعزو بعض الاوهام الشائعه فيما تتعلق بعلاقة المنجم بالفلك ، وان الفلك نشأ من التنجيم • والواقع ان ذلك يخالف الحقائق المعروفه • فلم تكن مشأ علم الفلك عند العرافين الاقدمين الرغبه فى معرفه المستقبل والاخبار عن الغيب التى هى مشأ التنجيم ، وانما أصل علم الفلك من حوافز وضرورات تتعلق بمعرفة الفصول والمواسم وقياس الوقت وضبط أزمان فيضان الانهر ومواسم الزرع الخ • وبوسعنا ان نقسم التنجيم الى نوعين متميزين ، فالنوع الاول وهو الاقدم عهدا يصح ان نطلق عليه اسم « معرفة الاحكام (Judicial Astrology) وهو الذى عرفه البابليون واستعملوه ، ونقصد به رصد الاجرام السماوية وملاحظتها والاستدلال من ذلك عما

سجل بالمملكة أو ما سجل بالملك أو الحكومة أو المدسه وغير ذلك من الاشياء العامه • اما النوع الثانى فهو حديث العهد بالنسبة الى النوع الاول وهو الشائع بين الناس من كلمة التنجيم ، وهو معرفه طالع الانسان وما سيحدث له بتأثير الروح والكواكب والشمس والقمر مند ولادته ، ويصح ان يطلق عليه اسم الطالع[1] ولم يعرف هذا النوع من التنجيم فى العراق الا فى الازمان المتأخرة فى العهد السلوقى مند القرن الثالث ق • م •

ومن أمثلة رصد النجوم لغرض التنجيم ان المألوف فى الهلال أن لا يرى منذ اليوم السابع والعشرين ولكن اذا ما ظهر مند اليوم السابع والعشرين تطيروا من هذه الظاهرة وعددوا الشرور والكوارث التى تصيب البلدان المختلفة • واستعملوا فألا آخر من احتمال رؤية الشمس والقمر معا بين اليوم الثانى عشر واليوم العشرين فمثلا « اذا رؤى القمر والشمس معا فى اليوم الثانى عشر فيكون ذلك نذيرا بزوال السلالة الحاكمه وفناء السكان وكثرة السراق » وكانوا يتطيرون كثيرا من خسوف القمر ، فاحصوا لذلك حالات للخسوف باختلاف الاشهر والايام وكذلك تطيروا من كسوف الشمس • وقد عزوا خسوف القمر وكسوف الشمس الى فعل العفاريت والشياطين وحربها مع الآلهة فكانوا كما ذكرنا يقومون بنوع من الصلوة بهذه المناسبة • ومن الكواكب التى كانت تستعمل للتنجيم « الزهره » التى تمثل الالهة عشتار ، فكانوا يلاحظون طلوعها وغروبها وشدة لمعانها فى الاوقات المختلفة ، وكذلك لاحظوا المشترى (الذى يمثل الاله مردوخ) ورصدوا بعض النجوم الاخرى المعروفة مثل الشعرى والحدى والدب الاكبر الخ • وكذلك لاحظوا الظواهر الجوية المختلفة للفأل والتطير كالروابع والصواعق والمطر وهبوب الرياح •

(١) ويطلق على هذا النوع اسم
Genethliological astrology Horoscopic astrology

وقد تظهر الآلهه ارادتها فى الرؤى أى فى الاحلام ، اذ كثيرا ماتظهر الى الصالحين والابرار فتخبرهم بالحوادث المغيبة • ويكون الاخبار اما صراحة أو رمزا فيحتاج الرائى فى الحاله الثانيـة الى مفســـر أو معبر عن الرؤيا ، واختصت طبقة من الكهنه فى تفسير الاحلام وهم طبقة « الشائلو » • ومن أنواع الفأل المهمة عند البابليين طبعة الايام المختلفة من الشهر وتقسيمها الى أيام صالحة وطالحة وكان للا لهة اعداد خاصة مقدسة وكذلك للافراد أرقام خاصة مقدره ، وهذا يذكرنا بنظرية فيثاغورس من ان اساس جميع الاشياء العدد ومن الطريف ذكره ان العدد ١٣ كان من جملة الايام التى تتطير منها البابليون • وقد حلف لنا العرافون اثناءا بجميع ايام السنه وتعيين الايام الصالحه والنحسة وما قد يحدث فى الايام المختلفة من خير وشر • واستخدم العرافون الحيوانات والطيور وما يلاحظون فيها من شذوذ فى الخلقة علامات للفـأل ايضا ، وكذلك لاحظوا طيران الطيور فاذا طار صقر مثلا ومر من يمين الملك الى يساره فان الملك ينتصر ، واذا طار من ساره الى يمينه فانه يحقق رغبته•

السحر :

كان للسحر عنـد سكان العراق الاقدمين شـأن كبير فى حياتهـم العامة فكان عندهم حقيقة لا ريب فيها ، وكانوا يعالجـون به الامراض التى تسببها الشياطين والارواح الخبيثة • واساس السحر عندهم مثلما كان عنـد الشعوب القديمة وبعض الشعوب الحاضرة مبنى على قاعدتين مشؤهما المنطق البدائى الساذج ، فالقاعدة الاولى فحواها « ان الشىء يحدث شبيهه » او ان العلل المشابهة ينتج عنها نتائج مشابهة ، والقاعدة الثانية ان الاشياء التى كانت فى وقت ما متصاحبة ويؤثر بعضها فى بعض تستمر كذلك بعد ان ينفصل بعضها عن بعض • ويصح ان نطلق على القاعدة الاولى «قانون التشابه» (Law of similarity) وعلى القاعدة الثانيه قانون المصاحبـــة أو العـدوى (Law of contact or Contagion) ويستطيع الساحر مثلا بموجب القاعدة الاولى احداث شىء بتقليد حدوثه ، ويستطيع بحسب القاعدة الثانية ان يحدث شرا أو ضررا فى انسان ما باحداث خير أو شر فى أشياء كانت جزءا من ذلك

الانسان أو انها تعود له ، كشعره وقلامة ظفره أو قطع من لباسه • فيتضح من ذلك ان السحر مبني على قوانين شبيهة بالقوانين المطبقة أو قوانين مزيفة، فهو على ذلك علم ، ولكنه ، كما يدعى احيانا « علم غير شرعي » وبالاضافة الى ذلك يعتمد السحر على افتراض وجود عوامل خفية ، كالارواح والقوى تعمل على تحقيق العمليات السحرية ، ولذلك فسمي السحر جميعه بالسحر « الانجذابي » (Sympathetic Magic)

والسحر يكاد يكون من العناصر العامة الموجودة في حضارات جميع الشعوب • والفكر السحري أو العقلية السحرية أقدم طور في تطور عقل الانسان ولا يزال موجودا في أعمق طبقات العقل البشري و النفس البشرية، ويتجلى ذلك في اعتقاد الانسان بحدوث الاشياء التي يرغب فيها بمجرد رغبته في حدوثها لان تفكيره قادر على ذلك[1] • والغريب في أمر السحر ان اكثر عملياته يكاد يكون مطابقة مشابهة عند معظم الشعوب • فمن الاشياء العامة الموجوده عند اكثر البشر طريقة ايذاء العدو بعمل دمية او صوره من مـــواد معينه وكسرها او حرقها ، اذ بموجب قانون الشابه يسبب كسر يد الصورة او اتلاف عينها ضررا مماثلا في الشخص الذي تمثله ، وقد اســـتعمل ذلك سحرة البابليين والمصريين واليهود والتيوتان والرومان ، ولا يزال شائعاعند الشعوب المتأخره • واذا أراد اليهود الحمر في أمريكة ايذاء عدو فانهم كانوا يرسمون شخصه على الرمل أو الرماد أو الطين ثم شوهون هذه الصورةأو يلفونها • ومن الاعمال السحرية الشائعة عند البابليين امكان تدمير الاعـداء الذين اصروا فردا بالسحر بحرق صور تمثلهم وتلاوة تعويذه في مخاطبة الاله الخاص بالنار بان يحرق من أحدث الاضرار بذلك الشـــخص • واذا أراد العاقر عند بعض القبائل في سومطره الحمل فانها تضع دمية تمثـــل طفلا في حضنها وتضعها على صدرها كأنها ترضعها ويساعدها في ذلك رجل كثير الذرية بأن يأخذ فرج دجاجه ويقربه من رأس المرأة ويتمتم «أوبوليره

(١) ويعبر عن ذلك بـ (Omnipotence of thought)

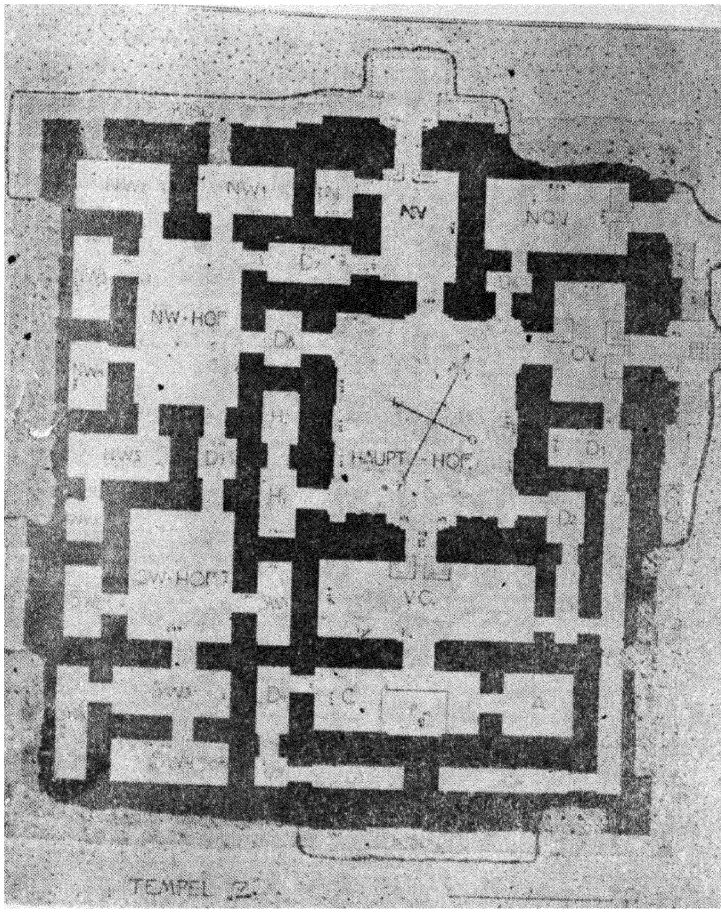

أحد المعابد المكتشفه فى بابل المخصص لعباده الالهه « نن – ماخ »
(واسمه اى – ماخ) • لاحظ احزاء المعبد المختلفة

بقتل هذه الدجاجه ، وأسرع الك ان تسقط فى يدى طفلا » ثم سأل المرأه « هل جاء الطفل ؟ » فجيبه « نعم وانى الآن ارضعه » ثم يأخذ الدجاجة ويضعها على رأس زوج المرأه ثم يذبحها ويذهب المرأه الى فراشها ويقلد حالة النفساء فأتى اليها صاحباتها فباركن لها بالمولود الجديد . ومن الامثلة على القاعده التاسعة ويعنى بها قانون العدوى أو استمرار التأثير ، حرص كثير من الشعوب على احفاء السن المقلوع أو شعر الرأس أو قلامه الاصابع مخافة ان يقع فى يد عدو يستطيع ان يحدث الضرر بالشخص الذى يعود اليه ، ويعتقد كثير من الاقوام بوجود علاقه بين الجريح وبين الآله التى سبب جرحه ، وان هذه العلاقة تستمر ما دام الشخص مريضا ، وعند بعض الاقوام المتأخرة فى « ملابوبه » اذا عثروا على السهم الذى سبب الجرح فانهم يضعونه فى محل مرطب ليزول التهاب الجرح ، ويستطيع الجارح ان يطيل امد الجرح بان يسرب اشياء مهيجه حاره أو انه يحمى السهم أو القوس بالنار ، وقد تفرع عن السحر نوع سالب من السحر مداره على تجنب أشياء ينتج عملها عواقب غير صالحه وهذا هو مبدأ الحرام « الطبو (Taboo) وهو عام عند معظم الشعوب .

وكان السحر عند البابليين والاشوريين من أعقد وانظم ما عرف من أنواع السحر وكان على صنفين صنف ضار يقصد به احداث الضرر بالناس وقد حرمته القوانين وفرضت على فاعله عقوبات صارمة كما ورد فى شريعة حمورابى ونوع حلال يتخذ لمقاصد كثيره من أهمها شفاء الامراض وطرد الشياطين من أجسام الناس حيث تسبب لهم أنواعا كثيرة من الامراض . وكانت هذه الشياطين تملأ العالم البابلى وهى على انواع كثيرة لا يحصرها عد ، ولكن يوسعنا ان نصنفها الى ثلاثة أصناف بحسب الاصل الذى كان البابليون يعتقدون انها استخلصت منه ، فصنف من الشياطين أصله أرواح نوع من الموتى من البشر ، والصنف الثانى يتضمن شياطين بحته وصنف أصله مركب من الشياطين والبشر وهو على الغالب نسخة تزاوج البشر مع الشياطين .

والصنف الاول هى الارواح التى فارقت اجسادها بعد الموت وخرجت من عالم الارواح فصارت نوعا من الشياطين تؤذى البشر ، ومن أسباب ظهورها ما ذكرنا من عدم دفن الميت أو دفنه على غير السنن الدينية المتبعة ، أو عدم هدم المقابر الى الموتى أو فى حالة نبش قبر الميت واخراج رفاته وحينئذ تخرج الارواح بهيئة اشباح سموها « الاطمو » وقد عرف البابليون من الصنف الثانى ، وهو صنف الشياطين الخالصة ، أنواعا كثيرة سبب الامراض والويلات للبشر .

وكان السحر الذى يحاربون به الشياطين مستمدا من الآلهة . وقد خلف لنا البابليون شيئا كثيرا عن طرق السحر المختلفة والتعاويذ والرقى المتنوعة وقد رتبوا ذلك بهيئة مجموعات وعنونوها عناوين خاصة وتتعلق كل مجموعة بعمليات سحرية خاصة لشفاء الأمراض وطرد الشياطين وغير ذلك من الاعراض .

المعابد والبنايات الدينية :

لقد المحنا فيما سبق الى أهمية المعابد فى حياة المجتمع فى العراق القديم، فهى عدا صفتها الدينية ذات علاقة وثيقة بشؤون الناس الدنيوية ، فكانت مثلا مركزا مهما للقضاء بين الناس . وكان كهنة المعابد قضاة ، وكان جزء مهم من المرافعات القضائية يتعلق بالمعبد وكهنة المعبد مثل القسم ، وكان المعبد الى كل ذلك مصرفا (أى بنك) للمداينات والايداع، وقد امدنا كثير من المعابد بكنوز ثمينة من الآثار الفنية وبالسجلات الدينية والدنيوية التى كانت تودع فى المعابد وكان المعبد كذلك مركزا علميا للتعليم والبحث والتأليف والنقل ، وفيه تحفظ سجلات الآداب والعلوم الى جانب دور السجلات وخزانات الكتب الملوكية .

ويوسع المرء ان يعرض انه لم يكن لسكان العراق القدامى فى بداية أمرهم وفى أطوارهم الدائمة معابد عامة ، وانما كانوا يعبدون آلهتهم فى

بونهم الخاصة وقد رأينا في بحثنا في عهود تاريخ العراق ان المعبد كان أول ما ظهر من البنايات العامة وذلك في عصور ما قبل التاريخ وبوجه خاص في العصور التي سمياها بعصور ما قبل السلالات وقد ظهرت بوادر المعابد لاول مرة في عصر حلف وكثرت في زمن العبيد التالي حيث ظهرت نماذج كثيرة من المعابد في الشمال والجنوب ، كالمعابد التي ظهرت في « تبه كورا » (قرب الموصل) والمعابد التي ظهرت في «اريدو» في الجنوب وكثرت المعابد فيما بعد ذلك في الازمان التالية ، وظهرت أولى الزقورات (جمع زقورة) أو الصروح المدرجة في الوركاء وفي العفير في العهد الذي سميناه بالوركاء . ومما يلاحظ في المعابد بوجه عام انها متشابهة منذ اول ظهورها وهذا يدل بوجه جلي على استمرار حضاره العراق القديم وتدرجها في النمو والتطور بدون فراغ .

ويمكننا ان نقسم المعبد بوجه عام الى قسمين منفصلين ، نطلق على أحدهما المعبد العالي الذي تمثله الزقوره ، والثاني المعبد المؤسس على الارض المسموه قرب الزقوره ،ونشأ الزقور، او الصرح المدرج من فكره اقامه معبد الاله فوق مرتفع صناعي اشاره للسمو والعلو (هذا هو معنى اسم الزقوره في اللغة البابلية) وكانت الزقوره مكونة من طبقات من الساء الصلد ، مربعه أو مستطيلة مدرجه السعه وتحلف عدد الطبقات باختلاف المواضع فهي تتراوح من ٣-٧ طبقات وتشيد فوق الطبقة العليا مزار او معبد صغير لعله كان يوضع فيه تمثال الاله ، ويرقى الى الزقوره بثلاثة سلالم ، ويوجد قرب القاعدة السفلى من الزقوره بعض الحجرات والمرافق ويحيط بها سور مقدس ، ووجدت آثار في انقاض بعض الزقورات تشير الى احتمال تلوين الطبقات المختلفة بالوان مختلفة ولعل البابليين تصوروا ان المعبد المشيد فوق قمة الزقوره هو لاستراحة الآلهة عند نزولها من السماء واذا نزلت الى الارض فانها تجد بيوتا خاصة لها هي المعابد الارضية التي تظهر فيها لاستماع صلوة البشر وتسلم قرابينهم والاستماع الى مظالمهم وشكاتهم وان أقدس جزء في المعبد

الارضى باب غير نافذ فى اقصى المعبد بهيئه محراب ، وكانوا يضعون هنـــا أصنام الآلهة فوق دكه من البناء او كرسى من الخشب • وحجرة الهيكل هذه أهم جزء فى المعبد وقد يكون وحدها معبدا قائما بنفسه وكان أول جزء من المعبد يدخل اليه المتعبدون حجره الحجب أو حجره المدخل وتؤدى هذه الى ساحه مكسوفه ومن الساحة يدخل المرء الى حجره أخرى يجور تسميتها بحجره « الناس » ثم الى حجره اخرى هى حجره الهيكل التى كان اقدس جزء فى المعبد حيث يوجد المحراب ودكه المذبح ويكون مداخل هذه الحجرات فى آخر المعابد الثلثه باتجاه واحد بحيث اذا استحب الابواب ترى الواقف فى حجره المدخل المحراب فى اقصى المعبد وقد يماثل الآله • ويكون حجره الهيكل فى المعابد الآشوريه فى الجانب وليس باتجاه المدخل • وفيما عدا هذه الاجزاء الرئيسيه يوجد باحات خارجيه وحجرات ومرافق اخرى كثيره تحيط بالساحه حصص بعضها لمكهنه وبعضها للتطهير المقدس • وكان اكثر المعابد ، مثل معبد ماردوك فى بابل ، يحتوى على مماثل آلهه كثيره توضع فى حجرات ثانويه مع تماثل الآله الرئيسى الذى سيد به المعبد •

وسميت المعابد بنوعها ، اى الزقوره والمعبد الارضى ، وأسماء خاصه بها وقد وردت اسماء مطوله لأسماء المعابد واسماء الآلهه وكانت المدن جمعها هرما مهما صغرت لا تخلو من معبد لعباده الاله أو الآلهه التى تعبد فى تلك المدينة، اما فى المدن الكبيره فكان فيها اكثر من معبد واحد • وسادت فى اغلب هذه المدن الكبيره الزقورات او الصروح المدرجه • ومن أنواع المعابد التى ذكرناها فى الكلام على تجديد أس اساسه المعبد الخاص الذى كان يخصص للاحتفال بعيد من عيد المعابد[1] ، وكان المعبد الذى يقام خارج المدن المشهوره وقد وجد بعضها ولا سيما المعبد الخاص بمدينة اشور حيث نسب

(1) Pallis, **The Babylonian Akîtu Festival** (Copenhagen, 1926)

(2) Parrot, **Archéologie Mesopotamienne** I, 229

فيه المنقبون الالمان[١] وهو يقع بحوالى ٢٠٠ مترا خارج سور المدينه ،واهم ما تمتاز به هذه المعابد كثرة الحدائق المحيطة بها ، وحتى ساحة المعبد كانت تغرس بالازهار والاشجار النظرة ووجد فى كل جانب من المعبد الخاص باشور رواق طويل ، ووجد فيه ايضا محراب (سلا) كبير (٢٥ × ١٠٠ قدم) على طول عرض المعبد ، ولعل الاحتفال بالوليمة كان يقام هنا ، كما وجدت آثار لمثل هذا المعبد حديثا فى الوركاء .

W. Andrae, **Das Wiedererstandene Assur** (1936) 15, ff.

*

الفصل الرابع عشر

الشرائع والقوانين

مقدمـــة :

ظهرت في العراق القديم اقدم شرائع مدونة في تاريخ العالم ، ولدينا من الاشـارات التأريخيـة ما يثبت ظهور القوانين المدونة في العصـور التي سميناها بعصور فجر السلالات . فشرائع العراق القديم تكون بذلك اولى الجهود البشرية في تنظيم الحياة الاجتماعية وفق قواعد واصول مدونة . هذا ولا يمكننا معرفتنا بأحوال العراق الاجتماعية على ما جاءنا من الشرائع المدونة منذ أقدم العصور بل الى ذلك مئآت الالوف من العقود والمستندات القانونية والتجارية والادارية وهي التي سنتكلم في هذا البحث بالوثائق القانونيـــة . فمثل هذه المصادر العديدة مع القوانين المدونة صورة لا يأس بها عن تنظيم الهيئة الاجتماعية بموجب العرف القانوني والقواعد المقررة . ولعل اثر المراث في حضارات العراق القديم ان الناس امتازوا عن سائر الشعـــوب القديمة بتمسكهم بالقواعد القانونية ، فكانت المعاملات كافة ، صغيرها وكبيرها وجميع الاحوال الشخصية تجري وفق أحكام معروفة وان جميع هذه الامور والشؤون لا تعد ملزمة صحيحة ما لم توضع باسلوب شرعي قانوني . ويمكننا ان نؤكد مرة اخرى ان الشرائع لم تظهر في زمن اقدم وبوجه اوضح عند شعب آخر من شعوب الحضارات القديمة مثل ما كان الحال عليه عند ســـكان وادي الرافدين . ويوسعنا ان نلمس تفاعل النظم والشرائع في حياة العراق القديم في مآثر الملوك والامراء مما وصل الينا من كتاباتهم وســـجلاتهم ، فكاد لا تخلو سجلات كل منهم من اشارة الى نشر العدل واقرار شرائـــع الآلهة وحماية الضعفاء .

أصول القوانين والشرائع :

ومما قوى تمسك الناس بالقواعد الاجتماعية المدونة اى بالقوانين المدونة وبالعرف القانونى والاجتماعى انهم كانوا يعدون مصدرها واصلها من الآلهة فكان ملوكهم عند اصدارهم القوانين او ذكرهم نشر العدل وشريع الشرائع يقولون انهم مسوقون بارادة الآلهة ورغبتها • ويتضح ذلك جليا مما جاء فى مقدمه شريعة حمورابى حيث يقول « لما عهد آنو العظيم سيد الآلهه و « انليل » رب السماء والارض الذى بيده مصير البلاد ، الى مردوخ بكر « ايا » ان يحكم جمع البشر ، وعندما عظماه بين آلهه السماء وجعلا اسم بابل بجيدا شهيرا فى جميع الدنيا وأسسا فيها مملكه راسخة البنيان رسوخ السماء والارض ـ اندبنى آنذاك « آنو » و « انليل » ، ايا حمورابى ، الامير الكريم عابد الآلهه ، لانشر العدل فى البلاد وافنى على الشر والغش وامنع القوى من اضطهاد الضعف ••• » ومما جاء فى مآثرهم انه اذا لم يرع الملك العدل فسوف اباعه ويخرب بلاده ، واذا لم يسر على قوانين بلاده فسيعير الاله « ايا » الذى قدر القدر مصيره ويصيره الى اسوأ مآل •• وكان الاله شمش (الاله الشمس) على رأس الآلهة الذين خصوا بانهم مصدر الشريعه والعدل حيث « يبدد الظلمات بنوره » والقاضى الاعظم الذى ينظر الى الضعفاء بعين العطف والرضا •

وتشترك معظم الشرائع القديمة بالاعتقاد بانها مستمدة من الآلهة فالقوانين القديمة سواء اكانت صادره عن العرف والعادة ام مبنية على الاحكام الصادرة من الملك او الكهنه انما هى أحكام الهية لان الحاكم يمثل الاله فى هذه الارض فاحكامه موحى بها من الآلهه • والاعتقاد بهذا المصدر البطرى جعل القوانين القديمة تتصف بالثبات والاستمرار وعدم التغيير والتحويل وانها جعلت لتحكم الناس فى جميع الاحوال والازمان •

والامر الواقع ان القوانين التى هى قواعد عامه اجتماعية ملزمة ، تنشأ فى كل مجتمع من الروابط الاجتماعية التى تنظم بموجب تلك القواعد وعند

ما كان البشر فى المراحل البدائية ، قبل نشوء الحضاره الناضجة فى وادى الرافدين ، لم تكن تلك القواعد الاجتماعية مدونة بهيئه أحكام قانونية ، بل كانت بهيئه عادات ، وادا عمت تلك العادات واطرد اتباعها من قبل الناس واكتسب صفه الالزام فى تنظيم علاقاتهم الاجتماعية فتحول الى عرف اى الى قانون واجب الاتباع • وقبل ان تبدأ القوانين المدونة فى العراق القديم كان القضاه او المحكمون والعارفون الذين يلجأ اليهم المتخاصمون للحكومة وقص النزاع قد نشوا قواعد العرف بقضيتهم ، فصارت الاقضية السابقة أو السوابق القضائيه مصدرا مهما للقانون المدون ، اد أن هذه السوابق القضائيه المستنده الى العرف تكتسب بمرور الزمن صفه القانون الرسمى • وهكذا نشأ قانون حمورابى ، الذى هو جمع أحكام سابقه اى تقنين الاحكام المحلية السابقه وجمعها بهيئة قانون مدون ، ومما يدل على أهمية القضاء كمصدر للقوانين القديمه ان الكلمه التى أطلقها العراقيون القدماء على القانون هى نفس الكلمه التى تطلق على القضيه او الحكم الصادر فى قضيه معينه • وكان القضاه والجماعات الاخرى من الكتبة والكهنه يشتغلون فى المسائل القانونيه ، ويدونون بحوثهم ونشون الاحكام ويفسرون هذه الاحكام ، فكانوا بذلك اول علماء فى القانون او ما نسميهم الآن فقهاء وقد كانت بحوث هؤلاء اى الفقه الذى بحثوا فيه ، من المصادر المهمة للقوانين المدونة التى اصدرها الملوك •

وتعتبر شرائع العراق القديمه ، الى كونها أقدم شرائع شرية بانها على قدر عظيم من النضج والرقى بالنسبة لجميع الشرائع القديمة فانها بخلاف كثير من الشرائع القديمه التى جاءت من بعدها ، كشرائع مانو الهنديه والالواح الرومانيه الاثنى عشر[1] قد دونت بلغه قانونيه دقيقه وباسلوب علمى • وان هذه الشرائع قوانين دستوريه صرفه مقتصره على الشؤون المدنية لا تتعرض للعبادات ، ودونت بهيئة مواد مسلسلة ولم تستبط من كتب

---

(١) راجع البحث الخاص بالرومان

مقدسه كما فى الشريعة العبرانية والاسلامية ، ومع ذلك فانها لم تخل من نواح فيها طابع السذاجه والبداوه والشدة بالنسبة الى عرف البشر المتمدن فى الوقت الحاضر مثل المسؤليات الا بتماعية والسنة فى الاحسان ومبدأ القصاص (العين بالعين والسن بالسن) .[1] ومع كل ذلك فانهـا تركت العرف القبائلى وراءها بمراحل كبيرة .

مصادرنا عن الشرائع ونماذج من هذه الشرائع :

ان مصادرنا عن شرائع العراق القديم نصوص أصليه ، أى ما جاءنا من الوثائق البابليه والقوانين المدونة من مختلف ادوار التأريخ فى العراق القديم ويوسعنا ان نقسم هذه المصادر الى قسمين :ـ فالصنف الاول نماذج من شرائع مدونه من عهود مختلفه بعضها شريعه تامة مثل شريعه حمورابى ، وبعضها أجزاء من شرائع لم تصل الينا كلها مثل القوانين السومريه والقوانين القديمه السابقه لشريعه حمورابى ومثل القوانين الاشورية[2] . والصنف الثانى من مصادر معرفتنا شرائع العراق ، وهو لا يقل خطوره عن الصنف الاول ، نسميه بالوثائق البابليه ويقصد بهذا الصنف الوفا كثيرة من رقم الطين البابليه التى هى عقود وصكوك كعقود الزواج والطلاق والبيع

---

(1) Lex Talionis

(٢) يكون هنا اهم المراجع الاساسيه واحدثها عن الشرائع فى العراق القديم ويمكن للقارىء الاشارات الى الدراسات الاصليه ..

(1) Prichard, **Ancient Near Eastern Texts** (Princeon, Un Press, (1950)

وهذا يعد القارىء احدث تراجم الى شرائع العراق القديم

(2) Miles and Driver, **The Babylonian Laws,** 1, (1952)

(3) .. .. , **The Assyrian Laws** (1935)

وعن الوثائق البابليه

(4) Schorr, **Urkunden des Altbabylonischen Zivil und Prozess rechts** (1913).

(5) Walther, **Das Altbabylonische Gerichtwesen**

وسيذكر المراجع الاخرى الخاصه بترجمه الشرائع المكتشفة حديثا .

والارث ، وكذلك قرارات المحاكم وقضية القضاة ويلحق بذلك رسائل الملوك الادارية وكذلك المستندات الادارية المتعلقة بالضرائب وتقسيم المملكة الى مناطق ادارية وتعيين الاحور الى غير ذلك من الشؤون المختلفة • وتكون الوثائق القانونية فى بعض العهود التاريخية المصدر الوحيد لمعرفة الاحوال القانونية ذلك لانه لم يأتنا بعد من تلك العهود قوانين مدونة • ومهما يكن الحال فان هذا الصنف من المصادر يعد جزءا مهما للقانون المدون • لانه حتى فى حالة وجود القانون المدون فان ذلك لا يعد كافيا لمعرفة النظم القضائية عند سكان العراق القدماء ، لان مواطن كثيرة فى القانون المدون غامضة غير مفهومة تارة من الناحية اللغوية وتارة من الناحية الفقهية ولكن رجوعنا الى الوثائق القانونية ، التى هى تطبيق للعرف القانونى ، يساعدنا على معرفة ما التبس علينا فهمه من القانون المدون • وفوق هذا كله لايكون الصورة التى يكونها الباحث عن العرف القانونى صحيحة ممثلة على الوجه الاكمل لو اقتصر فى يكون تلك الصورة على القانون المدون الذى قد لا يبين الا الاحوال المثالية دون الواقع وقد يكون مهملا لا يسار على أحكامه ، والذى يكشف لنا هذا الأمر ويكمل الصورة الواضحة هى الوثائق القانونية • ومن المصادر المهمة لمعرفة شرائع العراق القديم صنف من النصوص المدرسية ، وهذه عبارة عن نسخ وضعت لغرض التدريس وتدرب المتدئين فى الكتابة واللغة ، ولا سيما اللغة السومرية ، وتحوى الكثير منها على نصوص ومقتطفات قانونية سومرية وبالتالى تذكر منها مجموعة تعرف بأول عبارة منها وهى « عند الطلب » أو « فى حينه » وباللغة البابلية « أنا ـ اشتو »[1] اشارة الى العرف المتبع آنذاك فى ان الدائن عندما يكتب عقدا مدين يعين الشهر ولكنه يترك اسم اليوم لعلمه واحتفاظه للمدين • ومع ان

---

(١) أنظر
Landsberger, **Ana ittishu. Materialen zum Sumerischen Lexikon** (1937).

ما جاءنا من سنح عن هذه المجموعة يرجع عهده الى الزمن الاشوري المتأخر ولكن محتوياتها ولغتها السومرية والبابلية تشير الى انها اصلها المستنسخة عنه يرجع الى العهد البابلي القديم . وترد هذه في حفلين ، ذكرت في الحفل الاسبق المصطلحات السومرية وفي الحفل الاتي ترجمتها باللغة البابلية ، ومع أن هذه النصوص لا يمكن اعتبارها شرائع بصرفه وانما هي تمارين لغوية لتدريس المصطلحات القانونية ، الا انها مع ذلك تحتوي على معلومات جد مفيدة عن الشرائع والقوانين والمعاملات التجارية . وثمة نوع آخر من النصوص اللغوية التي تلقي ضوءا مهما على النواحي القانونية ، وهي تسمى أيضا بأول جملة منها « ريح ، قايض »[1] ، وكان الغرض من هذه أيضا لغويا لتدريب الطلاب على فهم اللغتين السومرية والبابلية ولكنها الى ذلك تحتوي مثل النصوص الاولى على مصطلحات قانونية ومعاملات تجارية مهمة ، ولا سيما اللوحين الاولين من المجموعة ، وهي ايضا مرتبة بحفلين ، في حفل المصطلحات السومرية وبجانبه ما يرادفه في اللغة البابلية . ومن مصادر معرفتنا بالعرف القانوني في حضارة وادي الرافدين نوع ثالث من النصوص القانونية يمكن تسميتها كما جاءت بعنوانها القديم « احكام صادرة » ، اي قضايا حكم بها المحاكم المختلفة وبعضها محاضر أو سجلات محاكم ، ويرجع معظمها (نحو ٢٥٠ وثيقة) الى عهد سلالة اور الثالثة وبعضها يتضمن دعاوى الاملاك والاراضي[2] وحالات نقض الالتزامات . ومن مصادر معرفتنا بالحياة التشريعية والقضائية في حضارة وادي الرافدين ان الملوك اعتادوا اصدار نوع من الانظمة والاوامر الخاصة بتطبيق القوانين على غرار المشورات

---

(١) بالسومرية « حر ـ را » (HAR - RA) وبالبابلية « حوبلوم » اي قايض (انظر (Landsberger, Ibid, X—XII)

(٢) اسم هذه المجموعة من النصوص بالسومرية (SA - TIL - LA) وبالبابلية (دينوم كمروم) (dînum gamrum) (DI - TIL - LA) أي قرار تام أو صادر وقد نشر بعضها في المصادر الآتية ـ
Babyloniaca III, 160 ff. RA VIII, 1 ff. Gadd, Sumerian

القضائية عند الرومان[١] . وسقدم في ما يأتي عرضا تاريخيا لما جاءنا من القوانين وسكون توسعنا من هذا العرض التاريخي أن نحصل على صورة لا بأس بها عن الشرائع والحياة القضائية وأحوال المجتمع بوجه عام .

القوانين السابقة لشريعة حمورابي :

لا سبيل لنا لمعرفة القوانين في العراق قبل أن يظهر الكتابة فيه نحو منتصف الالف الرابع ق. م. ولكن مما يدعو الى الدهشة ان نجد عند سكان العراق الاقدمين أصولا قانونية وقواعد متبعة في المعاملات ونحن في أواخر عصور ما قبل التاريخ عند المنعطف الذي من عصر النوركاد ، وهو الزمن الذي ظهرت فيه الكتابة لاول مرة في تاريخ البشر . فان الواح الميس التي جاءنا من هذا العهد ومن العهد الذي يليه (وهو عهد جمدة نصر) تحتوي على كثير من المعاملات التجارية والادارية كسجلات الحقول والاراضي والمستندات التجارية وسجلات الواردات وسند ملكية الاراضي ، وكثرت المصادر عن القوانين في عصور فجر السلالات وهو عهد ازدهار الحضارة السومرية ونموها . ولكن مما يؤسف له اننا لم نأت بعد من هذا العهد قوانين مدونة على طراز شريعة حمورابي أو شريعة مملكة اشنونا المكتشفة في تل حرمل . وانما وردت اشارات من الملوك الذين حكموا في اواخر تلك العصور بأنهم مكنوا العدل ودونوا الشرائع . وكان « اوروكاجينا » أمير مدينة «لجش» أول مصلح في تاريخ البشر ، وقد جاءنا عنه ما نثر بشير الى اصلاحاته الاجتماعية ونظم أصول الادارة وحتى الضرائب وازالة الظلم من الطبقات الفقيرة وانه مكن العدل في البلاد[٢] . والى هذه الاشارات جاءنا من عصور فجر السلالات وكذلك من العهد الاكدي الذي أخذ يمادح مدونة من الوثائق القانونية . وقد انتهى عصر فجر السلالات وهو عهد دويلات

(Miles & Driver, **The Bab. Laws,** 23)
Thureau-Dangin, **Sum. Konigsinschriften** (50)

المدن كما رأينا سابقا . بوجود البلاد فى عهد السلالة الاكدية ونشـــوء الامبراطورية فاسوجب ذلك نشوء القوانين الادارية لاداره المملكة المرامية الاطراف والاقاليم النائيه لها ، ولدينا من الاشارات التاريخية ما يثبت نشوء صنف خاص بالقضاه المدنيين ، وكانوا ذوى مكانة سامية فى الدولة وقد سبق ان عرفنا فى كلامنا على الملك سرجون الاكدى انه ادخل نظام القسم باسم الملك من جانب الاطراف المتعاقده شبيها لنصوص العقود ، كما انه لقب نفسه بملك العدل . وجاءنا اشارات كذلك من عهد الكوتيين المظلمة من مآثر جودبه الشهير ما يعيننا على فهم شيء عن القضاء والمحاكم فى هذا العهد .

اكثر مصادرنا بالاحوال القضائيه فى عهد سلالة اور الثالثه وكانت هذه المصادر بالدرجه الاولى من صنف الوثائق القانونيه المتنوعه ، ولـــكن جاءنا بالاضافه الى ذلك اخبار من شرائع مدونه ، وهى ذات علاقه وثيقة بقانون حمورابى مما نشير الى أحد حمورابى بعض أحكامها فى شريعته . هذا ولا نعرف الملك الذى دون هذه الشرائع السومريه .

قانون « اور ـ نمو »

اكتشف الباحثون حديثا من بين الواح الطين التى وجدت فى نفر قبل نحو ٥٠ عاما شريعة[1] جديده ثبت انهـــا تعود الى الملك « اور ـ نمو » ، مؤسس سلالة اور الثالثه ، الذى حكم فى حدود ٢٠٥٠ ق.م ، فتكـــون شريعته بذلك اول شريعه حمورابى بنحو ثلاثة قرون . ومما يؤسف له ان ما عثر عليه من الشريعه ناقص غير كامل فلم يبق منه سوى المقدمة وبضـــع مواد قانونية . ومما يذكر عن أحكام هذه المواد الباقية انها كثيره الشبه بأحكام شريعة « لبت ـ عشتار » وشريعة « اشنونا » من ناحية الاخذ بمبدأ الدية والتعويض بدلا من مبدأ القصاص ، كما فى شريعة حمورابى ، وتشبه هذه الشريعه فى طريقه تنظيمها الشرائع الاخرى ، من حيث تبويبها الى مقدمـــه

S. N Kramer in **Bulletin of the Un. Museum,** vol 17, No 2 (1952).

م مواد الاحكام والخاتمة ، ولكن شريعة حمورابى اكمل واوفى من هذه الناحية . وتتضمن المقدمة تدرج نفوذ السلطة للحكم ونشر الشرائع من الآلهة الى الملك ، فمثلا تذكر المقدمة انه بعد « خلق العالم وبعد ان تقرر مصير سومر ومدينة اور عين الآلهان آنو والملل اله مدينة اور (وهو الاله القمر « ننا ») ملكا على أور ، ثم عين هذا الاله بدوره ، اور — نمو » نائبا عنه فى الحكم » ، ثم يعدد الملك اعماله من توطيد الحالة السياسية فى المملكة ويذكر علمه على بعض المدن ولا سيما « لارسا » واصلاحاته الداخلية وازالة المظالم ونشر العدل .

قانون « اسنونا »(١)

يرجع زمن هذا القانون المدون الى العهد البابلى القديم ، وقد وجد فى انقاض تلول مدينة اشنونا بالقرب من بغداد والمرجح أن هذا القانون يعود الى ملك من ملوك مملكة اسنونا (انظر البحث الخاص بالعهد البابلى القديم) اسمه « بلالاما » ، وقد اصدر هذا القانون لتنظيم شؤون تلك المملكة عندما استقلت زمنا طويلا بعد سقوط سلالة اور الثالثة . واذا صحت نسبة القانون الى « بلالاما » فيكون زمنه قبل بدوس شريعة حمورابى بنحو قرنين من الزمان ، فهو على ذلك اقدم شريعة كبيرة معروفة فى العالم (من بعد قانون « اور — نمو ») . وقد دون هذا القانون على لوحين من الطين باللغة السامية (السامية) لا شك انهما جزء من مجموعة لم يعثر عليها حتى الآن . وهو بحالته الحاضر يحتوى على نحو ٦١ مادة من المواد القانونية ، فيعادل ذلك نحو الربع من شريعة حمورابى (البالغة نحو ٢٨٢ مادة) ويعنى ذلك ان قانون

---

(١) انظر ترجمة المؤلف لهذا القانون الى العربية فى مجلة سومر المجلد الرابع ، الجزء الثانى ، وكذلك ترجمته الانجليزية وكتب النحوث الاخرى حوله (أنظر

(Symbolae Hrozny (1950

«حرمل» أوسع قانون مدون من بعد قانون حمورابى • ويبتدىء القانون مثل قانون حمورابى بمقدمه ولكنها قصيره ترجح انها سدأ باسم الملك « بلالاما » (ولكن الكتابه هنا غير واضحه) وتاريخ القانون ، ثم تبدأ جملة مواد فى تحديد الاسعار والاجور (وعددها ١٢ ماده) ويذكر القانون الاحكام المتعلقه مما يتعلق بالسرقات والاعتداءآت والاضرار الواقعة على الاعضاء • وبيان الاعضاء والاضرار المسببه عن سقوط جدار مبنى وحيوانات الحيوانات والديون والبيع والشراء ومواد متعلقه فى الاحوال الشخصيه من زواج وارث وطلاق وربا وعقوبات • وقد كتب القانون باللغة البابلية القديمه وسمع على طراز قانون حمورابى بهيئة فسة ورتب بهيئة مواد بحسب الاحكام المتعلقه • والك نماذج من تلك المواد :-

الماده ١٢ - اذا قبض على رجل فى حقل شخص من طبقة « المشكنم » (الطبقه الوسطى) نهارا فانه يدفع عشره سقلات من الفضه غرامه • ومن قبض عليه فى اثناء الليل فانه يموت وان يحى » •

الماده ١٥ - « لا يجوز للتاجر أو بائع الخمر ان يستلم من عبد أو أمه فضه او حبوبا أو صوفا أو ربا كرأس مال للمتاجره » والسبب فى ذلك ان الرق بحكم القانون لا يستطيع ان يملك شيئا لانه كان هو وما يملك ملكا للسيده •

الماده ٢٧ - « اذا دخل رجل بابنه رجل آخر بدون اذن أبيها وأمها ولم يعمل عقدا بالزواج مع أبيها وأمها فلا يكون ذلك المرأه زوجه شرعية حتى لو عاشت فى بيته سنه واحده » •

الماده ٢٩ - «اذا فقد رجل فى أثناء حرب أو غارة أو انه اخذ اسيرا وبقى فى بلد غريب زمنا طويلا ، فاذا اخذ رجل آخر زوجته اى تزوجها وولدت له طفلا فاذا رجع الزوج الاول فانه الحق فى استرجاع زوجته » •

الماده ٣٠ - « اذا كره رجل مدينه وملكه فهرب ثم أخذ زوجته رجل آخر فاذا رجع الرجل فلا يكون له حق بزوجته » •

المادة ٤٢ ـ « اذا عض رجل أنف رجل وقطعه فانه يؤدى « منا »[١] واحدا من الفضة ودية العين « من » واحد من الفضة وللسن نصف « من » من الفضة وللصفع على الوجه عشره شيقلات من الفضة » .

قانون « لبت عشتار »

ومن القوانين التى اكتشفت حديثا والتى سبقت شريعة حمورابى بالزمن زهاء القرن ونصف القرن قانون الملك « لبت ـ عشتار » وهو الملك الخامس من ملوك سلالة « ايسن » الذى حكم فى بداية العهد البابلى القديم[٢]. وقد وضع قانونه باللغة السومريه وهو مثل قانون حمورابى يحتوى على مقدمة وخاتمة وتوجد بين القانونين تناظر وتشابه فى كيفية التأليف وفى بعض المواد ومع ان ما وجد من هذا القانون مدون فى كسر من الواح الطين اكتشفت فى نفر قبل ٥٠ عاما فانه توجد اشارات الى ان الملك «لبت ـ عشتار» قد نقش قانونه على نصب أو مسله من الحجر مثل مسلة قانون حمورابى . والذى حالنا من هذا القانون لا يحتوى الا على ٣٥ مادة ، ولعل أصل القانون وهو بحالته الكاملة نيف ومائة مادة .

ان قانون « اور ـ نمو » وقانون « اشنونا » وقانون « لبت ـ عشتار » لهى على قدر عظيم من الاهمية فى تاريخ الشرائع المدونة فقد أضاف اكتشاف هذه القوانين الى تأريخ الشرائع اكثر من ثلاثة قرون من الزمان ومهد السبيل لدراسة القانون درسا مقارنا يمتد الى نحو أربعة آلاف سنة . والى ذلك ثبت الآن ان قانون حمورابى ، الذى كان يعد أقدم شريعة فى تأريخ العالم ، يقوم على عرف قانونى مأثور طويل العهد . وانه لم يكن نقطة الشروع بل سارية

---

(١) تساوى « المن » البابلى نحو نصف كيلو غرام من اوزان العصر الحاضر ويعادل الشيقل واحدا من ستين من « المن » .

(٢) انظر نشر نص القانون وترجمته فى مجلة ـ
Steele, American Journal of Archaeology, vol 53 (1948).
P. 425 ff. وترجمة المؤلف للقانون فى مجلة سومر (١٩٤٧)

و بسا فى تاريخ التطور الاجتماعى فى الشرق الادنى القديم ، والتطور البشرى بوجه عام .

وبالاضافه الى هذه القوانين الثلاثة السابقه لشريعة حمورابى يوجد مجموعات صغيره من المواد القانونيه ، وجدت مدونة على نحو اربعه الواح وهى مطابقه فى نصوصها مما يدل على انها نسخ عن اصول اقدم ، وتحتوى على نحو (٢٦) ماده . اما تاريخها فغير معلوم بوجه التأكيد ولكن بالاستناد الى الادله الداخليه ولا سيما شكل الخط واسلوب اللغة يمكن ارجاع عهدها الى العصر البابلى القديم ، ولعله بعد زمن سلاله اور الثالثه بقليل ، حيث ظهر أن بعض موادها مطابقة مع مواد شريعة «لبت عشتار»[1] .

قانون « حمورابى »

نصبح مما أسلفنا من الكلام على شرائع العراق القديم ، أى شرائع « اور ـ نمو » و « اشنونا » و « لبت ـ عشتار » وجود عرف وأصول قانونيه فى العراق منذ أقدم عهوده وذلك قبل ان تجمع حمورابى شريعته المشهوره ، وكانت هذه القوانين السابقه مصادر مهمة لنص شريعته ، فوجد فيها بعد التعديل والتغيير . ولكن مع ذلك فشريعة حمورابى أعظم وأكمل شريعة من الشرائع الحضارات القديمه ويدل الاشارات الموجوده فى شريعته حمورابى ، ولا سيما نصوص المقدمه ، على انه جمع قانونه فى السنوات الاخيره من حكمه وذلك بعد ان قضى على خصومه العلاميين ووحد المملكة وعمد فوجه الى خارج العراق ، فرأى من بعد ذلك ضروره لاصدار شريعة موحده تسرى على جميع انحاء المملكه الكبيره الموحده .

نص حمورابى شريعته باللغه الاكديه (السامية) وربما بدأ بعضها فعلا وقد نقش تلك الشريعة على مسلة من الحجر الاسود (حجر الديوريت)

(١) نشرت فى Clay, **Yale Oriental Series** I, 28
حول المراجع الاخرى انظر . Miles & Driver, **The Babylonian Laws**

يبلغ ارتفاعها ثمانى اقدام (٢٤٥ سم) وقطرها قدمين ، وقد نقش فى اعلى المسله صوره بالنحت البارز تمثل الاله الشمس (شمش) وهو اله العدل وهو على عرشه وتحت حمورابى يحضره وفقه المعبد الخاشع رمز نهوض الاله له وتسلمه الشرائع المقدسه من ذلك الاله (او انه بتصوير آخر يقدم شريعته الى ذلك الاله) • ويرجح كثيرا ان حمورابى قد وضع مسله الشريعة هذه فى عاصمته بابل فى موضع مقدس منها لعله فى « اساكلا » معبد الاله مردوخ ليرجع اليها الناس[1] • وقد ظلت المسله فى بابل بعد حمورابى ازمانا طويله ، ويوجد دلائل تشير الى ان المشتغلين بشؤون القانون والكتبة قد استنسخوا عنها كثيرا من المواد والنصوص واستعملوها فى اشغالهم بشؤون القانون •

وجدت المسله الاصليه بعثه فرنسية للتنقيب فى عام ١٩٠١ – ١٩٠٢ مطمورة فى عاصمة بلاد عيلام وهى مدينة « السوس » ، فاحدث اكتشافها رجه حماس فى جميع أنحاء العالم المتمدن وتناولتها بحوث الباحثين والمترجمين فى اوربه وامريكه منذ اكتشافها حتى الوقت الحاضر • أما سبب وجودها فى « السوس » فى عيلام فذلك لان العيلاميين قد غزوا العراق فى اواخر العهد الكشى (فى حدود القرن الثانى عشر ق م) وقضوا على السلالة الكشيه واخذوا من البلاد غنائم كثيره بينها مسله حمورابى ومسلة « مانشتوسو » الاكدى ، و « نصب النصر » العائد الى الملك الاكدى « نرام – سين » • وقد اربل قسم مهم من الكتابه فى الجزء الاسفل من وجه المسله ، ويرجح ان الملك العيلامى « شوتروك – ناخنى » ، الذى سلب المسله ، هو الذى احدث ذلك بقصد نقش اسمه والقابه فى محل ما ازاله من الكتابه كما فعل فى آثار أخرى غزاها وحدث مع مسلة حمورابى ، ولكنه لم يفعل

---

(١) يرجح كثيرا ان المسله التى عثر عليها المنقبون الفرنسيون فى مدينة السوس (فى عيلام) قد أخذها العيلاميون من مدينة سيبار حيث كانت مقامة هناك فى معبد الاله الشمس الموجوده صورته فى اعلى المسله ، واذا صح وجود نسخه اخرى فى بابل فلعل الاله المصور فيها هو مردوخ •

دلك فى مسلة حمورابى لانه ، على ما يبدو . قد ذعر وتهيب من اللعنات الشديده التى ذكرها حمورابى فى خاتمة مسلته على كل من يبدل فى شريعته أو يزيل نصوصها • ولحسن الحظ اكمل قسم كبير من هذا النقص الخطير ، لانه وجدت اجزاء من نسخ للقانون فى أمكنة أخرى •

تألف المسلة المنقوشه بشريعه حمورابى من ٤٤ حملا او عمودا من الكتابه التى تنقسم الى ثلاثة اقسام : ١ ـ مقدمة[1] تذكر فيها حمورابى الأسباب التى دعته لاصدار شريعته وهى انتداب الالهة له بعد تعظيم شأن مردوخ وانتداب هذا الاله له ليحكم البشر ومدينه بابل ويشر العدل بين الناس ثم تعدد فى المقدمه الاقاليم والمدن التابعه الى امبراطوريته وطرقا من اعماله كالرخاء الذى أحله بالبلاد وتجديده للمعابد الرئيسية فى المملكة • ٢ ـ المواد القانونيه وعددها ٢٨٢ (ولعلها بالاصل ٣٠٠ ماده) • ٣ ـ خاتمه يذكر فيها حمورابى ان هذه هى « الاحكام العادلة التى أصدرها حمورابى الملك العظيم للبلاد فاردهر فيها العدل والحكم الصالح » ثم يسرد ألقابه وحب الالهه له ، ويعلن لكل من أصابته ظلامة ان يمثل أمام صورة الملك العظيم ، ملك العدل ، فيقرأ شريعته ثم يسرد النصائح الى الاجيال الآتية ان تدبر احكامه وتقدر أعماله وتسير بموجب احكام شريعته العادله ، وتعدد لعنات الآلهه الشديده على كل من يحرف من شريعته او يزيل مسلته ويمحو آثارها •

ويبدو من تقسيم نصوص المسلة ان القسم الخاص بمواد الاحكام (وعددها ٢٨٢) موجز مختصر ، ولكنه مع ذلك قد شمل الاحكام المهمه ولعل انجازه يعزى الى انه كان بمثابه دستور موجز للاحكام يتضمن الحالات المهمه وأن القضايا التى لم يتناولها كانت معروفة لدى القضاه ومدونه على رقم الطين بهيئة قوانين تفصيليه • وتشبه قانون حمورابى القانون المدنى الرومانى (Jus civile) من حيث تبويب مواضيعه حيث تنقسم المواد الـ ٢٨٢ الى ثلاثة أبواب ، اولا ـ القضاء والقاضى (اصول المرافعات) (المادة ١ ـ ٥) ثانيا ـ

---

(١) المقدمه بالدرجه الاولى دينية ومكتوبة بلغة شعريه

قانون الاموال « المعاملات » « المادة ـ ٦ ـ ١٢٦ » ثالثا ـ الاحوال الشخصية أى قوانين الاسرة « ١٢٧ ـ ٢٨٢ »[1] . وإليك نماذج من كل من هذه الابواب الثلاثة :ـ

نماذج من أحكام شريعة حمورابى :

المادة ٥ ـ « اذا قضى قاض فى حكم وقرر فيه واصدر بذلك وثيقة ثم رجع من بعد ذلك عن حكمه وبداله ، فسوف يحاكم ذلك القاضى فى الدعوى التى حكم فيها ويدان بذلك الجرم . وتغرم غرامة تعادل ١٢ مثلا مما فى تلك الدعوى . وسوف يطرد علنا من منصب « قضوته » ولن يرجع اليه ، وسوف لا يجلس فى مجلس قضاء مع القضاة »

المادة ٨ ـ « اذا سرق رجل ثورا أو نعجا او حمارا أو خنزيرا او ماعزا سواء كان يعود الى الاله أو الى القصر فانه يعطى ثلاثين ضعفه المسروق واذا كان ذلك يعود الى « المشكنم » فانه يدفع عشرة أمثاله . واذا لم يكن عند السارق مال للتعويض فانه يقتل » .

---

(١) وإليك فائدة التعريف بترتيب أحكام شريعة حمورابى وتقسيمها وتسلسلها على الوجه الآتى ـ

١ ـ المخالفات والجرائم الخاصة بأصول المرافعات (خمس مواد) . وتشاول السريعة فى هذا الباب المعاملات . وهو عبارة عن تفتيش الاحكام القضائية فى حالات الفساد .

٢ ـ الجرائم الخاصة بالاموال (المواد ٦ ـ ٢٥) . وتشاول الشريعة السرقات وتسليم مال ـ ـ ـ

المادة ١٤ ـ « اذا سرق ـ اختطف ـ شخص ابن رجل صغير فانه يقتل » .

المادة ٤٨ ـ « اذا كان على شخص دين ، ثم أغرق الاله « أدد » حقله وأتلف حاصله ، او لم ينتج الحقل غله لانتشاء الماء ، فسوف يعفى ذلك الشخص في تلك السنة من سليم حبوب الى صاحب دين عليه ، وسوف يغير عقده وان يدفع ربا ـ فائض تلك السنه » .

المادة ٥٣ ـ « اذا أهمل شخص تقوية سداده ، فانفجرت ثغرة في سداده فأتلف الماء حقلا مجاورا فسوف يعوض ذلك الشخص عن التلف الذي أصاب الغلة واذا لم يستطع دفع التعويض فسوف يباع هو وما يملكه ويقسم ذلك الفلاحون الذين أتلف زرعهم الماء » .

المادة ١٢٧ ـ « اذا رفع شخص أصبعه فاشار سوءا الى كاهنة او الى امرأة رجل بدون ان تثبت التهمه ، فسوف يحلق ذلك الرجل أمام القضاة وسوف يحز ناصيته « أي يوسم عبدا »

المادة ١٢٨ ـ « اذا أخذ رجل امرأة ولكنه لم يكتب بذلك عقدا فلا تعد تلك المرأه زوجة شرعية » .

---

٤ ـ ... الخاصه بالرهونات (ومن ذلك اشخاص رهائن) عن الديون ، و... والاماناب .

٥ ـ الاحوال الشخصيه (١٢٧ ـ ١٩٤) ، وتشاول الاحكام الآتيه قذف كاهنه علنا أو امرأه محصنه بالزنا ، وتشريف الامرأه المزوجه ، والزنا، والزواج مره أخرى في حياة عناب الزوج ، وأحكام الطلاق (١٣٧ ـ ١٤٣) ، وتسرى الاماء ، واعاله زوجه المتوفى ، وهدايا الزوج الى زوجه ، ومسؤليات الزوجين عن الديون ، وفصل الزوج ، والزنا بالمحرمات ، وحاله الزواج غير الكامل ، واطوله هدايا الزواج بعد موت الزوجه ، والهدايا (الهبات) الى الاولاد في قيد الحياه ، وترتيب سهام الاولاد في الوراثه ، وحرمان الاولاد من الارث ، والاعتراف الشرعي بالبنوه ، ومال الارمله ، وزواج الحرة بعبد رق وزواج الارملة ، وأحكام خاصة بنساء المعبد ، ونبني الاطفال = وارضاعهم .

المادة ١٩٥ ـ « اذا قبض على زوجة رجل وهي مضاجعة رجلا آخر فسوف يكبلونهما ويرمونهما في ماء النهر ولكن يستطيع زوج المرأة ان يستحي امرأته (اي يعفو عنها ويبقيها حية) والملك عبده » .

المادة ١٩٦ ، ١٩٧ ـ « اذا اتلف رجل حر عين رجل آخر حر او اتلف عنه ، واذا كسر عظمه فيكسر عظمه »

المادة ٢١٥ ـ « اذا أجرى طبيب لرجل حر عملية بمبضع برونزي وشفاه أو انه اجرى له عملية في رأسه وشفى عيني الرجل فسوف يتسلم أجرته قدرها عشرة « شقلات » من الفضة » .

المادة ٢١٨ ـ « اذا عالج طبيب رجلا واجرى له عملية بالجرح بمبضع برونزي وتسبب موت الرجل او انه اجرى عملية في عينه فاتلف عينه فانهم يقطعون يده » .

المادة ٢٢٤ ـ « اذا عالج بيطري (طبيب ثور او حمار) ثورا او حمارا فشفاه فدفع صاحب الثور أو الحمار الى البيطار أجرته قدرها ١/٦ الشقل من الفضة » .

---

٦ ـ اعتداءات وعقوبات (٢١٥ ـ ٢١٤) ، وتشاول الاعتداء على الاب ، وعلى الرجال ، والاسقاط .

٧ ـ ذوو المهن الطبية ومهن أخرى (٢١٥ ـ ٢٢٥) وتشاول الاحكام الخاصة بالجراحين وبمقدرة الجراحين والحلاقين والراسمين والكتبة ، والمعمارين وبنائي السفن والملاحة .

٨ ـ شؤون زراعية متنوعة (٢٢٦ ـ ٢٧٣) ، ومنها أحكام متعلقة بالحيوانات الخاصة بالمزارع كالثور ، وتبديل العلف وغيره من جانب المأمور ، وبأجر فلاح ، وتبديل الآلات الزراعية وغيرها ، وبأجر الزراع وواجبات الرعاة ، وبأجر الحيوانات والعربات وبأجر عمال في المزارع .

٩ ـ الاجور والاسعار (٢٧٤ ـ ٢٧٧) ، ومنها اجور الصناع ،واسعار اجارة السفن .

١٠ ـ الرق (٢٧٨ ـ ٢٨٢) ، وتشاول الضمانات الخاصة بمنع الرق وشرائه من الخارج .

ملاحظات عامة عن قانون حمورابى

لقد مضى على سن شريعة حمورابى ما يزيد على اربعة آلاف عام وذلك قبل ان يسن الامبراطور الرومانى « جستنيان » القانون الرومانى المدنى بنحو الفين وخمسمائة عام ، وهذا يوضح لنا بجلاء ان ما نعزوه الى الرومان من مقدرة فى الابتكارات الفقهية القانونية فى تاريخ الحضارات البشرية قد سبق أن شارك فيها سكان العراق الاقدمون قبل الرومان بألفى عام ، وقبل ان يصدر قانون بابليون المدنى بنحو اربعة آلاف عام . وعلى الرغم من مضى ما يقرب من نصف قرن على اكتشاف شريعة حمورابى فانها لا تزال موضوع بحث العلماء فى جامعات الغرب ومعاهده العلمية حيث تعدونها بحق من اهم المآثر التى خلفها الجنس السامى واحدى المعالم البارزة فى تأريخه . وأهمية هذه الشريعة ذات نواح وأوجه كثيرة ، فيدرسها علماء القانون ومؤرخو القانون ويوازنون فى أحكامها وأحكام الشرائع الاخرى لاستنباط المبادىء والاصول القانونية التى استطاعت بموجبها المجتمعات البشرية بعد ان تحضر الانسان . ويبحث فيها علماء الاجتماع ليقفوا على تطورات المجتمعات وتطلعها الاجتماعية والاقتصادية ، ويدرسها علماء اللغة ليفهموا اسرارا مهمة عن اللغة الماثلة . وتصور لنا شريعة حمورابى بوجه خاص والشرائع السابقة تصويرا باهرا الناحية القانونية من الحضارة البشرية ، ووجه من أهم وجوه تلك الحضارة الذى لا يستغنى عنه فى بناء اية حضارة راقية[1]

واذا نعذر علينا البحث فى تلك النواحى والاوجه المختلفة فاننا نأخذ أبرز ما فيها فتكون منه فكرة عامة عن ناحية مهمة من حضارات وادى الرافدين . فأول شىء نبحث اساسها فى شريعة حمورابى والشرائع التى سبقتها ، هو فن التأليف والصياغة القانونية فيها مما المحنا اليه سابقا ، فقد

G Sarton, **History of Science**, ch III, 87

كتب بضع قانونية دقيقة بهيئة مواد تسلسل وتابع بحسب الاحكام التي تعالجهـــا •

وقد يدهش الباحث ان يجد في شريعة حمورابي بعض المبـــادئ القانونية التي توجد في اكثر الشرائع البشرية الحديثة ، فيجد مثلا بوضوح واضح المبدأ القانوني الذي يعبر عنه الفقهاء بالقوة القاهرة أو مبدأ الحوادث الطارئة[1] • وفحواه ان **الملتزم لا يعفى من تنفيذ التزامه الا اذا أصبح تنفيذ** هذا الالتزام مستحيلا بقوة قاهرة اي بحدوث شيء غير متوقع يجعل تنفيذ الالتزام مستحيلا • وقد نصت المادة الثامنة والاربعون من قانون حمورابي **على هذا المبدأ (أنظر المادة في ص ٢٩٥) والمقصود بالاله « أدد » المذكور** في تلك المادة فيضان أو غرق دون قوة قاهرة لا حيلة للمدين بدفعها ، لان ذلك الاله هو اله الزوابع والامطار والعواصف كما مر بنا في مبحث الديانة • وتشير المادة الثالثة والخمسون (راجعها في ص ٢٩٥) **الى مبدأ آخر مشهور** في أصول القوانين وهو الذي يعبر عنه بمبدأ عدم جواز التعسف في استعمال الحق الفردي •

وتشبه شريعة حمورابي الشريعة الاسلامية والعبرانيـــة[2] وبعض الشرائع الاخرى من ناحية القصاص أي مبدأ « النفس بالنفس والعين بالعين » (lextalionis) والى هذا فقد يجد المتتبع لشريعة حمورابي **جملة متناقضات** كما ان بعض احكامها يشك في انها كانت سارية المفعول وانما ذكرت لمجرد الناحية الفقهية التاريخية ، ويوسعنا أن نعزو بعض التناقضات فيها الى حقيقة ان حمورابي قد أضاف شريعته الى شعب مركب معقد ، على الرغم من انه كان موحدا في الظاهر ، فكان مضطرا الى التوفيق بين ما في قانونه ومبانيه ، **ولكن برغم كل ذلك وعلى الرغـم من وجود بعض الاحكـام البدائية مثـل** الرغبة البدائية في انزال العقاب الشديد الدقيق ، ومبدأ اختلاف العقوبات

---

(١) او بالفرنسية Force majeure

(٢) (سفر الخروج ٢١ : ٢٣ـ٢٥)

بالنسبة الى مراكز المجتمع عليهم الاحترام ـ بقول بزعم كل ذلك فان الملك حمورابى (او مستشاره القانونى) قد قام بعمله خير قيام • ولا يزال شريعة حمورابى ، كما قلنا ، احدى المعالم البارزه فى التاريخ البشرى[1] • ومن الامثله الطريفه على ذلك الاحكام التى وردت فى تعليم مهنة الاطباء والجراحين ، حيث حددت اجورهم بالنسبه الى المرضى من الطبقات المختلفه من المجتمع ، وقد رأينا فى المواد التى استحثناها من شريعه حمورابى أن الشريعه فرضت عقوبات قاسيه فى حالة فشلهم ، ولا سيما فى القيام بالعمليات الجراحيه التى تؤدى الى اتلاف عضو من المريض أو موته وعند ذلك تقطع يد الطبيب والجراح • وهذه حقا أحكام عنيفه لو طبقت بالحرف الواحد لفقد جميع الاطباء أرزاقهم ، ولما بقى طبيب حى فى ووما هذا وله قد يشفى بها الناس و يسيئهم ، ويكون تفسير هذه المواد أن أحكامها لا تطبق الا بعد المحاكمه العادله واثبات البينه على الاهمال والتقصير من جانب الطبيب •

القوانين الآسورية :

لقد جاءنا بمادج من القوانين التى كانت تنظم أحوال المجتمع الاشورى • ومما يقال عن هذه القوانين أنها مجموعة مواد أى أجزاء لعلها تعود الى قانون كامل لم يأتنا بعد • ويوسعنا ان نقسم هذه المادج من حيث رقمها الى مجموعتين شمل المجموعه الاولى على ما يسمى بالقوانين الاشوريه القديمه [illegible] عشر كامله ويرجع الى العهد الاشورى القديم من اواخر الالف الثالث ق • م • وقد رأى بعض الباحثين فى هذه القوانين الاشورية القديمة انها لم تكن خاصه بلاد اشور وانما تعود الى مستعمره تجاريةاشوريه تكونت فى آسية الصغرى فى وسط الاناضول هى «كول تبه» وان الاشوريين الذين عاشوا هناك ظلوا مرتبطين بموطنهم الاصلى من الوجهه الثقافية فقد استعملوا طريقه الفهوم الاشورى والطريقه العشرية فى العدد واستعملوا الموازين والمكاييل الاشورية • ومن الصعب تحليل المواد القليلة التى جاءتنا لانها غير

---

[1] Sarton, **History of Science,** ch. III, 88.

كاملة فلم يسعفنا الرأى على ترجمتها ترجمة اكيده ، ويظهر ان اكثر ما جاء فيها يتعلق بنظام المحاكم واصول المرافعات ولا سيما فى نظم الشـــؤون التجـارية .

اما المجموعه الثانيه فهى تعرف عند الباحثين باسم القوانين الاشورية الموسطة[1] ، وقد عثر عليها مدونه فى جمله الواح من الطين فى النصاب التى اجراها الالمان فى آشور « ١٩٠٣ – ١٩١٤ » وقد امكن تأريخها بوجه التقريب بين ١٤٥٠ و١٢٥٠ ق . م . فهى بذلك تعود الى العهد الاشورى الوسطى ، وقد جاءنا مصادر أخرى عن القانون الاشورى من النوانـــين والمستندات القانونيه التى وجدت كذلك فى آشور . وتسمية لهذه القـــوانين الاشورية الموسطة لهذه السجلات الملكية ان تأريخها ولكنها عمل من اى اشاره أو دلاله الى معرفه مصدرها او مشرعها ، وانما يتضح منها ان احكامها كانت سارية فى مدينة اشور وما يجاورها من البلدان ، ومما يقال فيها بوجه العموم انها لا تؤلف فى الحال الذى جاءنا فيه قانونا كاملا أو وحده قانونيه مثـل **قانون حمورابى ، والمواد التى فيها لا يتمم بعضها بعضا ، وقد خصص جزء** كبير من المواد للاحكام الخاصه بالمرأة والاحوال الشخصية ويتعلق قســم كبير منها بالجنايات والعقوبات الخاصة فى هذا الموضوع ، ويرى بعض الباحثين ان مواد القانون الاشورى فى أصلها لم تكن سوى قرارات أو أقضية سابقه صدرت بخصوص قضايا معينه فدونت وجمعت بهيئة مواد قانونيه بحيث ذهب البعض الى ان مواد القانون الاشورى تفسيرات لمواد قانون آخر لم يعثر بعد ، وهو اما أن يكون قانونا اشوريا مستقلا أو أنه قانون حمـــورابى بالذات .

ومع التشابه بين القوانين الاشورية والبابلية فى بعض النواحى فان الاولى تختلف عن الثانية فى أحكامها . ولعل ابرز ما تمتاز به القـــوانين

---

(١) حول القوانين الاشورية انظر المرجع الآتى –
Driver and Miles, **The Assyrian Laws.**

الاشوريه القسوه والشده بالنسبة الى العقوبات ، وان الاشوريين بوجه عام لم يعنوا عنايه البابليين بأمور الشرائع والقوانين المدونة ، ومما لا شك فيه ان كان فى المجتمع الاشورى عرف قانونى سار عليه كان بمثابة القوانين المدونة ، ولكن الاشوريين لم يهتموا بالناحية الفقهيه ولم يعنوا بالبحث فى الشرائع وتدوينها كما فعل البابليون .

المحاكم والقضاه(١) :ـ

١ ـ ان ما نعرفه عن المحاكم واصول المحاكمات فى العراق القديم امور قليله لا تكفى لتزويدنا بصوره مفصله كامله عن الاحوال القضائية فى حضارات وادى الرافدين واول ما نذكر من الامور الناذره فى الموضوع أن الملك كان «ينبوع العدالة»(٢) والشريعة فى البلاد، كما يتضح ذلك جليا من مراسلات ملوك العراق القديم وبوجه خاص كما يتضح ذلك من رسائل حمورابى التى كان يرسلها الى عمال ولاياته لتنظيم شؤون المملكة ، ومن بين ذلك شؤون القضاء ، فهى بذلك ، كما سبق ان لمحنا ، مثل المنشورات القضائية الرومانية ، وكان باستطاعه الملك ان يعالج شؤون المجرمين اداريا ويصدر بحقهم العقاب ، ولكن المعتاد ان الملك كان يحيل قضايا المحاكمة الى ولاته فى الاقاليم أو الى محكمه خاصه ، وكانت قرارات الملك أو قرارات من ينيبهم عنه قطعية . ومع ذلك فكان بامكان الناس تقديم استدعاء الى الملك للنظر فى شكاواهم ولا سيما فى حاله انعدام العدالة(٣) ونقص المحاكمه ، ولدينا شواهد على قضايا تدخل فيها «حمورابى» ، لانه تعطل النظر فيها من جانب

(١) راجع أحسن بحث فى الموضوع واحدثه فى المرجع الآتى ـ
Driver & Miles, **The Babylonian Laws**, I, (1952) 490 ff

(٢) وبالمصطلح الفقهى اللاتينى (fons justitiae)

(٣) لقد سبق أن ذكرنا فى كلامنا على الديانه (السلوك والاخلاق) تطور مفهوم العداله بمختلف العصور ، فكانت فكره العداله فى العصور القديمه فصلا يتصل به الآلهه أو السلطه على الناس ، ولكن أصبحت فى زمن حمورابى حقا من حقوق الرعيه .

المحكمه مده طويله ، وفي حاله ثالثه يحدد يحيل قضيه خاصه الى محكمة محليه . هذا وقد سبق أن رأينا في كلامنا على العهد الاكدي كيف ان سرجون مؤسس السلاله الاكديه، قد أوجد محكمة للاستئناف يصوره عمليه على رأسها الملك، بادخال اسم الملك في القسم الموجود في العقود ، وتوضح هذا النوع من المحاكم في عهد حمورابي ، ولكن ذلك لا يعني وجود محكمة عليا للاستئناف يصوره مستمره دائمه ، يستأنف لها الدعاوى أو يصير بعد صدور الاحكام فيها من المحاكم الواطئه الدرجات ، وانما الاكثر ان سلطه تأليفها كان يعود الملك حين يؤلفها في قضايا خاصه (على غرار المحكمه العليا في العراق الحديث) . ومما يظهر لنا كون الملك هو السلطه العليا في القضاء والعدل ان المادة (١٢٩) من شريعه حمورابي تجعل من حق الملك الادعاء على حياة الرابي اذا تعدى الزوج عن زوجته الرابيه .

٢ ـ ومما نعرفه عن القضاء ان القاضي[١] كان اقرب ما يكون الى المحترف أو المتمهن اكثر منه ان يكون موظفا خاصا ، وكثيرا ما كان القضاة يذكرون بهيئه جمع او جماعه مما يبدو ان كانوا يهيئه بقاعه[٢] ، وهنالك اشارات اخرى الى ذكر قاض وهو يرأس عده قضاه بهيئه رئيس للمحكمه وتشير النصوص الباقيه الى انه كان يوجد جمله اصناف من القضاه وصنف يطلق عليهم اسم «قضاه معبد الاله شمش»[٣] ، وقضاه الاديره الخاصه بالكهان والكاهنات ، والى هذين الصنفين من القضاه الخاصين بالمعابد بالدرجه الاولى كان هناك قضاه مدنيون وكان هؤلاء اما قضاه محليين فيسمون باسماء المدن الخاصين بها مثل قضاه نابل وسبار وبورسبا الخ او قضاه خاصين بالملك (دايانو سارنم) . واحتمال ان اصل كلمة القضاه جميعهم من طبقه الكهنه

(١) واسمه بالبابلية (دايانم) (dayanum) وبالسومرية (دنكو (DI-KU)

(٢) وبمصطلح اللغه الانجليزيه القانوني (bench, college)

(٣) وبالبابلية (دايانو سانسي شمش)

احتمال قريب من الصحة بالنظر لما نعرفه من ان طبقة الكهنة كانت اثقف طبقة فى المجتمع ، ويدلنا الاحصاء على انه كان هناك انتقال تدريجى من القضاء الكهنة الى القضاء المدنيين (العلمانيين) ،ولاسيما فى العهد البابلى القديم ، وبوجه ملحوظ فى عهد سلالة بابل الاولى ، وبلغ هذا الانتقال طورا فاصلا فى عهد حمورابى . ولكن مما يجب التنبيه عليه انه لم يكن يوجد لكل من الصنفين من القضاء شريعة دينه كهنوتية وشريعة علمانيـــة .

٣ ـ ويوسعنا اعتبار المعبد انه كان بمثابة محكمة ، يجلس فيها القضاء الكهنة وغير الكهنة ، للائمة بناء المعبد من جهة ، ولان جزءا من اصـــول المرافعات يتعلق بالقسم فى داخل المعبد ، وبالاضافة الى محكمة المعبد فقـد وردت انباء حملة انواع من المحاكم ، ولكن يصعب علينا تعيين وظيفة كل منها . فيذكر « القصر » فى شريعة حمورابى وفى السرائر الاشورية على ان نوعا من المحاكمة كان يجرى هناك سواء كانت فى العاصمة ، حيث الملك أو فى المدن الاخرى حيث الولاة ينوبون القضاء عن الملك . وورد فى شريعة حمورابى ذكر مجلس خاص (بوحروم) وان العقوبات كان توقع فيه كما وردت اشارات أيضا الى اسم خاص بالمحكمة بهيئة «بيت القضاء أو الحكم» (بيت دينم) وفى وثيقة يذكر اســـم « بيت قضاء البلاد » (بيت دين ماتم) ، وتذكر بعض الوثائق ان « بوابة المدينة » كانت من المواضع التى يجلس فيها القضاة للقـــاضى [1] ، كما ان «شيوخ المدينة» (المشيحه ـ «شيوخ آلم») كانوا يجلسون مع القضاة ، ولعل ذلك يصنفهم محلفين وفى حالات اخرى تجد « شيوخ المدينة » يجلسون وحدهم للتقاضى أو مع عمدة المدينـة (رئيس البلدية « راشا بوم ») ، ويذكر هذا الموظف مرة واحدة فى شريعة حمورابى حيث يكون هو ومجلسه مسؤلين عن السرقات التى تقع فى مناطقهم ، ونجد

(١) قارن ذلك بما كان عند العبرانيين ايضا (سفر التثنية ٢١ ١٩، ٢٢ ١٥)

فى حالات أخرى ان « بانه البحار » (كاروم) تكون وحدها او مع قضاة خاصين محاكم خاصه •

والى صف القضاه نعرف أن عددا كبيرا من الموظفين المسوعين كانوا تابعين الى المحاكم ، ولكن ماهية وظائف اعلهم غير معروفه بوجه التأكيد ، ولم يذكر منهم فى الشرائع الا القليل ، فمن هؤلاء الملعون (زيدى ناسم) ، وسعاء خاصون بالقضاه وملعون والحلاق والجراح (لجز الشعر ويعلم العبد أى وسمهم) والمسحل (أو حافظ السجلات) أو كاتب الصك (ماز كادوم) • هذا ولا نعلم بوجه التأكيد الى اى مدى كانت السلطه الرسميه تقوم بتعيين قرارات المحاكم ، كما لا نعرف بالادله المباشره وجود شرطة أو مدع عام او محلف رسمى • ولكن هناك موظف خاص ورد اسمه فى شريعه حمورابى باسم « زيدوم » الذى على ما يرجح مسؤلا عن احضار المجرمين ولعله مسؤل عن السجن • وفى حالات وردت فى شريعه حمورابى يستدل منها أن سجن العقوبه كان يرسل الى الجهه المعدى عليها ولكن بحضور القضاه أو الموظفين الرسميين ليراقبوا وجوب عدم تعدى حدود العقوبه التى حكموا بها (انظر الماده ٢٠٢ من شريعه حمورابى) • ومن المحتمل ان رابح القضيه فى دعوى حقوقيه كان له الحق فى حجز المحكوم عليه او مسك شخصيه (فى بعض الحالات) والاحتفاظ به كرهينه بقيمه دين حتى يؤدى بالعمل ما حكم عليه فى المحكمه • والجدير بالملاحظه ان المدعى فى القضيه (فى النوعين) اذا نجح فى دعواه كان هو الذى يعقد قرار المحكمه ضمن مده يحددها المحكمه للمدعى عليه الخاسر •

وهناك جمله أنواع من العقوبات وردت فى شرائع العراق القديم ولكن الملاحظ التزام شريعه حمورابى لمبدأ القصاص . واحد الشرائع الاخرى يسدأ الديات والتعويض المالى • ومن العقوبات الواضحه عقوبه الموت وقد وردت فى اكثر الحالات فى شريعه حمورابى بصيغه المبنى للمجهول (يقتل) وفى خمس حالات نجد بصيغه الجمع « يقتلونه » فيلزم

ان تكون لذلك مدلول خاص في كلتا الحالتين ، ولكن الملاحظ ان كلتا الصعوبتين لا تعنيان من هو الذي ينفذ عقوبة القتل ، ولا تسلان لنا الا الحدس في ان السلطة الرسمية هي التي كانت تنفذ هذه العقوبة في أغلب الحالات . ومن العقوبات الاخرى عقوبة الموت بالاغراق في الماء ، وتتعلق هذه بحالات الزنا والزنا بالمحارم . وفي حالة قيام صاحبة الحانة بغش شرابها . ومن العقوبات الخمسة الواردة في شريعة حمورابي ان الذي يدهس ويتظاهر في احتماد نار تشب في بيت فيسرق من أثاث البيت فانه يرمى في نار الحريق نفسها[1] ، وفرض عقوبة الحرق على الزاني بالمحرمات ولا سيما مع الام بعد موت الاب[2] . ومن العقوبات الصارمة التي ورد ذكرها في شريعة حمورابي في حالة واحدة هي عقوبة « الوضع على الخازوق » في حالة قتل الزوجة زوجها من أجل رجل آخر (المادة ١٥٣) . وفي القوانين الاشورية وردت هذه العقوبة في أكثر من حالة واحدة .

ومما يلاحظ بوجه عام ان قانون القصاص يطغى على العرف السابق السامي وقد بلغ في بعض الحالات الواردة في قانون حمورابي حد التطرف مثل قتل ابن المعمار الذي بنى بناء فسقط وقتل ابن صاحب البيت ، كما ان القصاص الواقع على الأعضاء كان يلاحظ فيه القصاص بالمماثلة بالمثل ، ولكن المرجح كثيرا ان هذه العقوبات انما ذكرت كحقوق للمجني عليهم اذ كان بوسعهم المبادل عنها مقابل العوض والدية ، ومن العقوبات المجيبة عقوبة المنفى ولا سيما للزاني بابنة (المادة ١٥٤ من شريعة حمورابي) . وقد نص

(١) يفسر طاهر الحكيم الى انه لم تكن لتجرى محاكمة على الشخص واذا كانت هناك نوع من المحاكمة فانها ما تكون بمحكمة الجمهور أو محكمة الشارع على غرار ما تجرى في أمريكا بالنسبة الى الزنوج المعتدين على النساء البيض مما يعرف بعقوبة (Lynch - Law)

(٢) توجد عقوبة مماثلة في الشريعة العبرانية في حرق الرجل الذي يجمع في زواجه بين الام وبنتها في آن واحد حيث يحرق ويحرق المرأتان أيضا (سفر اللاويين ٢٠ ١٤) ويحرق ابنة الكاهن التي تصير بغيا (سفر اللاويين ٢١ — ٩)

شريعة حمورابى على ان الاب لا يستطيع حرمان الابن من الارث الا بعد محاكمه واثبات اعتدائه على ابيه . و جسم كلاما على العقوبات بذكر عقوبات دفع الغرامات المفروضه فى حاله عدم القيام بتنفيذ الالتزامات ، ، والملاحظ ان الغرامات كانت تفرض اضعافا مضاعفه ولا سيما فى حاله التعويض عن الشيء المسروق ، فاذا كانت السرقه من المعبد او القصر فالغرامه تكون ٣٠ مرة بقدر المال المسروق وعشره امثاله اذا كانت السرقة من أفراد الطبقة الوسطى ولكن هناك حالات أخرى لا تتضاعف فيها الغرامة المماثله مثل دفع الفلاح اجر المثل (بحسب الحقول المجاوره) فى حاله عدم دفعه اجار الحقل الذى استأجره .

العلوم والمعارف

الفصل الخامس عشر

المعارف اللغوية والتأريخية والجغرافية

مقدمة في الكتابة المسمارية :

لقد مر بنا فيما سبق ان الكتابة بدأت في حضارة وادي الرافدين في الاطوار الاخيرة من العصور التي سميناها بعصور ما قبل السلالات . وقد جاءنا أبسط نوع من الكتابة أي من بداية اختراعها ، من النصف الثاني من عصر الوركاء في حدود ٣٥٠٠ ق . م . وتعد هذه الكتابة اول كتابة في تأريخ الحضارات البشرية . فكانت ، وهي في أولى مراحلها ، بهيئة صور للاشياء المراد تدوينها ، وهذا ما يعرف بالطور الصوري (Pictographic) ومما لا شك فيه ان اختراع الكتابة قد استلزمه تطور الحضارة ونشوء الحياة الحضرية في أواخر عصور ما قبل السلالات ، كالحاجة الى تدوين الواردات وضبط الحياة الاقتصادية ويرجح كثيرا ان الادارة المعابد التي رأينا ظهورها منذ عصر العبيد ٤٠٠٠ ق . م دخلا في اختراع وسيلة للتدوين . فالواقع ان أقدم الواح مكتوبة من الطين من عصر الوركاء قد جاءتنا من المعابد التي عثر عليها في مدينة الوركاء من دلك العهد وهي سجلات بسيطة لاملاك المعبد وواردات وقد ظهرت الكتابة بابسط اشكالها في الطبقة الرابعة من الوركاء وكانت في أولى اطوارها مؤلفة من علامات صورية كثيرة ، نحو (٢٠٠٠) علامة ، ولكن اخذت واخصرت بمرور الازمان ، حتى انه اصبح عددها في عهد

حمده نصر رهاء ٦٠٠ علامه[1] ، وقد استطاع الكتبة الاقدمون أن يدونوا بهذه الكتابه الصوريه الاشياء المادية وذلك برسم صور موحيه لها ولكن تعسر التعبير عن المعاني المجرده بالطريقه الصوريه المحضه . فاهتدوا بعد سنوء الكتابة الى ابتكار الطريقه الرمزيه اى طريقه التعبير عن الافكار والمعاني المجرده بالصور فلا يرسموا الصوره المادية بهيئة محصورة ولا يريدون بها صوره الشيء المادى وانما المعاني والافكار المتعلقة منه أو المتعلقة به ، فمثلا أصبحت صورة القدم ، بحسب الطريقه الرمزيه ، لا تستخدم لتدوين القدم او الرجل بل للتعبير عن المعاني المتعلقه بعضو القدم مثل القيام والمشي والوقوف والدخول والخروج ، وصارت صورة الشمس لا تعني حرم الشمس وانما المعاني المشتقة منها كالحراره والضوء واليوم الخ ، وصوره الفم وداخلها شيء يعني « أكل » وهكذا . وجمع الطريقه الصوريه المحضه والطريقه الرمزيه صار بالامكان التعبير عن معان وجمل كثيره ولكن مع ذلك فان الكتابه بقصه لا تمكن التعبير بها عن المعاني المقصوده لاختلاف المستويات وقرائنها وتوصلها بحسب القراء ، فحطى الرموز جهود أخرى وهي الاصطلاح على ما تقوم به تلك الصور وتحديد المعاني المقصود اخذها ولكن مع ما بقي من المستحيل على الكتبة ان يعبروا بالطريقه الرمزيه وحدها عن الامور المجرده كالصدق والامانه وعن الالوان الخ كما انه بعد كتابة اسماء الاعلام أو الاشخاص قد تعذر الحاجة الملاقي هذا النقص الى تطور أو تحسن جديد هو استخدام أصوات الاشياء المادية المكتوبه بالصور لكتابة الكلمات المجرده وهذه هي الطريقه الصوتيه فاستخدم السومريون الاوائل الصور واصواتها لا لتدل على الاشياء المادية التي تمثلها تلك الصور ، كما في المرحلة الصوريه ولا على الآراء والافكار

---

(١) انظر احدث البحوث في علم الكتابه واشكالها ولا سيما الكتابات المستعمله في الحضارات القديمه في المرجع الآتي —

I J Gelb, **A Study of Writing** (1952)

المشقة منها ، كما فى المرحلة الرمريه ، بل لاستخدامها فى كتابة الكلمات والجمل على هيئة أصوات وبجمع عدة أصوات يكون كل منها مقطعا وليس حرفا لانهم لم يصلوا الى الطور الهجائى أى استخدام الحروف الهجائية . فاذا ارادوا مثلا ان يكتبوا اسم شخص مثل « كوراكا » فانهم يرسمون صورة مختصرة للجبل لان لفظ الجبل باللغة السومرية « كور » ثم يرسمون بجنبها صورة مختصرة من خطين تمثل موجات الماء للتعبير عن صوت (آ) وهو الماء باللغة السومرية ثم صورة مختصرة للفم الذى يلفظ باللغة السومرية « كا » فيحصلون بذلك على كتابة كلمة « كور ـ آ ـ كا » . ولقد وصل العراقيون الاقدمون الى هذا الطور من الكتابة فى الدور الذى أعقب دور الوركاء ، اى أنهم اهتدوا الى الطور الصوتى فى الكتابة فى دور « جمدة نصر » فى حدود ٣٢٠٠ ق . م واستمرت الكتابة بالتطور والتحسن حتى استطاعوا ان يدونوا بها جميع شؤون الحياة المختلفة .

والى هذا الطور فى الكتابة فقد طرأت عليها تغيرات وتطورات كثيرة أخرى منها انه بعد أن ابتعد الخط المسمارى عن الطور الصورى ودخل فى الطور الصوتى وأصبحت الغاية من الصور ليس التعبير عن الاشياء المادية التى تعبر عنها تلك الصور بل أصوات الاشياء التى تمثلها كما ذكرنا لم تهتم الكتبة فى ضبط رسم تلك الصور بل اختصروا فى أشكالها كثيرا وبمرور الزمان بعد الشبه بين أشكالها واشكال الاشياء التى كانت تمثلها ، ودخلت فى الكتابة علامات اصطلح عليها للتعبير عن أصوات خاصة كما انهم ركبوا عدة علامات للتعبير عن معان وأصوات مركبة ، وقد أحدثت طبيعة المادة التى كتبوا عليها وهى الطين بالدرجة الاولى تغييرات أخرى فى شكل الكتابه اذ يصعب رسم الخطوط المنحنية على الطين ، وباستخدامهم قلما مثلثا أصبحت العلامات تشبه بما يشبه المسامير ومن هنا منشأ اسم كتابة العراق القديم أى الكتابة المسمارية . واتخذوا وضعيات محدودة للمسامير ، المسامير الافقية والعمودية والمائلة ومسمار بهيئة رأس السهم . وبجمع عدة خطوط من هذه

صوره تمثل نشوء الخط المسمارى وتطوره

المسامير كانوا يكتبون العلامات المسمارية المختلفة التى بلغت زهاء الـ ٦٠٠ علامة وقد استعمل من هذه الـ (٦٠٠) علامة نحو ١٠٠-١٥٠ علامة استعمالا صوتيا صرفا أى بهيئة مقاطع صوتية ، والباقى من العلامات اقتصر فى استعماله على الطريقة الرمزية أى ان العلامة الواحدة كانت تقوم مقام كلمة[١]، وبوجه الاجمال كان الخط المسمارى خليطا بين الطريقة الصوتية المقطعية وبين الطريقة الرمزية. ومما يجدر ذكره بهذا الصدد ان الكتابة الهيروغليفية المصرية لم تخضع الى مثل تلك التغييرات والتطورات بل حافظت على اشكالها الصورية الى نهاية الحضارة المصرية تقريبا .

ونتجت هذه التطورات فى الكتابة المسمارية ان اصبحت طريقة اصطلاحية لا يمكن للانسان ان يعرفها اذا لم يكن قد درسها من قبل ، والواقع ان الحاجة الى تعلم الكتابة وضبط العلامات قد بدأت منذ أقدم العصور ، منذ عصر حمدة نصر وعصر فجر السلالات وقد جاءتنا اثبات بالعلامات المسمارية وقيمها الصوتية ومعانيها وتكون هذه الاثبات على ذلك أقدم معاجم عند البشر . واشتدت الحاجة الى درس فن الخط وتعليمه ودرس اللغة فى الازمان التاليه ولا سيما عند الاكديين الساميين الذين اعتمدوا كثيرا على الحضارة السومرية فاحتاجوا الى معرفة لغة الادب والعلم أى اللغة السومرية وكذلك احتاج السومريون الى مثل ذلك بالنسبة للغة الاكدية ، ويرجح كثيرا ان السومريين هم الذين اخترعوا الكتابة . وقد انتشر الخط المسمارى من بلاد الرافدين الى اقطار كثيرة من الشرق الادنى فاتخذه الحثيون والعيلاميون واستعمل فى جهات سورية وافسه الميتانيون والحوريون والفرس الاخمينيون وقد استخدمت بعض هذه الاقوام مثل الحثيين لغات العراق القديم الى جانب الخط المسمارى . فقد اشتق عن الخط المسمارى السومرى الخط الاكدى والبابلى والاشورى ، واخذ من الخط الاكدى الخط الحورى والحثى فى حدود الالف الثانى ق . م ، واشتق من الخط السومرى الخط العيلامى

---

(١) وتسمى مثل هذه العلامه (ideogram) او (logogram)

المسمارى بعد ان بطل استعمال الخط العيلامى القديم الصورى ، ومما يقال فى الكتابه المسماريه انها على الرغم من انقلابات السياسه ظلت مستعملة الى زمن ظهور المسيح تقريبا .

المدارس(١) ودور السجلات وخزانات الكتب :-

وقبل ان نذكر شيئا عن المؤلفات والمعاجم اللغويه التى خلفها لنا سكان العراق الاقدمون نذكر كلمه موجزه عن المعاهد التى كانوا يلقون فيها المعرفة والعلوم . ومما يقال فى هذا الصدد ان الآثار التى خلفها لنا القوم من اثارات كتابيه ومن آثار اخرى تشير الى وجود المدارس عندهم وكانت المعاهد بوجه خاص معاهد للدرس والبحث عندهم منذ اقدم عصور التاريخ، وقد حائنا أنواع من المدارس وما يتعلق بالتعليم منذ عصور فجر السلالات . ووجدنا بقايا مدارس التعليم فى الاماكن المتأخره فى حرائب بعض المدن ولا سيما نفر وسبار وغيرها من المدن عدا المدارس الخاصه بالمعابد . ويتضح ان المدارس كانت خصوصية أى لم تكن عموميه تحت اشراف الحكومـــه والدوله كما انه لا يعثر على بقايا دار بخصوص خاص بمصر تحت تمكننا بعضها بانها بقايا مدرسه ، ولكن أى بقايا (حتى بيوت السلاطين) تكاثر اجتهاد لتكون مدرســـه . ولعل أول شىء كان يتعلمه الطلاب الخط أى الكتابة المسماريه وكانوا يتدرجون فيها لانها من اعقد الصعبه لا سيما وانه يتعلق بالكتابه معانى اللغه وبحوها ومفرداتها ، وكان عليهم أن يتعلموا لغتين ، وهى اللغه البابليه السامية واللغه السومريه، فكان التخصص فى مثل هذه الامور يحتاج الى زمن طويل ولاسيما اذا أراد الطالب أن يكون من الكتبة المطلعين . وفيما عدا الكتابه واللغه كان التعليم العالى يشمل العلوم الرياضيه والموسيقى والطب والفلك ويؤلف القانون وكانت هذه على الاكثر فروعا للاختصاص بفرع لها جماعة خاصه من المعلمين ، وكانوا يلقون مثل هذه الدروس العالية فى

(١) يوجد بحث مهم بهذه الاسماء كرامر بعنوان
The Sumerian School A Pre-Greek System of Education in
Studies Presented to David Moore Robinson (1952)

معـــاهد خاصـة ، وكـان لهـم بيـوت ومؤسســات خاصـه للحث العالى توسعا ان سرحمهـا بدور العلـم او الحكمة (وفى البـابلية «بيت ـ مومى») مما يقابل الاكاديمية ومن المؤسسات العالمة الخاصة بالجمع والتأليف خزانات الكتب (ويسمونها بيت الالواح أو الرقم « اى ـ دبا » بالسومرية) ودور السجلات لحفظ الوثائق وكان للمعابد الشهيرة مؤسسات مثل هذه ملحقه بها وكذلك كان لقصور الملوك ، مثل خزانه الكتب الملكيه الشهيره التى وجدت فى قصر الملك الاسورى «أشور باسال» وقد عثر فيها المنقبون على مئات الالوف من ألواح الطين تجمع أصناف المعرفه والسجلات والوثائق التاريخيه المهمه . ويرجع الفضل الى هذه المكتبة فى معرفنا بنواح مهمه من حضاره العراق القديم وتاريخه اذ ان هذا الملك قد جمع مكتبه من مختلف المدن العالمه وجمع النصوص القديمة واستنسخ كثيرا منهـا وأودعها فى مكتبه ، ومن الجدير بالذكر ان النسائخ التى حصلت عليها مدرسة الآثار العراقيه من نينوى فى تل قرمل أظهرت على ان هذا الموضـــع القريب من بغداد كان موضعا لحفظ الوثائق والتأليف والنقل أو كان بمثابة مدرسه . وقد اظهرت الآثار التى وجدت فيه على ألواح الطين المكتوبة (وقد بلغ عددها زهاء ٣٠٠٠ لوح) وهى تحتوى على أصناف غير مألوفه فى المواضع القديمة الاعتياديه ، اذ دونت نتائج نصوص المعرفه كالالواح الرياضيه (انظر الكلام على الرياضيات) والمؤلفات فى أسماء النبات والحيوان والاحجار والمؤلفات اللغويه ، والسرائع مما لا يدع مجالا للشك فى ان تل قرمل (واسمه القديم على ما يرجح شادوبم) كان معظم سكانه من الكتبة المطلعين بالعلوم والمعارف التى وصلت اليها حضارات العراق القديم فى العهد البابلى القديم ، وهو العهد الذى نوهنا باهميته من حيث نضج العلوم والمعارف فيه ودونها بعد ان كانت فى العصور القديمه يتداولها الناس بهيئة معارف عملية .

وقبل ان نترك الكلام على الواح الطين والكتابه فى العراق القـديم نذكر بعض الامور المفيده الاخرى ، ومن ذلك صلاح الطين ومطاوعته الى

الخط المسمارى ، كما ان ألواح الطين لو تركت لشأنها فهى غير قابلة للتلف بوجه عملى[١] ، وان ضرورة المحافظة على بعض الوثائق المهمة وضمان عدم اللاعب بها قد دعتهم الى صنع ظروف (أو علب) من الطين لحفظ الالواح فيها ، ولما كان الطين يتقلص عند جفافه فلا يمكن فك الوثيقه ونزعها من علافها بدون كسره ، كما انه لا يمكن وضع عنوان جديد على لوح جاف . وكان الطين لا يطاوع الفنان فى الخط كما كان الحال فى ورق البردى فى حضاره مصر ، وكانت اغلب الواح الطين صغيره الحجم ، لان ماده الطين لا تساعد ان تكون حجومهـــا كبيره ، ولذلك كانوا يكتبون النصوص المطولة على سطوح اشكال مجسمة من الطين كالمناشير والاسطوانات . واثرت ماده الكتابه المجدده فى الخط المسمارى اثرا آخر فى حضاره وادى الرافدين ، من اجله ظهور النصوص المطوله أو ما يصح ان نسميه بالكتاب ، فان المصريين القدماء قد ساعدتهم ماده الكتابه على أن يوحدوا درج البردى (لفات البردى) وكانت هذه بمثابه « الكتاب » اما سكان وادى الرافدين فمع استطاعتهم تدوين نصوص مطوله على اشكال كبيره مجسمه من الطين او على قطع حجر كانه مثل مسلة حمورابى ، الا أن ذلك لا يمكن ان يكون بمثابه الكتاب . ولكن النص المطول ، اذا أريد تدوينه فى الالواح ، فانه يدون على ألواح كثيره منفصله ، ولكى يضمنوا تسلسلها كانوا يدونون اسفل كل لوح عباره « لوح كذا من سلسلة كذا » ويضيفون مطلع السطر الاول من اللوح التالى ، ولكن مع ذلك فانه لم يكن من الممكن المحافظه على الالواح الكثيره التى تؤلف نصا واحدا ، بل تعثرت وتشتت ، حتى ان بعض الالواح توجد منها كسره واحدة فى متحف وكسره أخرى فى متحف آخر . ولعل اسفاء ما تضاهى « الكتاب » فى حضاره وادى الرافدين قد دعاهم الى اسباغ دور خاصـــه بالسجلات وخزانات الالواح فى أزمان قديمة جدا .

---

(١) وللمقارنه نجاده ورق البردى الذى استعملته حضاره وادى النيل نقول ان البردى غير صالح للحفظ زمنا طويلا ، وان سبب بقائه انما كان بسبب جفاف مناخ مصر .

المؤلفات والمعاجم اللغوية :

نشأ التأليف اللغوى فى العراق القديم منذ أقدم العهود ، فقد سبق أن ذكرنا ان من حمله الدوافع الى ذلك صعوبه الخط المسمارى والعلامات المختلفه المدونه فى ذلك الخط وحاجه الكتبة والمعلمين الى اتقان فنون الكتابه واللغة ، ولعل أقدم المؤلفات اللغويه هى الاسماء والجداول اللغوية التى جاءتنا من عهد حمدد بصروعصر فجر السلالات ، وكثرت وتنوعت فى العصور التاليه . وكان من بين المؤلفات التى يصح أن نعدها لغوية وبيولوجيه أيضا اسماء مطولة لاسماء الحيوان والنبات والمعادن والاحجار . وعندما سيطر الساميون بالسيطرة السياسية منذ العصر الاكادى وبعد زوال سلالة اور اصبح كثير من الواجبات اللغويه والنقل والترجمه لحاجه القوم لفهم اللغة السومريه وترجمة نصوصها ، فنشأت معاجم من اللغة السومرية الى اللغه البابليـــة (السامية) اما شرح المفردات بما يقابلها من السامية أو ترجمة الجمـــل والمصطلحات السومريه ، واستمرت هذه المؤلفات اللغويه الى العهود المتأخره . وقد سبق أن ذكرنا أن الحركه الى التأليف والترجمه والنقل قد استمرت منذ العهد البابلى القديم ، وقد شاهدنا كذلك بعض الشرائع المهمه وتدوينها فى ذلك العهد .

وكان اول ما يبدأ به المعلم كما ذكرنا التعرف على العلامات المسماريه المألوفة فألفوا فى ذلك اسفارا كبيره فى العلامات المسماريه وبحاثها الايسر لفظ العلامات وفى الجانب الايمن اسم العلامه . والفوا كذلك معاجم اخرى لتدوين معانى العلامات عندما تستخدم بصوره رمزية اى تدل على معـانى مختلفة ثم معاجم بمعانى العلامات فى السومريه وما يقابل ذلك باللغةالبابليه . وقد سبق ان اشرنا الى المؤلفات اللغوية ــ البيولوجيه وهى جداول مفصـله بعضها شرح التعابير والمصـطلحات الفقهيـة المستعمـله فى الوثائق والعقود القانونية وكذلك سجلات باسماء الاشياء والمواد المختلفة كاسماء الحيوان والنبات والادوات المصنوعة من المواد المختلفه كالخشب والنحاس

وأسماء الأحجار المسمرة وأحرائها وساحها[1] ووالف البابليون والاشوريون معاجم للغة البابلية ، وهي من قبل كتب النحو اذ تحتوي على تصنيف المفردات ومرادفاتها ، وراكبها النحويون وخصصوا قسما من هذا النوع لاسماء الآلهة والعمارات . وقد حدد البابليون كذلك طريقة الشروح والهوامش وذلك بوضع عشر للسواطن العامضة بين السطور بخط دقيق . وقد جاءنا من بقايا مكتبة طريقة من مكتبة الملك الاشوري « اشور بانيبال » .

حل رموز الخط المسماري :

ظل الخط المسماري معروفا في العراق حتى بداية التاريخ الميلادي ، وبعد ان قبل هذا التاريخ بعدة قرون الخط الارامي المكتوب بحروف هجائية تحل محلها ان وجه بعضها وبقية الحروف التي حذفت ولاشعار اللغة الارامية في الجزيرة والعراق كذلك ، فقبل استعمال الخط المسماري وتم بعد احد بعرفه وبقي اهمال تام حتى منتصف القرن التاسع عشر للميلاد حين بدأ البحث الجدي الاولي لحل رموز الخط المسماري .

أما قصة معرفة الاوربيين بهذا الخط واهتمامهم به فترجع بدايتها الى مطلع القرن السابع عشر حين كان السرق كثير من السياح الاوربيين الذين زاروا حواضر بلاد الرافدين ونقل بعضهم عددا من ألواح الحجر المكتوبة وقد ظن الذين قرأوا كتابتها بادئ الأمر نوعا من الزخرفة . الا ان بعض الباحثين ومنهم احد رحالة في امر الملك الروماني يذهب هذا البعض الى انها نوع من الكتابة فزاد ذلك اهتمامهم بها وقصدوا الشرق لجمع سادج اخرى منها وعكفوا على دراستها لحل رموزها وبعد جهود جبارة عرفوا سرها شيئا فشيئا بهذه الخطوات . ويمكننا تلخيصها كما يلي :-

اول ما عرفوا عنها انها كتابة وليست زخرفة وانها تكتب من اليسار الى اليمين وانها ليست هجائية بل تتألف مقاطع وكما ظن الكتابة الهيروغليفية المصرية من قراءة حجر رشيد المنقوش ثلاث لغات بصيغة واحد ولكنها مكتوبة

(١) انظر المراجع المذكورة في البحث الخاص بشرائع العراق القديم

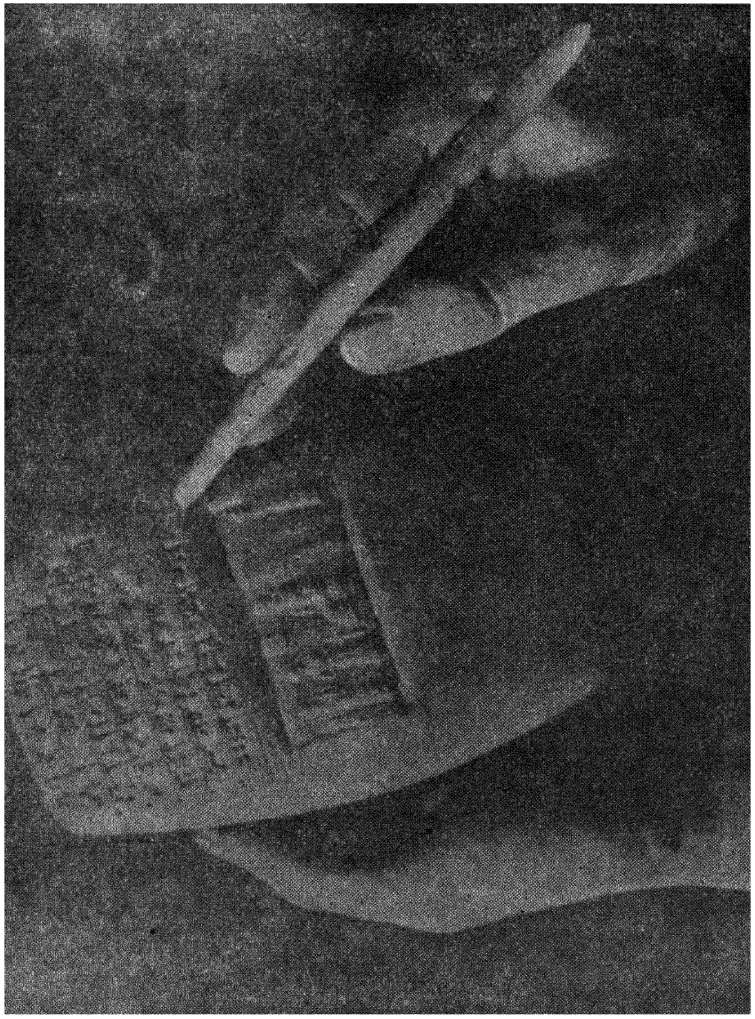

صورة تبين كيفيه رسم العلامات المسمارية بقلم مثلث ، وتشاهد
فى الصوره كذلك طبعه ختم اسطوانى على لوح الطين

بالهيروغليفية كذلك وجد السياح آثارا مهمة فى برسيبوليس (عاصمة الفرس الاخمينيين قرب درفول الحالية) دون على بعضها بالخط المسمارى اخبار (دارا) بثلاث لغات احداها ترجمة الاخرى وهى اللغة الفارسية القديمة واللغة العيلامية واللغة البابلية . وقد استنسخها بعض السياح ونقلها الى اوربة حيث اصبحت فى متناول ابدى الباحثين فعكف على درسها « كروتفند » المدرس فى احدى جامعات المانية سنة (١٨٠٣) وقد اهتم باحدى الكتابات الثلاث وهى الفارسية لان خطها كان أقل تعقدا حيث ظهر انه مكون من علامات مسمارية تشبه الحروف الهجائية لا يتجاوز عددها الخمسين حرفا فى حين ان اللغتين الاخريين العيلامية والبابلية مدونتان بالمقاطع والرموز وقد استطاع ان يقرأ اسم الملك دارا وابنه اخشويرش وعرف مفردات أخرى من هذه اللغة الفارسية ، فشق بذلك الطريق للباحثين الآخرين وفى مقدمتهم « هنرى رولنسن » العالم الانكليزى الذى درس الكتابات المسمارية المنقوشة على نصب آخر هو الاثر المعروف بحجر «بهستون» الواقع بالقرب من كرمنشاه حيث دون فيه الملك دارا أعماله وفتوحاته باللغات الثلاث الآنفة الذكر أى اللغة الفارسية واللغة العيلامية واللغة البابلية وقد استطاع «رولنسن» بدراسته هذه النقوش ان يكمل العمل الذى بدأ فيه « كروتفند » بقراءته الفارسية القديمة أولا وبالاستعانة بها توصل الى حل رموز اللغة البابلية فعرف منها مفردات أخرى وقسما من علاماتها ، وقد شاركه فى هذا العمل العالم الايرلندى (هكنس) ثم تتابعت بحوث العلماء فى أقطار اخرى وازدادت المعرفة باللغة البابلية وبعلاماتها وفى عام ١٨٥٧ أصبح موضوع قراءة اللغة البابلية والاشورية علما مضبوطا حتى أنه جرى شبه امتحان للعلماء فى ذلك الحقل بان قدمت لهم نسخ من كتابة واحدة فترجمها كل عالم على انفراد وعندما نشرت ترجماتهم فى « المجلة الآسيوية الملكية » كانت مطابقة فى معناها وبذلك اطمأن العالم الى صحة الطريقة التى اتبعت فى حل الرموز[1] ومن ثم

(١) حول كيفية حل رموز الخط المسمارى راجع —
W Budge, **Rise and Progress of Assyriology**

كثرت البحوث والدراسات فأحد علم الاشوريات وهو معرفة قراءة الكتابات المسمارية ونحوها وقواعدها بسط وبرداد دقة حتى أصبح الآن يدرس فى الجامعات المشهورة مثلما يدرس اللغات الشرقية المعروفة، ومما ساعد على معرفة اللغة البابلية وسرع فى خطوات فهمها انها واللغات السامية الاخرى مثل العربية والعبرية من اصل واحد أى من عائلة واحدة حيث تشابه فى نحوها وفى مفرداتها فامكن بالموازنة والمقايسة مع بعض تلك اللغات ولا سيما العربية والعبرية معرفة كثير من مفردات اللغة البابلية وتركيب جملها •

اما اللغة السومرية فلم تكن من اللغات السامية بل لغة السومريين الذين يسبب انهم اخترعوا الخط المسمارى • وقد تأخرت معرفة لغتهم بعد حل الخط المسمارى زمنا ولكن العلماء فى أثناء قرآءتهم للكتابات المسمارية كانوا يجدون بين حين وآخر مفردات لغة غريبة جديدة لا تشبه اللغة البابلية التى كانوا يدرسونها فحاروا فى أمر هذه اللغة الغريبة وسموها فى بادىء الامر باللغة الاكدية فخصصوا جهودهم لمعرفة اسرارها فاخذت توضح شيئا فشيئا ومن حسن الحظ ان بعض الكتابات المسمارية التى وجدها المنقبون فى مدن العراق القديم كانت بمثابة معاجم لشرح مفردات هذه اللغة البابلية السامية • وبعضها كان يهدف ترجمة الكتابات سومرية باللغة البابلية كما ذكرنا فيما سبق، ولما كانت اللغة البابلية قد عرفت فساعد ذلك على فهم نحو اللغة السومرية ومفرداتها حتى أصبحت معروفة الآن لا تقل عن اللغة البابلية •

التاريخ والتدوين التاريخى :

سنقتصر بحثنا فى التأريخ فى حضارات العراق القديم على طرق تدوين الحوادث وهو ما نسميه بالتدوين التأريخى[1] دون الاصول والقواعد المتبعة فى علم التأريخ وهى النقد والتفسير الى غير ذلك مما مر بنا فى منهج البحث التأريخى • وهذه أمور لم يعرفها المؤرخون القدمون فى العراق وغير العراق بل هى بوجه الاجمال من معارف البشر الحديثة • والواقع من الامر ان مفهوم

(١) انظر الفصل الاول حول طرق التدوين السائدة عند المؤرخين

التأريخ بصفته علما من الآراء الحديثه فى تاريخ الانسان •

ولكى نفهم طرق التدوين عند مؤرخى العالم القديم سعى لنا ان نبدأ بطرق التقويم[1] عندهم لانها على ماسيرى صارت مصادر للمدونى التأريخ، وسنبدأ التقويم الى طريقه تأريخ الحوادث • ولم تكن عند البابليين والاشوريين عهد بات يؤرخون منه (مثل ميلاد المسيح والهجره) ، وانما كانوا ، مثل العرب قبل اتحادهم عهد الهجره النبويه ، يؤرخون بالحوادث المهمه ، فيؤرخون السنه من حادثه مشهوره وقعت فى السنه السابقه ، فتحد هذه الحادثه لتأريخ جميع المعاملات والسجلات والوقائع مما يقع فى السنه التاليه • وقد تعمد ملوكهم فى حالة عدم اتحاد حادثه من السنه السابقة الى تقرير الحادثه بعد انتخابها من بين الحوادث الواقعة فى أول السنه الجديده ، فتعمم هذا التأريخ الجديد الى جميع الاقاليم ، كما كان يفعل الملك الشهير حمورابى • وقد ابتدأت طريقه التأريخ من الحوادث المشهوره فى العراق منذ أقدم أزمان التأريخ وتنتهى الى نهايه سلاله حمورابى (فى نهاية القرن السابع عشر • م) حيث عدلوا عنها الى طريقة أخرى وهى تأريخ الحوادث بالسنه الى سنى حكم الملوك • واستمرت هذه الطريقة عندهم حتى نهايه بابل (عام ٥٣٨ ق • م) وظلت فى الاستعمال فى العهود التى أعقبت سقوط بابل ، كالعهد الاخمينى وعهد الاسكندر والعهد السلوقى • واتخذ الاشوريون طريقه أخرى فى تاريخ الحوادث وتقويمها وذلك بتسميه السنين باعاظم رجال الدوله ، ابتداء من الملك ، فيسمون كل عهد من ذلك بالدوره أو العهد وباللسان الاشورى «لمو» فيؤرخون بالسنه التى •

وقد انفرد الكلدانيون بالحوادث المؤرخ بها ، حيث جمعوا حوادث كل ملك أو أكثر من ملك فى ثبت خاص متسلسل ابتداء من سنوات العرش ، وكذلك جمعوا ايضا من طريقة التاريخ الاشورى وحفظوا لنا من كلا النوعين تماذج كثيرة • فتكون هذه الاسماء أولى محاولات فى التدوين

(١) (Chronology) ، وسنذكر أسماء أخرى عن التقويم والاشهر فى كلامنا على الملك •

الأرخى • وقد أضاف جامعو اثبات العهود الدوربة ، بحسب الطريقة الاشورية ، ملاحظات تاريخية مهمة • اذ انهم اعتادوا ان يذكروا ، على نحو نظام الحوليات في العصور الوسطى ، بعض الحوادث والتعليقات مما حدث في السنة الخاصة ، من ذلك ذكر حادثة مهمة وهي كسوف الشمس الذي سنين بالحساب الفلكي الدقيق انه حدث بالضبط في ١٥ حزيران عام ٧٦٣ ق م • وقد سبق ان ذكرنا كيف ان المؤرخين في العصر الحاضر استعانوا بهذه الحادثة فاتخذوها أساسا اسس في ضبط التاريخ الاشوري بالنسبة الى البلاد بل كذلك في ضبط تاريخ العراق القديم وتأريخ الشرق الادنى • وقد اتخذ المؤرخون القدماء هذه الاثبات مصدرا مهما لتدوين تاريخ ملوكهم وسلالات الملوك المختلفة ، التي تجوز ان نطلق عليه اسم التاريخ الرسمي • وهي اثبات الملوك والسلالات التي تستند في مصدرها بالدرجة الاولى الى سجلات أو اثبات الحوادث المؤرخة بها ، لان الكاتب يستطيع بواسطتها ان يعرف عدد السنين التي حكمها الملك ثم عدد السنين التي حكمتها سلالة هذا الملك و يجمع كل ذلك ليكون عددهم ، ما دعوناه سابقا باثبات الملوك والسلالات وهي بدون ملوك كل سلالة وعدد سني كل ملك منهم ، ثم مجموع سني السلالة والمدة التي كانت عاصمة لها ، ثم تذكر السلالات الاخرى على هذا الطراز • وقد حاولوا لنا من هذه الاثبات حقائق مهمة ، من بينها حاولت ملوكه باسماء السلالات وملوكها التي حكمت في العراق مما قبل الطوفان ومنذ الخليقة حتى زمن تأليفها ولعل ذلك كان في بدايته سلالة أور الثالثة[1] وقد حرروا في هذه الاثبات المطولة على تقسيم تأريخ البلاد الى عهدين ، التأريخ القديم و يبدأ عندهم منذ الخليقة الى ما بعد حدوث الطوفان ، والتأريخ الحديث و يبدأ عندهم مما بعد الطوفان •

ولم يقصر جامعو اثبات السلالات ، لحسن الحظ ، على ذكر الملوك وسني حكمهم ، وانما كانوا يضيفون الى هذين الحقين الآخرين ، تعليقات

(١) أنظر

Jacobsen, **The Sumerian King - List** (1939).

وحوادث مهمة مفيده • فمحد المؤلف مثلا يضيف حاشية بعد السلالة الاكديه فيقول «قضى على مملكه الوركاء بالسيف ، فاسقلت الملوكية منها الى (اكد) فصار في اكد سرجون ملكا وحكم ٥٦ سنه • وهو الذى (اى سرجون) تسماه فلاح وصار ساقيا للملك «اور ـ البابا» ملك بلاد اكد • وقد بنى سرجون مدينة أكد • وحكم مانشوسو الاكبر لرموش وابن سرجون ١٥ سنه الخ» ومن الطريف في أمر دلك المؤلف ماسبق ان ذكرناه من انه بعد أن ينهى الكلام على السلالة الاكدية ، وقبل أن يذكر العهد المظلم الذى أعقب السلالة الاكدية ، سأل ساحرا « من هو الملك ومن هو غير الملك ؟ » مشيرا بذلك الى عهد الفوضى السياسية التى حلت في البلاد بعد السلالة الاكدية في العهد الكوتى •

وعرف لنا الاشوريون كذلك ايضا باسماء ملوكهم وابتدع مؤرخوهم نوعا خاصا أن يقسموا الثبت الى حقلين، يذكر في الحقل الاول الملك البابلى وفي الحقل الثانى الملك الآشورى الذى حكم في زمنه • مثال :ـ

١ ـ بوزر ـ بوكلى ـ أشور	
بو ـ كدورى ـ أوصر	٢ ـ موكل ـ سكو
(وهو موحد مصر الاول)	٣ ـ اشور ـ رشى ـ اشى

أى ان الملك البابلى موحد مصر الاول قد عاصره من الملوك الاشوريين ثلاثه ملوك وهم المذكورون في الحقل الاسفل •

والى جانب الملوك والسلالات خلف لنا البابليون والاكديون مصادر أخرى من طرق التدوين التاريخى ، يصح ان نطلق عليها بوجه عام اسم « النقوش والكتابات التاريخيه » التى خصصت بالدرجة الاولى الى تدوين مآثر الملوك والامراء الذين شعفوا بتخليد اعمالهم وحروبهم واخبار انتصاراتهم الى غير ذلك من المآثر التى دونوها على الحجر والانصاب والتماثيل وألواح الطين • وقد بدأت هذه السجلات منذ فجر التاريخ (منذ بداية الالف الثالث ق • م) وجاءنا من ذلك بمقادير كبيره متنوعه ، تعد بعد بعدها ، من مصادرنا الاساسية في معرفة التاريخ القديم • وقد ابتدع مدونو التاريخ

الآشوريون شكلا طريفا من الكتابات التأريخية الحربية ، فكانوا يعنون أخبار حملة الملك بهيئة رسالة يرسلها الملك الى كبير الآلهة . فنجد في اخبار الملك الاشوري « سرجون الثاني ٧٢١ – ٧٠٥ق . م » مثلا ان الملك بعد أن يحيي الاله آشور على طريقة دباجه الرسائل ويحيي الآلهة الاخرى ، ويحيي المدينة وسكانها ويسأل عن سلامة الجميع ، يبدأ بتفصيل أخبار حملته الحربية الثامنة في نحو ٤٢٥ سطرا يفصل فيها غزوته الى بحيره «وان» وبحيره أورمية في بلاد الارمن ذاكرا قهره البلدان الواقعه هناك وذكه حصونهـا وحصوله على الحربه الى غير ذلك من شؤون هذه الحملة . ومما لا شك فيه انه كان يصحب الملوك في غزواتهم مؤرخون رسميون لتدوين اخبار تلك الحملات الرسمية ، كما جرى عليه بعض الملوك المتأخرين مثل الاسكندر الكبير والامبراطور الروماني جوليان .

ومن الكتابات التاريخية التي خلفها لنا مدونو التأريخ من الاشوريين نظام الحوليات (annals) التي تعد ذات قسم تأريخي لما تحويه من الاخبار التاريخيه المهمه وقد رتبوا الحوليات على السنين ، اما بترتيب سنى الملوك أو ترتيب نظام التاريخ الدوري « اللمو » (طريقة تاريخ السنة بحسب عهود كبار رجال الدولة ابتداء من الملك) . واذا جمعنا الحوليات الخاصة بكل ملك فسكون لدينا تاريخ ثمين للدوله الآشورية على الرغم مما فيه مـن قصور . وقد امدنا بعض هذه الحوليات بمعلومات ثمينة عن جغرافية الشرق القديم وخطط بلدانه لانها تذكر بالاسهاب وبالترتيب المواضع والمراحـل التي تمر فيها الملوك يوما بعد يوم في غزواتهم وحملاتهم الحربية ، واشهر هذه الحوليات بالنسبه الى المعلومات الجغرافية حوليات الملك « توكلتي نورتا » الثاني (٨٩٠ – ٨٨٤ ق . م) والملك « أدد – نراري » الثاني ٩١١–٨٩١ ق . م والملك «أشور – ناصر بال» الثـاني ٨٨٣ – ٨٥٩ ق . م وقد وردت معلومات نفيسة في حوليات شلمنصر الثالث ٨٥٨–٨٢٤ ق.م الموجزة المدونة في مسله الحجر المشهوره التي تحدث بأخبار واحد وثلاثين عاما من حكمـه ولا سيما فتوحاته في انحاء الشرق القديم .

واخص الكسه الاشوريون ... آخر من السجلات التأريخيه يجوز ان نسميها « سجلات الدعايه » • وهي : ون اعمال الملوك الحربية بالدرجه الاولى على (الصفاح) أى ألواح الحجر المسية بها جدران القصور الملكيـة وكذلك على المناسر ورقم الطين • ومما يمتاز بها هذه السجلات التأريخيه أنه لم يراع فيها التسلسل التأريخى وانما رتب بحسب التسلسل الجغرافى للمواضع والاقاليم التى عرتها جيوش الملوك • وكان الغرض منها العرض فى قصور الملوك لتقرأها المعاصرون والمتأخرون فيمجدوا الملوك لما قاموا به من أعمال سامية •

واذا كان البابليون لم يخلفوا لنا مثل الاشوريين السجلات التأريخيـه يحدثنا الملوك ، فانهم تركوا لنا منها « التاريخ (Chronicles) التى امتازت على الكتابات التأريخيه الاشوريه بكونها أقرب الى طرق التدوين التأريخى الحاضره ، وقد نقدنا منها فوائد جليلة عن تأريخ البابليين والبلاد المجاوره وهى بوجه الاجمال تواريخ بالمعنى الصحيح ، اذ أن المؤرخين الذين كتبوا فيها لم يقتصروا على الحوادث المعاصره وانما بحثوا فى حوادث الماضى فى بلادهم ودونوها • ولا نستطيع أن نقف على وجه التأكيد بالرقم الذى نشأت فيه هذه الطريقه فى تدوين التاريخ ولكنها جاءت لنا بكثره من الرقم البابلى المتأخر (٦٢٥ — ٤٠٠ ق • م •) ومع ذلك فان مؤرخى هذا العصر قد كتبوا فى تأريخ العصور الماضيه ومن جملته ذلك أخبار الدوله الاكديه التى سبقت زمانهم بنحو الفى عام • وكذلك ارخوا اخبار العلاقات بين بلاد بابل واشور وعرضوا لذكر المعاهدات بين ملوك البلدين فى سوالف الحدود • واتوا فى التأريخ البابلى بأنفع مايتبع الاهمية تشمل على الحوادث التأريخيه فى بـلاد بابل واشور وعلام من رقم الملك الاشورى «اشور باسال» ورقى حتى رقم الملك البابلى « نبو ناصر » « ٨٧٤ — ٧٣٥ ق • م • » وجاءتنا منه نسخة من رقم الملك الفارسى الاخمينى داريوس الاول • ومن أمثلة هذه التواريخ جزء من تأريخ الف فى بدايه العهد البابلى المتأخر بدون طرفا من الحروب التى أدت الى سقوط نينوى على أيدى الماديين والكلدانيين • واستمر هذا النوع

من الألف الى زمن الاسكندر والعهد السلوقى • وقد اشتهر هذا العهد بالمؤرخ البابلى الشهير « برعوشا » (Berossus) الذى كتب تأريخ البلاد باللغه الاغريقيه فى القرن الثالث ق • م • ، وقد فقد الاصل ولكن حفظت مقتبسات منه فى المصادر اليونانية •

الجغرافية :ـ

نشأ عند سكان وادى الرافدين الاقدمين بدايه ما نسميه علم البلدان والجغرافيه وكان أهل المعرفه فى تلك الحضارة مولعين بالفكر فى الكون ومركز بلادهم وموقعها منه ، وبالنسبه للبلدان الاخرى • ومما نقل عن فكره البابليين لما فى هذه الارض أنهم تصوروا الارض وما فيها صورة أو سطحه لما فى السماء ، فالفرات ودجلة وجميع الارض والبلدان وحتى المعابد صور بانيه لاصول موجودة فى السماء • وتصوروا الارض بهيئه نصف كره مقلوبه أو قبه طافيه فى المحيط (أو قفة مقلوبه) ، وتعلو الارض السماء وهى ملأى طبقات أو سبع طبقات وهى كذلك بهيئه القبة وتقوم السماء كالسقف فوق أساس موضعه فى هذا الافق الذى نراه ،ودعوا القسم العلوى من السماء بالمركز أو « كبد السماء » واعلى نقطه فيه هو السمت ويحيط بالسماء البحر أو المحيط السماوى • وقسموا الارض الى ثلاث مناطق ، المنطقه العليا هى الظاهره التى سكن فيها البشر ، والارض الوسطى ، موضع المياه ومنطقة الهه المياه « انا » وتلى ذلك الارض السفلى التى فيها موضع أرواح الموتى • وقد جاء فى مآثر أخرى تقسيم كل من السماء والارض الى سبع مناطق • وقسموا الارض الى اربعه قطاعات او أرباع و أربع جهات اصليه تقابل كل جهه قطرا عظيما من الاقطار وتسمى باسمه ، فالجنوب بلاد عيلام والشمال بلاد اكد والشرق بلاد « السوباريين والكوتيين ، (الاشوريين) والغرب بلاد الامورين ، أى جهات سوريه » •

وقد اتسعت معلومات العراقيين الاقدمين عن جغرافية الشرق القديم مما أقدم الازمان بالتجارة والفتوح الخارجية والاسفار وقد عرفوا أجزاء

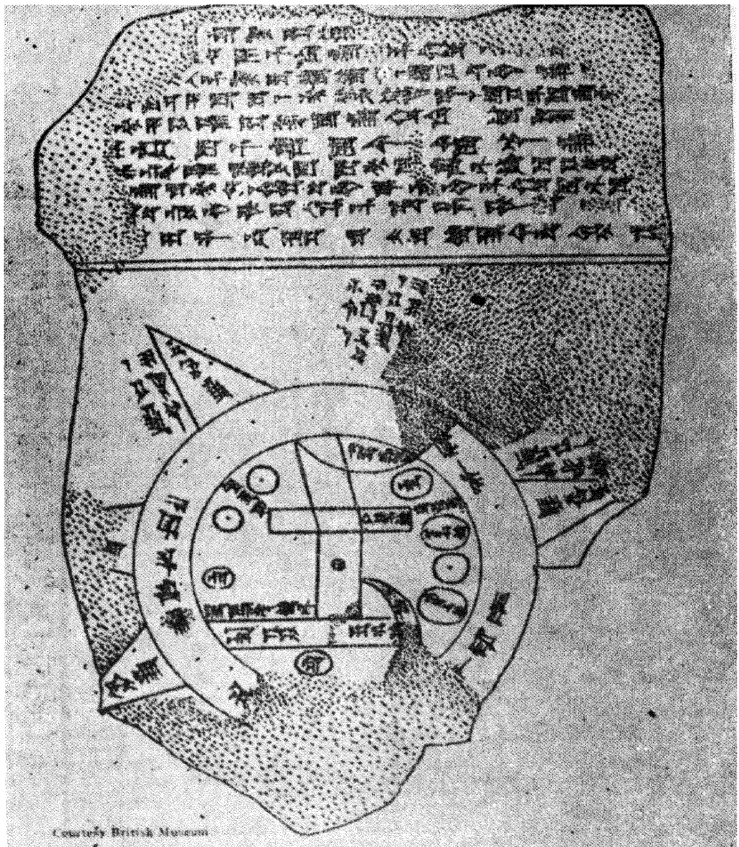

DRAWING OF A CUNEIFORM TABLET

Showing a Babylonian map of the world about the Sixth Century B.C. The seas surrounding the world are indicated by the large circles within which are noted various Babylonian cities. The two broken vertical lines represent the Tigris and Euphrates

رسم حارطه بابلیه (من العهد البابلی الحدیث) تبین العالم
کما کان معروفا ، حیث تساهد بابل فی مرکزه
ویحیط به البحر الاوقیانوس

مهمة من جزيرة العرب ولا سيما البحرين وسموها « دلمون » وعمان «مجان» و«وملوخا» ولعلها بلاد الحبشة ووصلوا بفتوحهم ولا سيما فى الزمن الاكدى الى جهات عديده • وقد الفوا فى الجغرافية اثباتا « جداول » مطولة باسماء البلدان والمدن والانهار فى العراق وفى الاقطار المجاورة وقد جاءتنا من هذه الاثبات نماذج مهمه من الزمن البابلى القديم ، فمن ذلك ثبت مطول وجد فى أنقاض مديرية الآثار العراقية فى تل حرمل • وجاءتنا نماذج من هذه المؤلفات الجغرافيه من الزمن الاشورى المتأخر وكذلك من العهد البابلى الاخير ، وفيها اضافات باسماء المعابد وتفسير أسماء بعض الاقاليم والمدن وهى مدونه باللغه السومرية وباللغة البابلية • ومن الجداول التى تدخل ضمن المؤلفات الجغرافيه قوائم قديمه نظمت لاغراض ادارية أى تعداد المدن والمواضع لغاية جمع الضرائب والادارة • ومن الجداول الجغرافية التى ألفت لاغراض عمليه مفيدة مؤلفات بأسماء الاقاليم والمواضع المهمة لتسهيل الاسفار وتعريف المسافات فيما بينها[1] •

ولعل احسن ما نرى مقدرتهم الجغرافية ما جاءنا عنهم من الخرائط المجسمة فقد خلف لنا البابليون منذ أقدم ازمانهم طرق مسح الاراضى وقياسها واخذ مخططاتها (أنظر بحث العلوم الرياضية) وعرفوا تخطيط الخرائط لمساحات أوسع أى خرائط البلدان والاقطار • ولعل أقدم خريطة من هذا النوع خريطة مدينة نفر التى يرجع عهدها الى الالف الثانى ق • م ، (أنظر الشكل فى ص ٣٢٨) ومما يدهش له حقا ان هذه الخارطة القديمه مضبوطه بحيث ساعدت المهندسين الذين وجدوها فى تقسيم فى المواضع المهمه من المدينة • ومن ذلك خارطة مدينة سبار وخارطة مدينة بابل • وتعدوا الخرائط ذات المساحات المحدودة الى رسم خرائط لاقاليم أوسع والامثله على ذلك خارطة للعالم المعروف لديهم جاءتنا من الزمن البابلى الاخير ولكن يرجح انها نسخة عن أصل أقدم وهى أشبه ما تكون بخرائط

(١) وهذه فى الواقع ما يسمى بـ (itinerary)

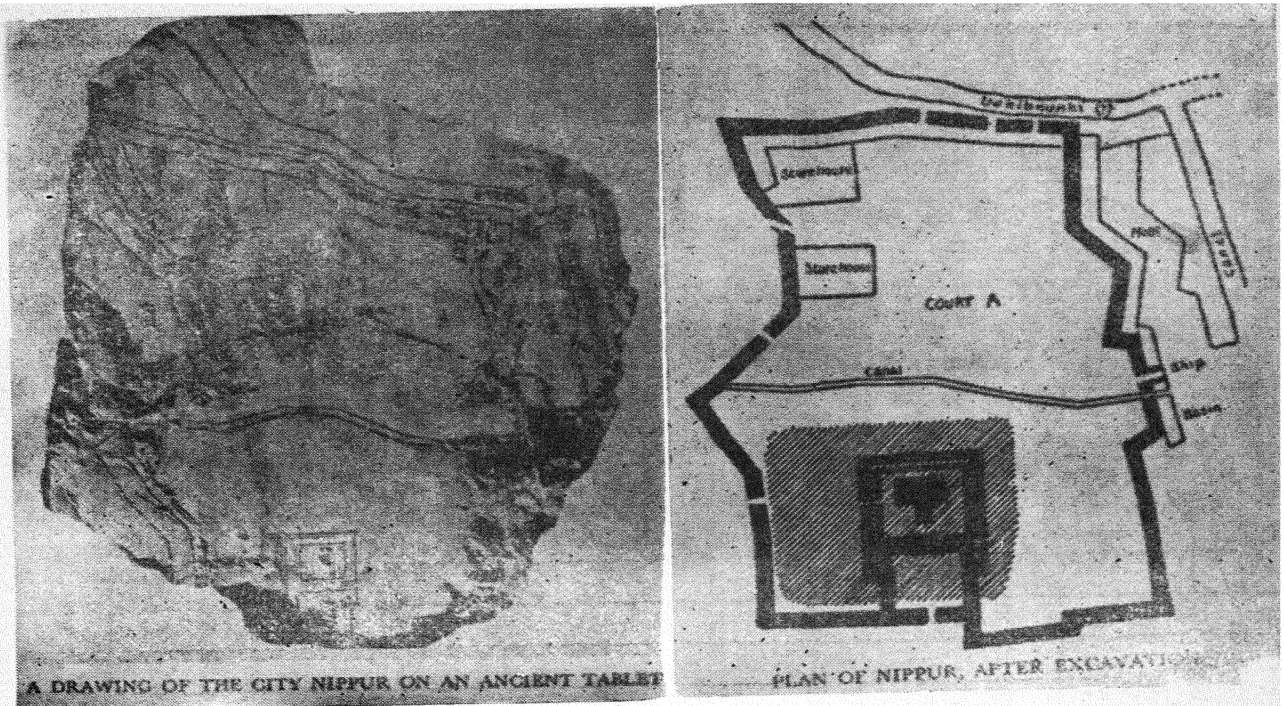

خارطة مدينة « نفر » كما رسمت على لوح من الطين
من العهد البابلى القديم

الجغرافى « الاصطخرى » وفاقت خرائط الاغريق القديمة من الايونيين كما وصفها لنا هيرودوس[١] . وتصور هذه الخارطة البابلية الارض وهى مدوره مسطحه وفى وسطها نهر الفرات آتيا من الجبال الشماليه ويصب فى مستنقع الاهوار فى الجنوب ووضعت فوق المركز مدينة بابل وفى جانب منها بلاد اشور (وكل شعب يرى عاصمته أو بلاده مركز الدنيا وسرتها) وقد علمت فى هذه الخارطه مواضع المدن والبلدان بدوائر كما نفعل فى خرائطنا فى العصر الحاضر ووضعت فى وسط الدوائر أو بقربها اسماء تلك المدن . أما المنطقة المستديره على المنطقة الخارجية من الخارطة فتشير الى الاقاليم الاجنبيه ، وتحيط بالقارة التى تمثلها هذه الخارطة النهر أو البحر المالح . وتخرج منه ثمانى جزر وقد بينت المسافات فيما بينها بالساعات البابلية، ومن الطريف ذكره فى هذا الصدد أن الجزيرة الشمالية الجزيرة التى (لا يرى الشمس) جعلت بعض الباحثين هذه الاشارة بأنهم عرفوا الظاهرة المسماة بالليل القطبى (انظر الشكل فى الص ٣٢٦)

---

(١) ولم يبق عليها كثيرا الخرائط المستديرة التى كانت تدعى فى العصور الوسطى بخرائط الدنيا (mappae mundi)

الفصل السادس عشر

العلوم الرياضية والطبيعية

مقدمـــة :

نستطيع أن نتبع من سير تاريخ الحضاره في العراق تدرج المعارف في حضاره وادي الرافدين منذ عصور ما قبل السلالات وهي العصور التي اطلقنا عليها اسم فجر الحضاره لانها كانت مقدمه وتمهيدا للانتقال الى طور الحضاره الناضجه التي تبدأ منذ بداية الالف الثالث ق.م. والواقع ان الانسان بدأ بالاختراعات والصناعات وتكوين المعارف منذ العصور الحجريه فمعرفته بالنار واهتداؤه الى نظم الزراعة وتدجين الحيوان وصنع الفخار في العصر الحجري الحادث ، والاختراعات الاخرى التي وصل اليها في عهد فجر الحضارة كالعجلة ووسائل المواصلات الاخرى والمعادن والاصباغ وغير ذلك مما كان معارف عمليه نتيجه عن قوى الملاحظه واسرارها وتسخيرها. ومعنى ذلك ان الانسان في العراق بدأ بالعلوم العمليه منذ أبعد عصور التاريخ وان هذه المعارف العمليه النتيجه هي أسس العلوم النظرية ونواتها سواء كان ذلك في علوم الانسان الحاضره أو في العلوم التي وصل اليها الانسان في الازمان التي أعقبت نشوء الحضاره في كل من وادي الرافدين ووادي النيل وفي الاقطار الاخرى التي اقتبست عناصر الحضاره من هذين المركزين الحضاريين كاليونان وغيرهم أمم أخرى مثل الحثيين والعيلاميين وغيرهم من الاقوام .

وقد بدأت العلوم والمعارف في حضاره العراق القديم في أطوار عمنة كما أشرنا الى ذلك . ومعنى هذا أنها كانت أشبه ماتكون بالحرف والصناعات التي يكون تعلمها عادة تعلما عمليا بالممارسة واللمذة العملية . فعندما بدأ

التخصص بالصناعات المختلفة الكثيره التى نشأت فى الحضارات الاولى ، نشأت فى المجمع جماعات من الصناع المحرفين المخصصين كالمعدنين والنحاتين والكتبة والفنانين والبنائين والمهندسين وكلهم أصحاب حرف مخصصين ولا سبل لمعرفه صناعاتهم الا بالتلمذة والانتساب الى طبقة خاصه من الصناع للعلم المعلومات واسرار الصناعة من ذوى الاختصاص ولكن نشأ بعد أزمان طور البحث والتدوين والتأليف والتحارب ، أى بداية العلوم الحقيقيه • ويوسعنا أن نحد بدايه هذا الطور حتى فى الادوار التى سميناها بأدوار المعارف العمليه ، اذ كانت الحاجة تدعو كثيرين من المختصين مثل الكاتبه والمعدنين ، الى تدوين أشياء عن صناعاتهم ليستعينوا بها أنفسهم على مهمهم وصناعتهم الخاصه • ويبدو أن أول ما بدأ من العلوم فى العراق القديم علوم اللغه وما يتصل بفنون الكتابة ، اذ جاءنا كما سبق ان ذكرنا ، مؤلفات لغوية بهيئه معاجم منذ أقدم الازمان •

العلوم الرياضية :

لقد سبق أن ذكرنا ان أقدم أرقام وحساب فى أقدم الحضارات البشريه قد نشأت فى أولى الحضارات السومريه فى وادى الرافدين ، وقد رأينا أن هذه كانت لضبط وارداد المعابد وحساباتها وغير ذلك مما يتعلق بالشؤون الاقتصاديه • ومما لا شك فيه ان التسجيل قبل ان يبدأ بمرحلة تدوين الارقام فى وادى الرافدين اهتدوا الى فكره العدد • ويوسعنا ان نعد أول خطوه فى نشوء الرياضيات فى تجريد الاعداد التى اخترعها البشر وتصور هذه الاعداد غير مقرونه الاشياء المادية المعدوده أى أنهم قبل التدوين وصلوا الى مرحله تصوروا فيها العدد (١٠) مثلا عشره مجرده بغض النظر عن ان تكون عشره حراف أو عشر حصوات أو أفراس الخ • وأغلب ذلك قبل اختراع الكتابة أو بعد ذلك ، اهتداء الانسان الى العمليات الحسابية البسيطة • ولا نعلم بوجه التأكيد متى بدأت هذه المعرفة ولكن الذى نعرفه هو أن أقدم حساب جاءنا من النصوص المدونة فى حضارات وادى الرافدين

ووادى النيل • والمرجح أن عمليتى الجمع والطرح كانا أول ما اهتدى اليه البشر ، وأعمل ذلك قد تحقق فى حضارات وجهات مختلفه تصوره مستقلة • ولكن الشك يحوم حول عمليتى الضرب والقسمه من حيث اختراعهما فى حضاره أو حضارات محدوده وافتباسهما عن هذه الحضاره الواحده او الحضارات • يقول ذلك لأن الحضاره المصريه مثلا مع تقدمها لم تضبط عمليه الضرب ولم تهتد الى وضع جداول الضرب بل كانت عمليه الضرب تجرى بوجه غير مباشر بخلاف الحال فى حضاره العراق القديم حيث وضعت جداول مطولة للضرب[1] •

بدأت كتابة الارقام والحساب بالارقام فى حضارة وادى الرافدين منذ أزمان بعيده ، أى منذ نشوء الكتابة لاول مره فى تاريخ الانسان فى حدود ٣٥٠٠ ق•م ومن الامور التى ساعدت على نشوء الرياضيات فى حضارتى العراق ومصر الحاجة الى التقويم ، لان كلتا الحضارتين تعتمد الدرجه الاولى على الزراعة وضبط الفصول والذى ساعد على تقدم الرياضيات فى حضاره العراق القديم أكثر من مصر اتساع التجارة فى العراق بالنظر لموقعه الجغرافى بالنسبه للبلدان الاخرى • وقد تطلب المواريث والمكاييل وغير ذلك من الاقسمة وحساب الارباح والمعاملات التجاريه منذ العهد الاكدى • ويسعنا ان نضيف الى هذين العاملين عاملا ثالثا هو الاعمال الهندسيه العمرانية كالابنيه والطرق وشق الانهار ولا تخفى ما لاثر ذلك فى رقى الحساب والوقوف على خواص الاشكال الهندسيه • وتبدأ أولى المدونات فى المعارف الرياضية والمعارف الاخرى من منتصف الالف الثالث ق•م وتزدهر وتضمحل فى نهاية الالف الثالث أو فى بداية العهد الذى يسمى بالعهد البابلى القديم وهو الذى رأى ازدهر تصحح العلوم والمعارف والبحث والتدوين فيها • وقد عثرت مديرية الآثار العراقية فى تلفيقها فى تل حرمل على أقدم قضية هندسية حقيقية تتضمن مبدأ تشابه المثلثات وتشير اليها وتدرسها فى

(١) أنظر الرياضيات فى بحث الحضاره المصريه فى الجزء الثانى •

موضع آخر • وبوسعنا أن نصف ما جاءنا من النصوص والمؤلفات الرياضية البابلية الى صنفين ، يشمل الصنف الاول الجداول او الالبات الرياضية كجداول الضرب وجداول معكوس الاعداد ورفع الاعداد الى القوى المختلفة وجداول بجذور الاعداد • ويتضمن الصنف الثاني قضايا ومسائل رياضية وضعت لتحل بموجب القواعد الرياضية وكانت الجداول والالبات قد قدم عهدها من صنف القضايا وتحديدها الصفة العملية فهي بذلك مثل الجداول التي حلفها لنا البابليون في الاقيسة واسعار المواد • وناحية الحاجات العملية في مثل هذه الجداول واضحة • اما القضايا والمسائل الرياضية فانها عكس ما هو شائع بين الناس قد ابتعدت اشواطا بعيدة عن الحاجات والمسائل العملية ، اي أنها وصلت الى طور العلم النظري نوعا ما ، كما سنصح مما سنورده من الامثلة على ذلك • وحتى الجداول الرياضية كانت في الواقع مؤلفات مدرسية وضعت لتعليم الرياضيات للطلاب ولاستعمالها في استخراج نتائج العمليات الحسابية •

ومما يقال بوجه الاحتمال ان ما جاءنا من الالواح الرياضية المتضمنة قضايا رياضية عدد قليل بوجه نسبي فقد لا يتعدى المائة لوح ويضاف اليها نحو مائتي لوح تحتوي[1] على جداول رياضية •

وقبل ان نذكر طرفا من المبادىء في الرياضيات البابلية نذكر بعض الاسس العامة في تلك الرياضيات • ونبدأ من ذلك بنظام العدد المستعمل فيها وأساس هذا النظام خاصيتان مهمتان أولاهما ان أساس العد في

(١) نذكر فيما يلي المراجع الاساسية في الرياضيات البابلية ـ
(1) O Neugebauer, **Mathematische Keilschrifttexte** (3 vo's)
(2) Thureau-Dangin, **Texts mathématiques babyloniens.**
(3) Neugebauer, & Sachs, **Cuneiform Mathematical Texts** (1945)

(*) أما الالواح التي اكتشفت حديثا في تل حرمل فانظر بحث المؤلف عنها من مجلة « سومر » (١٩٤٩) ، (١٩٥٠) ، (١٩٥١) حيث نجد ما يحتويه من خطأ أصيل الموضوع •

الرياضيات البابلية الطريقة السبسية[1] أى ان رقم (٦٠) هو أساس العد فى تلك الرياضيات ومن هنا نشأ اسم الطريقة السبسية (Sexagesimal System) وثانية هاتين الخاصيتين مبدأ المرتبة العددية أى قيمة العدد بالنسبة الى مرتبته من الاعداد الاخرى (Place-value) كما فى النظام العددى الحديث ، وكان الاهتداء الى هذا المبدأ على ما يرجح أعظم اختراع حققه الرياضيات البابلية، ويرجح أنه أصل المبدأ الهندى والعربى الذى اتخذته الرياضيات الحديثة . والاساس السبسى للعدد البابلى ومبدأ قيمة المرتبة العددية والجداول الرياضية المطولة المتنوعة كانت من جملة العوامل المهمة التى ساعدت على رقى الرياضيات فى العراق القديم . ومما يجدر ذكره بهذا الصدد أنه نشأ الى جانب الطريقة السبسية الطريقة العشرية . ولكنهم اقتصروا فى الرياضيات على الطريقة السبسية التى يرجح أن السومريين هم الذين اوجدوها . ويمتاز الطريقة السبسية بفوائد عملية ومرونة عددية عظمى من حيث قابلية التحليل الى عوامل كثيرة أى قابليتها للقسمة وكثرة مضاعفاتها (مثلا عوامل السبعين ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٣٠ ، ٦٠) . ونتج عن هذه الخاصة أن الرياضيين القدماء تفننوا فى وضع الجداول الرياضية ولا سيما جداول معكوس الاعداد وغيرها من الجداول التى مكنت الرياضيين البابليين من اجراء العمليات الرياضية المطولة ووفرت عليهم الرمن المقضى لحساب كل نتيجة بمفردها .

وعلى مقتضى الطريقة السبسية يمكن الاكتفاء بوضع علامة مسمارية للرقم ١ وهى 𒁹 (وتعنى كذلك للسبعين ومضاعفاته) وعلامة أخرى للعشرة

(١) لا نعلم بالضبط اصل الطريقة السبسية . وقد ظن البعض انها من الفلك ، ويرجح بعض الباحثين انها نشأت من دمج عددين أو طريقين عدديين احدهما (١٠) الذى هو عدد اصابع اليد ومن عدد ٦ الذى له فائدة عملية فى قابليته للقسمة .

وهى ﴿ (١) وبحسب مبدأ القيمة العددية بالنسبة الى المرتبه يمكننا مثلا كتابة الرقم العشرى ١٥١ بحسب الطريقة السبئية بالصوره الآتيه (من اليسار الى اليمين) ﴿﴿﴿ لان هذا يساوى بحسب المرتبة ٢ × ٦٠ + ٣١ = ١٥١ ويكتب العدد ٤٤٧٣٣ بالصوره ﴿﴿﴿﴿﴿ أى ١٢ × ٦٠² + ٢٥ × ٦٠ + ٣٣ ولكن الغالب ، لاسباب استعمال الصفر بصوره مطرده ، ان العبره فى قراءة قيم الاعداد فى السياق والقرينة مثلا ﴿ يمكن قراءتها برقم ١ أو ٦٠ أو أى قوه لـ ٦٠ موجبه او سالبه او كسرا أو صحيحا والعدد ٣٠ أى ﴿﴿﴿ يمكن أن يقرأ ½ أى نصف الواحد أو ٣٠ أو ٣٠ × ٦٠ (مع أنه قوه لسين)(٢) . ومما يقال فى نظام العدد السبئى انه بالاضافه الى مرونته وقابلية قسمته يمكن التعبير به عن أكثر الكسور المختلفة فمثلا بينما يكون ½ فى الطريقة العشريه كسرا غير مسمى أى ٣ ، ٣٣ و . فانه فى الطريقه السبئية هو ٣٠ (أى ٣٠ من ٦٠) وهكذا .

وبالطبع لاسباب الصفر فى العهود القديمه فان القيمه المطلقة لعدد ما لا يمكن تقديرها الا من السياق ، ولكن طبيعه المسائل التى تحل وسياق العمليات الحسابيه يقلل كثيرا من الالتباس الحاصل ، كما ان مقدار الاساس سين قد ساعد على تحديد الاحجام ورفع الالتباس .

ومما يناسبه ذكره هنا الصفر يقول ان الرياضيين البابليين كادوا يستعملونه كما نستعمله فى الرياضيات الحديثه . وقد جاءنا من الالواح المتأخره (من الزمان او البابليه فى العهد السلوقى) علامة خاصه بالصفر ﴿)

---

(١) وبذلك تكون نظام العدد «السومرى ـ البابلى» خليطا من الاساس العشرى والاساس السبئى ، ويظهر ان اقدم رياضييهم قد ابتدأوا بالاساس العشرى مع وجود السبئى ففصلوا الطريقه السبئيه ليميزنها ويعرونها كما ذكرنا .

(٢) وتوجه الاحتمال فان عددا مثل أ ب ﴿ ﴿ (بدون فراغ يدل على الصفر) يمكن قراءته على انه أ (٦)ﷺ + ب (٦٠)ﷺ + أ جـ(٦٠)ﷺ—٢ + ﴿(٦٠)ﷺ—٣ + ﴿(٦٠)ﷺ—٤ + ﴿ (٦)ﷺ—٥

حيث يمكن ان تكون قيمة ﷺ صفرا او ايه قيمة صحيحه موجبه او سالبه

ولا سيما فى الحسابات الفلكية الرياضية ، واستعملت كما يستعمل الصفر

ولا سيما فى الحسابات الفلكية والرياضية ، واستعملت كما يستعمل الصفر

الآن أى لحفظ المرتبة العددية الخالية من العدد • ومما يقال فى هذه العلامة ان تاريخها مجهول وهى من ناحية كونها علامة مستديرة كانت تستعمل للفصل بين الكلمات والجمل فاذا أريد كتابة العدد ٣٦١٠ العشرى بالطريقة السبتية وبموجب استعمال هذه العلامة المتخذة للصفر كانوا يكتبونه بالصورة ٢٤ ٤ فاذا رمزنا لهذه العلامة بـ (و • و) فيكون كتابة الرقم السابق ١٠ر٠ر١ أى ٦٠^٢ + ١٠ • والجدير بالذكر عن اختراع الصفر العظيم أن الرياضيين الهنود عرفوا استعماله ووضعوا له علامة خاصة وقد أخذ العرب الصفر عن الهنود كما اخذوا عنهم أيضا الأعداد ومن العرب انتقل العدد الهندى الى اوربة • وعرف « المايا » فى امريكه الوسطى أيضا الصفر واستعملوا له علامة خاصة (٢٠٠–٦٠٠ للميلاد) وكانت قاعده العدد عندهم «٢٠» أى أنهم اتبعوا الدستور العشرينى •

ولعل أعظم ابداع فى الرياضيات التامة ادراكهم ان الكسور (المسبسمه) لم تكن سوى نوع من الاعداد الصحيحه لا تفرق عنها وجه اساسى (كما ان الكسور العشريه ما هى فى الواقع الا مجرد نوع من الاعداد الصحيحه العشرية) فاستطاعوا بعقريتهم فذه أن يتبعوا عن معظم الكسور اى كانوا يكتبونها بهيئة اعداد هى اجزاء من التسعين ومن دلائل عبقريتهم الرياضية ايضا أنهم طبقوا نفس المبدأ على المقاييس (وهو مبدأ لم يتم ادراكه فى الحضارة الغربيه الا فى القرن السادس عشر للميلاد ولم يطبق النظام العشرى فى المقاييس عمليا الا بعد الثورة الفرنسية) •

وقبل أن نذكر نماذج من القضايا الرياضية نؤكد أهمية الجداول الرياضيه فى تصحيح الرياضيات التامة والفلك التالى فقد مكنت هذه الجداول، كما ذكرنا ، الرياضيين من توفير الجهد والوقت فى الحساب ومن الانصراف الى القضايا الرياضية ، فهى مثل بعض الجداول الرياضية فى الرياضيات

الحديثة مثل اللوغاريتمات ومثل الآلات الحاسبة التى توفر الوقت والجهد العقلى • فقد استطاع البابليون بهذه الجداول اجراء عمليات الضرب والقسمة فى الاعداد الكبيرة • ونذكر منها جداول الضرب المطولة وجداول فى رفع الاعداد الى القوى المختلفة وجداول اخرى بجذور الاعداد من الاسس المختلفة • ومنها جداول مهمة بمعكوس الاعداد (Reciprocals) فمعكوس العدد بوجه عام هو الكمية التى اذا ضرب بها ذلك العدد ينتج الوحدة (أى معكوس العدد ب هو $\frac{1}{ب}$) وبالطريقة السينية يكون معكوس العدد هو الكمية التى اذا ضرب بها العدد ينتج ستين لان رقم ستين كما ذكرنا ، هو أساس العدد فى الطريقة السينية • واستعمل البابليون مبدأ معكوس العدد فى اجراء عملية القسمة فلقسمة عدد على آخر كانوا بدلا من عملية القسمة المعتادة يضربون العدد المراد قسمته بمعكوس العدد المراد القسمة عليه أى $\frac{أ}{ب} = أ \times \frac{1}{ب}$ ويؤخذ معكوس العدد المراد من الجداول المهيئة التى كانت فى متناول اليد[1] ويؤخذ حاصل ضرب العدد بمعكوس العدد الثانى من جداول الضرب الخاصة أيضا • ومن الجداول الطريفة التى جاءتنا عن رياضى العراق القديم وبحث فيها حديثا ما يشير الى معرفة القوم بالمبدأ المعروف باللوغاريتمات • فقد جاء فى بعض ألواح الطين من العهد البابلى القديم سؤال رياضى يطلب فيه الى أى قوة يجب رفع عدد معين حتى تكون النتيجة

---

(١) لقد توسعوا فى هذه الجداول الى درجه كبيرة بحيث اوصلوها الى مرتبه ٦٠ مرفوع الى القوة ١٩ ، وبمناسبة كلامنا على ولعهم بالارقام الكبيرة نذكر أنه يوجد عدد خاص كثر وروده فى الالواح الرياضية وهو (٦٠)٠ وبساوى (١٢٩٦٠٠٠٠) وهذا هو عين الرقم الخاص بافلاطون المعروف برقم « افلاطون الهندسى » ٠ وان (١٢٩٦٠٠٠٠) يوما تساوى ٣٦٠٠٠ سنه لكل سنه منها ٣٦٠ يوما ، وهى ما تعرف باسم « السنة الافلاطونية العظمى » ، كما ان عمر انسان يعمر (١٠٠) عام يحتوى على ٣٦٠٠٠ يوما اى بقدر ما تحتوبه السنه العظمى من السنين ، وهكذا فان العدد الهندسى الافلاطونى الذى تسير بموجبه الارض والحياة على الارض (بحسب رأى افلاطون) انما هو من اصل بابلى
(Sarton, **History of Science**, ch III. P. 72).

عددا معينا آخر • ومعنى هذه القضية ايجاد لوغاريتم عدد معين من قاعدة أو أساس معين[١] ولكن الفرق بين معرفة اللوغاريتمات فى الرياضيات الحديثة وبين معرفة البابليين لها هى ان البابليين لم ينتخبوا أساسا او قاعدة عامة مشتركة يرتبون بموجبها الجداول لاستعمالها فى الحسابات العملية كما فى الوقت الحاضر • ولعل منشأ اللوغاريتمات عند البابليين من حساب الربح والمسائل المتعلقة به وعلى كل فانه كان نتيجة منطقية لمعرفتهم الواسعة فى ضرب الاعداد ورفعها الى القوى وأخذ جذورها[٢] • وقد درست حديثا ألواح صغيرة فيها أرقام عجيبة على هيئة جداول ثبت انها جداول باللوغاريتمات فجدول منها بالشكل الآتى :ـ

١/٤	٢
١/٢	٤
٣/٤	٨
١	١٦

ومعنى هذا الجدول :

$$\sqrt[4]{١٦} = ٢$$

(١) وهذا هو مفهوم اللوغاريتم فى الرياضيات الحديثة اذ ان اللوغاريتم لاى عدد من اساس معين هو الاس او القوة التى ينبغى ان نرفع اليها الاساس حتى تكون النتيجة مساوية للعدد المعروض اى اذا كان $أ^{س} = ج$ فان س هو لوغاريتم ج من القاعدة أ أى لوغ$_{أ}$ ج = س ومن المسائل التى خلعوها على مبادىء اللوغاريتمات مسائل يطلب فيها تحديد الزمن المقضى لمبلغ معين من المال حتى يبلغ ضعفه بنسبة معينة من الربح المركب (٢٠ ٠/٠) فهذه المسألة تتضمن ايجاد المجهول (س) فى المعادلة :ـ $(١ + ١٢ ٠/٠)^{س} = ٢$ اما النسبة الصحيحة (٣ سنوات و ٥/٤ السنة) فقد حلها الرياضى القديم بدرجة تدعو الى الدهشة •

(٢) ومن الجداول الطريفة التى جاءتنا من الرياضيات البابلية جداول بالمعاملات المختلفة (Coefficients) او النسب الثابتة المعينة سواء كانت نسبا مطلقة مثل نسبة محيط الدائرة الى قطرها او نسبة حاصل ضرب ارتفاع المثلث بقاعدته الى مساحته أو انها نسب وجدت ثابتة بالتجربة كالعلاقة الموجودة بين وزن كمية معينة من الاجر بحجمها او نسبة مقدار الزيت المطلوب (لتقبير) سطح معين من المساحة الخ

$$\frac{1}{2}16 = 4$$

$$\frac{3}{4}16 = 8$$

$$16^{1} = 16$$

اى ان الاعداد التى فى جهة اليمين ما هى الا لوغاريتمات الاعداد التى فى جهة اليسار من القاعدة ١٦ • والجدول الثانى :

٢	١
٤	٢
٨	٣
١٦	٤
٣٢	٥
٦٤	٦

وتفسير هذا الجدول :

$$2 = 2^{1}$$

$$4 = 2^{2}$$

$$8 = 2^{3}$$

$$16 = 2^{4}$$

$$32 = 2^{5}$$

$$64 = 2^{6}$$

اى ان الاعداد التى فى اليسار هى لوغاريتمات الاعداد التى فى جهة اليمين من القاعدة ٢ •

شىء عن الهندسة :

تمدنا القضايا الرياضية التى جاءتنا من الرياضيين البابليين بفرعين مهمين من فروع العلوم الرياضية وهما الهندسة والجبر • والذى يجدر

ذكره ان معظم القضايا حتى الهندسية منها انما وضعت لتطبق على القواعد الجبرية التى استنبطها القوم وعلى القواعد والمبادىء الهندسية من ناحية خواص الاشكال الهندسية • وبعبارة أخرى استطاع رياضيو العراق القديم ان يجمعوا بين العلوم الرياضية ، ولا سيما بين الهندسة والجبر وهذه مهارة ومرحلة ناضجة فى تاريخ العلوم الرياضية تستحق الاعجاب والدهشة وكانت تعزى الى رياضى الغرب الحديث مثل « ديكارت » « وفرما » وغيرهما من رياضى الغرب • والجدير بالذكر ان بحوث العرب فى الجبر والهندسة وفى الجمع ما بينهما كانت سابقة على بحوث الرياضيين الغربيين أيضا •

وبوسعنا ان نقف من القضايا الرياضية التى خلفوها على مبلغ ما وصلوا اليه من معرفة فى خواص الاشكال الهندسية ومساحاتها وعلاقة أجزائها بعضها ببعض فقد استطاعوا أن يحسبوا سطوح أشكال هندسية معينة وحجوم بعض الاشكال المجسمة مثل حجم متوازى المستطيلات القائم وحجم الاسطوانة القائمة وحجم المخروط المقطوع وحجم الهرم الرباعى المقطوع ، وقد حلوا هذه المسألة الهندسية بدستور يختلف قليلا عن الدستور المصرى (انظر الكلام على حضارة مصر فى الجزء الثانى) ، ويمكن تمثيل ذلك بالدستور الآتى :-

$$ح = ع\left[\left(\frac{أ + ب}{٢} \right)^{٢} + \frac{١}{٣} \left(\frac{أ - ب}{٢} \right)^{٢} \right]$$

باعتبار ان ح = حجم الهرم المقطوع ، وع ارتفاعه ، و أ ، ب طول ضلع كل من القاعدتين السفلى والعليا ، ومع ان الحل المصرى ابسط ، الا ان كلا الحلين متعادلان • ومن المهم ذكره ان الرياضى «هيرون الاسكندرى» (القرن الاول ـ الثانى للميلاد) قد اتبع فى حله دستورا شبيها بالدستور البابلى •

ولاخذ حجم الهرم المقطوع اذا عرف منه ارتفاعه (ع) ، ومحيط قاعدته العليا (أ) ومحيط قاعدته السفلى ب اتبعوا الدستور الآتى :-

$$\text{الحجم} = \frac{١}{١٢} ع \left(\frac{أ^{٢}}{٣} + \frac{ب^{٢}}{١٢} \right)$$

بفرض ان قيمة النسبة الثابتة (٣) ، فتكون مساحة الدائرة = مربع المحيط

مقسوما على ١٢ كما سيأتى ذكره . وقد أوجدوا الطرق الصحيحة فى قياس بعض الاشكال واستعملوا فى بعضها التقريب بالنسبة الى الطرق الحديثة ، فمن ذلك الدائرة وخواصها فقد عرفوا محيط الدائرة وعلاقته بالقطر ثم مساحة الدائرة واكتفوا من العلاقة بين محيط الدائرة وبين قطرها بعدد تقريبى هو (٣)[١] وقد عثر حديثا فى ألواح الطين على قيمة أخرى لها هى $\frac{٢٥}{٨}$ وحاثاعهم دستور طريف لمساحة الدائرة وهو المساحة = مربع المحيط مقسوما على ١٢ وتفسير هذا الدستور فى تلك النسبة الثابتة التى جعلوها ٣ لان مساحة الدائرة = $ق^٢ \times ط = (\frac{٢ق}{٤ط})^٢ = \frac{٣}{١٢}$

وعرفوا من الدائرة قطعة الدائرة ومساحتها بعد معرفة قوسها ووترها كما وضعوا بعض القضايا فى علاقة بعض الاشكال الهندسية المرسومة داخل الدائرة وخارجها وجاءتنا عنهم بعض الجداول والقضايا فى الاعداد الفيثاغورية تطبيقا على نظرية فيثاغورس المشهورة الخاصة بعلاقة مربعات أضلاع المثلث القائم الزاوية . والواقع ان نظرية فيثاغورس كانت معروفة فى الرياضيات البابلية فى جميع أدوارها وجاءتنا جملة قضايا حلت تطبيقا عليها ومن ذلك قضية نصها « باب مستطيل عرضه ١٠ وطوله ٤٠ فما هو قطره » وقضية أخرى طريقة تحص مساحة حقل على هيئة شبه منحرف (أنظر الشكل) يطلب فيه ايجاد المساحة بعد حساب الارتفاع من المعلومات المعطاه بالفرض فبعد أن يجد الرياضى القديم الارتفاع (ع) بالدستور

---

(١) ومما يحسن ذكره فى تاريخ النسبة الثابتة (ط) ان المصريين القدماء (انظر البحث الخاص بالرياضيات المصرية) وصلوا الى نتيجة اصح من العدد المعروف البابلى . ووصل الرياضيون العرب الى نتيجة أصح فقد ذكر الخوارزمى فى رسالته « حساب الجبر والمقابلة » ثلاث قيم لتلك النسبة وهى $\frac{٢٢}{٧}$ و $\sqrt{١٠}$ و $\frac{٦٢٨٣٢}{٢٠٠٠٠}$ وان القيمة الاخيرة استعملها أهل النجوم اى الفلكيون (انظر تراث العرب العلمى لقدرى حافظ طوقان (١٩٤١) الص ٤٧)

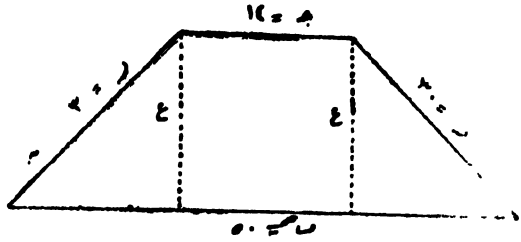

$$ع = \sqrt{ر^{٢} - \left(\frac{ح - ب}{٢}\right)^{٢}} = \sqrt{٣٠^{٢} - (٣٦)^{٢}} = \sqrt{٥٧٦} = ٢٤$$

يجد المساحة بالدستور :

$$\text{المساحة} = \frac{ب + ح}{٢} \times ع = \frac{١٤ + ٥٠}{٢} \times ٢٤ = ٧٦٨$$

باعتبار أن ب ، ح الضلعان المتوازيان و (ر) كل من الضلعين الآخرين المتساويين وع الارتفاع .

وتريبا هذه القصة عدا معرفة القوم نظريه فيثاغورس انهم عرفوا دستور المساحة الصحيح لشبه المحرف وهو حاصل ضرب الارتفاع بنصف مجموع الضلعين المتواريين . وكانوا قد استعملوا الى جانب هذا الدستور الصحيح دستورا تقريبيا وهو انهم كانوا يضربون نصف مجموع الضلعين بنصف مجموع الضلعين الآخرين . ومن القضايا الطريفة التى تخص نظرية فيثاغورس قضيه خاصة بعلاقة قطر المربع بضلعه . فاذا فرضنا ان القطر ق والضلع ل فيكون ق = ل $\sqrt{٢}$ والجذر التربيعى للعدد ٢ من القضايا العددية التى بحث فيها بعض الفلاسفة الرياضيين من اليونان حيث قالوا بامكان ايجاد $\sqrt{٢}$ بالتمثل الهندسى اما البابليون فقد قربوا $\sqrt{٢}$ الى ١ صحيح $+ \frac{٢٤}{٦٠} + \frac{٥١}{٦٠^{٢}} + \frac{١٠}{٦٠^{٣}}$ اما كيف استطاع البابليون ان يجدوا هذه الكمية التقريبية لـ $\sqrt{٢}$ فدل على تقدم الجبر عندهم لا تدل على معرفتهم بما يعرف بالاعداد الصم (surd) وقد استعملوا طريقة

«القريب فى ذلك واستنبطوا لها بعض القواعد العامة[1] لايجاد القيم التقريبية المتابعة لجذر عدد غير مربع كامل .

وقد سبق الجبر البابلى فى معرفة مبدأ المتواليات الهندسية الذى كان يعزى فيما مضى الى « أرخميدس » اليونانى من القرن الثالث ق.م. وقد استعملوا المتواليات الهندسية فى حساباتهم الفلكية ، كما استعملوا مبدأ مهما من مبادىء الرياضيات يخص القواعد الصحيحة فى مبدأ الاشارات (الزائد والناقص) فى الضرب .

واسعوا فى مساحات الاشكال غير المسطحة اى فى مساحة الاراضى والحقول بان يقسموها الى أشكال هندسية منتظمة . وتفننوا فى وضع القضايا الرياضية الخاصة بتقسيم الاشكال الهندسية بسبب معلومة . ولكن كما سنصرح من كلامنا على الجبر كان هذه قضايا جبرية وضعت لتحل بموجب المبادىء الجبرية وتؤدى الى المعادلات الجبرية المختلفة .

ونذكر الآن قضية رياضية وجدت حديثا من تنقيبات مديرية الآثار فى تل حرمل (١٩٤٩) وهى ذات أهمية خاصة فى تاريخ العلوم الرياضية. ووجه الاهمية فيها انها قضية « هندسية جبرية » تتضمن معرفة خواص المثلث القائم الزاوية (نظرية فيثاغورس) ومعرفة بالمبدأ الهندسى المعروف بتشابه المثلثات والى ذلك فان هذه القضية حالة خاصة من حالات تشابه المثلثات الناشئة من انزال عمود من الزاوية القائمة فى مثلث قائم الزاوية على وتره فتكون المثلثان المحدثان على جانبى العمود متشابهين ويشابه كل منهما

(١) ومن تلك الطرق طريقة تضاهى طريقة ارخميدس (القرن الثالث ق.م) وطريقة هيرون الاسكندرى (فى حدود ٦٢ او ١٥٠ للميلاد) فاذا كان (س) الجذر التربيعى للعدد ا وكان | س$_1$ - ب فتكون افرب قيم لجذر | التربيعى هى —

$$س_1 = س + \frac{ب}{2س}$$

$$س_2 = س_1 + \frac{ب}{2س_1}$$

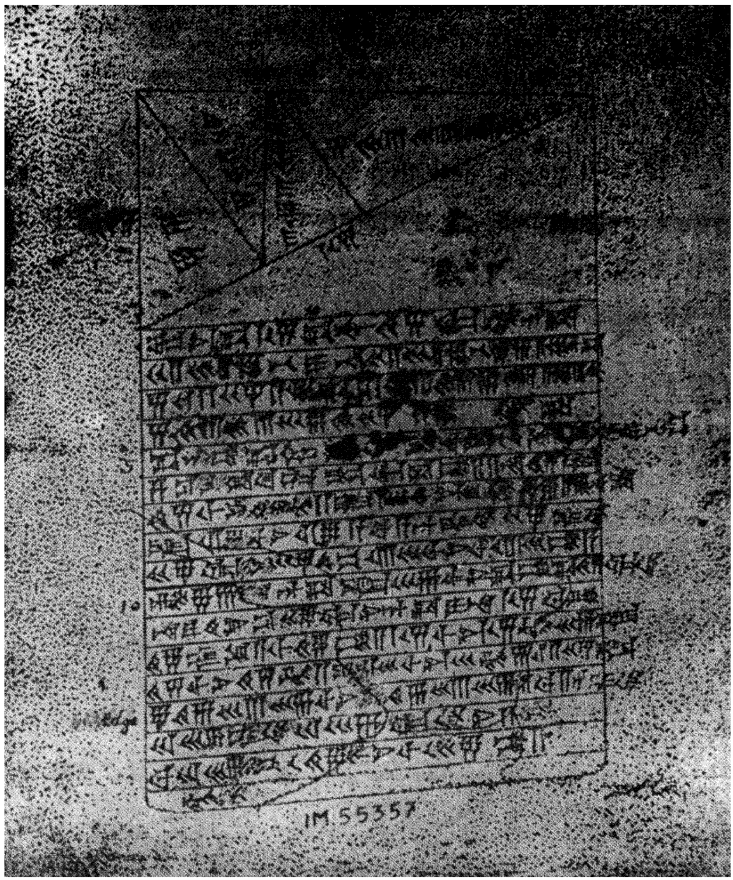

صورة لوح رياضي وجد في تل حرمل وفيه قضية هندسية حمراء
على مبدأ تشابه المثلثات (ويمثل الصورة استنساخ اللوح
من جانب مؤلف الكتاب)

المثلث الاصلى . واذا تذكرتم ما درستموه من الهندسة فى الدراسة الاعدادية وجدتم ان هذه الحالة هى احدى النظريات الهندسية المعروفة المنسوبة الى اقليدس[١] والمستنتجة من نظرية فيثاغورس فى خواص المثلث القائم الزاوية . ولكن تاريخ قضية « حرمل » يسبق زمن اقليدس بـ ١٧٠٠ عام ، اذ يرقى تاريخها الى بداية العهد البابلى القديم (فى حدود ٢٠٠٠ق.م) ومن الطريف ذكره فى هذا الصدد انها وردت فى قضية « حرمل » وقد تفنن بها الرياضى القديم حيث كرر رسم العمود المقام من الزاوية القائمة ثلاث مرات وبذلك انقسم المثلث الكلى الى أربعة مثلثات صغيرة . وبمداعطاء أطوال المثلث الكلى ا حـ = ٦٠ ، ا ب = ٤٥ ، ب حـ (الوتر) = ٧٥ ومساحة المثلث الكلى ومساحة كل من المثلثات الصغيرة الاربعة تطلب مسا الرياضى القديم ايجاد اطوال الاضلاع المقطوعة (انظر الشكل ص ٣٤٦) أى ب ء ، ء حـ الخ ثم اطوال الاعمدة المقامه . اما حل الرياضى القديم فانه على غاية من الوضوح والبراعة وهو يجمع بين مبدأ تشابه المثلثات وبين دستور مساحة المثلث القائم الزاوية ويستخرج من ذلك معادله آتية .

فلاستخراج ب ء مثلا نجد يتبع خطوات يمكن جمعها بالمعادلة

$$ب ء = \sqrt{\frac{ا ب}{ا حـ} \times \text{مساحة } ا ب ا ء \times ٢}$$

$$= \sqrt{\frac{٤٥}{٦٠} \times ٤٨٦ \times ٢} = ٢٧$$

وتحليل ذلك يرجع الى مبدأ تشابه المثلثات . فما ان المثلثين (ا ب ء) و (ء ا حـ) متشابهان (بحسب نظرية اقليدس) فيكون اضلاعهما المتناظرة متناسبة أى $\frac{ا ب}{ا حـ} = \frac{ب ء}{ا ء}$

(١) ونص هذه النظريه كما وضعها اقليدس اذا انزل عمود فى مثلث قائم الزاويه من راويه القائمه على الوتر فان المثلثين المحدثين على جانبى العمود يشابه كل منهما المثلث الكلى ويشابهان الواحد مع الآخر (اقليدس . الكتاب السادس . النظريه الثامنه عن
Hall and Stevens, **A School Geometry**, (1931) Theorem No 66 P 268.

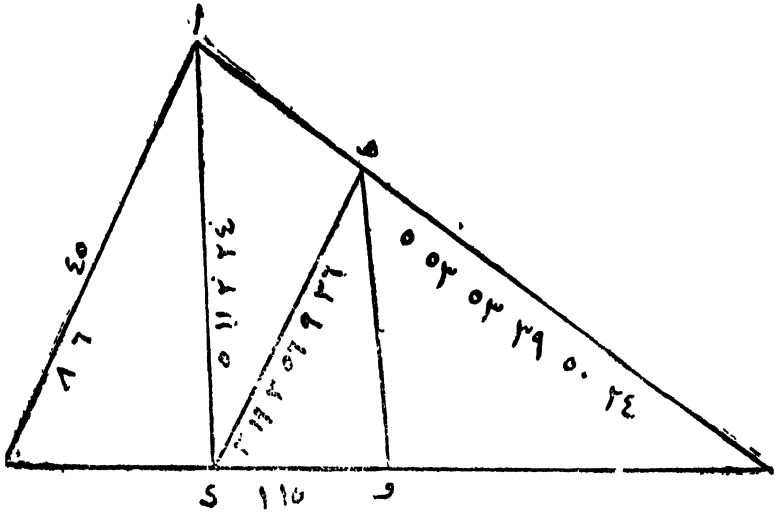

ولكن $\frac{\text{أ ب}}{\text{أ ء}} = \frac{\text{ب و}}{\text{أ و}} = \frac{٤٥}{٨٦}$ ..... (١)

ومن دستور مساحة المثلث أ ب و أى $\frac{\text{ب و} \times \text{أ و}}{٢} = ٤٨٦$ ..... (٢)

واذا ضربنا المعادله رقم ١ بمعادله رقم ٢ ثم ضربنا الناتج فى ٢ حصلنا على

$$\frac{\text{ب و}}{\text{أ و}} \times \text{ب و} \times \text{أ و} = \frac{٤٥}{٨٦} \times ٤٨٦ \times ٢$$

$$\text{أى } (\text{ب و})^{٢} = \frac{٤٥}{٨٦} \times ٤٨٦ \times ٢$$

$$\text{ويكون ب و} = \sqrt{\frac{٤٥}{٨٦} \times ٤٨٦ \times ٢} = \sqrt{٧٠٩} = ٢٧ \text{ تقريبا}^{(١)}$$

---

(١) والبك ترجمه القسم الخاص بهذه العمليه من اللوح الرياضى.
« عند حلك للمساله جد معكوس العدد ٦٠ واضربه بـ ٤٥ (اى قسم ٤٥ على ٦٠) ثم اضرب $\frac{٤٥}{٦٠}$ فى ٢ فتحصل على $\frac{١}{٢}$ ١ ٠ اضرب ١ ، ١ بـ ٤٨٦ (اى مساحه المثلث أ ب د) فتحصل على ٧٢٩ ٠ ما هو الجذر التربيعى لـ ٧٢٩ ؟ ٢٧ هو الجذر التربيعى وهو قيمه ضلع المثلث الاعلى » (اى قيمه

ومن المسائل الطريفة التى تدل على معرفتهم بخواص الدائرة وبمبدأ مشابه المثلثات مسألة تتعلق بحساب ارتفاع قوس الدائرة بعد معرفة طول وتره وطول قطر الدائرة (فكانوا يعرفون ان الزاوية المرسومة فى نصف الدائرة هى زاوية قائمة) • واتبعوا فى ذلك طريقة يمكن وضعها بالمعادلة الآتية :ـ

ع = ½(ق − √(ق² − و²)) باعتبار ان ع = الارتفاع وق القطر و(و) الوتر)ويمكن تفسير هذا الدستور الذى وصل اليه الرياضيون القدماء باستعمال نظرية فيثاغورس فى علاقة مربعات اضلاع المثلث القائم الزاوية

الجبر (١)

لقد اشرنا فيما سبق الى نضج المعارف الحسابية التى بلغها الرياضيات فى العراق القديم وقلنا ان أغلب القضايا الرياضية التى حلوها لنا قد وضعت لتحل بالطرق والمعادلات الجبرية التى عرفوها ، فهى بالدرجة الاولى قضايا فى الحساب وان كان بعضها يدور على الاشكال الهندسية وخصائص هـــذه

(١) مع ان كلمة الجبر العربية وضعها الرياضى الشهير الخوارزمى من اهل القرن التاسع للميلاد فان مبادئ الجبر نفسها أقدم من ذلك بقرون عديدة كما هو واضح من الرياضيات فى العراق القديم • وكان«ديوفنطس» (Diophantos) اليونانى الذى عاش فى الاسكندرية فى القرن الثالث للميلاد اول عربى كتب فى الجبر وسنشير الى الصلة الموجودة بين بعض طرق الجبر ية وبين الطرق الجبرية البابلية • ومما يقال بوجه الاحتمال ان الفضل فى تقدم الجبر الحديث يعود الى البابليين واليهود والعرب أكثر مما يعود الى اليونان الذين تعرف عبقريتهم بعلم الهندسة • ولما كتب الخوارزمى رسالته المشهورة فى الجبر المعنونة « حساب الجبر والمقابلة » واطلع عليها العرب فى القرون الوسطى سموا هذا العلم مختصرا بالكلمة العربية الجبر أى (Algebra) ومنشأ مصطلح الجبر عند الخوارزمى وغيره من رياضى العرب من طرق حل المعادلات الجبرية وهى نقل الحدود من طرف من المعادلة الى طرف آخر بتغيير العلامة السالبة أو الموجبة • واعتبر القدماء هذا النقل أعادة أو تعويضـــا أو صما حددنا اى « جبرا » اما مصطلح المقابلة فيشير الى العملية الجبرية التى توجبها تحذف كمية أو رمز موجود فى طرفى المعادلة بنفس العلامة الموجبة أو السالبة فمثلا فى المعادلة ب س + ٢ جـ = س٢ + ب س − جـ تصبح بالجبر ب س + ٢ جـ + جـ = ب س وبالمقابلة تصير س٢ = ٣ جـ
(An Outline of Modern Knowlege; P. 159)

الاشكال والعرب فى أمر الرياضيات البابلية انها بلغت فى الجبر مرتبة اعلى بكثير مما بلغه فى الهندسة ، بل بوسعنا ان نذهب الى أبعد من ذلك فنقول ان الجبر عندهم[1] كان أرقى مما بلغه اليونان الذين تفردت عقريتهم الرياضية بالهندسة حتى انهم استخدموا الاشكال الهندسية فى حل المعادلات الجبرية وتمثيل حذور الاعداد غير النكاملة بالاشكال الهندسية • وخلاصة القول بلغ الجبر عند البابليين طور العلم الصحيح تقريبا • ومما يقال عما اسداه البابليون فى تقدم الرياضيات أنهم بدأوا فيه البداية الحسنة فى اهتمامهم بالعدد قبل الشكل (أى الاشكال الهندسية) فى حين ان اليونان ولا سيما من بعد فيثاغورس اى ابتداء من القرن الرابع ق.م كرسوا عقريتهم على الاشكال دون العدد ، وبعد هذا انكاسا فى سير تطور الرياضيات وتقدمها ، ولكن رياضى العرب وفيلهم اليهود ان [illegible] الى الاتجاه الصحيح باهتمامهم بعلوم العدد والبحث فى علم الجبر مستقلا واستمر تطور الرياضيات فى أوربة فى القرن السابع عشر للميلاد حيث اهتم الرياضيون بالعدد والهندسة التحليلية اى اخضاع الشكل الى العدد • اى ان العصر الحديث سار من حيث انتهى البابليون واليهود والعرب بعد الوقف الذى طرأ على العلوم الرياضية فى العهد اليونانى •

والواقع ان مهارة رياضى العراق القديم فى الجبر قد انحصرت فى عهد الهندسة اليونانية ، ولكنها عادت الى الظهور فى « الجبر » • (منتصف القرن الثالث

---

(١) ومما نجدر ملاحظته عن طرق الجبر البابلية خلوها من استعمال الرموز التى نستعملها فى الجبر الحديث • والواقع ان استعمال الرموز والحروف لتقوم مقام الاعداد المجردة حديث جدا ولعله لا يتعدى القرن الخامس عشر أو السادس عشر للميلاد وحتى الى القرن السابع عشر للميلاد • ولكن الرياضيين العرب استعملوا بعض المصطلحات المساعدة لتسير العمليات الجبرية فقد استعمل الخوارزمى مصطلح الجذر لمقابل (س) فى الجبر الحديث واستعمل كلمة شىء أصلا والمال لـ (س ٢) والعدد المفرد الحد المالى من المجهول • (انظر فى ذلك « تراث العرب العلمى » ص ٣٢-٣) وانظر حساب الجبر والمقابلة للخوارزمى نشر الجامعة المصرية (كلية العلوم) •

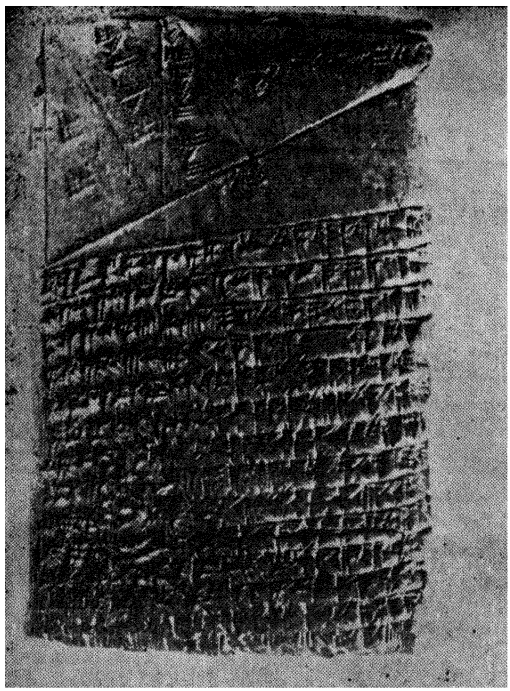

صورة اللوح الرياضى المكتشف فى تل حرمل المستنسخ فى ص ٣٤٤
والمبحوث فيه فى ص ٣٤٥ فما بعد

ق٠م٠) وفى « هيرون » (بين القرنين الاول والثانى للميلاد) وفى عهد الرياضى الشهير « ديوفنطس » (منتصف القرن الثالث للميلاد) ثم اختفت مرة اخرى فى اوربة اختفاء تاما طوال قرون طويلة الى ان احياها العرب ٠

وكان المعتقد الى ١٩٠٠ للميلاد ان واضع أصول الجبر هو الرياضى اليونانى «ديوفنطس» من أهل القرن الثالث للميلاد ٠ ولكن بدأ هذا الاعتقاد يزول منذ ١٩٢٩ حيث أخذت معرفنا بالرياضيات البابلية تزداد ومنها الوثائق المتعلقة بالجبر البابلى وقد أصبح فى متناول ايدينا الآن من هذه

الوثائق ما يشمل زمن الفى عام من أواخر الالف الثالث ق.م الى بداية العهد المسيحى تقريبا ولكن الوثائق المهمة تقع بين ٢٠٠٠-١٢٠٠ ق . م . ومن العهد السلوقى فى العراق ايضا .

وسيتضح مما سنذكره من الامثلة ان البابليين عرفوا أسسا مهمة فى خواص الاعداد وفى العمليات والطرق الجبرية الاساسية ، وعرفوا المعادلات الجبرية الاساسية ، فمن ذلك معادلات الدرجة الاولى بانواعها المختلفة ومنها مانسميه الآن بالمعادلات الآنية (Simultaneous equation) ومعادلات الدرجة الثانية والثالثة أيضا واتبعوا فى طرق حلها عمليات مدهشة لا تكاد تصدق لمطابقتها الطرق الصحيحة الحديثة .

وقد خلفوا امثلة وقضايا غير قليلة على كل نوع من هذه المعادلات . فمن أمثلة معادلات الدرجة الاولى لوح رياضى يحتوى على ٢٢ قضية جبرية غير محفوظة كلها حفظا جيدا الا ان اثنى عشره قضية منها سالمة تقريبا ، من نماذجها القضية التى تسأل : « لقد وجدت حجرة فلم ازنها . ولكن بعد ان أضفت اليها سبعها (سبع وزنها) و [illegible] من وزنها ثم وزنتها فكانت « منا » واحدا . فما هو الوزن الاصلى للحجرة ؟ » ومن هذه المعادلات ما يتضمن مبدأ المتواليات الحسابية كما ان بعضها قد تضمن أحد عشر مجهولا . اما عن المعادلات الآنية فكتفى بقضية حرمل نموذجا لها .

ونأخذ عن معادلات الدرجة الثانية ثلاثة نماذج نتخبها من اللوح الرياضى المهم الموجود فى المتحف البريطانى الذى يحتوى على قضايا رياضية تحل بمعادلات الدرجة الثانية .

فالنموذج الاول يكون فيه معامل $س^2$ ومعامل س الوحدة . فمن ذلك مسألة تقول « لو اضفت مساحة مربع الى طول ضلعه كان الناتج ٣/٤ (فماهو

فاذا فرضنا طول الضلع س فتوضع المسألة بالمعادلة : س^{٢} + س = $\frac{٣}{٤}$ وقد حلها الرياضى القديم بطريقة مهمة تعرف فى الجبر الحديث بطريقة اكمال المربع فوصل بذلك الى دستور لايجاد المجهول وهو س = $\sqrt{(\frac{١}{٢})^{٢} + \frac{٣}{٤}} - \frac{١}{٢}$ = $\frac{١}{٢}$ وذلك لانه اذا أضفنا $(\frac{١}{٢})^{٢}$ الى طرفى المعادلة لاكمال المربع يحدث عندنا : س^{٢} + س + $(\frac{١}{٢})^{٢}$ = $\frac{٣}{٤}$ + $(\frac{١}{٢})^{٢}$ أى $(س + \frac{١}{٢})^{٢}$ = $\frac{٤}{٤}$ أى س + $\frac{١}{٢}$ = ١ وس = $\frac{١}{٢}$ كما فى جواب المسألة . ومن هذا النموذج مسألة تؤدى الى المعادلة : س^{٢} − س = ب . ويتبع فى حلها الرياضى القديم طريقة اكمال المربع أيضا .

والنموذج الثانى الذى ننتخبه عن معادلة الدرجة الثانية قضايا يكون فيها معامل (س) أكبر من الوحدة (أو غير الوحدة) أى من نوع المعادلة .

$$س^{٢} + ب س = ح$$

ونجد الرياضى البابلى يتبع فى حلها أى فى ايجاد (س) المجهول الدستور الآتى :-

$$س = \sqrt{(\frac{ب}{٢})^{٢} + ح} - \frac{ب}{٢}$$

وهو دستور مستند كذلك الى طريقة اكمال المربع ، وذلك لانه اذا أضفنا $(\frac{ب}{٢})^{٢}$ الى طرفى المعادلة س^{٢} + ب س = ح نحصل على

س^{٢} + ب س + $(\frac{ب}{٢})^{٢}$ = ح + $(\frac{ب}{٢})^{٢}$ أى $(س + \frac{ب}{٢})^{٢}$ = ح + $(\frac{ب}{٢})^{٢}$

و س + $\frac{ب}{٢}$ = $\sqrt{(\frac{ب}{٢})^{٢} + ح}$

و س = $\sqrt{(\frac{ب}{٢})^{٢} + ح} - \frac{ب}{٢}$

وفى الرقيم نفسه المعادلة نفسها بتغيير الاشارة أى المعادلة س^{٢} − ب س = ح ويحلها الرياضى القديم بطريقة اكمال المربع أى :

$$س = \sqrt{(\frac{ب}{٢})^{٢} + حـ} + \frac{ب}{٢}$$

والنموذج الثالث الذى نورده عن معادلات الدرجة الثانية قضايا يكون فيها معامل (س٢) اكبر من الوحدة (أو غير الوحدة) ولهذا النمودج من معادلات الدرجة الثانية أهمية تاريخية خاصة • وقد اتبع رياضيو العراق القديم فى حلها طريقين • فالطريقة الاولى ، وهى أقل شيوعا عندهم هى الطريقة المعروفة فى الجبر الحديث بطريقة الارجاع الى الوحدة وهى المتبعة فى الجبر الحديث وترجع فى أصلها الى الرياضى الشهير الخوارزمى اما الطريقة الاخرى ، وهى الاكثر شيوعا ، فهى ان البابليين كانوا يجعلون معامل (س٢) مربعا بأن يضربوا طرفى المعادلة بمعامل (س٢) نفسه • وتشبه هذه الطريقة البابلية الاكثر شيوعا طريقة الرياضى اليونانى «ديوفنطس» الذى أشرنا اليه وتوجد أمثلة أخرى على التشابه الموجود بين الطرق الحسرية عند هذا الرياضى وبين الجبر البابلى •

واذا مثلنا للمعادلة من هذا النموذج بـ $ا س^{٢} + س = حـ$ فتكون طريقة الحل البابلية العامة بحسب الدستور $س = \frac{\sqrt{(\frac{١}{٢})^{٢} + ا حـ} - \frac{١}{٢}}{ا}$

أما كيفية استخراج هذا الدستور فهى ، كما قلنا يجعل معامل $(س)^{٢}$ مربعاً كذلك أى بضرب طرفى المعادلة فى ا فينتج $ا^{٢} س^{٢} + اس = ا حـ$ وباضافة $(\frac{١}{٢})^{٢}$ الى طرفى هذه المعادلة لتكميل المربع ينتج عندنا

$$ا^{٢} س^{٢} + اس + (\frac{١}{٢})^{٢} = ا حـ + (\frac{١}{٢})^{٢}$$

$$أى (اس + \frac{١}{٢})^{٢} = ا حـ + (\frac{١}{٢})^{٢}$$

$$واس + \frac{١}{٢} = \sqrt{ا حـ + (\frac{١}{٢})^{٢}}$$

$$أى س = \frac{\sqrt{ا حـ + (\frac{١}{٢})^{٢}} - \frac{١}{٢}}{ا}$$

ومن هذا النموذج أيضا قضايا يكون فيها معامل $(س^{٢})$ وكذلك معامل

(س) أكبر من الوحده (او غير الوحدة) أى من شكل المعادلة الآتية :
أس^{٢} + ب س = حـ ٠ وقد حلها الرياضيون البابليون بالدستور الآتى :ـ

$$س = \frac{\sqrt{\left(\frac{ب}{٢}\right)^{٢} + أ حـ} - \frac{ب}{٢}}{أ}$$

وكيفية استخراج هذا الدستور لا تختلف عما سبق أى بطريقة جعل معامل (س)^{٢} مربعا وطريقه اكمال المربع أى :

أ^{٢}س^{٢} + أ ب س = أ حـ (بضرب طرفى المعادلة فى أ) وباكمال المربع باضافة $\left(\frac{ب}{٢}\right)^{٢}$ الى طرفى هذه المعادلة نحصل على

$$أ^{٢}س^{٢} + أ ب س + \left(\frac{ب}{٢}\right)^{٢} = أ حـ + \left(\frac{ب}{٢}\right)^{٢}$$

$$\text{أى } (أس + \frac{ب}{٢})^{٢} = أ حـ + \left(\frac{ب}{٢}\right)^{٢}$$

$$\text{أى } أس + \frac{ب}{٢} = \sqrt{أ حـ + \left(\frac{ب}{٢}\right)^{٢}}$$

$$س = \frac{\sqrt{أ حـ + \left(\frac{ب}{٢}\right)^{٢}} - \frac{ب}{٢}}{أ}$$

و وسعنا ان نستنتج من هذه الطرق فى حل معادلة الدرجه الثانية ان الرياضيين البابليين كانوا يعرفون الدستور الرياضى الخاص بمربع مجموع عددين ومربع الفرق بين عددين على الرغم من عدم الرموز لديهم أى

$$(أ + ب)^{٢} \text{ و } (أ - ب)^{٢}$$

وقد وردت بعض الحالات الطريفه فى معادلات الدرجه الثانيه شبيه الحالات التى أشار اليها الخوارزمى مثل المعادله س٢ + ٢١ = س حيث تكون لها حلول (٣و٧) بالزياده والنقصان ولا توجد لها حالة ثالثة اى حواب الث وشبيه هذه الحاله ما ورد فى رقيم رياضى فى المتحف البريطانى بسع فى حل مثل هذه المعادله (اى س٢ + جـ = ب س) حاله الطرح ، اما حاله الجمع فقد ظهر لهم انها تؤدى الى سحه مستحيلة ٠

وجاءنا من معادلات الدرجة الثالثة بعض القضايا فى رقيم مهم فى

المتحف البريطانى • ويدور بعض هذه القضايا الحربيه على الأبعاد الثلاثة لاشكال مجسمه (حفر أو قنوات) وبعض الحجوم الرباعيه امواريةالسطوح•

وللامثله على معادلات الدرجه الثالثه البسطه فى الحبر البابلى سحب مسألة[1] تتعلق بالعدد ومعكوسه اى العددان اللذان يكون حاصل ضربهما ٦٠ •

« يريد عدد على معكوسه ٧ فما العدد وما معكوسه ؟

« عليك ان تنصف ٧ الذى يزيد به العدد على معكوسه فتحصل على ٣½ • أضرب ٣½ فى ٣½ فتحصل بدورك ١٢¼ أضف الى ١٢¼ الذى ينتج بالضرب ٦٠ (اى حاصل ضرب العددين) فتكون النتيجه ٧٢¼ • ما هو الجذر التربيعى لـ ٧٢¼ ؟ الجذر التربيعى هو ٨½ • ضع ٨½ امامك واطرح من احدهما ٣½ (وهو نصف المعامل الذى يزيد) وأضف الى الآخر ٣½ ، فيكون ناتج الأول ١٢ وناتج الثانى ٥ فيكون ١٢ العدد و٥ معكوسه •

ولنفسر خطوات الرياضى العبقرى نرمز ان العدد س ومعكوسه ص ، ويكون بحسب الفرض س ص = ٧ وس ص = ٦٠ ويحصل من ذلك على المعادله س (س + ٧) = ٦٠ أى س^٣ + ٧س = ٦٠ ومنها •

$$س ، ص = \sqrt{(\frac{٧}{٢})^{٢} + ٦٠} + \frac{٧}{٢}$$

وخلفوا لنا طريقه فى حل معادلات الدرجه الثالثه بعد على قدر عظيم من المهارة والأهميه فهى معادله مثل س^٣ + ب س^٢ = ح كانوا يصيرون حدود المعادله بـ $\frac{١}{ب^{٣}}$ فتصير $\frac{س^{٣}}{ب^{٣}} + \frac{ب س^{٢}}{ب^{٣}} = \frac{ح}{ب^{٣}}$ فاذا عبرنا عن $\frac{س}{ب}$ بـ د وعن $\frac{ح}{ب^{٣}}$ بعدد معلوم هو ع فتكون المعادله الشكل الآتى د^٣ + د^٢ = ع وكانوا يستخرجون قيمه د من جداول خاصه بمجموع مكعبات ومربعات الاعداد هيأوها لهذا الغرض • وهذه براعه مدهشه فى

(١) المثال المأخوذ من
O Neugebauer and A Sachs , **Mathematical Cuneiform Texts** (1945) P 129 — 30

الاحتمال الحبرى (انظر مجلة «سومر» ١٩٥١ ، ص ١٥٤) •

ان الامثله التى أوردناها عن الجبر فى العراق القديم تكفى لتكوين صوره عند الطالب عن العلوم الرياضية التى اوجدها سكان العراق الاقدمون، فلن يطيل الكلام اكثر من ذكر طريقة اتبعها الرياضيون القدماء فى حبرهم لمثل المجهول فى المعادلات الحبرية حيث لم يهتدوا الى استعمال الرموز المستعمله فى الجبر الحديث ويعرف هذه الطريقة بالوضع الكاذب (False Position) وفحواها تمثل المجهول بالوحده كما تفعل المبتدئون الآن بالرياضيات قبل دراستهم الجبر • وقد كانت هذه الطريقة شائعة فى اوربة فى العصور الوسطى • ومع ان ذكاء الرموز عند رياضى العراق القديم الا أن براعتهم الحبريه قد مكنتهم من القيام بكثير من العمليات الحبرية المألوفة لدينا مثل احتمال الحدود المماثله ، وحذف كميه مجهوله بالتعويض وادخال كميه مجهوله مساعده • (ولأمثله على ذلك وتحليلها أنظر بحث المؤلف فى مجله سومر المجلد ١٩٥١ ، الجزء الثانى الص ١٥٢ فما بعد) •

لقد دلنا ان الجبر عند البابليين بلغ مرتبه العلم نظريا • والسبب فى وصفنا هذا الحكم الذى نظريا هو ان حل ما جاءنا من المسائل الجبريه هى امثله كثيره ولم يحلوا لنا قاعده عامه اى انهم عرفوا حل أنواع من المسائل التى تؤدى حلها الى أنواع مختلفه من المعادلات الحبريه الا انهم لم يحلوا لنا ما شبه وضع القواعد العامه أو البراهين على نحو ما هو معروف فى الرياضيات الجديده والرياضيات العربيه • ومهما يكن من أمر فان المسائل الحبرية التى حلوها على أنواع المعادلات المختلفه تشير الى أنهم كانوا يعرفون القواعد العامه فى افكارهم وان ما جاءنا من الفصائل الحبرية ما هى الا مسائل وتمارين مدرسيه حلت بموجب القواعد التى كانت معروفه عندهم ، وانهم لم يذكروا هذه القواعد العامه فى الحل لان حال المسألة لا يتطلب منه أن يذكر البرهان أو الدستور أو القاعده التى حل بموجبها ، هذا كما هو متبع فى الوقت الحاضر

لو حل طالب حديث مسألة حربه على قاعدة اكمال المربع مثلا أو انه اتبع الدستور العام .

والامر المدهش في تصلع رياضي العراق القديم بعلم العدد انهم لم يحشوا الاعداد السالبة ، وهذا شيء مدهش لا سيما اذا علمنا ان فكرة الكمية السالبة لم تدخل في عقول رياضي العرب الا الى زمن القرن الثالث عشر للميلاد وقد افضى بطور الفكره وتموها قرونا اخرى[1] .

الفلك :

من الامور المجمع عليها في تاريخ المعارف البشرية أن البابليين هم الذين أسسوا علم الفلك ، وقد اشتهر الفلك البابلي شهرة عظيمة بين الاغريق حتى أن أسماء من مشاهير الفلكيين البابليين قد عرفوها وترجموا عنها فمن دلك الفلكي البابلي « سوزانوس » و « كيدنو » (٣٦٧ أو ٣٤٠ ق . م) ، الذي يحق أن يوضع اسمه مع علماء الفلك المحدثين امثال « كبلر » و « كوبرنيكوس » و « غاليلو » . والواقع ان العراقيين الاقدمين قد عنوا بملاحظة الاجرام السماوية في سماء العراق الصافية منذ أقدم الازمان ، وعندما بدأوا يدونون ملاحظاتهم واصادهم وحساباتهم منذ العهد الاكدي والعهد البابلي القديم انتقلوا من طور المعرفة العملية الى طور علم الفلك الحقيقي . ومن الاقوال الشائعة، ان منشأ علم الفلك البابلي من التنجيم ، اي رصد النجوم لتأثيرها في طبائع البشر ومصايرهم ، ولكن دلك وهم كبير اذ الواقع ان العكس هو الصحيح وأن الفلك نشأ من حاجاتهم لضبط الفصول والزمن والتقويم[2] . هذا وقد رأس في مبحث الرياضيات مبلغ ما وصلوا اليه في المعلومات الرياضية الواسعة الدقة أي أنهم وضعوا الاسس الرياضية التي لا يمكن ان تكون هناك علمي بدونها فساعدهم ذلك في تقدم بحوث الفلك حتى أنهم كثيرا ما استدلوا الملاحظة المباشرة والارصاد بالحساب وتصدق هذا

(١) (1) Sarton, **Op. Cit.**, ch III, P 73

(٢) انظر البحث الخاص بالتنجيم في ديانة العراق القديم

بالدرجة الاولى على العهود المتأخره حيث نشأ الفلك الرياضى وقد اشتهر من الفلكيين فى العهد السلوقى فى العراق فلكى اسمه « سلوقس» الذى قال بان الشمس مركز الكون كما انه علل المد بانسياب علمه وارجعها الى اثر القمر وهذا أمر يدل على تقدم علم الفلك عندهم ونضجه • ومن الاشياء المدهشه حقا ان الفلكيين فى الوقت الحاضر لم يستطيعوا أن يدعوا شأو الفلكيين البابليين فى كثرة ارصادهم وطول زمنها فان أطول أرصاد فى الوقت الحاضر هى التى بدأت فى «غرينوش» فى العام ١٧٥٠ ، ولكن طول هذه الارصاد لا يمكن ان يقاس بالارصاد البابليه التى اشتهرت قرونا طويله مند أقدم العهـــود وكانت هذه الارصاد الاساس الذى اسست عليه القواعد العامه لعلم الفلك، واستعملوا فى ارصادهم الفلكيه طرقا فنيه تستحق الذكر ومن ذلك توعاس الآلة التى سميها بآله « البرابرت »•وقد استعمل الملك الاشورى «توكلتى- نورتا» الاول (١٢٦٠-١٢٣٢ ق • م) مثل هذه الآلة عند بنـاء قصره فى اشور[١] ، ومع ان البرج المدرج «الزقوره» قد بنى لاغراض دينيه بالدرجه الاولى الا انه كان بالامكان استعماله أيضـا لرصـد الاجرام الســماوية ، فاستفادوا منه للاغراض الفلكية •

لقد قسم البابليون اليوم الفلكى الى ١٢ قسما كل قسم يساوى ساعتين مضاعفتين من ساعاتنا ، والساعه الى ٣٠ جزء اى أن يومهم الفلكى كان مقسما الى ٣٦٠ قسما متساويا، كما ان فى السنه الواحده ٣٦٠ يوما ، فكانت الدقيقة تساوى أربع دقائق من دقائقنا ، وقد جاءنا هذا التقسيم من السلاله الاكدية • ومما يقال عن اليوم فى العراق القديم أنه كان يستند بالدرجه الاولى الى الشهر القمرى ، وقد مروا بين الشهور القمريه المؤلفة من ٢٩ يوما ومن ٣٠ يوما بصوره متعاقبه ، وكان معدل مدة اثنى عشر شهرا قمريا (٣٥٤) يوما أى أقل من السنه الشمسيه بنحو ١١ يوما ، واذا جعلوا سنتهم ثلاثة عشر

[١] A T Olmstead, "Babylonian Astronomy" in **American Journal of Semitic Languages,** (1938), 113 ff

شهرا قمريا كان معدل طولها (أى ٣٨٤ يوما) أكثر من السنه الشمسية من الناحية الاخرى . ولتلافى الاسحام بين الدوره القمرية والدورة الشمسة استعملوا اسى عشر شهرا قمريا وكانوا يكسبون شهرا ثالث عشر عندما يضاء الحاجه، وقد قاموا بذلك منذ عهود قديمه ، ففى عهد سلاله اور الثالثة مثلا كان ذلك الاضافات يعاد فى دوره كل سنتين سنوات . وقد صار هذا التقويم السالى نموذجا لاقباس شعوب اخرى كالتقويم اليهودى والتقاويم البوذيه والرومانيه قبل ادخال التقويم الجولياني (فى ٤٥ ق.م) ولا يزال اثر التقويم البابلى ملحوظا فى تقويم الكنسة . وقبل ان نترك هذه الملاحظات على التقويم البابلى يجدر قصة تأريخيه مهمة هى أصل الاسبوع ، ومع ان اختراع الاسبوع يعزى فى أصله الى العراق القديم ، الا أن أصله معقد ويرجع الى أكثر من مصدر واحد . فقبل ان الشهر القمرى انقسم بواقع تقاويم فى امكان تقسيمه الى مدد بحسب اوجه القمر . وكان سكان العراق القدماء يعلقون أهميه خاصة باليوم السابع والرابع عشر والواحد والعشرين والثامن والعشرين من الشهر من ناحية السعد والنحس . وهكذا قسموا الشهر بصوره عمليه الى أربعه أسابيع ، ولكن كانت أسابيعهم غير متساويه فى بعض الاحيان اسابيعا . وتطورت فكره الاسبوع من بعد ذلك فى القرون القليلة الاخيره قبل المسيح وصار اسبوع متساويا يتجمع من امكنه اليابانيه واليهودى وقصه خلق العالم فى ستة أيام كما جاء فى التوراة (الخروج : ٢٠ : ١١) والساعات المصريه . وكذلك قسموا دائره السماء الى ١٢ ساعه من ساعاتهم و٣٦٠° وقسموا سمت الشمس أو دائره البروج (Ecliptic) الى اثنى عشر قسما بواسطه نجوم البروج وسموا كل قسم بنجم من تلك النجوم ، وهذا ما يعرف بالبروج الاثنى عشر (Zodiac) ومثلوا كواكب تلك البروج بعلامات ورموز هى التى ورثها العالم عن البابليين وبموجب هذا النظام قسم البابليون السنه الشمسيه الى اثنى عشر قسما تقابل كل قسم شهرا و٣٦٠ درجه ولا يزال تقسيم الدائره الى ٣٦٠ درجة مستعملا الى هذا اليوم ، وتكون الشمس فى

كل شهر فى جزء خاص من السماء أو فى برج خاص من البروج الاثنى عشر وقسموا كل برج الى ٣٠ درجه بطابق عدد أيام الشهر . واتخذ الرياضيون الفلكيون هذا النظام البابلى فى جميع الازمان ، وقد استعمل البابليون فى فلكهم أقصى ما وصلوا اليه من المعلومات الرياضية ، حتى انهم استخدموا الموازين الهندسيه والحسابيه فى تعيين مده اليوم والنهار واطوالهما بالنسبه للفصول الاربعه ، وكذلك استعملوا الموازين الحسابيه المتصاعده والمتناقصه فى معرفه ازمان طلوع القمر وغروبه وكذلك فى رصد بعض الكواكب مثل كوكب الزهره . وقد جاءنا ارصاد مطوله عن هذا الكوكب من زمن سلالة بابل الاولى ، وتشير الاخبار الى أن الحركه العلميه فى الارصاد الفلكيه اشتدت منذ العهد البابلى القديم كما ذكرنا فقد وصل الفلكيون منذ ذلك العهد الى ارصاد مضبوطه عن ظهور النجوم الثوابت وغروبها فى كل عام ، وكذلك أتموا الاسطرلابات وحسبوا ابعاد النجوم بالدرجات وعندما ظهر فن الاسطرلاب[1] عند البابليين منذ الزمن البابلى القديم بدأ العهد العلمى فى الفلك البابلى ، وقد سبق هذا العهد ازمان المعارف العمليه والتجارب والملاحظات . وكان الاسطرلاب أول محاوله علميه فى تاريخ البشر لوضع المعلومات الفلكية عن النجوم التى تظهر فى الفصول المختلفه من السنة فى نظام وترتيب علميين . والاسطرلاب المألوف عباره عن تسع علمى عدد من الكواكب (٣٦ كوكبا) من الكواكب التى تظهر فى الاشهر الاثنى عشر وقد خصصوا لكل شهر ثلاثة نجوم تظهر فيه . وقد جاءنا بعض هذه الاسطرلابات على هيئه قرص دائرى رسم الكواكب فيه فى ثلاث دوائر داخل مركز واحد وقسم القرص الى اثنى عشر قطاعا كل قطاع لشهر من الاشهر وخصص

(١) انظر البحث القيم المنشور فى المرجع الآتى :ـ
O. Neugebauer, „The History of Ancient Astronomy" in **Journal of the Near Eastern Studies**, vol IV (1944), 1 ff

لكل قطاع الكواكب الثلاثة التى تظهر فيه • ومن الارصاد المهمة التى جاءتنا عن البابليين الارصاد الخاصة بالزهرة اشهرها التى جمعت فى أيام الملك البابلى «امى صادوقا» (الملك العاشر من سلالة بابل الاولى) فلقد رصد الفلكيون من ذلك العهد أول ظهور لها فى مغرب الشمس وشروقها وطول مدة اختفائها مرقمين ذلك السؤات الملائمة لكل حاله ، كما عرف الفلكيون البابليون مدة اقتران الزهرة وقدروها بـ ٥٨٤ يوما ، وكانوا عارفين بمدة الثمانى سنوات التى تظهر فيها الزهرة خمس مرات فى نفس المواضع ، كما شاهد من الأرض • وحسبوا مدة قران عطارد بخطأ لا يتعدى الخمسة ايام (فقد كان تقديرهم لـ ١١١ يوما والمدة الصحيحة ١١٥٫٨) •

واستعمل البابليون آلات خاصة لقياس الزمن • وهى الساعات المائية لقياس اجزاء الليل والساعات الشمسية او المزاول لقياس ساعات النهار • ولعل هيرودوتس أصاب الحقيقة عندما قال : « تعلم الاغريق الـ « يومون » والـ « بولوس »[1] وتقسيم اليوم الى اثنى عشر قسما من البابليين » • و «اليومون» التى المرويه التى أشار اليها هيرودوتس نوع من الساعات الشمسية، مبدؤها اعتلال التى يشيرها ميل مست على قرص • اما «البولوس» ، فهو كذلك من الساعات الشمسية لقياس الزمن نهارا • وكانت هذه عبارة عن نصف كرة مجوفة في مركز جوفها سفق (ميل) ترسم نهايه ظلها على الحوائط الداخليه المدرجه لنصف الكره حسب سير الشمس • وقد استخدموا طريقه جريان كميات معلومه من الماء فى اناء مدرج لمعرفه اجزاء الليل اى ساعات الليل • وقد استخدم بعض ولاسفه اليونان وعلمائهم جداول الارصاد البابليه لمعرفه الكسوف والخسوف قبل حدوثهما ، وقد اثر ذلك تأثيرا بالغا فى الاتجاه العلمى عند اليونان وغيرهم من عقائدهم بالنسبة الى الظواهر الكونية، وهذا مثال آخر على اتصال اليونان بحضارات وادى الرافدين • وسنرى من

(1) Polos & gnomon

بحثنا فى تاريخ اليونان ان علم اليونان وفلسفة اليونان قد بدأ بين جماعة منهم يعرفون بالايونيين فى السواحل الغربية من آسيه الصغرى • واشتهرت من هذه المستوطنات اليونانيه « ملطية » عاش فيها فى القرن السادس ق.م• جماعه من العلماء والمفكرين يعدون مؤسسى علم اليونان وفلسفتهم وكان على رأسهم طاليس • وقد استطاع هذا ان يحدث اثرا عظيما فى آراء قومه فى ظواهر الكون الطبيعه ، فقد استخدم طاليس الارصاد الفلكية البابليه وتنبأ لاهل مدينه بوقوع الخسوف والكسوف قبل وقوعهما فاستطاع ان يبرهن لهم ان مثل هذه الظواهر تحدث بموجب قوانين طبيعيه وليس بتأثير الشياطين والارواح أو القوى العلويه • وملخص القول ان فلكى العراق القديم قد اسسوا العلم العلمى ، ولولا هذه الاسس لما امكن للفلكيين المتاخرين كاليونان أن يصلوا الى نتائجهم المهمه ، والمرجح كثيرا انهم اثروا ايضا فى أمم شرقيه أخرى كثيره كاليهود والايرانيين والفينيين •

العلوم الطبيعيه والمعارف الصناعية الفنيه : ــ

لقد ألمحنا فيما سبق الى ان معارف العراقيين الاقدمين عن الكون والطبيعه قد بدأت منذ نشوء الحضاره السومريه فى بدايه الالف الثالث ومما لا شك فيه ان بذور تلك المعارف قد تاصلت فى الاطوار التمهيدية التى سبقت نشوء الحضاره ، ويصدق ذلك على العلوم الطبيعيه كالعلوم التى تناول حياه الحيوان والنبات (نباتا وحيوانا ، بكلا قسميها ، علم الحيوان (Zoology) وعلم النبات (Botany) • وابتدأ أصحاب المعرفه من الكتبة والكهنة والمعلمين يجمعون هذه المعلومات ويدونون فيها منذ نهايه الالف الثالث ق.م• اى منذ بدايه العصر البابلى القديم • وقد حللوا لنا جداول واثباتا مهمة فى الحيوان والنبات والاحجار • ومع ان هذه الاثبات كانت كلما قلنا سابقا تحقق أغراضا لغوية أيضا ولكنها فى الوقت نفسه معارف مهمه عن عالم الحيوان والنبات وعن المعادن والاحجار كما سنذكر فى موضوع الكيمياء •

ومما يشير الى أنهم بدأوا بطور العلم أنهم تناولوا اهم نقطه من نقاط هذه البحوث وهي التصنيف (Classification) اى تصنيف عالم الحيوان والنبات الى مجموعات وأصناف وتدل على معرفتهم بعالم الحيوان والنبات حمله وثائق متنوعة حيث خلفوا لنا اثارا متنوعة بالحيوانات والنباتات ، والغالب في هذه الاثار انهم يكتبونها بحملين ، يوجد في حمل المصطلح السومرى وفي الحمل الثاني المصطلح البابلي[1] وقد اثبت البحث الحديث ان اسماء حملة من النباتات بالانجليزيه اصلها من الاسماء البابليه مثل

(kasù), cassia (kuṣ- hicory (kamúnu), Cumin (kurkànu), Crocus (zùpu), hyssop (murru) myrrh (lardu) nard

والمهم في محاولاتهم ليس الدقة ومطابقتها لما وصلت اليه العلوم الحديثه ولكن الاهمية تكمن في انهم بدأوا في منهج البحث العلمي وكان عندهم في تصنيف الحيوان والنبات انهم كانوا يرمزون لكل صنف باسم عام او رمز يطلق ، بحسب الطريقه المسمارية ، على ذلك الصنف مثل صنف الاسماك والحيوانات المتسلله وصنف الاغاعى والطيور ودواب الاربع وكانوا اذا أرادوا التعبير عن فرد من هذه الانواع و الاصناف يعلمونه برمز الصنف العام ، ويكتبون ذلك حين الحيوان او انسان قبل الاسم او بعده وميزوا من بين الاصناف العامة أنواعا أو أجناسا مختلفه ، وكانوا في حالات كثيرة يحشرون عدة أفراد وان لم يكن فيما بين بعضها شبابه أو علاقه فدرجوا مثلا بحث جنس الكلب الذئب والضبع و لاسد أيضا ، وبحث جنس الحمار الفرس والجمل ، وعدوا جميع ما يعيش في الماء بحث صنف السمك وكذلك دوات الاصداف والسلاحف . وميزوا في عالم النبات أنواعا

(١) للمؤلف بحوث في اسماء النباتات والاعشاب اوردها في المصادر المسمارية نشرت في مجله سومر (المجلد ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣) انظر ايضا المراجع الآتيه ـ

(1) C Thompson, **The Assyrian Herbal** (1924) .

(2) ————, **Dictionary of Assyrian Botany** (1947).

(3) Landsberger, **Die Fauna des alten Mesopotamien** (1934)

وأجناسا من الاشجار والحصروات والاعشاب واحبوب وصنفوا هذه الى مجامع متشابهة فى أشكالها وأثمارها ، وميزوا فى بعض الاشجار جنسى الذكر والانثى ، مثل النخيل . وقد أخطأ هيرودوتس فى عد اصل هذه المعرفة من الاغريق ، وسنذكر فى مبحث الطب استعمال النبات والاعشاب والحيوان والمعادن فى أدويتهم .

الكيمياء :ـ

ابتدأت معرفتهم العمليه الناضجه فى الكيمياء منذ أن عرفوا التعدين ، وسبق التعدين صنع الفخار الذى تعلموا منه أشياء مهمة عن خواص المواد وتأثير الحراره وخواص الطين وغير ذلك . وعندما بدأوا يروفون أوانى الفخار ويصنعونها زادت معرفتهم ببعض المواد الكيماويه ايضا ، وكذلك عرفوا فى طور المعرفه العمليه فى الانتقال الثالث طريقة الترجيح وصنع البخور من العنصرين واللذان الكيماوى ، فعرفوا فى هذه الصناعات قابلية السائل للتماوج للانصهار كما هو الحال فى المعادن ، ومن هذه الطريقة صنعوا نوعا من الزجاج المعتم ، وعرف العراقيون الاقدمون خصائص معادن كثيره قبل عصور فجر السلالات وازدادت معرفتهم فى عصور فجر السلالات فقد صنعوا البرونز منذ عهد جمدت نصر وانتشوا بعدين البرونز فى عصور فجر السلالات ، وكذلك انتشوا مزج المعادن (Alloy) فصنعوا بهذه الطريقة مثلا معدنا مريحا من الذهب والفضه وهو (الالكترون (Electrum) وقد خلف لنا السومريون من العصر الموكه فى ورق سبيح حملته من الاوانى المصنوعه من هذا المزيج . وكانت بعض المعارف العمليه البسيطه فى الفيزياء والكيمياء العمليه قد حصلوا عليها من صهر المعادن وسبكها وسبكها . كما برعوا فى فن السبك والصب وصنع السلاسل منها بدرجه كبيره من المهاره ، وصنعوا سبائك قويه من النحاس بخلطه بالرصاص والانتمون ، وخلطوه كذلك بالقصدير ، بحيث انهم استبدلوا النحاس العرف بانواع مخلفه من البرونز . واستعملوا الحديد بقلة فى العصور القديمه ، ولم يشع استعماله بكثره الا بعد الالف الاول ق.م وشاع كثيرا فى العهد الاشورى الحديث ، فمثلا حرص

سرجون الثاني الاشوري (٧٢١ ـ ٧٠٥ ق ٠ م) في قصره في خرسباد كميات كبيرة من الحديد لصنع الاسلحة وقد عثر في التنقيبات هناك على كتلة من الحديد الممتاز المصنوع تقدر بـ (١٦٠٠٠٠) كيلو غرام ٠

ان هذه المعلومات العملية المهمة ، حدت بالبابليين فيما بعد الى التحريه في المعادن والبحث فيها ، فقد فكروا مثلا في صنع المعادن الثمينة وتحويل المعادن الخسيسة الى معادن نفيسة وهذا هو « السماء » الذي سعى عليه الكيمياء الحقيقي ، وقد وصلوا بمحاولاتهم تلك الى معلومات مهمة عن خواص المعادن وبعض الطرق الكيماوية المهمة ٠ ولم تقتصر محاولتهم في تحويل المعادن على الذهب بل تناولوا بعض الاحجار المهمة عندهم مثل حجر اللازورد (lapislazuli) وحصلوا بطرق اسموه والتقليد على أشياء مقلدة تشبه المواد التي حاولوا صنعها ، ويوسعنا ان نحشر في هذا الموضوع المعلومات الثمينة التي وصلوا اليها في صنع الاصباغ وصنع العقاقير والادوية والصابون والعطور والجعة والمشروبات الاخرى والسبب المرجح واستحداث ذلك في الصنع والرسم وكذلك في ترجيح الآجر والفخار ٠

ومع ان معظم هذه الصناعات الكيماوية عملية الا انه جاءنا من العراق القديم بعض المؤلفات والكتابات في الكيمياء ووجد من ذلك نسخ في خزانة كتب الملك الاشوري « اشور بانيبال » وهي في الشك نسخ عن أصل أقدم وجاءتنا مؤلفات مهمة عن صنع الزجاج والترجيح اقدمها من القرن السابع عشر ق٠م[1] ووجد صعوبات في فهم المؤلفات الكيماوية ناشئة عن جهلنا بتعيين المواد المذكورة في تلك المؤلفات وبلاس وصف العمليات

(١) نذكر من ذلك نص مهم من عهد الملك المسمى « حولبسار » (من القرن السابع عشر ق٠م) نصف العملية الخاصة بصنع نوع من الزجاج من النحاس والرصاص لطلي الاواني الفخارية ، وكيفية صنع جسم احمر مع الطين المخلوط بالزنجار (كبريتات النحاس) (وهذا اللوح موجود في المتحف البريطاني انظر نشره والتعليق عليه في مجلة (Iraq) المجلد الثالث (١٩٣٦) الص ١١ فما بعد)

الكيماوية فى بعض المؤلفات الطرق الدينية والسحرية،وقد خلفوا لنا وصفة كيماوية فى عمل حجر اللازورد أى تقليد الحجر الطبيعى ووصفة فى عمل الرجاج والترجيج والمسا • وجاءنا من مؤلفاتهم المتأخرة انهم كانوا يحصلون على النار بطريق القدح بالصوان ولكن خواص الكبريت الطبيعى كانت معروفة لديهم ويرجح بعض الباحثين انهم عرفوا صنع نوع من الثقاب (أى الشخاط) • وعرفوا بعض الطرق الكيماوية كالتصعيد واستخرجوا بذلك ما يسمى بالسليمانى المصعد والرئبق وذلك عن طريق استخراج ملح الامونيا من السماد المحروق ثم اكتشاف الرئبق واستخراجه من الزنجفر وهو كبريت الرئبق الاحمر الموجود فى منطقة كركوك وبعض المواضع فى كردستان • وعرفوا الرصاص الابيض (اى كاربونات الرصاص) وهو الناتج من تفاعل الخل مع الرصاص وبالتسخين استخرجوا الرصاص الاحمر • ومن الامور المهمة التى وصل اليها الباحثون حديثا هى ان البابليين خلفوا لنا وصفة فى استعمال الذهب فى الرجاج لاستخراج الزجاج الارجوانى واستنتج هؤلاء الباحثون أنهم عرفوا التراب أو «الماء الملكى» الذى يذيب الذهب ، وهو الحامض الذى استخرجه الكيماوى العربى جابر بن حيان فى القرن الثانى للهجرة • وقد استخدموا معارفهم فى الكيمياء فى استخراج الادوية المعدنية وذكروا لنا ما لا يقل عن ١٢٠ نوعا من أنواع هذه المواد المعدنية المستعملة فى الطب[١] •

الطب :

ومما نقال عن الطب القديم ان القوم مع ما وصلوا اليه من معلومات مهمة الامراض وتشخيصها ومعرفة بالعقاقير وتركيبها واشياء عن الجسم الانسانى والجراحة ، فان الطب عندهم بقى يخالطه الكثير من العمليات السحرية كاستعمال الرقى والتعاويم ، ومنشأ ذلك بالدرجة الاولى الاعتقاد بمصدر

(١) C Thompson, **Dictionary of Assyrian Chemistry.**

الامراض التي تسببها الشياطين والارواح[١] . ومصدر الطب عند العراقيين القدماء مثل غيره من المعارف البشرية الاخرى من الاله التي يرجع اليها في الشفاء والتطبب . وكان الاله الذي خصصوه للطب والاطباء هو الاله الحكيم « ايا » الذي سبق ان ذكرنا علاقته بالماء وانه كان سيد المياه ، ولهذا السبب ولانهم استعملوا الماء في الطب فقد سموا الطبيب بكلمة معناها العارف بالماء (وباللغة السومرية «آزو» ومنها الكلمة البابلية «آسو» ، التي استعملت في معظم اللغات السامية ومنها الكلمة العربية «الآسي»)[٢] . ومن الآلهة التي خصوها بالطب والاطباء ايضا الاله المسمى «نازو» (ومعنى اسمه سيد الحكماء والاطباء) وله ابن خاص كان يلقب بالطب هو الاله « نحشرندا » . ومن الطريف في امر هذا الاله بعض الرموز المقدسة الخاصة به وهي العصا الملتفة عليها حية أو حيتان . وهذه هي الشارة المتحدة عند الاطباء في العصور الحديثة ومنشأ هذه الشارة اعتقادهم ان الحية رمز الحياة الدائمة لانها لا تموت وانما تخلع جلدها كل عام فتعود اليها الشباب[٣] .

(١) والواقع ان قسما كبيرا من الشر لم يتعلل من طور التسحر والرقى الى طور الطب الخالص في الحضارات القديمة ومما تجدر ذكره ان الانسان الحديث لم يزل كذلك في طبه الى عهد غير بعيد ولعل الفرق الجوهري بين العراقيين الاقدمين والانسان الحديث في ميدان علاقة الطب بالمعارف والرقى هو ان الامور الدينية والمقدسة التي يلجأ اليها الناس الان في المعالجة تقوم بها اشخاص مخصوصون غير الاطباء . ولكن الاطباء انفسهم في الازمان القديمة كانوا يقومون بالعمليتين في آن واحد . اي التطبب واستعمال الرقى والاسماء الروحية . والى هذا الفرق كان البابليون لا يعزون بعض العلل الطبيعية المسببة للامراض وبين ما يعزونه الى فعل الارواح والشياطين . فاذا مرض مريض في عائلة واصاب المرض نفسه مرة اخرى من العائلة كانوا يعزون ذلك الى انتقال الشيطان أو الروح المتسببة للمرض الى الشخص الثاني اما نحن فنقول أن المكروب الخاص بالمرض قد انتقل من شخص الى آخر . هذا ونحن لا نعرف بوجه التأكيد كيف كان البابليون يتصورون شياطينهم . على الرغم من أنهم خلفوا لنا بعض الدمى والصور التي يظن أنها تمثل بعض الشياطين والعفاريت .

(٢) وللتطبب اسم آخر هو (بارو) بالسومرية ومعناه العارف بالزيت .

(٣) انظر مبدأ هذا الاعتقاد في قصة جلجامش في بحث الآداب

ويمكننا حصر طرق العلاج والمداوى عندهم بثلاث وسائل : (١) العلاج العلمى وما يتعلق به من عقاقير وتمريض (٢) العمليات الجراحية (٣) الرقى والتعاويم لطرد الارواح والشياطين التى تسبب الامراض • وقد سبق ان ذكرنا شيئا عن الوسيلة الثالثة فى مبحث الديانة فى قسم السحر والعبادات ونذكر الآن شيئا موجزا عن الطريقتين الاخريين اللتين هما موضوع الطب الصحيح • ومما لا شك فيه ان أصل الطب عندهم من المعارف العملية والمعلومات الشعبية عند الناس وكذلك من السحرة الذين لم يقتصروا فى طرد الارواح على الرقى والتعاويم بل استعملوا العقاقير لانهم كانوا يرون أن مثل هذه العقاقير تعمل الشياطين أو تضطرها على الاقل الى مغادرة الجسم لقوتها ونفرة الشياطين والارواح منها (ولا يزال عند كثيرين من الناس فكرة تتعلق بان الدواء كلما كان مجا أو مرا أو قويا بغثه النفس كان تأثيره قويا فى مقاومة المرض وشفائه • وهذا مما لا شك فيه من بقايا آراء البشر الاقدمين فى الطب والادوية والامراض) •

واذا كان فى العلاج والشفاء من الآلهة فان الا لهة ايضا مصدر الامراض لانها خالقة كل شىء ، من خير وشر • كما ان الامراض انما كانت مظاهر او امارات على سخط الآلهة على البشر ، ولذلك فالدواء الصحيح الشافى يكون فى رضاء الآلهة وسكين غضبه ، اما العلاجات فقد تفيد فى تسكين الداء والتخفيف من شدته • ولذلك فقد كان الطبيب كاهنا فى الوقت نفسه ، اى انه عدا استعماله للعقاقير والادوية المسكنة فانه يقوم بالتعاويم والسحر واستعطاف الآلهة وطرد الارواح الخبيثة وانسبه للمرض سبب اسم المرض وسخط الآلهة • ومن نتائج ذلك أيضا ان الطب البابلى لم يقتصر فى أساليبه عن فن التشخيص والوصف والعلاج وانما يستند ايضا الى طرق العرافة والكهانة والسحر مما مر بنا سابقا فى الكلام على الدين ، كما أن

مصدر بعض الامراض كان من «العين الشريرة» وهذه خرافة مشرة منذ القدم انتشارا عالميا[١] .

ويستدل من المصادر التي خلفها لنا العراقيون الاقدمون على انه نشأ عندهم منذ الازمان القديمة أصناف من الاطباء ، منهم الاطباء الخاصون بتداوي الامراض بالعقاقير ونشأ عندهم كذلك الجراحون والبياطره ، ونستدل من شريعة حمورابي على أن الطب لم في العهد البابلي القديم مكانة مهمة في المجتمع اذ نظمه بجمله مواد في قانون حمورابي بعضها يتعلق بتحديد الاجور الخاصة بالاطباء والجراحين والباطره وكذلك بتحديد العقوبات الخاصة في حالة اساءة الاطباء استعمال مهنهم . فمن جملة ذلك الاحكام الآتية : ان الجراح الذي ينجح في شفاء العين بعملية جراحية فانه يأخذ أجره قدرها عشرة شيقلات من الفضة من الحر و (٥) شيقلات من فرد من الطبقة الوسطى واذا فشل في العملية الجراح فسبب موت المريض أو أنه سبب فقدان عينه فتقطع يده ولكنه يعوض عنها بعبد اذا كان المريض عبدا و يدفع نصف ثمنه اذا فقدت عينه[٢] وتقاضي الطبيب بحسب قانون حمورابي في تجبيره عظاما مكسورة او عضلات مرضية ١٥ و١٣ و٢ شيقل من الفضة بحسب طبقة

(١) فان الكلمة البونانية الخاصة بذلك (bascania) ومنها الكلمة اللاتينية (fascinum) التي منها الكلمة الانجليزية (fascination)

(٢) مما لا شك فيه ان هذه المواد تبدو لاول وهلة صارمة وغير معقولة ولا قابلة للتطبيق فلو طبقت في الواقع . والحق القديم على ما علمنا من السداده لعقد الاطباء والجراحون في العراقات لمس اموالهم حسب اهل أبدانهم ولما بقي طبيب يمارس مهنته فيكون التفسير المعقول لهذه المواد الواردة في قانون حمورابي . ان احكامها لم تكن لتطبق الا على الحالات البسيطة المتطرقة التي تسبب فيها الفشل بسبب اهمال الجراح والطبيب المتعمد ، وان الغرامة والعقوبة لا تفرضان بدون محاكمة رسمية واثبات وادانة . ومن الطريف ذكره بهذا الصدد انما نجد أثر هذه الاحكام في الخطة السديدة التي كان تركن اليها اطباء ذلك الزمان . فكانوا لا يقدمون على حالة لا يطمئنون الى شفائها وقد ورد في المآثر والامثال الخاصة بالاطباء انه ينبغي للطبيب « أن لا يضع يده على مريض قد تأكد من عدم شفائه وموته » .

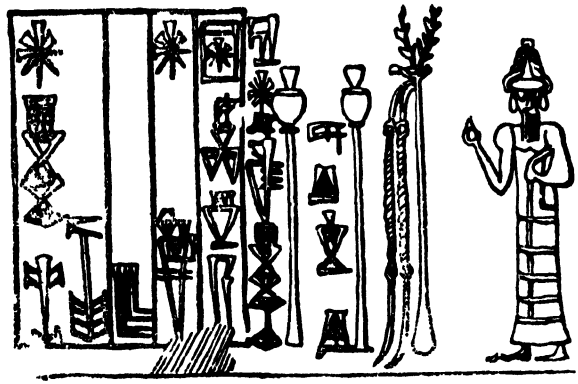

ختم اسطوانى يعود الى طبيب سومرى نقشت فيه بعض آلاته الطبية واسمه (اور ـ لوگال ـ ادنا)

المريض • ويقاضى البيطار ½ شيقل من الفضة فى عملية تحريها على ثور أو حمار ويعوض فى حالة الفشل ⅛ ثمن الحيوان (المادة ٢٢١ من قانون حمورابى) • والملاحظ فى الاحكام الوارده فى شريعة حمورابى عن تنظيم شؤون الطب انها تقصر على الجراحين والباطرة ، ولم يرد ذكر للطب الاعتيادى الذى يداوى بالعقاقير ، ولعل تفسير ذلك ان الطبيب كان شخصية ذا قدسية فلا يمسه القانون لان علاجه كان بالدرجة الاولى بالتعريم والرقى واستعطاف الالهة • اما الجراحون فقد اعسرتهم الشريعة من دوى الحرف فيجازون خيرا أو شرا بحسب نتيجة عملهم •

تشير الكتابات المسمارية الى ان عدد الاطباء المحترفين لم يكن قليلا ، والى هؤلاء كان حمله من الاطباء الموظفين الرسميين بعضهم خاص بالملوك ، وكان الاطباء يتنقلون من بلد الى بلد آخر ومن قطر الى قطر آخر حتى ان الملوك كانوا يرسلون اطباءهم الخاصين الى الملوك الآخرين لمداواتهم ، وكانت هذه العادة متبعة فى أقطار الشرق الادنى ، وجاءتنا عنها اخبار طريفة

من العهد الذى سميناه «بعهد العمرانة» من زمن الامبراطورية المصرية . ومن الامور التى عرفها عن اطباء العراق القديم أن الواحد منهم كان يحمل على الدوام حقنه أو كيسا يضع فيها ادواته . وجاء فى بعض الاختام الاسطوانية الخاصة بطب سومرى اسمه وصوره بعض الآلات الطبية العائدة له كالابر والمناصع واحقاق الريت (انظر الشكل فى ص٣٦٩)

وقد عرف الاطباء البابليون جملة من الامراض والاوبئة وصنفوها بحسب الاعضاء التى تصيبها فافردوا للرأس وللقلب وللعين والحنجرة والانف والصدر الامراض التى تصيب هذه الاعضاء ، وذكروا بعض الامراض التى منشؤها العوامل النفسية كفقدان الهمة والجزع والحزن ، كذلك ذكروا بعض الامراض التى استعصت عليهم مثل السرطان وأمراض الرئة مثل السل ، وكذلك الامراض الجلدية كالجرب والجذام ، وعرفوا بعض الامراض السارية مما يصيب عضوى الذكر والانثى والامراض الخاصة بالشرج ولا سيما البواسير وذكروا من بين الامراض المسببة عن لدغ العقرب والحية .

لقد وردت الامراض فى المؤلفات الطبية التى خلفها لنا الاطباء الاقدمون ووجد الكثير منها فى مكتبة الملك الآشورى آشور بانيبال التى هى لا شك نسخ عن كتابات قديمة من العصر البابلى القديم فكانت مصادرنا عن طب العراق القديم الى عهد قريب مقتصرة على العهد الآشورى المتأخر ، ولكن مما يؤيد ما ذهبنا اليه من ان هذه النصوص الطبية التى وجدت فى خزانة الملك الآشورى « آشور بانيبال » ترجع فى اصولها الى العهود القديمة ما اظهره البحث حديثا اذ وجد بعض طبى مهم باللغة السومرية ، ويحتمل ان عهده أقدم من ذلك ، حيث يعتقد انه من عهد سلالة اور الثالثة (فى حدود ٢١٠٠

ق٠م) ، وبذلك يكون هذا أقدم نص طبى فى أريخ الحضارات البشرية[١] ان مصدر هذا النص من « نفر » وقد وجد قبل نحو ٥٠ عاما ولكن لم نعين ماهيه الا حديثا ، وقد وردت فيه جملة وصفات طبية عطاقيرية ومن حمله هذه العقاقير المعروفة القاشيا (cassia) والحلتيت الذى يسمى فى العراق باسم «الجوبقة» اى المعروف علميا (Asafoetida) والزعتر (Thyme) ونترات البوتاسيوم وكلوريد الصوديوم والعسل الخ • وجاء فى مؤلفاتهم الطبية تلك تشخيص الامراض • وكان التشخيص ذا خطورة عظيمة عندهم ، وطريقتهم فى التشخيص هى أنهم يصفون الاعراض التى يشاهدها الطبيب فى المريض ثم يصفون ما يفعله الطبيب ونوع الدواء اى الوصفة التى قد تتعدد وكذلك الاوقات الخاصة التى تؤخذ فيها • ومما يلاحظ فى هذه التآليف ان اعتمادها ينصب على التشخيص ووصف الدواء دون نسيان عمله المريض وسبب ذلك جهلهم بها كما هو الحال فى كثير من الحالات فى الطب الحديث • وكانوا يردفون الوصفة بارشادات فى كيفية الاستعمال ومن طرائف هذه المؤلفات الطبية تداول مقسمة الى ثلاثة حقول ذكروا فى الحقل الاول الدواء وفى الحقل الثانى اسم المرض وفى الثالث ارشادات بكيفية الاستعمال والمثل الآتى :ـ

عرق السوس	دواء للسعال	يسحق ويشرب مع الزيت والخمر
عرق ورد الشمس	دواء لوجع الاسنان	يوضع على الاسنان •

ورتبوا الوصفات الطبية الواردة فى كتاباتهم الطبية بحسب اجزاء الجسم والامراض التى تصيبها ، وهذا يشير الى بداية طور التصنيف والبحث العلمى كما انهم كانوا يعرفون بعض الشيء عن تشريح الجسم الانسانى ،

(١) أقدم نص طبى جاءنا من مصر مؤرخ فى حدود ١٦٠٠ ق • م ، ويعتقد فيه أنه نسخه عن اصل اقدم (١٩٠٠ ق٠م) • انظر البحث فى النص السومرى الطبى فى :
S N Kramer & Martin Levey, "Medical Hand book" in **Journal of The American Medical Association,** vol I, No. 7 (1954).

وان كانت معرفتهم بالتشريح ووظائف الاعضاء معرفة بدائية على وجه العموم، فقد سبق أن رأينا ان من أهم طرق العرافة عندهم طريقة فحص احشاء الحيوانات وبوجه خاص طريقة فحص الكبد ، فاستفادوا من تشريح الحيوان وتقطيعه كما ان ما كان يصيب الافراد من اصابات فى الحرب جعلتهم يقفون على اهم أعضاء الجسم الانسانى، واهتموا بوجه خاص ، مثل الرومان، ببعض الاعضاء الباطنه كالكبد الذى عدوه مستودع الحياه والطحال والمعده والكليتين والقلب والرئتين ، وبلغوا فى معرفتهم التشريحية درجة أبعد من ذلك فقد ادركوا ان القلب مستودع الفهم والذكاء والكبد موضع العواطف ومستودع الحياه نفسها بسبب احتوائه على كميه كبيره من الدم (نحو ¼ وزن الجسم) وقد كتبوا اسماءا باسماء الاعضاء والاحشاء[1] .

وكانت الادوية عندهم من ثلاثة مصادر بحسب المادة المستخرج منها الدواء وهى (١) الادوية النباتية (٢) والادوية الحيوانية (٣) والادوية المعدنية. وتأتى الادوية المستخرجه من النباتات والاعشاب على رأس الادوية عند أطباء العراق القدماء . وخلف لنا هؤلاء الاطباء مجموعات كثيرة باسماء الاعشاب والنباتات والازهار التى استعملوها أدوية ، والعادة فى استعمال النباتات والاعشاب انهم يضعون شروطا لاستعمالها منها المكان الذى تنمو فيه واوقات قطفها ، كما أنه لم يكن جميع النبات هو المستعمل للدواء بل قسم منه اوراقه تستخرج منه كالعرق والمحاء والساق واللب والورق والبذر والزهر والعصير والبذور والعجين والطحين والشراب الخ . والملاحظ فى النباتات المستعمله عقاقير طبيه شبيه باستعمالها عند سكان العراق القدماء وعند شعوب العالم القديم مثل الحلب النوشادر الذى اشتهر فى الشرق الى ازمان متأخرة، وبلغت من صحة استعمالهم لجملة نباتات أن الباحثين المحدثين استندوا فى تعيين الكثير من اسماء النباتات الواردة فى النصوص المسمارية الى استعمالاتها الطبية المذكورة

---

(١) أنظر المرجع المهم :-
Contenau, **La médecine en Assyrie et en Babylonie** 65 ff

فى تلك المصادر[١] . وتأتى بعد المواد المستخرجة من عالم النبات المواد المستخرجه من عالم الحيوان ، ومما نذكر فى صدد الحيوان ان اسماء كثيره مما ورد فى مؤلفاتهم الطبية لا يمكن تعيينها فى الوقت الحاضر وكذلك الحال فى كثير من أسماء النبات والاعشاب ، واستعملوا فى أدويتهم أعضاء واجزاء ومواد مستخرجة من بعض الحيوانات اللبونة ، من بين ذلك الانسان والبقر ولا سيما البقر الاصفر والخنزير والاغنام والمعز والحمار والكلب ولاسيما الكلب الاسود والاسد والذئب والثعلب والايل والغزال ومن الطيور النعامة والصقر والنسر والغراب واليمامة والدجاج والحمام والعصفور ومن أنواع الحيوانات السفلى الحية والسرطان والنحل . وكانوا يأخذون نتاج هذه الحيوانات أو اجزاء خاصة منها كالعظام أو الشحم أو الحليب او اللسان أو الشعر أو الجمجمة الخ..واستخدم البابليون أدوية غير قليلة استخرجوها من المعادن والاحجار وكتبوا فى ذلك ابحاثا وجداول مطوله . ولم يستعملوا هذه بهيئة مواد خام بل كانوا يستحضرون منها الادوية بطرق كثيره معقده كالسحق والخلط والتركيب مع مواد اخرى بسبب معه وكذلك التسخين وذكروا بعض الادوات والآلات المستعملة فى هذه العمليات ، والى الوصفات والادوية ذكروا بعض التمتمات الخاصة كالتضماد والتمريخ ودهن الجسم ومسحه بالزيت ، وفرقوا بين نوعين من استعمال الادوية ، نوع يستعمل استعمالا داخليا (أى شرب) ونوع يستعمل استعمالا خارجيا كالدهن والمسح الخ .. وورد ذكر بعض الادوات والآلات التى استعملوها فى طبهم فى المصادر المسمارية ولكننا لا نعرف كثيرا منها وكنا نعلم استعمالها من بين ذلك انبوب من النحاس أو البرونز سموه « المفتاح » لتوسيع الجروح عند

---

(١) ان أحسن ما الف فى النباتات الواردة فى الكتابات المسمارية المرجع الآتى —

C Thompson, **Dictionary of Assyrian Botany** (1946).

ولمؤلف الكتاب بحوث فى الموضوع نشرت فى مجلة اعداد من مجلة سومر مجلد (١٩٥٢) و (١٩٥٣)

العين وفى الاعضاء التناسلية وآلة اخرى يسمونها «الزراقة» (ولفظها فى البابلية مثل العربية) يدخلون الدواء بها الى الاذن وآلة اخرى مثل مباضع التشريح والاحقاق والابر ، واستخدموا بعض الاحجار الرجاجه ولا سيما البلور لصنع العدسات التى استعملوها للتكبير ويرجح أنهم استعملوها « نظارات » أيضا . وقد وجد فى مدينه كالح احدى عدسة من البلورس النوع المسوى المحدب .

ومما يلاحظ فى النصوص الطبيه القديمة ان لغتها اللغة السومريه . واستعمل الاطباء دساتير سومرية كما كان الاطباء الفرنسيون يستعملون اللاتينيه ، ولا تزال اللاتينية اللغة العلميه فى المصطلحات الطبيه ، واهل اطباء العراق القديم كانوا يعتمدون فى استعمال السومرية الى انها لغة المرضى فمرداد بودهم وشهرتهم كما ان تلك النصوص تعذر عليها الانحدار والاحصار ، بل ان الكثير منها كان مجرد التذكرة أو الخلاصة مما يشير الى ان التعليم الطبى كان بالدرجه الاولى شفهيا من الاستاذ الى التلميذ او من الاب الى الابن وتستثنى من ذلك لوح مدون بعض طبى مطول محفوظ الآن فى القسطنطينية[1] .

---

(١) حول الطب فى حضاره وادى الرافدين راجع اهم المراجع الآتيه :

(1) G Conteneau' **La Médecine en Assyrie et en Babylonie** (Paris, 1938)

(2) Kuchler, **Assyr. Bab. Medizin.**

(3) Miles & Driver, **The Babylonian Laws.**

(4) René Labat, **Traité akkadien de diagnostics et Pronostics médicaux** (Paris, 1951)

وحول اللوح الطبى المحفوظ الآن فى القسطنطينيه انظر المرجع الرابع .

الفصل السابع عشر

الدولة والمجتمع

١ ـ نظام الحكم

نشوء نظام الحكم وتطوره :ـ

اختلف آراء الباحثين فى أصل الدولة والحكومة عند البشر ، وعلى الرغم من نشوء اولى انظمة الحكم فى حضارت الشرق الادنى ، ولا سيما حضارة وادى الرافدين ووادى النيل ، فاننا نجهل أصل أول الحكام والملوك فى العراق • ومع قدم الاخبار المتعلقة باوائل الحكام من العصور التى سميناها بعصور فجر السلالات فان هذه الاخبار لا تفسر لنا بوجه واضح كيفية نشوء أقدم الحكام والمديرين فى ماربح المجتمعات البشرية، ذلك لانه سبق عصور فجر السلالات اطوار من عصور ما قبل التاريخ لم يكن يدون فيها العراقيون القدماء شؤون حياتهم ، أى انهم لم يخترعوا الكتابة فلا سبيل الى معرفة شؤون المجتمع السياسية وكيفية تنظيمه وادارته ، اذ من المحتمل انه وجد نوع من نظام الحكم البدائى فى تلك الازمان التى سبقت نشوء الحضارة الناضجة فى بداية الالف الثالث ق•م• وتؤيد وجود نوع من انظمة الحكم فى عهد فجر الحضارة الاشارات الواردة فى الاخبار التاريخية مما يخص جداول الملوك وكذلك القصص والاساطير • فهناك جملة ملوك حكموا فى مدن معلومة ذكرتهم جداول الملوك بانهم حكموا قبل الطوفان ، وورد فى الاساطير اشارات الى ملوك لا نعرف عنهم سوى تلك الاشارات ولعل عهدهم يرجع الى عصور ما قبل التاريخ قبل نشوء الحضارة فى وادى الرافدين وسنذكر ذلك بعد قليل •

ويرجح كثيرا ان للمعابد التى نشأت فى العصور القديمة من عهود ما قبل السلالات علاقة بنشوء الحكام الاوائل • فقد رأينا فيما سبق كيف كان

المعبد أهم بنـــاء عام نشـــأ فى العراق قبل عهـد « العبيـد » وكان مركز المدينة ومدار حياتها الاجتماعية . فلعل كهنة المعابد كانوا فى الوقت نفسه أول حكام فى الهيئة النشرية او كان للكهنة على الأقل دور مهم فى ادارة المجتمع وقيادته ومما يشير الى هذا الاحتمال الصفة القدســـة التى اتصف بها الملوك فى الادوار الأربعة فى كونهم كهنة الآلهة ونوابها فى حكم البشر ، ويرجح ان حكومة الكهنة انتقلت وما بعد عندما تعقدت الحضارة ونشأت الحروب المنظمة الى الحكومة الزمنية ، ولعل هذا الانتقال لم يتم الا بعد نزاع بين الكهنة وبين القواد والافراد المتفذين الذين أكسبوا زعامة المجتمع بما امدادوا به من جيشه وقوده وانتصارات حربيه[1] ولكن اكسب هؤلاء الحكام الذين أحدثوا الزعامة صفة دنيوية أيضا وصاروا هم الكهنـــة الاعلون لاله المدينة . وسبق ان ذكرنا ان الاسم السومرى للملك (لوكال) أى الرجل العظيم او المتميز قد يكشف لنا جانبا عن أصل الملوك والحـكام ، فقد صار هذا الرجل عظيما لمقدرته وفائدته التى مكنته من أن يكون قائدا وزعيما على سكان مدينته أى مجتمعه ، أولا بالانتخابات ثم صارت وظيفتـه دائميـــة .

ومهما يكن الحال فى أصل نظام الحكم فان الاخبار عن الامراء والملوك وما يتعلق بالدولة قد بدأت بالظهور منذ عصر فجر السلالات وهو العصر الذى نشأت فيه أولى الحضارات فى العراق . وقد رأينا فيما سبق ان نظام الحكم بدأ فى هذا العصر فى أولى مراحله ، فقد كان العراق مقسما الى امارات ودويلات قوام كل منها مدينة وما يحاورها من المدن والقرى والاراضـــى وهذه هى دويلات المدن (City-States) التى كانت أولى أشكال الحكومات فى العراق وكان يحكم فى هذه الدويلات حكام كانوا يلقبون انفسهم بكلمة

(١) ومن الطريف ذكره بهذا الصدد الاشارات التواردة الى هـــذا الانتقال فيما نقرؤه فى العهد القديم (ساموئيل ، الكتاب الاول ٨ ، ١٠ و١٢) .

تعنى وكيل الاله أو الفلاح المسأحر (أى اشاكو أو انسى) وهى كلمة تشير الى ان سلطة الحاكم مستمده من اله المدينة وانه ممثل عن الاله وبحكم الشر باسمه ٠ووردت أسماء بعض الحكام بهيئة ملك (أى «لوكال») ولكن هذا اللقب كان أقل ورودا من اللقب الاول فى مبدأ الامر ٠ وفى العصور التأريخيه التاليه عم لقب الملك وقل لقب « الاشاكو » الذى صار يستعمل لها للملوك تصفهم الدينيه وعلاقاتهم بالآلهة وكذلك استعمل للتعبير عن الولاه والحكام الذين كان يعينهم الملوك ٠ والمرجح كثيرا أن الاشاكو فى الاصل كانت وظيفه أست وأدوم من وظيفة الملك الذى كان بالاصل دا سلطة موقتة حين تحدث فى زمن الازمات كما ان وارداب الاشاكو كانت تأتى من الاراضى التى كانت تعد لهذا الغرض والتى كان يلزم على الناس ان يشتغلوا فيها بالسخرة. ومن السلطات الكهنوتيه التى كانت تحكم المجتمع قبل سلوك نظام الحكم وسلوك نظام الملكية الكاهن الاعلى (سنكو ماح) ، ومهما كان الامر فقد سادت وظيفه الملك وصار اللقب لا يستعمل حتى فى عصر فجر السلالات الا عندما يتسع نطاق حكومة دوله المدينه فيكون معنى لقب « الاشاكو » الحاكم المعين من قبل اله المدينة أو الممثل لاله المدينه ، حتى ان اللقب ظل مستعملا حتى فى العصور التأريخية المتأخره فى زمن الامبراطورية الاشورية حيث كان الملوك الاشوريون يلقبون انفسهم بلقب « حكم الاله اشور » اشارة الى ان سلطتهم مستمده من الاله اشور ٠

وقد سبق أن ذكرنا أن دويلات المدن كانت كثيرا ما تنازع فيما بينها على السلطه السياسية وتوسع حدودها وعلى توزيع مياه الارواء التى كان يقوم عليها كيانها الاقتصادى ٠ وكان العراق بوجه الاجمال يسير من طور دويلات المدن الى طور المملكة الموحده حتى أواخر عصور فجر السلالات حين استطاع سرجون الاكدى مؤسس السلالة الاكدية أن يقضى على نظام دويلات المدن وينشأ المملكة الموحده التى شملت جميع العراق وانتقلت هذه المملكة بالفتوح الخارجية الى الامبراطورية وسار على خطى سرجون

الفاتح بعض السلالات الاخرى مثل سلالة أور الثالثة وسلالة بابل الاولى والدولة البابلة المتأخرة فى توسيع المملكة وبسط سلطانها فى معظم انحاء الشرق الادنى • ولعل من جملة العوامل المهمة التى عملت على انتقال دويلات المدن الى طور مملكة القطر الموحدة ثم انتقال هذه الى نظام الامبراطورية ما ذكرناه سابقا من الحاجات الاقتصادية فيما يتعلق بالتجارة الخارجية • فقد رأينا ان حضارة العراق الاولى نشأت فى موطن يفتقر كثير من المواد الضرورية للملك الحضارة وينموها واردهارها كالمعدن والاحجار والاخشاب وغير ذلك مما شاهده فى حضارة العراق القديم • وكانوا يحصلون على هذه المواد فى بادىء الامر بالتجارة الخارجية مع الاقطار المجاورة التى تكثر فيها المواد الضرورية وبدأت اتصالاتهم التجارية منذ أقدم عصور ما قبل التاريخ • وعندما ازدادت الحاجة الى المواد فى ابان نضج الحضارة وازدهارها تطلب ذلك تنظيم التجارة الخارجية وتوحيد مصالح المدن المختلفة واتباع وسائل المواصلات وحماية الطرق والقوافل • وكان كل ذلك لا يتم على الوجه الاكمل تحت نظام دويلات المدن المتنازعة المتضاربة فى مصالحها • فاقتضى توحيدها بالحرب والقوة وهذا ما فعله « لوكال زاكيزى » آخر ملك من ملوك عصر فجر السلالات وحققه سرجون بصورة أدق وأتم • وعندما اتحدت دويلات المدن تحت ادارة واحدة وسلطان واحد واتحدت مصالحها رأى الملوك الاوائل أن الحصول على المواد من منابعها غير مضمون دائما بالتجارة الخارجية فعمدوا الى الاستيلاء على مواطن تلك المواد بالحرب والحاقها بدولتهم أو فرض سلطانهم عليها •

شكل الحكومة وادارتها :ـ

كان شكل الحكومة فى جميع أدوار التأريخ فى العراق القديم الحكومة الملكية الاوتوقراطية ، اى تمركز السلطات جميعها بيد الملك او الامير الحاكم وحكومته التى يكونها هو • وكان هذا هو الشكل السائد منذ نشوء الحضارة

فى عصر فجر السلالات أى عهد دويلات المدن الى نهاية حياة البابليين السياسية • ونلاحظ من سير تأريخ العراق القديم ان الاتجاه السياسى فى شكل الحكومه كان سير الى تمركز السلطة أكثر فاكثر بيد رأس الدولة أى الملك وصاحب السلطان المطلق • ولكن لدينا من الادلة والاشارات التأريخية ما تبين أن نظام الحكم فى العراق القديم قد بدأ بهيئة ديموقراطية بدائية قبل فجر التاريخ عندما نشأت أولى الممالك فى بداية عصر فجر السلالات• ويوسعنا ان نضع شوء ذلك الحكم الديموقراطى بوجه التخصيص فى العهد الذى سميناه بالعهد النسبه بالأريحى أو الكنابى (اى النصف الثانى من طور الوركاء وعهد جمدة نصر) • وعلى الرغم من زوال ذلك النظام الديموقراطى فانه قد ترك صدى وآثارا فى العصور التأريخية الناضجة فمن هذه الآثار بعض القصص التى تشير الى وجود أقدم نظام ديموقراطى فى العراق القديم ، ومن هذه قصة طريفة تدور حوادثها على العلاقات بين دولتى مدينتين هما كيش والوركاء يمكننا ان نعنونها بقصة « أجا وحلحامش » وهى ترمز الى الارهاصات الاولى لتلك العلاقات السياسية بين هاتين الدولتين • وأنس « أجا » ملك كيش من نفسه القوة فأراد بسط حمايته على الوركاء ، ولكنه قبل ان يعلن الحرب أرسل وفدا دبلوماسيا الى ملك الوركاء يحمل معه انذارا بالخضوع الى كيش • ولما كان حلحامش ملك الوركاء لا يستطيع أن يقرر فى أمور الدولة الخطيرة كالحرب والسلم فانه استدعى اولا مجلس الشورى المكون من أعيان المملكة وشيوخها وعرض عليه مطاليب ملك كيش وحثهم على رفضها ولكن « مجلس الاعيان » هذا على ما يبدو لم يوافق على رأى رئيس الدولة • فاستدعى الملك مجلس الشورى الثانى المؤلف من جميع الرجال القادرين على حمل السلاح فرفض هذا المجلس مطاليب مدينة كيش وقرر الحرب اذا افضى الامر ذلك فنشبت الحرب بين المدينين وانتهت بغلبة مدينة كيش وطلب حلحامش الصلح •

ومهما يكن من سخة النزاع فان الذى يعنينا من هذه القصة وغيرها من

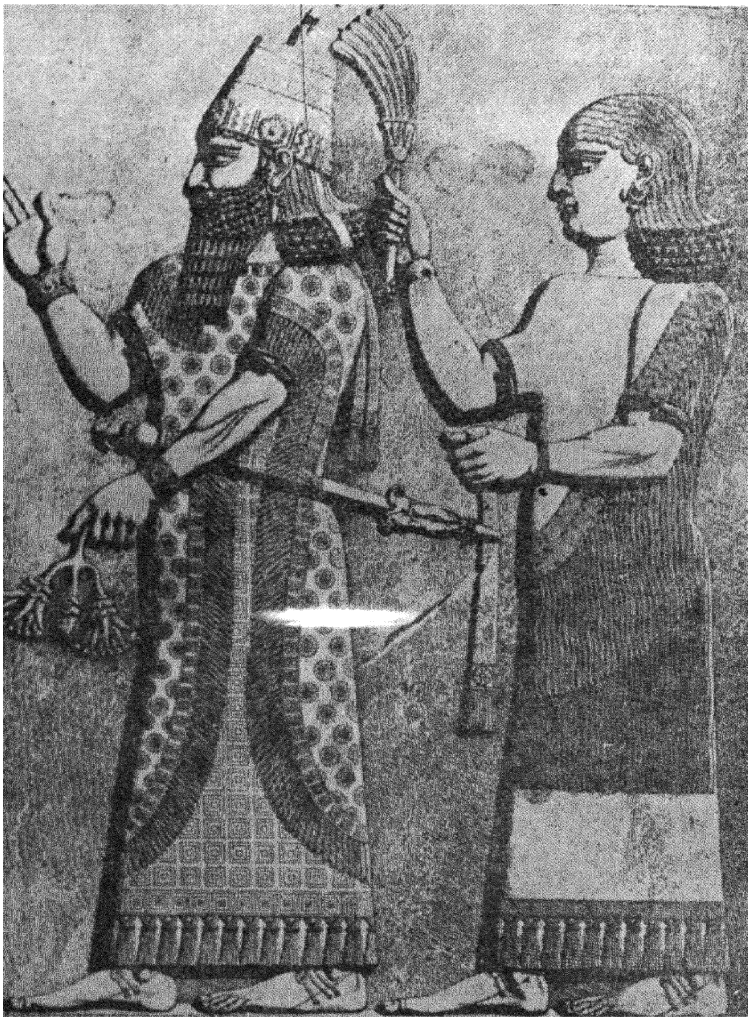

نماذج من المجربات البارزه لعمل الملك الاسورى سرجون
(من العاصمه خرسباد)

الاحرار والاشارات هو ظهور النظام الذى نسميه الا ن بالحكم الديموقراطى فى العراق منذ فجر التاريخ • وكما يبدو من القصه التى لخصناها كانت شؤون الدولة وادارتها موزعة بين الملك ، رأس الدوله ، وبين مجلسين للشورى ، يألف المجلس الاعلى من أعيان المملكة وشيوخها (السناب) ويألف الثانى من جميع الرجال القادرين على حمل السلاح • وعلى الرغم من جهلنا الشيء الكثير عن هذه المجالس ولا سيما كيفية تألفها وصلاحياتها وعلاقتها بالملك وبعضها ببعض فان الاشارات والاحرار تدل على ان هذين المجلسين كانا يهيمنان على الشؤون المهمه فى الدولة كالحرب والسلم والصرائب • ووردت اشارات الى ان هذه المجالس كانت تملك حتى حق استجواب الملك • ويوسعنا ان نشبه هذه الشورى أو الديموقراطية الاولى بما نشأ عند الاغريق والرومان ولا سيما عند الرومان فى العهد الجمهورى وبخاصه مجلس « السناب » أى مجلس الشيوخ ومجلس « البرسون » أى مجلس العوام[1] ومما يجدر ذكره بهذا الصدد أن مملكة صرعره من الاشوريين نشأت فى آسية الصغرى فى أواخر الالف الثالث ق•م كان نظام الحكم فيها على هذا الطراز ويغلب ذلك كانت آسية ما تكون بالجمهورية • وآسية الصغرى كانت طريقا مهما لانتشار التأثيرات الحضارية الى جزر بحر ايجه والى اليونان •

ومن الامور الطريفه التى تشير الى نظام الحكم الديموقراطى فى العراق منذ فجر التاريخ أن العراقيين القدماء كانوا ، كما مر بنا فى مبحث الديانة ، يتصورون آلهتهم كالبشر وكانوا يتصورون اجتماعات الآلهة فى مجالس شورى مقدسه فى السماء يجتمع فيها الآلهه للبت فى شؤون البشر الهامة ومناقشتها وتقرير الآراء القرارات المقتضية ، واذا علمنا ان الالهات كن يشتركن فى هذه المجالس فلا بعد ان يكون للمرأة نصيب فى مجالس الرجال من البشر ويصح ذلك جليا من اسطوره الخليقة البابلية ، وتقدمنا

(١) انظر تاريخ الرومان

هذه الاسطوره اهما بامور اخرى عن الملكيه واصلها فاول شيء يستنتج منها ان الملكية ليست جزءا أساسا من نظام الكون وانما هي طارئة نشأت من الازمة التي وقع فيها مجمع الآلهة في حربهم مع الالهة القديمة فاضطروا على انتخاب احدهم (وهو مردوخ) ليكون ملكا وبطلا يحارب عنهم • وبالمقابلة مع هذه الفكره نجد ان الملكية في حضاره وادى النيل كانت منذ الحليفة ، فان الاله الذي خلق الكون والاشياء كان أول ملك على الخليفة وأول ملك في وادى النيل وهو الاله « رع » الذي خلفه في الملكية اوسيريس وهورس وانفرعون ابن الاله الملك •

ومهما يكن الامر فان سير الاحوال السياسية في تطور العراق التأريخي كان يتجه الى الانتقال من عهد دويلات المدن ذات النظام الديموقراطي البدائي الى عهد الممالك الموحدة والامبراطورية فكانت ملك الديموقراطية البدائية نظاما جهضا لم يسر في نموه الطبيعي فيتطور الى نظام من الحكم التمثيلي على غرار الديموقراطية الاثينية في اليونان مثلا ، اما الاسباب التي منعته من النمو والتطور فلا تعسر[1] ايجادها على المستوى لسير حضاره وادي الرافدين،فيمكن تلخيص تلك الاسباب بأمر واحد هو انه لم يكن مستجمعا لظروف والاوضاع التأريخية ومع اتجاهات تطور المجتمع في حينه فمن أوجه تنافره مع الاوضاع التأريخيه انه كان يحول دون التوسع السياسي من دوله المدينه الى دوله أكبر تشمل موطن الحضارة السومريه جميعا،وهو التوسع الذي كانت تقتضيه الاحوال التأريخية التي أوجزناها سابقا (الص٣٧٦ فمابعد) كما ان الديموقراطيه البدائيه تشكل من الحكم لا يليق ابان الازمات التي كثيرا ما كانت تقع فيها دول المدن المتحالفة ، لا سيما وان طريقة الحكم بموجب تلك الديموقراطيه كالتصويت وانتخاب المجالس ومبدأ الاكثرية والاقلية لم يكن

(١) حول البحث في هذه الديموقراطيه البدائيه انظر المرجع الآتي —
Jacobsen, **"Primitive Democracy in Ancient Mesopotamia"** in JNES, vol II, (1943), 159 ff

معروفة مما دعى الى الحاجة الى الحسم فى القرارات بطريق السلطة الفردية، وقد صاحب هذا التحول السياسى اتجاه نظام الحكم الى تمركز السلطات جمعها بيد الملك وحكومه ، وبعباره أخرى كان التطور السياسى من النظام الديموقراطى البدائى الى النظام الملكى الاوتوقراطى ولكن مع ذلك فان مجالس الشورى التى نشأت منذ فجر التاريخ لم تمت بل تحولت من مجالس للشورى تهيمن على شؤون الدولة المهمة الى محالس قضائية وتشريعية ، واسمر وجود هذه المحالس بصفها الجديدة التى انتقلت اليها الى أحدث العهور التاريخية فى العراق القديم . فالى جانب المحاكم المختلفة الدرجات المؤلفة من القضاه المدنيين والقضاة الكهنة كان ينظر فى الدعاوى والقضايا المهمة مجلسان عامان فى كل مدينه أحدهما يتألف من شيوخ المدينة واعيانها ، وكان هذا يساعد المحاكم فى القرارات المهمة وأشبه ما يكون بهيئات المحلفين . واما المجلس الثانى فيتألف من معظم سكان المدينة الرجال وينظر فى القضايا الهامة كوقوع عقوبة القتل وتنفذها ولعله كان أشبه ما يكون بالمحاكم العليا وقد ورد ذكر هذا المجلس فى كثير من الوثائق القانونية كقرارات المحاكم وجاء ذكره فى قانون حمورابى فى مناسبات كثيرة منها انه كان ينعم بحضوره وبموافقته طرد القاضى وتعريضه اذا ثبت عليه جرم . وذكرت فى رسائل حمورابى الرسمية حالات كان يحيل فيها بعض الدعاوى الى مجلس المدينة للنظر فيها ، وكانت هذه المجالس تحكم بموجب العرف المحلى المتبع فى المدن المختلفة وكانت أحكامها مما لاشك مصدرا مهما للشرائع فى العراق القديم .

الملك وحكومته :ـ

ومن مظاهر اتجاه نظام الحكم الى حصر السلطات جميعها بيد الملك، النظرية الدينية التى فسر فيها العراقيون الأقدمون نظام الملك وأصل الحكم. وبوسعنا أن نلخص هذه النظرية «بالحق الالهى» للملوك والحكام ، فبموجب هذه الفكرة أن البلاد وجميع ما فيها ملك للآلهة أو للاله الخاص

بالمدينة ، لان مصير الشر وحكم الشر بيد الآلهة . وقد جاء فى الآداب والمآثر الدينية انه « قبل ان تبدأ الملوكية فى الارض كانت شارات الملك فى السماء عند الاله «آنو» ولكن الآلهة التى فى السماء لم تحكم البشر مباشرة بنفسها فعهدت الملوك والحكام ليتوبوا عنها ويمثلوها فى حكم الشر فى هذه الارض . ومما يجدر ذكره بصدد أصل الملوكية ان المآثر العراقية القديمة تنص على ان نظام الملوكية هبط من السماء من بعد الطوفان ، فمعنى هذه العبارة معنى آخر عدا الاصل الالهى لنظام الحكم ، ذلك هو ان الذى هبط من السماء ليس الحامل لنظام الحكم أى الملك وانما نظام الملوكية فقط ، اى ان سلطة الملك وجوده طارئان حسب تقليده وحمله لنظام الملوكية ، بعكس الفرعون المصرى الذى كان ينسبه الها من السماء وسلطانه من نفسه بصفته الالهية . أما الملك البابلى والاشورى فكان بشرا ولكنه يحمل وظيفة الهية او حملا الهيا . ومما يؤيد ذلك ما تنص عليه مآثرهم من انه حين نزلت وظيفة الملوكية وشارات الملك من السماء الى الارض « بحث الاله البل والآلهة عشتار » عن راع للبشر اذ لم يكن فى الارض ملك فنصب الاله البل ملكا من البشر . وبذلك لم تكن الملوكية من نظام المجتمع البشرى فى الاصل بل اضافها الآلهة اليه ، ونجد فى شرائع العراق القديم ولا سيما فى مقدماتها فكرة استحباب الآلهة للحكام الارضيين واصحة ، كما نجد ان ذلك الاستحباب يكون بصورة مسلسلة ، فالاله الاعلى يستحب اله المدينة ثم يستحب هذا ملك المدينة وتطلت فكرة الاستحباب هذه أهم ممر للمحيء الى الحكم الى زمن كورش الفارسى الذى برر حكمه لبلاد بابل بقوله : « لقد استعرض الاله مردوخ كل الاقطار ليبحث عن ملك ، وقد رعيات قلبه ... فقد سمى اسمه « كورش » صاحب الشأن وجعله ملكا على الكون » . وفى الخصومات بين المدن كانت الآلهة ، على ما رأينا فى مبحث الدبلوماسية ، هى التى تتنازع فيما بينها وتفاوض . فمثلا فى نص «انمينا» التأريخى نجد البل هو الذى تسوى النزاع بين الاله «نجرسو» ،

اله لجش وبين الالهة شاره الهة «اوما» ويحدد الحدود ما بينهما ، ثم قام «مسلم» ملك كش بشبب الحدود ووضع نصا هناك بأمر الهه «سران» • كما ان اله المدينة هو المسؤل عن الشرور التى تقوم بها حاكم المدينة كما جاء ذلك بوجه صريح فى تدمير « لوكال زاجرى » لمدينة « لجش » • وقد بلغ هؤلاء الوكلاء والنواب مكانة مقدسة واصبح بعضهم ولهم صفات الآلهة نفسها • حتى كتب اسماؤهم وهى مسبوقة بعلامة الألهة التى تسبق عادة أسماء الآلهة • ولكنهم مع ذلك لم يصيروا آلهة حقيقيين كما كان فراعنه مصر • وشيد لبعضهم معابد لعبادتهم بعد مماتهم كما هو الحال فى ملوك سلالة اور الثالثة ، ولكن ملوك العراق القديم بوجه عام لم يعدوا طور التقديس والتشبه بالآلهة أى لم يصيروا آلهة كما حدث فى تاريخ مصر القديم ، حيث صار الفراعنة آلهة وابناء الآلهة بالمعنى الحرفى وكاد بعض ملوك العراق القديم يصلون الى مثل هذه الدرجة فصاروا أبناء الآلهة ولكنهم أبناء بالتبنى وليس أبناء طبيعيين • وقد سمى اله من الآلهة ملكا وقد تعنى الهة بعض الملوك فرصعهم وتسمهم باسمائهم • ولذلك فقد كانت وراثة العرش من الامور المهمة المقدسة ، فينبغى أن يكون الملك الجديد من صلب سلالة الملوك الحاكمة ، وعندما ينضب رجل العرش يعمد الى شتى السبل لجعل حكومته شرعية بأن يدعى مثلا ان الاله أو الالهة الفلانية قد اختبره واختارته ليكون ملكا ، وهكذا فعل سرجون الاكدى الذى لم يكن من صلب الملوك بل كان من أصل وضيع ولكن الالهة عشتار أحبته فقلدته حكم البشر ، وقد تعمد بعض الغاصبين الى الحاق نسبهم بالملوك السابقين كما فعل بعض الملوك الآشوريين • ومن مظاهر تطور نظام الحكم واتساعه ما نجده فى تدرج ألقاب الحكام منذ أقدم العصور التأريخية فحين كان القطر مجزأ الى دويلات المدن كان اللقب الغالب «حاكم المدينة المعينة» واقل منه لقب «الملك» الخاص بمدينة معينة أيضا مثل اللقب الشهير ملك «كيش» • وفى أواخر عصر فجر السلالات ظهر لقب مهم فى نظام الحكم هو لقب ملك « البلاد »

و بالسومرية «لوكال كلاما» الذى كان اول من استعمله لوكال زاحرى ملك اوما الذى بسط سلطانه على أكثر دول المدن • ويشير لقب « لوكال كلاما » أى ملك بلاد سومر ، الى الوحدة السياسية التى احرزها هذا الملك ، وقد برر لوكال زاحرى ادعاءه بهذا اللقب بان الاله الليل هو الذى منحه اياه[1] وهذا مبرر لاهوتى لاتساع سلطة الحكم فى أواخر عصر فجر السلالات وعندما تعلب سرجون الاكدى على لوكال زاحرى احتفظ باللقب الذى احرزه حصمه ولكنه أوجد تغييرا سياسيا آخر بلقب نفسه «ملك الجهات الاربع» • وهو لقب انهى كان حاملا بعض الآلهة العظام ولا سيما « آنو » و « الليل » و « شمش » رمزا لسلطانهم على كل الكون حتى تعنى الجهات الاربع (باللغة الاكدية « كيبات اربعم» وبالسومرية آن ـ اوب ـ دا ـ لمو ـ نا ») الكون والعالم المكون من أربع جهات أو روايا • وبهذا اللقب الجديد صار لسلطة الملك مدلول دينى حيث أصبح الحاكم الارضى للخليقة كما يدل أيضا على اتساع الحكم من دولة صغيرة الى مملكة كبرى ثم امبراطورية • على ان اللقب الجديد لا يعنى محاولة الملك معادلة نفسه بالاله بل يعنى استجلاب الاله وتفويضه له ليكون ممثلا له فى حكم الكون • واستعمل الاشوريون لقبا مماثلا هو « ملك الكون » (شاركشى)[2] • وظهر لقب ثالث مهم هو لقب « ملك سومر واكد » ، الذى يرجح فيه كثيرا ان أول من استعمله فى العراق القديم ملوك سلالة أور الثالثة الذين احتفظوا بالالقاب السياسية السابقة وأضافوا هذا اللقب الجديد محاولين على ما يرجح التوفيق بين الساميين (الاكديين) والسومريين • هذا وان السلالات التى اعقبت سلالة اور الثالثة لم تضف شيئا الى الالقاب التى ذكرناها • اما الاشوريون فقد رأينا أن الحضارة السومرية التى انتشرت شمالا فيهم ،

(١) انظر النص الخاص بلوكال زاحرى المنشور فى المرجع الآتى
Thureau-Dangin, **Konigsinschriften,** 219

(٢) H Frankfort, **Kingship and the Gods** (1948) ch 16

ولذلك فلم يحدث الاشوريون تغييرات أساسية فى الالقاب السياسية عند ملوكهم ، ولعل أول لقب للملك واضح فى تاريخ الاشوريين كان فى زمن ملكهم «شمسى ـ أدد» المعاصر لحمورابى ، واستعمل ايضا لقب «ملك الكون» الذى فلما انه يعادل ملك « الجهات الاربع » ، وظل لقب ملك الكون مستعملا من لدن الملوك الاشوريين الى آخر عهودهم •

وبوسعنا ان نلمس تطور الحكومة وسلطات الملوك الى السلطة المركزية منذ نهاية عصر فجر السلالات ونشوء الدولة الموحدة والامبراطورية فى زمن السلالة الاكدية • فشاهد أنه على الرغم من محاولات بعض دويلات المدن ولا سيما فى أواخر عصر فجر السلالات بسط سلطانها وتوسع ذلك السلطان الى الاقاليم الخارجة لم يكن ذلك التوسع دائما ، وكانت الحروب الخارجية أشبه ما تكون بغارات النهب والسلب ، ولكن تدل الحال منذ العهد الاكدى اذ وجه الفتح الخارجى بهيئة دائمة وحكمت الاقاليم التابعة من قبل الملك الذى عين حكاما وولاة للك الاقاليم تابعين له • واستلم أمر اداره الاقاليم التابعة الى المملكة وكذلك ادارة المملكة الداخلية • وامتاز عهد سلالة أور الثالثة بمركز الادارة المركزية فى زمنها ، وزاد الامر اكثر فى عهد امبراطورية حمورابى وفى عهد الامبراطوريات الآشورية • ومما يقال عن الملوكية والامبراطوريات التى نشأت فى العراق القديم انه لما نأتنا عنها اشياء تشير الى تنظيم امور المملكة والامبراطورية بنظام مدون • ولكن مما لا شك فيه انه كان عند القوم عرف مستمر طويل العهد حول طريقة الحكم وتنظيم شؤون الملوكية وامر وراثة العرش وتعيين الولاة والموظفين • ويغلب على الظن وجود انظمة مكتوبة لتنظيم شؤون المملكة وخلافة العرش • واذا كان لم يأتنا بعد بنماذج من هذه الانظمة المدونة ، فنستطيع أن نستنتج وجودها على وجه الاحتمال قياسا على ما وجد من الوثائق المكتوبة فى «بوغازكوى» فى آسية الصغرى التى دونها الحثيون بالخط المسمارى واللغة البابلية اذ كان من بين

هذه الوثائق ما يصح ان يعده أقدم دستور مدون لنظم الحكم وخلافة العرش وحقوق الناس وعلاقاتهم وحقوق النبلاء وبيان سلطات الملك وتحديدها • وبالطبع لتأثير حضاره العراق القديم فى هذا الجزء من العالم واشعاق الحضارة الحثيه من حضارات العراق القديم فلا يستبعد وجود ما يشبه هذا الدستور أو القانون الاساسى أو أن اصله فى حضارات العراق القديم[1] •

واجبات الملك :ـ

ومهما يكن من أمر فقد كان على الملك ، بصفته مفوضا من الآلهة لتحكم الناس ، واجبات كثيره متنوعة ، فكان حامى الناس والبلاد ، وهو الذى يقود الجيش وقت الحرب ويشيع العدل بين الناس ويقوم بالمشاريع العامة من حفر الاقنية واقامه المعابد • وكان عليه تجاه الآلهة كذلك واجبات كثيره ، اذ يجب عليه أن يعنى باقامة الشعائر لها ويبنى معابدها ويقسم لها الجوامل الفخمة وهو وان كان مطلق السلطان الا ان سلطته مستمده من الآلهة فهو مسؤول تجاهها فى حكم الشعب • وقد خلف لنا كثير من الملوك مآثر كتابية يؤكدون فيها انهم شيدوا العدل وحافظوا على الحدود واقاموا الشرائع وحفروا الجداول والاقنية والانهار وصوروا بصورهم أنفسهم وهم يحملون سلال التراب والآجر رمز قيامهم ببناء المعابد • ولم يألف الملك البابلى « حمورابى » فى ان يحمل هو واباه الآجر والسلال عند تحديد بناء صرح بابل الشهير • هذا ولم يكن بالجد الاقوال عند الكثيرين منهم مجرد ادعاء أو تباه فقد جاءتنا منهم مآثر وادلة تشير الى عنايتهم الفائقة بأمور المملكة والسهر على مصالح البلاد ووحدتها وعلى كل حال فلم يمنع قدسيه الملوك أن ثور الناس على بعضهم فنغصت الثوار عروشهم كما حدث مرارا كثيره فى بلاد بابل وبلاد آشور •

---

(١) ولعل مما يؤيد هذا الظن ان هذه الوثائق تحتوى على كثير من آداب العراق القديم كقصه جلجامش المترجمه الى الحثيه واحبار سرجون و « نرام سين » الاكديين ووثائق العرافه والكهانه وغير ذلك •

وكان ساعد الملك فى ادارة شؤون الدولة جمهور كبير من الموظفين كان أمر نظامهم ودرجاتهم وتوزيع الاعمال فيما بينهم قد بلغ درجة راقية، فكان للملك حملة وزراء ورئيس الوزراء يساعدونه فى الادارة الداخلية. ويدير شؤون السياسة الخارجية رئيس الوزراء . وكان اخطر منصب فى الدولة وزاره المالية ، حيث بيدها تنظيم التجارة والحياة الاقتصادية وجمع الضرائب وحرن العلاب والواردات . ويأتى بعد طبقات الوزراء قـــواد الجيش ، وقد تطور نظام الجيش فيما بعد عهد دويلات المدن (أى عصر فجر السلالات) وصارت لدى الملوك جيوش قائمة جراره كما سنذكر ذلك فيما بعد . وكان الملك يعين من قبله حكام وولاة الاقاليم . وكان نظام هؤلاء يختلف بحسب العصور التاريخية ، فكانوا فى الازمان القديمة اشبه ما يكونون بأمراء الاقطاع ، يرثون مناصبهم ، ولكن صـار الملك يعينهـم منذ السلالة الاكدية ، وقوى الحكم المركزى فى زمن سلالة اور الثالثـة وسلالة حمورابى وبلغ أوجه فى عهد الآشوريين ابتداء من زمن القرن التاسع ق.م. وكان للملك طبقة من الموظفين خاصين ببلاطه وهم كبيرون شعبة اعمالهم فمن بينهم ناظر القصر أو رئيس الديوان الملكى ورئيس السقاة ورئيس الحارس ورئيس الخصيان ومدير الحرم الخ . وكان معظم هؤلاء يرافقون الملك فى حملاته الحربية وأسفاره . وكان للملك سـفراء خاصون (ويعرفون باسم «مارشفرى») يرسلهم الملك ليمثلوه لدى الـدول الاخرى وهم مربوطون بالبلاط رأسا . ويصحب السفراء عادة مترجمون (ترجمانو) وكتبة وقضاة .

ومن طبقة الموظفين صنف القضاة ، حيث كان الملك يعين قضـاة مدنيين بدرجات مختلفة . وكان الكهنة ، بالاضافة الى أعمالهم الدينية ، يتولون تطبيق أحكام الشرائع وتفسير نصوصها فى معابد المدينة ، والى جانب هؤلاء كان للبلاط جمهور غفير من الكتبة والاطباء والمغنين والعرافين والكهنة والسحاة والموسيقيين والسقاة الخ ..

ومما يذكر عن شؤون الملوك واعمالهم الادارية ان لدينا عن ذلك مصادر وفيرة مهمة كالشرائع التي اصدروها والوثائق الرسمية الادارية والكتابات الملكية التاريخية المنوعة والرسائل الملكية الخاصة بادارة المملكة مثل رسائل حمورابي الى ولاته ورسائل الملوك الآخرين من سلالته ورسائل ملوك الامبراطورية الاشورية الثانية[١] . فمسح من رسائل الملوك البابليين شاط الملك البابلي ومبلغ درايته ووقوفه على شؤون المملكة الكبيرة والصغيرة ، فكان يسيطر حتى على الموظفين غير الكبار في مدن امبراطوريته البعيدة ، ويسيطر حتى في الشكاوى التافهة ، ونجد حمورابي يبالغ في احدى رسائله بعد دعوى لاعادة النظر فيها لاسباب بعض الاصول المتبعة في المحاكمات[٢] كما ان كثيرا من الدعاوى كان يبت فيها بقرار منه . ويتدرس من تلك المصادر ايضا ما كان يخصصه الملوك من الجهود الكبيرة في شؤون الارواء وتطهير الانهار وحفرها وفي شؤون الشعائر والاحتفالات الدينية . والى واجبات الملك الادارية كان الملك مسؤولا امام الاله عن حسن القضاء بوضعه المعين فيها من قبل الآلهة . وهناك رسائل طريفة اشتهر بها الملوك الاشوريون كانوا يعنونها الى الاله اشور عند الشروع بحملاتهم ومشاريعهم الحربية، فكانت تلك الرسائل بمثابة التقارير الخاصة التي يرفعها التابع الى رئيسه عن سير العمل الموكل به[٣] . وكان يقع على عاتق الملك تفسير ما يريده الآلهة وتمثيل رغبته بدى الآلهة بالاضافة الى ادارة المملكة . ولكن الوظائف الدينية كانت اول مما كان يشغله الملوك الاشوريون ، على ان

(١) حول هذه الرسائل الملكية راجع المصادر الاصلية المنسوبة اليها —

(1) Harper, **Letters and Inscriptions of Hammurabi.**

(2) Pfeiffer, **State Letters of Assyria.**

(3) Harper, **Royal Letters of Assyria.**

(٢) انظر L W King, **A History of Babylon,** P 160

(٣) انظر مثلا أخبار حملة سرجون الاشوري الثامنة المشهورة (Thureau - Dangin, **Une relation de la huitième Campagne de Sargon** (1912)

الملك كان فى جميع الازمان على رأس رجال الدين وهو الذى يعين الكاهن الاعلى ، وكان هذا التعيين حدثا مهما بحيث كان يتخذ حادثه يؤرخ بهـــا ، والظاهر ان الآلهة كانت يؤخذ رأيها فى أمر ذلك التعيين ، فهناك نص طريف جاءنا من الملك الكلدانى « سو نهد » يصف فيه كيف عين ابنته كاهنه عليا للاله القمر فى اور ويروى لنا ان الاله القمر ارســـل علامات نذير بان « سود جسمه السماوى فى اليوم الثالث عشر من ايلول » وفسرت تلك الظاهرة (اى خسوف القمر) بانها اماره على ان الاله القمر يريد «عروسا الهة له» (أى كاهنه عليا) • فأطاع الملك ارادة الاله ولكنه أراد أن يتأكـد من صحتها فرار معبدى الاله « أدد » « وشمش » الحاصين بتفسير الفـــأل والعجائب الالهيه ، وبعدها اخذ يقدم بالتعاقب افراد عائلته فرفضوا جميعـا حتى اسفر «اختيار الاله على اسمه» • وكان ملوك العراق الاقدمون ،ولاسيما الملوك الاشوريين ، يستخدمون فى تفسير ارادة الآلهة جماعات كبيرة من الكهنة والعرافين ، وكانوا يرسلون بعض هؤلاء الى الجهات المختلفـــه المرصد النجمى والفلكى وقد جاءنا عن هؤلاء تقارير قيمه فى الرسائل التى كانوا يرسلونها الى الملوك من مركز الرصد[1] • كما ان الآلهة قد تبلغ ارادتها الى الملوك عن طريق الرؤى والاحلام والفال المشهور على ذلك رؤيا جوديه الخاصه بتجديد معبد الاله نجرسو فى لجش[2] • وعـلاوه على واجب معرفة ارادة الآلهة وتنفيذ مطالبهـــا كان الملك مسؤولا أمـام الآلهه عن سلوك الشعب وأعمالهم كما انه الوسيط بينهم وبين الآلهـــه • وكان يصوم فى بعض الاحايين للكفر عن ذنوب الشعب • وفى رسالة جد الملوك الاشوريين وجب على الملك ان يصوم ويقدم القرابين الى الآلهـــة

(١) انظر المرجع رقم ٢ الهامش رقم ١ ص ٣٩٠

(٢) لقد دون جوديه خبر ذلك فى نص يعد خير ما يمثل لنا الادب السومرى واللغه السومريه فى ذلك العهد انظر تحليلها والمراجع المنشوره فيها فى
Frankfort, **Kingship and the Gods,** 255.

لوقوع خسوف للقمر فسر ماه بدير شؤم ووصف لنا نص آخر ما ينعى الملك أن يفعله فى حالة حدوث زلزال فكان عليه ان يقـــدم القرابين الى ابو وانليل واوا ، ويلزم عليه بعد الصلوه ان يحلق ويزيل شعر جسمه ويضع الشعر فى اناء خاص يضعه فى حدود بلاد الاعداء[١] • وقد وجد على ملك اشورى آخر ان يقوم بطقوس معهده صارمة فمن ذلك مثلا ماؤه معكفا فى كوخ سبعة أيام وقامه فى اثناء ذلك بحمله بواع معقده من الكفارات والمطهر[٢] ، وفى بعض الطقوس الذى كان من الممكن للملك ان يرسل رداءه بدلا من حضوره الشخصى • اما تعادات اليوميه فى المعابد فكان الكهنه هم الذين يمثلون الملك فى ادائها • ومن الشعائر الخطيرة التى تخص الملوكيه عاده تعيين شخص بديل من الملك لتقوم بعض الشعائر الخطره ، حين يظهر بدير مخيفة عامضه من الآلهه تهدد الناس والمملكه ، ولما كان الملك ودبعه الآلهة عند الشر فلا يسعى ان يعرض شخصه الى المخاطر بحضور الشعائر الخاصه فيعين بديل عنه او يؤخذ شيء يعود له كصورته أو جسمه أو ردائه الخ[٣] ، وفى حاله القيام باجراء العمليات السحريه على جيش العدو قبل بدء المعركة كان مخطورا على الملك الاشتراك فيها مثلا يعرض لاسر السحر ، فيسوق عنه بديل عنه او شيء خاص به ، وفى بعض الحـــالات الخطره التى تفسر بالشر ، كظهور كسوف أو خسوف يعين كذلك بديل عن الملك ، وقد جعل هذا البديل يحكم مائة يوم فى بعض الحالات ثم قتل من بعد ذلك ليخلص شخص الملك من الشر وكان البديل يجعل ملكا مع وجود الملك حيث يذهب الى الموضع المخصص لاجراء الطقوس الخاصه بدفع الشر ويعامل كما يعامل الملك • ومن طريف آخبار هذه العاده ما سبق أن ذكرناه فى الكلام على العهد البابلى القديم من ان البديل المعين بدلا من الملك قد يتوأ

(١) Threau - Dangin, **Rituels Accadiens,** P 37

(٢) انظر
Pfeiffer, **Op. Cit.,** No 270, Harper **Op. Cit.,** No 370

(٣) René Labat, **Royauté Bab. et Assyr.,** 309, 352 ff

العرش فعلا حتى ماب الملك فى اثناء القيام بعمله المراسيم الخاصة ولعله أعسل أو سم من حاب الدبل[١] وهناك بعض الباحثين من يفسر ما يسمى بالصور الملكية فى اور فى أواخر عصر فجر السلالات بهذه العادة ، اى ان الضحايا الذين وجدوا مع جلاهم واثاثهم هم اشخاص عينوا ابدالا عن الحكام فى ذلك العهد[٢] . والجدير بالملاحظة بهذا الصدد ان عاده تعيين بديل عن الملك لم تكن معروفة فى حصاره وادى السل لان وجودها يناقض مبدأ الوهبة الملك .

ومن الواجبات المهمه التى كان يلزم على الملوك تحقيقها اراء الآلهة بناء المعابد وتجديد بنائها واعادتها واداميها وما يتعلق بذلك من تخصيص الاثاث والادوات والتماثيل الخ . وكان بناء المعابد ثم بعد احراء شعائر دسه مهمه فكان بناء المعابد من أهم واجبات الملوك بل هى أهم مظهر لعلاقة الملوك بالآلهه ، وكانت هذه الاعمال تستغرق موارد كثيره من وارداب الدوله ومن جهود الملوك ، وكذلك كان الحال فى حصاره وادى السل ولكن مراعاه عصر تصميمهم آلهه لم تكونوا مدفوعين للقيام بها بدافع الخوف أو الواجب اراء الآلهه بل انهم كانوا يصمون المعابد لهم وللآلهه من تلقاء أنفسهم . ولنلجأ ملوك وادى الرافدين فى أمر بناء المعابد الى أصول التنؤ والفأل للاسترشاد رغبه الآلهه والكيفيه التى يرغبون ان بنى فيها « بيوتهم » ، وبعد الوقوف على رغبه الآلهة بهيء موضع المعبد وتطف تطهيرا طقوسيا بالنار وبالتعريم والرقى ، وقد تشمل العملية مساحات كبيره غير موضع المعبد الخاص ، ثم يأمر الملك بهيئة «اللبن» (الآجر) ، وكانوا يصنعون كثيرا باستخراج أول لبنه آجره من « القالب » ، وبعد ظهورها بهيئة جيده من الامارات الحسنه على قبول الآلهه لعمل الملك . وقد جاءنا عن ذلك مشاهد

(١) انظر النص الاصلى حول هذه الحادثه فى
L W King, **Chronicles Concerning Early Bab. Kings,** II 12—14

(٢) Frankfort, **Op. Cit.,** 400

مصوره فى الخوم الاسطوانة وفى المحونات ، ففى أحد الحوم من عصر فجر السلالات شاهد شخصا وهو يقيس لبنة «مسويه ـ محديه» بمسطرة يمسكها اله جالس على عرشه[١] ، وبرسا نحت بارز ملك لجش « اور ـ باشه » وهو يحمل على رأسه سلة تحوى على طين لصنع اول آجـــره للمعبد[٢] • وقد صور أعلب ملوك العراق القديـــم الى العهد الاشـورى المتأخر بهيئة تضاهى صوره « اور ـ باشه » على اختلافهـــم المحونة أو بصور من البرونز[٣] كانت تدفن فى أسس المعابد ، وكانت اللبنة الاولى تقوم بصنعها الملك نفسه ويحمل طينها فى السلة على رأسه • ووصف لنا جوديه فى كتاباته الاحتفال بصنع أول لبنة لمعبد نحرسو وكيف انه قضى الليلة السابقة لصنعه اياها فى المعبد وهو متطهر ليكون على اتصال بالالهـــه ويسلم اوامره[٤] • ونجد فى مسلة « اور ـ نمو » (المعروضة بمتحفهـــا فى المتحف العراقى) مشهدا فيما طريفا يصور فيه الملك وهو يسلم ومر الهه لبناء معبد الاله القمر ونرونديه فى أور ، وفى الحقل الثانى من المتحف يسلم الملك من الاله بعض آلات البناء مثل « الخيط » و « الشاقول » والفأس ويرجح أنهم كانوا يصنعون فى قالب اللبن زبدا وعسلا ويحرقون الاعشاب ذوات الروائح العطرية لطرد الارواح الشريرة • ثم بنى عمله وضـــع الطين فى القالب من قبل الملك نفسه • وتعرض الجثة امام الناس ليتطمأنوا على نجاح الشعائر الدينية وعلى أن آلهتهم راضيه غير غاضبة •

اعمال العرش والتتويج

وتبقى الاشارة على نقاط الملوكية فى حضارة وادى الرافدين بذكر أشياء موجزة مما عرف عن اعمال العرش ومراسم التتويج . وأول

(١) انظر الصوره رقم ٤٧ فى Frankfort, **Op. Cit.,**

(٢) الشكل ٤٦ فى ذات المصدر

(٣) فى المتحف العراقى مجموعة طريفة من هذه الصور (انظر دليل المتحف العراقى ١٩٤٢) ودليل المتحف البريطانى للآثار البابلية والاشورية •

(٤) Thureau - Dangin, **Konigsinschriften,** P 63,—11—61—67

ما نذكر مسألة ولاية العهد ، ولكننا لا نعرف شيئا مؤكدا عما اذا كان ملوك العراق القديم يسيرون على قاعدة تعيين ولي العهد واشراكه في الحكم في عهد الملك كما كان يجري في مصر القديمة حيث كان نظام الـ(Coregency) متبعا . على انه مما يؤيد احتمال وجود ذلك في العراق القديم ان الملوك الاشوريين من عهد الامبراطورية الثانية كانوا يسمون هذا العرف . وكانت الآلهة تستشار في أمر تعيين ولي العهد[1] ، ولم يكن من الضروري ان يكون ولي العهد أكبر أبناء الملك ، كما ان الاخوة الباقين نجدهم في بعض الحالات لا يمنعهم قسمهم بالولاء له من الثورة عليه بعد موت الملك ، ولكن كانت مشكلة وراثة العرش تسير محلولة من الوجهة الرسمية بمجرد تعيين ولي العهد . ويروي لنا الملك الاشوري «اسر حدون» كيفية تعيينه لولاية العهد في عهد أبيه اذ يقول : « كنت أصغر أخوتي . ولكن ابي الذي ولدني كرمني في مجلس اخوتي بأمر الآلهة اشور وشمش ومردوخ ونبو عشتار سيدتي وعشتار اربلا مصرحا بقوله : هذا هو خلفني » . لقد سأل الانبياء شمش واحدا بطريق الفأل فاجابه الموافقة : « انه هو الذي ينبغي ان يكون خليفتك » ، وبالاصياح الى هذا الاعلان جميع أهل بلاد اشور ، وكذلك اخوتي الذين ولدوا في بيت الابوة ، وجعلهم يقسمون على الاعتراف باولويتي امام الآلهة اشور وسين وشمش ونبو ومردوخ ، آلهة بلاد اشور الساكنين في السماء والارض . وفي شهر نيسان ، في يوم صالح منه ، وبموجب ارادة الآلهة السامية دخلت فرحا الى « بيت ولاية العهد » ، وهو قصر مهيب جليل للمصائر الملوكية[2] . وفي هذا القصر كان

---

(١) Labat, **Royauté**, 40—42.

(٢) بيت ولاية العهد أو بالاشورية (بيت ردوتي) حول النص انظر محله

ZA (Zeitschrift für Assyriologie), X L II (1934), 170 ff
Frankfort, **Op. Cit.**, 245 — 246

ولى العهد بدور على شؤون الملك ، وكان يقوم بدور فعال فى ادارة الدولة والحكومه ، فيمثل الملك فى الاحتفالات الرسميه ، ويشرف على اقامة الشعائر الدينية ويوقع بعض رسمية ، وبهذا يحث يكون لائقا لتولى مسؤلياته بعد موت ابيه .

وكان المراسم الخاصة بالتتويج بعد موت الملك تحتم وتشب باعلاء ولى العهد عرش المملكه ، وهى مراسم مهمه حيث يتم فيها تسلم الملك الجديد شارات الملك المقدسه من الآلهه ، حيث تسلمه لها يتم اصطحاب الآلهه له ملكا كما اصطحابه لولاية العهد . والعاده ان الملك الجديد كان يتسلم شارات الملك فى معبد اله المدينه الرئيسى . وقد حتم السومريون التاج والصولجان وجعلوهما بهيئة الهيين سموهما « سيدة التاج » و « سيدة الصولجان » وكانا يوضعان على ذكه مدينة المعبد . وقد جاء نص مهم يصف لنا حفله التتويج التى حدثت فى مدينة الوركاء فى معبدها الشهير « ايى انا » : « لقد دخل (الحاكم) الى « ايى ـ انا » واقترب من منصه العرش المقدسة . فاخذ الصولجان الذى يحدد . لقد اقترب من منصة العرش (سيده العرش) ووضع التاج الذهبى على رأسه ، لقد اقترب من المنصه فدخل « سيده الصولجان » اسمه الحقير ودعه باسم الملوكيه »[1] والمرجح ان الفقره الاخيرة على الرغم من انحراف النص تعنى ان الملك الجديد عند توجيه يعطى اسما غير اسمه الشخصى الاعتيادى[2] . وايضا نص اشورى فى وصف حفلة التتويج التى اقيمت فى توتيج احد الملوك الاشوريين ، ولكن لا يذكر مسألة تبديل اسم الحاكم الجديد . وملخص الاحتفال كما جاء فى ذلك النص[2] « يقصد الملك الجديد معبد الاله اشور فى مدينة اشور[3] حيث الشارات الملكية مودعة فى المعبد فى منصتها الخاصة . وكان الملك يحمل

(١) أنظر Frankfort, **Op. Cit.**, 245 — 246

(٢) ذات المصدر الص ٢٤٦ فما بعد

(٣) وهذا يعنى ان موضع الاحتفال بالتتويج عند الاشوريين كان يتم فى العاصمه القديمه اشور وليس فى العواصم الاخرى مثل نينوى وكالح .

على عرش على اكتاف الرجال بموكب حافل ، ويسبق الموكب كاهن ضرب بطبل ونصبح : اشور هو الملك ! اشور هو الملك !(١) ، وبعد أن تصل الموكب الى المعبد تدخله الملك وأول ما تفعل انه يقبل الارض ويحرق البخور ثم تعلى منصة عالية فى نهاية المعبد حيث تقوم تمثال الاله • وهنا تسجد أمها وتلمس الارض بناصيته وتقدم امام تمثال الاله هدايا تحملها خصيصا لهذه المناسبة ، مؤلفة من اناء من ذهب وزن ثمين وكمية من الفضة وحفنة موشاة مطرزة ، ثم تهيأ منصة القرابين الخاصة بالاله اشور فى حين ان الكهنة يتولون اعداد مناصة الآلهة الاخرى التى تعبد مع اشور فى معبده ، وثم تنتهى الاستعدادات الاخيرة للتتويج ، ولكن مما يؤسف له ان النص فى هذا الموضع مشوه ولا يمكن معرفة ما كان يجرى بوجه التأكيد ولكن يحتمل كثيرا أن الملك كان يمسح بالزيت الموضوع فى اناء ذهب • ثم يضيف لنا النص من بعد ذلك انهم كانوا يحضرون تاج الاله اشور وأسلحته الالهة بتلل (روحة اشور) ويوضع على كراسى عند قدم منصة الاله ويحمل الكاهن الاعلى التاج والصولجان وهى على وسائد من الوبر والصوف ويحلنهمـــا الى الملك ويقول مخاطبا اياه : « تاج رأسك ــ عيسى اشور وتلل ، سيدنا تاجك ، ضعناه على رأسك طوال مائة عام • ان قدمك فى « انكور » (وهم اسم معبد الاله اشور) ويديك ممتدان الى الهك اشور ، عيسى ان تالا الحصوه والرصا • وامام الهك أشور عيسى أن تحد وطيفك الكهنوتية ووظيفة أسائك الحضوة • وصولجانك المستقيم اجعل تلادك واسعة • وعيسى ان يمنح أشور رضاه وعدالته وسلامه » • وبعد أن تنهى الكاهن خطابه تصلى عظماء المملكة ووجهاؤها الذين جاؤا مع الملك ، وعندما يرجع موكب التتويج الى القصر الملكى يجتمع اولئك الوجهاء امام عرش الملك ليقدموا الولاء والطاعة الى الملك، ويقدموا له الهدايا ، وكانوا يخلعون شاراتهم وأوسمتهم المميزة ويضعونها

(١) وهذا اشاره الى ان الملك الجديد لم يعين بعد من لدن الاله اشور •

امام الملك ، ويقدمون انفسهم بهيئة غير منظمة بدون مراعاة قواعد « البروتوكول » المألوف في البلاط بالنسبة الى مناصبهم ومراكزهم والمقصود من ذلك انهم تخلوا عن مناصبهم في الدولة بمناسبة تتويج الملك الجديد ليسحب هو أقطاب حكومته وكبار موظفيها ومن سيهم ويعيد الاول الذي يستقيل معهم أيضا . وقد ورد في النص الخاص بالتتويج الذي لخصناه ان الملك (اذا شاء الابقاء على وزرائه وموظفيه) يقول لهم : ليسترجع كل واحد منصبه ووظيفته ، فيأخذ الوجهاء شاراتهم واوسمتهم المميزة لرتبهم ثم يأخذ كل منهم رتبه بمقتضى استقالته ومنزلته بالنسبة الى عرف البلاط .

الجيش :ـ

كان الجيش من الانظمة المهمة في المجتمع والدولة منذ ابعد عهود التاريخ ويبدأ معرفتنا بنظام الجيش منذ عصور فجر السلالات حيث كانت دويلات المدن المتحالفة تتنازع فيما بينها على السلطة . ويرجح كثيرا أن الجيوش النظامية الدائمة لم تبدأ بهيئة منظمة الا في أواخر عصر فجر السلالات منذ زمن السلالة الاكدية ، فان الفتوح الخارجية التي قام بها ملوك تلك السلالة قد استلزمت منهم تكوين جيوش مدربة دائمة ، وكان لتطور معرفة العراقيين القدماء المعدنين واستعمال المعادن بكثرة دخل كبير في نظام الحرب وتأليف الجيوش والاسلحة . وقد رأينا فيما سبق ان العراقيين القدماء قد عرفوا المعدن في عصور ما قبل السلالات (ولا سيما في عهد العبيد) وبدأوا يعرفون صناعة البرونز منذ عصر جمدة نصر ، فصنعوا من هذين المعدنين آلاتهم وأدواتهم ومن بين تلك الفؤوس ورؤوس السهام والرماح وازدادت معرفة القوم بصنع هذين المعدنين منذ عصور فجر السلالات الى حدود النصف الثاني من الالف الثالث ق.م حيث بدأوا يعرفون الحديد واستعمل الاشوريون الحديد بعد استعلال فصنعوا منه أضخم آلاتهم الحربية . وقد ساعدهم في نشر سلطانهم الرهيب في جميع أنحاء الشرق القديم . وصنعوا من النحاس والبرونز والحديد العجلات ووسائل

والواصلات الاخرى ولدينا أدلة شتى أن استعمال العربات قد بدأ منذ عصور ما قبل السلالات ولكن لا نستطيع ان نتكهن في أمر استعمالها للحرب كما كان الحال منذ عصور فجر السلالات • ولدينا من الادلة ما يشير الى ان الحروب المنظمة الواسعة قد بدأت في تاريخ الانسان منذ نشوء الحضارة في عصر فجر السلالات وقد سبق ان ذكرنا احتمال أصل الملوك بانهم كانوا قواد حرب منتصرين حازوا على حكم الشعب بسبب مقدرتهم الحربية •

وقد خلف لنا اوائل الملوك من عصور فجر السلالات قطعا من المنحوتات التي تصور نظام الحرب في تلك الازمنة البعيدة فمن بين هذه الآثار المهمة نصب سمي بنصب النسور[1] • وقد اقامه في مدينة لجش احد ملوكها المسمى « اناتم » تخليدا لانتصاره الحربي على المدينة المجاورة المعادية « أوما » • ويمثل لنا هذا النصب نظام الجيش السومري واسلحته في عصر فجر السلالات • فشاهد فيه الملك وقد صور على رأس الجيش وهو يقوده وقد يدرع بدرع خاص ، وفي رأسه خوذة ويحمل رمحا وسيفا قصيرا معوجا ، وشاهد خلفه الجيش وقد صف بهيئة نظام الصف (Phalanx) كما تعلم قسم من الجيش في عهد الاسكندر الكبير والاغريق ، ويلبس الجنود خوذات محروطة يرجح أن تكون من النحاس ، وقد مسك كل جندي برمح بيده ويحمي نفسه بمجن يرجح أنه يمسكه جنود خلف الصف المسلح بالرماح ، وكان هذا صف الجيش المسلح بالاسلحة الثقيلة الشديدة الوقع في الهجوم والدفاع وقد صور في حقل اسفل المشهد الاول تعلم آخر الجيش يقدمهم الملك الذي في عربته الحربية ، وخلفه صف من الجيش مسلح بالاسلحة الخفيفة لمطاردة الاعداء • وصور في وجه آخر من النصب المشهد يمثل اله مدينة لجش « نينورسو » وهو في حرب الذي

(١) ويعرف بـ The Stele of the Vultures وهو الآن في متحف اللوفر في باريس • انظر المرجع الاصلي الآتي :-
E de Sarzec and L Heuzey, **Découvertes en chaldée** (1884)

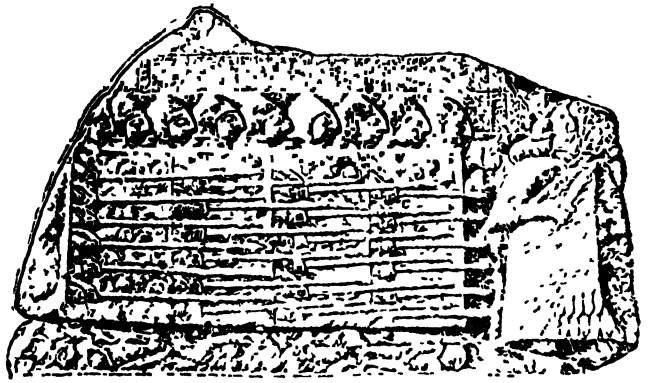

صورة من النحت البارز تمثل الملك السومرى اناتم يقود حشمه الذى يسير خلفه على هيئه نظام الصف ٠

مع حيش « أوما » وقد أمسك الاعداء فى شبكه المقدسة ، ومن الملاحظ الطريفة فى هذه المسلة ان أحد الاعداء الذين صادهم الاله فى شبكته قد أخرج رأسه من الشبكة محاولا الهرب ولكن مثل فوقه صولجان الاله الضخم (رأس الدبوس) وهو على وشك السقوط لتهشيم رأسه ٠ وحاءنا من عصر فجر السلالات كذلك مشهد حرب على قطعة فنية وجدت فى اور من مقبرتها الملوكية وتعرف « بعلم اور » نشاهد فيه العربات الحربية وكتائب السهام ٠ ومما يلاحظ فى العربات كما ذكرنا فى موضع آخر ، ان عجلاتها صلدة، وظلت كذلك حتى الالف الثانى حيث شأت العجلات المشبكة السريعة فى المواصلات والحرب ، وكانت العربات سواء كانت تستعمل للمواصلات أو للحرب تجرها الحمير أو الخيول الوحشية ٠ لان استعمال الخيول المدجنة لم يشع استعمالها كثيرا الا منذ اواخر سلالة بابل الاولى ، فمع وجود عدد من الخيول فى عهد حمورابى الا أن الخيل بوجه عام كانت شيئا نادرا فى عهده ، والمعروف ان استعمالها بكثرة انما كان فى العهد الكشى ، حتى

انها كانت تصدر الى مصر كما تشير الى ذلك رسائل العمارنة (انظر ترجمة الرسالة الخاصة بالموضوع فى البحث الخاص بمصر فى الجزء الثانى)• وبمناسبة ذكر استعمال الخيل يجدر بنا ان نشير هنا الى نص طريف مدون باللغة الحثية ولكن بالخط المسمارى كتب فى حدود ١٣٦٠ ق•م واكتشف فى العاصمة الحثة (فى بوغاركوى) وهو عبارة عن مقالة فى تربية الخيل ومنها بعض المصطلحات الهندسية الاوربية ، وقد وصفت تلك الرسالة تربية الخيل والعناية بها لمدة سنة أشهر يوما فيوما وساعة فساعة • وتدل هذه المقالة على الزمن الذى انتشر فيه استعمال الخيول كثيرا[١] فى اسية العربية ولعل اصلها من الاقوام الهندية الاوربية • ومع ذلك فقد انتشر استعمال الخيل فى الحرب والمواصلات منذ المنتصف الثانى للالف الثانى ق•م[١] •

ومع جهلنا بأحوال الجيش فى العهد الاكدى ونظام معيشه واسلحته فانه قد طرأ عليه منذ هذا العهد تغيير أساسى من حيث العدد والدوام والتدريب وذلك تمشيا مع التبدلات السياسية التى حدثت فى عهد السلالة الاكدية من توحيد البلاد ونشوء الامبراطورية • وقد اخبرنا سرجون فى احدى كتاباته أن جيشا خاصا (الحرس الملكى ؟) قوامه (٥٤٫٠٠٠) رجل كان يتناول الطعام من الملك نفسه ، ولعل هذا الجيش جزء من جيشه القائم المكون من صفوة المحاربين من اتباع سرجون • وخلف لنا «نرام سين» الشهير مسلة مشهورة تعرف « بمصب النصر » نحتت لتخليد احدى انتصاراته الحربية على بعض القبائل الجبلية المسماة « لولوبو » وفيها نشاهد بعض الاسلحة الحربية كالرماح الطويلة والقوس والسهام ونشاهد الملك على رأس جيشه قاهرا الاعداء وتعد هذه المسلة من أعظم القطع الفنية فى العراق القديم عدا أهميتها التأريخية وقد سبق أن لاحظنا فى كلامنا على العهد

الاكدى التحسينات التى أدخلها الاكديون الى نظام الحرب ولا سيما فى أساليب القتال والمعسكر فقد أدخلوا عنصر الخفة والحركة والمناورة فى الهجوم والدفاع مستعملين أسلحة خفيفة كالقوس والسهم والرماح وتركوا الفؤس الثقيلة والدروس الثقيلة كما أوحدوا طريقة المبارزة رجلا مع رجل . وجاءنا من العهد الاكدى لوح فيه ذكر لصنع بعض من عدة الحرب مثل الخوذ المصنوعة من الجلد (جلد البقر والماعز) ونوع آخر من الخوذ مصنوعة من النرور وجاءنا اشارات صريحة تشير الى نظام التجنيد من زمن الامبراطورية فى عهد سلالة أور الثالثة ، وقد وردت فى شريعة حمورابى جملة مواد لتنظيم شؤون الجند ، فمن ذلك صنفان من الضباط أحدهما يسمى « ريدوم » والصنف الثانى «البائيروم» ولا نعرف بوجه التأكيد وظائفهما الخاصة ولكن يبدو أنهما كانا ينظمان شؤون التجنيد . كما وردت فى شريعة حمورابى أحكام تنظم الخدمة العسكرية أو كما سمتها الشريعة « خدمة الملك » (الكسو) وتخصص الاراضى لاعالة الداخلين فى تلك الخدمة وتنظيم تلك الاراضى مع عدم جواز بيعها ورهنها وجواز اعطائها الى الآس على شرط القيام بخدمة الملك . كما وردت جملة أحكام حول ضباط « الريدوم » و « البائيروم » ومن ذلك الزام بعد المدينة بدفع الفدية فى حالة اسرهما وعدم تمكنها من الدفع ، وفى حالة عدم وجود المال فى المعبد ، فيلزم على المدينة ان تقوم بالدفع ، وتشير ظواهر الاحوال الى شيوع طبقة من الجواد العسكريين أو الفرسان التابعين الى سلالة بابل الاولى من الطبقة الحاكمة العليا ، من طبقة « الاويلم » . وجاءتنا اشارات من الزمن البابلى الاخير الى فرض بعض الضرائب الخاصة على بعض السكان لادامة الجند .

وقد أصبح الجيش والحرب على رأس المؤسسات الاجتماعية عند الاشوريين ، وقد سبق ان ذكرنا فى البحث الخاص بالاشوريين كيف ان عوامل البيئة ولا سيما البيئة البشرية قد حملت من الشعب الاشورى جيشا قائما فتاكا ، وقد طغت الحياة الحربية على الحضارة الاشورية فكانت

بلاد اشور اشبه ما تكون بروسيا فى المانية • وكان الملوك الاشوريون قواد حرب بالدرجة الاولى اكثر من ان يكونوا رجال دولة فى أمور السلم، وتطغى على اخبارهم الرسمية تواريخ الحروب والحملات الحربية التى كانوا يقومون بها فى كل عام • ومن الطريف ذكره بهذا الصدد أن بعض ملوكهم (وهو توكلتى تنورتا الثانى) لم يكن عنده فى احدى السنوات مشـــاريع حربية ، ولكنه مع ذلك سار بجيشه باستعراض ورحلة من عاصمته الى الشمال ثم الى بلاد بابل • وكانت العادة أن الحملات الحربية يقودها الملوك انفسهم، وقد تضعون فى القيادة القائد الـــكبير المسمى (تورتان) و « الرابشافة » الوارد ذكرهما فى التوراة • وقد استغل الاشوريون تعدين الحديد فصنعوا منه أسلحة وآلات حربية فتاكة • وكانت من حملة هذه الآلات الحربيـة آلات الحصار لدك الحصون المنيعة وهى عبارة عن برج من الحديد مصفـح يكمن فيه رماة السهام والمهاجمون وفى مقدمته عمود كبير من الحـــديد لنقض الجدران • وهذه هى الدبابة أو الكبش • وقد خلف لنا الملوك الاشوريون اخبار حروبهم مدونة تدوينا مفصلا فى سجلاتهم الرسمية ، وفيها كثير من الفصائع والدمير والقسوة • وخلدوا مشاهد حروبهم كذلك منحوتة فـى ألواح الحجر الكبيرة الكثيرة فى قصورهم ، وهى منحوتة بمختلف مشاهد الحرب فشاهد فيها حصار الحصون واخذها ، وسلخ جلود الامراء الثائرين وهم أحياء واحراق المدن والبشر أو وضع الثائرين على قضبان الحديد وهم أحياء ، وبوجه الاجمال روع الجهار الحربى الرهيب الذى انشأه الاشوريون معظم انحاء الشرق القديم ، وكانت حروبهم وغزواتهم الحربية لا تنقطع تقريبا فى جميع سنى الملوك المشهورين •

المجتمع والحياة الاجتماعيه

اذا استثنينا الملك وطبقة الكهنة الذين كان لهم مركز ممتاز خاص فان المجتمع البابلى (ولا سيما فى الزمن البابلى القديم) كان مؤلفا من ثلاث طبقات :

العليا فى المجمع • والطبقة الوسطى وكانت تتألف من الاحرار الذين كانت حريتهم مقيدة • وتتألف الطبقة الثالثه من الارقاء • وقد وردت هذه الطبقات واضحة التقسيم والميزات فى شريعة حمورابى فنجد فيها فى رأس المجتمع البابلى الطبقة الاولى التى تسمى عادة بطبقة « الاويلم » و «مار اويلم » ومعنى كلمة « اويلم » الاعتيادى « رجل » و « مار اويلم » ابن الرجل ، ولكن كان لهاتين الكلمتين معنى آخر اجتماعى يدل ، كما ذكرنا ، على مواطن من الطبقة الممتازة أو من مولد رفيع وبوسعنا أن نطلق على هذه الطبقة اسم « الطبقة العليا » ولعل صفوة هذه الطبقة جماعة المشيخة الذين كان لهم مركز ممتاز فى الادارة وفى القضاء فكانوا يدعون فى بعض القضايا بهيئة محلفين أو محكمين • ومن امتيازات المواطنين الاشراف كما جاءت فى شريعة حمورابى ، ان العقوبات التى تفرض على الجرائم المرتكبة ازاءهم أصغر من العقوبات فى حالة ارتكابها ازاء الطبقات الاخرى • ولكن كان يقابل هذه الامتيازات عقوبات صارمة على الاجرام التى ترتكبها هذه الطبقة • وكان من هذه الطبقه الحكام وقواد الجيش وكبار الموظفين ، وفرض احترامها على الطبقات الاخرى • والقاعدة العامه ان الزواج بين الطبقات الثلاث قليل الوقوع بيد أنه وردت حالات يتزوج فيها الفرد من الطبقة الاولى بعدة بهيئة سرية أو كزوجه شرعيه او ان بعض الطبقه الممتازه تتزوج فرد من غير طبقتها حتى بعد رق ولا سيما عندما يكون فقيرا لا يستهويها الزواج باحد أفراد طبقتها •

ويأتى بين الطبقة الممتازة وطبقة الرق الطبقة الوسطى وقد ذكرت فى شريعة حمورابى وشريعة مملكة « اسنونا » باسم « المشكينو » وهى جمهور الناس ، ولكن افرادها كانوا أحرارا اى لم يكونوا أرقاء مملوكين • وقد وردت معاملة خاصة بهم فى باب العقوبات فى شريعة حمورابى ، فمثلا اذا كان أفراد الطبقة الممتازة يعاقبون فى حالة احداث الاضرار فى أعضاء فرد من الطبقة الوسطى بدفع دية أو تعويض وهذا القصاص (اى العين بالعين

والسن بالسن) كان يطبق لو وقعت هذه الاضرار على فرد من الطبقة الممتازة .

أما طبقة العبيد (أردو أى العبد وأمو = أمة أى العبدة) فهم الارقاء المملوكون . وكان نظام الرق موجودا فى المجتمع منذ أقدم العصور . ومن معاملة الارقاء الصارمة ان البابليين لم ينظروا الى العبد كانسان ذى شخصية بشرية بل كانوا يعدونه شيئا من الاشياء أو من مواد الملكية فلذلك لم يذكر فى التسجيلات باسم نسبه أى أبيه وانما باسم صاحبه كما انه اذا وقع عليه ضرر فان التعويض يدفع الى مالكه ، وكانوا يسجلون العبيد بهيئة عدد من الاشياء المقتناة أو عدد من الرؤوس (كما يقال اليوم كذا رأس من الغنم) وكانوا يميزون من بقية أفراد المجتمع بقص شعر رؤوسهم وسمع احسامهم وعاقبت شريعة حمورابى من يزيل العلامة الموسوم بها العبد ، كما ان العبيد كانوا يحملون فى رقابهم لوحا صغيرا من الطين معلق بحبل فيه اسم مالكهم ، وقد خصصت شريعة حمورابى نحو ست مواد فى أحكام الآبقين والعقوبات التى تقع على من يؤويهم وكان منهم صنف يلحق بأملاك القصر لخدمة البلاط والطبقة الحاكمة فيكون مثل هؤلاء ذوى مركز أحسن من الارقاء الآخرين ، ومن أصناف العبد صنف العبد الملحقين بخدمة المعابد الذين كان معظمهم من اسرى الحرب والذين يذرهم الملك بعد انتصاره فى حملاته الحربية .

وكان المجتمع يحصل على صنف العبد من مصدرين أحدهما من داخل البلاد والثانى من خارجها . أما المصدر الداخلى فمنشؤه أفراد من الطبقة الوسطى يؤول مصيرهم الى الاسترقاق فى حالات منها عجزهم عن ايفاء الديون فيحجز الدائن عليهم وسترقهم أو أنهم يبيعون اماءهم أو زوجاتهم لمدة معينة يكونون فيها فى خدمة الدائن . واذا أنكر الولد المبنى أباه الذى تبناه فانه يباع عبدا ، ويجوز للزوج ان يسترق زوجته اذا انكرته . ومهما كان الحال فان هذا المصدر كان ضئيلا اذا قيس بالمصدر الثانى اى المصدر

كثيره كالاسر والشراء والنهب الخ فقد كانت هناك حاجة عظمى الى العبيد للانتاج بحيث يصح القول ان العبيد كانوا من اهم مصادر ثروةالامبراطورية الاشورية والبابلية ولعل أحسن ما يمثل لنا مصدر العبيد الخارجى المحوتات الاشورية الكثيرة فى قصور الملوك الاشوريين حيث شاهد فى الكثير منها الصفوف الطويلة الغفيرة من الاسرى حيث يسوقهم الجيش الظافر وهم موقون ووراءهم نساؤهم وأطفالهم • كما نجد اخبار ذلك مدونة فى حوليات الملوك •

العائلة :ـ

كانت العائلة أساس المجتمع والدولة وأشبه ما تكون بالدولة نفسها فكما كان يحكم الملك البابلى فى مملكته كأب فى عائلته كذلك كان مركز الرجل فى اسرته ، وكانت حقوقه وواجباته تجاه عائلته اشبه ما تكون بحقوق الملك تجاه رعيته وواجباته اتجاهها • وبلى الرجل المرأة فى سيادة بيتها ولكن كانت السلطة العليا للاب وسلطته على زوجته واولاده غير محدودة تقريبا • وكانت كثيرة السبى من الامور المرغوب فيها فى الشرق القديم ، كما هوالحال فى الزمان الحاضر ، وكانوا كما هو الآن كذلك يفضلون الاولاد الذكور • ومن المعتاد انه بعد أن يولد الولد يقر الوالد بابوته له باعترافه به ، ويأخذ المولود الجديد مكانه فى المجتمع والدولة منذ الايام الاولى حيث يحتمل أنه كان يسجل فى السجلات • والعائلة التى لا تحب أولادا كانت تعمد الى طريقة السبى اى اتحاد ولد او بنت من عائلة أخرى • ويكون الولد المتبنى فى هذه العائلة كالولد الطبيعى من حيث الحقوق القانونية وكان التبنى يتم بعقد ، واذا أنكر الولد المتبنى عائلته فيحق لمتبنيه أن يسترقه ويبيعه • وقد نظمت الشرائع أحوال الاسرة من زواج وطلاق وارث وتبنى واسهبت فى ذلك كما تؤيد ذلك شريعة حمورابى • ولعل أبرز ما نقف عليه من دراستنا للشرائع القديمة تحديد علاقات افراد الاسرة بعضهم ببعض كالزوج مع الزوجة من حيث الطلاق والاموال العائدة لكل منهما وعلاقة الابناء بالاب

من ناحية الاحترام والارث • وكانت حقوق الارث محفوظة ولا يستطيع الاب حرمان أحد أولاده من الارث الا اذا أثبت أمام القاضى انه اساء معامله كأن اعتدى عليه او ضربه الخ ••[1] وعندما يتجاوز الاولاد سن الطفولة يبدأ اعدادهم للحياة • فكان الفقراء منهم يلتجأون الى العمل منذ الصغر ،ويرسل المتمكنون ابناءهم الى المدارس الخاصة أو الى المدرسين الخصوصيين فى المعابد وغير ذلك لتعلم القراءة والكتابة والحساب ومنهم من يستمر فى التحصيل فيكون كاتبا مضلعا اما فى الرياضيات أو الفلك أو فى أمور القضاء ، فيكون كاتبا فى البلاط أو قاضيا • ومن الجدير ذكره انه كان يوجد مؤسسات للحرف والصناعات المختلفة يلتحق بها الاولاد لتعلم الصنائع المختلفة[2]•

اما الزواج فكان أساسه عند البابليين يقوم على مبدأ الزوجة الواحدة أى عدم تعدد الزوجات وذلك فى أغلب عهود التأريخ المعروفة ومن الوجهة النظرية على الاقل ، كما يستدل من شريعة حمورابى • فالقانون والعرف كان يبيح للرجل أن يتخذ سرارى (جمع سرية) كما ان الاماء التى يملكها الرجل كن سرارى له بحكم ملك اليمين ، وله أن يتزوج زوجة أخرى عندما تصاب زوجته بمرض خاص يعذر معه القيام بالحياة الزوجية أو كانت عاقرا • وتوجد امارات تشير الى جواز تعدد الزوجات فى حالات خاصة فى الازمان القديمة التى سبقت العهد البابلى القديم وكذلك فى الازمان المتأخرة كالعصر البابلى الحديث •

وكان من مظاهر تمسك البابليين بالاصول القانونية صحة الزواج وشرعيته عندهم ، فقد كانوا لا يعدون الزواج شرعيا ما لم يثبت بعقد مدون

(١) خصصت شريعه حمورابى ٨٧ مادة من موادها البالغه ٢٨٢ الى الاحوال الشخصيه اى للقوانين التى تنظم الاسرة (انظر شريعه حمورابى المواد ١٣٧ – ١٩٣)

(٢) لقد عثر بعض الباحثين حديثا على لوح مكتوب باللغه السومريه يصف وصفا ممتعا حياة تلميذ فى المدرسه لتحصيل المعارف المختلفه ليكون كاتبا محترفا (انظر مجله

ومصدق بالشهود وكذلك الامر فى الطلاق • وتبدأ مراسيم الزواج كما هى الآن فى مجتمعات الشرق الحديث بالخطبة وتقديم الخاطب هدايا للمخطوبة، وكانت الخطبة جزءا مهما من الزواج ، ففى حالة موت الخاطب فى أثناء الخطبة كان يحق لاحد اقربائه أن يكمل المراسيم الاخرى ويتزوج بها واذا رفض ابو البنت فعليه ان يعيد الى عائلة الخاطب الهدايا التى سلمها • كما انه فى حالة موت المخطوبة كان بامكان الخاطب التزوج من احدى اخواتها فاذا لم يتم ذلك استطاع استرجاع هدايا الخطبة • وبعد اتمام مراسيم الخطبة بدون عقد بشروط الزواج المتفق عليها ويعقب ذلك وليمة من قبل الزوج • وكان الزواج الشرعى يتم بالاضافة الى العقد بتعيين ثلاثة أنواع من المبالغ احدها سموه «ترحاتو» يدفعه الزوج الى أسرة الزوجة وهذا هو المهر وهو ملك خاص بالزوجة ويرثه أبناؤها • والثانى مبلغ من المال يهديه عائلة الزوجة وسموه «شيريقو» ،وقد جرت العاده أن يكون هذا المبلغ وديعة عند الرجل لزوجته يجوز ان تتصرف فيه ولكنه ملك لزوجته ويرثه ابناؤها أو أهلها ان لم يكن لها اولاد ويرجع الى الزوجة فى حالة الطلاق • والمبلغ الثالث مال كان بمثابة هدية من الزوج الى زوجته ويدعى (النهبة أو العطية من المصطلح البابلى « نودنو») ومما يقال بوجه الاجمال فى علاقة الرجل بالمرأة أن اليد العليا فى الطلاق كانت للرجل ، فوسعه الطلاق بشرط أن يدفع لزوجته مبلغا من المال واذا رفضت المرأة زوجها بدون عذر مشروع فان ذلك من الجرائم الكبيرة التى عاقب عليها القانون بالموت فى بعض الحالات[1] •

ومن الامور التى تلاحظ فى الزواج والعائلة أن الزواج لا يتم الا برضا الابوين وعندما يتم الاتفاق بين عائلتى الخاطب والمخطوبة يرسل الخاطب الى ابى زوجته هدية هى مقدمه الزواج ثم المهر ، وليس للمهر حد معين ، واننا نستطيع أن نحدد تلك المبالغ من زمن سلالة بابل الاولى حيث كانت

---

(١) أنظر المواد المتسلسلة من شريعة حمورابى المتعلقة بعلاقة الزوج بالزوجة •

الاخشاب ، والحياكة والنسيج وقد سبق أن ذكرنا ان بحث الكيماء بعض الصناعات الكيماويه كالزجيج وسبك المعادن وطلائها وصنع الدهان والاصباغ والصابون والعقاقير والمساحيق والعطور والجعة والمشروبات الروحية المحمرة وصنع الادوات البيية • ومع ذلك فلا يسعنا الا ان نقيس هذه الصناعات بمقياس الصناعات الآلية الحديثة ولكنها تحولنا أن بعدالعراق القديم بالنسبة الى الحضارات القديمة مركزا صناعيا ومركزا زراعيا أيضاً • ولكن الازدهار الاقتصادى كان يعتمد على التجارة الخارجية •

وبعد هذه المقدمة نكلم بعض الشيء عن هذه الاركان الثلاثة التي قامت عليها حضارات وادى الرافدين وهى الزراعة والتجاره والصناعة • وقد كنا قد تطرقنا الى بعض الصناعات القديمه هنا وفيما مر بنا من المباحث السابقة فسنكون بحثنا مقصورا على الزراعة والتجاره •

الزراعـــة :

لعل أول شيء يلفت النظر فى تأريخ الزراعة فى العراق هو طغيان شهرة هذه البلاد الزراعية على غيرها مما امتازت به الحضارات التى قامت فيها وظلت هذه الشهرة تلازمها حتى الازمان الأخيره من تأريخ الحضاره • فقد ذكره كثير من كتاب الاغريق والرومان بلاد ما بين النهرين باسم الدرادو ، اى بلاد الذهب والخير فى الزراعة • وبالغ بعضهم فى المحصول الزراعى الناتج ،حتى ان هيرودوتس المؤرخ اليونانى الشهور ، قد قدره بمائة أومائتين مره • وهذا يذكرنا بتسمية المؤرخين العرب لارض العراق السواد لكثرة زرعها وخضرتها • ولكن الشيء المهم الذى يسعى اليه هو ان هـــذه الشهره لم تكن لتحصل الا بجهود الانسان وعمله ، ولا سيما فى طرق الرى والسهر على تنظيم شؤون الزراعة •

والشيء الثانى الذى يمكن قوله عن تأريخ الزراعة فى العراق هوامكان تقسيم العراق بالنسبة الى زراعته الى قسمين عظميين : القسم الاول وقد عرف فى تاريخ العراق باسم بلاد « سومر واكد » وكان هذا يمتد من شمالى بغداد

زوجته رقا بيد الدائن وكانت هذه عادة قديمة وقد حددها قانون حمورابى تحديدا كبيرا .

واذا لم يسمح الزواج اولادا فكان باستطاعة الزوج ان يختار احد أثنين اما أن يأخذ زوجة أخرى تكون منزلتها دون الزوجة الاولى او أنه يطلق زوجه الاولى بعد دفع مبلغ من المال ، وكثيرا ما نعين مثل هذه الاحوال بشروط خاصة يدرجها الزوجان فى عقد الزواج ، وقد تعمد الزوجة لحل المشكلة بان تقدم لزوجها سرية من امائها لتنجب له اطفالا ، ومتى ما ولدت هذه السرية فانها تصبح حرة واذا اصابت المرأة عاهة أو مرض يعيقها عن اداء واجبات الزوجية فلا يحق لزوجها مطلقها ، ولكنه يستطيع أن يتزوج زوجة أخرى ويكون من حق الاولى ان تظل فى بيت الزوجية واذا أرادت الرجوع الى بيت ابيها فانها تسترجع المال الذى جلبه من عائلتها .

وقد عاقبت الشريعة على الزنا عقوبات صارمة ، فكانت الزوجة الزانية التى يقبض عليها ملبسة بالجرم ترمى هى والزانى فى الماء ما لم يعف عنها زوجها فيستحييها وعند ذلك كان الملك يعفو عن الزانى . واذا لم يقبض عليها ملبسة بالجرم فيستطيع البرهنة على براءتها بالقسم وبوجد حالة يلزم على الزوجة المتهمة ان ترمى نفسها فى النهر فاذا غرقت فقد حرمت حريتها واذا سلمت فانها بريئة .

وقد خصص شريعة حمورابى جملة مواد لطبقة من النساء كن يلحقن بالمعابد بهيئة كاهنات ، لا تعرف وظائف بعضهن بوجه الوضوح وقد اشار هيرودوتس الى أن بعض النساء كن يخصصن بغايا ويلحقن بالمعبد لبعض الشعائر الدينية الخاصة بالآلهة عشتار ، ومما يقال عن البغاء انه كان معروفا فى بلاد بابل وفى بلاد آشور كما تشير الى ذلك القوانين البابلية والآشورية والمصادر الاخرى التى يستشف منها أن نوعا من البغاء المقدس كان تابعا الى المعابد .

ويستدل من القوانين الآشورية ان الآشوريين كانوا يمارسون

التحجب عن النساء . ولكن لا يعلم بوجه التأكيد ما المقصود من الحجاب الوارد في القوانين الآشورية ؟ هل كان لستر الرأس وحده اي لبس مايشبه العباءة ؟ المرجح أنهم مارسوا نوعا من حجاب الرأس فقط . ومن الطريف ذكره في هذا الباب ان القوانين الآشورية حرمت الحجاب على البغايا حيث كان ارتكاب ذلك من الجرائم الكبرى التي تستحق العقاب الشديد . اما أمر الحجاب بالنسبة الى بلاد بابل فلا يعرف بالضبط لانه لا توجد اشارة الى الموضوع في القوانين البابلية أو في الوثائق القانونية الاخرى . ولعل البابليين مارسوا كذلك نوعا من حجاب الرأس كما فعل الآشوريون والى ذلك اشارت التوراة في موضوع واحد (اشعيا ٤٧ : ١ ـ ٣) .[١] .

ولما كنا سنذكر بعض الامور الاخرى الاساسية عن المجتمع في كلامنا على الحياة الاقتصادية فيكتفى بما ذكرناه في هذا الباب ، كما ان ما ذكرناها في المواضيع المختلفة السابقة وفي كلامنا على عهد العراق القديم فيه نواح مهمة عن مجتمعات العراق القديم . فبقي علينا ان نوه بالبيوت التي كان يعيش فيها الناس (وقد تطرقنا الى وصف بعضها) ، ومما يقال بوجه الاجمال في هذا الصدد ان هناك شبها كبيرا بين البيوت المستعملة في العراق وفي الشرق الادنى الى عهد قريب وبين البيوت في العراق القديم ، كما ان اطراد المناخ وعدم وجود تغيرات أساسية ونقلات عنيفة قد جعلت بيوت السكنى ثابتة تقريبا في أشكالها وتصاميمها في أثناء العصور المختلفة ، ولكن الملاحظ أن سكان العراق الاقدمين قد وفقوا كثيرا في جعل بيوت سكناهم تلائم الاحوال المناخية من حيث تصاميمها ومواد بنائها (اللبن والآجر) ، واول ما نلاحظه في البيوت النموذجية ساحة (حوش) مركزية مكشوفة محاطة بعدد من الحجرات ضؤها وهواؤها بالدرجة الاولى من هذه الساحة ، وكانوا يضعون أنابيب فخار مثقوبة للتهوية (على هيئة ما يعرف بالبادكير) ، والسقيف عادة بجذوع النخل او باعمدة الخشب ، والغالب في البيوت انها ذات طابق

---

(١) انظر بحث ذلك في :ـ
Driver and Miles, **The Assyrian Laws**

واحد ، ولكن البيوت ذوات الطابقين كانت معروفة أيضا بل أكثر من طابق واحد ، وكانت حدران البيوت تطلى عادة من الخارج والداخل • هذا وقد حاءنا من السقيات المختلفة نماذج مسوعة كثيرة من الاناث المرلة كالاواني الفخارية والمعدنية والسرج للاصاءة بالزيت وكذلك بالنفط الخـــام الذى سموه باسم « نفط الحجر » (واسم النفط معروف بهذا اللفظ فى اللغـــة البابلية) كما استعملوا المشاعل ولا سيما حملها من قبل الحنود ومواقـد النار • وذكرت المصادر المسمارية انواعا كثيرة من الاسرة والكراسى والانسة المصنوعة من مختلف المواد كالصوف والقطن (والقطن من العهود الاشورية المتأخرة) والكتان والقصب • وبالاضافة الى المصادر المكتوبة عن الاناث النسة الاخرى فان السقيات قد زودنا بنماذج عن أدوات الزينة كالمرايا وادوات زينة النساء (أنظر بعض هذه الادوات المصنوعه من الذهب فى المتحـــف العراقى المملوء أيضا بأنواع الحلى المختلفة) •

الفصل الثامن عشر

الحياة الاقتصادية

مقدمة في خصائص الحضارات القديمة من الناحية الاقتصادية :

لقد نوهنا مرارا في الكلام على نشوء اولى الحضارات في العراق وسير الحضارات فيه بجهود المستوطنين الاوائل في تغلبهم على البيئة الطبيعية في القسم الجنوبي من العراق وكيف ان الزراعة في هذا القسم تعتمد على الارواء الصناعي بالسيطرة على الانهار واقامة السدود وتجفيف الاهوار وقد سبق لنا ان جعلنا هذه المشاكل التي جابهت العراقيين الاقدمين في بيئتهم الطبيعية الصعبة العسة العامل المهم في ظهور الحضارة الناضجة في القسم الجنوبي من العراق • وقد صاحب نمو هذه الحضارة نشوء الصناعات الاولى ونشوء التجارة الخارجية الواسعة لجلب المواد الخام التي اعتمدت عليها تلك الحضارة كالمعادن والاخشاب والاحجار مما لا وجود له في القسم الجنوبي من العراق• فصارت حضارة العراق القديم تقوم على ثلاثة أركان أساسية وهي « الزراعة والصناعة والتجارة» • وظل هذا الطابع يميز جميع الحضارات التي قامت في وادي الرافدين •

ونحن لو اردنا معرفة الاسباب التي جعلت الحضارات الغابرة تتصف بكونها حضارات « زراعية ، صناعية ، تجارية » لما احتجنا الى جهد كبير في البحث عنها • فالواقع انه مر بنا بعض هذه الاسباب فيما درسناه من تاريخ العراق • ولو اننا كنا مكان العراقيين القدماء لفعلنا بالبيئة التي عاشوا فيها ونعيش فيها كما فعلوا مع الفارق طبعا في تقدم الاساليب الفنية الحديثة وكون العراقيين الاقدمين قد أوجدوا أول حضارة في تأريخ البشر في أرض بكر وحشية لم يسبقهم بسابق يسيرون على خطاه • فهذه التربة

لا تزال كما كانت عليه منذ أن قامت فيها الحضارات منذ فجر التأريخ بل انها زادت فى الامكانيات الطبيعية من حيث اتساع رقعة الارض (أنظر البحث الخاص برى العراق) ومن حيث كثرة المياه • فاول شىء كنا نهتدى اليه ، كما أدركه المستوطنون الاوائل قبلا ، هو ان البيئة التى يعيش فيها تمتاز بخصبها المتناهى ، ولكن يقابل هذا الخصب الذى منحته الطبيعة شح فى الامطار فى أكثر من نصف الاراضى القابلة للزراعة تقريباه بيد أن الانهار العظمى عوضت عن ذلك ولكن هذه الانهار تحتاج الى السيطرة والسظيم ولذلك فان اولى الحضارات التى قامت فى هذه البلاد انما قامت على أساس الرى فكانت اراضى ما بين النهرين ، ولا سيما المنطقة الوسطى والسفلى ، شبكة من أنهار الرى • ونظر القوم فوجدوا ان الارض التى يعيشون فيها ينقصها معظم المواد الاساسية فى بناء الحضاره الراقية فالتجأوا ، كما ذكرنا ، الى جلب هذه المواد الضرورية من الخارج من الاقطار المجاورة بالتجارة الخارجية وكانت هذه التجاره فى مبدأ أمرها ضيقة مقصورة على سد الحاجات الضرورية وعلى المبادل فى المسوحات الزراعية مع الاقطار التى تكثر فيها المواد الخام • وقد رأيتم فيما سبق كيف ظهرت الصناعات الابتدائية منذ عصور ما قبل التأريخ واتسعت وتعددت الصناعات فى أثناء نمو الحضارة ومن ذلك صناعة الاوانى الفخارية ، والنحاس الذى عرفه العراقيون الاقدمون منذ عصور ما قبل التأريخ كمعدن النحاس وصنع الادوات والآلات المختلفة منه وقد سبق أن ذكرنا ان السومريين الاوائل اتصلوا لجلب النحاس بأقطار نائية ومن ذلك بلاد العرب • وصنعوا الزجاج ، وبدأ استعمال الحديد منذ الالف الثانى ق•م واتسعت صناعته منذ أواخر الالف الثانى ق • م • وقد رأينا فى بحثنا عن الاشوريين كيف أنهم استعملوا الحديد فصنعوا منه الاسلحة الثقيلة كالعربات والدبابات والاسلحة الفاتكة • وبذكر كذلك الصناعات المختلفة فى المعادن النفيسة كالصياغة وكذلك الفنون الجميلة فى الاحجار المختلفة وصناعة الاختام الاسطوانية والصناعات المختلفة فى

الاخشاب ، والحياكة والنسيج وقد سبق أن ذكرنا ان بحث الكيماء بعض الصناعات الكيماويه كالزجيج وسك المعادن وطلائها وصنع الدهان والاصباغ والصابون والعقاقير والمساحيق والعطور والجعة والمشروبات الروحية المحمرة وصنع الادوات البيتية • ومع ذلك فلا يبغى لنا ان نقيس هذه الصناعات بمقياس الصناعات الآلية الحديثة ولكنها تحولنا أن بعدالعراق القديم بالنسبة الى الحضارات القديمة مركزا صناعيا ومركزا زراعيا أيضاً • ولكن الازدهار الاقتصادى كان يعتمد على التجارة الخارجية •

وبعد هذه المقدمة نكلم بعض الشيء عن هذه الاركان الثلاثة التي قامت عليها حضارات وادى الرافدين وهى الزراعة والتجاره والصناعة • وقد كنا قد تطرقنا الى بعض الصناعات القديمه هنا وفيما مر بنا من المباحث السابقة فسنكون بحثنا مقصورا على الزراعة والتجاره •

الزراعـــة :

لعل أول شيء يلفت النظر فى تأريخ الزراعة فى العراق هو طغيان شهرة هذه البلاد الزراعية على غيرها مما امتازت به الحضارات التى قامت فيها وظلت هذه الشهرة الباهرة حتى الازمان الأخيره من تأريخ الحضاره • فقد شبه كثير من كتاب الاغريق والرومان بلاد ما بين النهرين بانها « الفردوس » اى بلاد الذهب والخير فى الزراعة • وبالغ بعضهم فى المحصول الزراعى الناتج حتى ان هيرودوتس المؤرخ اليونانى الشهور ، قد قدره بمائة أومائتى مره • وهذا يذكرنا بتسمية المؤرخين العرب لارض العراق السواد لكثرة زرعها وخضرتها • ولكن الشيء المهم الذى ينبغى التنبيه عليه هو ان هـــذه الشهره لم تكن لتحصل الا بجهود الانسان وعمله ، ولا سيما فى طرق الرى والسهر على تنظيم شؤون الزراعة •

والشيء الثانى الذى يمكن قوله عن تأريخ الزراعة فى العراق هوامكان تقسيم العراق بالنسبة الى زراعته الى قسمين عظميين : القسم الاول وقد عرف فى تاريخ العراق باسم بلاد « سومر واكد » وكان هذا يمتد من شمالى بغداد

لزرعها واستغلالها ، ولكنها لا تمكن بيعها ولا رهنها ولا نقلها الى مالك آخر الا الى ورثة شرط أن الورث يقوم بالواجبات المتعلقة بالعناية بملك الارض واستغلالها • وقد راعت الشرائع القديمة المحافظة على الملكية الفردية بالنسبة الى العائلة التي تملكها حتى أنها وضعت ما تشـــه حق الشفعة بالنسبة الى الوارثين •

ومن الملكيات الاجماعية ان بعض المدن في العهد الكشي كانت تملك أراضي مشاعة فيما بينها • وشاع في هذا العهد أيضا مستندات خاصة لتثبيت ملكية الاراضي وتحديدها ، وهو ما يسمى بأحجار الحدود (الكدرو باللسان البابلي) • وكانت هذه عبارة عن أحجار مهندمة كبيرة تنقش في أعلاها بعض الرموز والصور الدينية وتنقش بنصوص كتابية بين اسم المالك والارض المملوكة وحدودها • ويرجح أن مثل هذه الاحجار كانت تودع في المعابد لتسجيل الملكية والمحافظة عليها • وكانت الاراضي العامرة التي لم يشملها أحد ملاك أول من شملها وسجلها • ومن الملكية الخاصة بالاراضي السابق الى ذكرها وأراضي المراعي ، وستطلع المرء أن يقف على شؤون الاراضي وتقسيمها وملكيتها واستغلالها من درس شريعة حمورابي ودرس الوثائق البابلية •

النخيل : ـ

يجدر بنا أن نخصص بحثا موجزا عن النخيل التي اشـــتهر العراق بزراعتها واختص بها منذ أبعد عصور ما قبل التأريخ • والى أهمية البحث في النخيل فانا سنستفيد مما سنذكره عنها أشياء مهمة عن اعتناء القوم بشؤون الزرع والفلاحة •

ومن المحتمل أن يكون موطن النخل الاصلي في الجزء الجنوبـــي الشـــرقي من الجزيـــرة العربيـــة أو انهـــا من أقـــربيـــة أو الهند • أما في العـــراق فتشـــير الادلـــة الآثاريـــة الى ان زراعـــة النخل قد بدأت في القسم الجنوبي من العراق منذ بدايه استيطان الانسان

الكثير عن الزراعة فى شرائع العراق القديم كما مر بكم سابقا ، فنجدحمورابى وقد خصص جملة مواد من شريعه لتنظيم شؤون الزراعة والرى وفيهـــا معلومات مفيدة عن كيفية فلح الارض والآلات المستعملة فى ذلك وعن حقوق الزراع واجور الفلاحين وقسمة الحاصل بين صاحب الارض والفلاح الىغير ذلك من الشؤون الزراعية • ونجد كثيرا من ذلك فى الشريعة التى عثرت عليها مديرية الآثار العراقية حديثا فى تل حرمل • وهناك كثيرمن الاشيـاء الطريفة عن الزراعة والفلاحة فى الاساطير الدينية وفى القصص الادبية ، وكان يحلو لكثير من ملوكهم انهم يذكرون فى ألقابهم ادعاءهم الاهتمام بشؤون الزراعة • فنجد « نبوخذ نصر » مثلا بانى الجنائن المعلقة فى بابل ، يفاخـر فى تلقيب نفسه «مروى الحقول وفلاح بابل» • ومما يشير الى أهمية الزراعة عندهم انهم خصصوا جملة من الآلهة التى عبدوها لشؤون الفلاحةوالزراعة• ويرى الباحثون فى الاديان القديمة ان عبادة آلهة الزراعة والخصب هىأقدم أنواع العبادة فى تأريخ الانسان • وعثر حديثا على بعض الالواح فى نفر ثبت أنها تأليف فى الزراعة على هيئة ارشادات للزراع منذ بذر الحبـــوب حتى عهد حصها •

ووجدت حديثا بعض الآثار المهمة وهى تصور لنا المحراث العـراقى القديم وهو يكاد لا يختلف عن المحراث الذى يستعمله فلاحو العراقالحديث الا أن المحراث البابلى كان أحسن من المحراث الحديث البدائى ، اذ كان من جملة احرائه آلة أو أنبوب على هيئة القمع لبذر البذور منه فى اثناء الحرث[1] فى آن واحد • وكان المحراث فى عصور ما قبل التأريخ آلة ساذجة وجـدت له نماذج فى بعض القرى القديمة فى العراق من العصور التى سميناهـــا بعصور ما قبل السلالات وهو عبارة عن قطعة من الحجر لعلهم كانوا يثبتونها

---

(١) لقد جاء بعض هذه المحاريث وهى مصورة فىالاختامالاسطوانيه (انظر
(1) H. Frankfort, **Cylinder Seals** (1939)
(2) Ward, **Cylinder Seals** (1910), Nos. 69, 108.
انظر كذلك دليل المتحف البريطانى الطبعه الثانيه الص ٢٢١

بمقبض من الخشب ، وكانت هذه تكفي - ربما - لحفر حفرة صغيرة من الارض يوم كانت الزراعة محدودة لا تشمل رقعا واسعة من الارض • ومن آلات الزرع التي جاءتنا نماذج منها من المواقع القديمة في العراق أنواع المناجل المختلفة التي لا تختلف في هيئتها عن شكل المنجل الحديث وقد جاءتنا ثلاثة أنواع منه : منجل من الصوان صنع من قطع عديدة من الصوان المحدد وجمعت كلها ونسب بالقير مع مقبض من الخشب ، ومنجل مصنوع من الفخـــار (الا سيما من عهد العبيد) ، ومناجل مصنوعة من المعادن المختلفة مثل النحاس والبرونز ، وقد كثرت هذه في العصور التأريخية عندما كثر استعمال المعادن واتقن فن التعدين في العراق القديم • والى هذه الآلات فلدينا مجاميع كثيرة من الفؤوس المختلفة التي لا شك في ان بعضها كان يستعمل في شـــؤون الزراعة في الحقول وفي البساتين • ومن الطريف ذكره ان بعض آلات الحفر جاء ذكرها في المصادر المسمارية باللفظ والمعنى المستعملة فيها الآن في العراق مثل « المر » و « المسحاة » و « المنجل » ويوجد الكثير من المصطلحات الزراعية التي جاءتنا عن البابليين فيما يتعلق بالنخيل مثـل أســـماء التمر وطـــرق التصحر الصناعي (وضع الملح الاصفر في الشمس) والتـــال و « التلبة » المستعملة الآن في التسلق على اشجار النخيل • ومن الآثار المهمة الفريدة من نوعها في المتحف العراقي وجد في معبد في العبيد وقد زين بمشاهد منها مشهد جميل يمثل لنا بعض الشؤون الزراعية كحلب الابقار وخض الحليب في زق كبير (يشبه السقاء المستعمل الآن)•[1] ومما يجدر ذكره بصـــدد الثروة الحيوانية في العراق القديم ان الحيوانات ، مثل البقر والغنم والحمار والفرس والحيوانات الداجنة الاخرى ، كانت تؤلف اساسا مهما في الحياة الاقتصادية عدا أهميتها في الشؤون الزراعية وفي المواصلات ، ومما يقـال في الحيوانات الداجنة ان الانواع الاساسية منها كانت معروفة في العـراق القديم ، باستثناء الدجاج الذي يرجح أنه دخل العراق ولعله من الهند في

(١) ان هذا اقدم مشهد لما يسمى الان (Dairy) اي صـناعة الالبان ومستخرجاتها •

الازمان المتأخرة فى العهد البابلى الاخير أو ما قبل ذلك بقليل .

هذا ولا نستطيع ان نقول عن تعيير خصب الاراضى وانتاجها وهل كثر أو قل ، كما اننا لا نستطيع أن نصدق بقول هيرودوتس الذى ذكر أن الانتاج الزراعى يصل فى بلاد بابل الى مائة أو مائتى مرة ، لاننا لا ندرى هل يقصد من ذلك ان الحاصل كان يبلغ هذا المقدار وزنا ام عددا . ومهما يكن من أمر فان الثابت من الوثائق التأريخية القديمة مما جاءنا من الادوار المختلفة ان معدل نسبة المحصول الى البذر كانت تبلغ بوجه عام نحو ٣٠ مرة وزنا ، وقد تصل النسبة الى ٤٠ مرة . وكان هذا يتوقف طبعا على عوامل كثيرة من جودة الارض وحسن الارواء وشغل الارض وانتقاء الافات الزراعية الخ . وقد تصل النسبة فى ازماننا الحاضرة الى نحو ٤٠ مرة فى أجود الاراضى وتحت أحسن الاحوال ، ولكن المعدل المعتاد هو نحو (٢٠) مرة . فالدونم العراقى الآن (أى المشارة وقدرها ٢٥٠٠ مترا مربعا) يبذر نحو (٢٠٠) كيلو غرام (اى نحو ٧ ½ الوشل) فى الزراعة المطرية ونحو ٢٥٠ كيلو غرام (٩ ¼ الوشل) فى زراعة الرى .

ولا تشير الادلة والوثائق التأريخية الى تغييرات كبيرة فى أحوال النبات والحيوان فى العراق القديم والعراق الحديث[1] ، فمن ناحية الحبوب ، اذا استثنينا بعضها مثل الرز ، فان الحبوب الرئيسية فى العراق القديم كانت كما هى فى الزمن الحاضر . ويأتى على رأسها الحنطة والشعير . ونحن مدينون بهاتين الغلتين العظيمتين الى فلاحى العصر الحجرى المتأخر . وأصلهما من الشرق الادنى ، حيث يوجد فيه الشعير والحنطة وهما ينبتان بهيئة برية . والى الشعير والحنطة فانا نعرف وجود بعض الحبوب الاخرى منذ أقدم الازمان مثل الذرة والدخن والسمسم (واسم الدخن والسمسم باللغة البابلية

(١) حول النباتات والاشجار التى كانت معروفة فى العراق القديم وحول الحيوانات انظر

C. Thompson, **Dictionary of Assyrian Botany** (1946)

Landsberger, **Die Fauna des alten Mesopotamien** (1934) انظر

مثل العربية) • ووصفت نباتات الدخن والسمسم بعلوها المتناهى • أما الرز فلم يكن معروفا فى العراق القديم الا فى الازمان المتأخرة ولعله أول ما أدخل الى العراق عن طريق ايران من العهد الاشورى المتأخر وكثراستعماله فى العهد الفارسى الاخمنى • وكان أصله من الشرق الاقصى ومنه انتشر الى الهند ، ويرجح أن الفرس القدماء تعلموا زراعة الرز من بعد غزوهم الهند ، وعنهم دخل الى العراق •

ونشأ فى العراق القديم منذ أقدم الازمان نوعان من الاراضى التى تزرع وهى الحقل (واسمه بالبابلية مثل العربية) لزرع الحبوب وما شابهها وآلاته الرئيسية « المحراث » كما ورد على لسان البابليين ، والبستان لزرع الاشجار المثمرة وآلاتها « المسحاة » أو الفأس ، كما قال البابليون أيضا • ومن صنف البساتين الحدائق العامة ، كالجنائن العامة الواسعة التى غرسها مثلا الملك الاشورى سنحاريب فى نينوى والجنائن التى اشتهرت بها مدينة بابل ، واتخذوا نوعا من الحدائق والبساتين كانوا يزرعونها فى نوع خاص من المعابد خصصوها للاحتفال بأعياد رأس السنة البابلية (انظر البحث الخاص بالمعابد) والمرجح كثيرا ان فن البساتين قد نشأ فى العراق فى عهود قديمة جدا ، ولعله بعد العصر الحجرى المتأخر بعد أن تعلم الانسان الزراعة[1] ،وقد سبق أن نوهنا بأن البستان قد ساعدت الانسان كثيرا فى استقراره حيث جعلته يرتبط بالارض أكثر من زراعة الحبوب وكانت العلامة المسمارية التى تقوم مقام كلمة بستان (شار) قد نشأت منذ ظهور الكتابة الصورية فى النصف الثانى من عصر الوركاء • وقد جاءتنا فى احجار ملوك العراق القدماء ذكر ولعهم بغرس البساتين نذكر منهم سنتان «مردوخ بلادان» حيث دونت أسماء الخضروات والنباتات التى كانت تنبت فيها وكذلك بستان تجلاثلمرر واشور ناصر بال والنخلة ، على ما يرجح ، أقدم شجرة واهم شجرة فى تاريخ العراق •

(١) حول موجز تاريخ البساتين انظر بحث المؤلف فى مجلة الزراعة العراقية (عدد مايس ـ حزيران ١٩٥٣) ، وحول البساتين الخاصة بالسمائر الدينية انظر مجلة **Welt des Orient** (1953)

وكانت العادة أنهم يزرعون الفراغات ما بين النخيل بالأشجار المثمرة وقد استطاع البحث الحديث أن يعين كثيرا من أصناف هذه الاشجار مثل التين والكرم والرمان والتفاح والكمثرى والفستق واللوز وغيرها • ومن الاشجار التى حملها الملوك الاشوريون الى العراق الزيتون • وكذلك القطن الذى يرجح أنه جلب من الهند • ومن الطريف ذكره بهذا الصدد أن سنحاريب الذى أدخل القطن الى شمالى العراق يخبرنا أنه غرس فى حدائقه الملكية فى نينوى أشجارا غريبة جلبها من أقطار الدنيا المختلفة ومن ذلك شجرة وصفها بأنها تحمل الصوف ويعنى بذلك القطن ، ويماثل هذا القول ما ذكره هيرودوتس حيث يقول ان من بين أشجار الهند شجره تحمل الصوف بدل الثمر !

وقبل انهاء الكلام على الزراعة فى العراق نقول كلمة مختصرة عن وضع الارض من ناحية الملكية والتوزيع • فكانت ملكية الاراضى فى العراق القديم منذ أقدم العهود بيد الافراد أى كانت الملكية الفردية بخلاف الوضع السائد فى مصر القديمة حيث الارض ملك الفرعون • والى الملكية الفردية الاراضى فى العراق القديم كانت بعض الهيئات الاجتماعية كالمعابد والقصور (أى الملك والطبقة الحاكمة) تملك الاراضى أيضا • وقد جاءتنا وثائق عن كلا النوعين من ملكية الاراضى من عصور فجر السلالات ومن العهود التى أعقبت ذلك • ومما يقال فى ملكية الاراضى بوجه عام ، بنوعيها الفردى والاجماعى ، انها كانت تتغير بالنسبة الى السلالات الحاكمة و النسبة الى الفتح والغزو ، فالملك الفاتح مثلا كان يمنح أتباعه اقطاعات من الارض ، وقد جاء تنظيم تلك الملكية والحيازة فى مواد خاصة من شريعة حمورابى • وجرت العادة تحديد الاراضى المملوكة بالحدود وتعيين مساحتها وتثبت ملكيتها بالسندات المدونة • وقد ميزت شريعة حمورابى بين نوعين من ملكية الاراضى : ملكية مطلقة وملكية حيازة ، وهى ما يهبها الملك أو الحاكم من الاراضى الى الافراد لغرض المنفعة العامة ، فيهب الملك مثل هذه الاراضى الى أفراد معينين

لزرعها واستغلالها ، ولكنها لا تمكن بيعها ولا رهنها ولا نقلها الى مالك آخر الا الى ورثة شرط أن الورث يقوم بالواجبات المتعلقة بالعناية بملك الارض واستغلالها • وقد راعت الشرائع القديمة المحافظة على الملكية الفردية بالنسبة الى العائلة التي تملكها حتى أنها وضعت ما تشـــه حق الشفعة بالنسبة الى الوارثين •

ومن الملكيات الاجماعية ان بعض المدن في العهد الكشي كانت تملك أراضي مشاعة فيما بينها • وشاع في هذا العهد أيضا مستندات خاصة لتثبيت ملكية الاراضي وتحديدها ، وهو ما يسمى بأحجار الحدود (الكدرو باللسان البابلي) • وكانت هذه عبارة عن أحجار مهندمة كبيرة تنقش في أعلاها بعض الرموز والصور الدينية وتنقش بنصوص كتابية بين اسم المالك والارض المملوكة وحدودها • ويرجح أن مثل هذه الاحجار كانت تودع في المعابد لتسجيل الملكية والمحافظة عليها • وكانت الاراضي العامرة التي لم يشملها أحد ملاك أول من شملها وسجلها • ومن الملكية الخاصة بالاراضي السابق الى ذكرها وأراضي المراعي ، وستطلع المرء أن يقف على شؤون الاراضي وتقسيمها وملكيتها واستغلالها من درس شريعة حمورابي ودرس الوثائق البابلية •

النخيل : ـ

يجدر بنا أن نخصص بحثا موجزا عن النخيل التي اشـــتهر العراق بزراعتها واختص بها منذ أبعد عصور ما قبل التأريخ • والى أهمية البحث في النخيل فانا سنستفيد مما سنذكره عنها أشياء مهمة عن اعتناء القوم بشؤون الزرع والفلاحة •

ومن المحتمل أن يكون موطن النخل الاصلي في الجزء الجنوبـــي الشـــرقي من الجزيـــرة العربيـــة أو انهـــا من أقـــربيـــة أو الهند • أما في العـــراق فتشـــير الادلـــة الآثاريـــة الى ان زراعـــة النخل قد بدأت في القسم الجنوبي من العراق منذ بدايه استيطان الانسان

فى العهد الذى سميناه بطور العبد فى حدود ٤٠٠٠ ق.م . ولا تقتصر أهمية النخلة على العراق فقط بل انها تحتل المكان الاول فى معظم بلاد الشرق الادنى ، فلقد ورد ذكرها فى آداب الامم السامية وما ثرها وآداب العراق بوجه خاص ، ونجدها مثلا تستعمل فى الفنون القديمة وتعتبر شجرة مقدسة عند الامم والشعوب التى اقتبست من حضارات العراق القديم . ونجدها على أهمية عظيمة فى بلاد العرب ، تكثر من ذكر فضلها الآداب العربية فى جاهليتها واسلامها[1] .

ومهما كان موطن النخل الاصلى فنستطيع ان نقول ان زراعة النخيل واستغلالها استغلالا كبيرا فى الحياة الاقتصادية انما اختص بها العراق منذ بحر التاريخ فيه ، ولا يزال العراق يعد أعظم وأوسع مركز لزراعة النخيل ولا سيما المنطقة الجنوبية منه حيث نجد اكثف منطقة فى زراعة النخل[2] . وان أقصى ما تمتد اليه منطقة زراعة النخيل فى العراق الى تكريت على دجلة والى عانه على الفرات . وكان هذا هو الحال كذلك فى الازمان القديمة . بيد أن المعتقد ان زراعة النخيل تمتد فى بعض الازمان القديمة الى ما فوق هاتين النقطتين الى جهة الشمال ، اذ يروى التاريخ ان بعض الملوك الاشوريين حاولوا غرس النخل فى المنطقة الشمالية ، ويخبرنا بعض الملوك القدماء ممن حكم فى الفرات الاوسط قرب الحدود السورية العراقية أنهم غرسوا النخيل فى ذلك الاقليم .

---

(١) لقد روت بعض الاحاديث النبوية مما يشير الى اهمية النخل فى بلاد العرب فمن ذلك ما يروى عن النبى (ص) انه قال « تعمم العمة تكم النخلة ، تغرس فى ارض جوازه وتشرب من عين جراره » . وانه قال « المطعمات فى المحل والراسخات فى الوحل » وفى القرآن الكريم « اصلها ثابت وفرعها فى السماء » الى غير ذلك من المآثر التى تشير الى اهمية النخلة وخطورتها فى الحياة الاقتصادية فى جميع بلاد العرب وفى جباه الاقوام الساميه .

(٢) فمثلا يقدر ما ينتجه العراق نحو ٧٥-٨٠ بالمائة من تمور العالم ويوجد نحو اكثر من ٢٣ مليون نخلة فى العراق ، وقد يصل علو شجرة النخيل نحو ١٠٠ قدم كما انه يعمر كثيرا (نحو قرنين الى ثلاثة قرون) .

لقد جاءتنا أخبار طريفة عن رراعه النحل فى العراق من ماثر العراق القديم • فمن ذلك ما يروى عن ان البابليين الفوا قصيدة فى مدح شجرة النخل ذكروا فيها ٣٦٥ فائدة أو منفعة لتلك الشجرة • وهذا يؤيد لنا مانعرفه عن فوائد النحيل فى زماننا الحاضر وأهميتها الاقتصادية ، فثمرتها طعام فيه كثير من المواد الغذائية (كما أثبت ذلك التحليل الحديث)[1] ثم هى فاكهة لذيذة • والشجرة نفسها مأوى وملبس ووقود ومادة للبناء • ويستخرج من ثمرها منتجات كثيرة « كالدبس » (وهو من الكلمات القديمة وسماه البابليون « دشبو ») وأنواع الشراب والخمور • ويمكن استخراج النشاء والسكر والورق والزيت والشمع والدباغ والاصباغ والصمغ وعدد كبير من المنتجات الثانوية • ويروى لنا الكاتب الرومانى « سترابو » عن فائدة النخل عند البابليين بعبارة طريفة اذ يقول « تزودهم شجره النحل بجميع الاحتياجات باستثناء الحبوب » •

وليس أدل على أهمية النحل فى حياة العراق الاقتصادية من ان حمورابى قد خصص فى شريعته مواد كثيرة لشؤون النحل والمعاملات المتعلقة بها ، ومن ذلك مادة تشير الى أهمية هذه الشجره ، حيث فرضت عقوبة على من نقص نخله بدون اذن صاحبها بدفع غرامة قدرها نحو ربع كيلوغرام من الفضة • وهذه غرامة كبيرة بالنسبة الى عرف ذلك الزمان • وتذكر لنا الاخبار أن كثيرا من الملوك الآشوريين كانوا يعمدون للقضاء على الشعوب المعادية الى قص سواقى النحل عندهم ، فيحرمونهم من قوتهم الاساسى •

وعائلة النحل أكثر الاشجار تنوعا ، فهى تضم ما لا يقل عن الـ ١٧٠ جنسا وما لا يقل عن (١٥٠٠) نوع ويوجد فى العراق نحو ٢٥٠ شكلا من

---

(١) والواقع ان التمر من المواد الغذائيه القليله التى تمتاز بعظم مقدار طاقتها الغذائيه ، حيث يحتوى على العناصر الغذائيه الاساسيه كالبروتين والشحوم والاملاح والكاربوهيدرات ، ويحتوى الرطل من التمر (أى نحو نصف كيلوغرام) على نحو ١٢٧٥ سعرة وهذا يعادل أكثر من ثلث السعرات الضروريه للعامل •

أشكال التمور • وكلنا نعرف أنواع النخل الكثيرة الموجودة فى العراق الآن وقد جاءنا فى الجداول النباتية القديمة ما يؤيد تنوع أصناف النخيل وأنواعه(١)

وسنطيع من كثرة ما جاءنا من الوثائق المختلفة عن شؤون النخل وغرسه والعناية به ان نستنبط أمورا مهمة عن أحوال النخيل فى العراق • ومما نحب له ما نجده من الطرق الصحيحة فى غرس النخيل ، كتنظيم الساتين الواسعة التى كانت تشغل مساحات كبيرة من الافدنة ثم المسافات الصحيحة التى نحب تركها بين شجره وأخرى ، وكذلك طرق التلقيح الاصطناعى ثم مقدار ما تحمله النخلة الواحدة من الثمرة وكيفية تقدير بساتين النخل بعدد الاشجار وليس بمساحة أرض البستان • وجاءتنا المصطلحات الزراعية المختلفة وهى شبيهة بما يستعمله فلاحو العراق الآن فيما يتعلق بشؤون زراعة النخل • فمن ذلك كانت الطريقة المتبعة فى تكثير النخل بغرس « الفسيل » أو التال، وليس النوى وهذه هى الطريقة المثلى المتبعة فى الوقت الحاضر لان الاشجار النامية من أصل النوى الغالب فيها ان معظمها يكون من أشجار « الفحول » أو أنها اذا أثمرت فتثمر ثمرا رديئا • وقد نصت المادة السبعون فى شريعة حمورابى على انه « اذا أعطى رجل أرضا الى فلاح بستانى لغرض غرسها بالنخيل فعلى البستانى أن يغرس البستان ويعنى بها مدة أربع سنين • ويتقاسم صاحب الارض والبستانى ابتداء من السنة الخامسة ثمره السنوى مناصفة » فهذه المادة وكذلك الوثائق تشير بوجه واضح الى أن سنة النخيل كانت تتم بغرس الفسيل أو التال ، فقد حددت المادة المدة التى يمكن للتال المزروع ان يثمر فيها وهى أربع الى خمس سنوات • اما النخيل الذى ينبت من أصل النوى فيحتاج الى زمن يتراوح بين ٨– ١٥ عاما • وأتبع العراقيون الاقدمون فى غرس النخيل الطريقة الصحيحة فى أمر المسافة التى ينبغى تركها بين نخلة وأخرى فكانوا يتركون

---

(١) انظر المراجع فى الحاشيه رقم (١) ص ٣٦٠

معدل ٣٠ قدما بين شجره وأخرى ويغرسون فى « الايكر » الواحد نحو ٥٠ شجره[١] • والمعروف من التجارب الحديثة ان كمية الثمر وجودته تتوقفان الى حد كبير على مقدار المسافة الكبيرة بين أشجار النخيل ، وأفضل مسافة نحو ٢٥ قدما • وتشير الوثائق القديمة الى أنهم كانوا أيضا يحفرون تربة البستان ويقلبونها فى أزمان مختلفة ، ولا يدعون « الفسيل » (التال) ينمو بكثافة •

ومن الامور المهمة فى زراعة النخيل مسألة التلقيح الاصطناعى •فمن البديهيات التى عرفها الآن وعرفها سكان العراق الاقدمون منذ أقدم الازمان ان أشجار النخيل بخلاف كثير من الاشجار الاخرى تتكون من جنسين منفصلين ـ الشجرة الذكر (الفحال) والشجرة الانثى • والنخلة التى لا تلقح بطلع الذكر ان اثمرت فيكون ثمرها رديئا ولا ينضج النضج الملائم ويكون عادة عديم النوى (ويسميه العراقيون الآن الشيص) • وكذلك كان التلقيح الاصطناعى من أهم الامور التى أعتنى بها فى العراق القديم وجاءتنا عن ذلك وثائق مهمة ومن ذلك بعض المواد القانونية فى شريعة حمورابى ووثائق المعاملات الخاصة بشؤون النخيل ، وتدل هذه الوثائق على أنهم كانوا يراقبون النخيل ابان فصل الطلع ويلاحظون باهتمام ما يظهر من الطلع • اذ المعروف ان الطلع لا يظهر جميعه جملة واحدة ولذلك فلا يسعى أن يعمل عن بعض الطلع بدون تلقيح[٢] •

الرى : ـ

لقد سبق أن المحنا مرارا الى أن الرى كان الدعامة الاساسية فى حياة العراق الاقتصادية • وبوسعنا أن نذهب الى أبعد من ذلك فنقول ان عبقرية الانسان وجهده فى انشاء الحضارة فى العراق يتجليان باجلى مظاهرهما

(١) والمسح فى البصره عرس نحو ١٠٠ نخله فى الجريب الواحد ، والجريب اقل من « الايكر » بقليل •

(٢) انظر بحث المؤلف فى أشجار العراق القديم ونباتاته فى مجلة سومر (المجلدان ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣) •

فى الارواء الصناعى ، وان نشوء أول حضارة فى وادى الرافدين قد تحقق بعد أن تغلب سكان وادى الرافدين الاقدمون على الانهار وضبطوا الرى فيها باشاء السدود وحفر الانهار والجداول وتجفيف الاهوار ، فذللوا البيئة الطبيعية الوحشية واستغلوا امكاناتها العظمى بقدر ما كان متوفرا لديهم من وسائل العمل والفن • هذا وقد سبق ان ذكرنا ان ما يزيد على نصف مساحة العراق الزراعية يعتمد فى زراعها على الارواء الصناعى ، وأنه لولا الانهار والارواء لاصبح هذا الحزء بادية حرداء أو أهوارا ومستنقعات •

وقد حل سكان العراق الاقدمون هذه المشكلة الكبرى بأن انشأوا أوسع طرق للرى عرفها العالم القديم واستطاعوا ان يحولوا بجهودهم تلك البيئة الوحشية الى جنة رددت شهرتها الشعوب والاقوام • ولقد درت الجهود التى بذلها سكان العراق الاقدمون لضبط شؤون الرى خيرات البلاد الزراعية وقد عملت الزراعة الواسعة ووفرة القوت على تكاثر السكان وزيادة النفوس والى ذلك فان الانتاج الزراعى لم يقتصر على الاستهلاك المحلى بل كان أهم دعامة فى التجارة الخارجية • وسنستطيع أن ندرك الجهود التى بذلها سكان وادى الرافدين الاقدمون فى تنظيم الرى فيما نشاهده الآن من قيعان الانهر القديمة المدرسة التى كانت جداول شقوها من الانهار العظمى ، ونجد هذه مبثة فى جميع أنحاء العراق وقربها الالوف من الاطلال التى كانت قديما مدنا عامرة تقع على تلك لانهار • وكان بعض هذه الانهار جداول كبيرة تربط الفرات بدجلة • فقد استغل القوم ظاهرة طبيعية فى خصائص رافدى العراق وهى ارتفاع وادى الفرات بالنسبة الى دجلة فشقوا أنهارا عظمى من الفرات الى دجلة كانت تروى أراضى واسعة • وقد طغت أخبار شق الانهار والجداول على غيرها من أخبار الملوك وأعمالهم منذ أقدم العهود وكان حفر نهر جديد حدثا هاما يؤرخون به الحوادث • ولو اننا أردنا أن نحصى عدد الانهار والجداول التى ورد ذكرها فى الكتابات المسمارية لاحتجنا الى معجم خاص • وخصصت شريعة حمورابى جملة مواد لتنظيم شؤون

السامية باسم « پورتم » أو « پوارتي » اى الفرات • ولعل الاسم الاعلى ومنه العربي « الفرات » مشتق من كلمه « الفرع » • أما دجله فقد ورد اسمه بهيئه « ادقلات » أو « ادكلات » ، ومن معانى اسمه الاصلى « الحارى » او « الراوى » • وقد عرف الآشوريون مسمع دجله وعبروه فى ارميسة حيث يذكر لنا الملك الآشوري « شلمنصر » الثالث (القرن التاسع ق•م) انه اقام فى عام حكمه الخامس عشر جسرا عند مسمع دجلة وانه سار من بعد ذلك الى منابع الفرات حيث قرب هناك الضحايا وغسل سلاحه فى مياهه • ويمتاز دجلة عن الفرات بكثره روافده التى تصب من بحد ايران وتجرى الى الجهة الجنوبية الغربيه وتصل بدجله • وأبعد هذه الروافد « الزابان » ، حيث نصب الزاب الكبير ، الذى كانوا يسمونه المصادر السامية باسم « زابو اباو » (أى الزاب الاعلى) فى

دجله فى موضع حديثى نسبيا بنحو ٤٠ ميلا فى الموضع المسمى بالمحلط قرب « نمرود » • والى الجنوب من ذلك بنحو ٨٠ ميلا يتصل الزاب الاسفل بدجلة • وقد سمى الآشوريون اسم هذا الزاب بالزاب الاسفل « زابو سوباالو » • والى الشمال من بغداد بنحو ٦٠ ميلا يتصل نهر العظيم بدجلة وسماه البابليون باسم « ردانو » ، وذكره الكتاب اليونان والرومان باسم « فسكوس » • ويرجح كثيرا ان دجله قد غير مجراه الى الغرب من مجراه القديم فمثلا كان يمر فى العصور الاشورية بمحاذاه العاصمة الآشورية القديمه «كالح» (نمرود الآن) • وقد وجد المنقبون حديثا آثار رصيف كبير فى الجانب الغربى من الخرائب كان ميناء المدينة على دجلة ، ولكن يجرى النهر الآن بعيدا عن نمرود حيث يمر بالقرية الحديثة المعروفة باسم «السلامية» • وكان نهر دبالى أهم روافد دجلة الآتية من المرتفعات الشرقية • وقد سماه البابليون باسم « تراتا » ، ويتصل بدجلة جنوب بغداد وبال موضع سلوقية (تل عمر الآن) ويكون دبالى مع دجلة مثلثا كبيرا من الاراضى الواسعة الخصبة كانت تقوم فيها فيما مضى مملكة قديمة عرفت باسم مملكة « أشونا » كما ذكرنا من قبل ، وعاصمتها الآن فى الخرائب المعروفة

الفرات فوق بابل بقليل شط النيل العظيم ويمر بمدينة كيش (تل الاحيمر الآن)• وكان نهر الدجيل أيضا يربط دجلة بالفرات ،ولكنه اسد فى القرن العاشر ، فسمى باسمه جدول آخر يأخذ من دجلة جنوبى القادسية (قرب سامراء) • وقد تفرعت من هذه الجداول الكبرى جداول فرعية كثيرة جعلت السهل الجنوبى شبكة من الانهار تروى مساحات شاسعة وتعيش حلقا كثيرا وهى الآن أغلبها خراب • وقد بدأ فى الازمان الحديثة بشق بعض الانهار من الفرات الى دجلة مثل اليوسفية واللطيفية ولعلها تكون عربونا لازدهار ممائل • ومن الامثلة على كثرة الاخبار الوارده عن شق الانهار أن أخبار ملوك سلالة لجش (فى طور فجر السلالات الاخير) ملأى بحوادث شق الانهار واقامة « حرانات » المياه ، ومما لا شك فيه ان شق الانهار واقامة الحرانات والسدود ومصارف المياه انما كانت تتم بموجب دراسات وخطط ومسح قبل الشروع بمثل تلك المشاريع • ومما يؤيد ذلك انه حانتا من حكام عصر فجر السلالات بعض الصور المرسومة على ألواح الطين تمثل مخططات الجداول والانهار ، ونذكر على سبيل المثال صورة الجدول المرسومة فى لوح من عهد «ايا باتم» ومعه صورة حران تريدسعته على (٢٢٠٠) «حالور»[١] ومن أخبار شق الانهار ما جاءنا من حمورابى من مشاريعه الواسعة فى الرى ومن ذلك شقه نهرا عظيما سماه « نهر حمورابى » ودعاه « ثروة البلاد وجالب الماء الوفير الى سومر وأكد » ، وكان هذا نهرا عظيما يأخذ من الفرات بالقرب من « بورسبا » (برس نمرود الآن) ويذهب بعيدا الى « اوما » والى « لارسة » حيث ينعطف منها الى جهة خليج فارس[٢] كما أن فى رسائله الشيء الكثير مما كان يصدره من الاوامر الى ولاته وعماله بأمرهم بها بكرى الانهار والمحافظة على ادامتها والمحافظة على الآلات المستعملة فى الرى[٣]•

Delaporte, **The Babylonian and Assyrian Civilization** (1925) 106

(٢) **ibid.** ذات المصدر

(٣) انظر نماذج من هذه الرسائل فى المرجع الآتى :-
Ungnad, **Babylonische Briefe,** 42--41

هذا ولم يقتصر الامر على ان الانهار التى شقوها من الفرات الى دجلة كانت تستعمل لغرض الارواء فحسب بل انها كانت تخفف من وطأة الفيضان، ولا سيما فيضان الفرات الذى كانت تتركز فيه المستوطنات القديمة اكثر من دجلة على ما سنبين فيما بعد . والى ذلك فانه لدينا من الادلة الآثارية ما يشير الى أنهم لم يكتفوا بتلك الوسائل لدرء خطر فيضان الفرات وانما قاموا بتأسيس مصارف لاخذ المياه ابان الفيضان والاستفادة منها من بعد ذلك طوال أيام السنة ، ومما لا شك فيه انهم استغلوا بعض المنخفضات الطبيعية القريبة من الضفاف الغربية من الفرات مثل منخفض الحبانية وهور « أبو دبس » وبحر الملح وبحر النجف ومنخفض عقرقوف حيث حولوها خزانات ومصارف للمياه[1] وكذلك استفادوا من مثل هذه الخزانات لاغراض الدفاع، ويمكن مشاهدة المحار النهرى منتشرا فى أطراف هذه المنخفضات فى الوقت الحاضر .

وهناك نهر عظيم ذكره الكتاب الرومان (ولا سيما اريان) حيث يذكر نهرا كبيرا باسم «بالوكوناس» (أو بالوكوباس) الشبيه باسم الفلوجة القديم (أى بالوكات أو بلوكات) وان ماء الفرات يصرف منه فى أيام الفيضان، واذا أنخفض مستوى الماء فيلزم سد فم هذا النهر والا فان الفرات يفرغ ماءه فيه ويذكر لنا أيضا أن الاسكندر الكبير أمر بان يبنى سد من الحجارة الصلدة بالقرب من مصب نهر الفرات نهر «بالوكوناس» للاحتفاظ بالمياه فى فصل الجفاف[2] ويجعل المؤرخون هذا النهر وهو يأخذ ماءه اما من فرع هيت أو الفلوجة ويسير محاذيا للفرات الى جهة الغرب الى أن يصب فى البحر أى أن طوله نحو

---

(١) انظر تعليق « وبلكوكس » عن رى العراق (الطبعة العربية) الص ٦ ـ ٥ المسار البه فى كتاب الدكتور سوسه «وادى الفرات ومشروع بحيره الحبانيه» (١٩٤٤) الص ٨١ فما بعد) .

(٢) انظر كتاب «اريان» المسمى «صعود الاسكندر»
Arrian, **Anabasis of Alexander,** VII, XXI, 2—5.

(٩٠٠) كم • هذا ولا يعلم من شق ذلك النهر العظيم[١] كما لا يعلم بوجه التأكيد أى الانهار الدراسة الآن ما يمكن ان تكون ذلك النهر • وقد انست التحريات الحفرافية الحديثة الى قام بها «الوا موسيل» فى منطقة الفرات الاوسط[٢] آثار هذا النهر ببضع كيلومترات جنوب هيت ، ولاحظ انضفافه هنا مرصوفة بالحجارة كما شاهد آثار جدار ضخم على الحانب الايسر ، وكذلك رسم مجرى هذا النهر « ويلكوكس » • والمرجح كثيرا أن النهر المندرس الآن المعروف باسم « كرى سعدة » هو أكثر ما ينطبق على وصف دلك النهر العظيم ، اذ انه يسير بمحاذاة الفرات غربا الى الجنوب قرب مصب نهر الفرات القديم (غرب شط العرب قرب بوبيان) •

ونجدر بنا أن نختتم كلامنا على الرى بذكر نبذة موجزة عن نهرى العراق دجلة والفرات وهما الرافدان العظيمان اللذان هما عصب الحياة فى العراق • ومما نؤثر عن هيرودوتس قوله عن مصر «انها هبة النيل» • ويصح أن نقول عن بلاد ما بين النهرين انها كذلك هبة نهريها العظيمين وروافدهما• والى أهمية الرافدين البالغة فى رى العراق وخصبه فان لهما شأنا خطيراً آخر اد استفادت منهما جميع الحضارات التى قامت فى العراق فى المواصلات والتجارة،[٣] كما نستدل على ذلك من أخبار بناء الارصفة والموانىء فى المدن المهمة •

ولا يقتصر الامر على ذلك فان الرافدين يكسبان لارض العراق أراضى جديدة اذ الرأى السائد كما ذكرنا ان القسم الجنوبى من العراق دلتاعربنية

(١) ينسبه بعض المؤرخين العرب (مثل ياقوت) الى «نبوخذ نصر» أو الى «ابو سروان» • ويرى بعض الباحثين المحدثين ان «بلوكوباسين» هو مجرى الهندية الآن •

(٢) Alois Musil, **The Middle Euphrates**

(٣) لقد أدرك هذه الامكانيات الخلافة العباسية • ويروى فى هذا الصدد عن المنصور انه قال بعد ان اختار موضع بغداد وبدأ ببنائها . « هذا موضع معسكر صالح • هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شىء تأتينا فيها كل ما فى البحر وتأتينا المادة من الجزيرة وارمينية وما حول ذلك• وهذا الفرات تجىء فيه كل شىء من الشام والرقة وما حول ذلك» (طبرى ٣ ، ص ٢٧٢) •

كونها ترسبات الغرين المحمول بالنهرين منذ أقدم عصور ما قبل التأريخ.

وقد خص البابليون الرافدين بالتعظيم وجعلوهما الهين من جملة الآلهة التى تمثل القوى الطبيعية ولا سيما نهر الفرات . وجاء ذكر النهرين فى المصادر المسمارية وقد نعتا بالنهرين الاخوين[١]. وذكرتهما التوراة من حملة الانهار الاربعة التى تخرج من جنة عدن (كما جاء فى سفر التكوين) .

ويمتاز نهر الفرات عن أخيه دجلة بكثرة طوله وتعرجاته وانعطافاته واتساع واديه وعمقه . وبعد أن يتصل فرعا الفرات البعيدان « قره صو » و « مراد صو »[٢] قرب كدوكية سع الفرات فى مجراه طريقا حبوسة ويسير متعرجا الى الغرب قليلا حتى يصل الى أقرب بعد له عن البحر المتوسط قرب « كركميش » القديمة (جرابلس الآن) . ويكاد يستمر فى اتجاهه الى ذلك البحر . وعندما يصل الى بعد نحو ١٠٠ ميل عن البحر يحده الحسن الحظ يغير مجراه ويسير الى الجنوب منحرفا الى الشرق ويستمر كذلك حتى يدخل سهل سورية وما بين النهرين بالقرب من « سميساط » (سموساتة المذكورة فى المصادر اليونانية والرومانية) . ويتصل به فى مجراه الاعلى رافداه المهمان وهما « الناليخ » (أو الليخ)[٣] الذى يروى اقليم اديسا القديمة (اى الرها) وحران ويتصل بالفرات اسفل الرقة بقليل والثانى « الخابور » (واسمه القديم حورو وسماه اليونان جابوراس) الى الجنوب بنحو ٩٠ ميلا ويتصل بالفرات بالقرب من قرقيسية . ويأخذ الفرات الى الجنوب من ذلك بالاقتراب من دجلة حتى يصل الى أقرب مسافة من دجلة قرب بغداد حيث يكون عرض الارض ما بين النهرين نحو ٢٠ ميلا . ونصل

---

(١) أنظر Reisner, **Hymnen,** 136, 29

(٢) وهو فرع الفرات الجنوبى وقد عرفه العراقيون القدماء حسب ورد فى المصادر المسمارية باسم (أرصانيا) (Meissner, **Bab. und Assyr., 1, 2)**

(٣) واسمه القديم « بلنخو » وقد جاء اسمه فى بعض المراجع اليونانية ، ولا سيما « زيفون » بهيئة « خالسس » (Chalcis)

هما الى الاقليم الذى كان يدعى فيما مضى ببلاد أكد ، وتبدأ من هذا الموضوع أيضا آثار الارواء القديمة وهى الانهار العظمى التى ذكرنا انها شقت من الفرات • وتوجد أدلة تأريخية قوية على أن الفرات قد غير مجراه الى جهة الغرب وانه كان يجرى الى الشرق من مجراه الحالى • وبوسعنا ان نعين مجرى الفرات القديم من مواضع أطلال المدن القديمة التى كانت فيما مضى على هذا المجرى ولكنها الآن فى بادية جرداء ومن ذلك نفر والوركاء والسكره (لارسة القديمة) ، ولا يزال قاع الفرات المندرس يشاهد الآن قرب هذه الاطلال ويعرف قسمه الشمالى بشط النيل قرب النيل الحديث والحنوى بشط الكار • والجدير بالملاحظة عن تأريخ الاسيطان البشرى فى وادى الرافدين ما سبق ان لمحنا اليه من أن سكان العراق القدماء قد تحاشوا الاستيطان فى عصورهم القديمة فى وادى دجلة وتركزت السكنى فى وادى الفرات لاسباب واضحة منها أن الفرات أقل عنفا وطغيانا فى فيضانه لقلة الانحدار فى نهر الفرات كما ان منابع الفرات أبعد كثيرا من منابع دجلة والى ذلك، فان الفرات يجرى فى ضفاف منخفضة وذات انحدار قليل بعكس دجلة مما كان يسهل الارواء بالسيح وكذلك وفره المياه فى الصيف فى الفرات لان فيضانه متأخر عن فيضان دجلة بنحو شهر واحد • وقد ذكرت وجود المحصات الطبيعية فى جوانب الفرات الغربية الصالحة لجعلها خزانا لتصريف مياه الفيضان • ولا نعلم بالضبط أصل اسم الفرات ، وقد كان يكتب بعض العلامات المسمارية التى يكتب بها اسم مدينة « سبار » القديمة (أبو حبة الآن)[1] • ويرجح أن اسمه سمرى وقد عربه البابليون بلغتهم

---

(١) اى بالعلامات المسماريه (UD KIB NUN) ويسبقهـا العلامه الدالله على النهر (ID) ويقرأ هذه المجموعه من العلامات بصور مختلفه مثل (buranun) و (burununa) وذكر لهـا مرادفات بالاكديه منها (Pu - ra - ti) و (Pu - rat - tum) وهذه لا شك محرفه عن الصيغه السومريه • اما دجله فقد كتبه البابليون بالصيغـه (I - di - iq - lat) اما اسمه بالانجليزيه (Tigris) فالمرجح أنـه مأخوذ من الفارسـيه القهلويه (Tirgah) التى تعنى السـهم او الحادى السريع •

السامية باسم « پورتم » أو « پوارتي » اى الفرات • ولعل الاسم الاعلى ومنه العربي « الفرات » مشتق من كلمه « الفرع » • أما دجله فقد ورد اسمه بهيئه « ادقلات » أو « ادكلات » ، ومن معانى اسمه الاصلى « الحارى » او « الراوى » • وقد عرف الآشوريون مسمع دجله وعبروه فى ارميسة حيث يذكر لنا الملك الآشوري « شلمنصر » الثالث (القرن التاسع ق•م) انه اقام فى عام حكمه الخامس عشر جسرا عند مسمع دجلة وانه سار من بعد ذلك الى منابع الفرات حيث قرب هناك الضحايا وغسل سلاحه فى مياهه • ويمتاز دجلة عن الفرات بكثره روافده التى تصب من بحد ايران وتجرى الى الجهة الجنوبية الغربيه وتصل بدجله • وأبعد هذه الروافد « الزابان » ، حيث نصب الزاب الكبير ، الذى كانوا يسمونه المصادر السامية باسم « زابو اباو » (أى الزاب الاعلى) فى

دجله فى موضع حديثى نسبيا بنحو ٤٠ ميلا فى الموضع المسمى بالمحلط قرب « نمرود » • والى الجنوب من ذلك بنحو ٨٠ ميلا يتصل الزاب الاسفل بدجلة • وقد سمى الآشوريون اسم هذا الزاب بالزاب الاسفل « زابو سوباالو » • والى الشمال من بغداد بنحو ٦٠ ميلا يتصل نهر العظيم بدجلة وسماه البابليون باسم « ردانو » ، وذكره الكتاب اليونان والرومان باسم « فسكوس » • ويرجح كثيرا ان دجله قد غير مجراه الى الغرب من مجراه القديم فمثلا كان يمر فى العصور الاشورية بمحاذاه العاصمة الآشورية القديمه «كالح» (نمرود الآن) • وقد وجد المنقبون حديثا آثار رصيف كبير فى الجانب الغربى من الخرائب كان ميناء المدينة على دجلة ، ولكن يجرى النهر الآن بعيدا عن نمرود حيث يمر بالقرية الحديثة المعروفة باسم «السلامية» • وكان نهر دبالى أهم روافد دجلة الآتية من المرتفعات الشرقية • وقد سماه البابليون باسم « تراتا » ، ويتصل بدجلة جنوب بغداد وبال موضع سلوقية (تل عمر الآن) ويكون دبالى مع دجلة مثلثا كبيرا من الاراضى الواسعة الخصبة كانت تقوم فيها فيما مضى مملكة قديمة عرفت باسم مملكة « أشونا » كما ذكرنا من قبل ، وعاصمتها الآن فى الخرائب المعروفة

بل « اسمر » . وقد جعل أهل هذه المملكة نهر ديالى من جملة الآلهة التى عبدوها[١] .

التجـارة : ـ

لقد قلنا فيما سبق ان الحضارات التى قامت فى هذه البلاد تميزت جميعها باعتمادها على ثلاثة أسس فى حياتها الاقتصادية ، وهى الزراعة والصناعة والتجارة وقد أوضحنا لكم بعض الاشياء الاساسية عن الزراعة وشؤون الرى وبوها بعض الصناعات القديمة فنذكر الآن الركن الثالث من الحـــاة الاقتصادية فى العراق وهو التجارة . وشهرة العراق القديم ولا سيما بلاد بابل فى الامور التجارية لم تقل عن شهرتها الزراعية عند الاقوام القديمة ، وقد ذكر ذلك الكتاب اليونان والرومان . والواقع ان الطرق والمعاملات التجارية التى سار عليها سكان العراق الاقدمون قد اثرت فى الشعوب التى

---

(١) وبالنظر لفائدة المقارنة بين وضع النهرين وفروعهما فى الزمن القديم والتجارى الحديث، ولتعقد هذه المجارى ولا سيما فروع الفرات يذكر فروع الفرات الحديثة ولاسيما بعد اسمرارها بانشاء سده الهنديه (١٩١١ـ١٩١٣) . فعلى مسافة ٨ كم الى الجنوب من المسيب يصل الفرات الى سده الهنديه، فيتفرع الى فرعين فرع شرقى هو فرع الحله وفرع غربى هو شط الهنديه (الذى صار مجرى الفرات الرئيسى) ، ويتفرع من شط الحله فروع أيضا منها شـط الدغاره الذى يصب فى هور عفك وبعد أن يمر فرع الحله بالديوانيه والحمره والرميثه يتفرع من مجرى الفرات الرئيسى شمال السماوه بقليل ويتصل بفرع الهنديه . ويتفرع شط الهنديه شمالى الكفل الى فرعين ، فرع شرقى هو شط الشامیه وفرع غربى هو شط الكوفه ويمر هذا الفرع بالكوفة وأبى صخير والعصلبيه ثم يلتقى بشط الشامیه فى شمال قرية الشنافيه . وبعد مرور شط الكوفه بأبى صخير يتبدد مياهه فى الاهوار والمستنقعات ثم يتسمى من بعد ذلك بشط المشخاب وهو المجرى الرئيسى لهذا الفرع من الفرات ثم يلتقى بفرع الشامیه ويتوحد عندئذ مياه شط الهنديه ، ويمر الفرات الاصلى من بعد السماوه بالحضر والدراجى والبطيحه والناصريه وسوق الشيوخ ثم يدخل هور الحمار ويمر بقرنه الحمار ويخرج من ضفه الهـور الشمالیه ويمر بالحمايش والمدينه ويلتقى بنهر دجله عند كرمه على جنوب القرنه . ويلتقى بدجله عند القرنه مجرى الفرات القديم الذى نسباب فيه الآن [illegible] .

البابلى اردهرب فى الحياة التجارية ولا سيما فى عهـــد ارتحششتا الاول (٤٦٤ – ٤٢٤ ق.م) وعهد دارا الثانى (٤٢٣ – ٤٠٥ ق.م) ،وقد كشف عن ألواح الطين المسمارية الكبيرة المتعلقة بمعاملاتها المالية ، وتحمـــل بعض الالواح فى بقاء الثانية موخرة بالارامية و بالخط المخصص لمحتويات الوثيقة حيث كانت اللغة الارامية مستخدمة فى المعاملات التجارية[١] .

(١) A T Clay, **Business Documents of Murashu Sons** (1898)

رأس مال للماجره ويجعل له حصة فى الربح ، وكان العملاء يقومون فى أغلب الاحايين بالمناجرة لاصحاب رؤوس الاموال خارج العراق ، وتخبرنا شريعه حمورابى عن أشياء طريفة بالنسبة الى نصيب المرأة بالتجارة وتمتعها بالحرية التجارية فى تلك الازمان القديمة •

ويمكن أن نقول ان أول قانون تجارى صرف هو الذى ظهر فى مستعمرة تجارية أسسها الآشوريون وسط الاناضول • وقد سبق أن سمينا هذا القانون باسم « القوانين الآشورية القديمة » حيث يرجع زمنها الى بداية الالف الثانى ق•م وبالاضافة الى الشرائع المدونة فقد وجد المقبون مئات الالوف من العقود والوثائق والمستندات التجارية المختلفة فى مدن العراق القديمة ، وهى تعكس لنا نواحى مهمة عن نشاط القوم التجارى وترينا بوجه حلى ان المعاملات التجارية كافة كانت لا تعد قانونية ملزمة الا بعد أن تكتب بأسلوب قانونى • ومن مظاهر اهتمام القوم بالامور التجارية ضبط الاوزان والمكاييل والمرجح كثيرا أن دائرة خاصة أسست وأنيطت بها شؤون الاوزان والمكاييل وفى المتحف العراقى نماذج من هذه الاوزان الرسمية وهى مصوشة بالكتابة الرسمية التى تبين مقدار الوزن القياسى ، والعادة فى هذه الاوزان انها على هيئة البط وبعضها بهيئة الاسود•ومع ان المدفوعات كانت تدفع بوزن الفضه أو المعادن الاخرى المتخذة أساسا للتبادل ولكن مع ذلك لم يعثر على نماذج للموازين المستعملة فى العراق القديم ولا على صورتها ولكن مما لا شك فيه أنهم استعملوا الموازين ومما يدل على ذلك عدا وجوب وزن الفضة وجود فعل «وزن ، يزن» (شقالو ومنه كلمة الشيقل) كما ان الكتابات تشير الى وجود الميزان وقد وردت الكلمة المعبرة عن ذلك بصيغة التثنية مما يشير الى كفتى الميزان • ومما يقال عن المقاييس والموازين القديمة اطراد هذه المقاييس وكانت منسجمة مع نظام العدد الستينى عندهم ، وبهذا الامر فاق سكان العراق الاقدمون على جميع الشعوب القديمة •

ولعلكم تسألون الآن كيف كان يتعامل سكان العراق القديم اى ماذا

كانت واسطة التعامل عندهم ؟ وهل عرفوا النقود ؟ والجواب على ذلك ان العراقيين الاقدمين أوشكوا أن يوجدوا النقود الا أن النقود بمفهومها الحديث لم تكن معروفة عندهم وانما استعملوا المعادن واسطة للتعامل لقياس قيم المواد الاخرى عليها[١] ، ومن ذلك النحاس والفضة والذهب ، فاستعملوا الفضة مثلا على هيئة صفائح صغيره أو حلقات أو أقراص مثقوبة وهى ذات أوزان معلومة . ويقال انهم كانوا يطمغون مثل هذه القطع المعدنية أحيانا ضمانا لنوعها ووزنها فلا يعيدون الوزن فى كل معاملة[٢] . وهذه هى فكرة النقود واصل النقود الحقيقة . والمرجح أن بعض الاقوام التى كانت تسكن فى آسية الصغرى ، ومنهم الليديون ، أخذوا الفكرة وحسنوا فيها حيث صار بعض الملوك فى هذه الاقاليم يطمغون كتلا معينة الوزن من المعدن برمز الملك أو الدولة ليكون ذلك ضمانا لقيمة النقد وامكان صرفه ، وكان ذلك فى حدود ٧٠٠ ق.م . وهو الرمز الذى يمكننا عده بداية النقود الحقيقيه فى تاريخ البشر ، وتحسن بك النقود أكثر عند اليونان حيث استعملت بعض مدنهم ، ولا سيما مدينة أثينة ، النقود مما كان سببا من أسباب ازدهارها الاقتصادى فى القرن الخامس ق.م. ولعل ما يشير الى أن فكرة النقود من العراق القديم ان اليونان استعملوا بعض الاوزان البابلية ومن ذلك « المنا » (وقدره نحو نصف كيلو غرام فى المقاييس البابلية) حيث قسموه كوزن وعملة الى ١٠٠ قسم كل قسم سموه «دراخما» ، ومنه كلمة الدرهم العربية .

ومن البديهى أن أهم الوسائل لازدهار التجاره هى طرق المواصلات ووسائل المواصلات . وقد حاءتنا عن ذلك أخبار لا بأس بها ، ونذكر من ذلك

---

(١) وكانت واسطة التعامل قبل المعادن الحاجيات والمقتنيات الاخرى كالحبوب والحيوانات (قارن الكلمة اللاتينية للثروة والمال (Pecunia) المأخوذة من الماشية (Pecus)

(٢) وقد ذكرت المصادر القديمة ان قطعا معدنية ذات اوزان معلومة مقدار كل منها نصف شيقل كانت متداولة فى عهد الملك الاشورى سنحاريب وتسمى « رؤوس عشتار »

(Olmstead, **History of Assyria, (1923), 312**

بعض الامور البارزه المفيدة فمن ذلك أخبار ملوكهم التى تشير الى اهمامهم بتأمين طرق المواصلات حتى انهم كثيرا ما شنوا الحملات الحربية لاخضاع الاقوام والقبائل التى تمر من بينها الطرق التجارية المهمة ، وبناء الحصون والقلاع العسكرية لضمان ذلك ، وانشاء نظام للبريد أى نقل الاخبار والرسائل . وقد عثر المنقبون حديثا ، كما ذكرنا ، فى منطقة الخابور فى شمالى سورية على حصنين عظيمين بناهما الملوك الاكديون فى منتصف الالف الثالث ق.م للمحافظة على الطرق المهمة التى كانت تربط العراق بسورية . وتحدثنا الاخبار القديمة عن الحملات الحربية التى قام بها ملوك العراق القديم مما مر بنا فى البحث عن الادوار المختلفة من تاريخ العراق ، فقد سبق أن ذكرنا كيف أن سرجون الاكدى قد جرد حملة حربية الى الاناضول لحماية مستوطن أكدى للتجارة انشأ فى كبدوكية فى الاناضول للتجارة بالصوف والفضة .

أما عن وسائل المواصلات فان التحريات الحديثة قد زودتنا باشياء مهمة عن أقدم وسائل للمواصلات عند البشر ، ومن ذلك العربة التى نشأت فى العراق فى عصور ما قبل التأريخ ، من منتصف الالف الرابع ق.م وقد سبق أن ذكرنا ان مديرية الآثار العراقية وجدت حديثا فى تنقيباتها فى اريدو (أبو شهرين) نموذج قارب يعد أقدم ما صنعه الانسان اذ يرجع تاريخه الى عهد العبيد (فى حدود ٤٠٠٠ ق.م) . ومما لا شك فيه ان الملاحة فى العراق نشأت فى جنوبى العراق فى سيف البحر ، اى فى منطقة الخليج . ومن الطريف ذكره بهذا الصدد ان نماذج السفن التى خلفها لنا العراقيون الاقدمون تشبه ما يستعمل فى العراق الآن شبها تاما كما تستعمل القفة والجلود المنفوخة فى الانهر كما تدل على ذلك الصور المنحوتة فى المنحوتات الاشورية . والجدير بالذكر ان كلمة « الملاح » المستعملة الآن فى جميع

الاقطار العربية أصلها من اللغة السومرية[١] . ونستطيع أن نقف على اهتمام القوم بالملاحة من المواد التى خصصت فى شريعة حمورابى لتنظيم شؤون الملاحة وتحديد أجور السفن وجاء فى المعاجم اللغوية المدونة على ألواح الطين أنواع مختلفة من أسماء السفن والعربات . وخلف الرياضيون مهم قضايا رياضية تتعلق بالسفن من حمولتها وسعها ، وجاءنا بعض النصوص التى تصف صنع السفن .

ونذكر لنا الاخبار القديمة القوافل المحملة بالمواد الاوليه الآتية من جهات الشرق المختلفة بالطرق البرية والمائية . ويفسر لنا هذا كثرة ما يجده المنقبون فى مدن العراق القديمة من الاحجار والمعادن الثمينة المستعملة فى القطع الفنية والصناعة مما لا وجود له فى العراق بل كان القسم الاغلب منه يجلب من خارج العراق ، فقد استوردوا النحاس من جزيره العرب (من عمان والبحرين) منذ أقدم العصور كما جلبوا بعض الاحجار الثمينة ولصنع التماثيل ، وعندما تعلموا صناعة البرونز اضطروا الى استيراد القصدير لخلطه بالنحاس من شرق ايران ومن سورية ومن آسيه الصغرى وحتى من أوربة . وجلبوا الفضة والرصاص من جبال طوروس ، والاخشاب من المنطقة الجبلية فى الجهات الشمالية الشرقية ومن سوريه ولبنان واستوردوا بعض الاحجار الكريمة مثل حجر اللازورد من الافغان والصدف من خليج فارس .

ونختم بحثنا عن التجارة فى العراق بذكر اكتشاف خطير اهتدى اليه الباحثون الاثريون حديثا فى تركيه (١٩٤٨ – ٤٩) ، اذ وجدوا موضعا قديما وسط الاناضول تبين أنه كان مركزا تجاريا واسعا انشأه الاشوريون فى بداية الالف الثانى ق.م ، وقد أحدث حفر اكتشافه اهتماما عالميا بالغا، وقد وجد فى الموضع الذى يسمى الآن « كول تبه » قرب قيصرية الى الجنوب

(١) تتألف اسم الملاح بالسومرية من علامتين مسمارتين تدل الاولى (ما) على القارب والثانية (لاح) بمعنى (ذهب وجاء) ولعل ذلك من جملة استعمال المردى .

الشرقى من امره ، وقد حفرت فيه « الجمعية التاريخية التركية » ومن الآثار المهمة التى وجدها المنقبون فى ذلك الموضع عدد كبير من ألواح الطين المكتوبة بالخط المسمارى والحروف الاسطوانية المستعملة فى المعاملات التجارية مما يجده المنقبون فى مدن العراق القديمة • وظهر من التحريات أن تلك المدينة التجارية كان تتبعها مراكز أخرى فى الاناضول وانها كانت مرتبطة بمدينة اشور لان قسما من ألواح الطين التى وجدت هناك كانت رسائل تجارية تتعلق بادارة هذه الشركة الواسعة وهى الرسائل المتبادلة بين مدينة آشور وبين التجار فى الاناضول • ووجد المنقبون أيضا بعض المحلات التجارية والدوائر التى كانت تدار منها شؤون تلك الموضع وفيها الوثائق التجارية المختلفة وهى تمدنا بمعلومات ثمينة عن تنظيم القوافل التجارية وتمويلها ، وكذلك بنظم تسلم البضائع وطرق السفر ، وقد يرد فى شروط النقل ان « كروانا » معينا تسلم فى مرحلة معينة من الطريق الى « كروان » آخر ، كما نجد بعض الوثائق عن حوالات تجارية بطريقة التبادل التجارى أو بارسال كتاب يتسلم حامله بموجبه مبلغا معينا من المال • وكان البريد منتظما بين شمالى العراق وبين أولئك التجار وكذلك بينهم وبين عملائهم فى المستعمرات التجارية الاخرى وتذكرنا هذه المدينة التجارية بما قلناه عن تأسيس مستعمرة قديمة فى الاناضول فى العهد الاكدى ، ولعل الموضع الآشورى الجديد قد خلف المستعمرة الاكدية القديمة • وقد جاءتنا وثائق تجارية من مدينة نوزى القديمة من العهد الحورى ـ الميتانى وهى تخص عائلة تجارية كانت تؤلف شركة تجارية ، وقد حفظت وثائق معاملاتها لمدة خمسة أجيال تقريبا[1] • ويذكر أيضا على سبيل المثال على الشركات التجارية مصرفا أو شركة تجارية كبيرة كانت فى مدينة نمر من بداية العهد الفارسى الاخمينى (القرن الخامس ق•م) ، وكان اسم رئيس المصرف « مراشو وأولاده » ، وكانت هذه الشركة تخص عائلة اسرائيلية من بقايا السبى

(١) E. Contenau, **Les Tablettes de Kirkuk** (1926)

البابلى اردهرب فى الحياة التجارية ولا سيما فى عهـــد ارتحششتا الاول (٤٦٤ – ٤٢٤ ق.م) وعهد دارا الثانى (٤٢٣ – ٤٠٥ ق.م) ،وقد كشف عن ألواح الطين المسمارية الكبيرة المتعلقة بمعاملاتها المالية ، وتحمـــل بعض الالواح فى بعض الحالات بموجبة بالارامية و بالخط المخصص لتحرير محتويات الوثيقة حيث كانت اللغة الارامية مستخدمة فى المعاملات التجارية[١] .

(١) A T Clay, **Business Documents of Murashu Sons** (1898)

الفصل التاسع عشر

الفنون

١ - الادب

مقدمـــة

عندما انتقل الانسان الى طور الحضاره في وادي الرافدين ووادي النيل وتوفرت له أسباب الغيش والجاد الحضريه شرع بنظر في هذا الكون ليحلله ويفكر في الجاد البشرية ومعانيها وقيمها ، فبدأ يحاول التعبير عما حالجه من ظواهر الكون ، وسلك للتعبير عن أغراض تفكيره سبلا مختلفة فنظر بنظره الى الاشياء والطبيعة نظره موضوعية عملية فيستفيد من امكاناتها وتسخيرها له فنشأت المعارف وبذور العلم وطورا كان ينظر الى الاشياء نظرة اسطورية خيالية فيضفي الجياد على الاشياء الجامده فيعبر عن الحياة تعبيرا خياليا فيضاعلى هيئه قطعة أدبية أو فنية سميها نحتا أو تصويرا أو قصة أو اسطورة[١] وهذا هو أسلوب الادب .

وقبل أن ننظر في اناجهـــم في حقـل الآداب نذكـر شـــيئا عن طبيعة تفكيرهـم في الحيـــاه والكون الذي كـــان اناجهـم الادبي مظهرا

(١) ينبغي لنا أن نعبر في نتاج الآداب القديمه بين ضربين نسمي احدهما القصص (Legends) والثاني الاساطير (Myths) فالنوع الاول حقائق أو وقائع وقعت فعلا ولكن روويت باسلوب الخيال والقصه ودخل فيها الخيال والمبالغه والمثل على ذلك الملاحم الكبرى ، كملحمه جلجامش والطوفان التي سنعبر بنا ، والاودسه والالياده الخ . أما النوع الثاني فهو نتاج خيالي محض وضع لتفسير بعض حقائق الكون واصل الوجود والاشياء او تفسير الظواهر الاجتماعيه ، والمثل على ذلك أسطوره الخليقه البابلية وبعض قصص الطوفان ولا سيما الطوفان عند اليونان .

من مظاهره ووجها من أوجهه • فمما يقال بوجه عام ان تفكيرهم كان بالدرجة الاولى اسطوريا شعريا • وباستثناء موارد قليلة لا يسعنا ان نسمي ما خلفوه لنا «فكرا فلسفيا» أو فلسفة ، مما يستند الى الاستدلال والاستنتاج والنقد والتأمل والنظر في الاشياء نظرا موضوعيا • ومع أنهم عالجوا في قصصهم وأساطيرهم قضايا مهمة لا تقل عما كان يشغل الفلسفة اليونانية والفكر الحديث الا أن تفكيرهم فيها كان اسطوريا خياليا • فكان الخيال والفكر متلازمين • ومع أن الاساطير والقصص معروفة في آداب العصور الحديثة الا انهم لم ينظروا الى تلك الاساطير على انها متعة أدبية محضة بل كانوا يعتبرون ما فيها من آراء حقائق أو حقائق ميتافيزيقية لتفسير الاشياء • فاذا نظرنا الى الاسطوره القديمة فيجب أن نعتبرها نوعا من الشعر والخيال ولكنها تسمو على الشعر لكونها كانت تعبر عن الحقيقه • كانت تفسر نفس المشاكل الاساسية التي عالجتها الفلسفة اليونانيه باسلوب موضوعي مستند الى الاستدلال والتفكير المنظم المنطقي كاصل الوجود والاشياء ، والغايه من وجود الاشياء • ولذلك فاذا كنا سنجد فيما سنذكره من نماذج القطع الادبيه من تناقض في الآراء والمعتقدات فان ذلك موقع في التفكير الاسطوري الشعري • لان المتناقضات لا تبدو الا للفكر المنطقي الموضوعي الذي نسمو عليه خيال الشاعر الفنان ، ذلك الخيال الذي يكون فيه الحد بين الواقع وغير الواقع مختلط المعالم غير واضح ، كما يكون الحد بين الاحلام واليقظة مختلطا • والواقع ان الاحلام لم تكن تأخذ نصيبا من الحقيقة من اليقظة • فكان القوم يحصلون على الوحيه أو الشعر الالهي باتصالهم بالالهة في الاحلام كما رأينا في مبحث الديانه ، وعلى ضوء ذلك ليس من الموقع أن نجد في فكرهم ما نسميه بقانون العلة أو النسبة الذي هو أساس منهج جميع العلوم الحديثة • انهم لم يتصوروا ان العلاقة بين العلة والمعلول علاقة غير شخصية (impersonal) ميكانيكية سير باطراد على هيئة قانون عام • فمثلا استطاع نيوتن ان يكشف قانون الجاذبية من ملاحظته ثلاث مجموعات من

الظواهر الطبيعية تبدو من وجهة النظر الدائى المباشر متباعدة لا رابطة بينها وهى : سقوط الاجسام وحركة الاجرام السماوية وظاهرة المد والجزر ، وكانوا ينظرون الى علل الاشياء واسباب حدوثها من وجهة نظر «من» يحدثها ؟ وليس من وجهة نظر « كيف تحدث » • فمثلا اذا لم يرتفع نهر دجلة كان السبب فى ذلك «ان النهر أبى أن يرتفع» لغضبه أو بسبب غضب الآلهة على البشر ، لا بسبب نقص الثلوج والامطار • فمثلا حدث مرة أن المياه لم ترتفع فى دجلة فى عهد حودنة فقصد المعد وأمضى ليله هناك ليسترشد بالآلهة عن سبب حدوث هذه الظاهره ، فظهر له الاله فى الحلم بطريقة لم يستطع تفسيرها ولكن الكهنة المحصين بمعبر الرؤيا فسروا له الحلم بان الاله « تنجرسو » يريد منه بناء معبد جديد •

وثمت ظاهرة أخرى تسترعى انتباه الناظر فى محلفات الفكر فى حياة سكان وادى الرافدين القدماء تلك هى أن أساس نظرهم الى الاشياء والموازنة فيما بينها كانت تستند بالدرجة الاولى الى مبدأ القياس أو التمثيل (Analogy) وعلى قليل جدا من مبدأ الاستدلال والاستنتاج (Inductive and deductive) وتتجلى مبدأ القياس والتمثل فى السحر وطرق العرافة والكهانة وتصنيفهم للاشياء على أساس التشابه الظاهرى ، وتصورهم للسماء بهيئة الارض أو بالعكس ، حتى انهم تصوروا الكون على هيئة مملكة أو دولة تحكم فيها الآلهة بمراتب ودرجات مختلفه وباسلوب الديمقراطية البدائية قياسا على التجارب البشرية فى مجتمعهم ، كما ان مبدأ التشبيه الذى عزوه الى آلهتهم مشتق من هذا الطراز من التفكير • وسنجد من تصفحنا للنماذج الادبية التى سنذكرها هذه المبادىء واضحة ، كما اننا سنجد اشياء أخرى كان يتصف بها الفكر القديم سنوه بها فى تعليقنا على تلك النماذج ونكتفى هنا بذكر وجه آخر من طراز تفكيرهم ذلك هو ما يصح أن نسميه بمبدأ الاسم أو نظرية الاسم ، فموجب هذا الطراز من التفكير لايمكن لاى شىء أن يوجد ما لم يكن له اسم ، فتسمية الشىء بمثابة ايجاد ذلك الشىء • وقد جاء هذا واضحا فى اسطورة

الخليقة البابلية انه في البدء « لم تسم سماء ولا أرض » (أي لم تخلق سماء ولا أرض) كما أن الشيء ما دام بلا اسم فهو غير موجود[١] وسنرى في كلامنا على حضارة وادي النيل ان هذا المبدأ موجود في الفكر المصري القديم بوجه واضح ، فالاسم جوهر الشيء وقوته . وكان للآلهة اسماء سرية تكمن فيها قدرتهم وقوتهم وسلطانهم فلا يبيحون بها ، وامتدت الفكرة عند سكان وادي النيل الى أسماء الاشخاص فكانوا يسمون أطفالهم باسمين اسم سري واسم آخر هو الذي يدعى به الشخص . وسنرى في اسطورة الخليقة البابلية ان الآلهة لما اجتمعت في مجلس شوراها وانتخبت الاله مردوخ ملكا عليها وبطلا لمحاربة قوى العماء الممثلة بالآلهة العتيقة قد تنازلت له عن اسمائها وألقابها وبذلك حاز الاله مردوخ على القوى التي كان يحوز عليها كل اله . وقد يمكن احرار بعض ما في أسماء الآلهة من القوة الالهية بمجرد كتابة الاسم . وتوسعوا في ذلك بحيث انهم كانوا يرمزون الى الاسماء بالاعداد فمثلا يخبرنا سرجون الاشوري عن قصره في خرساباد بقوله « بنيت محيط جداره بمقدار ١٦٢٨٣ ذراعا وهو رقم اسمي » ، فانتقل ذلك الى مبدأ العدد[٢] . ولما كان الاسم جوهر الشيء وسر وجوده نشأ عندهم فكرة تسمية الاشخاص والاشياء المحسنة لهم باسماء ذات فأل حسن ، وتنطبق هذه القاعدة بالدرجة الاولى على أسماء الاعلام كما رأينا ذلك في مبحث الديانة ولكن كانوا يراعون المبدأ نفسه في تسمية الاشياء فمثلا سموا شارع الموكب في بابل باسم «ايبر شابو» (ai - ibur - shabu) (أي عسى العدو أن لا يطأه أبدا) وكان اسم احد الجداول التي شقها حمورابي « حمورابي مسح الخير العميم للبشر » وقد سمون نمائيلهم بحمل مطولة كما فعل « حودنة » حاكم لجش .

ومهما كان الامر فان البحث في الساح الادبي لحضارة وادي الرافدين ذو خطورة خاصة بالنسبة الى تأريخ الآداب البشرية ، لانه يمثل لنا مثل مظاهر التفكير الاخرى

(١) قارن ذلك أيضا بالعهد القديم «التوراة» (سفر التكوين ٢ ٥-٥)
(٢) قارن نظرية الفيثاغوريين وافلاطون ، وكذلك فكرة اعطاء الحروف قيما عددية .

الى مرت بنا ، أولى محاولات للانسان للتعبير عن الحياة بأسلوب الخيال الذى قلنا هو أسلوب الادب بوجه عام وأسلوب الشعر والقصة والاسطورة بوجه خاص ولعل أروع ما أظهره البحث الحديث أن يجد الباحثون هذه الآداب الموغلة فى القدم وهى تتصف بالميزات الاساسية التى تتصف بها الآداب العالمية المشهورة سواء أكان ذلك من ناحية الاساليب وطرق التعبير أم من ناحية الموضوع أم من ناحية الاخيلة والصور الفنية ، ونستطيع أن نحدد الميزات الادبية التى خلفها لنا العراقيون الاقدمون تلك الميزات وهى تظهر ثلاثة أوجه : أولا : الفكرة التى تدور عليها القطعة الادبية أو القصيدة • وثانيا : الاسلوب الشعرى والايقاع الموسيقى الذى يهز مشاعر السامع • وثالثا : أسلوب الشاعر الفنى فى انتخاب الحوادث والمواقف المؤثرة •

الشعر :ـ

وسنبدأ بالشعر الذى يرجح أن يكون أقدم أنواع النتاج الادبى عند البشر ، وقد نشأ الشعر عند سكان وادى الرافدين الاقدمين من الغناء والقصائد الشعبية ، والمرجح كثيرا أن الغناء هو أصل الشعر فى جميع الآداب البشرية[1] • ومع أن البابليين لم يخلفوا لنا نماذج من الغناء الشعبى ، ولكننا نستطيع أن نتلمسه فيما ورد من بين الاشعار المدونة فى القطع التى لم تزل تحتفظ بطابع الاغانى الشعبية كبعض الموارد فى ملحمة جلجامش • وعلى الرغم من ضياع أشعار الحب وعدم تدوينها أو لانه لم تأتنا نماذج عنها بعد ، بيد أننا نستطيع أن نقف على ما يشبه الشعر الغزلى فى بعض التراتيل الدينية التى كانوا يغنون بها فى الصلوة الى الآلهة • وبعضها شبيه بـ « نشيد الانشاد » المنسوب الى سليمان فى العهد القديم •

والشعر السومرى والبابلى ، مثل الاشعار البشرية الاخرى ، كان

---

(١) ولعل مما يؤيد هذا الرأى ان كلمه « شعر » موجودة فى كل اللغات السامية تقريبا وتعنى فى أصلها الغناء مثل «شيرو» فى الاكدية ، والعبرية «شير» ومعناها النشيد والغناء (ومن ذلك «شير هشيريم» أى نشيد الانشاد المنسوب الى سليمان) وفى الارامية « شور » •

يخصع لفن خاص من النظم والتأليف ، فمن ذلك تألفه من أبيات قوام كل بيت من مصراعين (الصدر والعجز) • والعادة فى الشعر السومرى ـ البابلى ان المصراعين يتشابهان فى المعنى والتأليف وكل منهما يتكون من مقاطع ـ من مقطعين الى ثلاثة مقاطع طويلة فهو بذلك شبيه من هذه الناحيـــة بالشعر الافرنجى الذى لا يقاس بالمفعلات بل بالمقاطع الطـــويلة والقصيره[١] ، ويؤلف بيان من الشعر وحده فى المعنى • ويمتاز النظم فى كل من الشعر السومرى والبابلى أن الشعر موزون ولكنه غير مقفى ، فهو كالشعر العبرانى واليونانى والرومانى ، مثل الشـــعر الانجليزى المعروف بالشـــعر المرسل ويظهر من قصة الخليقة البابلية ومن ملحمة جلجامش أن القصيدة تنقسم الى وحدات تكون الوحدة منها من بيتين من الشعر ، والمعتاد فى البيت الثانى أن يكون معناه اما معايرا لمعنى البيت الاول أو مشابها له أو مكملا له • وقد تؤلف أربعة أبيات من القصيدة وحدة فى المعنى فتكون القصيده مجموعة من الرباعيات • وقد يستعمل كتبة الشعر بعض العلامات أو الفواصل بين مصراعى البيت الواحد وبين كل بيت وبيت • وقد تفنن الشعراء فى الارمان المتأخره فى فن التأليف والنظم والصناعه التى ادخلوها ، ومن ذلك نوع من الشعر تؤلف فيه المقاطع الاولى من كل بيت فى القصيدة بعد جمعها جملة ذات معنى قد تكون اسم الشاعر أو دعاء خاصا للاله الى غير ذلك[٢] •

ومن المميزات العامة فى الادب البابلى أنه مثل الآداب القديمة الاخرى قد أثر فيه الدين سواء كان ذلك فى اشراك الآلهة فى حوادث الملاحم والقصص والاساطير أو فى المواضيع والاغراض الدينية كالصلوات والرسائل والادعية التى تؤلف قسما مهما من الساحة الادبى الشعرى فقد كانت الاغانى والمراثى الدينيه مثل أغلب القصص والاساطير تؤلف بالشعر وبالاساليب الشعرية ، اما النثر فقد استعملوه فى أغراض أخرى من ساحة الفكر فى تدوين الحوادث والتاريخ

(١) المقطع الطويل فى عرف الشعر الافرنجى Accented Syllable وعكسه القصير •

(٢) يعرف هذا الفن باسم Alliteration أو Acrostic
(Zeitschrift für Assyriologie, 43 (1936), 32 ff.)

وفى الرسائل الملوكية وفى تدوين أعمال الملوك وتخليدها وفى الحكم والمواعظ والامثال ، وكان هذا النوع من النثر الادبى يخضع أيضا الى أصول خاصة من التأليف والتركيب .

وقبل ان نذكر بعض النماذج الادبية مما خلفه لنا سكان وادى الرافدين الاقدمون نذكر بعض الميزات العامة الاخرى التى يمتاز بها ذلك الادب القديم ، فمن ذلك ما نجده فى القصص والاساطير وشعر الملاحم من التكرار والاعادة ، ويبدو ذلك جليا فى قصة الخليقة البابلية وفى ملحمة جلجامش بوجه خاص وفى معظم القصص السومرية بوجه عام . وتوضيحا لذلك من قصة الخليقة نقول انه لو أرسل أحد الآلهة رسولا ليبلغ أمرا الى اله آخر فان الرسول يعيد جميع الابيات التى قالها الاله المرسل مهما بلغ عددها وطولها ، ونجد ذلك فى ملحمة جلجامش فى مواقف كثيرة مما يبعث الملل والسأم فى نفس القارىء ، ومن الطريف ذكره بهذا الصدد ان الباحثين المحدثين قد استفادوا فائدة عظمى من هذه الميزة اذ استطاعوا أن يكملوا مواطن كثيرة قد انخرمت وضاعت من النص الاصلى فى ألواح الطين ، وثمت ميزة أخرى يلمسها الباحث فى هذه الآداب القديمة يمكننا أن نسميها باستباق الحوادث أو بالاحرى استباق النتائج (Anticipation) . وتبدو هذه الميزة بوجه جلى فى ملحمة جلجامش بوجه خاص وقصة الخليقة بوجه عام ففى ملحمة جلجامش تبدأ الرواية بمقدمة أو ديباجة فى تعريف بطل الرواية والتغنى بامجاده وبما يتفرد به من الحكمة والمعرفة وتنوه أيضا بحوادث الرواية وموضوعها وحتى نتحتها ونهايتها . وهذا فى الواقع ما نجده فى الملاحم العالمية الكبرى كالاوديسة والالياذة والملحمة الجرمانية المعروفة باغانى « السيلونك » او « أغانى أرض الطلام »[1] ، ولعل تفسير ذلك ان الناظم انما فعل ذلك لتحرك فى السامع الشوق الى حوادث الرواية .

---

(١) Niebelungenlied وهى ملحمة جرمانية شهيرة فى آداب القرون الوسطى ، وتدور حول ملحمة جلجامش على « مغامرات « سيغفريد » فى أرض السيلونك » مع ملوكها البورغنديين وقتله على أيديهم ثم انتقام روحه منهم الخ ..

وسنصح من تلخيص بعض القصص والاساطير الادبية كثرة النسخ التى وصعها القوم فى الازمان المختلفة للقطع المشهورة ، فمع أن معظم الاجزاء التى جاءتنا عن اسطورة الخليقة وملحمة جلجامش هى من خزانة كتب الملك الاشورى « اشور بانيبال » (القرن السابع ق.م) فان هذه نسخ عن أصول اقدم معظمها وصع فى العهد البابلى القديم ، واكتشف الباحثون حديثا اصولا سومريه لكثير من القصص الادبية المكتوبة باللغة البابليه (السامية) ، وقد تصرفوا فى بعضها وغيروا فيها مثل ملحمة جلجامش بحيث يمكننا عدها نتاجا بابليا صرفا . وادا كنا لا نستطيع أن نعدد كل ما جاءنا من هذه القصص والاساطير بد أننا نستطيع أن نصنفها بحسب الاغراض المختلفة التى عالجتها فمجموعة من هذه القصص تدور على الخليقة وأصل الاشياء والعمران وهذه كثيرة متنوعة بعضها قطع سومرية وبعضها بابلية محورة عن السومرية ، ومن ذلك أطول قصيدة فى أصل الكون والاشياء وهى «اسطورة الخليقة البابلية» .

ومجموعة أخرى تدور على خبر الطوفان العظيم ، وقد أدمج هذا الخبر فى القصة البابلية فى ملحمة جلجامش ، ومجموعة ثالثة هى قصص تدور على أعمال البطولة والابطال نذكر منها القصص السومرية التى تدور على أعمال جلجامش ومغامراته . وقد جعلت هذه الاعمال مع خبر الطوفان موضوع الملحمة البابلية الكبرى «جلجامش» ، ، ومجموعة رابعة موضوعها مسائل العالم الآخر وعالم الاموات او « الارض السفلى » ، ومن هذه القصة المعروفة « نزول عشتار » الى العالم الاسفل ثم قيامتها منه . وجاءتنا من هذه روايتان بالسومرية وبالبابلية ، ومن هذا الصنف أيضا قصة سومرية تدور على نزول صاحب جلجامش المسمى انكيدو الى العالم الاسفل ، ومن المجموعات الادبية المهمة صنف أشرنا اليه وهو صنف التراتيل والاغانى المقدسة للآلهة المختلفة . وقد أمتاز هذا الصنف من الادب الدينى بخضوعه الى طرازخاص من التأليف والنظم فالنماذج متشابهة من هذا الوجه بحيث يمكن استعمال غناء خاص بإله معين لاله غيره بمجرد تغيير الاسم .

ومع ان معظم الالواح المدونة بالآداب السومرية والبابلية لا يتجاوز عهد تدوينها بداية الالف الثانى ق٠م الا أنهذه الا داب المدونة قد تم أبداعها وتطورها فىمنصف الالف الثالث ق٠م ، واذا قارنا قدم هذه الآدابالآداب الشرية القديمة الاخرى وجدنا انها أقدم من جميع ما انتجه الفكر البشرى فى ذلك الحقل ٠ فالسنة الى مصر مثلا لم يأتنا من أدبها شىء من عصر الاهرام ، ذلك العصر الذى ازدهرت فيه الحضارة المصرية وبضجت ٠ ولعله كان للمصريين أدب مدون فى الالف الثالث ق٠م الا انه ، كما قلنا ، لما يأتنا منه نماذج ممثلة حتى الآن (ولعل ذلك بسبب تلف المادة التى دون فيها ، وهى ورق البردى الذى هو أكثر عرضة للتلف من ألواح الطين)٠ واكتشف المنقبون حديثا فى « أوغاريت » (رأس الشمرة) أدبا كنعانيا يرقى تأريخه الى ١٤٠٠ ق٠م٠ اى من بعد زمن الالواح الادبية السومرية والبابلية بأكثر من خمسمائة عام ٠ وكذلك يقال فى التوراه التى تضمن الادب العبرانى فهى متأخرة جدا فى زمن تدوينها وشوئها (لا يتعدى زمن تدوينها القرن السادس او الخامس ق٠م) ٠ ونذكر على سبيل المقارنة أيضا الالياذة والاودسة المضمنتين أدب اليونان القديم والملاحم الادبية اليونانية، ونذكر « الريج ـ فيدا » الخاصة بادب الهند القديم و « الافسا » المضمنة أدب ايران القديم ، فان ما من هذه الآداب القديمة ما قد دون بشكله الحاضر قبل النصف الاول من الالف الاول ق٠م أى أن أدب العراقالقديم يسبقها بما لا يقل عن ألف عام ٠ وثمت ميزة أخرى مهمة تبدو من مقارنتنا أدب العراق القديم بتلك الآداب القديمة ، تلك هى أن هذه الآداب التى سقناها للمقارنة مع أدب السومريين والبابليين قد عانت كثيرا من التحوير والتبديل والاضافة على ايدى النساخ والجامعين والشراح والمفسرين ، ولكن الادب « السومرى ـ البابلى » قد وصل الينا بأصله غير محور كما كتب بأيدى الكتبة السومريين والبابليين قبل ٤٠٠٠ عام[1] ٠

S N Kramer, **Sumerian Mythology** (1944)

ومع هذا القدم الواغل فان السومريين لم يتصوروا انفسهم محدثي عهد في البدية والحضارة بل كانوا ينظرون الى أنفسهم بصفتهم ورثاء ماض بعيد مجيد ، وقد تخيلوا ذلك الماضي البعيد بهيئة « عصر ذهبي » كان السلام فيه يسود العالم ، فلا خوف ولا حزن ولا بغضاء ولا حيوانات مفترسة تتنازع الانسان البقاء ، وكان الخير يعم الكون وكان البشر «بلسان واحد يمجدون الاله انليل »[1] . ان هذه الصورة الجميلة المخيلة التي تصور عهدا متخيلا كان البشر فيه اسعد واكمل من عصرهم الراهن قد انتشرت الى معظم الأمم والشعوب ، ولم تتمكن فكرة « القدم » من الانتشار بين البشر الا في العصور الحديثة ولا سيما منذ القرن التاسع عشر ، ولا يزال كثيرون في العصر الحديث من يرى فكرة « الماضي الذهبي » .

وقبل ان نترك بحث التراث العامة في أدب العراق القديم نذكر اكتشافا حديثا ذا أهمية وخطورة خاصين اذ يدل على وعي أدبي وولع في البحث الادبي ، فقد اكتشف من بين ألواح الطين التي وجدت في «نفر» قبل خمسين عاما لوحين أحدهما في باريس (اللوفر) الآن والآخر في متحف الجامعة في فيلادلفيه (أمريكه) وهما مدونان بما يؤلف أدبيه سومرية . ويحوي لوح فيلادلفيه على ٦٢ عنوانا ويحوي لوح اللوفر على ٦٨ عنوانا ، واذا أخرجنا ٤٣ عنوانا مشتركا فيما بينهما فان اللوحين يزودانا بـ ٨٧ عنوانا لتأليف أدبيه وقد أمكن تعيين ٢٨ تأليفا منها بما وجد أصله الكامل في الالواح المعروفة[2] .

ومما يؤسف له انه تعذر ايراد نماذج من هذه القصص مترجمة

---

(١) أنظر هذه الاسطوره الجميلة في ذات المصدر (ص ٤٥١)

(٢) أنظر نص اللوحين في المرجع الآتي —

(1) S N Kramer, "The Oldest Literary Catalogue .... " in **Bulletin of the American Schools of Oriental Research,** No 88 (1942)

(2) .. .. , **Sumerian Mythology,** P 14

بنصوصها[١] وانما سنحاول تلخيص بعضها ، فاذا فاتتنا الافكار الاصلية ولو مرجمة فسنقف على أغراضها وفحواها ونبدأ من هذه النماذج بـ «اسطورة الخليقة البابلية »[٢] .

١ ـ اسطورة الخليقة البابلية :ـ

ذكرنا فيما سبق ان المفكرين من العراقيين الاقدمين شغلوا بأصل الوجود والاشياء ، فنشأ عنهم مذاهب وعقائد مختلفه حول موضوع الخليقة وقد خلفوا لنا هذه الآراء بما تسميه الآن ملاحم واساطير دونوها على ألواح الطين بالشعر القصصى . وكانت هذه الاساطير متعددة تختلف من حيث المادة والعهد ، وقد جاءتنا من السومريين نماذج من هذه الآداب الا انها لم تأتنا سالمة محفوظة ولكن البابليين الذين ساهموا فى بناء حضارات العراق واخذوا تراثا كبيرا عن السومريين خلفوا لنا نموذجا آخر من أساطير الخليقة . وبعد هذا النموذج أكمل وأطول قصة فى موضوع الخليقة . وتعرف هذه الاسطورة عند علماء الاشوريات باسم «رقم الخليقة السبعة» أو كما سماها البابليون أنفسهم « اينو ما ايليش » (حينما فى العلى) لان أول بيت من الشعر فيها يبدأ بهذه العباره . وقد ألفت بالشعر البابلى ودونت على سبعة ألواح من الطين مجموع ما فيها ألف بيت تقريبا . وجاءتنا أولى هذه الالواح من خزانة كتب الملك الاشورى « آشور بانيبال » (٦٦٨ – ٦٢٦ ق.م) فى نينوى .

لقد تناولت بحوث العلماء هذه الاسطورة منذ عام ١٨٧٦ فترجمت عدة ترجمات الى اللغات الاوربية ، ولا يزال البحث فيها مستمرا . ومع أن تاريخ

(١) لقد ترجمت معظم هذه القصص والاساطير الى العربية ونشرت فى مجلة الآثار العراقية «سومر» ، وذكرت معها أهم البحوث والمراجع التى بحثت فى هذه الموضوعات فانظر الاعداد الآتية من « سومر » المجلد الخامس، العددان ١ و٢ (١٩٤٩) ، والمجلد السادس . العددان ١ و٢ (١٩٥٠) والمجلد السابع العدد الاول (١٩٥١) .

(٢) لقد سبق ان لخصنا فى مبحث الديانه (فى القسم الخاص بالسلوك والاخلاق) قطعتين مهمتين من آداب وادى الرافدين فنلزم الرجوع اليهما .

ألواح الخليقة السبعة من القرن السابع ق.م ، الا أنه لديا من الادلة الداخلية (أى أدلة من القصة نفسها) ما يثبت أن زمن تأليف القصة يرجع الى عهد سلالة بابل الاولى ، والى عهد حمورابى بوجه الخصوص . كما سبان من تمجيد الاله « مردوخ » اله بابل ، وبيان السبب الذى احل من أجله مكانة سامية بين الآلهة بل صار سيدها وملكها ، وتبارك له عن صفاتها وأسمائه . وأعلاء شأن مردوخ وتمجده يعنى كذلك تعظيم مدينة بابل واعلاء شأنها على البلدان الاخرى لما أن عظم شأنها فى عهد الملك حمورابى وصارت عاصمة الامبراطورية التى أنشأها ذلك الملك . وموجز القول ان التغيير السياسى الذى طرأ على مدينة بابل اقتضى أن يعبر مركز الههها مردوخ فينتقل من اله غير ذى شأن الى سيد الآلهة وملكها . ويرجح كثيرا أن كهنة بابل قد تناولوا القصص والآداب الدينية القديمة ولا سيما السومرية فجعلوها مصدرا لقصة جديدة بعد أن غيروا وبدلوا فيها ولا سيما تغيير بطل القصة الاله « الليل » واحلال الاله مردوخ محله . واليك ملخص القصة :ـ[1]

حينما فى العلى لم يكن للسماء اسم ، وفى الدنى لم تكن الارض شيئا مذكورا . ولم يكن فى البدء غير أبسو (المـاء العذب ، أى مياه الانهار) و « تيامة (الماء الملح) ، وكانت مياههما مختلطة . ولم تكن قد ولدت اى من الآلهة ولا ذكرت اسماؤهم ، ثم تولد منهما (من الاله والالهة اللذين يمثلان المياه الاولى) الآلهة الاخرى بأجيال متعاقبة أولها الهان هما «لخمو» و «لحامو» ثم بعد مرور دهور طويلة جاء الى الوجود الهان آخران هما « اشـار » و «كيشار» ، اللذان ولدا الاله «آنو» بعد مرور أزمان طويلة . وقد صار « آنو » عريقا وبطيرا لآبائه الآلهة العتيقة ، وجاء من بعد ذلك الآلهة الحدثه الاخرى مثل « انا » الذى كان ممتليا بالمعرفة والحكمه والقوة اكثر من آبائه ، وبعد حين تحرب جيل الآلهة الحديثة وأساؤا الى آبائهم الآلهة

(١) حول الدراسات الاصليه راجع نبت المصادر فى آخر الجزء والملخص الذى اتبعناه مسند بالدرجه الاولى الى الترجمه العربيه فى مجله سومر (المجلد الخامس ١٩٤٩) الص ١١ فما بعد .

العسفة ولاسيما الى أمهم « تيامة » وأبيهم «أبسو».لقد أرادت الآلهة الحديثة أن تسبد بشؤون الكون وتنظمـــه وفق أهوائهـا . كانت تمثل الحركة والعمل فى حين ان الآلهة العتيقة تمثل السكون والركود والعماء[1] ، فاساء فعلهم « ابسو » أكثر من أمهم تيامة فعزم على ابادتهم جميعا وارجاع نظام الكون الى سابق عهده وكاد ان يفلك بهم على الرغم من معارضة زوجه « تيامة » وفى اللحظة الحاسمة يعلم الاله « ايا » بالخطة المسيئة فحزم أمره والجأ الى سحره المقدس فألف قوى رهيبة وقرأها على الماء (أبسو) فاحل فيه السبات فكبله وقيله وابتنى فى جسمه (فى المياه) بيته[2] فسكن فيه هو وزوجه.وولد للاله وزوجه ابن هو « مردوخ » الذى كان على أتم ما يكون من كمال الخلق فسر به أبوه وفضله على غيره وعلا قدره على من سواه من الآلهة[3] ، وكان خارق القـدرة وبطل الآلهـة الحديثـــة حيث تصـــل الاسطوره هنا الى مكان حرج هو ان « تيامه » زوج أبسو عزمت على الانتقام من الآلهة الحديثة لقتل زوجها وأحدث بعد العدة لذلك فخلقت انواعـا كثيرة مخيفة من العفاريت والشياطين والافاعى وسلحتها باسلحة فتاكة وأمرت عليها أحد الآلهة العتيقة هو « كنكو » وجعلته زوجها وزودته بالسحر واودعت عنده ألواح القدر ، وهيأت جمعها للبدء بحرب الآلهه . وفى هذا الموضع أيضا نجد « ايا » يكشف للمرة الثانية الخطر المحدق بالآلهة الحديثة . فخاف وذهب الى جده « أنشار » واخبره بما اعزمت عليه « تيامة » من ابادة الآلهة ، فلما سمع الاله الشـــيخ بذلـك ثار ثائره و « ضرب فخذه وعض شفته» وامر «ايا» أن يذهب لقتال تيامة ولكنه حين لانه خاف من جموعهـا وكذلك انهزم الاله «آنو» منها . وقد استطاع الآلهة فى الازمة الســـابقة

(١) العماء ترجمه كلمه (Chaos) وهو المصطلح الذى اطلقـــه اكثر الباحثين فى اسطورة الخليقه ويريدون به خربا على ما قال به بعض فلاسفة اليونان الماده الاولى المضطربه المشوشة التى كانت اصل جميع الاشياء .

(٢) ولذلك تسمى معبد الاله ايا بـ « اى ــ ابسو »

(٣) مردوخ اله بابل الشهير وبطل القصة ، ولكن كما ألمحنا سابقا كان بطل القصه الاصلى الها آخر هو « انليل » .

أن يحلوا المشكلة بصورة فردية بقيام اله واحد بالامر فانه فى هذه الحالة اقتضى الامر أن يعملوا متحدين جميعا • فاجتمعوا فى مجلس الشورى المقدس (ندوة الاقدار) ، وحاولوا ارسال حملة آلهة للصلح مع تيامة ولكن جهودهم ذهبت سدى وفى ندوة الاقدار مرة أخرى اجتمع الآلهة فى وليمة أكلوا فيها وشربوا وغنوا وزال حوفهم ، وقرروا انتخاب بطل من بينهم ليتولى عنهم النزال ، فانتخبوا الاله مردوخ وجعلوه ملكا عليهم • فجلس هذا وسط الآلهة حيث اجتمعوا على جعل كلمته لا ترد وامره لا يبدل وفوضوه السلطه المطلقة على جميع الكون وزودوه بالاسرار الالهية الكامنة فى اسمائهم والخاصة بهم ولكى يمتحنوا قدرته وسلطته الجديدين وضعوا رداء فى وسطهم وقالوا لمردوخ قل كلمة فيختفى الرداء وبكلمة أخرى يعود الرداء ففعل وادا بالرداء يتلاشى[1] وبكلمة أخرى عاد الرداء • فلما رأى الآلهة فعل « كلمته » فرحوا وسجدوا له قائلين « حقا ان مردوخ ملك ! » فزودوه بالصولجان والتاج واعطوه سلاحا لا نظير له فى حربه مع تيامة وصنع هو قوسا وسهما عجيبين وصنع أيضا شبكة وأمر الرياح الاربعة ان تسكن فى مواضعها وركب عربة المركبة المجنحة تجرها مخلوقات مدمرة • ولما تقابل الاله مع تيامة بدأت هذه تتلو سحرها ولكن لم تؤثر فى مردوخ وبعد تبادل كلمات السباب شهر الاله شبكته واصطادها فيها ، واطلق الرياح الشريرة فدخلت فى جوفها فانتفخ بطنها فقهره وبقجها وحاولت جموعها أن تهرب ولكن مردوخ لم يدع أحدا يفلت من يده فجمعهم فى شبكه ومعهم قائدهم « كنكو » فاخذ منه ألواح القدر وختمها بختمه واحتفظ بها فى صدره • ثم رجع الى تيامة وهشم رأسها وقطع مجارى الدم من جسمها فتصاعد منه

---

(١) من الباحثين من يرى ان سبب انتحاب الرداء لامتحان قوه مردوخ السحريه اعتبارات ادبيه فمنه حيث ادخل باطم الاسطوره نوعا من الصناعات اللفظيه ولا سيما الجناس اللفظى المشتمل عليه اسم « مردوخ » ، المكتوب بمقطعين من العلامات المسماريه تعنى المقطع الاول « مار » وتعنى ، او خلق أو أنشى وتعنى المقطع الثانى « دوك » رداء أو لبس رداء الخ •

الدم مع الرياح ، ولما رآه الآلهة سروا وهتفوا ممجدين باسم مردوخ • ثم قسم جسمها قسمين جعل النصف الاعلى منه سماء ومن نصفه الاسفل أرضا ، وعين فى السماء مناطقها وبروجها ومواضع الآلهة وبروج الكواكب ووقت الاوقات والفصول • ثم رأى مردوخ من بعد ذلك أن يخلق مخلوقا هو الانسان ليعبد الآلهة • فأشار عليه «ايا» قائلا : ليضح أحد الآلهة لكى يخلق البشر • ليجمع الآلهة كلها وليقدم الاله المذنب • وبعد أن جمع مردوخ الالهة سألهم : من حث «تامة» على الثورة ؟ ليضح الاله الذى سبب ذلك • فأجابه الآلهة : ان «كنكو» كان كل السبب • فقيده الآلهة بالاصفاد وقدموه الى الاله «ايا» فأهدر دمه وخلق الآلهة الانسان من دمه ليعبدهم • وبعد أن كمل خلق الانسان أسس الآلهة « ايساكلا » معبد الاله « مردوخ » فى بابل واجتمعوا فيه بعد تمامه فى حفل مقدس ورتلوا بمجد مردوخ ومنحوه أهم ألقابهم وأسمائهم المقدسة ، فصار يجمع فى شخصه اكثر صفاتهم وسمى الملحمه فى الرقم السابع الذى خصص ليكون ترتيلا وصلاة لمردوخ[1] •

استنتاجات من اسطورة الخليقة البابلية :ـ

(١) يوجد تشابه وتناصر واضحان بين اسطورة الخليقة البابلية وبين رواية التوراة (سفر التكوين ١ : ١ ـ ٢ : ٣) فكلا المصدرين يشير الى وجود عماء مظلم من الماء فصل الى سماء وأرض ، وتشابه الكلمتان المستعملتان للعماء فى كلا المصدرين وكانت هذه المادة الاولى فى القصة البابلية أصل الاشياء وهى مؤلفة من عنصرين من الماء العذب (العنصر المذكر) ومن الماء الملح (العنصر المؤنث) وقد جسم البابليون هذين العنصرين من الماء وجعلوهما الها والهة وهما « ابسو » و « تامة » عدوهما اصل الآلهة الاخرى واصل جميع الاشياء • فكون هذه المادة الاولى عند البابليين ذات صفة ثالثة أى كانت مادة والها فى الوقت نفسه • وعلى ذلك فالمادة أزلية أى انها وجدت منذ الازل ولم تخلق ، وكانت الها فى الوقت نفسه ،ونجد هنا اختلافا جوهريا

(١) انظر الكلام على عيد رأس السنة البابليه فى مبحث الديانه •

بين العقيدة البابلية وبين الاديان السماوية ولا سيما ما نصت عليه التوراة والقرآن ، حيث وجود الله ازلي يسبق وجود المادة وهو الذي خلق المادة .

(٢) ويوسعنا ان نستشف من وراء الاطار الاسطوري لرواية الخليقة البابلية أحوال العراق القديم ولا سيما الاحوال الجغرافية في بداية تكوين أولى الحضارات البشرية فيه . فالمياه الاولى والصراع والاحتراب بين الاله مردوخ و « تامة » و « ابسو » (وهما الالهان اللذان يمثلان المياه الاولى) ، وتغلب مردوخ عليهما في الحرب بين الجيلين من الآلهة ، ثم احلال النظام بدل الفوضى وخلق الكون وتنسيد المعابد كل ذلك وغيره يعكس لنا صراع العراقيين الاوائل مع بيئتهم الطبيعية وتغلبهم عليها وانشاء العمران والحضارة فقد رأينا ان القسم الجنوبي من العراق كانت تغمره مياه البحر ثم تكونت بمرور القرون اليابسة من الطين والطمي المحمولين بمياه الرافدين . هذا وان اسم «تامة» يعني البحر مثل كلمة «تهامة» العربية .

ولقد سبق أن نوهنا باستنتاج آخر مهم هو ان هذه الاسطورة تعكس لنا ايضا الاحوال الاجتماعية والسياسية في العراق القديم في أولى مراحل تكوينه الحضاري في العهد الذي سميناه بالعهد الشبيه بالكتابي أو الأرثي حيث كان نوع من نظام الحكم الديمقراطي البدائي كما يستنتج ذلك جليا من هذه الاسطورة اذ تصور لنا الكون بهيئة دولة يحكم فيها الآلهة حكما اشوريا ، وتصور لنا الاسطورة أيضا أصل الملك ، حيث انتخبت الآلهة في اثناء الازمة الحادة التي حلت بها الاله مردوخ ليكون بطلها وملكا عليها وتنازلت له عن سلطاتها. وثمة أمر آخر يعكسه لنا هذه الاسطورة هو العنف الذي تمتاز به البيئة في وادي الرافدين كما أن عملية الخلق والكون لم تتم بهدوء بل بصراع وكفاح بين الآلهة وسنجد عكس هذه الصورة تماما في تصورات سكان وادي النيل الاقدمين في اساطير الخلق عندهم حيث تمت عملية الخلق بهدوء.

٢ ـ ملحمة جلجامش والطوفان :ـ

جلحامش من أبطال القصص فى تأريخ العراق القديم ، وقد ورد اسمه فى ثبت ملوك الوركاء ، فى عهد سلالتها الاولى التى لا نعرف عنها شيئاسوى اسماء ملوكها ، وقد صار بعضهم ، مثل جلحامش موضوعا لقصص وملاحم شعرية • ومما يرجح كثيرا أن هؤلاء الملوك قد حكموا فى العراق ، فى مدينة الوركاء قبل عصور فجر السلالات أو فى بدايته •

اشتهر اسم جلجامش فى آداب العراق القديمة منذ اقدم عهود التأريخ وصار موضوعا لعدة ملاحم وقصص سومرية وبابلية ، وكلها تدور حول وصف أعماله والمغامرات التى قام بها ، وأعمال البطولة الخارقة التى تفرن به ، حتى صار أشبه ما يكون بأبطال اليونان فى عهد الاشعار الهومرية ، وقد أصبح فى الواقع مثلا يحتذى به عند أبطال الامم الاخرى ولا سيما « هرقل » ، والاسكندر ذى القرنين فى المآثر العربية ، ونمرود الوارد فى التوراة •

وكان أشهر القصص والملاحم التى تدور حول اسم جلجامش وأعماله الملحمة المشهورة بقصة « جلحامش » التى يؤلف خبر الطوفان جزءا منها ، كما سيتضح ذلك من تلخيص القصة • ان هذه القصة أطول ملحمة شعرية فى الادب البابلى ، وقد كتبت على اثنى عشر لوحا من الطين مجموع ما فيها نحو ٣٥٠٠ سطر وقد وجدت مثل ألواح قصة الخليقة البابلية فى مكتبة «اشور بانيبال» الشهيرة فى نينوى ، ووجدت نسخ منها من عصور أقدم من العهد البابلى القديم) مما يدل على قدم هذه الملحمة ، وقد صارت منذ أن اكتشفت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حتى الآن موضوع اهتمام الباحثين والمترجمين من ابناء الغرب •

سيتضح من موجز القصة أنها أقرب ما تكون الى الجمع الادبى المؤلف من عدة قطع مختلفة ، ولكنها جمعت جمعا أدبيا فنيا لتكون وحدة على هيئة

ملحمة فمن هذه القطع القصص التى تدور على مغامرات جلجامش وصاحبه «انكيدو» ، وقد جاءتنا من هذه نماذج من القصص السومرية كما ألمحنا الى ذلك من قبل ، وأدمجت فى الملحمة أيضا قصة الطوفان التى يرجح ان تكون موضوعا مستقلا بنفسه وقد جاءتنا عنه روايات أخرى سومرية[١] • وقد وفق المؤلف فى جمع هذا الموضوع ولحمه مع القسم الاول الذى يخص أعمال جلجامش ومغامراته • وهناك قسم ثالث من الالواح التى تخص ملحمة جلجامش وهو اللوح الثانى عشر الذى يؤلف قصة لا علاقة لموضوعها

---

(١) والذى يعجب له أن قصصا عن الطوفان وجدت عند اغلب الامم والاقوام ، فقد احصى الباحثون وجودها فاستبعدوا انها متسربة فى قاره آسيه وحرر المحيط الهادى وفى كلتا القارتين الامريكتين (قبل قبل العهد الاوربى) ،ولكنها قليله نسبيا فى قاره اوربه واقل منها فى القاره الافريقيه • ومع كثره قصص الطوفان وانتشارها فانها تختلف فيما بينها اختلافا كبيره ، كما ان قسما منها اساطير وصعب وضعا لتفسير بعض العوارض الارضيه كالمنخفضات الواسعه فى البلاد التى وضعت فيها تلك الاساطير • وبخلاف ذلك قصص الطوفان الناتجه التى كانت بالاصل وقائع حقيقيه حدثت فى طيات الماضى البعيد ورويت بالروايات الشفهيه فسوهمت معالمها التأريخيه، وكذلك الحال فى روايه التوراه عن الطوفان التى تسبب الروايات الناتجه سببها تجعلها ترجع الى حادثه واحده بعينها أنها حدثت فى العراق اى انهما بروايتان حول طوفان واحد ترجح كثيرا أنه وقع فى القسم الجنوبى من العراق فى نهايه العهد الذى سميناه بعهد جمدة نصر فى بدايه الالف الثالث ق•م ، كما تؤيد ذلك دلاله التنقيبات الحديثه حيث وجدت آثار ترسبات من الطوفان تفصل بين دورى جمدة نصر وعصر فجر السلالات وذلك فى بعض مدن العراق القديمه ومنها « كيش » والوركاء و « شروباك » (قاره الآن) • وكانت المدينه الاخيره موطن نوح الطوفان البابلى « اوتو ـ نبشتم » • وورد ذكر الطوفان أيضا فى ابيات الملوك السومريه التى فيها انها ربطت سلالات الملوك الحاكمه الى قسمين ، ملوك ما قبل الطوفان وملوك ما بعد الطوفان • وقد جعلت هذه الابيات حادثه الطوفان قبل سلالات الملوك الذين حكموا فى عصر فجر السلالات • وهذا يؤيد دلاله التنقيبات التى أشرنا اليها • اما سبب الطوفان فلا نعثر عليه ادراكه ولا سيما فى بلد تكثر فيه الفيضانات كالقسم الجنوبى من العراق • ولكن كان الطوفان الوارد فى ملحمه جلجامش حدثا عظيما وقع قبيل تغلب الانسان على الانهار بما أنشأه من السدود واعمال الارواء • (أنظر مجلة سومر المجلد السابع ١٩٥١ ، العدد الاول) •

بموضوع الملحمة العام ولم يوفق المؤلف أو المؤلفون فى جمعه مع القطعتين الاخريين حيث يدور على وصف العالم الاسفل أو عالم الارواح كما رآه «انكيدو» صاحب جلجامش والملحمة بوجه عام نتاج أدبى سامى (بابلى) على الرغم من استناد كثير من حوادث الملحمة الى ما يضاهيها فى الادب السومرى الذى لعله اتخذ أساسا وأصلا لنتاج أدبى جديد .

ملخص القصة :ـ(١)

« تبدأ القصة بوصف بطل الرواية جلجامش فتذكر حكمته وخبرته ومعرفته باخبار الازمان الغابرة مما قبل الطوفان وانه سافر أسفارا بعيدة ، وكل ذلك اسباق لحوادث الرواية فيما بعد ولا سيما اسفار جلجامش ومعامراته وذكر الطوفان . وتصف الرواية اعمال جلجامش فى مدينة الوركاء وكيف أنه بنى أسوارها ومعبدها المقدس « اى ـ انا » وهو عمل لم يضارعه فيه أحد من الملوك الذين أتوا من بعده .

وكان جلجامش بطل الآلهة على أتم ما يكون من الصورة والخلق ، فقد صنعه الآلهة أحسن صنعه واجمل مثال ، قوى الجسم هائل الخلقة جسيم التركيب ثلثاه اله وثلثه الباقى بشر .

أخذ جلجامش أهل الوركاء بالعنف والاضطهاد فلم «يترك ولدا لابيه» «ولم يترك الزوجة لحبيها» . فاستغاث الناس بالآلهة ، فاستمعوا لشكاتهم واستمع « آنو » العظيم لهم فقال للآلهة « ارورو » انت يا « أرورو » قد خلقت جلجامش فاصنعى عزيمتا ونظيرا له فاصنعى « ارورو » لامر آنو فغسلت يديها واخذت طينا وعجنته و « بصقت » فيه . وصنعت منه بطلا قويا هو (انكيدو)، وكان هذا ماردا يغطى جسمه الشعر ، وشعر رأسه كالمرأة . وكان وحشا لا يعرف البشر ولا حياة البشر يرعى العشب والنبات مع الغزلان ويرد الماء مع وحوش البرية . وبينما كان يرد الماء مره رآه أحد الرعاة فهاله خلقه

(١) انظر المراجع فى آخر الكتاب .

وشكله وخاف خوفا شديدا ، فقص هذا الراعى على أبيه ما شاهده ونصحه أبوه أن يذهب الى جلجامش ويخبره بخبر هذا الوحش ولمح له بطريقة اصطياد هذا الرجل الوحش بواسطة امرأة يرسلها جلجامش . فلما سمع جلجامش خبر (انكيدو) من الراعى قال : انطلق يا أيها الراعى واصطحب معك بغيا ، وعندما يأتى الوحش لورد الماء ، فلتخلع ثيابها ولتعمل على اغوائه ، وستدل وحشيته . فسار الراعى ومعه البغى الى المواضع التى يتردد عليها (أنكيدو) وترصدا وروده ثلاثة أيام عند مورد الماء ، فوقع (انكيدو) فى حبائل المرأة وعاش معها ستة أيام وسبع ليال ، وتغير حاله من بعد ذلك حتى أنه « نسى الموضع الذى ولد فيه » ، وذهبت وحشيته وهرب عنه الغزلان والوحوش التى كانت تألفه ، ولم يستطع أن يجرى معها ويحاريها بالركض ، فرجع الى البغى وارتمى عند قدميها فقالت له « ألا تعلم يا أنكيدو انك مثلى اله . فعلام تهيم فى البرية مع الوحش ؟ فتعال أذهب بك الى الوركاء حيث المعبد الزاهر ، مسكن آنو وعشتار ، وحيث جلجامش ذو الحول والقوة » وما أن سمع انكيدو ذلك حتى أسلم قياده الى المرأة لتأخذه الى الوركاء مصمما على أن ينازل جلجامش ويطلبه حتى يكون هو القوى بين الرجال .

وعندما أشرف (انكيدو) والمرأة على أبواب الوركاء احتمع الناس ليشاهدوا لقاء البطلين جلجامش وانكيدو . ووقف انكيدو فى باب المعبد متحديا جلجامش فنشبت بين الاثنين معركة عنيفة تصارعا فيها و (...) كالثورين وحطما اركان الباب . واهتز الحائط) . وبعد جهد تمكن جلجامش من (انكيدو) وطرحه على الارض ، وعندها هدأ جلجامش وذهبت سورة غضبه ، وأقر انكيدو بتفوق غريمه ، واعجب البطلان كل منهما بالآخر ، فصارا صديقين حميمين .

وبعد نقص فى بعض الملحمة نجد جلجامش يعزم على القيام بسفر طويل يذهب به مع صديقه الى غابات الارز لتحصلا على الشهرة والمجد . وبعد أن أعد البطلان عدة السفر وتسلحا بأسلحة هائلة بدءا بحملتهما الى غابات

الارز • وبعد سفر شاق طويل وصل الاثنان الى مدخل الغابة التى يحرسها العول (حمبابا) أو (خواوا) الذى عينه الاله (انليل) لحراسة الغـــابة المقدسة • وقد فلا اولا الحارس الذى عينه (خمبابا) فى المدخل ثم دخلا الغابة واوغلا فيها حتى بلغا موضع (خمبابا) نفسه ، فذعر جلجامش وشل من الخوف فاستغاث بالاله (شمش) فأنجده هذا بأن ارسل الرياح العـاتية وسلطها على (حمبابا) ، فسكن فى مكانه واستسلم وأخذ يتضرع لجلجامش ليبقى على حياته ولكن جلجامش لم يرحمه بل قطع رأسه • ورجع البطلان من بعد ذلك الى مدينتهما •

وعندما وصلا الى الوركاء تهيآ للاحتفال بنصرهما وبالعودة من مغامراتهما ولبس جلجامش الحلل الزاهيه وصقل سلاحه ، ولما أن رأته الالهة عشتار أعجبها حسنه وأحبته فعرضت عليه أن يتزوجها واغرته بما ستغدق عليه من الهبات السنيه وانها ستجعل (ملوك الارض وحكامها وأمرائها يخضعون له)• ولكن جلجامش رفض طلب عشتار ولم يقتصر على ذلك بل انه أهانها فى رده وعيرها بما حل بمن احبها من الدمار والهلاك على عشاقها السابقين • فكان من جملة ما قاله لها : أنت قصر تتحطم فيه الابطال •• أنت قار يلوث حامله، وقربة تبلل من يحملها •• فأى من عشاقك أبقيت على حب •• تعالى أفش الك قصة عشـــاقك •• «فمن اجل «تموز» زوج صبـاك قد أمرت بالنوح والبكاء كل عام[1] • وقد احببت طير « الشقراق » المرقش فلطمته وكسرت جناحه • وذا هو يندب فى الساتين والاحراش : جناحى ! جناحى ![2] »

(١) يشير هذا الى العبد السنوى الخاص بالنوح على «تموز» اله الخضار والنبات والربيع ، وقد اعتقدوا فيه أنه ينزل الى عالم الاموات الاسفل فى كل خريف وتظل هناك حتى يقوم ويرجع الى الحياه مع بشائر الربيع • وتوجد قصه بابليه تصف نزول عشتار الى العالم الاسفل لارجاع حبيبها تموز الذى مات بتسبب حبها •

(٢) ان الشقراق وهو طائر نكسر فى العراق الجنوبى ، يجرح فى انحاء طيرانه فى موسم اللقاح صوتا يشبه اللفظه البابليه « كفى » اى جناحى• ولعل صوته وشكل طيرانه هو الذى أوحى للبابليين بهذا الخيال الطريف •

وعندها استشاطت عشار غضبا فصعدت الى السماء الى حضرة أبيها « آنو » واستعدته على جلجامش وألحت عليه بأن يخلق لها ثورا مقدسا يقضي به على جلجامش وهددته بأنها ان لم تفعل ذلك فستحطم باب العالم الاسفل أي عالم الاموات فيخرج منه الموتى وينافسون الاحياء وعند ذلك رضخ « آنو » لطلبها وخلق (ثور السماء) ، وانزله الى مدينة الوركاء فأخذ يفتك بسكان المدينة وأحل الذعر والهلع في نفوسهم وسقط المئات من رجال الملك وقد مات بعضهم ذعرا من حواره • وهنا اسرى له البطلان بصارعانه حيث تصف لنا الملحمة مشهدا أشبه ما يكون بمصارعة الثيران في اسبانيا • وقد تمكنا منه وقضيا عليه • ولما رأت عشار ذلك ملكها الغضب فلعنت جلجامش فاجابها (أنكيدو) بأن قطع فخذ الثور وقذف به في وجهها • وكان الثور عجينا مقرراه من حجر اللازورد • وقد حزنت عشار على الثور وجمعت (نساء المعبد) واقامت النوح عليه • وسار البطلان في شوارع المدينة محتفلين بنصرهما وقد تملك جلجامش الزهو والغرور وصار يسأل عذارى الوركاء وهن مجتمعات مع الناس في الاحتفال (من الامجد بين الابطال ؟ ومن زين الرجال ؟) فيجيبه مع الجماهير (جلجامش الامجد بين الابطال ، جلجامش زين الرجال) •

والى هنا كان كل شيء يبدو على ما يرومه البطلان ، ولكن أقدار الآلهة حبأت لهما غير ذلك • وبدأت الرؤى والنذر تنذرهما بما سيحل بهما من « المصائب » ولا سيما العاقبة التي قررت احلالها بانكيدو جزاء على قتله « خمبابا » و « ثور السماء » • فرأى انكيدو مما رآه في الاحلام[1] ان

(١) وكان مما رآه انكيدو انه نزل الى عالم الارواح الذي وصفته القصة بأنه « الدار التي لا رجعة لمن يدخلها ، والطريق الذي لا رجعة منه ، والدار التي حرم سكانها من النور حيث التراب والطين طعامهم وقوتهم » الخ • وهذه صوره كئيبة تصورها البابليون عن عالم الموتى ولكنهم لطفوا منها في أساطير اخرى ورد فيها ذكر « العالم الاسفل » كما ألمحنا الى ذلك في مبحث الديانة •

الآلهة اجتمعوا فى «مجلس الشورى» ليقرروا أى من الاثنين يجب أن يموت. فوقع الحكم على « انكيدو » المسكين . اما جلجامش فقد أبقى عليه لعله يستطيع أن ينقذه من ماده الالهة. وأعقب ذلك أن «انكيدو» مرض وهو فى ريعان الشباب . فاضطجع فى فراش المرض مدركا قرب نهايته ، وأخذت تتوارد عليه الخواطر ويتذكر حياته السعيدة الماضية يوم كان جلى البال يرعى مع الغزلان والوحوش وحزن على محيئه الى حياة الشر والحضارة ، فلعن الصياد الذى جلب له (المرأة) ولعن المرأة التى اغوته على المجىء الى المدينة وناجى نفسه بهذه اللعنات قائلا : (تعالى أيتها البغى فاقدر مصيرك الذى لن ينتهى الى الابد . ليكن الشارع مأواك وظل الحائط مسكنك . سيلطم السكران وجنتيك) الخ . وبعد أن مات انكيدو حزن عليه صاحبه حزنا ممضا وصار ينوح عليه ويندبه ليل نهار (كما تنوح المرأة) ، حتى انه ابى أن يودعه اللحد معللا نفسه بعودة صاحبه الى الحياة ، وبعد أن يئس دفنه دفنا يليق به ، ولكن الحزن ظل يلازمه فهام على وجهه فى البرارى يندب صديقه خائفا من المصير الذى سيؤول اليه ، وتملكه الخوف من الموت ولم يجد عزاء فى كل ما اجتره من أعمال وامجاد .

وها صار يفكر بوسيلة للتخلص من الموت ، ولكن كيف يتسنى له نيل الحياة الخالدة ؟ وها ذكر قصة جده « اوتو ـ نبشتم » الذى يعيش فى بقعة نائية فى البحار البعيدة ، وكان قد حصل على الحياة الخالدة فعزم على شد الرحال الى جده مهما كلفه الامر ليسأله عن سر الحياة الخالدة . فبدأ جلجامش فى سفر طويل شاق ، وبجده يصل أول ما يصل اليه جبالا اسمها « ماشو » ، ترجح أن تكون جبال لبنان وتبعتها الملحمة بابها الجبال التى تمر من مدخلها الشمس فى سيرها اليومى ، ويحرس ذلك المدخل مخلوقات غريبة مركبة من انسان وعقرب كانت نظرتها « موتا محتما » . ولما

الاسطورة باسم « ادابا » وهي تعد على قدر عظيم من الاهمية بالنسبة الى آراء القوم باصل الشر وطبيعة الانسان ، كما ان بطل الرواية نفسه يرى بعض الباحثين فيه أنه « آدم » أبو البشر حتى ان اسمه البابلي يكاد يكون كلفظ آدم . وملخص الاسطورة ان «أدابا» كان يعيش صيادا في الجزء الجنوبي من العراق قرب سواحل البحر في اريدو ، وقد أحبه الاله « ايا » ومنحه المعرفة والحكمة والقوة . وفيما كان يصيد السمك في احد الايام هبت الريح الجنوبية فقلبت قاربه . وقد حسم البابليون الريح الجنوبية بهيئة طائر ضخم ، فمسك «أدابا» الريح وكسر جناحيه ، فسكن الريح ولم يهب فعلم «آنو» ، كبير الآلهة بالامر ، وأصدر أمره بان يؤتى بأدابا أمامه لمحاكمته فحاول عليه نصيحة الاله «ايا» ولا سيما انه خشي ان الآلهة ستعرف

[illegible] فعلل انه انما سبق على تحطيم « ادابا » فارشده الى ما يجب ان يفعله وهو أمام الآلهة في السماء ، وجعله يلبس ثياب الحداد ويضع على رأسه الرماد عندما يقترب من باب السماء . واذا ما سأله الآلهان الحارسان عن سبب حزنه فعليه ان يجيب بانه انما فعل ذلك لان الآلهين قد تركا الارض وجاءا الى السماء ، وكان يقصد بهذين الآلهين الحارسين اللذين يحرسان باب السماء ، فكسب بذلك صديقين في السماء . وبالاضافة الى ذلك فان الاله «ايا» أوصى « ادابا » بأنه اذا قدم له الاله « آنو » كسوة فيستطيع أن يلبسها ولكنه اذا قدم له طعاما فلا يسعى له ان يأكله لانه سيكون طعام الموت . وعندما صعد «أدابا» الى السماء عمل بوصايا «ايا» فكسب اولا الآلهين الحارسين وصارا صديقين له ورافقاه الى السماء السابعة الى حضرة «آنو» كبير الآلهة وكان أول شيء عرفه هذا الاله ان « أدابا » يعرف أكثر مما يلزم لبشر مثله أن يعرف ولانسان غير معروفة قدر الاله «آنو» ، لعله بسبب وساطة الآلهين الصديقين ، أن يكمل هذا البشر فيطعمه طعام الحياة وشرابه علاوة على ما يحتوي عليه من المعرفة . أن الاله عزم على ان يجعله خالدا . ولكن

فيجيبه جلجامش بما حل به ويقول له : « يا اوتو ـ نشتم ! كيف لا تذبل وحساى ويمتقع وجهى ؟ ويحرن قلبى وتتبدل هيئتى ، ويصير وجهى وجه من انهكه السفر الطويل ... فان صاحبى وأخى الصغير الذى صاد حمار الوحش فى البرية والنمر فى البادية ... أنكيدو صاحبى ... الذى تغلب على جميع الصعاب ... قد أدركه مصير البشر ! فمكيته سبعة أيام وسبع ليال ولم يهن على دفنه فى القبر حتى وقع الدود على وجهه ، فافزعنى الموت حتى همت على وجهى فى البرارى ، فالنازلة التى حلت بصاحبى تثقل كاهلى .. صار صاحبى الذى أحبت ترابا . أفلا أضطجع مثله صجعة لن أقوم منها أبدا ؟ » ... وبعد كلام آخر يصف به جلجامش ما عاناه فى الوصول اليه يجيبه « اوتو ـ نشتم » ! « قال اوتو ـ نشتم لجلجامش ... هل بنينا بيتا يقوم الى الابد ؟ وهل ختمنا عهدا يقوم الى الابد ؟ وهل تنمى العصافى الارض ابد الآبدين ؟ .. لم يكن خلود مد القدم ، وما اعظم الشبه بين النائم والميت ! الا تظهر على وجهيهما هيئة الموت ؟ وهكذا العبد والسيد لما يسهى اجلهما » . فسأل جلجامش اوتو ـ نشتم الخالد كيف صار ادن خالدا وهو مثله بشر بل يبدو أضعف منه . وهنا يبدأ اوتو ـ نشتم يقص عليه قصة الطوفان الذى حصل من بعده على الحياة الخالدة .

قصة الطوفان كما يرويها اوتو ـ نبشتم(١)

قال (اوتو ـ نشتم) لجلجامش : ساطلعك يا جلجامش على اسرار خفية واحدثك سر من اسرار الآلهة . كنت أعيش فى شروباك المدينة التى تعرفها الواقعة على الفرات . ولقد عزم الآلهة العظام على احداث الطوفان(٢) ،

---

(١) منقولة بتصرف عن الترجمة الحرفية فى مجلة « سومر » مجلد ٦ عدد ٢ (١٩٥٠) ، اللوح الحادى عشر الاسطر ٨ فما بعد ، وتوجد قصة سومرية عن الطوفان (انظر

Ancient Near Eastern Texts, 42 ff

(٢) فى قصص أخرى عن الطوفان كان السبب فى ذلك آثام البشر وخطاياهم .

وكان الاله (ايا) فى مجلسهم فقل حديثهم الى كوخ القصب (اى مسكن اوتو ـ شمش) وقال لخاطبه : يا كوخ القصب • اسمع يا كوخ القصب وتأمل يا حائط يا رجل (شروباك) فوص سك وابن لك سفينة واترك ما تملك وابح بحياتك وحد معك الى السفينة بذرة كل مخلوق حى • ولما ادركت ذلك قلت لـ (ايا) الهى • يا الهى سأعمل بكل ما أمرتنى به ، ولكن بمادا سأجيب أهل مدينى ؟ فاجابنى (ايا) هكذا قل لهم : ان (انليل) يكرهنى فلن استطيع العيش فى مدينتكم بعد الآن ، وسأنزل الى مياه(الابسو) واعيش مع (ايا) الهى • اما انتم فسينزل عليكم المطر مدرارا • وسيمطركم الموكل بالروابع مطرا من قمح[1] فجمعت الناس حولى وشرعت بصنع السفينة واقمت هيكلها ، وانشأت فيها ست طبقات سفلى فقسمتها بذلك الى سبع طبقات وقسمت طبقاتها الى تسعة أقسام وجهزتها بما تحتاج اليه وبالمؤن • وحملت فيها كل ما أملك ووضعت فيها بذرة كل مخلوق حى ، وادخلت فيها أهلى ودوى قرباى ، وحيوان البرية ووحوشها وجميع الصناع • وحل الوقت المعين فأرسل الموكل بالروابع مطرا مهلكا من السماء • وتطلعت الى الجو ، فاذا هو مخيف لا يمكن النظر اليه • فدخلت السفينة واغلقت بابها وعندما لاح أول خيط من نور الصباح أتت غيوم سود من الافق البعيد وارعد الاله (أدد) فى داخلها ولمعت رعوده عنان السماء ، وانقلب النور الى ظلمة ، وهبت العواصف العاتية يوما واحدا وحلت بالناس كالحرب العوان ،وصار الناس لا يعرفون من السماء وانكسرت السدود وقد هبت العواصف ستة أيام وست ليال وانهمرت الامطار فغطى الطوفان الارض وذعر حتى الآلهة من الطوفان فانهزموا الى سماء (آنو) ، واقعوا كالكلاب وصرخت عشتار مثل امرأة فى المخاض ، وانتحبت سيدة الآلهة بصوت شجى وقالت: تحولت الحلقة القديمة الى طين لاسى أمرت بالشر فى مجلس الآلهة ، وصار الشر الذين ولدتهم مثل مض السمك يملأون المياه • ، ولما كان

(١) هنا توريه لخداع أهل المدينة • ووجه التوريه انه استعمل كلمة معناها من المشترك تعنى قمحا وهلاكا •

اليوم السابع خفت شدة العاصفة والطوفان وسكن البحر وهدأت الزوبعة • فتحت كوة من سفينتي فسقط النور على وجهي ، وتطلعت الى البحر فكان كل شيء هادئا ، وقد استحال البشر جميعا الى طين • فانحنيت وبكيت وبعد مسيرة اثنى عشر ساعة مضاعفة استوت السفينة على جبل (نصير) الذي مسك السفينة ولم يدعها تتحرك طوال ستة أيام واطلقت في اليوم السابع حمامة فذهبت الحمامة ثم عادت الى لانها لم تجد موضعا تحط عليه ، ثم اطلقت السنونو فذهب وعاد الي لانه لم يجد موضعا يحط عليه ، ثم اطلقت غرابا فذهب الغراب وكانت المياه قد انحسرت فاكل وحام وحط ولم يرجع الي • ثم أطلقت كل شيء الى الرياح الاربعة وقربت قرباناً ، فلما شم الآلهة رائحة القربان الذكي اجتمعوا حول ما ضحيت كأنهم الذباب • وقالت الالهة عشتار يا أيها الآلهة • انني لا انسى عقد اللازورد الذي في عنقي فسأتذكر هذه الايام ولن انساها[1] • فليقرب الالهة من القربان الا «انليل» الذي أحدث الطوفان بلا روية فأهلك البشر » • وعندما وصل أنليل ورأى السفينة غضب غضباً شديداً لان بعض البشر نجا من الهلاك • وانبرى له الاله « ايا » وكلمه وقال : يا أيها البطل يا أعقل الآلهة ، كيف جاز لك ان تحدث الطوفان بلا روية ، فلتحمل المذنب وزر خطيئته ، ولا تفرط في الشدة على المذنب فتهلكه ولا تلن له حتى يفلت من زمامه » • ثم صعد انليل الى السفينة واخذ بيدي واخرجني مع زوجتي فسجدنا له ثم وقف بيننا ولمس ناصيتنا وباركنا بقوله : لم يكن اوتو ـ نشتم حتى الآن سوى انسان ولكن ليكن الان اوتو ـ نشتم وزوجه الهين مثلنا • وليعيش اوتو ـ نشتم بعداً بعد (قم الانهار) ، فأحدوني واسكنوني في هذا الموضع • أما أنت يا خلخاميش فمن ذا الذي سيجمع الآلهة من أجلك حتى تجد الحياة التي تبغي ؟ هلم امتحنك ! لا تنم ستة أيام وسبع ليال» • ولكن خلخاميش

(١) يرى بعض الباحثين في هذا المشهد ما يضاهي ما جاء في التوراة من ان «قوس قزح» كان علامة للعهد الذي حصل عليه نوح بعدم حدوث الطوفان في الارض •

بدلا من ذلك غط فى نوم عميق • فقال اوتو ـ نبشتم الى زوجته متهكما « انظرى الى هذا الرجل الذى ينشد الخلود ! » فلما استيقظ جلجامش حزن وتوسل الى اوتو ـ نبشتم ان يدله الى ما عسى أن يفعل ، وفيما كان موشكا على الرجوع الى بلاده صفر اليدين اشفقت عليه روحة « اوتو ـ نبشتم » وتشفعت له عند زوجها فرق هذا لحاله وكلم جلجامش قائلا : « ساسر اليك يا جلجامش بامر خفى وساطلعك على سر من اسرار الآلهة: يوجد نبات شوكه مثل شوك الورد يخز يديك وهو ينبت فى قعر البحر فان ظفرت بهذا النبات حصلت على تجديد الشباب والحياة • فربط جلجامش برجله حجارة ثقيلة وغاص فى أعماق البحر ووجد ذلك النبات العجيب وعزم على اخذه الى مدينته لينميه ويستفيد منه الناس فسر جلجامش وشرع يسير راجعا الى مدينته ، وبعد حين شاهد فى طريقه برکة من الماء فنزل فيها ليستحم وليزيل عنه وعثاء السفر • وبينما كان فى الماء شمت الحية شذى ذلك النبات العجيب فاختطفته ، وحصلت بواسطته على قدرة تجديد الشباب اذ كلما ادركها الهرم نزعت عنها جلدها فجددت شبابها • فجلس جلجامش وبكى وانهمرت الدموع على وجنته وعاد الى مدينته وقد اعتقد بعدم الحصول على الحياة الخالدة فأخذ يشغل نفسه ويسى همومه فيما قام به من تجديد بناء المدينة واقامة أسوارها العالية • ونجده فى قصة أخرى من قصص جلجامش تقوم بدور بعيد ليخلد له اسما مع اسماء الآلهة المكتوبة فى « أرض الحياة » •

هذا وقد سبق ان ذكرنا ان اللوح الثانى عشر من القصة يكون موضوعا أدبيا قائما بذاته ، ولا علاقة له بسير حوادث الرواية اذ ننتظر ان يكون «انكيدو» صاحب جلجامش قد مات فى اللوح السابع الا انه يكون حيا فى اللوح الثانى عشر ويأمره جلجامش بان ينزل الى العالم الاسفل ليرجع له آلتين صنعهما جلجامش من خشب ولكنهما سقطتا منه فى العالم الاسفل ، وبعد أن ينزل انكيدو الى ذلك العالم يشرع جلجامش الى الآلهة بان يعيده

من عالم الارواح ليبأه عن حال أهل العالم الاسفل فيصعد شبحه ويصف له ذلك العالم بصورة قاتمة عن حال أرواح الموتى حيث « يكونون كالمسجونين طعامهم التراب والطين » ولكنه يلطف من تلك الصورة الجاهمة بان يصف له حال بعض الموتى ممن يعاملون هناك معاملة خاصة فيجهزون بالماء والقوت ولا سيما من مات وخلف له ذريه من الاولاد ومن مات فى الحرب ميسة الابطال (كما سبق أن ذكرنا فى مبحث الديانه) .

ويتضح من موجز القصه أن فكرة الملحمة الاساسية التأمل فى مسألة الموت والخلود وحتمية الموت وان لا سبيل للبشر ان يحصلوا على الخلود ، ومع أن حقيقه الموت واضحة عند كل انسان الا أنها مع بداهتها كانت ولا تزال موضع الحيره فى قراره كل نفس بشرية . لقد قدر الموت على البشر أجمعين « لان الآلهة لما خلقت البشر قدرت عليهم الموت واستأثرت بالخلود والحياه الابديه » هذه هى الحقيقة التى حاهد مؤلف الرواية فى البرهان عليها بطريقه مؤثره . فذاك جلجامش على الرغم من ان ثلثى جسمه من مادة الآلهه وعلى الرغم من قوته الخارقة وان أمه الهه لم يحصل على وسيلة للخلود فيتخلص من مصير البشر . ولم يقتصر الامر على انه اخفق فى الحصول على الخلود بل انه فشل حتى فى الحصول على ذلك النبات الاكسير الذى يجدد الشباب . واذا كان الامر كما برهنت عليه القصة فكيف يسعى للانسان أن يسلك فى هذه الحياه ؟ هل سلك السلوك الذى اشار به صاحبة الحانة أى سلوك التنعم واللذة أو يسلك السلوك الذى قام به جلجامش عند وصوله الى الوركاء بعد رجوعه خائبا يائسا من معامراته ؟ اى الانهماك بالاعمال الاجتماعية وتخليد الانسان نفسه بالعمل الصالح . ولعل الجواب الصحيح على ذلك أن القوم وقفوا بين النوعين من السلوك .

٣ ـ اسطوره (أدابا) :

نذكر أسطورة ثالثة اشتهرت فى العالم القديم حتى ان نسخا منها وجدت فى مصر بالخط المسمارى واللغة البابلية فى عهد العمارنة . وتعرف هذه

الاسطورة باسم « ادابا » وهي تعد على قدر عظيم من الاهمية بالنسبة الى آراء القوم باصل الشر وطبيعة الانسان ، كما ان بطل الرواية نفسه يرى بعض الباحثين فيه أنه « آدم » أبو البشر حتى ان اسمه البابلي يكاد يكون كلفظ آدم . وملخص الاسطورة ان «أدابا» كان يعيش صيادا في الجزء الجنوبي من العراق قرب سواحل البحر في اريدو ، وقد أحبه الاله « ايا » ومنحه المعرفة والحكمة والقوة . وفيما كان يصيد السمك في احد الايام هبت الريح الجنوبية فقلبت قاربه . وقد حسم البابليون الريح الجنوبية بهيئة طائر ضخم ، فمسك «أدابا» الريح وكسر جناحيه ، فسكن الريح ولم يهب فعلم «آنو» ، كبير الآلهة بالامر ، وأصدر أمره بان يؤتى بأدابا أمامه لمحاكمته فحاول عليه نصيحة الاله «ايا» ولا سيما انه خشي ان الآلهة ستعرف

[illegible] فعلل انه انما سبق على تحطيم « ادابا » فارشده الى ما يجب ان يفعله وهو أمام الآلهة في السماء ، وجعله يلبس ثياب الحداد ويضع على رأسه الرماد عندما يقترب من باب السماء . واذا ما سأله الآلهان الحارسان عن سبب حزنه فعليه ان يجيب بانه انما فعل ذلك لان الآلهين قد تركا الارض وجاءا الى السماء ، وكان يقصد بهذين الآلهين الحارسين اللذين يحرسان باب السماء ، فكسب بذلك صديقين في السماء . وبالاضافة الى ذلك فان الاله «ايا» أوصى « ادابا » بأنه اذا قدم له الاله « آنو » كسوة فيستطيع أن يلبسها ولكنه اذا قدم له طعاما فلا يسعى له ان يأكله لانه سيكون طعام الموت . وعندما صعد «أدابا» الى السماء عمل بوصايا «ايا» فكسب اولا الآلهين الحارسين وصارا صديقين له ورافقاه الى السماء السابعة الى حضرة «آنو» كبير الآلهة وكان أول شيء عرفه هذا الاله ان « أدابا » يعرف أكثر مما يلزم لبشر مثله أن يعرف ولانسان غير معروفة قدر الاله «آنو» ، لعله بسبب وساطة الآلهين الصديقين ، أن يكمل هذا البشر فيطعمه طعام الحياة وشرابه علاوة على ما يحتوي عليه من المعرفة . أن الاله عزم على ان يجعله خالدا . ولكن

يا لسوء حظ «أدابا» فانه ابى ان يأكل مما قدم له من طعام الحياة على الرغم من الحاح الاله عليه . وعند ذلك غضب الاله وقال : «لقد ابيت ان تأكل من طعام الحياة ، فارجع الى الارض لنالك الموت» وهكذا يفشل هذا البشر فى نيل الحياة الخالدة ، كما فشل جلجامش فى ذلك . وسنطيع ان نستشف من هذه الاسطورة فلسفة البابليين فى مصير الانسان وما قدر عليه من الموت، فقد فسروا مصدر الموت والشر فى ذلك من الانسان ويشاركه فى ذلك الاله الذى نصحه خطأ .

٤ ـ اسطوره « ايناتا » :

اسم بطل هذه الاسطورة «ايناتا» الذى ورد ذكره من جملة ملوك سلالة كيش الاولى التى كانت اول سلالة حكمت من بعد الطوفان كما جاء فى اثبات الملوك وقد لعب فى هذه الاثناء دور راعى ، وصور فى جملة اختام اسطوانيه وهو على ظهر نسر وهو يحلق الى السماء[1] . وقد جاءت الينا الاسطورة التى سنلخصها وهى مدونه باللغه البابليه على الواح من العهد البابلى القديم ومن العهد الاشورى الوسيط أيضا . وموضوعها انه كان عهد فى تأريخ البشرية لم يكن عندهم نظام الملوكيه حيث لم تعين الآلهه لهم ملكا فكانت شارات الملك من تاج وصولجان مودعة فى السماء لدى الاله «آنو» . ثم هبطت الملوكية من السماء . وتكون الاسطوره محرومه فى هذا الموضع ولكن سياق الحوادث يشير الى انه كان من بين الملوك القدامى بعد نزول الملوكية ملك فى كيش اسمه «اتاناه» ، وكان هذا عقيما لم ينجب ولدا يخلفه فى الملك ، فعم الاضطراب فى البشر اذ خاف الناس من عواقب خلو منصب الملوكيه بينهم وتعرضهم بسبب ذلك الى الشر . ففكر « ايناتا » فى الامر واهتدى بعد التفكير الى وسيلة تمكنه من الحصول على ولد له بان يبحث بحثا خاص بالولادة موجود فى السماء . فتضرع الى الاله الشمس (شمش) بان يمكنه من ذلك فدله هذا

---

(١) انظر
H Frankfort, **Cylinder Seals** (1939), 138 — 39, Pl XXIV

الاله على سر سيساعده فى بغيته وابلغه ان يعبر الحال واذا وصل الى موضع معين وجد حفرة فيها سر مهيض الجناح لا يستطيع الحراك فاذا ما انقذه «ايتانا» فانه سيساعده فى الحصول على ذلك النبات • ففعل «ايتانا» بما أمره به الاله ووصل الى الموضع الخاص ووجد النسر سجينا فى الحفرة المعيبة ففعل ايتانا على تخليص النسر • اما سبب وجود النسر مسجونا فى هذا الموضع فيروى لنا الاسطورة ان أمرا وقع بينه وبين الحيه (او الثعبان) وهو انهما عقدا عهدا فيما بينهما بأن يكونا صديقين فلا يعتدى احدهما على الآخر ، وعقدا شركة فيما بينهما بأن يقتسما ما يحصلان عليه وحلفا من اجل ذلك بالاله الشمس وطلا على ذلك الحال متضامين ، حافظين للعهد الذى قطعاه امام الاله (شمش) ، ولكن سول للنسر أن يجحود العهد طمعا باصطياد الحيه وعلى الرغم من تحذير اصدقائه له من مغبة خيانة العهد والحنث باليمين الا انه وثب برأسه وسعى على فراخ الحيه وأكلها ، وعندما عادت الحية الى عشها وجدته مجردا لا اثر فيه لصغارها فبكت امام عشها • وكشفت عن فاعل الشر فذهبت الى الاله شمش تشكو النسر عنده فحكم لها الاله ودلها على طريقة لعقاب النسر بأن تذهب الى موضع الى الجنوب وستجد هناك ثورا وحشيا مربوطا اعده لها الاله • وعليها ان تسير بطنه وتختبئ فى بطنه ، وستاتى الطيور لتأكل من لحمه ومعها النسر • ففعلت الحيه ذلك واختبأت فى جوف الثور وجاء النسر وحط ليأكل على عادة هذه الطيور الجارحة ، فما كاد ينقر بمنقاره حتى مسكته الحيه وأخذ هذا يبكى ويستعطفها ان ترحمه فطلقته ولكن الحية لم تسمع له لان الاله (شمش) هو الذى اوقع عليه العقاب ، ولكنها لم تقتله بل سحرته وكسرت جناحه ومخالبه ورمته فى حفرة ليموت جوعا وعطشا • ولما سمع الاله شمش باستعطافه واحتجاره بانه سيرسل له رجلا يخلصه وهذا هو ايتانا الذى كما رأينا جاء اليه وخلصه واشترط عليه فى ذلك ان يصعده الى السماء ليحلب «نبات الولادة» • فركب على ظهره وبدأ الصعود تدريجيا الى السماء ، ومع ان الكتابة محرومة فى

النهاية الا ان ما بقى منها يصف لنا كيف كانت الارض تبدو بعين «ايتانا» عنده كان يطير ويرتفع قليلا قليلا نحو السماء فكانت الارض تبدو كالتل والبحار كميا الحدول ، وبلغا مرحلة صغرت فيها مناظر الارض واخفت من عينيه ، حتى كادا يبلغان سماء «آنو» ويبدو ان السر وايتانا حافا من التحلق علوا أعتد فهبطا مسرعين ولا يعلم مصير بطل الرواية ، ولكن الظاهر ان ايتانا يصل الى الارض سالما وانه انجب خليفة له فى الحكم .

ان هذه الاسطورة أقدم محاولة فى احلام الانسان فى الطيران وفيه ايضا باب جديد من الادب لم نصادفه فى النماذج التى اوردناها لادب وادى الرافدين القديم ذلك هو القصص على السنة الحيوانات والبهائم على نحو ما هو موجود فى أدب الهند القديم مما جاء فى كتاب «كليله ودمنه» الشهير . والواقع من الامر ان هناك قطعا أخرى من هذا النوع من الادب فى حضارة وادى الرافدين مما يعرف باسم الـ (fables) . ولم يقصر الامر فيه على الطيور والبهائم بل حتى بالنبات الى السحر كالمفاخرة بين شجرة الأثل (Tamarisk) وبين النخل[1] . كما ان معرفتنا قد ازدادت باب آخر من أدب وادى الرافدين القديم ، هو الامثال والحكمه ، فقد ترجمت جملة قطع باللغة البابلية من هذا النوع[2] ، ووجدت حديثا ألواح سومرية فيها مجموعات من الامثال والحكم السومريه ولكن هناك صعوبة خاصة فى فهم معنى هذه الامثال حتى لو عرفت من الناحية اللغويه لقصر مثل هذه الامثال وتركيز معناها كما ان الامثال تكون عاده مستندة الى حادثه أو حالة قيلت بسببها فلا نعرفها كما هو مألوف لدينا فى الامثال العربيه فمن هذه الامثال السومرية المكتشفه حديثا[3] نذكر أمثلة واضحه :- مثل «فى المدينة المهملة

(١) أنظر ترجمة تلك القطعة فى :-
Ancient Near Eastern Texts. 410 ff

(٢) ذات المصدر الص ٤٢٥

(٣) حول هذه الامثال السومريه الحديثة أنظر
S N Kramer in **Bullt. Un. Museum.** vol 17, No 2 (1952) 39 ff

المتهاونة يصير الحابى ناحرا» و«لا تطلب الحياة من نجشريدا اله الموت» و«المال مثل الطير لا يعرف له موطنا ثابتا» ومثل «اذا أباحت المدينة لكلاب الصيد فيها ان تمكث داخلها تحكم الثعلب فيها» ومثل «اولى للفقير ان يموت ، فانه ان ملك الحبر عدم الملحأ ، واذا كان عنده ملح عدم الخبز واذا كان لديه بيت فلا يكون عنده فراش» . ومن الامثال البابلية : «لا كسب بلا تعب» و«لقد ارخيت الشبكة ولكن الاصفاد محكمة[١] » و« اذا لم تضب بثرى فعطشى عبر كثير »[٢] و « لقد اوقف المعد قبل أن يبدأ سائه»[٣] و«النهر الذى باتحاه الريح يحلب الماء الوفير» . و «اذا احس بدنو أجله قال لآكل جميع ما عندى واذا تعافى قال لاقتصد »[٤] و « قد تدوم الصداقه يوماً ولكن العبودية دهرا» و « الرجل ظل الاله والعبد ظل الرجل ولكن الملك على صورة الاله» و « اذا ضرب البحل عض .. الرجل الضارب »[٥] .

٢ - الفن

اذا أهملنا الصور والنقوش التى صنعها انسان العصر الحجرى القديم (ولا سيما فى اسبانيه وفرنسه) بصفتها لا تعد فنا لان ذلك الانسان البائد قد صنعها مدفوعا بالسحر ، فوسعنا ان نجعل ظهور طلائع الفن عند البشر فى وادى الرافدين ووادى النيل منذ نهاية العصر الحجرى المتأخر . وظهرت هذه الطلائع فى ربوع الشرق الادنى فى العصور التى أعقبت العصر الحجرى المتأخر التى سميناها بعصور ما قبل السلالات أو فجر الحضارة وقلنا عنها انها كانت بمثابه تمهيد او مقدمة لظهور الحضارة الناضجة فى كل من العراق

(١) قارن المثل فى (عاموس ٥ ١٩) والمثل العربى « كالمستجير من الرمضاء بالنار » والمثل الانجليزى « من المقلاه الى النار ».

(٢) اى من فضل المثل « لا تعرف قدر الماء حتى تعطش البئر »

(٣) قارن ما جاء فى الموراه (١ ملوك ٢٠ ١١)

(٤) قارن (اشعيا ٢٢ ١٣)

(٥) أنظر أحدث ترجمه للامثال البابليه فى المرجع الآتى —
(Ancient Near Eastern Texts, 114 ff)

بومصر فى بدايه الالف الثالث ق • م ، ومن ذلك بداية الفنون الجميلة التى ظهرت فى كل من هاتين الحضارتين فيما بعد • فقد ظهر فى الادوار الاولى من تلك العصور التمهيدية فن صبغ الفخار وتزويقه بأصباغ ورسوم جميله وقد عمت صناعه هذا الفخار الملون الجميل جميع انحاء الشرق الادنى ، وكانت الاساليب متشابهة بوجه العموم ، مع اختلافات محلية تميز فى كل قطر من الاقطار • وبلغت صناعة الفخار المروق أوجها فى عصر حلف الذى صنع فيه العراقيون الاقدمون وسكان سورية احمل واقدم اوانى مريبه فى تأريخ هذا الفن ، سواء أكان ذلك فى دقة الصنع ورقة الفخار وجمال الاشكال أم فى الاصباغ الكثيرة الزاهية التى استعملت فى الاناء الواحد • وظهرت فى أوانى الفخار من عهد «حلف» بداية رسم الاشكال الحيوانيه والنباتية والزخارف•واذا علمنا أن مثل هذه الاوانى الرقيقة المتقنة قد صنعت باليد قبل ان يهتدى الانسان الى صنع «دولاب الخزاف» حق لنا أن نعجب من الدوق الفنى الذى تظهره لنا صناعة هذا الفخار • واستمرت صناعة الفخار الملون فى العهد الذى أعقب عصر حلف، أى عهد «العبيد» ،وان كان فن الفخار فى هذا العصر لا يضاهى ما كان عليه فى عصر حلف • ولكن ظهرت فى عصر العبيد بدلا من ذلك اولى الابنية العماريه العامة ، بحيث يصح ان نعد بداية فن العمارة منذ عهد العبيد • وكان أول ما ظهر من فن العمارة الابنية الدينية العامة حيث ظهر المعبد فى العراق ، ووجدت نماذج منه فى شمالى العراق ، وجنوبه وبوجه خاص المعابد التى كشف عنها فى اريدو «ابو شهرين»[1] ، وبوسعنا ان نشاهد فى هذه المعابد الخصائص العامة الاساسية التى امتازت بها معابد السومريين والبابليين فى العصور التأريخية • وظهور المعبد فى عهد العبيد له خطوره خاصة فى تأريخ الحضارة والفن بوجه خاص ، فقد ارتبطت به نواح عديدة من حياة القوم الاجتماعية والدينية ،

(١) انظر (ص ٥٨ وما بعدها) من هذا الجزء

وسوف نرى من عرضنا لتأريخ الفن كيف ان الفنون الاخرى من نحت الى رسم الى عمارة كانت ذات علاقة وثقى بشؤون الآلهة والمعابد التى تعبد فيها ناهيك عن ان حياة القوم الاجتماعية كانت تدور على المعبد • وقد اعطى الباحثون فى شتى عناصر الحضارة المختلفة للمعبد اهمية خاصة بجعله اهم العوامل التى أثرت فى ظهور تلك العناصر • ولقد استعمل العراقيون الاقدمون الطين مادة للبناء فى أقدم ابنيتهم ، وقد صنعوا بيوتهم اولا من الطين ودلك فيما قبل طور العبيد ثم صنعوا من الطين آجراً غير مطبوخ (وهو اللبن) لتشييد المعابد والدور ، ومع معرفتهم بالآجر المطبوخ فى العهود التى تلت عهد العبيد فان العراقيين الاقدمين ظلوا يستعملون اللبن فى بناء معابدهم الى آخر العهود التأريخية • ومما يقال فى هذا الصدد ان الاحوال الطبيعية فى السهل الحوبى من العراق لم تساعد من حيث موارده ومواده على شتى عماره صخمة بالحجر •

وحدثت فى عصر الوركاء ، ولا سيما فى منتصفه الثانى ، تطورات واختراعات مهمة فى الحضارة بوجه عام والفن بوجه خاص ، ففى فن العمارة ظهرت أوائل الاسة الشاهقة التى سميناها «بالزقورة» او الصرح المدرج والتى اختصت بها حضارات العراق القديم الى آخر أدوارها • وقد بدأت هذه العمارات فى المنصف الثانى من عصر الوركاء بناء معبد شيد فوق قمة مصاطب صناعية من البناء ، وقد امدتنا التنقيبات التى أجريت فى الوركاء والعقير بنماذج من هذه المعابد المدرجة • ففى العقير شيدوا معبدا صغيرا حملا فوق مصطبتين من البناء الواحدة اصغر من الاخرى ، وكان يرقى الى المعبد المشيد فوق المصطبه العليا بسلالم ، وقد زينت جدران المعبد العالى برسوم حيوانات ورسوم بشر ملونة تعد اقدم تصاوير جدارية[1] فى تأريخ الفن ، وكانت عادة ترويق الجدران بالرسوم والاصباغ محاولة لتجميل مادة البناء الفقيرة وقد ظلت عادة صبغ الجدران الى العهد الكشى والعهود الاشورية

Frescoes

ولكن اضيف اليها تربيين الجدران بالمنحوتات واستعمال الآجر المموه بالمينا والتزجيج كما فى قصر سرجون الثانى فى خرساد وكما فى باب عشتار فى بابل • وبدأ استعمال المنحوتات لتربيين الجدران منذ عصور فجر السلالات ، وزينت واجهات معبد العقير الذى ذكرناه وكذلك المصاطب التى شيد عليها بصفوف من المحاريط والمسامير الطينية المفخورة وكذلك كان المعبد العالى الذى وجد فى الوركاء • وكانوا يلونون رؤوس تلك المسامير بأصباغ مختلفة ويثبتونها فى الجدران بأشكال مختلفة ، كالمربعات والمثلثات وهذه اقدم نماذج لفن «الفسيفساء» فى تأريخ العالم • وقد وجد فى معبد الوركاء آثار أعمدة من اللبن مربية كذلك بالفسيفساء ، والاعمدة مكونة من أنصاف اسطوانات واحدب للسقف والربية فى آن واحد وكذلك يقال فى المعبد الابيض الذى عثر عليه فى الوركاء • ومن الاختراعات المهمة التى وصل اليها فن العمارة فى عصر الوركاء شوء القوس والعقادة ، فقد جاءنا نموذج من قوس صحيح[٢] من «اريدو» (ابو شهرين) من عصر الوركاء • وظهور فن العقادة فى هذا العهد القديم ذو اهميه خاصة بالنسبة الى تأريخ فن العقادة وأصله • اذ جرت عادة المؤرخين على ارجاع اصل العقادة والقبة الى الفن الرومانى •

وقد ظهرت القبة المعقودة فى عصر فجر السلالات فى أبنية المقبرة الملوكية التى كشف عنها فى أور • ومن الامور الفنية الحديدة التى ظهرت فى الوركاء «الختوم الاسطوانية» التى ظهرت منذ النصف الثانى من عصر الوركاء • وفن الختوم الاسطوانية خاص بحضارات العراق القديمة • وقد استعملها العراقيون بكثرة فى جميع أدوار تاريخهم • وبرعوا فى نقشها بصور ورسوم مختلفة براعة مدهشة ، وقبل أن تظهر الاختام الاسطوانية كانوا يستعملون ختوما منبسطة ، وهى أقراص من الحجر دائرية او مستطيلة تنقش برسوم مختلفة ولكنها مختصرة مبسطة «يطمغون» بها أحيانا أفواه

(١) True Arch

الجرار المسدودة بالطين لتكون بمثابة ختم لضمان عدم الاخلال بالمحتويات ، ولكنها استعملت كذلك بهيئة حروز لغايات سحرية ودينية • أما الختوم الاسطوانية فكانت تستعمل لختم العقود وألواح الطين المختلفة • وقد استخدموا لنحت الختوم الاسطوانية أحجارا مختلفة بعضها من الاحجار الثمينة ، كحجر اللازورد وحجر «الدم» (الهمتايت) وحجر اليشب (Jasper) والعقيق (Agate) **وحجر الحية** (Serpentine) وتدل طريقة نقشها صور معكوسة واتقان تلك الصور على مهارة فنية بالغة • وكانوا يقشون بعض هذه الختوم بكتابات قليلة يذكر فيها أحيانا اسم صاحبها والقابه ، لانها كانت بمثابة توقيع لصاحب الختم • اذ كانوا بعد الفراغ من كتابة العقود والمقاولات والرسائل أحيانا ، يدحرجون الختم الاسطوانى على لوح الطين وهو طرى فيترك طبعة بالصور المنقوش بها •

ولقد نوعت الاحتام الاسطوانة فى أشكالها وفى المشاهد والمواضيع المنقوشة بها واختلفت باختلاف الادوار التاريخية • ولكن مما يقال فيها بوجه الاجمال أنها ذات أهمية خاصة من الناحية الفنية ، عدا عن انها مصادر مهمة من مصادر معرفتنا بعقائد القوم الدينية والحياة اليومية ، لانها كثيرا ما تنقش بمواضيع مأخوذة من الآداب الدينية والاساطير وكذلك من حياة الافراد اليومية كالولائم والاعياد والشعائر الدينية المختلفة • وقد حازتنا مجموعات كبيرة من الاختام الاسطوانة من مختلف الادوار • وفى المتحف العراقى وحده مجموعة تربو على الاربعة آلاف ختم اسطوانى •

وقبل أن نبحث عصر الوركاء ظهر فى العراق فن جميل هو فن النحت ، فقد جاءتنا من أواخر هذا العهد ومن العهد الذى أعقبه ، وهو «جمدة نصر» نماذج جميلة من فن النحت على الحجر • من بين ذلك قطعة فنية من حجر البازلت (نوع من الاحجار البركانية) نحتت بمشهد يمثل صيد الاسود فى العراق القديم[1] وعلى الرغم من وجود هذه المسلة المنحوتة فى

(١) وجدت فى الوركاء وهى الآن فى المتحف العراقى •

طفة من الناء فى الوركاء تعود الى عهد حمدة نصر ، ولكن المرجح انهـــا صنعت فى عهد الوركاء وظلت مستعملة فى عهد جمدة نصر • ومع قـدم هذا النحت واتصافه بالسماجة بوجه عام فان فيه قوة فى التعبير ، ويمكننا ان نتبع فنه وفى القطع المنحوتـه الاخرى ، الخطوط الاســاسية لفن النحت الرافى الذى ظهر فى عهد اردهار الحضارة السومرية فى عصور فجـــر السلالات • ومن القطع الفنية النفيسة التى وجدت فى الوركاء (من طبقـة تعود الى عهد جمده نصر) اناء من حجر المرمر كبير الحجم يبلغ طوله اربع أقدام هو الآن من أنفس آثار المتحف العراقى • وقد زين هذا الاناء من الخارج بمشاهد منحوتة بالنحت البارز تمثل موكبا من الكهنة العراة وهـم يحملون سلال القرابين الى معبد «اى ـ انا» فى الوركاء وفى الموكب شاهد بعض الآلهة ويرجح كثيرا انها تمثل الالهة «اينانا» (أو انانا أى عشتار)•وقد يحسب هذه الاشكال بمهاره فنية فنها واقعية التعبير ، وسنستطع ان نجـد فى هذا الاناء الاشكال السومريه الممثلة فى المنحوتات السومريه المجسمه التى ظهرت فيما بعد • ووجد الفنون فى الوركاء من طور جمده نصر رأســا منحوتا نحتا مجسما من الرخام يمثل فتاة هو الآن من الآثار النفيسة فى المتحف العراقى ، ليس لانه أقدم نحت مجسم فى تأريخ الفن ، بل لمـــا يتصف به من الجمال الفنى ودقه التعبير فى الملامح الشخصية • ومن الفنون الغريبة الماثوله التى جاءتنا من عهد جمدة نصر مجموعات نفيسة من الاحجار الصغيره المنحوتة بهيئة حيوانات وطيور مختلفة ، كانت تستعمل على ما يرجح حروزا او أحراز من قلائد • ومهما كانت الاغراض التى استعملت فيهـــا فان جمعها والدقه فى التعبير والتمثل تشير الى مهارة فنية وصحة فى المشاهدة وتدقيق فى الاعضاء • وقبل أن تبدأ العراقيون الاقدمون بفن النحت على الحجر كانوا يستعملون الطين لتمثل الصور الآدمية والحيوانية وهذه هى صور الطين أو دمى الطين[1] التى كانوا يفخرونها بعد أن يضعوها بقوالب على

(١) انظر حول ذلك المرجع الآتى ـ Terra Cotta Figurines
E. D. Van Buren, **Clay Figurines of Babylonia and Assyria** (1930)

الغالب . وبلغوا فيها مهارة ملحوظة ، وقد بدأت صور الطين منذ أقدم العهود ، من أواخر العصر الحجرى ، وظلت مستعملة الى أواخر ايام الحضارات القديمة فى العراق . وكانت ، مثل الاختام الاسطوانية ، منوعة الاشكال والمواضيع ، بعضها يمثل الآلهة وبعضها صور للشياطين والعفاريت كما تصورها القوم ، كما انهم صوروا الحيوانات المختلفة والطيور والاسماك ، وبلغت هذه الصور من مختلف العهود مئات الالوف ، وهى الى أهميتها الفنية ذات قيمة خاصة فيما يتعلق بالحياة الاجتماعية والدينية .

الفن فى عهد ازدهار الحضارة السومرية :

يقع عهد ازدهار الحضارة السومرية فى العصور التى سميناها عصور فجر السلالات ، وقد سبق ان ذكرنا تقسيم عصور فجر السلالات الى ثلاثة أدوار تدعى عادة بعصر فجر السلالات الاول والثانى والثالث ، ويمتاز كل منهما بمميزات خاصة من العمارة والآثار ومظاهر الحضارة الاخرى . ومما يقال فى حضارة السومريين الاولى فى عصر فجر السلالات ان الفنون التى نشأت فى عصور ما قبل السلالات قد نضجت وكملت عناصرها ومقوماتها فى عصر فجر السلالات . واذا استثنينا الآثار الدقيقة وأوانى الفخار التى يتميز بها عصر فجر السلالات الاول ، فان هذا العهد فى الحقيقة دور انتقال بين عهد حمدة نصر وعصر فجر السلالات الثانى . فقد ظلت فيه بعض الاشياء التى اختص بها عهد حمدة نصر كالاوانى المصنوعة . ولم يستعمل فيه «اللبن» الخاص بعصور فجر السلالات وهو الآجر (المستوى - المحدب) الذى كان من الخصائص العمارية التى لازمت البابات فى عصور فجر السلالات .

وفى نهاية عصر فجر السلالات الاول ظهرت عمارات عامة بالاضافة الى المعابد التى شاهدنا ظهورها فى العبيد . وكانت هذه العمارات العامة بهيئة قصور مهمة ، مما يشير الى ظهور الطبقات الحاكمة من الامراء والحكام . كما ان المعابد فى الدور الثانى من عصر فجر السلالات قد صارت ابنية

وعمارات مهمه زست بالفنون الجميلة ، كالآنية المنحوتة المزينة ، واهم من ذلك المنحوتات الكثيره التي نحت نحتا مجسما (Sculpture in the Round) كما انه بدأت معرفتنا بأسماء المعابد بالنسبة الى الآلهة التي شيدت لها . فقد شيد في تل أسمر (عاصمة مملكة اشنونا) معبد فخم للاله «آبو» ، اله الحصب ، وقد اودع فيه كثير من المنحوتات المجسمة ، من بينها تماثيل تمثل الاله وزوجه وتماثيل أشخاص وكهنة. وكثرت المنحوتات المجسمة من هذا العهد وجاءتنا أمثلة كثيرة منها كما كثرت المنحوتات البارزة التي كانت تنحت على ألواح من الحجر لتزيين جدران المعابد . ووجد معبد آخر من أبنية هذا العهد (معبد الالهة شاره في تل اخرب في منطقة ديالى) رودنا كذلك بنماذج من المنحوتات وكمية كبيرة من رؤوس الصولجانات المصنوعة من الحجر . ومما يلاحظ في فنون النحت بوجه عام انه كان يجري وفق قواعد وقيود معينة ، اولا سيما في تماثيل الآلهة حيث المبالغة في الاعضاء وتمثيل العيون ، وكانوا لا يهتمون بالتمثيل الواقعي الطبيعي بل بالفكرة المجردة بالطريقة الهندسية، بخلاف فن الاغريق الذي اهتم بجعل التمثال حيا متحركا واقعيا فكان الفن السومري بذلك أقرب مايكون الى الفن المعروف الآن «بالتأثيري» (Impressionism) (١) وشذ الفنانون في تمثيل الافراد حيث نحتوا في التمثيل الواقعي الطبيعي نوعا ما ولا سيما في الوجه، وكذلك نجد في الالواح المنحوتة نحتا بارزا بمناظر تمثل الحياة الاعتيادية تمثيلا بارعا واقعيا . ونستطيع ان نتابع النحت في أطوار التأريخ المختلفة في العراق ، فنجد ان لكل عصر ميزات وقواعد كان يسير بموجبها الفنان ، كنحت الاشخاص والآلهة والافراد الآدميين . كما ان هذه المنحوتات كانت لاغراض دينية بالدرجة الاولى حتى تماثيل الافراد فان هذه كانت توضع بالدرجة الاولى في المعابد لتمثيل اصحابها دائما أمام الآلهة وكان تمثال الشخص في الواقع فيه من القوة والحيوية كما في الشخص الذي

---

(١) ويلاحظ في التماثيل السومرية مبادىء اخرى من الفن الحديث مثل الطريقة المعروفة بالتكعيبية .

بمثله ، ولذلك كان الملوك والامراء يسمون تماثيلهم بأسماء مطولة كما كانوا يغشونها بنصوص كتابية يوصونها فيها بان تذكرهم وتشفع لهم أمام الآلهة وتنوب عنهم أمامها • كما ان تماثيل الآلهة التى كانت توضع فى حجرة الهيكل المقدسه كانت تجسد فيها روح الاله بالذات ، وكانت مثل هذه التماثيل تمسة يسرفون فى تزينها بالاحجار الكريمة والذهب ، ولكن الذى يؤسف له انه لم تأتنا منها بعد الا نماذج قليلة • واذا كان الفنان مقيداً فى نحت تماثيل الآلهه والاشخاص الا انه استعمل حريته وعبقريته فى تمثيل الحيوانات • فقد جاءتنا من المنحوتات الاشورية قطع تعد من القطع الفنية فى تأريخ الفنون فى جميع الازمان ومن بين ذلك تمثال «اللبوه المحتضرة» والاسد الجريح حيث مثلا تمثيلا صحيحا فقد عبر الفنان عن ألم الحيوان الجريح بتعبير يبعث على الدهشة والاعجاب ، ومن الامثلة على ذلك تمثل صيد الاسود الذى أغرم به الملوك الآشوريون ، ومناظر الخيل والحمر الوحشيه التى صورت بحركة وعنف وبمهارة بحيث يحق لنا ان نضعها فى مصاف فنون العالم الممتازة •

واشتهر الدور الثالث فى عصر فجر السلالات بالقبور الملوكية التى وجدت فى أور وقد زودتنا بكنوز لا تقدر عن الفنون السومرية فى هذا العهد ونخص بالذكر منها النفائس المصنوعه من أوانى الذهب وخناجر الذهب والحدود المصنوعة من الذهب واشهر هذه الحدود الحدوده الذهبية العائده الى الامير السومرى «مس كلام دك» المعروضة فى المتحف العراقى وكذلك القشارات الذهبية ورؤوس الحيوانات المسبوكة من النحاس والبرونز ، وكل ذلك يدل على ما وصل اليه فن الصياغة وسبك المعادن • وبرعوا فى فن التحريم براعة مدهشة كما يشاهد فى غمد الخنجر الذهبى المعروض فى المتحف العراقى وكانوا يصنعون قبضات خناجر الذهب من حجر اللازورد (Lapis lazuli) • ومن الصناعات الدقيقة التى برع بها السومريون فى عصور

فجر السلالات فن التطعم أو التكفيت[١] وقد بدأ هذا الفن الجميل فى عصر جمدة نصر • فكانوا يطعمون الحجر والاخشاب وغيرها من المواد بمواد أخرى جميلة كالمحار والصدف وحجر اللازورد والبلور بألوان مختلفة • وكان الفنان يؤلف من هذه الاحجار التى يطعم بها المواد الاخرى أطرزة وأشكالا بديعة ، كالاشكال الهندسيه ، ومناظر الحرب والحوادث الاسطورية والحفلات الدينية ، كما يشاهد فى مقدم القيثارة الذهبية المعروضة فى المتحف العراقى • وبمناسبة ذكر هذه القيثارة ننوه قليلا بفن الموسيقى كما تدل عليه مثل هذه الآلات حيث وجدت ايضا صور للطول والابواق والاجراس والصوج•هذا ولا نعلم كيف كانت الانغام الموسيقية ولكن وجدت بعض ألواح الطين بعضها بهيئه اسطوانات مثقوبة فيها بعض الرموز العربية التى رأى بعض الباحثين فيها انها «نوطة» موسيقية وان احداها تمثل النغمة الخاصه بربيلة سومرية خاصة بخلق الانسان[٢] • ونذكر كذلك القطعة الفسيفسه التى وجدت فى أور والتى تسمى «راية اور» ، وقد مثلت فيها مناظر الجيش والعربات الحربيه ، وفى المتحف العراقى قطع نفيسة من فن التكفيت أو التطعيم بعضها ألواح لعب جميلة الصنع •

ومن الاشياء المهمه التى جاءتنا من عصر فجر السلالات ورودنا أشياء نفيسة عن الفنون السومريه معبد وجد فى تل العبيد ، شيد الى الالهة «ن ـ خرساك» فى زمن الملك السومرى «آنيدا» باني ملوك سلالة اور الاولى • وقد زين هذا المعبد بمداميج من عمد الفسيفساء المصنوعة من الصدف وتماثيل من أسود مصنوعة من النحاس المسبوك ، ومن ذلك طائر مقدس يمثل عاده برأس أسد وجسم صقر وقد وقف برجليه على وعلين وهذا هو الطائر المقدس المسمى «ام ـ دوكد» الخاص بالاله « سجرسو » وقد اتخذ شعاراً لمدينة لجش ،

---

(١) (Inlay Works)

(٢) انظر بحث المؤلف فى مجلة سومر المجلد الثانى (١٩٤٦) بالانجليزيه وكذلك انظر المرجع الآتى ـ

F W. Galpin, **Music of the Sumerians** (1937)

وزين المعبد بأفاريز جميلة تمثل مشاهد من حياة السومريين ، حيث نجد فيها صور الابقار والاوز ، ومشهدا جميلا يمثل حلب البقر وصنع اللبن وخضه وتصفيته .

وقد زودتنا التنقيبات التي أجراها الفرنسيون في «لجش» (تلو) بنفائس وكنوز من الفنون السومرية في عصر فجر السلالات ، من ذلك المنحوتات الجميلة التي سبق ان أشرنا الى بعضها ، مثل « نصب النسور »[1] العائد الى «اياناتم» الذي خلد فيه انتصاره العسكري على المدينة المجاورة المعادية «اوما» (تل جوخه الآن) وكذلك قطع أخرى من المنحوتات منها القطعة العائدة الى مؤسس سلالة لجش «اور-باشه» وقد مثل فيها هذا الملك وعائلته وحاشيته . وجاءنا كذلك تمثال ، فاقد الرأس ، يمثل احد ملوك هذه السلالة وهو «اينسوسنا» . وكانت العادة المتبعة في اكثر المنحوتات العائدة الى الملوك انها تنقش بعض الكلمات لتخليد أصحابها فتذكر القابهم واعمالهم كما هو الحال في القطع الفنية التي تعود الى أمراء لجش . وبالاضافة الى المنحوتات الجميلة من هذه المدينة فقد جاءتنا منها ايضاً مسلات قيمة من أواني الفضة المنقوشة واسلحة النحاس والقطع الفنية المطعمة . ومن القطع الفنية من هذا العهد الوعاء الفضي العائد الى ملك لجش « انتمينا » وقد نقش على سطح الاناء بطريقة الكفت سر عاشر جاجيه وهذا هو الطائر الذي قلنا انه خاص بالاله «نينجرسو» وتعد صورة النسر أصل الشعارات المتخذة حتى الرمز الذي يزين شعار الولايات المتحدة ، ونذكر كذلك الكبش الذهبي المصاد في الانكة[2] .

ثم تقهقر حضارة عصر فجر السلالات والفنون الجميلة التي نشأت فيها على مراكز تلك الحضارة في القسم الجنوبي من العراق (القسم المعروف

(١) او نصب العقبان (Stele of the Vultures) وهو الآن في متحف اللوفر (باريس) .

(٢) ويسمى (Ram Caught in a thicket) وقد وجد في المقبرة الملكية في اور (انظر (Woolley, **The Sumerian Art**

بلاد سومر) بل انتشرت الى الشمال كما تشير الى ذلك الآثار الفنية التى وجدت فى مدينة آشور من عهد فجر السلالات ، ووجد مركز مهم للحضارة السومرية فى بلاد سورية فى المدينة الشهيرة التى تعرف بتل الحريرى الآن (مارى القديمة) ، فقد وجدت هذه آثار الحضارة السومرية ومن بينها الفنون ولا سيما المحفوتات والنصرح المدرج والاحجام الاسطوانية وغير ذلك من عناصر الحضارة السومريه .

الفن فى العصر الاكدى وفى العصور الاخرى :ـ

بعد أن ذكرنا بعض الاشياء العامه عن الفن فى عهد ازدهار الحضارة السومرية ، واخذنا فكرة عن الخطوط الاساسية لخصائص ذلك الفن العامة، بدأ بذكر أشياء موجزة أخرى عن الفن فى العصور التى أعقبت عهد فجر السلالات وسوف نكتفى بذكر لمح موجزة لان البحث المسهب يطلب الحوض فى آثار العهود التاريخية المختلفة من جهه ، ومن الجهة الثانيه فان الفكره التى أخذناها عن الفنون العراقية القديمة فى عصر فجر السلالات تكفى لفهم روح الفن فى العصور الاخرى حيث سارت على خطا الحضاره العراقيه الاولى ، وقد استمرت أنواع الفنون التى ذكرناها فى العهود التاريخية التى أعقبت عصر فجر السلالات مع ما يحدث فيها من التغير فى الطراز وفى التأكيد على بعض النواحى الفنية دون النواحى الاخرى ، ومع ما كان يحدث للفن بوجه عام من تطور وحدة او تدهور وركود بسبب الفتوح والعوامل المختلفة الاخرى كنشوء السلالات الحديده .

فقد دخلت مثلا أشياء حديده فى فن النحت فى العصر الاكدى الذى أعقب عصر فجر السلالات ، بحيث يصح اعتبار ظهور نزعات جديدة فيه وابرز هذه النزعات الحديده التمثيل الحيوى القوى ، وكذلك النزعه الدرامية والروعة الفنية مما لم يكن موجودا فى عصور فجر السلالات ، وتساعد ذلك جليا فى «نصب النصر» العائد الى الملك الاكدى «نرام ـ سين» الذى ذكرناه فى موضع آخر من الكتاب . وأول ما يجلب الانتباه فى النحت البارز

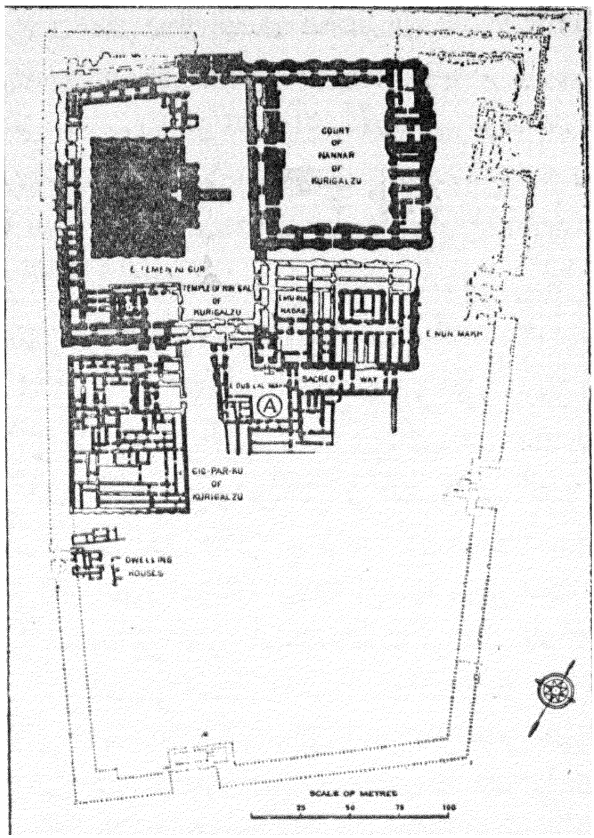

حارة المعابد المقدسة فى اور ، حيث الزفورة والمعابد المحلقه صمن السور المقدس (لاحظ فن تخطيط المعابد فى عهد سلاله اور الثالثه)

المربن به هذا النصب نوع من التحرر من قيود الفن السابقة ومحاولة الفنان رسم المناظر بحسب بعدها وقربها من المشاهد ، وهو ما يعرف بفن المنظور (Perspective) كما نشاهد قوة وحيوية فى التعبير فى نحت الاشخاص وقد بلغ فن النحت فى عهد «نرام ـ سين» ذروته فى الابداع. ومن القطع الفنية

البادره رأس النحاس الاكدى الشهير الذى لعله يمثل «نرام ـ سين» أو سرجون (انظر ص ١٢٥) • ويذكر ايضا نصا آخر لنرام سين وجد فى ديار بكر (وهو الآن فى متحف الشرق فى اسطنبول) ، وعثر ايضا على منحوتات فى بعض المحازات الجبلية فى شمالى العراق نخص بالذكر منها المنحوتة الموجوده فى المحاز الجبلى المسمى «دربندى گاوور» فى جبال قره داغ[١] • وتنطبق نفس الميزات الفنية التى ذكرناها على فن نقش الاحجام الاسطوانية حيث الدقة فى التعبير والقوة والحيوية • اما عن العمارة فى العهد الاكدى فلا يمكننا أن نقول شيئا عنها لانه لم يعثر على نماذج منها ممثلة باستثناء جملة دور سكنى فى بعض المواضع القديمة كما ان الفخار لا يتميز بشيء فنى بارز • وعلى الرغم من ظلمة العهد الكوتى الذى أعقب سقوط السلالة الاكدية ، فان السلالة السومريه التى قامت فى لجش قد حفظت لنا الكثير من مآثر الحضارة السومرية ، فى الآداب وفى النحت والفنون الاخرى ، وقد جاءتنا من احد ملوك لجش المشهورين فى ذلك العهد وهو «جودية» جملة تماثيل بالنحت المجسم تمثل الملك ، وفيها دقة فى التعبير ، ولا سيما التعبير عن ملامح الملك تعبيرا طبيعيا ، ويوسعنا أن نعد «جودية» من أقدم ملوك العالم ممن شجع الفن وأغرم به • ومما يدل على عهد سلالة لجش الثانية انه كان عهد ازدهار فى الفن السومرى والمآثر السومرية كالآداب كما تشهد على ذلك مآثر جودية من تماثيله وكتاباته التى تعدد فيها الاشياء الفنية التى جهز بها المعابد التى جدد بناءها فى لجش • وعلى الرغم من قلة الآثار الفنية ، ولا سيما المنحوتات ، التى جاءتنا من زمن سلالة أور الثالثة فان المدائح القليلة تشير الى ازدهار المآثر الفنية • ويخص بالذكر قطعة كبيرة من الحجر منحوتة بمشهد دينى يمثل الملك «اور ـ نمو» ، مؤسس السلالة وهو يقدم سكب الماء المقدس اجلالا لاله القمر «سين» الخاص بمدينة أور • وتستلم الملك من الاله الاوامر المقدسة

(١) انظر
(C J. Edmonds in **Geogr. Jour.**, LXV (1925), 63 ff ; S Smith, **Early Hist. of Assyria,** 96 ff

لتشييد الصرح المدرج في «أور» اى الزقورة التى كانت من اعظم العمارات الفخمة فى أور . وقد سبق أن نوهنا بهذا الاثر حيث توجد منه نسخة فى المتحف العراقى وقد صور بطريقة متحركة بمرحلتين ، فالمرحلة الاولى يشاهد فيها الاله جالسا فى الحقل الاول وامامه الملك وهو يسكب الماء المقدس ويتسلم الاوامر من الاله لبناء معبده العالى وفى الحقل الاسفل نشاهد الملك وقد تسلم من الاله الاوامر ومعها أدوات البناء كالخيط والفأس والشاقول وهويسير فى طريقه لانجاز العمل . وكان عهد سلالة اور الثالثة من أعظم عهود العراق القديم فى فن العمارة والانتاج الفنى على الرغم من قلة القطع الفنية التى جاءتنا منه ، والى كثرة الابنية التى قام بها ملوك السلالة فان آثارهم الشاهقة لا تزال قائمة فى اور الآن وبوجه خاص البرج المدرج كما وجدت بعض العمارات من عهدها كالقصر والمعبد اللذين شيدا فى تل أسمر لتقديس الملك « حمل ـ سين » (شو ـ سين)[1] .

ومن الامور العامة التى تذكر عن الفن فى عهد سلالة اور الثالثة شبه أساليبه بالعهود التالية وبوجه خاص أساليب العهد الذى سميناه بالعهد البابلى القديم ، كما لا يمكن تمييز الفن فى عهد سلالة بابل الاولى وعهد حمورابى عن فن عهد «ايسن ـ لارسه» ، وان القطع الفنية التى جاءتنا قليلة ، باستثناء فن العمارة كالمعابد التى وجدت فى مواضع ديالى مثل اشنحالى وتل حرمل . وعدا مشهد النحت البارز فى مسلة شريعة حمورابى فلا يوجد عندنا نماذج لفن النحت من سلالة بابل الاولى الا قطع قليلة مثل الرأس المنحوت من حجر «الغرانيت» الذى يظن أنه يمثل حمورابى نفسه .

واذا ما أتينا الى العهد الكشى فلا نجد طرازاً فنياً مميزاً خاصاً بالكشيين ، اذ الواقع ان هؤلاء كانوا بعيدين على المآثر الفنية فساروا على المآثر القديمة وكذلك تأثروا بالفنون الاخرى فى الاقطار المجاورة وبوجه خاص مصر فى عهد العمرانة ، كما انهم ساروا فى العمارة

---

(١) Frankfort et al, **The Gimil - Sin Temple and the Palace of the Rulers at Tell Asmar** (1940).

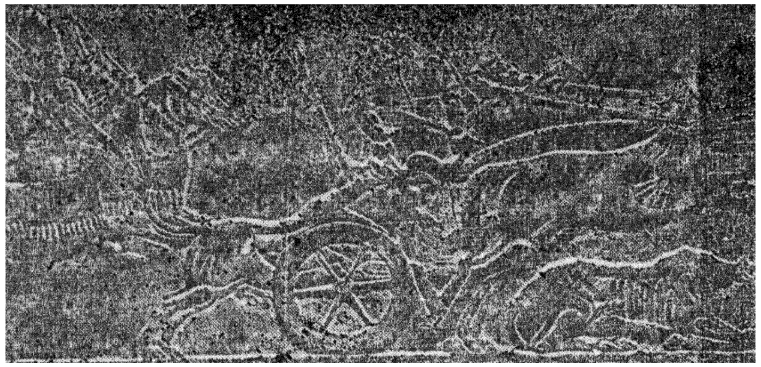

منحوته بارزه تمثل الملك « آشور ـ ناصربال » وهو يصطاد
(من نمرود ـ القرن التاسع ق٠ م)

فى المدن القديمة مثل أور والوركاء على الاساليب السابقة تقريبا ، ووجد من العهد الكشى فى الوركاء معبدا باسم «كره انداش» للالهة عشتار (انانا) (فى حدود ١٤٤٠ ق٠ م) ، ووجد حديثاً فى الموضع نفسه نصب منحوت من الحجر يمثل الهة وفيه كتابة سومرية تذكر اسم الملك «نازى مرتاش»[١] كما اسلفنا سابقا بالحفريات التى قامت بها دائرة الآثار العراقية فى عقرقوف (دور ـ كوريكالزو)[٢] حيث كشف عن المعابد وهى جزء من قصور المدينة ووجدت بعض القطع الفنية التى أنارت لنا جانبا عن الفن فى هذا العهد ، ومن ذلك فن العمارة حيث ظهر ان تخطيط القصور فيه شبه كبير بالقصور الحثية فى شرقى الاناضول[٣] ، ولعل الشىء المميز فى الفن الكشى الذى لم

(١) اكتشفت هذا الاثر بعثة التنقيبات الالمانية عام ١٩٥٥ وهو الآن معروض فى المتحف العراقى ٠

(٢) انظر تقارير المؤلف بالانجليزية عن نتائج التنقيبات فى
Iraq, Supplement, 1944, 1945, 1945

(٣) يعرف هذا الطراز من العمارة الخاص بالقصور باسم « بيت ـ حلاني » وقد قلده الاشوريون انظر حول ذلك :ـ
(1) Frankfort The Art and Architecture of the Ancient Orient

يكن معروفاً قبل ذلك جدران الآجر المنحوتة بأشـــكال ناتئة معمولة من الآجر ، وقد وجدت لذلك نماذج فى الوركاء (من عهد كره انداش) وكذلك فى عقرقوف • وقد طبق هذا النوع من فن العمارة من بعد نحو الف عام فى بابل (فى العهد البابلى الاخير) ، كما ان الكشيين استعملوا فى تزيين جدران قصورهم طريقة نقشها برسوم آدمية وهندسية ونباتية كما وجد ذلك فى عقرقوف وكانت هذه العادة موجودة سابقا ولا سيما فى القصور التى عثر عليها فى مدينة مارى (تل الحريرى) وهى القصور التى دمرها حمورابى[1]، ويمكن عد الصور الجدارية التى وجدت فى منطقـة القصور فى عقرقوف تقليدا للنحت الاشورى البارز الذى كان يزين قصور الملوك الاشوريين • واشتهر العهد الكشى ايضا بالمنحوتات البارزة الموجوده فى احجار الحدود وهى الامثلة الوحيده على فن النحت الكشى • ووجدت كسر من منحوتات ضخمه من حجر الدبورت احدها تمثال الملك كوريكالزو فى عقرقوف فى التنقيبات التى قامت بها مديرية الآثار العراقية ، كما وجدت مجموعة من صور الطين التى تمتاز بالحيوية ودقة التعبير ، ووجدت أيضا فى الموضع نفسه قطع قليلة من صناعة الذهب النفيسة •

ومما يقال عن فن العمارة فى العصور التأريخية التى أعقب عصر فجر السلالات ضخامة العمارات وضخامها بالقياس الى العصور السابقة • ومن ذلك الابراج المدرجة الشاهقة أى الصروح المدرجة (الزقورات) التى كانت افخم الاسة الذكارية العامة فبعد ان كانت هذه العمارات بسيطة مكونة من طبقين فوقهمامعبد صغير فى أواخر عصور ماقبل التأريخ ، أصبحت فى العصور التالية مكونة من عدة طبقات ضخمة ، واتسع حجمها وزاد ارتفاعها وكثر عددها فى المدن المهمة • ومثل ذلك يقال فى المعابد التى كانوا يشيدونها فى الارض قرب «الزقورة» فبعد ان كانت صغيرة بسيطه فى عصور فجر السلالات اتسعت فى العصور التالية وتعقدت واصبحت مكونة من مرافق

(١) انظر مجله Syria, XVIII (1937)

كثيرة معقدة والحقت بها نايات خاصة مقدسة كثيرة للكهنة والكاهنات ولحفظ السجلات وللدرس والدويس ، ونشاهد الاتجاه الى الضخامة والاتساع فى الابنية المخصصة الى الملوك ، أى القصور الواسعة كما أبانت البقيات التى أجريت فى المدن المختلفة ، ووصلت تلك الضخامة أوجها فى عهود الآشوريين الاخيرة حيث بلغت سعة قصورهم الالوف الكثيره من الامتار المربعة وتعددت مرافقها ، وزينت بمئات الامثال من ألواح الحجر المحوتة بالمناظر والمشاهد المختلفة التى تمثل نواحى متعددة من حياة الملوك وحملاتهم الحربية ومشاهد دينية .

الفن الاشورى :-

مما يذكر عن تأريخ نشوء الفن الاشورى وتطوره اننا نستطيع أن نعين زمن ولادته فى القرن الرابع عشر ق . م ، منذ أن استقلت بلاد آشور وقوى كيانها بعد ان ضعفت الامبراطورية المصرية والحثية ، اما ما قبل هذا العهد (فى العهد الاشورى القديم) فكان الفن الاشورى مقتبسا كليا تقريبا من الفن البابلى فى الحبوب ، ولكن منذ القرن الرابع عشر (أى منذ العهد الاشورى الوسيط) بدأ يتميز بشخصيته ومزاياه الخاصة ليس فى طرازه وأساليبه بل فى مواضيعه ، ولا سيما المواضيع الدنيوية لشؤون الدولة واعمال الملوك . أما فى المواضيع الدينية فقد حافظ على المآثر القديمة . وبوسعنا الوقوف على الخصائص المميزة فى الفن الاشورى منذ زمن الملك «توكلتى - نورتا» الاول (١٢٥٠-١٢١٠ ق . م) مثل المشاهد المنحوتة التى تمثل الشؤون العسكرية كالملك مع جنوده والعربات الحربية ، ومثل استعمال الآجر المرجح ، وهو طراز استعمل أخيرا فى بابل فى العصور المتأخرة ومثل استعمال رمز «الشجرة المقدسة» فى الفن ، واخذ الفن الاشورى طابعه الخاص أخيرا فى العهد الاشورى الحديث او الاخير (١٠٠٠ ق . م - ٦١٢ ق . م) ، حيث مثل مشاهد الحروب والشؤون الملكية الاخرى مما كان يزين قصور الملوك ، وفيها الفصلات المسوعة عن غزوات الملوك ومشاهد صيدهم ودكهم للمدن

والحصون وتهجير السكان وسوق الاسرى والتمثيل بهم وقاطرات العربات والدبابات الحربية ، ويوسعنا ان نقرأ فيها تطور أساليب القتال وآلات الحرب والاسلحة • ويمكننا درس الفن الاشورى فى هذا العهد بتقسيمه الى ثلاث فترات ممثلة بالنسبة الى الملوك المشهورين فالطور الاول يمثله عهد الملك «اشور ناصربال» الثانى (٨٨٣ - ٨٢٤ ق • م) وعهد ابنه شيلمنصر الثالث حيث حافظا معا قطع فنية ممثلة مما كان معروفا سابقا وكذلك من التنقيبات الحديثة التى تمت فى نمرود (كالح القديمة) والطور الثانى يشمل النصف الثانى من القرن الثامن ق • م ويمثله عهد الملك تجلاتبليزر الثالث وشيلمنصر الخامس وسرجون (٧٤٢ - ٧٠٥ ق • م) ، ويمثل الطور الثالث حكم سنحاريب واشور بانيبال[1] •

وأعرف الآشوريون تحت التماثيل الضخمة من الحجر ، بعضها يمثل أشخاصا من بينهم الملوك أنفسهم وبعضها يمثل الحيوانات الضخمة ولا سيما الثيران المجنحة التى بلغت زنة بعضها أربعين طناً وكانت هذه حيوانات مركبة، رؤوسها رؤوس بشر واجسامها أجسام ثيران أو أسود مجنحة ، وهى عندهم من نوع «الملاك» الحارس وكانوا يضعونها فى مداخل القصور ومداخل المدن • وقد وجدت منها نماذج كثيرة فى «نمرود» فى مداخل المدينة المقدسة وفى خرساباد ، وهى المدينة التى شيدها الملك سرجون الثانى لتكون عاصمة له • وقد نقب فى هذه المدينة فى منتصف القرن الماضى كل من «بوتا» (Bota) و «بلاس» (Place) من متحف اللوفر فى باريس فوصلا الى نتائج مهمة ، اذ كشفا عن المدينة وما فيها من فن العمارة الرافى والمنحوتات المجسمة والبارزة التى زينت بها مدينة سرجون •

وقد كشف فى قصر سرجون عن نماذج أخرى من الفنون من بينها الآجر المزين بالمياه الملونة وقد صورت بطريقة الميا الملونة صور مختلفة على

(١) انظر احدث البحوث فى الموضوع فى المرجع الآتى :-
Frankfort, **The Art and Architecture of the Ancient Orient** (1954)

عرار ما وجد فى جدران باب عشنار فى بابل من زمن نبوخذ نصر الثانى • وجاءنا نماذج أخرى من الآجر المزجج بالميناء من العهد الآشورى الحديث صور فى بعضها رسوم أشخاص تعد قطعا ممتازة • كما وجدت فى قصر سرجون نماذج من صور كانت ترين جدران القصر الملكى • وقد أخبرنا «سرجون» فى كتاباته الرسمية انه استعمل فى تزيين قصره «الذهب والفضة والنحاس وحجر الرمل الاحمر وحجر «البريجه» والرخام والعاج وخشب الاسفندان والنفس والتوت والارز والسرو والصنوبر والريمون واللوط» وزينه من الداخل بالميا الزاهية المموهة بها ألواح الآجر المزججة وطليت السقوف بطلاء أبيض من «البورق» ونصب قرب الابواب تماثيل ضخمة من المرمر والعاج تمثل بقرا تحمل ما يشبه كؤوس الازهار التى تستند اليها الاعمدة • وقد سبكت تماثيل كثيرة من الاسود والثيران من البرونز •

وقد اشتهر سنحاريب بن سرجون ، كما ذكرنا فى تأريخ الآشوريين، بذوق مدنى وفنى حفزه على تجميل العاصمة نينوى • وعمد الى جلب المياه الصافية لشرب المدينة من موضع شمال نينوى قرب منبع نهر الكومل من مضيق جبلى فى (باڤان) فبنى لجلب المياه قناة مبلطة طولها خمسون ميلا ، وقد ربط الوديان العميقة بقناطر من الحجارة البيضاء لجريان الماء • وقد نحت عند المنبع على وجه الحجر الشاهق صورا كبيرة للالهة وسجل فيها أعماله العظيمة • وشرع فى بداية حكمه بتحديد بنايات العاصمة المعظمة نينوى للسعى بأن تكون عاصمة الامبراطورية الواسعة فى زمنه • وقد صور لنا سنحاريب تشييد البنايات الضخمة ولا سيما قصره فى منحوتات ذلك القصر فشاهد فيها مئات الالوف من العمال ، وكان أغلبهم اسرى وهم يقلعون الطين لعمل الملايين من اللبن لانشاء مبانيه • وقد وجد المنقبون فى قصر آشور باسال قطعا من المنحوتات البارزة التى يعد بعضها من القطع الخالدة فى تأريخ الفن كالاسد الجريح واللبؤة المحتضرة ومشاهد صيد الحيل الوحشية •

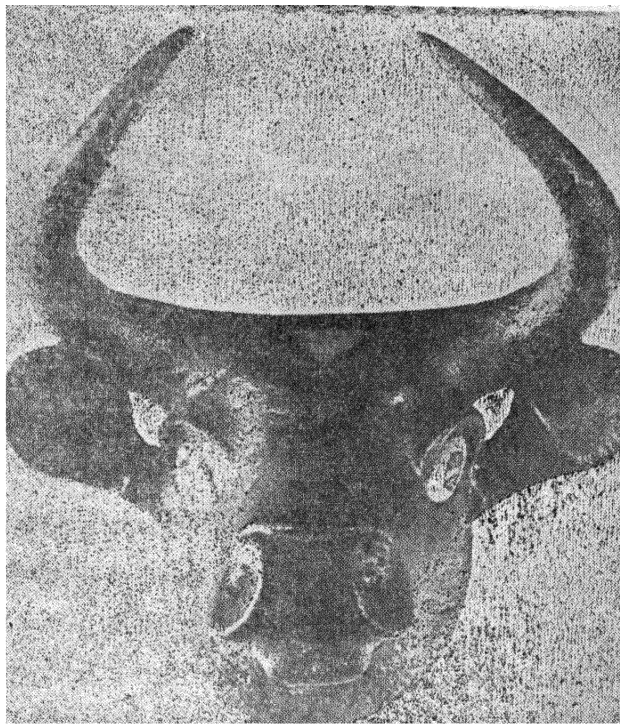

نموذج من الفن من عصر فجر السلالات وتمثل الصورة رأس ثور مسبوك من النحاس وقد طعمت عيناه بالصدف

ومثل ذلك يقال عن الاسة الفخمة التى شيدت فى بابل ولاسيما الابنية التى اقامها الملك الشهير «نبوخذنصر الثانى»، نذكر من ذلك قصره الفخم الذى كان مؤلفا من عمارات كثيرة تتمركز حول أربع ساحات كبيره ، بلغت احداها المسماة بقاعة العرش ٥٢ × ١٧ مترا ، وقد وجد فيها فى نهايتها ما يشبه المحراب على طراز محاريب المعابد وهو موضع عرش الملك . وقد بلغ ثخن الجدران نحو ٥ أمتار وطليت بالصبغ الابيض وزينت جدران الساحة بالآجر المزين

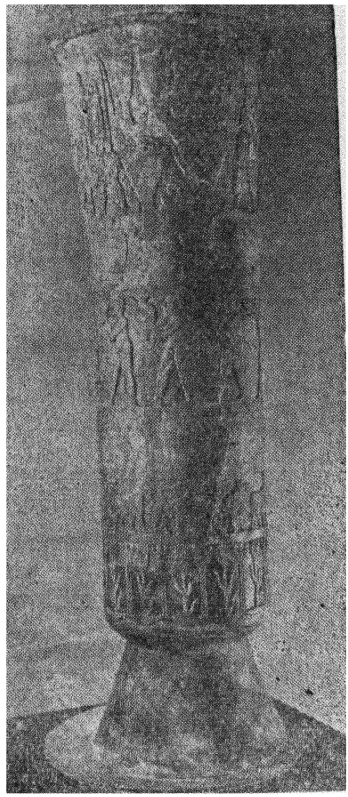

اناء يدوى منحوت من الحجر بشكل مولد الهدى ولهما يحملون القرابين
(وجد فى الوركاء من بقايا حمده نصر ولكن نرجح انه يعود الى
عصر الوركاء فى حدود ٣٥٠٠ ق ٠ م)

بالبناء وفيها العمد المزينة (وتبلغ مساحة القصر نحو ٦٠٠ × ٩٠٠ قدما) ٠ ووجد فى الزاوية الشماليه الشرقية من القصر الجنوبى بناء ضخم قوامه اربع عشرة حجره معقوده ، كل سبعة منها على جانب من رواق بين الصفين من هذه الحجرات ، ووجدت فى هذا البناء آثار آبار ، ويرجح أن يكون هذا البناء هو موضع «الحدائق المعلقة» التى عدها الاغريق من عجائب الدنيا ٠

صوره أهم المواضع فى مدينه
بابل ولا سيما حارة المعابد

ويتألف السور الخارجى لمدينة بابل من ثلاثة جدران ضخمة أولها مشيد من الآجر المنى بالزفت وتبلغ سمكه ٨١و٧ مترا ويليه خندق من الماء ثم جدار آخر يبلغ سمكه ٥٢و٣ مترا وبعد مسافة نحو ١١ متر يأتى الجدار الداخلى المبنى من اللبن وتبلغ سمكه نحو (٧) أمتار . ولعل أروع بناء لا يزال آثاره ماثلة فى حوائط بابل بناء عشتار المشهور الذى شيده نبوخذ نصر الثانى ، وكان شارع الموكب يمر من هذا الباب الضخم . وقد زينت جدران الباب بحيوانات مصنوعة من الآجر المرين بالمينا بألوان زاهية على طراز ما وجد فى قصور الآشوريين من العهد الآشورى الاخير .

وإذا كنا لا نستطيع ان نسهب فى القول عن الأوجه المختلفة للفنون فى حضارة العراق القديم فاننا نحسن بحثنا ان نراد بعض الملاحظات العامة مما يصدق على الفن فى حضاره وادى الرافدين ووادى النيل .

فأول ما يجب على الباحث ان يلاحظه عن الفن فى هاتين الحضارتين هو طابعه الدينى الذى عاشه كل منهما ، ويزيد ذلك على ثلاثة آلاف عام . وقد بلغ كل منهما المختلفة بمدارج من الفن من فروعه المختلفة . وللفن فى الحضارتين الخطوره خاصة فى التراث الشرى بالنسبة الى فنون

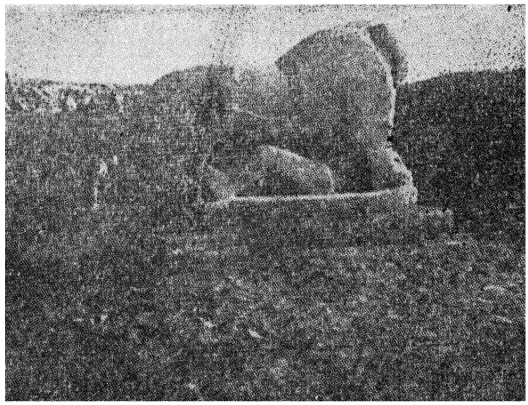

تمثال نادر الشهير الذى وجد فى قصر نبوخذ نصر الشمالى . وعلى الرغم من شهرته هذا الاثر فانه مجهول المعزى والاصل والعهد الذى يرجع اليه بوجه التأكيد . ولعله من الغنائم الحربية التى حملها نبوخذ نصر من الخارج

الحضارات الاخرى . فمثلا نجد الباحثين الثقات فى الفن اليونانى يؤكدون القول ان اليونان لم يبدأوا سياحتهم الفنية الراقية الا بعد ان اتصلوا بحضارة مصر وحضارة العراق . ولنلخص القول فان لفن هاتين الحضارتين فضل السبق والبدء .

ومن الامور الهامة التى تذكر ما نجده من الوهم والضلال الشائعين ، من ان الطابع الغالب فى هاتين الحضارتين ، ومن ذلك الفن طبعا ، هو السير والاطراد على وتيرة واحدة أو الجمود بدون تغيير وتطور . وهذا من قبيل وصف بعض الغربيين للشرق «بالشرق الذى لا يتبدل» ، وقد كنا لا نستطيع ان نجد فى أصل هذا الوهم ، فنكتفى بأن نقول ان جميع الحقائق التى نعرفها عن حضارات العراق ومصر وجميع ما نعرفه عن الفن فيهما تناقض هذا الرأى المضلل . اما الذى يصح قوله هو ان لكل حضارة روحاً تسيرها أو كما يقول «شنكلر» لها نغم أو لحن هو جزء من موسيقى الحياة .

مجموعه نفسه من الادوات الذهبيه التي وجدت في المقابر الملكيه في اور (عن المتحف العراقي)

فيظهر الفن وهو مصف بتلك الروح العامة ومعبر عن ذلك النغم الخاص وكأنه بات لا يعبر .

ومما يجدر ذكره كذلك عن الفن في كلتا الحضارتين هو انه لكي نستطيع ان ندرك الساح الفني فهما وبقدره على الوجه الصحيح يجب علينا ان ندرسه بنفسه وعلى ضوء الروح العامة المحصارة التي هو جزء منها ، فلا نقسه بعرف الفن الحديث ولا نقسه ايضاءكما كان يفعل الاوربيون الى زمن

كاهن أو حاكم سومرى من عصر فجر السلالات الثانى (٢٨٠٠ ق٠ م)

حديث ، على فن آخر يتخذه معياراً للجوده والسمو (كالفن البونانى) ، سواء أكان ذلك من ناحية الحوافز أم من ناحية الاساليب الفنية: ولتوضيح ذلك سوق المثل الآتى: وهو اننا نعرف ان هناك اسلوبين اساسيين لتمثيل الاجسام ذات الابعاد الثلاثة فى السطح المستوى : فالاسلوب الاول طريقة فن المنظور (Perspective) ، وهى الطريقه التى شاعت فى الازمان الحديثه وبموجبها تصور الاجسام المرئيه كما تبدو لعين الرائى فى الفراغ ، وأما الاسلوب الثانى فهو الطريقة الهندسية • وهى على النقيض من الاولى تمثل الاجسام المجسمه كما هى ، لا كما تبدو للرائى • والنظر لشيوع فن المنظور فى العصور الحديثة صرنا كثيراً ما نحكم على الفن الذى لا يستعملها على انه فن ساذج لا يستحق ان يعد من الفنون الراقية ويجد مثل هذا الحكم الخاطىء على فن التصوير ، فى كل من حضارتى العراق ومصر القديمين حيث لا نجد فيهما أسلوب المنظور وانما نشأ هذا الاسلوب على ما يعلم لاول

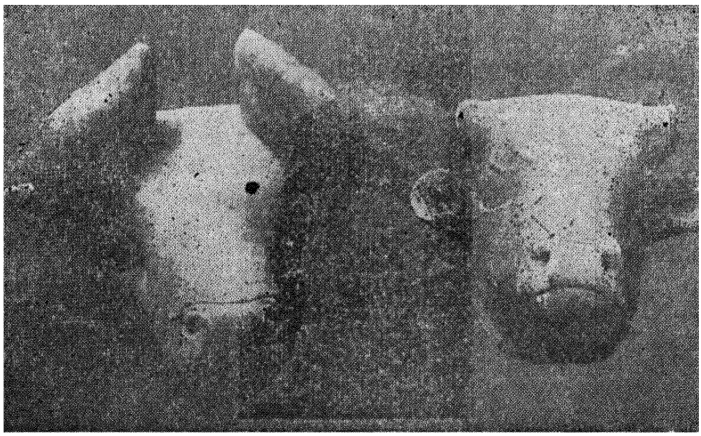

نماذج من المنحوتات المجسمة من عصور فجر السلالات . لاحظ
قوة التعبير والحيوية في التمثيل مما يعبر بتمثيل الحيوانات
(عن المتحف العراقي)

مره في حضارة اليونان . ولذلك فنحن لا نستطيع أن نقدر نفائس كثيرة من ذلك الفن اذ نحن انما نهدره المعايير الحديثة وحدها مقاييس مطلقة للحكم على فن الرسم في جميع الادوار . واذا نظرنا الى فن النحت في حضارتي العراق ومصر وجدنا ان الفنان قد وفق عامة التوفيق في التمثيل الواقعي . وهنا لا نستطيع ان نعزو هذه الجودة الى ان فن النحت اسهل من التصوير باعتبار ان النحت مجسم يمثل الابعاد الثلاثة .

واذا نظرنا الى الفن في حضارتي مصر والعراق على انه جزء لا يتجزأ من هاتين الحضارتين ودرسناه على ضوء الروح العامة لكل منهما فهمنا ذلك الفن فهما صحيحا ونحونا من الورط بأحكام خاطئة كقول البعض مثلا ان الفن في الحضارة المصرية اقتصر على الاموات وعبادة الاموات من الفراعنة مستدلين على ذلك بان جميع ما جاءنا من نماذج الفن المصري انما وجدت في

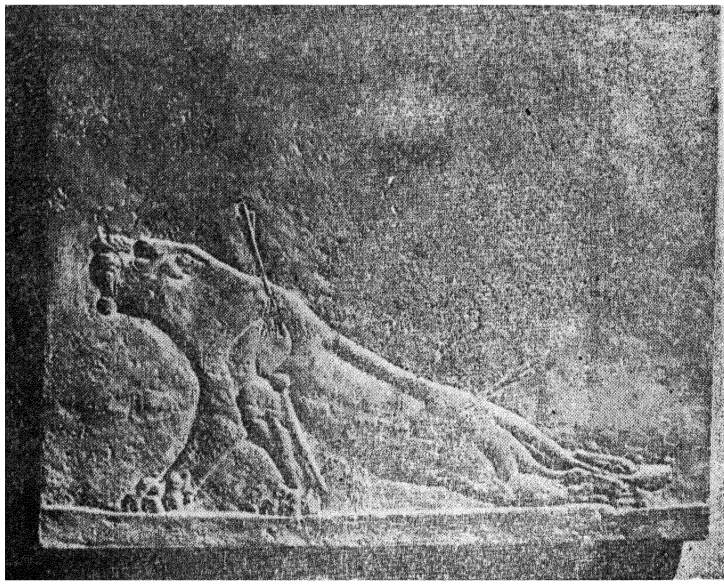

نحت بارز يمثل ليؤه جريحه ، وبعد من القطع الفنيه الخالده (من قصر اسور بانيبال في نينوى ، من القرن السابع ق . م)

المقابر . هذا صحيح ، ولكن اذا كان نجاح الفن قد شغل مثل تلك المكانة السامية في عادة الاموات ، أفليس هذا برهانا قاطعا على أهميه الفن في حياة الناس ؟ فلو وجدنا مثلا مشهدا من حياه الريف المصري منقوشا في جدران أحد القبور ، فلا نقتصر معنى ذلك على الرغبه في تصوير مظهر مألوف للميت في حياته الاخرى ، بل كذلك يعني شغف هذا الميت في حياته بالفن ، ومما لا شك فيه ان السبب لهذا الخطأ هو اغفال علاقة الفن المصري بالحضارة التي نشأ فيها ولا سيما علاقته الوثيقة بالعقائد الدينية التي طغت على تلك الحضاره ، وبوجه خاص الاعتقاد بحياة أخرى ، وهو اعتقاد واضح قوي طبع الحضارة المصرية بطابعها الخاص .

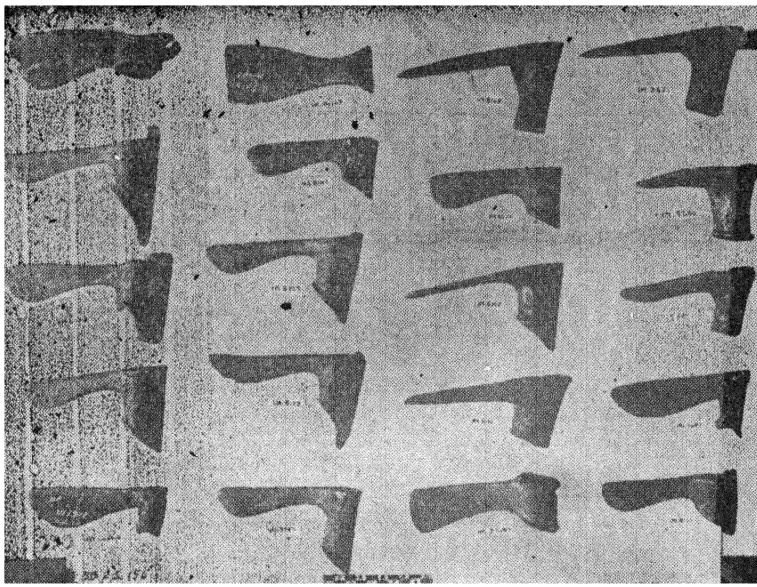

مجموعه من الفؤوس معظمها من عصور فجر السلالات والعهد الاكدى

ومما يوضح لنا العلاقة الوثقى بين الفن وبين مقومات الحضارة الاخرى ما يمتاز به الفن فى حضارة مصر والعراق من التقيد والسير بموجب عرف فنى أكاديمى • ومنشأ ذلك خضوع الفن الى معطيات الدين والسياسة أى الدولة والى القود الفسة • والدين والدولة شيئان ملازمان فى هاتين الحضارتين • وبتعبير آخر كان الفن فنا رسميا وليس فنا فرديا، فلا معنى لبحثنا عن بعض الشعارات والمبادىء الحديثة فى ذلك الفن كقولنا «الفن لاجل الفن» • فمثلا نجد ان فراعنة مصر استخدموا فن النحت لتخليد هيئات أجسامهم كما استخدموا فن العمارة فى تشييد اضخم عمارات فى تأريخ البشر ، وهى الاهرام للمحافظة على جسد الفرعون من البلى بعد الموت • وتفردت الحضارة

الآشورية بأن ملوكها استخدموا الدعاية استخداما واسعا لا يعرف له مثيلا بين الامم الاخرى ، فاستغلوا الفن كذلك ونحت لهم النحاتون مشاهد حروبهم وغزواتهم ودكهم الحصون والمدن وسوقهم شعوبا برمتها أسرى وغير ذلك من المشاهد الممثله على ألواح الحجر التى ملئت عشرات الاميال فى قاعات قصورهم وحجراتها .

ومن الطبيعى ان يسير مثل ذلك الفن الرسمى وفق قيود او عرف من الاساليب والطرق الفنية ، مما يحد من حرية الفنان . ولكن لو امعنا النظر فى الامر الفينا ان الفنانين وجدوا ، على الرغم من قيود العرف ، مجالا للتوفيق بين تلك الاساليب المفروضة عليهم ، وبين التعبير عن شعورهم الفنى واشباع حسهم بالجمال والابداع . ومما يلاحظ بوجه عام فى فن العراق القديم انه كان اكثر حرية بالقياس الى الفن المصرى ، وانه كان اكثر منه قوة وعنفا . ومن الامثلة على الحرية او التوفيق بين العرف وبين انطلاق الفنان ، ان الفنان فى العراق القديم اذا كان قد حرم التعبير الحر فى نحت الاجسام الآدمية ، فانه وجد نفسه غير مقيد فى اظهار حريته الفنية فى نحت الحيوانات فقد استطاع ان يمثلها تمثيلا حرا طبيعيا . وقد خلف لنا قطعا نفيسة فى هذا الباب ، ونحن لنا ان نعد بعض هذه القطع من القطع الفنية الخالدة فى تاريخ الفنون البشرية . ووجد الفنان مجالا آخر فى حريته التعبير ، حتى فى نحت الصور الآدمية وهى التى قلنا ان قيود العرف تطغى عليها . فمع ما فرض عليه من الاسلوب الخاص فى تمثيل الاشخاص ، بأوضاع خاصة ، الا ان حريته التعبير تركت للفنان على ما يبدو للتعبير عن ملامح الوجه . وقد وقفنا فى ذلك موقفا يستحق الاعجاب ، كما سبق ان نوهنا بذلك من قبل .

مشهد من النحت البارز يمثل صيد الخيل والحمر الوحشيه ، ويعد
هذا النحت الاشورى من القطع الفنية الخالده فى قوة التعبير
وتمثيل الحركه (من قصر اشور بانيبال فى نينوى القرن السابع ق ٠ م)

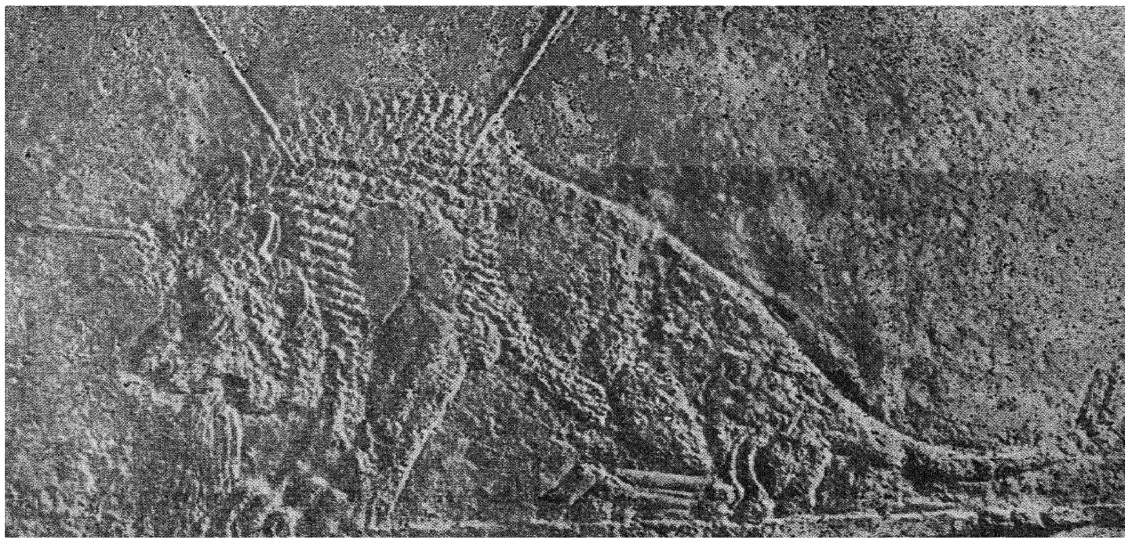

نحت بارز يمثل أسدا جريحا ، وهو مثل الشكل فى ص ٥٠٣ من
القطع العاجيه الحالدة (من قصر اشور بانيبال فى نينوى
من القرن السابع ق ٠ م)

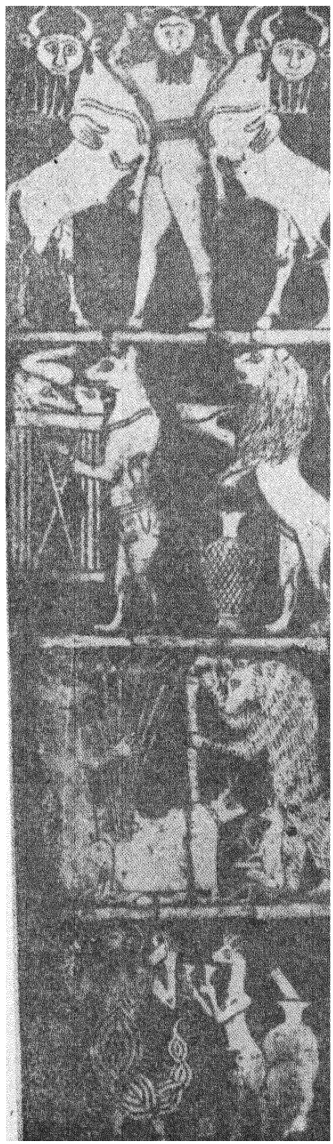

قطعه قماش بمبسه معموله بطريقه (التكفيت) وهى تزين مقدمه
قيثاره ذهبيه مما وجد فى القبور الملكيه فى أور

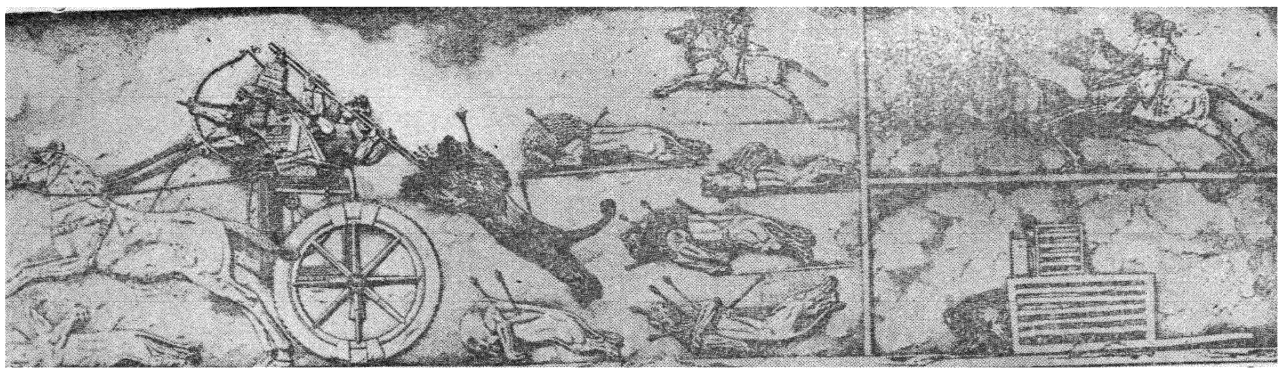

مشهد منحوت بالنحت البارز يمثل الملك اشور بانيبال فى صيد
الاسود (من نينوى من القرن السابع ق ٠ م ٠ فى المتحف البريطانى)

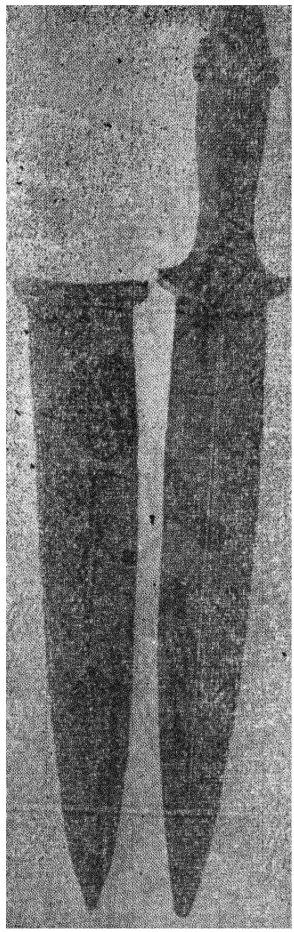

خنجر مصنوع من الذهب وقبضته من حجر اللازورد وعمده مصنوع من الذهب بطريقه النحريم (من المقبرة الملكيه فى أور من عصر فجر السلالات الثالث ٢٦٠٠ ق . م)

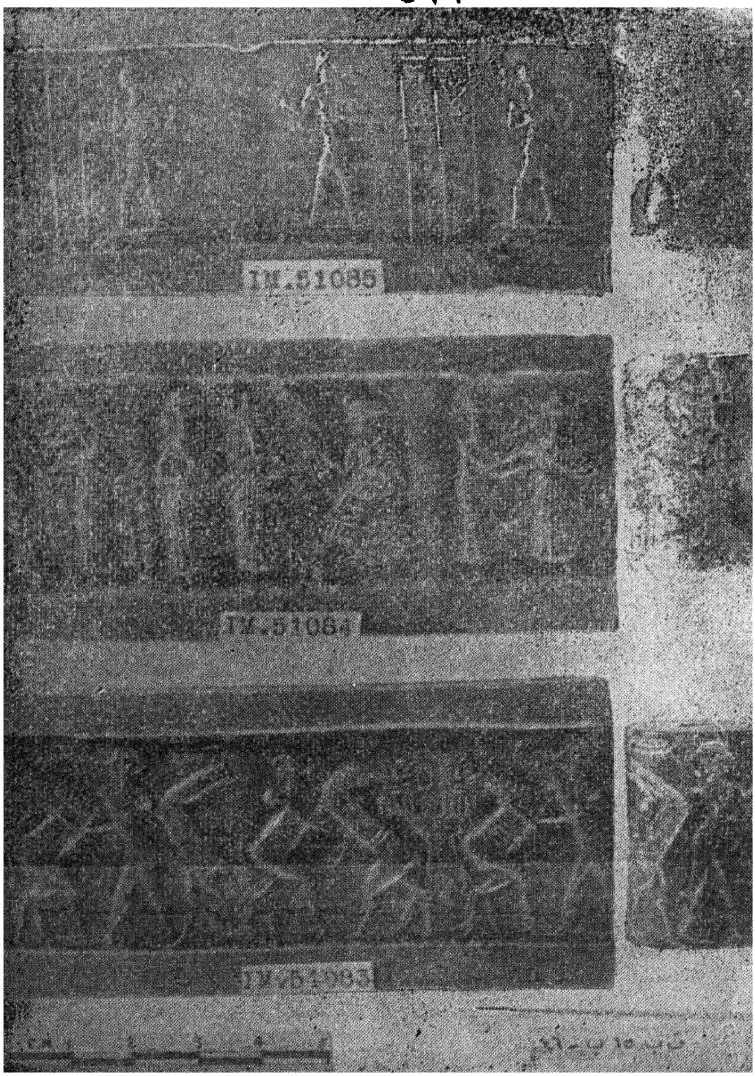

نماذج من الحوائم الاسطوانيه التى امتازت بها حضاره وادى الرافدين

قطعة فنية نفيسه من العاج وجدت فى أثناء التنقيبات الحديثه (١٩٥٣)
التى قامت بها البعثه الاثريه التابعه لمعهد الآثار البريطانى
فى العراق ، فى موضع نمرود «كالح» القديمه . لاحظ
دقه التعبير والصناعه الرائعه فى العاج ، وقد
وجدت نماذج أخرى نفيسه من فن النحت فى العاج

مراجع مختارة

بالاضافة الى ما ذكرناه من المصادر المستشهد بها في هوامش المتن يجد القارىء في الثبت الآتي أهم واحدث مراجع في مواضيع الكتاب .

مراجع الفصل الاول

١ ـ عن التاريخ ومنهج بحثه

(1) **An Outline of Modern Knowledge** (London, 1932) ch 19

(2) R. G. Collingwood, **The Idea of History** (1935)

(3) Langlois & Seignbos, **An Introduction to the Study of History** (English Transl. London, 1912).

(4) Vincent, **Historical Research** (New York, 1929)

(5) Fling, **The Writing of History. An Introduction to Historical Method** (Yale, 1926).

(6) Bernheim, **Lehrbuch der Historischen Methode** (Leipzig, 1894)

(7) Shotwell, **The History of History** (Columbia Un Press 1939)

(8) R. Flint, **History of the Philosophy of History** (1893)

(9) J G Droysen, **Grundriss der Historik** (Jena, 1858)

(10) **Encyclopaedia of Social Sciences** under "History", "History Study"

٢ ـ عن كتابة التأريخ عند العرب

(11) "Theory and Practice in Historical Study" in **Social Science Research Council**, Bulletin, 54, (New York, 1946)

(12) D S. Margoliouth, **Lectures on Arabic Historians.**

(13) F A Rosenthal, **A Study of Moslem Historiography** (1952)

٣ ـ مصادر عربية :ـ

(١٤) أسد رستم ، « مصطلح التأريخ » (١٩٣٩) .

(١٥) حسن عثمان «منهج البحث التأريخي » (١٩٤٣) .

(١٦) مقالان للدكتور حسن عثمان في مجلة الرسالة : ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٣٢ ، ٤٣٥ ، ٤٤٠ (آب ، تشرين الاول ١٩٤١) .

ومجلة الثقافة : ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٠٥ ، ١١١ (تشرين الثاني ـ شباط ١٩٤١) .

٤ ـ عن تاريخ السفساف فى العراق :ـ

(17) **Reallexikon der Assyriologie,** I (Ausgrabungen)
(18) W Budge, **Rise and Progress of Assyriology** (1925)
(19) V Christian, **Altertumskunde des Zweistromlandes** (1940)
(20) S Lloyd, **Foundations in the Dust** (1946)
(21) André Parrot, **Archéologie Mesopotamienne** 2 vols (1946 — 53)
(22) G E Daniel, **A Hundred Years of Archaeology** (1950)

٥ ـ عن أدوار التاريخ القديم وطرق ضبطها :ـ

(23) Van der Meer, **Chronology of Western Asia** (1947)
(24) S Smith, **Alalakh and Chronology** (1940)
(25) Ann Perkins in Ehrich, **Relative Chronology in Old World Archaeology** (Un of Chicago Press, 1954)
(26) **Bulletin of the American Society of Oriental Research,** No 88 (1942)
(27) F E Zeuner, **Dating the Past** (1946)
(28) , "Archaeological Dating by Radioactive Carbon" **Science Progress,** April, 1951, 225 ff
(29) W F Libby, **Radioactive Carbon.**
(30) F Jonson in **Supplement to American Antiquity** (July, 1951)
(32) Albright in BASOR, 99 (1945), 9 ff, BASOR, 126 (1952), 24 ff , 127 (1952), 27 ff , **Orientalia,** V (1948), 125 ff
(33) Goetze in BASOR, 122 (1951), 18 ff, 127 (1952), 21 ff
(34) E Cavaignac in **Reveu d' Assyriologie** XL (1945-6) 17 ff , 149 ff
(35) A Poebel, "The Assyrian King List from Khorsabad" in JNES, I, (1942), 247 ff, 490 ff. , II (1943, 56 ff
(36) **Bowton in Iraq,** VIII (1946), 94 ff, JNES X (1951), 184 ff
(37) Weidner in **Archiv für Orientforschung,** XV (1945—1951) 85 ff
(38) Toynbee, **A Study of History,** vol X (1954)

الفصل الثانى

(1) Braidwood, **Prehistoric Men** (1948)

(2) J S Myres, **The Dawn of History.**
(3) D A E Garrod, **The Palaeolithic of Southern Kurdistan** (1930).
(4) Burkitt, **Prehistory** (1924)
(5) O. Menghin, **Welt Geschichte der Steinzeit** (1939)
(6) Dorothy Davidson, **Men of the Dawn.**
(7) Childe, **What Happened in History** (1941)
(8) ...., **Man Makes Himself** (1935)
(9) . . . . ., **New Light on the Most Ancient East** (1952)
(10 Will Durant, **Our Oriental Heritage. The Story of Civilization** (1943)

(١١) مجلة سومر مجلد (١٩٥٠ ـ ١٩٥١)

(12) Braidwood, **The Near East and the Foundations of Civilization** (1952)
(13) . ..., **Antiquity,** XXXIV (1950), 190 ff , **American Jurnal of Archaeology** (1949), 50 — 1
(14) **Journal of the Near Eastern Studies** vol II (1943), vol IV

مراجع الفصل الثالث

١ ـ مراجع عامة

(1) André Parrot, **Archeologie Mesopotamienne** 2 vils
(2) G Childe, **New Light on the Most Ancient East** (1952)
(3) A L Perkins, **The Comparative Archaeology of Mesopotamia** (Chicago, 1949)
(4) H Frankfort, **The Birth of Civilization in the Ancient Near East** (1951)
(5) V Christian, **Altertumskunde** . (1939)
(6) Scharff & Moortgat, **Aegypten und Vorderasien.**

٢ ـ مراجع خاصة ، بالدرجة الاولى النشرات الصادرة عن نتائج الحفريات في المواضع التي وجدت فيها آثار أطوار فجر الحضارة :ـ

أ ـ حسونة :

Sumer I, (1945), 59 ff. , **Illustrated London News** II August, 1945, 163—165 ; **Journal of the Near Eastern Studies,** IV, 4

(1945), 255 ff , **Sumer,** III, 1 (1947), 26 ff ; **Sumer,** VI, (1950) 93 ff.

ب ـ مطاره

Sumer IV (1948), 134 ff ' **of the Near Eastern Studies** (1952), 1 ff.; BASOR, 124 (1951), 12 ff , **Illustrated London News,** 15 December, 1951, 992 ff

حـ ـ سـامراء :

E Herzfeld, **Die Ausgrabungen van Samarra,** V, Die **vorgeschichtlichen Tofferaian** (Berlin, 1930) ,

Braidwood et al in **Jour. of the Near Eastern Studies** III (1944) 147 ff. ,

د ـ تل حلف

M F van Cppenheim, **Tell Halaf** I Die **Prehistorischen Funde** (Berlin, 1943)

هـ ـ الاربحـة :

M E L Mallowan & Rose, **Prehistoric Assyria, The Excavtions at Tall Arpachiyah** 1933 (Iraq II, 1935, 1 ff)

أنظر المراجع العامة حول المراجع الاخرى التي وجدت فيها آثار طور حلف وسامراء والعبد وعبرها .

و ـ العبد وأريدو :

R C Thompson, **The British Museum Excavations at Abu Shahrain in Mesopotamia** (1918),

Hall in the **Proceedings of the Society of Antiquaries** XXXI (1919),

Hall, **A Season's Work at Ur, Al-'ubaid and Abu-Shahrain,** 1930

Hall, & Woolley, **Ur Excavations** I, Al-'ubaid (1924)

P. **Delougaz,** in **Iraq** V, (1938), 1 ff

Sumer, III (1947), 84 ff. ; IV (1948), 115 ff; **Illustrated London News,** 31 May, 1947 ; 11 September 1948.

ح ـ الوركاء :

حملة تقارير عن مواسم الحفريات الاحد عشر (منذ ١٩٢٨) شرت مد عام ١٩٣٠ فى :

U V B, I 1930, 2 (1931) 3 (1932), 4 (1932) 5 (1934), 6 (1935), 7 (1936) 8 (1937), 9 (1938), 10 (1939), 11 (1940)
Falkenstein, Archaische Texte aus Uruk (1936)

ط ـ حمدة نصر :

Field Musum Anthropology Memoirs, I
Mackay, **Report on the Excavations at Jamdet Nasr** 1931

الفصل الثالث والرابع

(1) G. Childe, **New Light on the Most Ancient East** (1952)
(2) ..... , **What Happened in History** (1946)
(3) John. A Wilson, **The Burden of Egyppt** (1950)
(4) H. Frankfort, **The Birth of Civilization** (1948).
(5) Braidwood, **The Near East and the Foundations of Civilization** (1952)
(6) **The Legacy of Egyppt** (1942)
(7) André Parrot, **Archéologie Mésopotamienne** 2 volumes (1946 — 1953)
(8) Scharff & Moortgat, **Agyppten und Vorderasien im Altertum** (Munchen, 1950).
(9) S Lloyd & Fuad Safar, "Tell Hassuna" . in JNES, IV (1945), **Sumer,** I (1945) , vol VI (1950), 93 ff
(10) E Herzfeld, **Die Ausgrabungen von Samarra** vol V (Berlin, 1930), Braidwood et al in JNES, vol. III (1944)
(11) A.L. Perkins, **The Comparative Arachaeology of Early Mesopotamia** (1949) ; Moortgat in **Der Alte Orient** (1945)
(12) M. von Oppenheim, **Tell Half** (Berlin, 1943).
(13) M.E L. Mallowon & Rose, **Prehistoric Assyria. Excavations**

at Tall Arpachiyah, 1933 (**Iraq** vol II 1935)
(14) R C Thompson, **The British Museum Excavations at Abu Shahrain in** 1918
(15) Woolley, **Excavations at Tell El Obeid, Antiquity Journal** IV (1924)
(16) Hall & Woolley, **Ur. Excavations, I Al-'Ubaid** (1927)
(17) **Sumer** I (1945), III (1947) P 3, PP. 43, 84 ff , 219 ff , ILN, 3, May (1947) **Sumer,** IV (1948), 115 ff vol. V (1949), 97 ff. VI (1950), 27 ff.
(18) H De Genouillac, **Fouilles de Telloh,** I (1934), Parrot, **Tello** (1948).
(19) A J Tobler, **Excavations at Tepe Gawra,** II (1950)
(20) Speiser, **Excavations at Tepe Gawra.**
(21) UVB, I, (1930) 2 (1931), 3 1932) 4 (1933), 5 (1934) 6, (1935), 7 (1936), 8 (1937), 9 (1938) 10 (1939) 11 (1940)
(22) Falkenstein, **Archaische Texte aus Uruk** (1936)
(23) Field **Museum Anthropology Memoirs,** I
(24) Mackay, **Report on the Excavations at Jemdet Nasr** (1931)
(25) Field & Martin, **Painted Pottories from Jemdet Nasr** (1935)
(26) Langdon, **Pictographic Inscriptions from Jemdet Nasr** (1928)

الفصل الخامس والسادس

(1) André Parrot, **Archeologie Mésopotamienne,** 2 vols (1946 1953)
(2) Julius Levy, "Studies in the Historic Geography of the Ancient Near East" in **Orientalia** 21 (1952), 265 ff
(3) G M Lees & N L Falcon, "The Geographical History of the Mesopotamian Plain" in **Geographical Journal,** vol CXVIII, Part 1, March (1952)
(4) **Cambridge Ancient History,** vol I
(5) Frankfort et al, **Presargonic Temples** (1942)
(6) Frankfort, **Archaeology and the Sumerian Problem** (1932) 1932)
(7) André Parrot, **Archéologie Mésopotamienne,** vol II (1953) PP 308 ff

(8) Gelb, **Hurrians and Subarians** (1944).
(9) E. Speiser "Hurrians and Subarians" in Jour. of Amer. Orient. Society (1948)
(10) G Childe, **New Light on the Most Ancient East** (1952)
(11) Frankfort, **The Birth of Civilization in the Near East.**
(12) Braidwood, **The Near East and the Foundations of Civilization.**
(13) Deimel, "Die Sumerische Tempelwirtschaft . " in **Analecta Orientalia,** II (1931)
(14) A Schneider, **Die Sumerische Tempelstadt,** (1920)
(15) Frankfort, **Kingship and the Gods.**

مراجع عامه عن تاريخ العراق بوجه عام (من الفصل السابع فما بعد)

(1) Olmstead in **the Amer. Jour. of Sem. Lang and Lit,** vols XXXIII, 283 ff. , XXXV, 65 ff , xxxvi, 120 ff , xxxvii, 212ff, xxxviii, 73 ff
(2) W L King, **Sumer and Akkad** (1910)
(3) . . .. , **History of Babylon.**
(4) Olmstead, **History of Assyria** (1923)
(5) S Smith, **Early History of Assyria** (1928)
(6) **Cambridge Ancient History** (1923), vol I—III
(7) "Assyrien", "Babylonien" in **Reallexikon der Assyriologie,** vol I
(8) Lukenbill, "The Last Centuries of Babylon History in **Amer. Jour. of Sem. Languages and Litratures,** vol 42, 280 ff
(9) Breasted, **Ancient Times.**
(10) Hall, **Ancient History of the Near East** (1939)
(11) Will Durant, **The Story of Civilization. Our Orintal Heritage** (1942)
(12) G Contenau, **Manuel d'Archéologie Orientale** vols I—IV (1927 — 1947).
(13) Hrozny, **Histoire de l'Asie Antérieure** (1947)
(14) Jastrow, **The Civilization of Babylonia and Assyria** (1915)
(15) Dlaporte, **Babylonian and Assyrian Civilization** (1925)
(16) Meissner, **Babylonien und Assyrien,** 2 vols (1920 — 24)

(18) Carelton, **Buried Empires** (1939)
(19) E Meyre, **Geschicnte des Altertum** (1926)
(20) Scharff & Moortgat, **Egypten und Vorderasien.**
(21) Von Soden, **Der Aufsteig der Assyrerreiches** (1937)
(22) Brockelmann, **Grundriss der Vergleichenden Grammatik der Semitischen Sprachen.**
(23) J W Swain, **The Ancient world. Empires and City — States of the Ancient Orient and Greece Before 334 B.C.**
(24) Rostovitzeef, **History of the Ancient World** (1930)
(25) Olmstead, **History of the Achaemenian Empire.**

الفصل الثانى عشر والثالث عشر (الديانة)

المراجع العامة المذكورة بوجه عام ولا سيما رقم ١٥ ، ١٦ والمصادر الخاصة الآتيـــة :ـ

(1) E Dhorme, **Les Religions de Babylonie et d'Assyrie** (1945)
(2) Frankfort, **Kingship and the Gods** (1948).
(3) S H Hooke, **Babylonian and Assyrian Religion** (1953).
(4) Frankfort, Jacobsen *et al*, **Intellectual Adventure of Early Man.**
, **Before Philosophy** (1951)
(5) Jastrow, **The Religion of Babylonia and Assyria** (1898)
(6) Frankfort, **The Problem of Similarity in Ancient Near East** (1950)
(7) Gaster, **Pitual, Myth and Drama in the Ancient Near East** (1950)
(8) K Tallqvist, **Akkadische Götterepitheta** (1938)
(9) A Deimel, **Pantheon Babylonicum.**
(10) L W King, **Babylonian Magic & Sorcery** (1896)
(11) C Thompson, **Semitic Magic** (1908)
(12) Pallis, **The Babylonian Akitu Festival** (1926)
(14) Thureau - Dangin, **Rituels Accadiens** (1921)
(15) C J Gadd, **Ideas of Divine Rule in Ancient East** (Schweich Lectures, 1945)
(15) S Langdon, **Babylonian Menologies and the Semitic Calendar** (Schweich Lectures, 1933)

(16) G. Meier, **Die Assyrische Beschwörungssammlung Maqlu** (1937)

(17) F R Kraus, **Die Physiognomischen Omina der Babylonier** (1935)

(18) Contenau, **La Magie chez les Assyriens et les Babyloniens** (1947)

(19) Fossey, **La Magie Assyrienne** (1902)

(20) Muller, **Das Assyricsh Ritual** (1937).

(21) E Behrens, **Assyrische Babylonische Briefe kultischen Inhalts** (1906)

(22) R Campbell, **The Devils and Evil Spirits of Baby'onia.**

(23) E Ebeling, **Tod und Lehen nach den Vorstellungen der Babylonier** (1931)

(24) M Jastrow, **Die Religion Babyloniens und Assyriens** (1912)

(25) Luckenbill, **"The Temples of Babylonia and Assyria"** in AJSL, XXIV, 291 ff

(26) Zimmern in **Zeitschrift für Assyriologie,** XXXIX (1930),

(27) Price, "Some Observations on the Financial Importance of the Temple in the I Dynasty of Babylon", in AJSL, XXXII, 250 ff

(28) Luckenbill, "The Temple Women", in AJSL, XXXIV, 1 ff

(29) Frankfort et al, **The Gimil - Sin Temple.**

(30) Andrea, **Das Gotteshause,** (1930)

(31) Delougaz & Lloyd, **Pre-Sargonic Temples in the Diyala Region.**

(32) Delougaz, **The Oval Temple.**

(33) Meissner, **Bab. & Assyr.** II, 72 ff

(34) V Muller, in JAOS (1940), 151 ff

(35) A. L Oppenheim, "The Significance of the Temple in the Ancient Near East", in **Biblical Archaeology** vol 7 (1944), 54 ff

(36) E D Van Buren, "Foundation for a New Temple" **in Orientalia,** vol. 21 (No 3), 1952), 293 ff

(37) H Lenzen, "Die Entwicklung der Ziggurat" in **Zeit. für Assyriologie,** vol 48 (1944), 238 ff

(38) Parrot, **La Tour de Babel et les Ziggurats** (1949)

(1) Driver & Miles, **The Assyrian Laws** (1935)
(2) . . . . , **The Babylonian Laws,** 2 vols (1952)
(3) S N Kramer, "Ur — Nammu Law Code" in **Bull. of Un. Museum,** vol 17, No 2
(4) E Szlechter, "Apropos du Code d'Ur-Nammu" R A, 47 (1953), 1 ff
(5) Steele, "Libit - Ishtar Law - Code" in **Amer Jour. of Archaeology** vol L II (1948)
(6) Archiv Orientalni, XVIII, 1—2 (1950), 525 ff. vol XVII (1948)
(7) Sumer, III2 (1947), IV (1948)
(8) Koschaker, "Cuneiform Laws" in **Ecyclopaedia of Social Sciences** IX, 213 ff.
(9) Harper, **The Law Code of Hammurabi.**
(10) Kohler und Ungnad, **Hammurabi's Gesetz.**
(11) Deimel, **Codex Hammurabi (1930).**
(12) W Eilers, **Die Gesetz Stele Hammurabis** (1932).
(13) P Gruvilhier, **Introduction au Code de Hammurabi** (1938)
(14) A van Praag, **Droit Matrimonial Assyrio-babylonien** (1945)
(15) Schorr, **Urkunden des altbabylonischen Zivil - und Prozessrechts** (1913)
(16) M David, **Die Adoption in altbabylonischen Recht.**
17 A Walther, **Das altbabylonische Gerichtswesen.**
(18) M David & E Ebeling, **Assyrische Rechtsurkunden.**
(19) Kohler & Ungnad, **Assyrische Rechtsurkunden.**
(20) Koschaker, **Babylonisch - Assyrisches Bürgschaftsrecht.**
(21) L Waterman, "Business - documents of the Hammurabi Period" in AJSL, XXIX, 145 ff , 288 ff
(22) Kohler & Peiser, **Aus dem Babylonischen Rechtsleben.**
(23) É. Cuq **Études sur le droit Babylonien, les lois Assyrien et les lois hittites.**
(24) W Eilers, **Gesellschaftsformen in altbabylonischen Recht.**
(25) D H. Muller, **Die Gesetze Hammurabis und ihr Verhaltnis zur Mosaischen Gesetzgebung** sowie zu den XII Tafeln.
(26) S Oettli, **Das Gesetz Hammurabis und die Thora Israels.**

(27) Ebeling, **Keilschrifttexte aus Assur Jurisdischen Inhalts.**
(28) Pohl, "Neubabylonische Rechtsurkunden" in **Analecta Orientalia,** 8.

• الفصل الخامس عشر (المعارف اللغويه والتأريخية والجغرافية)

(1) J J Gelb, **A Study of Writing** (1952)
(2) G. Contenau, "Les Débuts de l'Ecriture Cunéiform et les Monuments figurés in **Rev. d. Etudes semt. et Baby.** 1940, 56 ff.
(3) C. R. Driver, **Semitic Writing** (Schweich Lectures 1940)
(4) R. Labat, **Manuel d'Épigraphie Akkadienne** (1952)
(5) A David, Remarques sur l'Origin de L'écriture Sumerienne" in **Archiv Orientäini,** XVIII, No. 3 (1950)
(6) W Wright, **Comparative Grammar of the Semitic Languages** (1890)
(8) G Ryckmans, **Grammaire Accadienne** (1944)
(9) King, **First Step in Assyrian.**
(10) Delitzsch, **Assyrische Lesestücke.**
(11) A. Poebel, **Grundzüge Sumerischen Grammatik** (1923) Gadd, **Sumerian Reading Book** (1924)
(12) Jestin, **Le Verbe Sumerien** (1946)
. ..., **Abrégé de grammaire Sumérienne** (1951)
(13) Falkenstein, **Grammatik der Sprache Gudeas von Lagash,** 2 vols. (1949 — 1950)

حول اباب العلامات المسماريه (Syllabaries)

(14) Luckenbill, "The Chicago Syllabary" in AJSL, XXXIII, 169 ff **ibid.** XXXVI, 154 ff , XXXVIIII, 153 ff
(15) CT (Cuneiform Texts of the Brit. Museum), vols. XI, Pls 1—13, 14 — 28, 29—41 vol XII, XXXV, Pls. 1—8
(16) **Reveue d'assyriologie,** XXVIII, 117 ff , 147 ff
(17) L Matoush, **Die lexikalischen tafelserien der Babylonier und Asyrier** I-II (1933)
(18) Van der Meer, **Syllabaries A,B, from the Herbert Weld Collection (1938).**
(19) Landsberger, **Ana ittishu** (1937).

(20) Meissner "Dritte Tafel der Serie Harrahubbullum" in MVAG (1913).

(21) Landsberger, **Die Fauna des alten Mesopotamie nach der 14. Tafel der Serie HAR-RA hubullu** (Leipzig, 1934), **See also Jour. Ner East, Studies,** IV, (No 3, 1945), 152 ff

عن طرق تأريخ الحوادث

(22) Jacobsen, **The Sumerian King List,** 147 ff

(23) S. Langdon, **"The Sumerian word for year and Origin of The Customs of Dating by events"** in R A, XXXII, 13 ff

(24) "Datenlisten" and "Epcnymen" in **Reallexikon der Assyriologie,** II

(25) A B Mercer, **Sumero — Babylonian Year Formulae** (1946).

(26) Van der Meer, **Chronology of Western Asia** (1947).

(27) Taha Baqir, "Date - formulae of Ishbi - Irra" in **Sumer,** IV, (1948)

....., **"Date - Lists and Date - formulae from Tell Harmal"** in **Sumer,** V (1949)

عن المعارف اللغوية والأرخيه والجغرافيه

(28) Meissner, **Babylonien und Assyrien** II (1925) 324 ff

(29) Jacobsen, **The Sumerian King List.**

(30) E F Weidner, "Die grosskonigliston aus Assur" in A F O, 3 (1926), 66 ff

(31) Kraus, "Zur Liste der âltesten Konige von Babylonien" in **Zeit. fur Assyriologie** 16 (50) (1952), 29 ff

(33) A. Poebel, "Khorsobad King - List" in **JNES** (1942)

(34) O Schroeder, **Keilschrifttexte aus Assur Verschiedenen Inhalts,** No. 10—12, 182,26.

(35) **Mitt. der Vorderas. Gesell.,** XXVI, 2, 11 ff

(36) **Beitrage zur Assyriologie,** II, 205 ff

(37) **Cuneiform Texts** (in the Brit Museum), XXXIV, 44

(38) Rawlinson **Cuneiform Texts** II R, 50, 53 No 2 IV, 36, No. 1, Ct. XXII, 48—49

(39) Goetze in J C S, VII, 2 (1953)

(40) W F Albright, "Babylonian Geographical Treatise on

Sargon of Akkad Empire" in **Jour. of Amer. Orient. Soc.** vol. (45), 193 ff.

(41) Thompson J. Oliver, **History of Ancient Geography** (1948)

(42) L W. King, **Chronicles Concerning Early Kings of Babylonia.**

الفصل السادس عشر (العلوم الرياضية والطبيعية)

(1) E. T. **Bell, The Development of Mathematics** (1945)

(2) Thureau - Dangin, **Mathématiques Babyloniens** (1938)

(3) O. Neugebauer, **Mathematische Keilschrifttexte** 3 vols

(4) O. Neugebauer & A. Sachs, **Mathematical Cuniform Texts** (1945).

(5) Neugebauer, **The Exact Seiences in Antiquity** (1950).

(6) Hilprecht, **Mathematical, Metrological and Chronological Tablets.**

(7) Barton, "On the Babylonian Origin of Plato's Nuptial Number" in **Jour. of Amer. Orient Soc.** 29, 210 ff.

(8) Thureau - Dangin in **Revue d'Assyriologie,** XXIX, 1 ff, 22 ff, 59 ff XXV, 115 ff, XXVI, 43 ff, xxxi, 61 ff, xxxii, 188 ff, xxviii, 195 ff,

(9) H Lewy, "Studies in Assyrio-Babylonian Mathematics" in **Orientalia,** 18 (1949), 40 ff

(10) Taha Baqir in **Sumer,** VI, 1—2 (1950), VII, (1951)

(11) Drenkhahn in ZA, 16, (50) (1952) 151 ff

(12) Bruins in **Sumer,** VIII, IX

(13) P Luckey, "Beitrage zur Erforschung der Islamischen Mathematik", **Orientalia,** 22, No 2 (1953, 166 ff

(14) Van der Waerden, "Babylonian Astronomy" in JNES, vol x (1951), 20 ff

(15) CT, XXXIII, Pls. 1—9, 10—12.

(16) Thureau - Dangin in **RA,** XXVIII, 85 ff

(17) O. Neugebauer, "The History of Ancient Astronomy-Problems and Methods" in **JNES,** IV (1945), 1 ff.

(18) O. Neugebauer in **Jour. of the Cuneiform Studies,** II - 3

(19) A Sachs in **ibid.** VI, No. 4, 146 ff.

(20) A-T-Olmstead in AJSL, LV (1938), 113 ff

(21) R.C. Thompson, **Assyrian Herbal** (1924).
(22) . ... , **Dictionary of Assyrian Botany** (1949).
(23) .. .., **Dictionary of Assyrian Chemistry and Geology.**
(24) Gadd, & R C. Thompson, "A middle - Babylonian Chemical Text" in **Iraq,** III, 87 ff.
(25) G Contenau, **La Médecine en Assyrie et en Babylonie** (1938).
(26) Kuchler, **Assyr. Bab. Medizin.**
(27) Lutz in AJSL, XXXVI, P 67 ff . . .
(28) R C Thompson, **Assyrian Medical Texts** (1923)
(29) Meissner, **Babylonien und Assyrien,** II, 28 ff
(30) **Fossey in Revue d'Assyriologie,** 40 (1945-6), 109 ff 113ff
(31) S H Ernest, **A History of Medicine.**

الفصل الســـــابع عشر (الدولة والمجتمع) (تنظر المراجع الخاصة بالشرائع والتاريخ العام) •

(1) H Frankfort, **Kingship and the Gods** (1948)
(2) R Labat, **Le Caractère religieux de la Royauté Assyro - Babylonienne** (1939)
(3) C J Gadd, **Ideas of Divine Rule in the Ancient East** (Schwich Lectures, 1945)
(4) Meissner, **Babylonien und Assyrien,** vol I
(5) Jacobsen, "Primitive Democry in Ancient Mesopotamia" in JNES, II (1943), 159 ff
(6) I, Engnell, **Studies in Divine Kingship in the Ancient Near East** (1943)
(7) E D van Buren, "The Sacred Marriage in Early Times in Mesopotamia", **Orientalia,** XIII (1944).
(8) Luckenbill, **Ancient Records of Assyria.**
(9) E D van Buren, "Hamage to a Deified King" in **ZA,** 16 (50) 1952, 92 ff
(10) G Contenau, **Everyday Life in Babylon and Assyria** (1954)
(11) L J Heuzey, **Histoire du Costume dans l'Antiquité Egypte, Mesopotamie (Paris, 1935).**
(12) Mendelsohen, **Slavery in the Ancient Near East** (1949)

(13) A.L. Oppenheim in **Bullt of Amer. Soc. of Orient. Research,** No. 93 (1944), 14 ff

(14) P. Koschaker, "Eheschliessung und Kauf nach Alten Rechten" in **Archiv Orientálni,** XVIII (1950) 210 ff

(15) A. van Praag, **Droir Matrimonial Assyrio - Babylonien** (1945)

(16) Brooks, "Some Observations Concerning Ancient Mesopotamian Women", in **AJSL,** XXXIX 187 ff

(17) C H Gordon, "The Status of Woman as Reflected in the Nuzi Tablets" in **Zeit. für Assyriologie,** 43 (1936), 146 ff

(18) M. David, **Die Adoption in Altbabylonischen Recht** (1927).

(19) L Oppenheim, **"Orientalia,** 14 (1945), 239 ff

الفصل الثامن عشر (الحياة الاقتصادية) (تراجع المراجع التاريخيـــة السـاقة وبوجه خاص المراجع الخاصة بالشرائع) •

(1) G Contenau, **Everyday Life in Baby'on and Assyria** (1954)

(2) N.I. San Nicolo in **Orientalia,** 17 (1948) 273 ff , 20 (1951) 129 ff

(4) A Salonen, **Die Wasserfahrzeuge in Babylonien** (1939)

(4) R J Forbes, **Notes on the History of Ancient Roads.**

(5) . . , **Metallurgy in Antiquity** (1950)

(6) J L Kelso, "Ancient Copper Refining" in BASOR, No 122 (1951) 26 ff

(7) A. H. Quiggin, **A Survey of Primitive Money** (1949).

(8) Sir. W Willcocks, **The Irrigation of Mesopotamia** (1911)

(9) .. ... . , **The Restorations of the Ancient Irrigation Works on the Tigris** (1903)

(10) W. A Macfadyn, **Water Supplies in Iraq** (Geological Department, No 1, 1938)

(11) **Report on the Development of Mesopotamia with Special Reference to the River System** (Simla Government Press, 1917).

(12) A. B. Bucklay, **Notes on the Irrigation in Mesopotamia** (1919).

(١٣) طه الهاشمي «مفصل جغرافية العراق» (١٩٣٠) ومختصر الجغرافيـة (١٩٣٣) •

(١٤) عبدالمطلب ،مين «مبادىء السوق وجغرافية العراق (١٩٤٦)»الدكتور احمد سوسة « تطور الرى فى العراق » (١٩٤٦) ، « وادى الفرات » ١٩٤٤ – ١٩٤٥ .

(15) M G Ionides, **Regime of the Tigris and Euphrates** (London, 1937).

(17) **Hand Book of Mesopotamia** (Great Britain Naval Staff, 1918).

(18) F E Cole, **Dust Storm in Iraq** (1938)

(19) Buxton et al "**Survey of Iraq Fauna** (by the members of Iraq Expeditionary Force 1915—1919" **Jour. Bomby Natural History Soc.,** Nos 27, 28, (1920—1922).

(20) E Gusst, **Notes on Trees and Shrubs of Lower Iraq** (Department of Agriculture, No 26, 1932)

(21) Lane, **Babylonian Problems** (1921)

البساتين والزراعة

(22) Andrea, "Die Kultische Garten" in **Welt des Orient** (1953), 485 ff

(23) V H W Dowson, **Dates and Date Cultivation of Iraq,**

(24) A H Pruessner, "Date Culture in Babylonia" in **AJSL,** XXXVI 213 ff.

(25) H Danthine, **Le Palmier - Dattier et les Arbores sacres** (1937)

(26) R C Thompson, **Dictionary of Assyrian Botany** (1947), P 308 ff

(27) , in JRAS (1923), 233 ff

الفصل التاسع عشر (الفنون)

١ – الادب :

(1) J B Pritchard, **Ancient Near Eastern Texts** (Princeton, 1950)

(2) Alexander Heidel, **The Epic of Gilgamesh** (1947).

(3) ... . . . , **The Babylonian Story of Creation** (1951)

(4) S. N. Kramer **Sumerian Mythology** (1944).
(5) Langdon, **Babylonian Wisdom (1924).**

ويجد القارىء فى المراجع الاربعة الاولى أحـــــدث التراجم الى النصوص الادبية كما يجد الاشارات الى البحوث الاصليـــة السابقة وقد ترجمت بعض هذه النصوص الى العربية فليراجعهـــا القارىء فى مجـلة سومر مجلد ٥ جزء ١ و٢ (١٩٤٩) ومجلد ٦ جزء ١ و٢ (١٩٥٠) ومجلد ٧ جزء ١ (١٩٥١) .

٢ ـ الفن

(6) Gardner, **Art through the Ages.**
(7) Woolley, **The Sumerian Art** (1933).
(8) A. Moortgat, **Fruehe Bildkunst in Sumer.**
(9) H Frankfort, **The Art and Architecture of the Ancient Orient** (1954).
(10) ....., **Cylinder Seals** (1937).
(11) E. Borowski, **Cylinders et Cachets Orientaux,** I (1942).
(12) Edith Porada, **Corpus of Ancient Near Eastern Seals in North American Collection of P. Morgan Library** (1948).
(13) Ward, **Cylinder Seals of Western Asia** (1910).
(14) H. R. Hall, **Babylonian and Assyrian Sculpture in the British Museum.**
(15) G. Contenau, **Manuel d'Archéologie Orientale.**
(16) Frankfort, **Ssulpture of the Third Millennium from Tell Asmar and Khafaje** (1939).
(17) ....., **More Sculpture from the Diyalah Region.**
(18) **Ecyclopédie Photographique de l'art, 1,**
(19) Andrae, **Coloured Ceramics from Assur.**
(20) C. J. Gadd, **Stones of Assyria (London,** 1936).
(21) E A W Budge, **Assysian Sculpture in the Brit. Museum** (London, 1914).
(22) L. W. King, **Bronze Reliefs from the Gates of Shalmaneser** (London, 1915).
(23) A. Paterson, **Assyrian Sclupture in the Palace of Sinacherib** (1915).